

عبد الفتاح مقلد القسبي

موسوعة
المعجم العربي

المجلد الثالث

مكتبة مدبوي
القاهرة

A
961
G427m
v.3

موسوعة تاريخ المغرب العربي



بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين
بنى وطاس والسعديين وظهور الأشراف العلويين
دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء الخامس والسادس

LAU - Riyad Nassar Library

20 MAY 2007

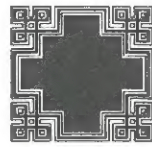
RECEIVED

الناشر : مكتبة مدبولى



الناشر : مكتبة مدبولى
القائى العربى 120373 (3 vols.)

موسوعة تاريخ المغرب العربي

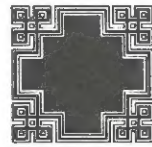


المغرب العربي

بين

بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين

دراسة فى التاريخ الإسلامى



الجزء الخامس

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مدبولي

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ ~ ١٩٩٤ م

RECEIVED
5005 YAM 0 1
JUL 1994

الناشر

مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج ٢ ع

تليفون ٧٥٦٤٢١

التمهيد

إن هذه الدراسة تعالج قضية هامة هي عروبة المغرب ودوره في مجد الإسلام والعروبة؛ فالمغرب حصن الإسلام ودرعها الواقى الحارس للبوابة الغربية للعالم العربى، والذى صان للإسلام مجده وللعروبة عزتها، والذى وقف صامداً يتحدى ويلات الأعداء وعدوانهم ويصد عاديّات الزمن؛ بل إنه عارك الأحداث وعاركنه الأحداث وخرج من كل هذا منتصراً ظافراً شامخاً شموخ جباله العالية وسفوحه الشماء التى تأبى إلا أن تحافظ على الوجه العربى الذى امتد فى أعماق التاريخ أكثر من اثنى عشر قرناً قبل الفتح العربى، فعمر عروبة المغرب أكثر من ثلاثين قرناً من الزمان. لذا .. فقد ثبتت أصالته العميقة فى المجد والشدائد التى مرت عليه وصار الوجه العربى للإسلام بصورته النقية الطاهرة عبر العصور الطويلة ورد كيد الأعداء فى نحورهم عندما حاولوا تشويه صورة العربى المغربى الأصلية وطمس معالمها وتمجيد العنصرية البربرية، والتى ما هى إلا العروبة قبل الإسلام وتلاحم عرب الإسلام مع أبناء عموماتهم عرب ما قبل الإسلام حول الامتزاج للدماء العربية بقبائلها وبطونها وعشائرها. وعلى هذا .. ذاب العرب والبربر أخوة وأبناء عمومة وأصل وتاريخ واحد فى كيان واحد.

ولذا .. فإن تاريخ الإسلام والعروبة فى بلاد المغرب موضوع حيوى لايزال رغم هذه الموسوعة، وما كتب من دراسات حول هذا الموضوع فى أمس الحاجة إلى مزيد من البحث العلمى والموضوعى لتحرى حقيقة ما يقصده كتاب الغرب من التحريض حول البربرية والعربية بغية تمزيق الكيان الواحد ومحاوله طمس وتشويه تاريخ العروبة والإسلام وإخفاء معالم الحقيقة وإحياء العنصرية البربرية لضرب العروبة وعزل المغرب عن أخوة العروبة والإسلام فى الشرق ومنعهم من التلاحم مع أخوة المغرب، وعلى هذا.. فإن من يطالع هذه الأجزاء يدرك أهمية الدراسة فى الربط بين عناصر الأمة العربية الإسلامية، وهل أبناء البربر ما هم إلا عرب ما قبل الفتح الإسلامى!!



إلى ابنتى

مروة وبسمة ..

قرة عينى ومهجة فؤادى ودفء الأيام وحنان الأبوة وقلدة الكبد ورؤية المستقبل البعيد ..

هذا الجزء الخامس من موسوعة المغرب العربى ..

د. عبد الفتاح مقلد الغنيمى

فبربر المغرب ذوو أصول عربية واحدة، فيما عدا أقليات قليلة على الساحل. أما البربر داخل البلاد .. فهم أبناء الفنقيين الذين هاجروا قبل الفتح بعشرة قرون أو يزيد بغية وضع اللبنة الأولى في بناء مغرب العروبة والإسلام بعد الفتح. لقد كان المغرب أصعب منالاً على الغريب لكنه سهل الاندماج مع أخوة العرب؛ فالعادات والتقاليد والقيم والأعراف والتقاليد تطابقت، ومن هنا .. جاء الامتزاج والاختلاط وأصبح الكيان واحداً. لذا .. صار درع وحصن العروبة، وها هي الثقافة العربية الإسلامية، واللسان الفصيح، تتحدى الأقدار، ولم تتخذ الأقدار تحطمت على صخرته الأخطار، وغرقت في مياهه سفن الأعداء ومدافعها. فهو طوال تاريخه الممتد من الفتح الإسلامي حتى عصرنا الحاضر، صامد صمود الأبطال أمام كل محاولات النيل من مقوماته التاريخية والحضارية، ومن هنا خرج ظافراً إسلاماً وعروبة، وصانت عقيدة الإسلام أرضه من كل دنس أجنبي واسترد هويته العربية وحضارته الإسلامية، وكانت عزيمة أبنائه وقوة عريكتهم لاتلين ولا تهزم أبد الدهر.

فتحيةً لأبناء المغرب العربي من حدود مصر الغربية العربية حتى محيط المحيط الأطلسي عرباً وإسلاماً قيما حضارية خالدة أبد الدهر، تتحدى كل كيد يكاد لهذه الديار الطاهرة أرض القيروان، وفاس، وتلمسان، ومراكش، والرباط، وطرابلس، وبرقة، وزويلة، وفزان، ووهران، وتطوان .. وكل مدينة مغربية حتى نواكشوت. تلك الأرض التي استردت أنفاسها متلاحمة مع عروبة المشرق، التي لن يطول الزمن عليها لكي يكون لها مع الأحداث موقف.

وفى هذا الجزء من الموسوعة نرى كيف انفرط عقد الوحدة المغربية أثر سقوط الخلافة الموحدية، ولم يعد هذا العقد وحدة واحدة منذ ذلك التاريخ الوسيط حتى عصرنا الحاضر (اتحاد دول المغرب العربي)؛ بل إن الأقسام التي نشهدها اليوم ما هي إلا تقسيمات قد جرت عبر التاريخ الوسيط. فنجد أن ما يسمى بالمغرب الأدنى ما هو

إلا تونس الحالية، والمغرب الأوسط ما هو إلا الجزائر، والمغرب الأقصى ما هو إلا بلاد المغرب، فكأن الأقدار شاءت أن تقوم هذه الأقاليم مقسمة بين الحفصيين في تونس وبنى زيان في الجزائر وبنى مرين في المغرب الأقصى، وهذا ما سنطالعه في الأبواب والفصول القادمة.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الهادى لصراطه المستقيم، والصلاة والسلام على محمد ابن عبد الله النبى الخاتم، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد

فهذا هو الجزء الخامس من موسوعة تاريخ المغرب العربى الذى نقدمه للقارئ الكريم؛ لأنه صاحب الحكم السديد على ما جاء بهذه الدراسة من مواضيع مختلفة تصب كلها فى قالب واحد هو تاريخ المغرب العربى، وهذا الجزء من الموسوعة يعالج تاريخ المغرب فى فترة من أدق فترات تاريخه الطويل، إذ شهدت تلك الحقبة التاريخية (٦٢٦-٩٨١م) تمزق المغرب الموحد فى ظل الخلافة الفاطمية، والمرابطية، والموحدية إلى ثلاث دويلات لعبت كل دويلة منها دورها فى المغرب .. فكانت دولة الحفصيين فى المغرب الأدنى، ودولة بنى زيان فى المغرب الأوسط، ودولة بنى مرين فى المغرب الأقصى، وقد ظهرت تلك الدويلات على انقاض دولة الموحدين. وقد لعبت كل دولة من هذه الدول دورها السياسى، والعسكرى، والحضارى، والثقافى، والعمرانى بقدر ما أتاحت لها الظروف، وساهمت فى دفع حركة التاريخ نحو الاتجاه الذى تريده كل دولة.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى ثلاثة أبواب، وقسم كل باب إلى عدة فصول كل فصل منها يعالج موضوعاً متمماً للذى قبله ومتصلاً فى حلقة دراسية تؤدى فى النهاية إلى الهدف من وراء تلك الدراسة.

وعالجت فى الباب الأول انهيار دولة الموحدين، وظهور الإمارات الثلاث، وكان الفصل الأول عن كيفية ظهور دولة الحفصيين، وما هى العوامل التى ساعدت على

ظهورها، والفصل الثانى عن الدولة الحفصية فى عهد أبى زكريا عبد الواحد وإعلان استقلالها عن الدولة الأم (الموحدين) فى المغرب الأقصى والفصل الثالث عالجت فيه دور الخليفة المستنصر فى إعلان الخلافة، وبنى حفص، والغزوة الصليبية على تونس، وكذلك الفصل الرابع يعالج موضوع الخلافة الحفصيين الذين حكموا البلاد بين الغزوة الصليبية ودور كل منهم فى أحداث المغرب الأدنى. وكان الفصل الخامس فتحدثت فيه عن سيطرة بنى مرين على تونس وحكم بلاد المغرب الأدنى وجاء الفصل السادس، وهو عن الدولة الحفصية بعد طرد بنى مرين من الديار الحفصية. وكان الفصل السابع عن سلاطين بنى حفص فى ظل الخلافة العثمانية حتى سقوط الدولة. وفى الفصل الثامن تحدثت عن علاقة الدولة الحفصية بالدولة المجاورة لها فيما عدا بنى زيان، وبنى مرين؛ لأن هذه العلاقة جاءت فى نهاية البحث فى فصل خاص. ثم الفصل التاسع والأخير فى الباب الأول، وهو عن مآثر الخلافة الحفصية فى مختلف الميادين.

ثم تحدثت فى الباب الثانى عن ظهور بنى زيان على مسرح الأحداث فى المغرب ودولتهم فى طور التكوين، وتم تقسيم هذا الباب إلى عدة فصول، فيها الفصل الأول عن ظهور الدولة ككيان سياسى، والفصل الثانى عن الصراع مع بنى مرين وموقف بنى زيان من هذا الصراع، وكذلك الصراع مع بنى حفص ومحاولات بنى زيان الإخلال بميزان القوى فى المغرب، وجاء بعده الفصل الثالث ليعالج موضوع الدولة الزيانية فى أوج مجدها، والفصل الرابع عن القبائل العربية ودورها فى بناء الدولة، وفى الفصل الخامس تحدثت عن علاقة الدولة بالدول المجاورة والعلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية. ثم الفصل السادس عن النشاط الحضارى والثقافى والاقتصادى للدولة، وهو يعالج بصمات دولة بنى زيان فى مختلف نواحي الحياة فى المغرب الأوسط، وكانت خاتمة هذا الباب بالفصل السابع، وفيه كان الحديث عن نهاية الأسرة

اليغمراسنية الزيانية على مسرح الأحداث السياسية في المغرب الأوسط.

وثالث أبواب الدراسة عن بنى مرين على مسرح الأحداث في المغرب الأقصى كسابق التقسيم؛ فقد قسم هذا الباب إلى عدة فصول منها الفصل الأول عن بداية ظهور الدولة ومراحل تكوين الدولة، ودور القادة في بناء كيانها، وفي الفصل الثاني كان الحديث عن جهاد بنى مرين في الأندلس والدور الذي قاموا به دون غيرهم في المغرب في تحمل عبء الدفاع عن قضايا مسلمى الأندلس، وفي الفصل الثالث كان موضوع هذا الفصل عن دور البحرية المرينية في تحمل العبء الأكبر في قضايا الأندلس، وحماية سواحل البلاد، وفي الفصل الرابع تحدثت عن المد المريني في المغرب الأوسط والأدنى؛ على حساب بنى زيان وبنى حفص، ومحاولات توحيد المغرب الإسلامي، والفصل الخامس تحدثت فيه عن مظاهر وحكم بنى مرين وإنجازاتهم في المغرب الأقصى في مختلف الأنشطة السياسية والفكرية والحضارية والثقافية وغيرها من المجالات، وفي الفصل السادس قسمته إلى فصلين وإن كان الموضوع واحداً؛ بحيث صار الفصل السادس عن السياسة الخارجية لسلطنة بنى مرين، والفصل السابع عن العلاقات السياسية، والثقافية، والاقتصادية؛ بين بنى مرين وبنى زيان، وبنى حفص الدويلات الثلاث؛ ثم الفصل الثامن عن نهاية الدولة المرينية وسقوطها.

ثم جاءت بعد ذلك **خاتمة البحث**، وهو ما توصلت إليه من نتائج في تلك الأبواب الثلاث بفصولها المختلفة، وفي نهاية النهاية .. كانت قائمة المصادر والمراجع العربية المخطوط والمطبوع منها، كذلك الرسائل الجامعية التي عولت عليها كثيراً لاسيما الرسائل التي كانت تعالج مثل مواضيع الدراسة؛ حيث كانت المدد والعون في ظهور هذه الدراسة إلى حيز الوجود، وقد أعانني كثيراً، وإن كانت لم تؤد الهدف المقصود من وراء تلك الدراسة فيما استدعى بذل الجهد المضاعف بحثاً وراء العديد من الحقائق والمواضع التي لم يصل إليها الباحثون، ولم يعالجوها في دراستهم .. فكانت

تلك الدراسة بهذه الصورة لاسيما أن جميع الرسائل الجامعية، التي اعتمدت عليها لم يحاول دارسوها الاعتماد على المصادر الأجنبية؛ إلا النذر اليسير الذي جاء في رسالة واحدة، ولم يتعد أصابع اليد الواحدة، ومن هنا .. يدرك المرء أهمية الاطلاع والبحث في المصادر الأوربية؛ كي يستطيع أن يخرج بنتائج علمية موضوعية سليمة لاسيما في المواضيع التي كان الطرف الأوربي أحد أطراف الصراع، ورغم صعوبة تتبع كتابات الغربيين الذين كتبوا عن المغرب، والذين عالجوا قضاياهم في رؤيتهم الخاصة؛ إلا أن هذه الدراسة تظهر للعيان مدى تغلغل الإسلام والعروبة التي حاولت السياسة الاستعمارية العنصرية إزالة رواسيها بغية عزل المغرب عن أشقائه في العالم العربي والإسلامي.

وفي ذلك .. فإن هذه الدويلات كانت بربرية الأصل عربية الدماء والعروق إسلامية المنهج والأصالة، ذات ثقافة أصيلة تتم عن مدى امتزاج عنصري الشعب العربي (العرب وأبناء عموماتهم البربر)، في بوتقة واحدة ربطت بين عناصر سكانه وساعدت كثيراً على نشر الإسلام واللغة العربية.

ورغم الجهد الذي بذل في تلك الدراسة إلا أنها ليست القول الفصل؛ فالكمال لله وحده، وأنها قد لا تخلو من النواقص والهفوات.

وأسأل الله أن أكون قد وفيت بعض الدين لقضايا الوطن العربي الإسلامي، لاسيما ذلك الجزء الذي يحرس بوابة العالم العربي الغربية، والذي عارك الأحداث وعاركته الأحداث، حتى انتصر عليها، وها هو شاهد بأن المغرب الأصيل عروبة، والإسلام باقي أبدي الدهر ما طالت الأحداث منه قيد أنملة.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمي

الباب الأول

انهيار دولة الموحدين وظهور الإمارات الثلاث

ليس هناك جدال في أن دولة الموحدين تعتبر من أعظم الدول في التاريخ الإسلامي؛ فلقد بلغت بتاريخ المغرب في تلك الحقبة التاريخية ذروتها، وتمكنت من تحقيق وحدة المغرب بأقسامه المختلفة ممتدًا من برقة شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن سواحل البحر المتوسط إلى مشارف أفريقية المدارية جنوبًا، هذا بالإضافة إلى سيطرتهم على بلاد الأندلس، والتاريخ يشهد بأن دولة الموحدين كانت آخر الدول الإسلامية في المغرب، التي توحدت هذه الأرجاء الواسعة الممتدة من حدود مصر غربًا حتى ساحل المحيط الأطلسي شرقًا؛ تحت سيطرة دولة واحدة، وأن وحدة المغرب لم تقم من ذلك التاريخ حتى وقتنا الحاضر؛ حيث أنه في هذه المساحة الواسعة بلغت الحضارة المغربية أوجًا جديدًا حتى أن عصر الموحدين يعتبر العصر الذهبي في تاريخ المغرب إلا أن نفوذ دولة الموحدين قد تقلص حتى كاد أن يصبح قاصرًا على الأقسام الثلاثة للمغرب من الغرب إلى الشرق مراكش والجزائر وتونس، وهذه الأقسام الثلاثة تبدو أحسن حالًا من دولة المرابطين التي انهارت سواء في الأندلس أو في جنوب الصحراء. أما في مناطق المغرب العربي .. فقد انهارت دولة الموحدين أيضًا بنفس السرعة خلال القرن السادس الهجري الثالث عشر الميلادي إذ أخذ حكام كل من تونس والجزائر في الاستقلال عن الدولة الأم فابتداءً من عام ١٢٢٦م استولت أسرة الحفصيين على تونس واستقلت بحكمها مما أوضح أن الحالة الطبيعية للمغرب هو الانقسام الثلاثي الذي ما زال قائمًا حتى الآن.

أما مراكش فقد ظلت خاضعة لحكم الموحدين لثلاثين سنة أخرى، حتى عام ١٢٦٩م حين استولت عليها أسرة بنى مرين، وهي من قبيلة زناتة، وكانت قد بدأت الحروب الأهلية والمنافسات التي انتهت بقيام حلفائهم القدامى وهم بنو مرين الزناتيون

بدخول مراكش والقضاء على آخر الموحدين عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، وكان على رأس بنى مرين أبو يوسف يعقوب بن عبد الحى الذى ينتسب إلى بنى مرين الزناتيين، وفي هذا التاريخ تنتهى أسرة الموحدين، ويحل محلهم فى المغرب الأقصى بنو مرين.

لقد كان البيت الموحدى فقيراً جداً فى الرجال فلا نكاد نجد موحدياً واحداً ذا قدرة أو كفاية فى إدارة الدولة؛ بل إننا نجد كثيراً من أبناء الدولة مسئولين عن ضياعها وانهيارها، وخاصة أبناء المنصور أبى عبد الله محمد المعروف بالعدل، وأبى العلاء ادريس المعروف بالمأمون، وأبى محمد عبد الله المعروف بالبياسى؛ فهؤلاء الثلاثة أذلوا كيان البيت الموحدى، وخاصة أبو العلاء ادريس المأمون، وهو الذى كان السبب فى أن تعصف الرياح بالبيت الموحدى، وتقصم ظهره؛ حيث أنه كان من الضعف بحيث لم يعد للموحدين أدنى سيطرة على البلاد، وأخذ كل حاكم يستقل بناحيته التى يحكمها، وكان ضعف الموحدين قد شجع بنى مرين، وبنى زيان الزناتيين على العمل على إزالة ملكهم والحلول محلهم، وتمكنت هذه الجماعة القبلية الزنانية من تحقيق أهدافها فى السيطرة على البلاد.

وعادت بالمغرب إلى عصر سيادة زناتة، وهو عصر اتصف بالفوضى والاضطراب والحروب الأهلية، وعدم ازدهار الحضارة الإسلامية وانحراف نظام الحكم عن الطريق السوى. وهكذا انهارت دولة الموحدين أمام هجمات بنى مرين الذين احتلوا العاصمة مراكش فى عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م. وظهرت على أنقاض دولة الموحدين أربع دول مستقلة هى الدولة الحفصية فى تونس عام ٦٢٧هـ/١٢٣٠م، وهى فرع لدولة الموحدين وامتداد لها ثم دولة بنى زيان (عبد الواد فى تلمسان ونواحيها بالمغرب الأوسط عام ٦٢٣هـ/١٢٣٥م، ودولة بنى مرين أو بنى عبد الحق فى فاس، وهى الدولة التى استقلت بالمغرب بعد أن قضت على خلافة الموحدين نهائياً عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م. ومملكة غرناطة، وهى آخر ما بقى للمسلمين من ممتلكات فى إسبانيا، وقد استقل بها الأحمر، أو بنو نصر عام ٦٣٥هـ/١٢٣٨م، وهذه المملكة

الأندلسية لاتدخل في نطاق المغرب العربي، ومن هنا .. فسوف تلقى الضوء على الإمارات الثلاث، التي ورثت عرش الموحدين في المغرب وظلت تحكم هذه البلاد حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي العاشر الهجري.

وقد ساعد على انهيار مملكة الموحدين ما انتهت إليه من اضطراب نتيجة صغر سن السلاطين وانصرافهم عن تطبيق الشريعة الإسلامية واستئثار ذوى قرباهم بالنفوذ واستقلالهم من أجل مصالحهم الخاصة مما ساعد على ازدياد حدة الثورات الداخلية التي لاحقت الخلفاء الموحدين مما اضطرتهم إلى حكم استبدادي قائم على القتل وسفك الدماء، ومن ثم .. سارت الأمور على هذا النحو من الضعف الذي أدى إلى نهاية الدولة بالصورة التي انتهت إليه، وهكذا .. كان ضعف السلطة الموحدية في المحافظة على الدولة في المغرب والأندلس قد أدى إلى ظهور هذه الزعامات المحلية التي استقلت في أماكنها بالمغرب وأقامت دولاً لعبت دوراً لا يماثل الدولة الموحدة الواحدة دولة الموحدين.

وعلى أية حال فقد انفرط عقد الغرب العربي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وغابت شمس امبراطورية البربر إذ اضمحلت دولة الموحدين، وحلت بالتدريج محلها الدول الثلاث السابق الإشارة إليها، وقد حاولت كل دولة من هذه الدول الثلاث أن تبسط نفوذها على كل المغرب مباشرة، وتأسيس دولة كبيرة على نمط الموحدين. ولم تعترف هذه الدول بعضها البعض بالاستقلال فاستمرت الحروب فيما بينهم وربما وقعت الحرب بين الأمراء المرشحين للحكم في الدولة الواحدة، ولتقارب القوى الحربية والسياسية لكل منهم لم ينحسم النزاع.

ولقد كانت دولة الحفصيين أسبق الدول الثلاث ظهوراً، وأوسعها انتشاراً؛ حيث أعلن عن تكوينها رسمياً عام ١٢٢٧م، واستمرت دولة مزدهرة حتى عام ١٥٧٤م؛ بفضل سهول تونس الزراعية، وتجارتها مع جنوب أوروبا والسودان، وقد اتسع نفوذ هذه الدولة فامتد من طرابلس شرقاً إلى عنابة غرباً.

ومهما يكن .. فإن دولة الموحدين تمكنت من مواصلة العمل المجيد الذي بدأه المرابطون من إقامة صرح الحضارة المغربية؛ فقد حفل القصر الموحدى بالعديد من المشروعات وخلقت بعدها حضارة زاهرة وكانت دولة مميزة وأن تلك الدولة تدهورت قبل الأوان ولم تصل إلى غايتها ورغم كل هذا فقد فشل الموحدون في ذلك الوقت في نشر مفهوم مضمون الدولة والحياة الحضارية بين القبائل البربرية والعربية العديدة، وخصوصاً أنهم كانوا دائبين على التمييز في جميع مجالات النشاط بين قبائل مصمودة وزناتة من جهة وبين باقى قبائل البربر من جهة أخرى وكان هذا الفشل معناه ضعف مقاومتهم الشديدة للبدو المستمر من جهة ولاحظ ازدياد القوة الأسبانية المعادية ولتفادى ذلك قسم الموحدون حكومة امبراطوريتهم مع أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر إلى قسمين شرقي وغربي حيث أعطوا للحفصيين حكم الجزء الشرقي من الأمبراطورية في تونس .

ولقد استطاع الموحدون أن يصدوا تيار الجماعات البدوية المتدفقة عليهم وأن ينجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً ولكن الحروب ضدهم زادت حدتها بعد تخطيط وحدة المغرب ومن ثم أخذ الجزء الغربي من المغرب العربي يقاسى من جراء هزيمته من أسبانيا عام ١٢١٢ هـ في موقعة العقاب ومن ثم سيطرة قبائل زناتة على المداخل الشرقية لمراكش في حين أصبحت تونس تحت حكم الحفصيين لجزء مستقل عن بقية أجزاء المغرب العربي واستقلت بأفريقية .

أما عن دولة بنى عبد الواد (بنى زيان) فقد ظهرت في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي واتخذت من تلمسان حاضرة لها وقد ازدهرت هذه المدينة في هذه الفترة إذ كانت مركزاً ثقافياً ولم تحكم دولة بنى زيان سوى الجزء الغربى مما يقابل الجزائر حالياً وقد كانت هذه الدولة مطمع حكام تونس (بنى حفص) والمغرب الأقصى (بنى مرين) كما كانت مدنها الساحلية تكون جمهوريات مستقلة أشبه بالجمهوريات القائمة على السواحل المواجهة لاطاليا ومن ثم فقد أدى هذا التفكك إلى طمع

الصقليين في الجزائر فغزوا بعض مدنها الساحلية واحتلوها فترة خلال القرن الرابع عشر ولم تحقق الجزائر وحدتها الإقليمية الا في العهد العثماني .

ومما هو جدير بالذكر أنه كان بين سكان هذه الدولة بعض القبائل الزنانية التي كانت تمثل عناصر رعوية ترعى الماشية غير عابئة بثناء تونس في الشرق ومراكش في الغرب على السواء .

وأما في المغرب حيث المغرب الأقصى فعاصرت الدولتان السابقتان دولة بني مرين التي ينتمي قادتها الى قبيلة رناتة البربر وقد بدأ ظهورهم في جنوب مراكش في بداية القرن الثالث عشر ثم انتشر نفوذهم الى فاس ومكناس واخيرا استولوا على مدينة مراكش عام ١٢٦٩ م وقد ورث المرينيون بحكم موقعهم الجغرافي تقاليد سياسية الموحيدين في الأندلس القائمة على تقديم المساعدات للمسلمين هناك وللأسف فقد دب الخلاف بين المرينين ودولة بني الأحمر حول تملك بعض الموانئ على شاطئ الأندلس مما عرض مراكش لغزو الدول المسيحية ولا سيما بعد أن سقطت سبتة في أيدي البرتغاليين عام ١٤١٥ م .

وهكذا ورثت هذه الدول الثلاث عرش الموحيدين الذي كان يحكم هذه البلاد من عاصمة واحدة بينما تمزقت الدولة الى ثلاثة عواصم في تونس وتامسان وفاس .

* * * *

الفصل الأول

كيف ظهرت دولة الحفصيين

كانت وفاة الخليفة يعقوب المنصور الموحدى عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م قد أثارت حزنا عميقا في الأوساط الإسلامية نظرا للدور الكبير الذى لعبه في حركة الجهاد الإسلامى في الأندلس الا أنها في نفس الوقت حركت أطماع الطامعين من أعداء الدولة الموحدية من جديد فعاد بنو غانية حكام جزر البليار - ميورقة ، منورقة ، يابسة) الى شن غاراتهم على أفريقية وتونس وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسى جريا على عادة اسلافهم من المرابطين ، كذلك حاول عبد الله بن غانية في عام ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م أن يسترد جزيرة يابسة من أيدي الموحيدين ، الا أن اسطول الموحيدين انتصر عليهم بعد أن اشتبك مع أسطول ابن غانية في معركة بحرية ، وفى عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م استعاد الموحدون مدينة تونس والمهدية من بنى غانية وأحلافهم من عرب بنى هلال ثم أنزلوا هزيمة حاسمة على آخر رجال (بنى غانية وهو يحيى بن أبى اسحاق) واختار الناصر أكبر رجال الدولة الموحدية وهو أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص شيخ قبيلة هنتانة واليا على أفريقية وأطلق يده في تلك الولاية وجعله بذلك واليا مستقلا في ذلك الجزء الكبير من دولة الموحيدين وبدأ أبو محمد عبد الواحد عمله في أفريقية بنصر كبير أحرزه على يحيى بن أبى اسحاق بن غانية المنورقى في اقليم الزاب عام ٦٠٤ هـ / ١٤٠٧ م وكان هذا النصر نهاية دولة بنى غانية وعرب بنى هلال في أفريقية والمغرب الأوسط وتثبيتا لأقدام أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص في أفريقية وبالفعل بدأت دولة الموحيدين تنقسم الى قسمين .

وكان من رأى الخليفة الموحدى أبى عبد الله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور (٥٩٥ هـ / ٦١١ هـ - ١١٩٩ - ١٢١٤ م) أن استقرار نفوذ الموحيدين في أفريقية لن يثبت الا بالإستيلاء على جزر البليار جميعها حيث أنها قاعدة بنى غانية ومصدر

المتاعب التي يواجهها الموحدون في أفريقية لهذا صمم الناصر على السيطرة ونجح الأسطول الموحدى فى السيطرة على هذه الجزر الشرقية أو جزر البليار وقبض على ابن غانية وأرسل إلى مراكش ومن ثم رأى الخليفة الموحدى أن يتبع ملوك بنى غانية فى أفريقية فتحرك اليهم بجيشه وأسطوله عليهم ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده الى صحراء طرابلس ثم رأى الناصر ان استمرار بقاء الموحدين فى أفريقية يتوقف على اقامة حاكم دائم يكون له مطلق التصرف فى ادارتها فاختر لهذا الغرض واليا من أقربائه وهو الشيخ عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى جد الملوك الحفصيين .

وبذلك فانه يمكن القول بأنه من ذلك الوقت انتقسمت دولة الموحدين الى دولتين احدهما الدولة المؤمنية نسبة الى عبد المؤمن بن على فى مراكش ، والحفصية فى تونس نسبة الى أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى شيخ قبيلة هنتاتة المصمودية وأحد القائمين بدولة المهدي ابن تومرت مؤسس حركة الموحدين والخليفة عبد المؤمن من بعده .

فالدولة الحفصية شعبة من دولة الموحدين كما هو واضح من العرض السابق وأنها من أصل الأسرة حيث أن مؤسسها أحد أقارب الخليفة الموحدى الناصر وترجع علاقة الحفصيين بأفريقية أثر الانتصار الكبير على ابن غانية وفراره الى الصحراء عام ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م حينما فوض الخليفة الموحد محمد الناصر أمر أفريقية الى وزيره وصهره الشيخ أبى محمد بن عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى ومنحه جميع السلطات التى تخول له حكما مستقلا بهذه الولاية عن الدولة الموحدية فى مراكش) موقف الخلافة العباسية سابقا من ابن الأغلب فى تونس) وهذا الحديث يعتبر فى واقع الأمر ايدانا بقيام ولاية مستقلة فى أفريقية وتمتعها بالاستقلال التام فى حكم أفريقية بعيدا عن سيطرة الدولة المركزية فى مراكش وعلى هذا فقد استمدت الدولة الجديدة

أطلق عليها المؤرخون (ابن خلدون وغيره) الدولة الحفصية وينتسب الحفصيون الى أبى محمد عبد الواحد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن عليه بن أحمد بن والال بن أدرين بن خالد بن السبع بن الياس بن عمر ابن وافين بن محمد بن نجية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ولأجل هذا النسب الشريف خطب لهم بأمير المؤمنين والناس مصدقين فى انتسابهم والشيخ أبو حفص من قبيلة هنتاتة من قبائل المصامدة وهنتاتة أكثرهم جميعا وهم القائمون بدعوة المهدي بن تومرت والسابقين اليها وأبو حفص أحد العشرة الذين بايعوا المهدي . ولما دخل الناصر بن المنصور أفريقية عندما تغلب على ابن غانية وهزمه الناصر وطرده ورجع الى تونس أراد أن يولى أفريقية من يقوم مقامه فوقع اختياره على الوالى عبد الواحد وكان رحمه الله عالما فاضلا ذكيا فطنا شجاعا محسنا .

وتوفى أبو محمد عبد الواحد عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م فخلفه ابنه أبو عبد الله ابن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص وفى ربيع ثانى عام ٦٢٣ هـ ابريل ١٢٢٦ م أصدر أبو العلاء ادريس المأمون تاسع خلفاء الموحدين (٢٢٦-٦٢٩ هـ / ١٢٢٩-١٢٣٢ م) أمرا باقامة أبى عبد الله محمد بن عبد الواحد واليا على أفريقية وجعلها دائمة فى أهل بيته ، فسار الى تونس (أفريقية) مع أخويه أبى زكريا يحيى وأبى عبد الله اللحيانى . ويمكن اعتبار ذلك التاريخ ميلادا للدولة الحفصية فى أفريقية وبنو حفص هم الذين اتخذوا تونس عاصمة لأفريقية ولكن أول من استقل بأفريقية هو أبو زكريا .

ولما استتب الأمر لبنى حفص بأفريقية وكان شأن الجالية الأندلسية عظيما فى البلاد فقد قدم الى تونس أهل البيوتات وكان فيهم من شغل مناصب هامة فى الأندلس مثل بنى سعيد أصحاب القلعة بجوار غرناطة وكذلك بنى الحسن فرحب بهم

بنو حفص وجعلوا لهم النظر في الانتقال كما كان لهم بالأندلس وسيظل أبو حفص عمر الهنتاتي الشخص الثاني للدولة الموحدية خاصة وهو رئيس قبيلة هنتاتة أقوى قبائل المصامدة اذ ذاك ويرث أولاده مكانته وقد لقب أبو حفص بالشيخ وأهل بيته بالأشياخ بل لقب بالشيخ الجليل وكان هو كبير الدولة الحفصية .

وكان أحد أبناء أبي حفص الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص الذي قام بدور كبير في خدمة الدولة الموحدية في عهد الناصر الموحدي وعبد الواحد هذا هو الذي استعان به الناصر ليقضى على الثائر المرابطي ابن غانية بعد أن تمكن من ان يسيطر على أجزاء كبيرة من أفريقية ولم يجد الخليفة الموحدي بدا من مواجهة خطر بني غانية الداهم فاضطر الى الخروج الي أفريقية عام ٦٠١ هـ واستطاع هزيمة يحيى بن غانية هزيمة قاسية ولم ينجح الا فى الهروب ومعه أهله من انتقام الموحدين الى الصحراء .

وقد قام الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص بدور كبير فى مقاومة هذا الثائر المرابطي وبعد أن اطمأن الناصر الى حدود أفريقية ، فكر فى ايجاد حل نهائى للقضاء على أسباب الخطر والاضطراب ويعيد الى أفريقية الهدوء وهو الذى تحتاج اليه السلطة المركزية فى مراكش ووجد الناصر أن أفريقية فى حاجة الى حاكم قوى حيث أن افريقية تقع بعيدة عن مراكش مقر السلطة المركزية ، فاختر الناصر الشيخ عبد الواحد لهذه المهمة وقد لجأ اليه الموحدون ليحمى أفريقية من عبث العابثين من بني غانية ولقد كانت براعة الشيخ عبد الواحد العسكرية بحيث يمكن القول بأن الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن حفص كان هو الرجل المناسب لتولى هذا المنصب الهام وذكر المراكشى أن الناصر عزم على الرحيل الى المغرب فنظر فيمن يوليه أفريقية فوقع اختياره على وزيره الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص فعقد له ذلك عام ٦٦٣ هـ ولقد رفض عبد الواحد هذا المنصب كثيرا وذلك لأن بني حفص يتطلعون

ويطمعون فى مركز الخلافة وربما يكون عبد الواحد قد نظر الى مراكش والدعوة الموحدية .

ومهما يكن من أمر فانه يمكن اعتبار ولاية عبد الواحد على أفريقية مرحلة من مراحل نشأة الدولة الحفصية التى سارت بعد ذلك خطوتين أخريين فى عهد أبي زكريا وابنه المستنصر حتى استقامت دولة الخلافة ومما يؤكد أن هذه الولاية هى المرحلة الأولى للوجود الحقيقى فى افريقية استقرار الشيخ أبي محمد عبد الواحد بها وعدم تأكيده على ضرورة العودة للمغرب والدولة الحفصية ولهذا فان الحفصيين ينتسبون الى عمر ابن يحيى بن محمد بن أبي حفص كبير هنتاتة أعظم قبائل المصامدة وهم السابقون الى القيام بدعوة المهدي بن تومرت مؤسس حركة الموحدين ، وكان عمر هذا أول من تابعه وبايعه ولذا كانت مكانته تلى مكانة عبد المؤمن ولقب بالشيخ وأصبح قائد جيشه وكان اذا خرج عبد المؤمن للحرب استخلفه مكانه وظل أبناؤه يتداولون امارة الأندلس كما كان هو الذى قضى على ثورة ابن غانية فى افريقية وكانت أفريقية مكافأة له لكى يتولى حكمها مستقلا عن مراكش وبعد هذا النجاح المطرد الذى حققه ابن أبي حفص فى القضاء على خطر ابن غانية وبعض عناصر البربر الأخرى للقضاء على هذا الخطر الذى يهدد دولة الموحدين والتى ربما يعود نشاط الأعداء المسيحيين من جديد اضافة الى بدو وبربر وسط المغرب وفى سبيل درء هذين الخطرين قسم الخليفة الناصر حكومته فعين واحدا من الحفصيين وهى واحدة من أبرز العائلات التى ظهرت بين الموحدين ليحكم شرق الخلافة الموحدية من تونس . ولسوء حظ الموحدين فان الحفصيين حققوا نجاحا كبيرا فى تفهقر البدو ولكن الحروب ضدهم زادت من تخطم وحدة المغرب .

وهكذا كان تعيين أبي محمد واليا على أفريقية (تونس) من قبل الموحدين ليس تأمينا للحدود الشرقية وصد غارات المعتدين بقدر ما كان أول انهيار وتمزق الدولة اذ أن ولاء بني حفص للدولة الأم فى مراكش لم يدم طويلا ولم تكن العلاقات على

خير ما يرام ذلك لأن النصر الذي حققه الناصر والذي ثبت به حدود الدولة شرقا بانتصاره على بنى غانية والبدو والذي به استعاد سطوة وسيطرة الدولة الى هذه الاقاليم الواسعة لكن استقلال أفريقية عن مراكش كان بداية النهاية للدولة الموحدية فقد أتاح الفرصة للحكام القادمين لكي يعلنوا استقلالهم عن مراكش وقطع كل صلة لهم بالخلافة الموحدية وعلى الرغم من أنهم فرع من المصامدة هذه العصبة المجيدة من حماة الاسلام الا أنه عندما اتاحت لهم أول بادرة في ضعف الدولة في مراكش فانهم سرعان ما أعلنوا استقلالهم .

وكان أول من خرج على سلطة الموحدين وأعلن الانفصال الرسمي والنهائي والتعبية هو السلطان أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصي (٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) وبدأت فترة الدولة كامارة مستقلة في عهد السلطان أبي زكريا ثم تحولت الى خلافة وكان لزكريا علاقة حسنة وطيبة مع امبراطور المانيا فردريك الثاني وقد ساعده ذلك في السعي لتوسيع حدود دولته على حساب دولة الموحدين بأنه أخذ يتطلع الى مراكش العاصمة حيث أنه كان من الحكام الأكفاء وأصبحت تونس تمثل جزيرة مستقرة نسبيا مستقلة عن المغرب وبحلول عام ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م كانت مملكة الحفصيين المستقلة قد قويت شوكتها واستطاعت أن تكون مركز اشعاع حضارى وتجارى فقد أبرمت اتفاقات تجارية مع أوروبا واجتذبت كثيرا من تجارة الصحراء اليها .

وكان تحول الامارة الى خلافة إسلامية في عهد أبي عبد الله محمد (٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م) والذي اتخذ لقب المستنصر بالله وتلقب بالخليفة لعدم التزامه بالخلافة العباسية التي قامت في القاهرة بعد سقوط بغداد على يد التتار والذي تسمى بأمير المؤمنين .

وقد دام حكم أسرة الحفصيين لتونس أكثر من ثلاث قرون اذ أن بداية حكم الأسرة كان عام ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م واستمرت حتى عام ٩٨١ هـ / ١٥٧٤ م .

ويرجع عمر بن يحيى الى أصول عربية قرشية الى نسب عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين ولا يمكن التحقق أو التأكد من صحة ذلك وقد استفاد منه ابناؤه وأحفاده لما قامت الدولة وقد كان أبو حفص عمر من أوائل الذين بايعوا ابن تومرت فاذا طبقنا مقياس الموحدين لتولى الحكم على ابن حفص وجدناه مستحقا لأن يتبوأ مكانة بين أنصار الدعوة وقد احترمت الدولة أبا حفص وجعلته ثالث ثلاثة بعد المهدي وصاحبه عبد المؤمن بن علي . وقد حرص الموحدون على اعطائه لقبا كما أعطت سابقه القابا وتلقب بالشيخ وقد لزمه هذا اللقب طوال حياته . وقد ظل الشيخ أبو حفص مخلصا للدعوة في حياة المهدي وبعد مماته وقد استمر الشيخ أبو حفص على وفائه واخلاصه للدولة ويقدم لها خدماته وقد شارك ابن حفص في مهام الدولة وشارك أبو حفص في قيادة القوات المحاصرة لوهراة وقابس وغيرها من المدن ، ولم يقتصر دور الشيخ أبي حفص في عهد عبد المؤمن على قيادة الجيوش والانتصار في المعارك بل تعداه الى أدوار أخرى فقد كان مستشارا لعبد المؤمن الذي حرص على أخذ رأيه في المشاكل الصعبة .

فها هو عبد المؤمن يلجأ للشيخ أبي حفص لما أراد الخروج الى أفريقية عام ٥٤٢ هـ ولم يكن موقف أبي حفص موقف التابع بل كان يحرص على ابداء رأيه ولو كان مخالفا لرأى الخليفة نفسه ويظهر جليا مدي احترام عبد المؤمن للشيخ أبي حفص واضحا جدا حيث يستخدم نعتا للقب الرسمي للشيخ فيسبقه بالأجل بل يصل أمر هذا الاحترام الى أن يخص عبد المؤمن أبا حفص بابنته فيزوجه أياها .

ولقد ظل الشيخ أبو حفص طوال حياته مع الموحدين شعلة نشاط يخطط ويقود الجيوش فاتحا للمدن ومؤدبا للقبائل . في عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م اغار أبو محمد عبد الواحد على قبائل سليم وغنم أموالهم وأسروا شيوخهم بتونس رهينة ليرغم اتباعهم على الطاعة والتخلى عن مناصرة بنى غانية الذين تولى محمد بن عبد السلام ولي طرابلس مهاجمتهم بجوار جبل نفوسة وسلب عنادهم .

والدولة الحفصية كانت من الدول طويلة العمر قليلة المجد ربما لأنها لم تعتمد على قوة عسكرية ذاتية ولم يكن لها عماد معنوي فقد اعتمدت أساساً على قوة مصمودية قليلة واعتمدت على جند العرب من البادية والبربر والمرزقة من صنهاجة وزنانة وربما كان أقدر أمرائهم أبو زكريا الذي أعلن استقلاله عن الموحيدين وبسط سلطانه على كل أفريقية وطرابلس وخطب له على منابر الجزائر وتلمسان وطنجة ومكناسة وخطب له كذلك بنو وطاس الذين استولوا على فاس بعض الوقت وكانت له عناية بالمنشآت والعلوم والثقافة ويمكن القول أن سلطانه الفعلي كان على أفريقية وأما المغرب الأوسط وطرابلس فكان اسمياً وقصير العمر .

* * * *

الفصل الثاني

« الدولة الحفصية في عهد أبي زكريا بن عبد الواحد »

أزهى عصور الدولة

بعد أن أعلن أبو زكريا أول أبناء الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن يحيى أبي حفص عمر الفتاتى أفريقية كإمارة مستقلة فإنه بدأ في الوقوف ضد الخليفة الموحدى فقام بطرد عمال الموحيدين من أعمالهم وحرهم من البلاد. وقد خطا أبو زكريا خطوة تجاه الخلافة الموحدية عندما أعلن قيام الدولة الحفصية في صورة واضحة قانوناً وأسقط اسم الخليفة المأمون من الخطبة مكتفياً بالدعاء للمهدى والخلفاء الراشدين معلناً بدء استقلال أفريقية عن السلطة المركزية في المغرب الأقصى وبدأ الاستقلال الحقيقي عن الخليفة الموحدى وتلقب أبو زكريا بلقب الأمير وسك النقود والكتب والرسائل بذلك وظل يدعو للمهدى لأنه لم يرد أن يسبق الأحداث، وذلك خوفاً من ظهوره بصورة المعادى للخليفة الموحدى والخارج عن طاعة وسلطة الخليفة، ويكفى فقط أنه أزاله من الخطبة وكان خلعه للطاعة في نفس العام الذي تولى فيه وهو عام ٦٢٧هـ، ويعتبر إعلان البيعة للأمير أبي زكريا في نفس العام نقطة تحول كبرى في تاريخ البيت الحفصى إذ تستطيع أن تؤرخ بها سنة ظهور الدولة الحفصية وأصبحت هناك دولة مستقلة لها شكل قانونى ودستورى وذات حدود ولها أمير بويغ بالإمارة من قاضى القضاة والعلماء ورجال الدين والعامة.

وقد استطاع أبو زكريا الاستفادة من الموقف السياسى المضطرب فى المغرب الأقصى، وما قام به الخليفة المأمون من أعمال منافية للدين والتقاليد والأعراف الإسلامية. وبذلك وضع اللبنة الأولى لبناء وتكوين الدولة الحفصية التى كتب لها أن تعيش ثلاثة قرون ونصف، ولكنه كان عليه الانتظار سبعة أعوام حتى يشعر أن مكانته

قد استقرت تماماً قبل أن ينادى بنفسه حاكماً عام ٦٣٤هـ، واهتم أبو زكريا أن يظهر دولته بمظهر قوى فى أول قيامها فسعى إلى توسيع حدودها فاتجه غرباً فاستولى على قسنطينة وبجاية، وضمها إلى دولته الناشئة وولى العمال على أفريقية من قبله وجعلهم من قرابته وتولى أخوه أبو عبد الله اللحياتى على بجاية، وعين الوزراء والحكام وقبض على وزراء الموحدين ونفاهم خارج البلاد.

وعلى الرغم من ظروف دولة الموحدين ومشاكلها الخارجية والداخلية بعد معركة العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢.. فإن أبا زكريا لم يتقدم إلا إلى ذكر اسمه فى الخطبة مع بيعته الثانية عام ٦٣٤هـ، ولم يفكر فى التلقب بلقب خليفة ولعله نظر إلى وجود خليفة فى المغرب ما زالت له قوة لا يستهان بها وأنه نظر إلى وجود خليفة ثان فى بغداد له مكانة سامية فى نفوس أهل المشرق، وبهذه البيعة الثانية عام ٦٣٤هـ استقرت الدولة مع احتفاظ أبي زكريا بنمط التوسع العسكرى وتوسيع حدود إمارته فاتجه غرباً نحو الجزائر ففتح بلاد مغراوة، ومن بعدها تلمسان.

ومن ثم .. فقد بدأت وفود البلاد المجاورة تأتى إلى الدولة الحفصية مبايعة الأمير أبي زكريا وجاءت البيعة من الأندلس والمغرب فبايعت بالنسبة وغيرها من البلاد، وعلى الرغم من أن الدولة الحفصية قد أعلنت استقلالها عن الدولة الموحدية، وبذلك فإن الدولة الحفصية هى وارثة الموحدين الرسمية فى هذا الجزء من الدولة، وفى ذلك إضفاء الشريعة على الدولة الحفصية.

ولقد شهدت الدولة الحفصية أزهى عصورها ومجدها التليد فى عهد أبي زكريا الذى يعتبر واضح بناء الدولة القوية وموطدا أركانها فقد بلغت الدولة أقصى اتساعها وسمعتها فى عهد الأمير أبي زكريا هذا الذى عمل ما وسعه للعمل على توسيع حدود دولته مستخدماً الأساليب العسكرية فقد كانت حدود الدولة عندما تولى الحكم عام ٦٢٧هـ والتي استمرت فترة ولايته عشرين عاماً حتى عام ٦٤٧هـ تمتد من

طرابلس الى ما قبل قسنطينة ثم بدأ حكمه بفتح بجاية وقسنطينة من أملاك المغرب الأوسط عام ٦٢٨هـ وقبض أبو زكريا على والى قسنطينة ووالى بجاية واستموت فتوحاته تجاه المغرب أيضاً فارتحل الى الجزائر واستولى على شلف والبطحاء واطاعته بلاد مغراوة كما أطاعه بنو منديل وبعد أن حقق أبو زكريا فتح بلاد المغرب الأوسط قام بفتح تلمسان حاضره بلاد المغرب الأوسط ودار مملكة زنانة ومتوسطة قبائل البربر وكان أبو زكريا ينظر الى المغرب الأوسط جاعله الطريق الى الاستيلاء على عرش مراکش طامعاً فى أن يكون الوارث الوحيد للدولة الموحدية .

وقد تحرك أبو زكريا عام ٦٣٩هـ وضم اليه بعضاً من قبائل العرب واستطاعت جيوش الحفصيين أن تدخل تلمسان وبعد أن انتهت المعركة فكر فيمن يعينه واليا على هذا الاقليم الهام فى المغرب الأوسط ووقع اختياره على يغمراسن احد أبناء عبد المؤمن فولاه ولاية تلمسان وبعض أعمال أفريقية وكان لتحقيق الانتصارات فى الأقاليم الغربية وموقف المأمون من بناء كنيسة فى مراکش ليمارس النصارى شعائرهم فيها والاستعانة بقوات من الفرنجة وعلان امارة أفريقية مستقلة سبياً فى ذبوع اسم وسمعة أبي زكريا فى مختلف أقطار المغرب والأندلس فقد سارعت المدن والأقاليم لاعلان البيعة له فلم يأت عام ٦٢٩هـ بعد توليه بعامين فقط الا وتولت البيعة له من الشرق والغرب والأندلس فقد باسعت له مرسية عام ٦٢٩هـ وأسقطت الدعاء للعباسيين وقد وردت بيعة مرسية فى وقت مبكر وذلك بعد اعلان البيعة الأولى بأربع سنوات ، غير أن البيعة عام ٦٣٧هـ وبايعت بلنسية عام ٦٣٦هـ لكن ابن أبي دنيار يذكر أن بلنسية بايعت عام ٦٣٥هـ لوجود بيعة ابن مردنيش لأنه كان فى مازق والمدينة محاصرة من قبل الأسيان الفرنجة ولم يمد له يد المساعدة فلجأ الى الدولة الحفصية معطياً البيعة لها فى مقابل المدد والعون المادى والعسكرى .

الا أن أبا زكريا لم يتحرك التحرك الكافى بل اكتفى بإرسال المدد من الطعام

والسلاح الى بلنسية المحاصرة ولم يهتم بإرسال الجند كما أرسل الطعام والسلاح لكن تراخى أبو زكريا عن النصر الحقيقية في حين أن موقف بنى مرين كان إرسال الجيوش مرات تلو المرات الى الأندلس ولبوا صراخ الأندلسيين في حين أنه لم يرسل جيشا لفك الحصار عن المدينة ومحاربة الفرنجة عنها ، بل أن أسطول الحفصيين لم يستطيع انقاذ المدينة المحاصرة وكان بالامكان إرسال الجند كما أرسل السلاح والطعام لكن تراخى أبى زكريا عن النصر الحقيقية في حين أن موقف بنى مرين كان إرسال الجند وأنهم لبوا صراخ بنى الأحمر الا أن ابن مردنيش ظل متمسكا ببيعة الدولة الحفصية وبعد سقوط بلشبة وكذلك كانت البلاد الأندلسية التي بايعت أبا زكريا مثل مدينة أشبيلية والتي أرسلت وفدا الى تونس وطلب العقد من الأمير زكريا أن يعين عليهم واليا من أقربائه فرحل اليهم ابن عمه أبو فارس بن يونس ابن أبى حفص فقدم أشبيلية وقام بأمرها خير قيام بل كان من الولاة الذين عملوا الكثير من أجل مصلحة المدينة وشعبها وكان ذلك عام ٦٤١ هـ ولكن أبى خلدون وأبى أبي دينار ذكرا أن ذلك كان عام ٦٤٣ هـ ، الا أن والى الحفصيين رغم الأعمال التي قام بها قد طرد من أشبيلية عام ٦٤٣ هـ الى سبتة بل أن والى الجديد ابن الجد اساء معاملته بعض الجند وكان رجوع والى الجديد الى تونس بداية الاستخفاف بالمدينة من قبل النصارى وبدأوا يهاجمونها بعد أن توقفوا عن أية أعمال عسكرية أثناء حكم الأمير الحفصى لكن عندما أحس أهل أشبيلية بوطأة الهجوم المسيحي عليهم طلبوا تعيين أبى فارس الحفصى واليا عليهم للمرة الثانية وأن يلبى الأمير أبو زكريا الحفصى طلبهم في امدادهم بالعون العسكرى والجند وقام أبو زكريا بعدة محاولات لفك الحصار وأرسل لأهل أشبيلية وجهاز لهم أسطولا وطلب من سبتة تجهيز أسطول آخر .

وكذلك كانت المرية من المدن الأندلسية الشرقية التي بايعت والى أبا زكريا لبيعة الطاعة وأرسلوا بطاعتهم الى الأمير الحفصى أبى زكريا الذى كان قد قوى

بإستيلائه على تلمسان في المغرب الأوسط . بالإضافة الى مبايعة بعض الأنصار في الأندلس ولكن مدة الوجود الحقيقى الحفصى في المرية لم يدم طويلا اذ لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات .

ومهما يكن من أمر بيعه هذه المدن الأندلسية للدولة الحفصية في تونس ومبايعة الأمير أبى زكريا على هذا النطاق الواسع فان ذلك يعنى امتداد النفوذ الحفصى الى هذه الديار وازدياد سمعة الدولة الحفصية وقدرتها على مد يد العون لهذه المدن الأندلسية التي كانت تقاسى من حصار وتعدى القوى الفرنجية على بلادهم ومن هنا فقد وجدت هذه المدن سنداً حقيقياً استطاع أن يقدم العون المادى والعسكرى وأن يحول دون سقوط هذه المدن في أيدي القوة المعادية .

بل أن نفوذ بنى حفص اذا كان قد غطي نطاق البحر المتوسط وصولا الى الأندلس فانه استطاع أن يصل الى المغرب الأقصى مقر الدولة الموحدية بل أن هناك مدنا مغربية اعترفت بالسيادة الحفصية وبايع الأمير الحفصى أبا زكريا . وكانت بيعة المدن المغربية تعنى دلالة قوية على وصول النفوذ الحفصى الى قلب الدولة الموحدية ذلك لأن الحفصيين كانوا يطمعون في كرسى الحكم بمراكش وكانوا يمدون أبصارهم الى المغرب الأقصى بعد أن سيطروا عن جزء من المغرب الأوسط بل أنهم كانوا يرغبون في المزيد من الأراضى والمدن التي تخضع لنفوذهم وكان هدف الحفصيين من ذلك حصار الدولة الموحدة ثم الاتجاه الى العاصمة مراكش والاستيلاء عليها .

ولقد كانت مدينة سبتة في المغرب الأقصى من أولى مدن المغرب الأقصى التي بايعت الدولة الحفصية وخضعت لنفوذها وكذلك مدينة طنجة ومدينة قصر بن عبد الكريم . ويؤكد أبى خلدون أن بيعة سبتة كانت عام ٦٤٠ هـ وأنه في هذه السنة بعث أهل أشبيلية وسبتة بطاعتهم للأمير أبى زكريا صاحب أفريقية وترجع أهمية هذه المواقف السياسية لمدينة سبتة بأنها لم تكن خاصة بمدينة سبتة وحدها بل شاركتها

اعلان البيعة والطاعة للأمير الحفصى مدينة طنجة وإمارة قصر ابن عبد الكريم وعين الأمير الحفصى أبو زكريا الحفصى زكريا بن يحيى الشهيد من قبل بنى حفص واليا على هذه المدينة غير أن حكم الحفصيين لم يدم طويلا فى مدينة سبتة فبمجرد وصول خبر وفاة أبى زكريا الى المدينة ثار أهلها ضد الوالى الحفصى وطرده منها وانقطعت الدعوى الحفصية وحولت الى الخليفة الموحدى المرتضى وذلك خلال عام ٦٤٧ هـ فصارت مدينة سبتة تحت حكم الموحيدين حوالى سبع سنوات ولما كانت طنجة تابعة لسبتة فقد تحولت هى الأخرى للدولة الموحدية غير أن هذه المدن الثلاث (سبتة ، طنجة ، قصر ابن عبد الكريم) قد عادت الى الدخول فى طاعة الدولة الحفصية وعلى الرغم من طول مدة طاعة سبتة للحفصيين وبالرغم أيضا من معاودتها لطلب هذه البيعة إلا أنها لم تكن قوية فقد تأرجحت هذه المدن بين البيعة وعدمها . ومهما يكن من أمر البيعة وطولها وبقاء الوالى الحفصى أو طرده وعودته مرة ثانية فإن ذلك خير دليل على قوة الوجود الحفصى وارتفاع مكانة الأمير الحفصى بين شعوب المغرب الأقصى والأندلس بل أن نفوذ الحفصيين فى بلاد المغرب الأقصى لم يكتف بهذه المدن الساحلية بل تخطاها الى داخل البلاد ليكون على مقربة من مراكز قلب الخلافة الموحدية وهذا دليل آخر قوى على قوة النفوذ الحفصى فى بلاد الموحيدين ومدى قوة نفوذ الأمير أبى زكريا الحفصى لا سيما بعد أفعال الخليفة المأمون التى أثارت حفيظة الناس ضده ومن ذلك نجد أن مدينة سجلماسة تتابع الخليفة الحفصى وتدخل فى طاعته عام ٦٤٠ هـ حيث ظلت هذه المدينة تخضع لسيادة الموحيدين حتى هذا التاريخ فقد حدثت خلافات بين حاكم المدينة الذى يسمى الهزرجى وبين الموحيدين فلم يكن أمام الحاكم إلا أن يلجأ الى أمير قوى يبعث اليه بطاعته ويطلب منه حمايته من الخطر الموحدى وبعد أن استشار معاونيه ومستشاريه فانهم أشاروا عليه بإن يرسل الى الأمير الحفصى أبى زكريا الذى قوى نفوذه وذاع صيته بعد الاستيلاء على تلمسان وخاطبه

فى الدخول فى طاعته وأرسل اليه بالبيعة فبعث أبو زكريا الى عبد الله الهزرجى بقبول ذلك وثبته واليا على سجلماسة ومده بالمال والعتاد والجنود حتى يستطيع حماية المدينة والوقوف ضد الزحف الموحدى عليها وتمت الخطبة والبيعة لأبى زكريا الحفصى . على منابر سجلماسة وانحائها وفوض اليه أمرها وكانت البيعة عام ٦٤٠ هـ لكن هذه البيعة لم تستمر طويلا اذ سارع الخليفة السعيد الموحدى فى الزحف على سجلماسة وفر عبد الله الهزرجى الى تونس محتما بالدولة الحفصية والعيش فى حاضرتها وهكذا انتهت بيعة الأندلس مثلما انتهت اليه بيعة المدن المغربية وكذلك مدن شرق الأندلس ولم تستطيع الدولة الحفصية أن تحافظ على مكانتها وسمعتها فى تلك الديار لا سيما وأنها كانت ترنو ببصرها تجاه بلاد المغرب الأقصى والأندلس لكى تكون الوريثة الشرعية لدولة الموحيدين بعد أن أصابها الوهن وبدأ الضعف يدب فى أوصالها وترك الأمور تسير على غير ما يرغب سكان هذه الولايات والمدن واهمال أمر هذه الأقاليم رغم وجود صراع كبير فى هذه المدن بين قوى أخرى بدأت تحاول أن تكون وريثة للدولة الموحدية وتعمل على ازاحة النفوذ الحفصى نهائيا من تلك الديار .

* * * *

الخليفة المستنصر بالله بن أبي زكريا الحفصي

وبيعة مكة وأهل الحجاز له بالخلافت الإسلامية

وهو أبو عبد الله محمد بن زكريا الملقب المستنصر (٦٤٧ - ٧٦٥ هـ / ١٢٤٩ - ١٢٧٦ م) حكم ثمانية وعشرين عاما وهو الذي تصدت قواته للحملة الصليبية الثانية التي قادها لويس التاسع الى تونس ولقى حتفه في العاشر من محرم ١٦٩ هـ / ١٢١ أغسطس ١٢٧٠ م فذاع صيته في العالم الاسلامي واشتهر مرة حتى خطب له على منابر الحجاز ولكن القوى العسكرية للمستنصر كانت قليلة خاصة في البحر مما اضطره الى مهادنة القوى الأوروبية وربما دفع اتاوة لهم وكانت علاقاته طيبة مع الجمهوريات الإيطالية ومملكة أرغون . وبعد وفاته انقسمت الدولة وكثرت الحروب بين المتنازعين على العرش واستعان بعضهم بملوك أرغون وإيطاليا وفي عام ٦٥٧ هـ وصلت الى تونس بيعة مكة المكرمة وأهل الحجاز بإنشاء عبد الحق بن السبعين وقرئت على الناس فبعد ذلك تسمى بأمر المؤمنين ولقب بالمستنصر بالله وكان قبل ذلك يدعى بالأمر فقط ومن هذا التاريخ تحولت الامارة الى خلافة وذلك لعدم اعترافه بالخلافة العباسية التي قامت في القاهرة عام ٦٥٩ هـ بعد سقوط بغداد على يد التتار بثلاث سنوات وأنه تمسك ببيعة أهل مكة له والتي وردت الى تونس قبل قيام الخلافة العباسية بالقاهرة بسنتين وهذا يستند الخليفة الحفصي والبيت الحفصي من وراثة في اعلان خلافتهم الجديدة الى الأسس الشرعية هذا الصدد كالأصل العربي والنسب النبوي الى جانب قرابتهم للموحدين فزعموا أنهم من سلالة الخليفة أبي حفص عمر بن الخطاب ولقد حرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل واطهاره في كل مناسبة ونجد ذلك واضحا في أقوال كتابهم وشعرائهم التي أطلقت على دولتهم اسم العمرية والفاوقية .

ويروى أكثر المؤرخين أن الحفصيين ينتسبون الى جددهم أبي حفص عمر بن الخطاب وقيل أنهم ينتسبون الى السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله

عنهما .

وبفضل انتساب الحفصيين الى قريش وانتسابهم الى الرسول ﷺ وقرابتهم من الموحدين استطاعوا أن يكسبوا حكمهم صفة شرعية وأن يقيموا الخلافة وأن يقيموا الخلافة وأن ينصب عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين المستنصر عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م وهو نفس العام الذي وردت فيه بيعة أهل مكة والحجاز وشريف مكة وقاضيه . وذلك بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد وقتل الخليفة المعتصم بالله العباسي آخر خلفاء الدولة العباسية في بغداد بسنة واحدة وعلى أثر مقتل آخر الخلفاء العباسيين وزوال الدولة العباسية وحاجة العالم الاسلامي الى خلافة فقد بايع شريف مكة وأهل الحجاز الخليفة الحفصي أبا عبد الله محمد باعتباره وارثا للخلافة العباسية ودعا له على منابر بلاده في مكة وكل الحجاز ولقبه بأمر المؤمنين وبذلك اكتسبت الخلافة صفة شرعية .

وأقيمت الخطبة للخليفة الحفصي على منابر المغرب واعترف بنو مرين عند تأسيسهم دولتهم بالخليفة الحفصي وفيما سبق القول أقيمت الخطبة للحفصيين على منابر الأندلس بعد أن حلت الهزيمة بالموحدين في موقعة العقاب في عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وزوال سلطان الموحدين وسقطت هذه البلاد في أيدي الأسبان ولم يبق في أيدي المسلمين سوى منطقة جبلية في جنوب شرق أسبانيا حيث قامت مملكة غرناطة الاسلامية على أيدي بني النضير أو بني الأحمر الذين بايعوا الخليفة الحفص أقوى حكام المغرب في ذلك الوقت وأقاموا الخطبة على منابرهم وذلك لحماية دولتهم الناشئة من غارات الأسبان .

وقد اختلفت مصادر التاريخ الحفصي في بيعة أهل مكة والحجاز للخليفة المستنصر بالله فقد أوردت بعض المصادر أنها أوردت في عام ٥٦٩ هـ ولكن رأى ابن أبي دينار أنها كانت عام ٥٦٧ هـ وقد صيغت هذه البيعة بيد عبد الحق السبعين في

ليلة القدر من رمضان عام ٦٥٦ وقد كان هذا بعد موت المعتصم على يد التتار لفترة وجيزة عندما وصل خبر بقتله الى أهل مكة فانهم بايعوا على الفور الأمير الحفصى وانتقل بيت الملك والسلطان من بغداد فى شهر رمضان ودفع بالأمر للأمام أبى عبد الله محمد بن يحيى المستنصر بالله الحفصى .

وكانت البيعة بعد التأكد من أن الخليفة العباسى قد قتل وأن الخلافة العباسية قد انتهت أمرها وأنه لا خليفة الا المستنصر الحفصى وقد احتفل الخليفة احتفالا عظيما بهذه المناسبة وورود بيعة أهل مكة والحجاز وركز الخطباء على أهمية مكة المكرمة وبيعته فمن فتح الله عليه فتح مكة فقد تمت له النعمة وإن الخليفة الذى لا خليفة معه وأنه لا يوجد خليفة يستحق هذا الاسم الا الخليفة المستنصر وأن الخليفة المستنصر هو الخليفة المشار اليه فى الأحاديث النبوية .

وكانت بيعة مكة المكرمة لها فعل السحر لدى شعوب المغرب العربى وكذلك لدى الرأى العام فى أفريقية وأيضاً لدى المستنصر إذ أحس بعد بيعة أهل مكة والحجاز له بأنه الخليفة الأوحى فى العالم الاسلامى بلا منازع كان وقد احتفل المستنصر بهذه البيعة واحتشد القوم لسماع البيعة ودخول الحجاز فى طاعة المستنصر وربما كان سر الاهتمام هذا ببيعة مكة ذلك لأن لها مكانة عظيمة فى قلوب المسلمين حيث مهبط الوحي ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبلة المسلمين ومن هنا لها مكانة خاصة فى قلوب المغاربة أشوقهم الى بيت الله الحرام ، وكان وصول هذه البيعة السبب الأساسى لعلو المكانة السياسية والدينية للدولة الحفصية بعد أن بايعتها مكة المكرمة وكيف كانت هذه البيعة هى السبب الأساسى فى احياء الخلافة العباسية فى القاهرة وكان أهل تونس قد احتفلوا برسالة الحجاز أحسن احتفال وقد دخلت فى طاعة الخليفة المستنصر بالله الحفصى ودعوته ، بل أن الخليفة الحفصى قد اعترفت به بلاد المغرب جميعاً من طرابلس شرقاً الى ساحل البحر المحيط غرباً ومن ذلك بنو مرين فى

المغرب الأقصى (٦٣٣ - ٧٩٦ هـ / ١٢٣٥ - ١٣٩٣ م) الذين كونوا دولتهم على أنقاض الدولة الموحدية قد اقتدوا بملوك (بنى النضير) ، (بنى الأحمر) فى غرناطة فأقاموا الدعوة للخليفة الحفصى لكى يكسبوا حكمهم صفة شرعية فى نظر شعوبهم ، وقد ظلت الحال على ذلك اعترافاً بالخلافة الحفصية فى بلاد بنى زيان وبنى مرين الى أن قام الأمير يعقوب المنصور الذهبى المرينى (٦٥٦ - ٦٨٥ هـ / ١٢٥٧ - ١٢٦٨ م) الدعوة لنفسه بعد أن كان بنو مرين يدعون للخليفة الحفصى . وبذلك ظهرت فى المغرب الكبير خلافة قوية هى الخلافة الحفصية التى امتد سلطانها الروحى من بلاد الحجاز شرقاً والمغرب والأندلس غرباً وغدت حاضرتها تونس مركزاً سياسياً وثقافياً هاماً جذب اليها الشعراء والعلماء والصلحاء من كافة أرجاء العالم الاسلامى ويذكر السلاوى أنه رغم تأصل الدعوة الموحدية فى نفوس أهل المغرب فإن بنى مرين قدروا أنهم فى أمس الحاجة لتأييد الحفصى لهم فأقاموا الدعوة لهم تأليفاً لأهل المغرب واستجلاباً لمرضايتهم واثباتاً لهم من ناحية وهو انهم اذا كانت صفة الدولة الموحدية قد رسخت فى قلوبهم فلعل بنى مرين الذين ينتمون الى قبيلة زناتة قد خطبوا ود الحلفاء الحفصيين المصامدة الذين أقاموا الدولة الموحدية فكانت مسألة ومبايعة المرين لبنى حفص بالخلافة ما هى الا سياسة بعيدة النظر .

وهكذا كانت الخلافة الحفصية قد وصلت الى ذروة مجدها فى عصر المستنصر بالله مؤسس الخلافة والذى كانت الظروف السياسية بالمغرب مساعدة على التلقب بلقب خليفة كذلك الظروف فى المشرق أيضاً وقد كان لقب خليفة يحمله فى المغرب الخليفة الموحى وفى تونس كان والد المستنصر بالله أبو زكريا قد وطد أساس الدولة الحفصية وبايعت له الأقاليم وسارعت دول أخرى فى المغرب تعلن عن بيعتها للدولة الحفصية وأما فى المشرق حيث الخلافة العباسية وقوة مصر والشام فلم تكن الحال بأحسن مما عليه فى المغرب ، فقد بدأ ضعف الخلافة العباسية ، بل أن المستنصر بالله

الحفصى لم يكن يهاب أى رد فعل خارجى أما رد الفعل الداخلى فقد أعد المستنصر له عدته وقوى أمر الخلافة بوجود بيعة أهل مكة والحجاز وعلان الخليفة المستنصر بالله الخلافة فى الرابع والعشرين من ذى الحجة عام ٦٥٥ هـ وبذلك فقد وصل الحكم الحفصى فى شكله السياسى الى تطور آخر فاذا كان عبد الواحد قد أرسى قواعد الوجود الحفصى فى مرحلته الأولى فإن الحفيد المستنصر بالله ابن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد قد جاء ليستكمل آخر تطور فى شكل الحكم الحفصى لأفريقية فيتحول هذا الحكم من امارة الى خلافة وهو التطور الثالث والأخير فى شكل بناء الدولة الحفصية وقد وصلته بيعة بنى مرين عام ٦٥٢ هـ من مدينة قاس ودعى له على منابرها.

ولقد كان تلقب العديد من سلاطين و امراء البلاد الاسلامية بلقب خليفة قد أصبح شيئا عاديا اذ أننا نجد أن لقب خليفة قد أصبح مسموعا فى العديد من ديار الاسلام ومن ذلك فانه منذ عام ٦٥٦ هـ وهو العام الذى سقطت فيه الخلافة العباسية وانتهت من على مسرح الأحداث فى العالم الاسلامى وانتهت الخلافة بنظامها القديم واختل نظامها حتى أصبح فى استطاعة كل أمير نوى تغلب على بلد من البلاد الاسلامية أن يتلقب بلقب خليفة ولم ير ما يدعوه الى الالتجاء الى الخلفاء العباسين فى القاهرة أو غيرها من بلاد العالم الاسلامى التى يقيم بها خليفة للحصول على تفويض شرعى بالحكم .

ومن ذلك نرى المغول بعد أن اعتنقوا الاسلام لا يعاؤون بالخلفاء العباسيين فى القاهرة - ففى فارس اعتنق غازان الاسلام ودعى له على المنابر بهذه الألقاب وهى السلطان الأعظم وسلطان الاسلام والمسلمين وتلقب السلطان رخ بلقب خليفة فانه لم تعد هناك هيبة للخلفاء وفقدوا نفوذهم الروحى والسياسى وكان تعيين الخلفاء ليس الا مجرد طبع الشرعية على الحكم فى البلاد واضفاء روح المهابة لدى الشعوب التى

تخضع لحكم هذا الخليفة وذلك سواء فى المشرق العربى أو فى المغرب .

وكان اعلان الخلافة الحفصية بداية مرحلة جديدة وفى عهد الخليفة المستنصر نجد أنه سار الى حد ما سيرة أبيه فى اسكات الوالى الأول للدولة أبى محمد عبد الواحد بإمداده بالأموال واسترضائه بها وقد امتنع عبد الواحد فترة عن مبايعة المستنصر «وذلك لصغر سن الخليفة وأغلب الظن أن هذا التوقف عن المبايعة ليس بالفترة الطويلة»

ونعود للحديث عن أبى محمد عبد الواحد الذى رحب أهل أفريقية بولايته واستبشروا به خيرا وقام عبد الواحد بدور كبير فى مقاومة ابن غانية وقام باصلاح الأمور وأحسن التدبير وأما عن السياسة المالية فقد نفذها خير تنفيذ واستطاع أن يضع الأمور فى نصابها فى كل أفريقية .

وكان أبو محمد عبد الواحد متدينا عادلا فى معاملة الناس فأحسن اليهم واختار عمالا عادلين ومشهودا لهم بالعدل وحسن التعامل مع الرعية ، وقد قصده الشعراء والعلماء ورجال الدين ومدحه الشعراء وشهد بعدله وحكمته رجال الدين وقد توفى الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص فى يوم الخميس أول المحرم عام ٦١٨ هـ بعد أن حكم أفريقية أربع عشرة سنة وثلاثة شهور ثم بعد وفاته تم عزل أبا زيد عبد الرحمن بن الواحد بن أبى جعفر عن ولاية أفريقية لكن الخلافة الموحدية كان لها رأى بعد وفاة عبد الواحد فقد عاد ابنه الى المغرب وحكم أفريقية من عام ٦١٨ هـ الى عام ٦٢٣ هـ حاكمان من قبل الموحيدين أبناء عبد المؤمن وهم السيد أبو العلا ومن بعده ابنه المستنصر والذى مات بالعاصمة تونس عام ٦٢٣ هـ ويوصف المستنصر هذا بأنه كان مفسدا ، ثم عادت الولاية الى بنى حفص مرة ثانية بعد انقطاعها عنهم لفترة خمس سنوات فى عام ٦٢٣ هـ لينبأ مرحلة جديدة من مراحل نشأة الدولة وهى مرحلة الولاية أو الوجود القانونى للحفصيين .

اذ تولى السلطة فى أفريقية أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص المعروف بعبو ودخل معه تونس أخوه أبو زكريا فى يوم السبت ٢٧ ذى الحجة عام ٦٢٣ هـ وحدثت اضطرابات شديدة فى مراكش وقد استغل بنو حفص هذا الاضطراب استغلالا جيدا لصالحهم . وبعد تولى أبى محمد عبد الله ولاية أفريقية بدأ فى عقد الأعمال والمناصب لأخوته فعهد الى أخيه أبى زكريا على قابس كما عقد لأبى ابراهيم على توزو ويعتبر هذا العمل خطوة هامة جدا فى سبيل تثبيت مكانة الحكم الحفصى .

وساءت العلاقة بين أبى زكريا وهو فى قايس وأخيه بعبو والى أفريقية وحاول الأخيران بعزله لكن المأمون الخليفة الموحدى عزل أبا محمد بن عبد الله الحفصى وكان قد وقع فيها اختلاف فخرج المولى عبد الله الى قتال أخيه أبى زكريا فتحالف عليه الموحدون وأبوا قتال أخيه فرجع الى تونس واستقر بها ثم بعد ذلك تحرك أبو زكريا إلى تونس لتملكها . أما أبو محمد عبد الله فقد هرب الى مدينة أشبيلية بالأندلس واستقر هناك وتولى أبو زكريا الامارة فى تونس فى يوم الأربعاء ٦٢٥ هـ . وتولى أبى زكريا بدأت حلقة قوية للوجود الحفصى وسعى أبو زكريا الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة الحفصية لبناء الدولة القوية .

وكان الخليفة الموحدى المأمون قد خرج عن تقاليد الموحدين وتحالف مع الدول المسيحية بسبب زوجته حباية الرومية واستعانت به بخمسة فارس من قشتالة . مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لقشتالة واقامة كنيسة مسيحية بمراكش وهى أول كنيسة فى تاريخ المغرب الاسلامى حتى يتمكن المسيحيون من ممارسة شعائرهم الدينية وقد أرجع البعض بتولى هذه الى أن أمه كانت حفيدة لابن مرادنيش وكذلك الى زوجته حباية التى كانت فى الاصل جارية مسيحية .

فقد استغل أبو زكريا الحفصى الفرصة ووجدها سانحة لكى يؤكد استقلاله

بالبلاد اذ ان أبا زكريا هذا يعتبر من أقوى سلاطين الحفصيين فهو أبو زكريا يحيى بن أبى محمد عبد الواحد بن بكر بن أبى حفص عمر الهنتاني ولد بتونس بمراكش عام ٥٩٩ هـ وبويع بالقيروان عام ٦٢٥ هـ وكان عمره وقت مبايعته ستة وعشرين عندما جددت له البيعة بتونس فى الرابع والعشرين من المحرم حيث جددت له البيعة مرة ثانية عام ٦٣٤ هـ وذكر اسمه فى الخطبة باسم الأمير وليس أمير المؤمنين .

وعند اضطراب المغرب فى عصر الرشيد بن المأمون بن يعقوب المنصور الموحدى فان أبا زكريا استبد بأمر أفريقية وفى عام ٦٣٥ هـ بايعه صاحب أشبيلية بالأندلس زيان بن مردنيش واعترف ببيعة أشبيلية للامارة الحفصية فى تونس .

وفى عام ٦٣٩ هـ استولى على تلمسان وفتحها وفى عام ٦٤٠ هـ بايعته مدينة سبتة بالمغرب الأقصى وفى عام ٦٤٣ هـ بايعته للمرة الثانية مدينة أشبيلية والمرية وغرناطة من بلاد الأندلس ودخلت وفود هذه البلاد الى تونس . وكان رحمه الله من الصالحين والعلماء العاملين . وهو الذى بنى الجامع بالقصبة بتونس وبنى صومعته العجيبة وكان بناؤها عام ٦٢٩ هـ . وكذلك بنى المدرسة التى بسوق الشماعين وبنى سوق العطارين ووفد على تونس فى عهده العلماء والشعراء وأهل الصلاح وجمع بعده وحسن سياسته أموالا لا تحصى وكانت له مكتبة بها ستة وثلاثة آلاف مجلد وقد توفى عام ٦٤٧ هـ ودفن بجامع مدينة بونه بغرب البلاد الحفصية وكانت فترة حكمه بعد البيعة الثانية اثنين وعشرين عاما وقد أعيد دفنه مرة ثانية فى مدينة قسنطينة وكانت وفاته آخر جمادى الأخيرة وهو ابن تسعة وأربعين عاما .

وقد ترك من الأولاد الذكور أربعة هم محمد المستنصر وأبو اسحاق وأبو بكر وأبو حفص عمر .

وبعد وفاته تولى امارة الدولة فى تونس أكبر أبنائه الأمير أبو عبد الله محمد وهو

ابن أبي زكريا بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص عمر بويج صبيحة الليلة التي توفي فيها أبوه يوم الجمعة ٢٧ من جمادى الآخرة عام ٦٤٧ هـ وعمره اثنان وعشرون عاما وقد تمت مبايعته عام ٦٥٢ هـ ووصلت بيعة بنى مرين من مدينة فاس ودعى له على منابرها وفي عام ٦٥٧ هـ وصلت بيعة مكة وقرئت على الناس فعند ذلك تسمى بأمر المؤمنين وتلقب بالمستنصر بالله وكان قبل ذلك يدعى بالأمير . وفي عام ٦٦٠ هـ تحرك إلى قبائل رياح العربية وكان الخليفة المستنصر بالله قد تضايق من موقف قبائل الزواودة العدائي فزحف عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م وهاجم رياح حتى وصلت قواته إلى المسيلة آخر أوطانهم ففر الزواودة إلى الصحراء جنوبا وارسلوا في طلب الصلح والعودة للمبايعة فأوعز المستنصر لولى بجاية الشيخ أبي هلال بن عياد بن محمد الهنتاني بالتظاهر بقبول الصلح والغدر بهم وقبض على زعماء رياح وأرسلهم إلى المستنصر فأمر بقتلهم وقد شملت حدود الدولة الحفصية على أراضٍ واسعة حيث كانت تشمل الأراضى التي تقابلها اليوم طرابس الغرب فى ليبيا وكل مساحة تونس الحالية والجزء الغربى من الجزائر حيث كانت تشمل ولاية قسنطينة وبجاية وولاية عنابه وتدلّس وتسمى حاليا وليس فى الغرب وكذلك تمتد جنوب ورقلة فى الصحراء الجزائرية وبذلك أصبحت الخلافة الحفصية دولة ذات حدود سياسية ثابتة بل أنها كانت تتوسع على حساب الدولة المجاورة .

ولقد كانت هناك العديد من الأسباب والأسانيد التى دفعت بنى حفص الى اعلان خلافتهم الجديدة والتي كانت تستمد أطرها وأساسها من الشرعية فهم كانوا ينتمون الى الأصل العربى والنسب النبوى الشريف والى جانب قرابتهم للموحدين ادعوا أنهم من سلالة الخليفة أبى جعفر عمر بن الخطاب وعللوا ذلك بالكثير من الأسانيد بل أنهم حرصوا كل الحرص على الاعتزاز بهذا الأصل والنسب القريشى الشريف ولحاولة نشر هذا الادعاء بين الرعية بل أننا نجد ذلك أكثر وضوحا فى أقوال كتابهم وشعرائهم التى أطلقت على الدولة الحفصية اسم الدولة العميرية (نسبة الى

عمر بن الخطاب ، أو الدولة الفاروقية (نسبة أيضا الى الفاروق عمر بن الخطاب) وكان الخليفة أبو عبد الله المستنصر بالله الذى أعلن الخلافة من أقوى امراء بنى حفص اذ أن أقدامه على اعلان الخلافة وتلقبه بلقب أمير المؤمنين يقتضى شجاعة فائقة وقدرة على مجابهة الأحداث ، بل ان سمعته قد وصلت الى أنحاء العالم الاسلامى فوجد مسلمى الأندلس سيتجهون اليه ويطلبون منه العون فبعث بأسطوله الحفصى الى مدينة بلنسية وحاصرها ومن ثم فقد امتد النفوذ الحفصى الى الأندلس وأكثر من استقدام الأندلسيين الى بلاده لكى يستفيد بهم فى أعمال الدولة نظرا لمهارتهم وخبراتهم فى شتى الفنون وكذلك لكى يوازن بينهم وبين قوة البربر الذين كانوا عصب الدولة لا سيما بعد أن قام البربر ببناء الدولة .

وكانت سياسة الحفصيين التقرب الى العرب فلجأ الحفصيون الى بنى سليم وأنزلوهم بالقيروان وبلاد قسنطينة فصاروا حلفاء لهم وتمكنوا بمساعدتهم من طرد أعداء الدولة من شرق أفريقية الى غربها . كذلك استعان الحفصيون بالعديد من القبائل العربية الذين أقطعوهم الكثير من البقاع وحرص الحفصيون على جذب مودتهم واستخدامهم فى الحروب . وليس أدل على سياسة التقرب الى القبائل العربية من أن السلطان أبا العباس أحمد تزوج من عرب المحاميد فى طرابلس وهم فرع من قبائل بنى سليم وهذا يفسر ازدياد سلطة العرب فى عهد ابنه أبى فارس عبد العزيز بحكم كونهم أخواله .

وقد اعتمدت الدولة الحفصية على بعض زعماء العرب فى ادارة بعض ممتلكاتها فأسندت الى بعض العرب النازحين من بنى هلال ولاية الزأب وكذلك ولاية بلاد قسطنطية وكانت الولاية فى هذه القبائل من قبل الموحيدين فأبقى الحفصيون على ود هذه القبائل باستمرار حكمهم لهذه البلاد التى كانت تقطعها لهم الدولة الموحدية .

* * * *

الفصل الثالث

الخلافة المستنصر بالله والغزوة الصليبية

ليس هناك أدنى شك في أن موقع الدولة الحفصية في تونس وسيطرتها على الساحة المتميزة من ساحل البحر المتوسط الممتدة من طرابلس شرقا الى عتابة غربا قد هيا لها اتصالات وثيقة مع الدول الأوربية المواجهة لها من حوض البحر المتوسط ولا سيما جزيرة صقلية وقصيرة وإيطاليا وساحل فرنسا الجنوبي ولقد كان لهذه الصلات أبعاد عديدة اذ اتخذت هذه الأبعاد اشكالا مختلفة طبقا لما كان يسود العلاقة من حرب أو سلم وطبقا للجو العام الذي يسود منطقة حوض البحر المتوسط .

وكانت سياسة الحفصيين منذ الخلافة المستنصر بالله الحفصى تقوم على حسن الجوار واتباع سياسة التقرب مع كل الأطراف فنجد أنه أقام علاقات الود ، مع كل يد امتدت اليه بالصدقة فتقرب الى شارل انجو صاحب صقلية وكذلك أقام علاقات مع أسرة هنشواقن في المانيا لكن حدثت بعض الأحداث الداخلية في صقلية مما استدعت من شارل أنجو ملك صقلية أن يطلب مساعدة من الخلافة الحفصى لكن الحفصى رفض مساعدته فما كان منه الا أن هرب من الجزيرة الى أخيه القديس لويس التاسع في فرنسا يشجعه بالاغارة على الحفصيين .

ورغم أن المصادر الأوربية والمعاصرة للحملة تغزو قيامها لعدة أسباب متعددة ومتنوعة والتي منها نجاح مصر في صد الحملة الفرنسية على المنصورة والهزيمة النكراء للحملة عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م فكانت الحملة هذه التي ذهبت الى تونس قاصدة مصر لكنها تحولت الى تونس بتأثير وتوجيه شارل دى انجو ملك جزيرة صقلية وشقيق لويس الذى كان على خلاف شديد مع الخلافة المستنصر بالله الحفصى فطمع فى استغلال هذه الحملة لتحقيق أهداف شخصية ولتصفية حساب مع خليفة تونس وتدعيم

ملكة ومد نفوذه الى تونس مستغلا شارة الصليب التي كانت رمز الحروب الصليبية والتي كان الصليب منها براء بل أنها كانت لأهداف توسعية واطماع اقتصادية واستعمارية كما أن بعض المصادر يذكر أن سبب توجيه شارل دى أنجو للحملة الى تونس أن الخلافة المستنصر بالله الحفصى كان يأوى عنده بعض أعداء شارل أنجو وهم الذين قاموا بالثورة فى جزيرة صقلية واستطاعوا الهروب الى تونس مما أساء الى شارل ملكها .

كذلك تطلع شارل الى اضافة اقليم ذى موقع استراتيجى وميز وهام على الساحل الافريقى وذلك خدمة للحركة الصليبية التي لا زالت تحلم فى السيطرة على العالم الاسلامى شرقه وغربه . اضافة الى أن شارل دى انجو استغل سماعة المستنصر بالله وحسن معاملته للمسيحيين والفهم السئ بخلق الاسلام والمسلمين فى التعامل مع أهل الديانات الأخرى وليس كما أشار العديد من كتاب العصور الوسطى عن جهل وعدم فهم وتعصب بغض بأن الخلافة المستنصر بالله كان لديه استعداد للتنصر والتحول الى المسيحية بعيدا عن الاسلام وتلك فرية كاذبة اذ كيف يفعل الخلافة الرجل الأول فى الدولة الحفصية معلى للخلافة ويعتز بالنسب النبوى القرشى بل يطلق على الدولة العمرية والفاروقية تيمنا بالخليفة عمر بن الخطاب ويكون عنده أدنى استعداد للتخلي عن عقيدة الاسلام السمحة كما اشار ذلك (ستيفن روتشن ، جو تقييل ، جون) لقد كان المستنصر بالله حسن العقيدة طيب الخلق عميق الايمان حافظا للقرآن الكريم دارسا لعلوم الدين الاسلامى بل كان حجة قوية ، وهكذا تصور شارل دى انجو خطأ فكرة أن اظهار قدر من القوة للخليفة كفيلة بأن تجعله يعلن اعتناقه للمسيحية (تصور كاذب وباطل ولا يتفق مع أدنى تعقل وفهم مبادئ الاسلام الخالدة لكن ابن أبى دينار فى كتابه المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس وهو من المصادر التونسية فانه يجعل السبب القوى لقيام هذه الحملة الى تونس أن الخلافة المستنصر بالله الحفصى تناول سيرة

الملك لويس التاسع باستهزاء لا سيما بعد أسره في دار أبين لقمان في المنصورة بمصر وسجنه وافتدائه وجمع التبرعات له من أوروبا وكان ذلك السبب المباشر الذي أثار عقب الملك لويس فحول قواته الى تونس بدلا من مصر انتقاما لكرامته وهذا يكون على جانب من الصحة وليس كقول جونفيل مؤرخ حملة لويس التاسع بالضغط على المستنصر بالله لاعلانه اعتناق المسيحية . وقد تكون أهمية الموقع الاستراتيجي لتونس بالنسبة لصقلية والدول الأوربية وراء رغبة شارل دى انجو فى بناء دولة على الساحل الأفريقى .

ووصلت الحملة الى الشواطئ التونسية فى ١٨ يوليو ١٢٧٠ م وعلى رأسها لويس التاسع وأبنائه الثلاثة وأخوه شارل انجو وخلفاؤه من ملوك وأمراء أوروبا ، فحصن الخليفة المستنصر بالله موانئ تونس واستنجد بالعرب ونقل عاصمته الى القيروان وكان وصول الحملة فى النصف الثانى من يوليو وهو أشد أوقات الصيف فى أفريقية حرارة ونظرا لعدم قدرة الأوربيين على تحمل الجو شديد الحرارة فقد تفشى المرض فى المعسكر الفرنسى فوق الأمراء والفرسان والعساكر فريسة للمرض الشديد وكان ذلك من الأسباب القوية التى جعلت الحملة ترتد على أعقابها تاركة العديد من أفرادها يصارعون المرض الشديد وتفشى الحمى بين أفرادها ، بل أن الملك لويس التاسع أصيب بحمى شوكية شديدة مات على أثرها مباشرة فتولى أخوه شارل دى انجو قيادة الحملة من بعده والتى كانت تتكون من أكثر من أربعين ألف مقاتل منهم ستة آلاف فارس وأكثر من ثلاثين ألف من الرجال واستولى على تونس ، لكن شارل أدرك فشل الحملة وعدم قدرتها على تنفيذ المخطط الذى قدمت من أجله فما كان منه الا أن طلب الصلح مع المستنصر وتوقيع معاهدة صداقة وكان استيلاء الحملة على تونس فى ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م فقامت القوات الحفصية بمساعدة ومساندة العرب وغيرهم من المسلمين بمقاومة شديدة وبأسلة منزلين الرعب بالأعداء وحشد الخليفة المستنصر أكثر

من أربعين ألفا من الرماة فقط غير قوات الفرسان .

ورغم سيطرة القوات الفرنسية وحلفائها على تونس المغربية لمدة ثلاثة شهور ونصف وتفكير المستنصر بالله فى الانتقال الى قسنطينة وليس القيروان كما ذكرت المصادر الأوربية حيث أنه لم يكن قد غادر تونس بعد ، ولقد كان استمرار بقاء هذه الحملة لهذه الفترة تعود لدور شارل دى انجو فى المحافظة على القوات الباقية حتى الخريف وانقاذ الحملة من كارثة محققة ولقد كان طلب الصلح من جانب شارل دى انجو يعد بمثابة رفع الروح المعنوية لأهل تونس الذين تأكد لهم أن نهاية الحملة هذه لا تقل عن نهايتها فى مصر من حيث الهزيمة والفشل ففى مصر أسر لويس التاسع وعلى أرض تونس قتله مرض الحمى ولم تحقق الحملة أهدافا فى السيطرة على بيت المقدس حيث كانت آخر كلمات تخرج من فم لويس التاسع وهو يموت بالحمى الشوكية بيت المقدس .

وعقد الصلح فى ربيع أول ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م وهكذا عادت الحملة الأوربية الى بلادها بعد أن توفى قائدها وفقد العديد من رجالها وهى تجر أذيال الخيبة بتلك النتيجة المادية الضئيلة التى أغضبت معظم الذين اشتركوا بها حيث أنه يمكن القول أن الحملة فى مجملها قد فشلت أشد الفشل وعمت الفرحة بلاد العالم الاسلامى فى مغربه ومشرقه ، ففى المشرق ازداد ارتياح المسلمين عند سماعهم بكارثة تونس ومقتل لويس . بينما ساد الصليبيين حزن عميق لوفاة لويس التاسع دون أن يحقق أى هدف من الحملة التى قضى عدة سنوات وهو يعد لها بعد هزيمة المنصورة عام ١٢٥٠ م .

ويذكر من هذه الحملة انها نزلت الشواطئ التونسية فى ذى القعدة عام ٦٦٨ هـ وكان نزولهم تونس فى جموع وافرة فرسانا ورجالا وكانت بينهم وبين المسلمين حروب طويلة مات فيها خلق كثير من الفريقين ومدة اقامة الفرنسيين أربعة أشهر وعشرة أيام وفى العاشر من محرم عام ٦٦٩ هـ مات طاغيتهم وقد قيل ان السلطان بعث اليه

بسياف مسموم وقيل مات حتف نفسه ولكن الأراء تتفق على أنه مات بالحمى الشوكية من أثر الحر الشديد وأرسل الله وباء على جيشه فمات عدد كثير من جيشه وطلبوا الصلح فصالحهم السلطان مع عدم التعرض لأية جهة من بلاد المسلمين وعقد هدنة خمسة عشر عاما ثم تم الصلح .

وكانت الدولة الحفصية قد بلغت ذروة مجدها في عهدة ذلك لانه عاصر حملة لويس التاسع على تونس وتلقب بلقب خليفة المسلمين جميعا واعترف شريف مكة المكرمة له بهذا اللقب كما قيل حاكم مصر بيبرس الدعوة له في مصر عام ١٢٦٠ م قبل أن يقدم الخليفة العباسي الى القاهرة في العام التالي .

وليس هناك أدنى شك في أن تمكنه من صد الحملة الصليبية هو الذي أكسب الدولة هذا النفوذ الأدبي ومن المعروف أن لويس التاسع كان مدفوعا في حملاته الصليبية بالروح الدينية أصلا ولذا كانت خطته تنبنى على أساس تحرير الأماكن المقدسة من حكم المسلمين مما جعله ينحرف عن هذا الهدف ويقود حملته عام ١٢٧٠ م الى تونس .

ويقال أن تسامح المستنصر الحفصي مع المسيحيين جعل لويس التاسع يأمل في أن يحوله الى المسيحية ولكن التفسير الشائع لهذه الحملة هو أن شارل انجو حاكم صقلية وأخا لويس التاسع هو الذي أغرى ملك فرنسا بتحويل حملته الى تونس لتحقيق مصالح خاصة ، ذلك لان تونس اعتادت أن تدفع مبلغا سنويا لصقلية تجنبا للقراصنة الأوربيين وهذا أمر شائع في ذلك الوقت في حوض المتوسط بل أن الدول الأوربية كانت تفعل نفس الشيء لتجنب قراصنة الجزائر وقد كف المستنصر عن دفع الجزية عندما علا شأنه مما أثار عليه سخط حاكم صقلية ويقال بأن شارل دي انجو كان مستعدا لغزو الشرق عن طريق القسطنطينية ولكن كان لتجار مرسيليا ديون في تونس يريدون استبقاءها وهم الذين أغروا أخا الملك للتوسط لديه .

وسواء أصابت هذه الرواية أم تلك فهذا دليل عن أن أسباب الحملة كانت اقتصادية ومن المعروف أن الأوربيين دائما عندما تحيق بهم الهزائم ويمنون بخسائر فادحة في الأرواح والعناد يعززون ذلك الى أسباب طبيعية وهكذا فعلوا في تفسير حملة ١٢٧٠م إذ ذكروا أن الطاعون هو الذى قضى على حياة الملك وقضى أيضا على الحملة وعلى كل فقد سارع انجو بعد وفاة أخيه الى عقد الصلح وقبل المستنصر دفع غرامة حربية . .

ولهذه المعاهدة التى مدتها خمسة عشر عاما أهمية خاصة لانها أدخلت الأنظمة الأولية للامتيازات فى تونس فنصت على حرية رعاية الطرفين فى ممارسة التجارة عند الطرف الآخر وكذلك حق اقامة المسيحيين لشعائهم والسماح بإنشاء المؤسسات المسيحية فى تونس وكانت الدول الأوربية هى التى استفادت وحدها من هذا النظام وكثرت الفنادق والقنصليات فى تونس قبل غيرها من بلاد المغرب وعلاوة على ذلك عرض المستنصر دفع جزية خمس سنوات بما قيمته أكثر من خمسة ملايين فرنك وذلك لتشجيع الحملة على الجلاء بسرعة . ويذكر أن السبب الذى دفع الخليفة المستنصر لدفع هذا المال أن العليجة أم ملك الفرنجة أرسلت للخليفة المستنصر أن يبذل لها ما خسروه فى مؤونة حركتهم وترجع بقوتها فاسعفها السلطان لما كان العرب قد عزموا على الرحيل الى مشاتهم فقد بعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح فى ربيع الأول ٦٦٩ هـ وهكذا عادت الحملة تجر أذيال الخيبة بتلك النتيجة المادية الضئيلة التى أغضبت معظم الذين اشتركوا فيها .

وتوفى الخليفة المستنصر فى الحادى من ذى الحجة عام ٦٧٥ هـ وعمره خمسون عاما وكانت خلافته ثمانية وعشرين عاما وخمسة أشهر وأحد عشر يوما .

* * * *

الفصل الرابع

خلفاء بنى حفص بعد الغزوة الصليبية

الخليفة أبو زكريا يحيى الوراق

كان هذا الخليفة هو الرابع من خلفاء بنى حفص وكان قد خرج على طاعة الدولة واستحدث ملكا فى أقاليم بجاية وقسنطينة وما إليها من أقاليم وورثه بنوه وقسموا الدولة الى قسمين وكان قد استفحل أمره ثم بعد ذلك استطاع أن يستولى على كرسى الأسرة بتونس ثم انقسم الملك بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء على أقاليم الدولة بينهم وقد انتهى الانقسام الى أكثر من دولتين أو ثلاث وانقسمت الدولة الى عدة أقاليم وكما وقع فى دول الطوائف بالأندلس وفى ملك صنهاجة بأفريقية (بنى زيرى وبنى حماد) فقد كان لآخر دولتهم فى كل حصن من حصون أفريقية نائير مستقل بأمره .

وتولى ادارة شؤون البلاد بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله أمير المؤمنين أبو زكريا يحيى وهو ابن المستنصر بالله بن عبد الواحد بن أبى بكر بن عمر وبويع صبيحة اليوم الذى توفى فيه والده وقد أمر برفع المظالم والنظر فى بناء جامع الزيتونة وغيره من المساجد وأحسن الى الجند وكان غير معنى بأمر الخلافة وأعباء الملك وترك ادارة شؤون البلاد لمن لا يحسن رعاية الأمة ولا يحسن شيئا من سياسة الملك والرعية فأدى ذلك الى فساد الملك والأمور فى البلاد مما أثار عليه أسرة بنى حفص فخرج عليه عمه أبو اسحق ابراهيم شقيق المستنصر وكان مقيما بالأندلس وكان قد فر إليها زمن خلافة أخيه المستنصر وأقام بها زمانا وكان الخليفة المستنصر على علاقة ودية مع حكام الأندلس لمنع أبى زكريا اسحق من الخروج من الأندلس ، فلما مات المستنصر وتولى ولده أبو زكريا يحيى ولم تكن له دراية واسعة بشئون الحكم وادارة دفة الأمور لها فإنه

قصده الى أفريقية وأتى الى تونس وخلع أبا زكريا وسلم السلطة لعمه أبى اسحق وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوما ٦٧٧ هـ ومات عام ٦٧٩ هـ بعدما أعتقل ومات مسجوناً .

وهكذا كان ذلك الحدث والخلاف بين أسرة بنى حفص بداية تفكك الدولة الحفصية بعد المستنصر وظهور التنافس بين أبناء الأسر على الحكم وهكذا بدأت الاضطرابات ذلك لأن الوراق بن المستنصر لم يكن فى كفاءة أبيه ومن هنا استحق العزل بعد سنتين .

خلافة الخليفة أمير المؤمنين أبى اسحق ابراهيم

وهو شقيق الخليفة المستنصر وهو ابن أبى زكريا بن عبد الواحد الذى أعلن استقلال الامارة الحفصية عن الدولة المصمودية فى مراكش بويع فى تونس فى ربيع الآخرة عام ٦٧٨ هـ وكان ملكا شجاعا وفيه غلظة ودانت له كل أفريقية واستطاع أن يمسك بزمام الأمور وفى عام ٦٨٠ هـ أرسل ابنه عبد الواحد لمحاربة البلاد وحارب هواره وبنى رياح . وفى عهده قام بالقيروان الفضل بن الوراق وأدعى أنه أحق بالخلافة خلفا لأبيه الذى عزله أبو اسحق وفى عام ٦٨١ هـ عظم أمر الوراق وملك قابس واحتوى أكثر البلاد فأخرج الخليفة اليه جيشا من تونس وأمر عليه ابنه أبا زكريا ونزل القيروان لكنه هزم وأدى ذلك الى خروج الخليفة بنفسه بجيش عظيم لكنه لم يغن عنه شيئا وفر أكثر عساكره فرجع الى تونس ورحل الى المغرب ولما وصل الى بجاية كان ابنه فارس واليا عليها فتنازل عن الخلافة وخلعها لابنه أبى فارس وتلقب بالمعتمد .

وفى عهده ثار الأمير أبو بكر بن موسى الكومى أحد قواد الأمير أبى اسحق الحفصى بمدينة قسنطينة وكتب للنصارى فى أسبانيا يحرضهم على ملك قسنطينة واستعان أبو بكر بملك أرغون وتمكنت القوات المسيحية من احتلال قسنطينة لمدة

خمس عشرة شهرا لكن الأمير أبا فارس بن أبي اسحق زحف اليه بجيش من العرب عام ٦٨١ / ١٢٨٢ م وحاصرها وتمكن من الاستيلاء على المدينة وقتل أبا بكر وأخاه عمران بعد القبض عليهما وتم طرد الغزاه من المدينة .

وفي عهد الأمير أبي حفص عمر عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ظهر نورمان صقلية بجزيرة جربة وسواحل طرابلس ونهبوها واستولوا على ثلاثين سفينة وأسروا نحو ثمانية آلاف من شباب المدينة وعندما استولى الجنوبيون على طرابلس ثم طردهم وكذلك عندما عاود الجنوبيون بالاشتراك مع الفرنسيين مهاجمة الساحل الأفريقي والاستيلاء على مدينة المهديّة عام ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م تمكن الأمير أبو فارس ومن معه من العرب من استردادها بعد شهرين ونصف .

كذلك ثار في عهد أبي اسحق بن الوزير أحد قواده بمدينة فسنطينة وكتب الى النصارى يحرضهم على ملك قسنطينة وغيرها لكن أهل المدينة كتبوا الى أبي اسحق فأعرض عنهم واستعان ابن الوزير بملك أرغون وتمكنت القوات المسيحية من احتلال المدينة لمدة خمسة عشر يوما فزحف اليها الأمير أبو فارس بن اسحق ابراهيم بجيش من العرب عام ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م وحاصرها وتمكن من الاستيلاء على المدينة وأمر أبو فارس بقتل ابن الوزير وأخيه بعد القبض عليهما .

وتجهز أبو فارس بن أبي اسحاق ابراهيم والذي تلقب بالخليفة المعتمد للقاء الفضل بن الوائق وترك والده في بجاية والتقى الجمعان بقلعة سنيان لكن المعتمد قتل ولما سمع أبوه الخبر فر هاربا فأدركه أهل بجاية وأتوا به الى الفضل بن الوائق فقتله في عام ٦٨٢ هـ فكانت مدته ثلاثة أعوام وستة أشهر وعشرين يوما ولجأ ابنه الثاني أبو زكريا الى بلاد المغرب وسادت البلاد فترة من الاضطراب والقلق وسفك الدماء والفجور ونفر الناس من الدعي بعد أن تمادى في جوره وكذبه ومقته الناس ، وجاء الدور على بني حفص لكي يعود النظام الى البلاد فظهر أبو حفص بن أب زكريا وكان مختفيا

عند بني سليم في البادية والتقى عليه الناس فجاء الى تونس وحاصر الدعي وانكشف سره وفر بنفسه الا أنه تم القبض عليه ثم طوف به على حمار ثم قطع رأسه فكانت مدة توليه بتونس سنة ونصف غير ثلاثة أيام وذلك أواخر عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م .

خلافة أمير المؤمنين أبي حفص عمر

هو ابن زكريا بن يحيى بن عبد الواحد أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر بويق عام ٦٨٣ هـ / ١٢٤٨ م وكان خليفة عاقلا كريما لم تحدث منه عقوبة لأحد وكان يعظم العلماء والصالحين ولم يزل على أكمل الحالات في أواخر أيامه أيام عدل وهناء وكان بنو سليم من الأعراب قد نصره وأقاموه على عرش البلاد وكان على أبي حفص أن يوفى الدين لبنى سليم فترك لهم خراج بعض المدن وأقطعهم الأرض بالمجان .

وكانت قبائل سليم قد ثارت بقيادة أبي الليل بن أحمد زعيم عرب الكعوب وبايعت الأمير أبا حفص عمر الثاني الذي تنازل أبوه أبو اسحق ابراهيم الأول له عن الحكم وجهزت القوات الحفصية بالآلات والخيول وغير ذلك مما ساعد على احراز النصر وهزيمة ابن مرزوق وأنصاره ودخلت سليم تونس عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م لتعيد الدولة الحفصية مرة أخرى .

وان من نتيجة ضعف الدولة الحفصية وانقسامها والصراع بين امرائها من ناحية وتهديد الممالك المجاورة لها من بني عبد الواد في تلمسان وبني مرين في قابس من ناحية أخرى ان اضطر الحفصيون أن يكون الاعتماد على بعض القبائل العربية يكاد يكون تاما حيث أنه لم يكن من السهل على أمراء الدولة الحفصية الحفاظ على بلادهم في حالة تخلى هذه القبائل عنهم .

وكان من أثر عودة الخلافة الحفصية مرة ثانية والقضاء على الدعي الفاطمي الذي كان يهدف الى بعث الدولة الفاطمية أن منح الأمير أبو حفص الثاني أنصاره من

العرب الاقطاعات الواسعة وجباية القبائل المستقرة مكافأة لهم رغم أن سياسة الحفصيين تجاه القبائل العربية بأفريقية تعارضت مع ذلك خوفا من ازدياد قوة هذه القبائل .

بل بعض القبائل العربية مثل رياح استغلت الصراع القائم في البيت الحفصي حول السلطة فأيد زعماء هذه القبائل الأمير أبا زكريا يحيى التأثير على عمه الأمير أبي حفص عمر وعاونوه على الاستيلاء على مدينة بجاية وقسنطينة مما أدى الى انقسام الدولة الحفصية عام ٦٨٤ هـ / ١٢٨٤ م .

وكان الأمير لما أصابه المرض الذي توفي بسببه عهد بولاية الخلافة الى ولده عبد الله محمد الا أن رؤساء القبائل والمشايخ لم يرضوا عن هذا الترشيح لصغر سن عبد الله فاستشار ولي الله الشيخ المرجاني فأشار عليه بتولية أخيه أبي عبد الله محمد بن عصيد فقبل إشارة الشيخ وانفذ بعهدته وتوفى آواخر ذى الحجة عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م بعد أن حكم البلاد أحد عشر عاما وثمانية أشهر وله من العمر اثنان وخمسون عاما وقام بالأمر بعده أبو عصيد .

خلافة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن أبي عصيد

هو ابن أبي زكريا يحيى المستنصر بالله بن أبي زكريا بن عبد الواحد ابن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر بوبع عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م وكانت أيامه هادئة وهدنة وعافية وسلم ولا حروب نشطت الحركة التجارية والزراعية والصناعية وكانت أيامه عدل ورخاء وكانت خلافته أربعة عشر عاما ومات عام ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م ولم يترك خلفه عقبا من الذكور فأوصى بالخلافة من بعده الى يحيى أبي بكر .

* * * *

خلافة أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر الشهيد

هو ابن الأمير عبد الرحمن بن الأمير أبي بكر بن أبي زكريا يحيى ابن الخليفة المستنصر بالله بن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر بوبع بالخلافة يوم وفاة أبي عصيد وكانت مدة حكمه ستة عشر يوما حيث قتل وسمى بالشهيد وكان قد خرج جنده الى أبي البقاء خالد معترضا على خلافته بعد أن كان هذا يحكم مدينة قسنطينة وتقابل معه أبو بكر لكن جيشه انهزم ورجع هو هاربا وقبض عليه فقتل ولذلك سمي شهيدا .

خلافة أبي البقاء خالد

هو ابن زكريا يحيى بن أبي اسحق ابراهيم بن أبي زكريا يحيى بن المستنصر بالله بن أبي زكريا يحيى عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر . كان عاملا على بلد العناب وقسنطينة بعد وفاة والده أبي زكريا وكان يضع تاج الملك على رأسه ويركب بغلة عالية وذلك في حالة قيام الخليفة أبي يحيى بن أبي بكر الشهير بالحكم ولقد كان من جراء ذلك أن ظهر أكثر من واحد يدعى العرش فذهب استقرار الدولة وقام أبو زكريا الثاني ينافس خليفة تونس ومد سلطته الى قسنطينة وظل ينافس ثلاثة وعشرين عاما حتى اذا نجح قام أبو البقاء خالد في هذا ونجح في اقضاء وقتل الشهيد يحيى بن أبي بكر وكان لما دخل تونس العاصمة أنكب على ملذاته ولهوه وترك سياسة الملك وقام عليه أبو يحيى زكريا بن اللحياني وقدم من المشرق ودخل طرابلس ورأى اضطراب الأحوال وسوء حالة الرعية والأحوال في أفريقية فطلب الخلافة فبوع بها في طرابلس وانضم اليه العرب من أولاد أبي الليل ودخل تونس أول عام ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م فاجتمع القاضي ابن عبد الرافع بالسلطان أبي البقاء خالد وحرضه على الدفاع عن سلطته لكنه اعتذر عن القتال ودخلت القبائل العربية المدينة وأخذت البيعة من الخليفة خالد ومن معه من الجند وقتل بعد ذلك وبوع بالخلافة لأمر المؤمنين أبي يحيى بن اللحياني وكانت ولايته عامين وستة أشهر .

خلافة الأمير أبي يحيى اللحياني

هو الأمير ابن أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد اللحياني بن عبد الواحد بن أبي بكر الشيخ أبي حفص وقد أخذ له البيعة شيخه المزدوري ثم أقبل هو بعد فملك العاصمة تونس في ثاني رجب عام ٧١١ هـ . ونزل المحمدية وجددت له البيعة هناك . وقد كان خليفة واعيا مدركا لأمر الرعية بالإضافة الى أنه كانت له مشاركة في العلم والأدب وعندما تولى عرش البلاد كان قد تقدم في السن دق وساس الأمور بخبرة ودراية وروية . وهو تاسع أو عاشر ملوك الحفصيين كما ذكر ابن خلدون بافريقية وكان قد خرج عنه الملك ولحق بمصر فرارا في طلب صاحب الثغور العربية لما تجمع لغزو تونس فاستعجل اللحياني الرحلة الى ثغر طرابلس وركب السفن من هناك وخلص الى الاسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجده في بيت المال من النفائس والذخيرة وباع كل ما كان بخزائنهم من المتاع والعقار والجواهر حتى الكتب وحمل ذلك كله الى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٧ هـ فأكرم نزله ورفع مجلسه ومات عام ٧٢٨ هـ ويذكر ابن أبي دينار ان الذي كان ثار عليه من الثغور العربية هو الأمير أبو يحيى أبو بكر فعلم الأمير اللحياني أنه لا طاقة له بقتاله ولقائه واضطربت عليه البلاد فجمع الأموال والذخائر وباع كل ما في القصور والكتب والتي جمعها أبو زكريا بيعت في الوراقين وجمع نحو عشرين قنطارا من الذهب سوى الفضة والقصور وغير ذلك وخرج الى قابس ثم الى طرابلس من خلال الفترة حكم فيها كل من اللحياني وابنه أبي خربة محمد الثالث التي استمرت حتى عام ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م ازدادت سلطة العرب وأصبحت سلطة الحفصيين بتونس اسمية حتى فضل اللحياني الانسحاب الى مخيمات عرب زباب من أبناء سليم بطرابلس تاركا الأمور لابنه أبي خربة الذي عمل على الحد من سلطة العرب الذين أرهقوه بمطالبهم من ناحية والوقوف في وجه الأمير أبي يحيى أبي بكر منافسه على السلطة من ناحية أخرى

ولكنه فشل في المهمتين مما اضطره الى اللحاق بأبيه تاركا القبائل العربية من سليم تدافع عن استقلالها الذاتي أمام زحف الأمير أبي بكر الذي أنزل بهم هزيمة منكرة وقتل الكثير من زعمائهم وشرذ الباقي في أنحاء البلاد وسيطر على أمور تونس في الفترة من ٧١٨ - ٧٤٧ هـ / ١٣١٨ - ١٣٤٧ م الى أن بويع ابنه أبو خربة وحكم ستة أعوام وثلاثة شهور .

وتولى الأمير أبو عبد الله محمد بن اللحياني الذي عرف بأبي خربة خلفا لأبيه الذي تنازل عن الملك بعد أن خرج عليه أبو يحيى بن أبي بكر وكان أبو خربة مسجوناً عند القاضي فأطلق سراحه وتولى الخلافة خلفا لأبيه ودخل أبو خربة تونس عام ٧١٧ هـ في منتصف شعبان وتلقب بالمستنصر ولكن فترة حكمه للبلاد لم تطل فقد عاد عليه الكرة كما فعل مع أبيه الأمير يحيى بن أبي بكر فهرب أبو خربة الى المهديّة بها وبلغ خبرة أبيه الذي كان لا يزال يقيم في طرابلس ولم يكن قد وصل الى مصر بعد فأرسل اليه السفن التي حملته الى طرابلس وحمل ما له وأهله وسافر مع أبيه الى مصر وكانت فترة ولاية أبي خربة ثمانية أشهر وثلاثة أيام واستطاع الأمير أبو يحيى أبو بكر أن يدخل العاصمة وينادي به خليفة للبلاد والذي ينظر الى ما يحدث بين الأمراء يدرك الى أي مدى بلغت الدولة من الضعف والانقسام وعدم السيطرة على مقاليد الأمور فخليفة يتولى الحكم ثمانية عشر يوما ، وآخر ثمانية شهور وثالث عاما ونصف والأدهى في الأمر أن العزل والاقصاء عن السلطة الشرعية يتم عن طريق أمراء من البيت الحفصي وبدون أدنى تدخل من قبل أية جهة أخرى اللهم الا المساعدة من بعض القبائل العربية لأمير على أمير وكل ذلك أدى الى انهيار الدولة وعدم قدرتها على مواجهة الأحداث الداخلية والخارجية وطمع الطامعين في الخارج والداخل مما عجل بالقضاء على الدولة الحفصية التي لعبت دورا هاما في الساحة المغربية الاسلامية والدولية في عصر السلاطين الأقوياء الذين أقاموا علاقات وطيدة مع البلدان المجاورة .

خلافة الأمير أبو يحيى أبي بكر

هو ابن الأمير أبي زكريا بن أبي اسحاق ابراهيم بن أبي زكريا بن أبي عبد الله محمد المستنصر بن أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ عام ٧١٨ هـ . وكان شجاعا محبوبا عند العامة والخاصة وكان لا يولى القضاء لأحد الا بعد أن يشهد فيه العدل والحكمة وشهد القضاء فى عهده أعدل أيام الدولة الحفصية حتى طلب القصاص من ابنه الذى ارتكب جناية وطلب منه الا يترك حقا حتى لو كان على ولده وكان يحب الشرفاء ويكرمهم وكان جده أبو اسحاق قد أثبتهم فى زمام الموحدين لكن عندما تولى الخليفة أبو يحيى هذا أجزل للعطاء للاشراف ، وأقطعهم الأراضى والضياح وملكهم أياها وقسموها بينهم ودخل فى صراع مع بنى عبد الواحد فى المغرب الأقصى ودخل فى قتال مع العرب وانتصر عليهم ودانت له البلاد وتلقب بالمتوكل على الله وفى حكمه فتح قائده ابن الحكيم مدينة المهديّة وكانت لا تزال فى طاعة اللحياني وولده من بعده فتحت عام ٧٣٩ هـ . وفى عام ٧٤٣ هـ أغار العرب على تونس وأقاموا سبعة أيام ثم ارتحلوا وخرج السلطان فى أثرهم وهزمهم هزيمة بشعة . وكان قد عين ولده أبا العباس للخلافة وكان ببلاد الجريد وبقية أولاده فى الأعمال التى يقومون بها ولم يبق بين يديه الا ولده أبو حفص عمر للخلافة .

خلافة أبي حفص عمر

هو خليفة أبي يحيى أبي بكر بن أبي زكريا بن أبي اسحاق ابراهيم بن أبي زكريا بن أبي عبد الله محمد المستنصر بن أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص الهنتاتى بويج يوم موت والده ثانيا رجب ولم يلتفت الى عهد أبيه لأخيه أبي العباس . لكن عندما بلغ خبر تولى أبي حفص عمر الخلافة فان أبا العباس التجأ الى العرب وزحف الى تونس وحاصرت العرب تونس وأخذ زعيم العرب أبو الليل وزيره المعز بن مطاع (المعن بن مطاعن) الى الأمير أبي العباس بن السلطان ووالى قفصة

لتحريضه على الثورة ضد أبيه والدعوة لنفسه فقبض أبو العباس على الرسول وقتله ولكنه عاد ورحب بمخالفة العرب بعد وفاة أبيه أبي بكر عام ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م ونازعه على السلطة أخوه الأمير أبو حفص عمر فساعدته القبائل العربية حتى استولى على تونس ولكن أبا حفص عمر تمكن من اقتحام المدينة وقتل أخاه وأنصاره من زعماء العرب البالغ عددهم أكثر من ثمانين رجلا . فعاود العرب الوفود على أبي الحسن المريني مطالبين بثأر شيوخهم فاستغل هذه الأحداث وزحف الى أفريقية وقام بنو حمزة بن عمر وعرب الكعوب بملاحقة الأمير أبي حفص عمر الهارب وأعوانه فأدركوه .

وقامت العامة على العرب فلم يفلت الا القليل وأقام المولى عمر الى أن تحرك عليه أبو الحسن المريني فهرب أبو حفص فأدركه أبو الحسن المريني بتونس فقتل هناك وكانت أيام حكمه بتونس عشرة أشهر وثلاثة عشر يوما ومات سنة ٧٤٨ هـ وانتقل الأمر الى بنى مرين .

* * * *

الفصل الخامس

سيطرة بنى مرين على تونس

قتل أبو الحسن المريني الخليفة التونسي الحفصى أبا حفص عمر بجوار قابس عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م وأصبحت تونس خاضعة لسيطرة بنى مرين حتى عام ٧٥٠ هـ / ١٣٥٠ م ولذلك فإننا نجد أنه منذ قوى أمراء بنى مرين فى المغرب الأقصى فإنهم بدأ يتطلعون الى السيطرة على المغرب الأوسط والأدنى (أفريقية) فلما تمكنوا من السيطرة على المغرب الأوسط نظروا الى أفريقية طامعين فى بناء حكم المغرب الكبير وتنوعت العلاقة بين بنى مرين والحفصيين واختلفت بين الطاعة والسيطرة والاستقلال حتى وصل الأمر الى حد استعانة الدولة الحفصية بالدولة المرينية وطلب العون والمساعدة العسكرية منها للقضاء على أطماع دولة بنى زيان (عبد الواد) فى تلمسان ، الا أن دولة بنى مرين سرعان ما أظهرت اطماعها فامتدت يدها للسيطرة على الدولة الحفصية وخضعت املاك الدولة الحفصية للسيطرة المرينية لفترتين من فترات السيطرة الحربية اذ تم الاحتلال الأول فى الفترة من ٧٤٨ - ٧٥٠ هـ . فى حين بدأ الاحتلال الثانى ٧٥٣ - ٧٥٨ هـ وسيطر بنو مرين على معظم أجزاء الدولة ففى الفترة كما سبق العرض سابقا من ٧٤٨ - ٧٥٠ هـ . تولى الخليفة أبو بكر الحكم عام ٧٤٧ هـ وكان قد جعل ولاية العهد لابنه أبى العباس أحمد والى وحاكم قفصه الا أن أخاه الأصغر أبا حفص عمر بن أبى بكر تمكن من الاستيلاء على الخلافة ودخل تونس وأخذ البيعة من العلماء والعامة وقاضى القضاة وتمت البيعة لأبى حفص عمر عام ٧٤٧ هـ وقد أدى هذا العمل الى حدوث انقسام فى الأسرة الحفصية والى نتائج سيئة لمستقبل الأسرة الحفصية جميعها . اذ أسرع ولى العهد الشرعى أبو العباس أحمد الى المطالبة بحقه فى الخلافة وجمع حوله الأعوان من العرب وساعده أخوه أبو فارس حاكم ولاية سوسة الا أن أبى حفص عمر استطاع

الهروب من العاصمة تونس الى الأقاليم الغربية وتمكن أبو العباس من دخول تونس الا أن أبا حفص عمر عاد بقوات كبيرة وحشود عسكرية كثيفة العدد وتمكن من دخول العاصمة تونس والسيطرة على مقر الخلافة وقتل أخاه أبا العباس أحمد كما قتل الأخوين الآخرين وقتل عددا كبيرا من العرب الذين ساعدوا وعاونوا أبا العباس فى السيطرة على تقاليد الأمور فى البلاد ولقد كانت هذه الحادثة وما آل اليه بقتل أبى العباس السبب المباشر لتدخل بنى مرين فى شئون الدولة الحفصية واحتلال البلاد عام ٧٤٨ هـ وكانت حجتهم فى التدخل ان الأمير أبا الحسن أمير بنى مرين كان أحد شهود عقد الولاية لأبى العباس أحمد فقد شهد هذا العقد عندما أرسل أبو بكر حاجبه أبا القاسم بن عيون فى سفاره الى بنى مرين وهكذا طمع أبو الحسن المرينى فى تملك بلاد أفريقية بعد ما أحس بضعفها وعدم قدرتها على الدفاع عن سيادتها من أثر الحروب الداخلية بين أبناء أبى بكر ومقتل الأخوة الثلاثة وبقاء أبى حفص عمر فى السلطة .

وبعد ما لجأت الدولة الحفصية اليه والى أبيه طالبة العون والمدد لحمايتها من عدوان بنى عبد الواد وبعد ما استطاع أبو الحسن نفسه أن يفرض سلطانه على المغرب الأوسط ومحاولة أبى الحسن أن يكون الوارث الوحيد لعرش الدولة الموحدية فى المغرب والاستيلاء على كل المغرب الكبير كان أبو الحسن يحدث نفسه بالسيطرة على تلمسان وأفريقية .

وكان أبو الحسن المرينى قد أعد عدته لاحتلال أفريقية واستعان بقوات من بنى عبد الواد وبقوات من بقية ولاء الدولة الحفصية فى الأقاليم الحفصية ومن بعض القبائل العربية وقدمت له العون الولايات التى دخلت تحت حكمه ومنها قابس ، وتورز، قنصة ، الزاب ، طرابلس ، قسنطينة وتمكن جيش أبى الحسن المرينى من القبض على الخليفة أبى حفص عمر وعلى قائده وتم قتلها يوم ٢٧ جمادى الأولى

٧٨٤ هـ اذ كان بعيدا خارج العاصمة الا أن الأمير أبا حفص عمر فضل القتال وفي نهاية الأمر استشهد وبهذا استولى أبو الحسن المريني على أملاك الدولة الحفصية ودخل الأمير المريني أبو الحسن مدينة تونس في ٨ جمادى الآخرة عام ٧٤٨ هـ لتكون جميع أجزاء المغرب قد خضعت لسيطرته من المحيط غربا الى طرابلس شرقا . وكان السبب في سيطرته على أفريقية كما ذكر ذلك ابن أبي دينار أن ابن تافراجين ، لما فر الى المغرب وقد أعلم أبا الحسن المريني واستحثه على تملك أفريقية فتحرك من المغرب واجتمعت عليه الأعراب وأخذ بجايه وقسنطينة وعين عماله عليها وسيطر على أفريقية وأملاك الموحدين ودخل تونس بجيوش لا تحصى وشرع في بناء مدينة فوق سيكوم اسمها المنصورة لسكنى جيشه . وقد بايعه بتونس خمسون سلطانا في يوم واحد من بنى عبد الواحد (أبناء حفص) والأندلس وغيرها .

ولما تملك البلاد منع العرب من أعطيتهم ومنعهم الاقطاعات فانقلبوا عليه وشنوا الغارات في جميع البلاد وقد تزعم ثورة العرب أبو بن حمزة ضد المرينين . فخرج اليهم والتقى معهم قرب القيروان فتحصن بمعسكره وفر بمن بقي معه الى القيروان هاربا . وكان السبب في طرده من تونس ثورة القبائل العربية اذ أنها أول من قاومت الاحتلال وكانت قد ساعدت أبا الحسن المريني من قبل وبدءا لبعض العمليات العسكرية وكان أبا الحسن المريني قد قبض على أربعة من شيوخهم مما زاد في أمر الخلاف بينهما وكان أبو الحسن المريني قد اتهم هؤلاء الشيوخ بالاتصال بعبد الواحد اللحياني الحفصي وتخريضه على الثورة ووعده بمساعدته مما زاد في أمر الخلاف بينهما، لكن هذه القبائل العربية استطاعت في ٢ محرم ٧٤٩ هـ هزيمة أبي الحسن المريني قرب القروان وكان السبب المباشر لانتهزامه انفصال قوات بنى زيان (عبد الواد) عن قوات أبي الحسن المريني وتركها منفردة تواجه الهزيمة فأدى ذلك الانسحاب المفاجئ للقوات الزيانية الى الهزيمة وضعف موقف أبي الحسن المريني وحاصر العرب القيروان

وذلك عام ٧٤٩ هـ فطلب السلطان المريني الصلح وتوجه بعض الأمراء ومعهم عدد من لعرب الى تونس وحاصروا قصبته ورموا عليها بالمجانيق وفي أثناء المعارك توسط بعض العرب من أولاد مهلهل لدى السلطان المريني وروا رفع الحصار عنه وأن يفرجوا عنه على مال اشترطوا عليه فوفى لهم به وساروا به الى سوسة وركب منها البحر وقدم الى تونس فلما رحل السلطان فقدته أصحابه تشتت جميعهم ورحلوا عن تونس .

وفي أثناء ذلك قاد حركة المقاومة أحد الأمراء الحفصيين الذين أعادهم الأمير أبو عثمان المريني بن الحسن الذي طمع في ملك أبيه وكان السلطان أبو الحسن المريني قد بلغه ان ابنه عثمان استقل بملك المغرب وانه سمع بوفاة والده وقت حصار القيروان وشهد له بذلك جماعة من العلماء والعامة فأقام نفسه سلطانا على المغرب وكان الذي دفع الأمير أبا عثمان أبا الحسن المريني أنه كان طامعا في العرش وأن يكون هؤلاء الأمراء الحفصيين الذين أفرج عنهم سدا حائلا في الأقاليم الغربية من أفريقية بين أبيه والمغرب الأقصى والأوسط لكي يحكم هذه الأجزاء بسبب الاستيلاء على الحكم عند غياب أبيه في تونس وقد استغل هؤلاء الفرصة وتعاهدوا مع العرب على الموت وعملوا على استقدام السلطان أبي العباس بن الفضل من مدينة بونة لطلب حقه واسترجاع ملك أبيائه وانقضت أقرقة على السلطان أبي الحسن المريني مما اضطره الى العودة الى المغرب بعد أن اشتد الغلاء وكثر الوباء في تونس وكانت عودته أوائل عام ٧٥٠ هـ . تاركا ابنه واليا على أفريقية الا أن أبا العباس الفضل تمكن من استعادة أفريقية من أبي الحسن المريني ودخل دار الخلافة وتمت له البيعة وانتهت فترة الاحتلال المريني . وكان أبو عثمان بن أبي الحسن المريني لما سمع بأن أبيه لا زال حيا بعث لجميع عماله أن يصدوا أبيه عن التوجه الى المغرب لكن أبا الحسن خرج من تونس وركب البحر وتوجه الى المغرب واستطاع أبو العباس الفضل الحقيقي أن يسيطر على الموقف وأن ينهى فترة الاحتلال المريني التي استمرت عامين وستة أشهر وخمسة عشر يوما

والتي انتهت فى ذى القعدة عام ٥٧٢ هـ . ورجع ملك أفريقية الى بنى حفص بعد أن تم القضاء على أبى الحسن المرىنى .

الأسرة الحفصية بعد الجلاء الأول لبنى مرىن

كانت فترة سيطرة بنى مرىن على تقاليد الأمور فى تونس عامين وستة أشهر وخمسة عشر يوما حيث أشار الى ذلك ابن أبى دينار وكان للثورة التى قادتها القبائل العربية أثرها الكبير فى طرد الغزاة من بنى مرىن من البلاد ، بعد أن أجمع أمراء الأسرة الحفصية على طردهم من البلاد باعتبارهم غزاة وليس ساعين لوحدة المغرب كما فعل من قبلهم المرابطون والموحدون .

آلت أمور البلاد الى أبى العباس الفضل بن يحيى أبى بكر بن أبى زكريا ابراهيم ابن أبى زكريا بن يحيى بن محمد المستنصر بن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى وقد بويغ بالخلافة ثانى يوم تم فيه طرد الأمير المرىنى من البلاد وتمت البيعة فى أول ذى الحجة عام ٧٥٠ هـ ولما تولى حكم البلاد وكان قد تم طرد الغزاة منها فإنه لم يقم بأدنى مجهود عسكري لتأمين حدود الدولة بل ركن للراحة وشاركه العرب فى الديوان .

وكانت القبائل العربية قد ثارت على بنى مرىن حينما علموا على الحد من سلطتهم وفكروا فى تقليص أظافرهم وقبض يدهم عن جباية القبائل المستقرة التى احترفت الزراعة سواء من العرب أم البربر فانقلب أفريقية بالثورة مما اضطر أبو الحسن المرىنى للانسحاب منها وقد حفظ بنو حفص الجميل للعرب . وزوج أبو العباس الفضل أخته لأبى الليل بن حمزة وذلك لكى يدعم هذا الزوج الحكم الحفصى ويقرض سيطرته على القبائل العربية .

وكان كبير قبائل أولاد أبى الليل عمر بن حمزة بالحج بمكة ومعه الشيخ أبو

محمد عبد الله بن تافراجين وبعد عودتهما من الحج اتفقوا جميعا على خلع الأمير أبى العباس الفضل بن يحيى الحفصى وكانوا قد بعثوا اليه فخرج مع جماعة له فقبضوا عليه وعلى أصحابه الذين معه وجردوهم من أسلحتهم وحددت اقامتهم بين مخيمات عرب أولاد أبى الليل ، ودخل ابن تافراجين زعيم عرب أولاد أبو الليل الى تونس وأخرج الأمير أبا اسحاق ابراهيم وأقاموه فى الخلافة وأولوه منصبا شكليا وأجلس بمجلس الخلافة وقتل الخليفة أبو العباس بعد أن دامت فترة حكمه خمسة أشهر .

ومن هنا نرى أن العرب الذين كانوا السبب فى طرد بنى مرىن من البلاد أصبحوا هم أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد وأن الخلفاء كانوا يخضعوا لأوامرهم وما حدث من القبض على أبى العباس وقتله وتولييه وإل آخر فى الدولة الحفصية بدلا منه خير دليل على ذلك .

الا ان تدخل بعض القبائل العربية فى شئون الحكم مباشرة أدى الى تدمير بعض الفصائل الأخرى فتخربت البطون ونشأ صراع فادى الى اغتيال كبير أولاد أبى الليل والذي كان السبب فى مقتل أبى العباس الفضل فنصب العرب الأمير أبا اسحق ابراهيم المستنصر خليفة للبلاد وحيث جلس مجلس الخلافة بعد أخيه أبى العباس الفضل وزاد نفوذ العرب وخاصة ابن تافراجين الذى قام بتدبير شئون الدولة وعنت همته الى أن سلم عليه سلام الملوك وجعل كل البلاد فى يده بدلا من العرب واستبد بالشئون الداخلية وجعل القيروان وباجة وسوسة والأربس قرطاجنة تحت حكم خاصته وفى معظم بقية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) كانت الدولة الحفصية مقسمة الى ثلاثة أقسام تونس وبجاية وقسنطينة وكان الأمير الحفصى السادس عشر أبو العباس أحمد الملقب بالمستنصر هو الذى استطاع التغلب على منافسيه وأعاد وحدة البلاد ، وفى أثناء حكم أبى اسحق بن ابراهيم بدأ الخطر المرىنى يزحف على البلاد للمرة الثانية .

سيطرة بنى مرين الثانية على تونس (أفريقية)

لم يدم خروج المرين من البلاد في المرة أولى أكثر من خمس سنوات تولى فيها اثنان من الولاة الحفصيين هما أبو العباس الفضل وأخوه إبراهيم بن أبي اسحق، وقد عانت البلاد الكثير من المشاكل في أعقاب فترة السيطرة المرينية الأولى وعانت البلاد حياة فيها شيء غير قليل من القلق والاضطراب بسبب كثرة الحروب وحركة المقاومة وكانت تونس محط أنظار العرب، كما أن الأقاليم الغربية المجاورة لبنى عبد الواد وبنى مرين كانت مضطربة، كما أن كثرة الحروب أدت إلى انتشار الأمراض وإلى اضطراب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية أثناء الاحتلال واضطربت كذلك الأحوال السياسية، وقد أدى ذلك الاضطراب السياسى إلى قتل الخليفة السابق أبى العباس الفضل.

ولقد تحسنت العلاقات لفترة قصيرة بين الدولة الحفصية ودولة بنى مرين عقب انتهاء مدة الاحتلال السابقة فتبدلت الهدايا بين الخايفة الحفصى والأمير المرينى، لكن أطماع الأمير المرينى أبى عنان فى ملك أفريقية أفسدت ود هذه العلاقة ذلك لأن الأمير المرينى كان يفكر جدياً فى جعل أفريقية تحت سيطرته وأنه يريد أن يحقق ما لم يستطيع أن يحققه أبوه.

فبدأ أبو عنان عام ٧٥٣هـ فى إفساد العلاقة بالخليفة الحفصى وتوطيد علاقته مع والى بجاية الحفصى الأمير أبى عبد الله بن محمد ونجاحه بعد أن تمكن من إعادة سيطرته على المغرب وقد استغل أبو عنان فرصة وجود والى بجاية الحفصى فى المغرب فأرهبه حتى جعله يتنازل عن ولاية بجاية دون إراقة دماء، وأنه لم يأت عام ٧٥٥هـ إلا وكان السلطان أبو عنان المرينى قد أخضع بجاية واستولى عليها من أيدي الحفصيين وواته الفرصة بعد أن كان طامعاً فى امتلاكها.

بعد أن انضم إلى سلطانه كل من والى قابس وطرابلس، فقد عين أبو عنان

المرينى حاكمين عليهما من قبله، وهكذا بعد أن استولى أبو عنان على كل من بجاية.. فإنه فرض سلطانه على قابس ونظر أو بدا النظر إلى قسنطينة لأنها قاعدة قوية، والذى يستولى عليها يتمكن من الاستيلاء على تونس. لذا.. فإننا نجد القوات المرينية تقوم بالزحف عام ٧٥٣هـ على قسنطينة فاضطر بنى مرين إلى رفع الحصار عنها، وكذلك انتهى أمر بجاية بعد أن زحف عليها عرب الزواودة وغيرهم فاضطر بنو مرين إلى فك الحصار عن بجاية.

وشهد عام ٧٥٥هـ المحاولة الجريئة الثانية لأخذ مدينة قسنطينة من أيدي الحفصيين إذ عادت جيوش بنى مرين لحصار المدينة لكن أبا عنان اضطر لفك الحصار مقابل تسليم الأمير المرينى بن عمر تاشفين الذى كان يقيم بالمدينة لاجئاً إليها وعادت قوات بنى مرين إلى بجاية وعادت محاولة ثالثة عام ٧٥٦هـ لكنها فشلت فعادت للمرة الرابعة عام ٧٥٧هـ إلا أن المدينة قاومت وصمدت وتأتى المحاولة الخامسة لأخذ قسنطينة بحجة ما فعله والى قسنطينة أبو العباس الحفصى من هجومه على جند بنى مرين فأعد أبو عنان عدته وأخذ يزحف تجاه قسنطينة عام ٧٥٨هـ ونزلت قوات بنى مرين إلى المدينة قبل وصول الحفصيين إلى ساحة قسنطينة واستطاعت أن تستولى عليها بعد حصار استمر أكثر من أربعين يوماً ويعين أبا عنان المرينى والياً عليها من قبله ويزيد حدود ما يملكه الأمير المرينى أبو عنان من تمكنه من ضم بونة إليه وفر عامل الدولة الحفصية.

ثم كان على أبو عنان أن اتجه إلى العاصمة تونس؛ فقد أعد عدته وحشد جنده وبدأ يستعد للاستيلاء على تونس، وأرسل جيشين أحدهما بحرى والآخر برى ووصلت الأساطيل أولاً وبدأت هجومها إلا أن والى المدينة ابن تافراجين استطاع أن يهزم الأسطول ويطرده من مياه المدينة ثم وصلت الأخبار بأن القوات البرية فى طريقها للوصول ففر ابن تافراجين إلى المهديّة بعد أن كانت القوات البرية تطبق الحصار على

العاصمة تونس، وتمكن الجيش والأسطول من دخول تونس في رمضان ٧٥٨ هـ، وملكوا تونس، وتمت البيعة لأبي عنان في أغلب أجزاء أفريقية، وكان أبو عنان على رأس الجيش البري، ولم تباع له مدن المهديّة وسوسة وتوزر؛ حيث كانت تلك المدن في يد الخليفة الحفصيّ وظلت المهديّة في طاعة الدولة الحفصيّة.

وكما بدأت مقاومة الاحتلال الأول بنشاط القبائل العربيّة بدأت مقاومة الاحتلال الثاني بمقاومة العرب، ولم تتمكن المقاومة العربيّة المشكلة من أولاد أبي الليل وأولاد مهلهل من الدفاع عن أفريقية باسم الحفصيين من وقف زحف المرينين بقيادة أبي عنان فتحولوا لمبايعتهم فكافأهم أبو عنان ومنحهم الأراضي كإقطاعيات وأثبت ذلك في السجلات والصكوك وأخذ أبناءهم رهينة مقابل طاعتهم، وحينما أراد أبو عنان المريني أن يقوم بتنظيم تونس وأفريقية ويقضى على الفوضى الضاربة في البلاد كما سبق أن حاول أبوه أبو الحسن أحس العرب بالخطر على استقلالهم الذاتي وبادروا إلى الثورة وأحس عرب الزواودة بخطورة أبي عنان عليهم فمنع الاعطيات عنهم فجاهر العرب بالخلاف والعداوة واضطر أبو عنان للخروج من تونس ومطاردة زعيم العرب لكنه لم يلحق به واضطر إلى الذهاب إلى قسنطينة، لكنه عندما أراد العودة تحركت عناصر عربيّة أخرى للمقاومة واعترضت طريقه شمال غرب فقصه وحدث انشقاق في الجيش المريني وانصرف كثير منهم إلى المغرب؛ فما كان من أبي عنان إلا أن تراجع إلى المغرب وخشيت القبائل المرينية أن يكون مصيرها مصير قوات أبي الحسن من الهزيمة المخجلة فتسللوا من جيش السلطان، حتى أدرك أنه لا جدوى من بقائه فانسحب إلى المغرب بعد أن لجأت قوات الأسطول المريني إلى سفنها وتركوا ما كان معهم من العدة والعتاد وأبحروا من تونس.

ولما سمع ابن تافراجين بذلك قصد تونس وأسرع أهل تونس بالثورة على من تبقى من جيش بني مرين ودخلوا المدينة فعادت المدينة إلى ملك الحفصيين، لكن

الجهة الغربيّة بجاية وقسنطينة ظلت تحت سيطرة بني مرين وحرص أبو عنان على بقاء هذه الأقاليم تحت سيطرته ومات أبو عنان عام ٧٥٩ هـ بعد عودة الجيش إلى المغرب فتولى أخوه أبو سالم المريني حكم البلاد وثار أهل بجاية ضد الوالي المريني وكتبوا الخليفة فأسرع إلى المدينة وتمكن من استعادتها عام ٧٥٩ هـ وأصبحت قسنطينة آخر المدن التي بقيت تحت سيطرة بني مرين بعد أن نجح المرينيون في استعادة بجاية ولم ترجع بجاية في إطار الدولة الحفصية حتى رمضان ٧٦١ هـ. عندما تنازل عنها الخليفة المريني أبو سالم للخليفة الحفصيّ حفظاً للجميل للأمير الحفصيّ أبي العباس الذي ساعده في تولي الحكم في المغرب الأقصى.

وبعودة قسنطينة إلى الدولة الحفصية ينتهي الاحتلال المريني الثاني للبلاد الذي بدأ عام ٧٥٣ هـ وانتهى عام ٧٦١ هـ والذي دام ثمانية أعوام وكان الاحتلال الأول من عام ٧٤٨ هـ - ٧٥٠ هـ وقد دام عامين ونصف العام.

وهكذا نرى أن محاولة بني مرين السيطرة على الدولة الحفصية قد باءت بالفشل رغم تكرار المحاولة أكثر من مرة ورغم سيطرتها على مقاليد الأمور لأكثر من عشر سنوات إلا أن قوة وصلابة الجبهة الداخلية بقيادة أمراء بني حفص ومساعدة القوات العربيّة ودورها في صد الهجوم المريني قد جعلت تلك السيطرة تفشل في فرض نفوذها على الديار الحفصية.

وإذا كانت سيطرة بني مرين على بعض الأقاليم الغربيّة قد امتدت هذه الفترة إلا أن الخليفة الحفصيّ استطاع أن يدخل عاصمة بلاده تونس عام ٧٥٨ هـ ولم تدم القيادة المرينية في العاصمة إلا شهراً قليلاً ومن ثم يكون العدوان المريني على الديار الحفصية ما هو إلا غزوة طارئة حيث أنه لم يستطع أن يسيطر على جميع البلاد فيما عدا البلاد الغربيّة وإن بقاءه في العاصمة لم يدم طويلاً وذلك يعود لدور القبائل العربيّة. وهكذا عاد الخليفة أبو إسحق إبراهيم الثاني إلى تونس وآلت رئاسة عرب أولاد

أبى الليل الى منصور بن حمزة الذى تمكن من فرض سيطرته على أبى اسحق وابنه خالد من بعده .

* * * *

الفصل السادس

الدولة الحفصية بعد طرد بنى مرين

تولى أبو اسحق ابراهيم ادارة البلاد بعد طرد بنى مرين ورحيل أبى عنان المرينى عن البلاد وتحرير الأراضى والمدن العربية وقد توفى عام ٧٧٠ هـ وأنه ظل يحكم البلاد تسعة أعوام كاملة دون أدنى منازع داخل حدود دولته اللهم الا سيطرة العرب على جميع مقاليد الأمور وتوفى فى الثانى عشر من رجب وكانت مدة حكمه ثمانية عشر عاما وأحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما ونصب خلفا له ولده أبا البقاء خالد وقد كان صبيا وهو ابن أبى اسحق ابراهيم المستنصر وقد تولى الحكم بعد موت أبيه وتولى الحجابة أحمد البالغى فلم يترك للأمير شيئا فذهب الأموال من الناس وأهان العلماء وقتل الأفراد وكانت أمور البلاد فى يد زعيم عرب أبو الليل منصور بن حمزة الذى أرغم الدولة على اقطاعه ضواحي البلاد بل وقاسم بنى حفص جبايات الأمصار ريفاً وصحراء وبادية وعندما أظهر الأمير خالد استيائه من هذا النشاط العربى والاستبداء استبدله منصور أبو الليل بالأمير أبى العباس أحمد الأول الحفصى وكان حمزة قد حث أبا العباس على تملك السلطنة الحفصية بعد أن كان واليا على قسنطينة فنهض الى تونس وأعلن وجهاء القوم الطاعة له وحاصر العاصمة عدة أيام وفر الخليفة وأتباعه من الجند وانطلقت قوات العرب وأبو العباس خلفهم فقبض على الأمير خالد واعتقل وقذف به وبأخيه فى البحر فعصفت بهما الرياح فغرقا وكانت مدته بتونس سنة وتسعة أشهر.

* * * *

خلافة الأمير أبي العباس أحمد الأول المستنصر والقضاء

على نفوذ العرب

٧٢٢ - ٧٩٦ هـ / ١٣٧١ - ١٣٩٥ م

عين الأمير العربي منصور بن حمزة الأمير الحفصي أبا العباس خليفة للبلاد بعد القبض على الأمير خالد وهو أبن الأمير أبي عبد الله محمد بن أبي يحيى بكر بوبع بالخلافة في تونس في الثاني عشر من ربيع الآخر عام ٧٧٢ هـ ويعتبر الأمير أبو العباس أحمد مجدد شباب الدولة الحفصية حيث كان النزاع الداخلي بين أمراء الأسرة الحفصية وتكررت محاولات الاستيلاء على السلطة واحتلال تونس بنفسها من قبل أفراد البيت الحفصي واستطاع الخليفة أبو العباس أحمد بصعوبة بالغة أن يعيد الوحدة والأمن والهدوء والاستقرار الداخلي للبلاد في أواخر حكمه الذي استمر أربعة وعشرين عاما (١٣٨١ - ١٣٩٥ هـ) وأن يعيد إلى الأذهان صورة أقرب ما تكون إلى حالة القوة التي كانت عليها الدولة في عهد أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن يحيى بن بكر بن أبي حفص عمر.

وكان الخليفة الجديد رجلا شجاعا عاقلا صفوحا وقد عمل على مداومة العرب واستئلافهم إلى أن أغتيل منصور بن حمزة زعيم عرب أولاد أبي الليل فحلت الجفوة بين أبي العباس أحمد الأول وعرب أولاد أبي الليل بسبب أبي العباس أحمد الأول بالقضاء على الاستقلال الذاتي لمدينة سوسة بعد محالفته لأولاد مهلهل مما دفع حوله ابن خالد بن حمزة للفرار بأعوانه إلى الصحراء واسترد أبو العباس الاقطاعات التي منحها أسلافه للعرب وسحق ثوراتهم وعمل على القضاء على نفوذهم.

وأقام علاقات طيبة مع السلطان أبي سالم المريني ورفع أنواع الفساد وكبح جماح العرب وانتزع ما بأيديهم من الأمصار ولم يزل يحاول أمر العرب إلى أن قطع

دابرهم وفتح بلدة قفصة وأخذ شيوخها من بنى العابد الذين كانوا يزعمون أنهم ينتسبون إلى قبيلة بلي العربية وأنهم أحلاف العرب الشريد من بطون سليم وكان بنو العابد قد أحسوا بازدياد سلطة الدولة الحفصية وتصميمها على السيطرة على الموقف وعلى انهاء وجودهم وأخذ أملاكهم فانهم تحالفوا مع غيرهم من أمراء ومدن الجريد وسربوا أموالهم إلى عرب الكعوب بزعامة أولاد أبي الليل ولكن السلطان أبا العباس أحمد بادر بالقضاء على عرب الكعوب أولا ثم حاصر قفصة فقام أهلها بتسليم زعيمهم الذي تظاهر بالتفرغ والتشبه بأمراء الدولة الحفصية وفرض الضرائب والمكوس على الرعية ودخل أبو العباس المدينة واستولى على ديار بنى العابد بما فيها من أموال وقضى على ولايتهم لقفصة في عام ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م.

وهكذا إذا كنا نرى الأمير أبا العباس أحمد الأول (٧٧٢ - ٧٩٦ هـ / ١٣٧١ - ١٣٩٥ م) ومن بعده أبنه أبو فارس عبد العزيز ٧٩٦ - ٨٣٧ هـ بقومان بالقضاء على نفوذ القبائل العربية وفرض سيطرتهم الكاملة على كل الأقاليم العربية التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي فاننا نجد أن الدولة الحفصية في قيامها اعتمدت على قبائل رياح ثم على قبائل بنى سليم وكرمه عرب الأتيج بعد تمرد رياح عليهم. وقد أدى انقسام أفريقية بين عرب رياح وسليم إلى انقسام الدولة الحفصية في عام ٦٣٤ هـ / ١٢٨٥ م إلى قسمين قسم شرقي عاصمة تونس ينعم بمحالفه عرب سليم المستقرين في المنطقة المحتلة من قابس إلى بونة وقسم غربي عاصمته بجاية يحظى بمحالفه عرب رياح المستقرين بالجانب الغربي بضواحي قسنطينة وبجاية وأدى الصراع بينهما إلى ثورات العرب المتعددة وقيام الأسر العربية القوية بتأسيس امارات تنعم بالحكم الذاتي بنقل المعتزل واعترفت بالاسم لا بالفعل بسلطان الدولة الحفصية فكانت هذه الامارات بمثابة سلطنات صغيرة تحكم بمجال من الأعيان العرب أو يلي أمرها أسر عربية.

ولقد حاربت هذه الامارات العربية المستقلة الحفصيين طوال القرن الثامن الهجري تعاونها القبائل العربية المستقرة حولها . ونتيجة لانتشار القبائل العربية بالمغرب وتعدد مواطنها واستقرارها في جميع أنحاء البلاد امتزجت بقبائل البربر وصاهرتها مما أدى الى تطور مفهوم القبيلة بالمغرب ولقد ساهمت القبائل العربية بدور ايجابي في تأسيس الدولة الحفصية التي كانت في نهاية المطاف تقضى على نفوذ بنى حفص بعد أن قدموا يد المساعدة ضد الغزو المريني القادم من أقصى المغرب والغزو الزياني القادم من المغرب الأوسط . فتبين دورهم في حسم الصراع بين الأتراك العثمانيين المسلمين وبين القوى المسيحية وبذلك قد كلل جهودهم بالنجاح وحفظ لهم تاريخا اسلاميا عربيا صان لتونس عروبتها واسلامها ولولا الوقفة العربية لتغير وجه الاسلام والعروبة على أرض تونس التي تدرس حلقة من حلقات تاريخها الاسلامي وهي فترة الدولة الحفصية .

كذلك فان السلطان أبو العباس أحمد شهد اخضاع مدن الجريد والقضاء على استقلال امارتها ومدتها عام ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م فانتقل شيوخها الى بسكرة حيث اتفقوا على مبايعة بنى عبد الواد بتلمسان فزحف اليهم أبو العباس بأنصاره من عرب سليم فتحالفت رياح ولائيج على الموت دون بسكرة ونسيا الخصومة الأزلية بين رياح وسليم دفاعا عن أوطان رياح ومراعيها وكذلك عن امارة الزاب العربية الملجأ الحصين لكل عربي غضبت عليه الدولة الحفصية مما اضطر أبو العباس لمهادنة بنى مرين واذا كانت امارة بسكرة قد تمكنت من المحافظة على استقلالها الذاتي سواء عن طريق المصانعة لأمرأ الدولة الحفصية أو عن طريق تقديم الهدايا للحاشية أو عن طريق القوة المسلحة لأعوانها من عرب رياح ولائيج في بداية القرن التاسع الهجري الا أن السلطان أبا فارس عبد العزيز ابن أبي العباس الحفصي قد تمكن من القضاء على الاستقلال في عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م وحمل أميرها أحمد بن يوسف وبنى مرين الى العاصمة

تونس بعد أن حكموا بسكرة والزاب طوال قرن ونصف وكانت بلاد الجريد التي استقلت بحكمها العربي أكثر من قرن ونصف القرن قد أفلحت في الاحتفاظ باستقلالها الذاتي بفضل موقعها المنعزل واعترفت بالاسم لا بالفعل بسلطان الدولة الحفصية فكانت بمثابة جمهوريات صغيرة تحكمها مجالس عربية من الأعيان أو يلى أمرها أسر من ذوى النفوذ الوثيق فحاربت الحفصيين طوال القرن الثامن الهجري بزعامة أسرها القوية النفوذ تعاونها في ذلك القبائل العربية المستقرة حولها ويحالفها بنو مرين أمراء بسكرة والزاب .

وكذلك استولى الخليفة أبو العباس أحمد على ولاية توزر وفتحها واستولى على ذعائر شيخها ابن يملول وكانت ولاية توزر من أشهر امارات الجريد العربية ويعتبر بنو يملول زعماء لباقي بلاد الجريد العربية لسيطرتهم على توزر وأكبر مدنها واتساع نواحيها فتوزر تعتبر عاصمة البلاد الجريدية مع غيرهم من العرب الأفارقة ولعبوا دورهم السياسي في الاشتراك في مجالس الشورى بامارات الجريد واتصلوا بالدولة الحفصية .

وتطلع جدهم أحمد بن محمد بن يملول الى رئاسة المدينة منذ بداية الدولة الحفصية في أفريقية فمنعه الحفصيون من ماله وصادروه مما اضطره الى الانتقال الى تونس بطرق أبواب الوزراء والخاصة حتى اسند اليه ادارة ديوان البحر فازدادت سلطته وقد استغل الظروف التي مرت بالدولة الحفصية وتقلص نفوذها وتمكن من الوصول الى مشيخة توزر حتى وفاته عام ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م وظل الحكم سنوات فيها . بل أدى اتساع الامارة الى تشبة بنى يملول فى الاشارة والحجاب والآلة والمجالس بالملوك وكذلك فرض الضرائب على الرعية وصادر أموال البيوتات القوية بالمدينة حتى قضى على نفوذهم السلطان أبو العباس أحمد الأول الذى عمل ما وسعه للعمل على اتمام السيطرة على كل البلاد الأفريقية ولم يترك قرية ولا مدينة الا أخضعها لنفوذ الدولة الحفصية ووسط لواء الحفصية على كل البلاد وقضى على نفوذ العرب قضاء نهائيا

ولم يسمع صوت فى البلاد يعارض فى سياسته أو يخرج على طاعته أو يتحدى سلطة ونفوذ الدولة وأدار البلاد أحسن إدارة وفى حقيقة الأمر أن طول فترة حكمه التى استمرت أربعة وعشرين عاما أو يزيد جعلته يعمل على إقامة الدولة القوية .

فانه للحقيقة التاريخية يمكن القول انه اذا كان عبد الواحد قد قبل حكم افريقية وجاء بعده ابنه أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد ليعلن استقلال الامارة عن الموحدين وجاء بعده ابنه ابراهيم محمد ليعلن الخلافة الحفصية فان أبا العباس أحمد الأول استطاع أن يعيد للأذهان صورة هؤلاء الأوائل الذين أقاموا الدولة فجاء هو ليدعم وجودها ونشر نفوذها ويجعلها وطيدة الأركان قوية الجانب مرهوية من كل الأعداء .

وبعد أن وطد أبو العباس أحمد الأول أمور البلاد فان القوى الأوربية جاءت منها قوات فرنسية وجنوية فى ثمانى قطع ونزلوا الى مدينة المهديّة وأقاموا بها بعد أن نهبوا المدينة شهرا وبعث اليهما أبو العباسى جيشا وكانت بينهم معارك حتى اضطروا الى الرحيل عن المدينة .

وتوفى رحمه الله ثالث شعبان ٧٩٦ هـ سنة سبعة وستون عاما ومدة ولايته بتونس أربع وعشرون سنة وأربعة أشهر . ثم تولى بعده ابنه أبو فارس عبد العزيز وبويع رابع شعبان بعد وفاة والده وأقام بالأمر خير قيام وأصلح الأحوال وقمع أهل الفساد وساد الأمن ارجاء البلاد وأعطى الأموال لكل العباد . وكان شجاعا حازما تقيا موقرا للعلماء كثير الصدقات فطنا زكيا محبا للخير ، كان يرسل الصدقات لأهل الحرمين ووفد اليه علماء الشرق صحبة الركب الحجازى وقدم المساعدات لأهل الأندلس اعانة لهم على مقاومة العدو . كذلك اهتم بالكتب وأنشأ خزانة كبيرة للكتب وأوقفها على طلبة العلم ينتفعون بها وأقام العدل بين جميع رعاياه بالكتاب والسنة وانصف المظلوم من الظالم . وجاءت الوفود من المشرق والمغرب وقام بغزو صقلية وغنم منها غنائم كثيرة . وبسط نفوذ الدولة على طرابلس وقابس وقفصة وتوزر ونفطه وبسكرة وقسنطينة

وبجاية والحامه والصحراء . وأخضع جميع القبائل العربية فى بلاده والزمهم دفع الزكاة والعشر .

وعقد هدنة مودة مع ملوك بنى مرين وأرسل هدية الى يعقوب المرينى بفاس ، كما أن سلطان المماليك بمصر الناصر بن قلاوون بعث لأبى فارس بهدية قيمة . ذلك لعظم ذكره فى ذلك الوقت وحسن سمعته وارتفاع مكانته بين سلاطين العالم الاسلامى من جراء الأفعال والأعمال التى قام بها لا سيما غزوة صقلية وأفتتح مدينة فاس وأخذها من بنى زيان ووصلت قواته غربا الى قرب مدينة فاس عاصمة بنى مرين وقد أقر البيع القاي أبو عبد الله محمد الشماخ البيعة بجامع تلسمان . وذكرت بعض المصادر أنه غزا مدينة فاس عاصمة بنى مرين عندما شكاه أهلها ظلم أحمد المرينى فخرجت له أخت أحمد المرينى فعفا عن أخيها واعاده الى بلده وأمر بالعدل .

وفى عام ٨٣٥ هـ نزلت قوات الفرنجة بجزيرة جربة وكان السلطان يخضع بلاد الجريد فتحرك الى المدينة واستطاع أن يجبر هذه القوات على الخروج من الجزيرة . وتوفى عام ٨٣٧ هـ وكانت مدة خلافته واحدا وأربعين عاما وأربعة أشهر وسبعة أيام . وكان أبو فارس عبد العزيز درة الخلافة الحفصية وواسطها وأنه اذا ذكرت خلافة الحفصيين بدونه ظهر بها النقص .

وكان أبو فارس عبد العزيز آخر السلاطين العظماء من بنى حفص واستمرت الدولة على القوة فى عهده وقد حكم تسعة وثلاثين عاما ولكن الدولة بعد وفاة أبى فارس عادت الى الانقسام بعد ذلك واتسع نفوذ الأوربيين واستعان بهم المنافسون على العرش بعضهم على بعض ونشطت أعمال غزاة البحر وأصبحت مغنم الغزاه موردا هاما من موارد الدولة وحفلت موانئ أفريقية والجزائر وبجاية وتونس بالأسرى والسبايا الذين كثروا فى البلاد وعاد الاضطراب للدولة وانقضى قرن كامل استردت فيه القبائل العربية

سيادتها وضعف الحفصيون وكان في تونس ثلاثة أمراء حفصيين يخضع كل خليفة جزءاً من البلاد لسيادته في تونس والمهدية وقسنطينة . وكانت الحروب تدور سجالاً بين الأطراف مما كان يضطر الخليفة إلى أن يترك العاصمة ولم تكن الوحدة الحفصية إلا سرايا فاذا كان أبو العباس أحمد ومن بعده ابنه أبو فارس عبد العزيز قد نجحاً في توحيد الدولة الحفصية ، فقد اضطربت الأمور من جديد .

وهكذا تفككت الدولة الحفصية وظهر التنافس بين أبناء الأسرة على الحكم وتدخل الأوربيون في هذا الصراع وانقسام الدولة الحفصية إلى قسمين ونتج عن ذلك أن سقطت بعض أجزاء الدولة في أيدي الأوربيين حتى تجددت قوة الدولة فاستردت تلك الأقاليم ، ذلك أن الدولة الحفصية شهدت تقلبات مختلفة .

ففي بداية القرن الرابع عشر نلاحظ تجدد أروهاها وإعادة توحيد فرعى الدولة في تونس وشرق الجزائر . لكنه حدث أن تفوقت دولة بنى مرين في عهد أبي الحسن الذي أوشك أن يخضع المغرب كله تحت حكمه فتمكن عام ١٣٤٨ م من احتلال تونس وإخراج الحفصيين منها بمساعدة رؤساء القبائل البادية . وفي عام ١٣٥٠ م اضطروا إلى الانسحاب منها واستطاع أبو العباس أن يعيد عظمة الدولة الحفصية فترة من الزمن وفي عهده ساهمت تونس للمرة الأولى في حركة الجهاد في البحر المتوسط مما عرض سواحلها للانتقام فقام الفرنسيون بالاغارة على المهدية وشهد القرن الثاني عشر تدهور دولة بنى عبد الواد في المغرب الأوسط وبنى مرين في المغرب الأقصى فنعمت تونس بحكم شخصين من أعظم الشخصيات وأطولهم عصراً وهما أبي فارس (١٣٩٤ - ٢٣٤٥ م) الذي عرضنا في تلك الصفحات لسيرته الجليلة.

تولى بعد أبي فارس عبد العزيز ابنه أبي عبد الله المستنصر ٨٣٨هـ، ولم يحكم إلا سنة واحدة وشهرين واحد عشر يوماً، وتوفي في صفر ٨٣٩هـ. ثم جاء بعده أخوه أبو عمر عثمان بن أبي فارس عبد العزيز الذي تولى الحكم صبيحة اليوم الذي توفي

فيه أخوه، وكان أبو عمر عثمان من أجل سلاطين الخلافة الحفصية وهو خاتمهم حكم ثلاثة وخمسين عاماً وكانت أيامه خيراً على العلم والعلماء ورجال الدين فأكثر من بناء المدارس ومكاتب تحفيظ القرآن الكريم وأوقف الأوقاف عليها وكذلك الاهتمام بخزانات الكتب وأكرم الشرفاء من أهل البيت النبوي وأحسن إليهم وقمع ثورات الأعراب، وذلك لأنه اشتد الصراع بين أمراء البيت الحفصي وكثر تدخل العرب وثوراتهم بقيادة أولاد أبي الليل لكن بعد نجاح الأمير أبي عمر عثمان ٨٣٢هـ / ٨٩٣هـ / ١٤٣٥م - ١٤٨٨م. في الاستيلاء على الحكم بتونس قام أولاد أبي الليل ببجاية منافسة على العرش الأمير أبي عبد الله محمد بن أحمد وأنزلوه بمخيماتهم منافسة على العرش ولكنه وعدوا وأعيد أبو عمرو عثمان أرباب أولاد أبو الليل فأسلوه لاجئهم وأنصاره فقتلهم في نفس العام.

ويبدو أنه لم يوف بوعد إذ هاجم أولاد أبي الليل مدن أفريقية وحاصروا مدينة تونس فأطلق أبو عمر عثمان أولاد مهلهل عليهم واشتبكوا معاً بالقرب من تونس وانسحب أولاد أبي الليل منهزمين ليعودوا مرة أخرى لحصار تونس بمعاونة الأمير أبي الحسن وإلى بجاية ويلتقي الفريقان في عام ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م وينتصر أبو عمر عثمان وحلفاؤه من أولاد مهلهل ويقبض على زعماء أولاد أبي الليل. وليس معنى استعانة أبي عمر عثمان بأولاد مهلهل أنهم كانوا أنصار حلفاء للدولة بصفة مستمرة فقليلاً ما ثاروا على الدولة لسبب أو لآخر ففي عام ٨٦٧هـ / ١٤٦٣م عندما خفض أبو عمر عثمان مرتباتهم ثار أولاد مهلهل وفر زعماءهم إلى الصحراء فاستبدلهم أبو عمر عثمان وعين بدلاً من الشيوخ الثائرين عليه رجالاً منهم وأخذ أولادهم رهناً لديه لضمان طاعتهم وأرسلهم إلى العاصمة؛ حيث نزلوا بقصر خاص لثقيفهم تربيتهم على الولاء للدولة والإخلاص لها.

وقد طالبت أيام الخليفة أبي عمر عثمان فقد كانت ثلاثة وخمسين عاماً وفي

عهد أبو عمر عثمان فرضت السيادة الحفصية نفسها على المغرب الأقصى فبعد أن كانت تونس تعترف أحياناً لبنى مرين بالسيادة انقلبت الآية في عهده ومن سلفه أبي فارس عبد العزيز فأصبح بنو وطاس في فاس يعترفون بالتبعية للحفصيين وكان لزاماً على هذه الدولة أن تساهم في دفع الخطر البرتغالي عن مراكش في القرن الخامس عشر؛ بل أن الحفصيين قدموا المساعدات إلى غرناطة آخر الدويلات الإسلامية في الأندلس.

وبدأ اتصال الحفصيين في عهد السلطان أبي عمر عثمان (١٤٣٥-١٤٨٨م) في ذلك الوقت بالدولة العثمانية الناشئة فأرسلوا سفارة لتهنئة محمد الفاتح بمناسبة فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، وزاد التبادل التجاري بين تونس وأربا في هذه الحقبة.

والواقع أن الدولة الحفصية منذ قيامها أولت العلاقات التجارية بالخارج عناية خاصة .. فهي التي تابعت دون غيرها من دول المغرب سياسة الموحدين في عقد المعاهدات التجارية مع دويلات إيطاليا وتوسعت فيها، ولذلك انتشرت الفنادق والقنصليات في مدينة تونس ويبدو أن تونس أصبحت حلقة اتصال بين تجارة أفريقيا الاستوائية وأوروبا لأن الحفصيين أقاموا علاقات طيبة مع الإمارات الإسلامية مثل كانم وبورتو. ونظراً لطول فترة الدراسة .. فإننا ننتهي عند القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي؛ حيث سلاطين الدولة الحفصية قد استمروا يحكمون حتى قرب نهاية القرن العاشر الهجري، وذلك عندما سقط حكم الدولة عام ٩٨١هـ/١٥٥٨م مع قرب نهاية القرن السادس الميلادي وخضوع البلاد للحكم العثماني بعد أن حكموا البلاد ثلاثمائة وثمانية وسبعين عاماً وآلت الأمور للسيادة العثمانية وانتهت دولة بني حفص التي أقام قواعدها محمد بن عبد الواحد بن عمر بن أبي حفص الهنتاتي عام ٦٠٣هـ.

* * * *

الفصل السابع

سلاطين بني حفص في ظل الخلافة العثمانية حتى سقوط الدولة

بعد وفاة أبي عمر عثمان عام ٨٩٣هـ تولى حفيده أبو زكريا بن عبد الله محمد المسعود بن أبي عمر عثمان الذي بويع يوم وفاة جده، ولكن الأعراب قتلوه وتولى بعده ابن عمه أبو محمد عبد المؤمن بن أبي إبراهيم اسحق بن عمرو بن عثمان، ولكن الأعراب قتلوه أيضاً، ودخل السلطان أبو زكريا العاصمة وفر الأمير محمد عبد المؤمن الذي عينه الأعراب، وتم قتل عبد المؤمن وبويع أبو زكريا يحيى بيعة ثانية وجاءته بيعة العناب وقابس وحسا وقفصة ودانت له البلاد، وكانت مدة حكمه ست سنوات؛ ثم تولى الخلافة أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عبد الله محمد المسعود ابن عمر وعثمان، وتوفي عام ٩٣٢هـ، وفي عهده هبط النصارى واستولوا على طرابلس لكنه طردهم منها، وهو الذي ملك الجزائر للتركي عروج وأخيه خير الدين وحدثت في عهده حوادث كثيرة منها سيرة العرب على القيروان. وقد خرجت بلاد كثيرة من حكمه وتدخل الأوربيون في شئون البلاد حتى استدعى تدخل الأميرين التركيين خروج وأخيه خير الدين. وقد حدثت مراسلات بينه وبين السلطان الغوري سلطان مصر.

وقد تولى الحكم بعده ابنه الحسن بن المسعود بن أبي عمرو عثمان، وبويع عام ٩٣٢هـ، وفي عهده ظهر النفوذ العثماني وقد ساءت سيرته بين الناس، وخرجت عن طاعته مدينة سوسة والقيروان وبايع الناس رجلاً جاء من المغرب ادعى أنه حفصى واسمه يحيى.

وخضعت قسنطينة لحكم الأتراك فى عهده وكذلك جاءت قوات بحرية تركية أرسلها إبراهيم باشا وزير السلطان سليمان بن سليم الأول. وفى عهده استولى خير الدين على تونس وفر عنها الحسن ودخل خير الدين تونس واستقل بها وأنهى حكمه عام ٩٤٠هـ، وقبل عام ٩٣٦هـ. وفى عهد الحسن اشتد الصراع بين القوى المسيحية الأوروبية بقيادة امبراطور ألمانيا، والأتراك العثمانيين، ودارت على أرض أفريقية (تونس) معارك طاحنة اضطرت القوى المسيحية للانسحاب من البلاد بعد ارسال الأساطيل التركية.

وفى حوالى عام ١٥٤٠م أخذ شارل الخامس بعد العدة للاستيلاء على موانئ المغرب بمعاونة طلاب العرش المتنازعين، ولم يحل عام ١٥٥٨م حتى كانت تلك الموانئ قد احتلت وتصدى الأتراك العثمانيون للأسبان وابتداء من عام ١٥٦٠ كانت تونس مقسمة بين الأسبان والأتراك. كل جانب منها يؤيده أمير حفصى، وكان هذا هو التمهيد الذى أدى فى النهاية إلى احتلال الأتراك العثمانيين للجزائر، وتونس، وطرابلس، وتحويلها إلى أيلات عثمانية عام ١٥٨٧م، ولم يعد الأمراء الحفصيون مستقلين بل ممثلين للسلطان العثماني ويحملون لقب الداى.

وبعد فرار خير الدين دخل الخليفة الحسن تونس؛ ثم جمع قواته والقبائل العربية، وقصد إلى القيروان ودخل المدينة بعد أن بايعه أهلها، وكان الخبر قد وصل الناس فهرعوا إليه وبايعوه، لكن تعاون مع أعداء الدين جعل ابنه أحمد لا يقر فعلة أبيه الحسن ودخل تونس خفية وتولى الخلافة خلفاً لأبيه لكنه استعان بالفرنجة الأوربيين من الأسبان وتقابلت قوات الطرفين، وتم القبض عليه وسجن ثم سملت عيناه جزاء تعاونه مع أعداء الإسلام.

بعد خلافة الأمير الحسن قام عليه ابنه أبا العباس أحمد بن محمد الحسن بن عبد الله المسعود بن عمرو بن عثمان تولى الحكم فى عهد أبيه نظراً لأن أباه استعان بأعداء الإسلام وشاركوه فى الحكم. لكن الأمير أحمد راسل ملوك الأتراك فى

طرابلس والجزائر ثم أرسل بعثة إلى القسطنطينة وحارب أولاد سعيد من عرب أفريقية وكان السلطان أحمد مقيماً للعدل وإقامة الشرع واستعان السلطان أحمد بالأتراك وكانت قواته تضم أربعمائة من الأتراك. لكن الأسبان الذين كان نفوذهم أقوى فى البلاد عزلوا السلطان أحمد وعينوا بدلاً منه أخاه محمداً وأما السلطان أحمد ففر إلى جزيرة صقلية وسكن مدينة بالرمو إلى أن مات بها ودفن فى تونس.

وهكذا .. نرى رغم الوجود التركى إلا أن القوات الأسبانية كان لها السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد، ومن ذلك عزلها السلطان أحمد وتولية أخيه محمد الذى كان آخر سلاطين بنى حفص.

السلطان محمد بن الحسن بن المسعود بن عمرو بن عثمان

الحفصى ونهاية دولة بنى حفص

هو السلطان محمد بن الحسن شقيق السلطان أحمد الخليفة السابق الذى تولى الحكم بعد أن طرد إياه الحسن لتعاونه مع أعداء الإسلام، وهو خاتمة بنى حفص وبانقراضه انقرضت الدولة الحفصية، وكان تعيينه عن طريق القوات المسيحية، ومن ثم هرب أهل تونس عندما علموا بمجيئه وتركوا البلاد خاوية من الناس. وهرب أكثر أهل تونس وخلت المدينة من الأهالى وأعداء الإسلام وخربت النواحي فى المدينة وساكن الأعداء ديار الإسلام. وشاركت النصارى المسلمين فى مساكنهم ومعاملتهم وأقاموا معهم. لكن التدخل التركى ساعد على تفهقر قوة النصارى وأخرجوهم من القيروان، والتحق الأتراك بالقيروان وكان بها الباشا حيدر. وكاتب أهل القيروان اخوانهم بطرابلس والجزائر فتحرك الأتراك للجهاد ووصلوا تونس وأرسل السلطان سليم قوات بحرية بقيادة

القبطان على باشا وسان باشا ويذكر أن هذه القوات التركية كانت مرسله لمساعدة أهل غرناطة في كفاحهم؛ بينما وصل خبر سقوط غرناطة في أيدي الأعداء ١٤٥٢هـ بعث بها إلى تونس بدلاً من الأندلس، وكان عدد السفن البحرية ألف وخمسمائة سفينة تمكنت من الاستيلاء على تونس، وتم طرد القوات الأجنبية من البلاد وكان ذلك عام ٩٨١هـ.

وفي أواخر الدولة الحفصية عندما اشتد الصراع بين الدولة العثمانية، ومسيحي أسبانيا وأوربا حول السيطرة على بلاد المغرب قامت القبائل العربية بدور تاريخي في هذا الصراع فنجد القبائل العربية انحازت إلى العثمانيين وقدمت نحو سبعة آلاف فارس بخلاف الرجلة للقوات العثمانية مما عجل بحسم الصراع الدائر في المغرب فاستولت القوات العثمانية على تونس عام ٩٧٧هـ/١٥٦٩م، وطردت القوات المسيحية منها وسقطت الخلافة الحفصية في ٩٨١هـ/١٥٧٤م. وقد كان ما دفع القبائل العربية لدورها هذا أن الأمير أبا محمد الحفصي قد منح حصن خلق الوادي لأعوانه من مسيحي أسبانيا ووعد لههم بإباحة مدينة تونس بعد استردادها، وذلك انتقاماً للعرب الثائرين عليه وترحيبه لأعوانه من القوات المسيحية، وكانت بعض من القبائل العربية قد ثارت على الحفصيين، وتم استيلاؤها على القيروان وأواسط سلطته تونس، والدعوة بين جميع القبائل العربية للاشتراك في هذا الصراع الدائر بين الأتراك العثمانيين المسلمين ومقاومة الغزو المسيحي لسلطنة تونس ومنعهم من السيطرة على البلاد بعد أن شاهدوا الأسبان، وقد استباحوا تونس لفترة ثلاثة أيام فكان وقوف القبائل العربية بجانب القوات العثمانية مساعداً لها في تحقيق النصر وتصحيح خطأ ارتكبه عندما وقفوا ضد خير الدين باشا أثناء انسحابه من تونس عام ٩٤١هـ/١٥٥٤م، وهكذا كان للعرب دور في إعلان نصر الإسلام.

وهكذا .. انتهت صفحة في تاريخ بلاد أفريقية (تونس) التي طال عمرها ما يقرب من ثلاثة قرون استطاعت فيها الدولة الحفصية، التي كانت فرعاً في الدولة الموحدية أن تحافظ على وجودها وسط العواصف التي كانت تعصف بالعالم الإسلامي من جراء موقعة العقاب وانهيار الوجود الإسلامي بالأندلس وتقلص الإمارات الإسلامية بها، وكذلك انقسام الدولة الموحدية إلى ثلاثة أقسام كانت الدولة الحفصية إحدى هذه الأقسام؛ بالإضافة إلى الصراع الدائر بين القوى الثلاث بنى حفص وبنى زين في المغرب الأوسط، وبنى مرين في المغرب الأقصى، وهكذا نرى كذلك في الفصول القادمة كيف أن هذه الدول الثلاث بدلاً من أن تتعاون جميعها فيما بينها من أجل خير الإسلام والمسلمين نرى الصراع والقتال يدور بينهما من أجل المصالح الشخصية، وليس من أجل قضايا إسلامية؛ بل كان النظام القبلي هو الذي يحكم الصراع بين المصامدة فرع (هنتاتة) الحفصيين، وبنى زيان البربر الصنهاجة، وكان كل فرع يحاول السيطرة على حساب الآخر، ومن هنا .. أدى القتال والتطاحن إلى طمع الأعداء بعد سقوط غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس فبدأت البرتغال وأسبانيا تتجه للسيطرة على السواحل المغربية لمحاربة الإسلام والمسلمين وتحقيقاً لأحلام تراودهم في نشر المسيحية من جديد بين هذه الأقطار، ومن ثم كان الوجود التركي حماية للإسلام في هذه الديار.

وهكذا .. نرى أن الدولة العثمانية لم تبسط نفوذها في تونس بالغزو العسكري أو تدخل مباشرة من قبل حكومة الاستانة كما حدث في مصر؛ بل جاء تدخل الدولة بنتيجة لاشتداد الصراع بين الإسلام والمسيحية في الحوض الغربي للبحر المتوسط أوائل القرن السادس عشر، وقد اجتذب هذا الصراع عدداً كبيراً من البحارة المغامرين المجاهدين الذين نشأوا في خدمة أسطول العثمانيين ثم راحوا يقودون أساطيل صغيرة

تعمل لحسابهم الخاص، وضد أعداء الدين، ولهذا .. كان هؤلاء المجاهدون يعتبرون في نظر المسلمين أبطالاً وطنيين مثل عروج وخير الدين بربر وسبه في إنقاذ المغرب العربي من الوقوع في يد الأسبان.

* * * *

الفصل الثامن

علاقة الدولة الحفصية بالدول المجاورة

ارتبطت الدولة الحفصية منذ قيامها في عهد عبد الواحد يحيى بن عمر الحفصى حتى سقوطها تحت سيطرة الأتراك بعلاقات مع العديد من البلدان المجاورة سواء منها الإسلامية أو الأوربية وكانت هذه العلاقات تتذبذب حسب الأحوال السياسية بين الود والمهادنة وحسن الجوار وبين الاضطراب والتضامن والحسم العسكرى والقتال.

لكن الدولة الحفصية ارتبطت على طوال الخط بعلاقات طيبة مع مصر منذ ظهور الخلافة العباسية في مصر عام ٦٥٩هـ/١٢٥٣م والخلافة الحفصية في تونس عام ٦٥٦هـ/١٢٥٠م، على الرغم من وجود خلافتين أو أكثر من خلافة في العالم الإسلامى إلا أن ذلك لم يقطع ود العلاقات بين مصر وتونس فطوال تاريخ الدولة الحفصية الذى امتد إلى ثلاثمائة وثمانية وسبعين عاماً لم يحدث أدنى تدخل في شئون أى دولة من الدولتين، كما أن أيّاً من الدولتين لم يقيم بحشد قوات عسكرية ضد الطرف الآخر؛ بل إننا نجد أن مصر كانت ملاذاً أو موطناً للقادمين من الغرب.

كذلك .. فإن مصر بثقلها السياسى والعسكرى والثقافى والاقتصادى كان عليها بعد إعلان الخلافة التى كانت تهدف إلى مد نفوذها إلى سوريا والحجاز، تلك السياسة التى كانت تتعارض مع السياسة التقليدية التى كانت مصر تنتهجها منذ عهد الطولونيين (٢٥٤-٢٩٢هـ) فحرصت مصر على مد نفوذها على الحجاز والسيطرة

على تجارة البحر الأحمر وعمل السلطان بيبرس أحد سلاطين المماليك الذي يرجع إليه الفضل في صد غارات المغول وإلحاق الهزيمة بزعيمهم هولاكو في موقعة عين جالوت يرمى المشهور بالصلبين على أحياء الخلافة العباسية في مصر بعد أن زالت من بغداد ٦٥٦هـ/١٢٥٥م، وكان بيبرس يرمى من وراء ذلك تقوية عرشه وجعل حكمه شرعياً للبلاد كما يرمى إلى مد سلطانه على الحجاز والبحر الأحمر إلى إضعاف نفوذ الحفصيين الأدبي في الشرق؛ فكان إعلان الخلافة العباسية في مصر، ومن هنا عاد الضعف إلى الخلافة الحفصية.

ورغم ذلك فقد حرص سلاطين الدولة الحفصية وولاة الأسور بها وحكام الدول المستقلة على أن تظل العلاقات الحسنة تربطهم بمصر لأنها كانت طريقهم إلى الأراضي المقدسة بالحجاز فوجدوا عند سلاطين مصر الاستعداد الحسن مما دفعهم إلى أن يكتبوا إليهم الكتب المختلفة شاكرين إياهم هذا الاستعداد في حسن استقبالهم لحجاج بيت الله الحرام وإكرامهم عند عودتهم.

وقد قدم إلى مصر الأمير أبو يحيى زكريا الحفصي من أمراء الدولة الحفصية في تونس عام ٧١١هـ مستنجداً بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون فأجده السلطان المصرى بالقوات اللازمة، ونجحت الحملة المصرية في مهمتها وتم إعادة أبو يحيى بفضل القوات المصرية إلى العرش وخطب للسلطان الناصر على منابر تونس (أفريقية) فكونت هذه الأجزاء من أفريقيا جزءاً من السلطنة المصرية المملوكية للمرة الأولى في تاريخ العصور الوسطى؛ إلا أن حكم ذلك السلطان الحفصي لم يدم طويلاً.

وقد أشار ابن خلدون إلى أنه جاء إلى مصر عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م على ظهر سفينة مصرية كانت في تونس، ومن المعروف أن وصول ابن خلدون إلى مصر كان من العوامل التي ساعدت على استمرار العلاقات بينه وسلاطين الدولة الحفصية؛ فقد عملوا على توثيق الروابط بين بلادهم وبين السلطان الظاهر برقوق، ونجّلت هذه الروابط

حين طلب ابن خلدون من السلطان الظاهر برقوق أن يشفع له لدى السلطان الحفصي أبي العباس أحمد بن عبد الله صاحب تونس لكي يرسل له أسرته (أهله وولده)، ومن ثم .. فقد استجاب السلطان برقوق لرغبة ابن خلدون وأرسل إلى السلطان الحفصي في ١٥ صفر ٨٧٦هـ/١٣٨٤م خطاباً يرجو فيه من السلطان الحفصي أن يرسل أسرة ابن خلدون إلى مصر وسرعان ما لبى سلطان تونس طلب السلطان برقوق، وبعث بسفينة محملة بالهدايا وعليها أسرة ابن خلدون.

وعندما علم السلطان الحفصي أبي العباس أحمد بخلع السلطان برقوق في جمادى الأولى ٩٧١هـ/١٣٨٩م استاء لذلك وظل يراقب الموقف في مصر حتى وصلتته الأنباء بعودة السلطان برقوق مرة أخرى إلى العرش عام ٧٩٢هـ/١٣٩٠م. وسارع السلطان الحفصي بإرسال بعثة إلى القاهرة محملة بالهدايا، ومعها كتاب إلى السلطان برقوق يهنئه بالعودة إلى عرش السلطة مرة أخرى، وقد أشار إلى ذلك المقرئ.

وقد أورد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في صناعة الأنشا فحوى الرسالة التي أرسلها السلطان الحفصي ابن عبد الله إلى السلطان برقوق كما أن سلاطين تونس كانوا دائماً على اتصال بالخليفة العباسي المقيم في القاهرة منذ عام ٦٥٩هـ، إذ أرسل أبو عبد الله بن يحيى بن أبي بكر الحفصي سلطان تونس عام ٧٩٢هـ كتاباً إلى الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي كان يقيم بالقاهرة مع هدية قيمة. كذلك إن السلطان برقوق كان دائم الاتصال والكتابة إلى سلاطين الدولة الحفصية فنجد أنه كتب عام ٧٩٩هـ/١٣٩٧م كتاباً إلى أبي العباس أحمد بن يحيى بن أبي بكر الحفصي سلطان تونس.

كذلك فإن مصر كانت الوطن الثاني لأبناء تونس من السلاطين والعامة من ذلك عندما حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني تاسع أو عاشر سلاطين الحفصيين بأفريقية الخروج من عرش البلاد والتخلي عنه .. فإنه طلب للحاق والوصول

إلى مصر فراراً من حاكم الأقاليم الغربية من البلاد؛ فإنه لما سمع بغزو تونس استعجل أبو حفص الليحياتي الرحلة إلى ثغور طرابلس، وركب السفن هناك إلى الأسكندرية ووصل إلى مصر ونزل على السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٧هـ فأكرم نزله ورفع مجلسه إلى أن مات عام ٧٢٨هـ كذلك إنه عندما تعرضت تونس للغزو المريني؛ فإن السلطان ورئيس الوزراء وابن تافراجين ركبا البحر وفرا إلى الأسكندرية عام ٧٤٩هـ.

كذلك .. فإن السلطان الحفصي أبو خربة قد لاذ بمصر أثر الشقاق والنزاع الداخلي مع الخليفة المستنصر الذي خرج عليه أبو بكر فهرب أبو خربة إلى المهديّة وتحصن بها ثم إلى طرابلس وسافر إلى مصر وذلك أيام الملك محمد بن قلاوون.

كذلك .. فإن آخر سلاطين بني حفص السلطان محمد بن الحسن أرسل رسولا إلى سلطان مصر السلطان الغوري، وذلك أول دولة السلطان محمد وأرسل إلى السلطان الغوري هدية قيمة فيها زرافة. وقد وقع ابن أبي زينار في خطأ عندما ظن أن الذي أرسل الزرافة هو السلطان الغوري في حين أن الذي أرسل الزرافة هو سلطان كانم وبرنو وليس سلطان مصر لأن مصر لا تشتهر بهذا النوع من الحيوانات.

كذلك قامت بين مصر وبلاد الحفصيين علاقات اقتصادية وتجارية كان أساسها التعامل الاقتصادي والتعاون الأخوي والسوق العربية الإسلامية؛ حيث كانت مصر تصدر مالا تحتاج إليه إلى بلاد تونس والمغرب وتستورد ما تحتاج إليه واشتهر التجار المغاربة في الأسواق المصرية؛ حيث كانت فئة التجار المغاربة يشكلون أكثر الفئات اتصالاً بمصر.

ومن هنا ترك الأثر الاقتصادي المصري أثره الواضح والبارز في البيئة المصرية؛ حيث شهد بذلك التأثير الثقافي الذي تركه هؤلاء التجار في إثراء الحركة الثقافية

والفكرية والعلمية المصرية في بلاد تونس، وكذلك رحيل علماء المغرب إلى مصر طلباً للعلم في الأزهر (ابن خلدون جاء إلى مصر في عصر الدولة الحفصية وتولى القضاء في مصر كذلك فإن الأزهر أفرد رواقاً للمغاربة من بين الأروقة الكثيرة، وكان طلاب من تونس في عصر الدولة الحفصية يحضرون إلى الأزهر لدراسة الفقه المالكي والعودة إلى تونس، ومن هنا .. كانت مصر على صلة قوية بالسلطنة الحفصية طوال تاريخها الطويل.

وكذلك أقامت تونس الحفصية علاقات قوية مع أفريقية الاستوائية؛ فقد كانت أقوى العلاقات من كانم والدولة الحفصية في تونس منذ إنشائها، وكانت علاقات منتظمة وكان سلطان كانم قد أرسل في عام ٦٥٧هـ/١٢٥٧م وكالة ومعها الهدايا إلى الخليفة المستنصر مؤسس الخلافة الحفصية ضمت زرافة اثار الحيرة والتعجب وابتهج بها العامة واستمرت العلاقات قوية مع تبادل الهدايا واتصال الود بين ملوك كانم وبرنو وسلاطين بني حفص، وكانت الهدية الأولى استهلالاً لمستقبل العلاقات بما انعكس أثره في ازدياد التجارة.

وكانت علاقة كانم بالدولة الحفصية قوية وواضحة تمثلت في التعاون والتنسيق في ميادين عديدة. وهكذا .. ترى أن الدولة الحفصية ارتبطت بعلاقات ودية مع العديد من الأقطار. أما علاقتها بالبلاد الأوربية فقد عرضنا لها في صلب الدراسة وأشرنا إلى الغزوة الصليبية بقيادة لويس التاسع عام ١٢٧٠م، وكذلك هجوم جنوده على طرابلس وغيرها من الاعتداءات العدوانية التي كانت تتكرر كثيراً على السواحل التونسية. وموضوع العلاقات موضوع متسع لا تتسع له هذه الصفحات إنما تحتاج إلى دراسة مستقلة لاسيما أن طوال فترة حكم الأسرة الحفصية يجعل لمن يبحث في موضوع العلاقات مع الدول الأوربية يجد مادة كافية لتلك الدراسة.

أما موضوع العلاقات الحفصية مع دولة بنى زيان فى المغرب الأوسط ودولة الموحدين فى المغرب الأقصى ومن بعدها دولة بنى مرين، فسوف نعرضها فى تلك الدراسة بعد إلقاء الضوء على دولة بنى زيان ودولة بنى مرين ثم يكون موضوع العلاقات التونسية الزيانية المرينية فى فصل مستقل.

* * * *

الفصل التاسع

مآثر الخلافة الحفصية فى مختلف الميادين

إن أثر الخلافة الحفصية فى مختلف ميادين الحكم والسياسة والحضارة والثقافة والاقتصاد وغيرها من الميادين الأخرى طوال فترة حكمها التى امتدت الى ما يقرب من ثلاثة قرون موضوع متسع ويحتاج إلى دراسة منفصلة قد تكون عدة كتب لأن الحضارة الحفصية تركت بصماتها فى مختلف الميادين، ولكن تكتفى هنا نظراً لضيق الحيز المكاني لتأليف تلك الموسوعة بقدر ضئيل؛ بحيث تأخذ من كل جانب شذرة أو نقطة تعالج بها هذا الموضوع.

ومن ذلك نجد أن الحفصيين حافظوا على كثير من نظم الموحدين الإدارية؛ بل إن مؤسس الدولة ابن تومرت ظل يذكر فى خطبة الجمعة حتى القرن الرابع عشر واستمر وجود الدعاة الذين يعرفون بمشايع الموحدين، والذين لعبوا دوراً كبيراً فى قيادة البلاد الاجتماعية والسياسية وانقسمت البلاد إدارياً إلى ثلاثة أنواع؛ فكانت القبائل البادية تتميز بنظام إدارى خاص يتضح فى دور رئيس القبيلة وهو نائب الحكومة، وكان البدو يمثلون مشكلة معقدة بالنسبة للدولة الحفصية وخاصة أثناء الصراع العائلى على السلطة لأن كل رئيس قبيلة بدوية كان ينضم إلى أحد الأمراء المتنافسين وانتهى الأمر بأن تمنح القبائل العربية اقطاعيات لتستقر عليها أراضيهم حول صفانس فى عهد الحفصيين وأغلب العرب على السهول التونسية فتحولت إلى النظام الرعوى؛ بينما انتقلت المراكز العمرانية إلى الساحل.

وقد عرفت الدولة الحفصية نظاماً سياسياً دقيقاً ظهرت فيه معظم المناصب الرئيسية المعروفة فى أشكال الحكم عرف الحاكم أميراً وخليفة، وقد حرصت الدولة

الحفصية منذ أن استقل بها حاكمها الأول أبو زكريا أن تظهر بصورة الدولة المتفرعة عن الدولة الموحدية، وعمل مؤرخو الدول الحفصية على إظهار أبناء عبد المؤمن من خلفاء الموحدين على أنهم فرع من الدولة، ويظهر ذلك في احتفاظ الحفصيين بكثير من تقاليد الدولة الموحدية في الحكم؛ بل احتفاظهم بلقب الموحدين، مثل شيخ الموحدين ورئيس الموحدين وظلت هذه الألقاب حتى نهاية الدولة.

وينحصر نظام الحكم في تقسيم الدولة إلى ولايات بعهدية إلى حكام هم أبناء السلطان أو أخوته أو من سلالة بني حفص مع منحهم سلطات مطلقة، وكان السلطان يحكم بواسطة لجنة العشرة كما الحال في دولة الموحدين وعرفت الدولة نظام الخلافة في أوائل عهد أميرها الثاني المستنصر بالله أبي زكريا، وذلك عام ٦٥٠هـ، أو ٦٥٦هـ، أو ٦٥٧هـ، وقد اهتمت الدولة الحفصية منذ عهد عميدها الشيخ أبي حفص بأن تنسب إلى قريش وإلى عمر بن الخطاب، وحرص مؤرخوها على نعت الدولة بالعمرية أو الفاروقية.

وقد أوجد الخليفة المستنصر نظام الخلافة في الدولة، وكان النظام في أن يتولى ولي العهد هذا المنصب أو يتولى أهل الرأي والمشورة، وأهل الحل والعقد في تونس اختيار الخليفة في حالة موت الخليفة دون أن يعين ولياً للعهد مثلما تدخل أهل الرأي في اختيار الأمير أبي البقاء خالد الثاني عام ٧٧٠هـ-٧٧٢هـ؛ ليكون خليفة للبلاد بعد وفاة أبي إبراهيم بن أبي بكر (٧٧٠هـ)، دون أن يولى عهده لأحد واختلف الخلفاء الحفصيون من حيث سيطرتهم على الدولة وقيامهم بأمورها والمسؤوليات الملقاة على عاتقهم، ومن حيث قدرتهم وقوتهم فقد حافظ المستنصر على تولي الحكم الذي وصل إليه أبوه، وقد أدى ضعف الخلفاء واستبداد حجابهم ورجالهم بالحكم إلى أضرار كثيرة، وظل الأمر على ذلك إلى أن جاء الخليفة أبو العباس أحمد فبدأ فترة من عودة القوة إلى الخلافة والدولة.

وكان ولي العهد هو خليفة الغد، وعرفته الدولة الحفصية واعتبرته وسيلة سياسية لتولي الحكم والذي يدرس تاريخ الأسرة الحفصية وتسلسل الحكام والسلاطين الذين تولوا السلطة يجد أن نظام ولاية العهد إنما يكون غالباً لأحد أبناء الخلفاء السابقين أو أخوته أو أحفاده إن لم يكن له أبناء، وإن مشكلة ولاية العهد التي كان يعهد فيها الخليفة إلى من يراه وريثاً للحكم من بعده قد أدت إلى مشاكل كثيرة، ومنها خروج بعض الحفصيين على ولاية العهد؛ بل البيعة واستيلائه على الحكم من حفص آخر مثلما فعل أبو العباس أحمد ضد أبي البقاء خالد الثاني (٧٧٠هـ-٧٧٢هـ)، وكذلك عزل الابن لأبيه بعد عهده إليه بالولاية.

وقد اعتمد نظام الحكم الحفصى الخلفى في البلد ادارته لزمام الأمور على هيئة مستشارين وعلى مناصب عدة، وكان الخليفة يستشير كثيراً من معاونين، ومنهم أشياخ البساط، وهم مجموعة من المقربين للخليفة الحفصى كما أن الخليفة يعتمد على شيخ الدولة، وكبير الدولة، وقد وصلت وظيفة ومكانة شيخ الموحدين إلى مرتبة عالية ولأهمية هذه الوظيفة أولاها الخليفة مزيداً من الاهتمام والعناية وحسن اختيار من يتولاها فنجد أنه كان دائماً يحرص كل الحرص على اختيار أصلح العناصر الحفصية الممتازة، وقد تولى مثلاً رئاسة الدولة في عهد أبي زكريا أخوه أبو عبد الله الليحاني، وكان يخلفه في الحكم عندما يكون خارج تونس أو في حملات عسكرية.

وكان وظيفة الحاجب وظيفه خاصة إذ كان يشرف على قصر الخليفة ويلعب دور الوسيط بينه وبين الحكومة. وهناك موظفون يباشرون وظائف القصر أكبرهم المحتسب وهو الذى يراقب الأسواق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وتلقب خلفاء آل حفص بلقب أمير المؤمنين واستأثروا به عن سواهم، وكانت الرئاسة في دولتهم بأفريقية والتقدم لوزير الرأي والمشورة، وكان يخص باسم شيخ الموحدين، وكان له النظر في الولايات والعزل وتولية قواد العسكر والحروب والديوان

واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى، ويسمى متوليها بصاحب الأشغال، وكان الحاجب واسطة بين الناس وأهل الرتب فيهم وحجب السلطان نفسه عن الناس وعرفت الدولة الحفصية الوزارة وكان الوزراء فى العادة ثلاثة اختص أحدهم بالجيش واختص الثانى بالناحية المالية واختص الثالث بالإشراف على الدواوين وتيسير الأمور بها ومعها الإشراف على الأمن، ولذا .. كان منصب الوزير مطعماً لكثيرين ودبروا المؤامرات للحصول عليه، وكانت مكانته أقل من رئاسة الدولة والحجابه وقد نقل ابن فضل الله عن الدولة الحفصية أن وزراء الدولة ثلاثة أنواع وزير الجند والجيش ووزير المالية ووزير القصر وكان وزير القصر يختص بشئون الكتابة والعلامة كما أن وظيفة وزير ليست مساوية لأشياخ السباط وأغلب الظن أن وظيفة وزير أقرب لوظيفة أمين السر كذلك وظيفة الكاتب وهى من الوظائف المعاونة للحكم وقد اهتمت الدولة بوظيفة كاتب الإنشاء وكاتب العلامة ويبدو أنها كانت أعلى علامة.

وكان للاستقبال فى القصر مراسم مختلفة تشدد الخلفاء فى رسمها؛ فقد كان لهم حرس خاص يحيط بهم إذا خرجوا كما كانت لهم أعلام كبيرة مصنوعة من الحرير المطرز بالذهب الخالص والفضة.

وقد امتلأ تاريخ الحفصيين الذى يقرب من ثلاثة قرون بالفتن والحروب فلم نجد عهد خليفة يخلو من ثورة يقوم بها أحد أبنائه أو اخوته أو أعمامه وكان الانقسام ظاهرة واضحة فى تاريخ الدولة الحفصية، وهذه الظاهرة كانت شائعة فى كل دويلات المغرب العربى المعاصرة واللاحقة والسابقة لدولة بنى حفص.

والواقع أن الدولة الحفصية منذ قيامها أولت العلاقات التجارية بالخارج عناية خاصة؛ فهى التى تابعت دون غيرها من دول المغرب سياسة الموحدين فى عقد المعاهدات التجارية مع دويلات ايطاليا وتوسعت فيها، ولذا .. انتشرت الفنادق والقنصليات فى مدينة تونس ويبدو أن تونس كانت حلقة اتصال، وأهم ما يميز

الحفصيين عن غيرهم هو علاقتهم بالمسيحيين؛ فقد حاربوا الأمراء المسيحيين فى أوائل دولتهم حين استنجد بهم أمراء المسلمون، ولكن الأمر انقلب إلى صداقة فألفوا مع المسلمين والمسيحيين فى الأندلس حلفا وقف فى وجه الموحدين حتى قضوا عليهم، ولذا .. قدم المسيحيون إلى تونس وسكنوها وتمتعوا بحريتهم وأقام الحفصيون نظاماً عسكرياً حشدوا له جيشاً من مختلف الجنسيات المحلية والوافدة فيهم العرب والبربر كما ظهر آنذاك الأندلسيون والأسرى الأوربيون الذين اعتنقوا الإسلام فى صفوف الجيش الحفصى وإذا كان الحفصيون قد حافظوا على مركز التعامل مع الأوربيين؛ من حيث القوة البحرية إلا أن الدقة أخذت تتحول لصالح الأوربيين من حيث القوة البحرية والدليل على ذلك أن التجار الأوربيين هم الذين كانوا يأتون إلى تونس ويقيمون فيها الفنادق والقنصليات.

وقد كان لزاماً على الدولة الحفصية أن تسهم فى دفع الخطر البرتغالى عن مراكش فى القرن الخامس عشر؛ بل أنها قدمت المساعدات إلى آخر الدويلات الإسلامية فى الأندلس (دولة غرناطة).

حضارة الحفصيين :

اهتم سلاطين الدولة الحفصية بإقامة المنشآت، وتشهد مدن تونس جميعها بعلو باعهم فى مختلف الفنون كالمدارس والقناطر والقباب والقصور ودار الحكمة ودار الكتب وقصور الخلفاء التى أقامها فنانون الأندلس الذين قدموا تونس وعاشوا فيها وشيد أبو زكريا الكثير من القصور وغرس الحدائق وأقام أبو زكريا فى مدينة تونس جامع القصية وكانت منارته المربعة على مثال مغارة جامع القصية فى تونس وكان بناء الجامع عام ٦٢٩هـ، ويقال له جامع السلطان وبنى مدرسة بسوق الشماعين وجعل مكتبة بها ٣٦ ألف مجلد.

وأقام الخليفة أبو حفص عمر مسجداً سمي مسجد الهواء بشبهه في طرازه الفخم جامع القيروان وشيد المستنصر قصر فخماً أكثر ابن خلدون في الإشادة به، وكان في وسطه بحيرة كبيرة المساحة، وشيد الحفصيون كثيراً من خزانات المياه وكانت في أيام أبي زكريا ثلاث مدارس ظلت واحدة منها حتى نهاية القرن الثالث عشر.

وأصبحت الدولة الحفصية باعتبار أن نسبها يمتد إلى قريش وإلى عمر بن الخطاب اهتماماً كبيراً بالناحية الدينية فعملت على نشر مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم وتخصيص جوائز لمن يتم حفظه والاهتمام بجامع الزينونة وكذلك تعلم الأحاديث النبوية والعلوم الدينية الأخرى، وكان مذهب الدولة هو المذهب المالكي المنتشر في جميع أنحاء الدولة على اتباع سياسة اللين والتسامح على أصحاب المذاهب الأخرى، وكما اهتمت الدولة بالدين الإسلامي؛ فقد اهتمت بالوظائف المتعلقة به واهتمت الدولة بوظيفة القضاء وتعيين قاضي القضاء، وذلك للفصل بين الناس في الخصومات، وكان هناك نظام قضائي دقيق وفي الدولة الحفصية أولى الخلفاء بأنفسهم اهتماماً بالغاً بالقضاء لإحساسهم بخطورة المنصب ودوره في الدولة لاتصاله بأمور الشريعة والدين وتحقيق العدل بين الرعية؛ فكان الخليفة يقوم باختيار القضاء بنفسه، وقد اتبعت الدولة نظاماً صارماً ودقيقاً لكي تحفظ للقضاء نزاهته وعدالته؛ فكانت تختار القاضي من بين من يشهد لهم بالعدل وحسن السيرة والسمعة والتمكن من علوم الدين مع النزاهة والصرامة والقُدوة الحسنة، وكان يعين القاضي لفترة لاتزيد عن عامين وكانت المدة تنقص لتكون عاماً واحداً وبضعة أشهر، وكان تحديد هذه الفترة القصيرة لكي يكون له نفوذ قوى، وحتى لا يكون له أعوان وأنصار وربما طول المدة يجعله يحيد عن جادة الحكم وقد يتعارض بقاؤه مع نظام الحكم الحفصي. وكان الخلفاء الحفصيون يهتمون بالإسراع في تعيين القضاء، وذلك لحرصهم على عدم التأخر في النظر في المحاكم

واتخاذ قرار البت في شكاوى العامة والصلح بين طرفي النزاع وتمسكاً بالحق ونشر العدل في أرجاء البلاد. وكان العدل من أهم سمات الحكم الحفصي.

وكما اهتم الحفصيون بالتجارة وزاد النشاط العمراني في مختلف أنحاء البلاد وخاصة المدن الكبرى في الموانئ؛ حيث الفنادق ووكالات التجار والخانات والأسواق تخصصها في بيع سلعة معينة.

وكذلك اهتم الحفصيون بالثقافية الإسلامية فأنشأوا المكتبات واهتموا بمجالس العلم والعلماء وشجعوا البحث والدراسة والتأليف وإرسال البعثات التعليمية إلى الأزهر بمصر وشجع الخلفاء والأمراء وكبار الموظفين. هذا الاتجاه وأنشأوا المكتبات الضخمة ولقيت بمجالس العلم العلماء عناية الدولة واهتم بها الخلفاء وكان بعض الخلفاء الأمراء ميالاً لحضور مجالس العلم وحريصاً على الاستفادة منها واهتمت الدولة بمجالس الوعظ وقراءة القرآن الكريم والأوراد.

وكان العلماء في الدولة مهتمين بإبداء النصح للخلفاء، وكان نصحهم يلقي قبولاً لديهم واهتمت الدولة بالآداب وفنون العمارة الإسلامية وأكثرها من إنشاء المساجد وتمكنت تقاليد مذهب الإمام مالك في نفوس أهل أفريقية وفي مدارس القيروان ووقفت للمذاهب الأخرى بالمرصاد وانتصر المذهب المالكي وهو المذهب الرسمي للدولة وأصبح فقهاء الملكية في نظر شعب المغرب الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام وفي تاريخ الدولة الحفصية أمثلة كثيرة على تدخل رجال الدين للصلح بنى المنافسين على العرش. وكان نصحهم ودورهم يلقي قبولاً من الرعية والحكام.

ونبع كثير من أبناء تونس في الأدب والشعر والفقه وأولت الدولة الحفصية مزيداً من العناية والتعليم وإنشاء المدارس حتى أننا لا نجد خليفة طال حكمه إلا وأقام العديد من المدارس وعين المدرسين لها.

وكل هذه الأمور التي شهدتها البلاد استدعت من الدولة اهتماماً شديداً بالناحية الاقتصادية لأن الاقتصاد هو عماد بناء الدولة وكانت الدولة تعتمد على عدة مصادر لتمويل مشاريعها وإدارة شئونها ومن هذه المصادر الضرائب والزكاة والجزية والمصادرات والعشور وضرائب الأرض وضرائب الحرفين ولقد حافظت الدولة على تحصيل الضرائب وكذلك أموال الزكاة.

ولقد كان الاقتصاد القوى للدولة سبباً في تقدم النشاط الثقافي والحضارى وكذلك النواحي الاجتماعية وبناء الزوايا والسبل والأربطة وكل هذه النشاطات، ما كان لها أن تتحقق وتزدهر إلا في ظل نظام اقتصادى دقيق ومنضبط يحقق أهداف الدولة في تقدمها ورفقها؛ حيث ازدهرت الثقافة الإسلامية في عهد الدولة الحفصية.

وتلك هي صورة موجزة ومختصرة على الدولة الحفصية باعتبارها أقدم دول منطقة المغرب العربى فى الظهور ككيان مستقل رغم وجود الدويلات المستقلة التى حاربت من أجل إضعاف دولة الموحدين لكي تقوم على انقاضها هذه الدول الثلاث.

* * * *

حكام الأسرة الحفصية فى تونس

١ - حكام تابعون للخلافة الموحدية

١ - أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص

(٦٠٣هـ - ٦٢١هـ / ١٢٠٦م - ١١٢٤م)

٢ - أبو عبد الله محمد عبد الواحد

(٦٢٣هـ - ٦٢٥هـ / ١٢٢٦م - ١٢٢٨م)

٢ - الإمارة المستقلة

٣ - أبو زكريا بن محمد عبد الواحد

(٦٢٦هـ - ٦٤٧هـ / ١٢٢٩م - ١٢٤٩م)

٣ - الخلافة الحفصية

٤ - أبو عبد الله محمد الأول المستنصر

(٦٤٧هـ / ١٢٤٩م)

■ - أبو زكريا يحيى الثانى الوائى

(٦٧٥هـ / ١٢٧٦م)

٦ - أبو اسحق إبراهيم الأول

(٦٧٨هـ / ١٢٧٩م)

* ثورة الدعى أحمد بن مرزوق أبى عميرة

(٦٨١هـ / ١٢٨٢م)

٤ - الأسرة الحفصية وانقسام الدولة

٨ - أبو حفص عمر الأول (يحكم في تونس)

(١٢٨٤هـ/١٢٨٤م)

٩ - أبو زكريا يحيى (يحكم في بجاية)

(٦٨٣هـ-٦٩٨/١٢٨٤-١٢٩٨م)

١٠ - أبو عبد الله (أبو عصيدة) محمد الثاني المستنصر بن يحيى الثاني

(يحكم في تونس) (٦٩٤هـ/١٢٩٤م)

١١ - أبو البقاء خالد الناصر الأول : يحكم في بجاية ثم انفرد بالحكم بعد ذلك

(٦٩٩هـ/١٢٩٩م)

١٢ - أبو بكر الأول الشهيد يحيى الأول، يحكم في بجاية ثم انفرد بالحكم بعد ذلك

(٧٠٩هـ/١٢٠٩م)

١٣ - أبو البقاء خالد الأول الناصر في تونس

(٧٠٩هـ/١٣٠٩م)

١٤ - أبو بكر الثاني المتوكل بقسنطينة وبجاية

(٧١١هـ/١٣١١م)

١٥ - أبو يحيى زكريا اللحياني بن أحمد (تونس)

(٧١١هـ/١٣١١م)

١٦ - أبو خربة محمد الثالث المستنصر (تونس)

(٧١٧هـ/١٣١٧م)

١٧ - أبو يحيى أبو بكر الثاني المتوكل (يحكم في وجدة)

(٧١٨هـ/١٣١٨م)

١٨ - أبو حفص عمر الثاني

(٧٣٧هـ/١٣٤٦م)

الاحتلال المريني ٧٤٧هـ - ١٣٤٦م

١٩ - أبو العباس أحمد الأول الفضل (يحكم في قسنطينة) (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

٢٠ - أبو زيد عبد الرحمن بن أبي بكر الثاني (يحكم في قسنطينة)

(٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

٢١ - أبو عبد الله محمد المنصور بن أبي بكر الثاني (يحكم في بجاية)

(٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

٢٢ - أبو العباس أحمد الأول الفضل المتوكل (يحكم منفرداً)

(٧٥٠هـ/١٣٤٩م)

٢٣ - أبو اسحق إبراهيم الثاني المستنصر (يحكم في تونس)

(٧٥٠هـ-٧٧٠هـ)

٢٤ - استيلاء بني مرين على بجاية

(٧٥٤هـ/١٣٥٣م)

٢٥ - احتلال بني مرين لأفريقية للمرة الثانية

(٧٥٨هـ/١٣٥٩م)

٢٦ - أبو اسحق إبراهيم الثاني المنتصر (يحكم في تونس)

(٧٥٨هـ/١٣٥٦م)

٢٧ - أبو اسحق إبراهيم الثاني المستنصر (يحكم في تونس)

(٧٥٨هـ/١٣٥٦م)

٢٨ - أبو اسحق إبراهيم الثاني المستنصر (يحكم في تونس)

(١٣٥٩هـ/١٧٦١م)

٢٩ - أبو البقاء خالد الثاني بن إبراهيم الثاني

(١٣٦٨هـ/١٧٧٠م)

عودة الخلافة للقوة وخلفاء أقوياء

٣٠ - أبو العباس أحمد الثاني المستنصر (انتزع الحكم بمفرده)

(١٣٧٠هـ/١٧٧٢م)

٣١ - أبو فارس عبد العزيز المتوكل بن أحمد الثاني

(١٣٩٣هـ/١٧٩٦م)

٣٢ - أبو عبد الله محمد الرابع المنتصر بن محمد

(١٤٨٧هـ/١٨٣٨م)

٣٣ - أبو عمر عثمان بن محمد الرابع

(١٤٨٧هـ/١٨٩٣م)

٥ - الأسرة الحفصية في ظل الأتراك

٣٤ - أبو زكريا يحيى بن عبد الله محمد المنصور

(١٤٨٧هـ/١٧٩٣م)

٣٥ - أبو عبد الله محمد بن أبي محمد الحسن

(١٤٩٣هـ/١٨٩٩م)

٣٦ - أبو محمد الحسن بن محمد بن الحسن بن المسعود

(١٢٥٦هـ/١٩٣٢م)

٣٧ - محمد بن الحسن بن محمد الحسن (فترة اضطرابات بين الأتراك والأسبان)
وظل يحكم تونس في عام (٩٨١هـ/١٥٧٤م)

وانفرد الأتراك بحكم تونس وتحويلها إلى أيلة عام ١٥٨٧م.

* * * *

الباب الثانى

بنى زيان على مسرح الأحداث فى المغرب

الدولة فى دور التكوين

شهد القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى مولد دويلات فى بلاد المغرب صارعت كل منها الأخرى فى سبيل تحقيق ذاتها وقد تحقق لها ذلك فنعمت بكياناتها المستقلة وأصبحت كل منها دولة قوية.

فإذا كان الجزء الشرقى من الدولة الموحدية قد استطاع أن يحافظ على كيانه تحت حكم الحفصيين؛ فإن الجزء الأوسط كان أقل حظاً؛ حيث أصبحت المدن ميداناً لكثير من الهجمات المتوالية التى أشاعت الخراب فيه؛ فقد انتهزت قبيلة زنانية فرصة ضياع سلطة صنهاجة لتعود إلى قواتها، وهكذا .. استطاعت زنانية أن تقسم دولة الموحدية لزنانية بنى مرين فى المغرب الأقصى وزنانية بن عبد الواد (زيان) فى المغرب الأوسط وتنتمى دولة بنى عبد الواد إلى قبائل زنانية التى كانت ترتاد جبال وصحراء المغرب الأوسط ولما فتح الموحدون هذه البلاد كان بنو عبد الواد عوناً لهم فنالوا ثقة الموحدين وحصلوا منهم على اقطاعات وفيرة وهى أقليم تنمسان فاستقروا فيها منذ ذلك الوقت، وكان الموحدون يسيطرون على كل بلاد المغرب قاطبة ولما أخذت دولتهم تضعف شيئاً فشيئاً .. قام على أثر ذلك عدة دول، والدولة الزيانية التى تعرض لها والتى تقف مكتوفة الأيدي أمام تمزق الدولة الموحدية قد أصبحت من هذه الدويلات.

ذلك لأنه على أثر الفتح الإسلامى فى بداية القرن السابع الميلادى كانت القبائل المستقرة فى منطقة تلمسان تحت سلطة فرع من بنى أيفرن وهى إحدى القبائل

الرئيسية من زنانية وهم من رعاة البدو وكفان فرع من مغراوة وهم أهم أقوام زنانية بشغل المنطقة الواقعة إلى الشرق من ذلك. وفى ذلك الوقت كان بنو عبد الواد وهم فرع من بنى واسين وهؤلاء قبيلة أخرى من زنانية، كانوا فى حالة بداءة يتجولون فى الزاب وفى جبال الأوراس. وقد شكل بنو عبد الواد فرقة فى جيش عقبة بن نافع النهري الذين قادهم فى مسيرته نحو الغرب عام ٦٨٢م وأبلوا معه بلاءاً حسناً وقد انهارت قوة بنى يفرن أثر الفتح الفاطمى فى القرن العاشر الميلادى أمام مغراوة الذين لم يفقدوا سلطتهم فى تلمسان إلا على أثر فتح المدينة على أيدي المرابطين عام ١٠٧٩م، وفى هذا العصر تمت إزاحة بنى عبد الواد من الزاب فى منطقة قسنطينة على يد العرب الهلالين وجاءوا ليستقروا فى جنوب منطقة وهران الحالية، ولم يظهروا على مسرح الأحداث فى منطقة تلمسان إلا فى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى كخصوم أولاً ثم كخلفاء الفاتح الموحدى عبد المؤمن. وفى عام ١٢٣٦م أخذ أميرهم يغمراسن بن زيان وكان محارباً قديراً فيه كل صفات الزعامة الملكية تحت رئاسة الخليفة الموحدى فى مراكش. وكان هذا رد فعل ضد بنى مرين وهم من زنانية بنى واسين.

وقامت الدولة الزيانية فى منطقة أطلق المؤرخون عليها المغرب الأوسط وتسمى أيضاً الدولة العبد الوادية نسباً إلى عبد الواد كبير القبيلة. وينقسم بنو عبد الواد إلى بطون وشعوب منها بنو درهطف وبنو ولدا وبنو لومرت وبنو قاسم وغيرهم، ويزعم بنو قاسم أنهم من أولاد القاسم بن أدريس وعمل بنو عبد الواد على تأكيد هذا النسب.

وبنو زيان ينتسبون إلى زيان بن ثابت واد يغمراسن مؤسس هذه الدولة وأنهم استطاعوا بقيادة يغمراسن بن زيان أن يقيموا دولة بالمغرب الأوسط.

وبذلك .. تكون الدولة الزيانية هى الثانية التى ورثت الموحدين فى شرق المغرب الأوسط وبنو عبد الواد الذين أنشأوا هذه الدولة كانوا من أشد حلفاء الموحدين، وقد

توغلوا في المغرب الأوسط ونازعوا بني هلال الذين كانوا مسيطرين هناك، وكان العرب الهلالية قد دفعوا الزيانية أمامهم من مواطنهم الأولى في بلاد الزاب جنوبى قسنطينة فهاجروا غرباً واستقروا حول تلمسان بموافقة الموحدين.

وهكذا .. نجد أنفسنا أمام وضع سياسى ثانٍ جديد يقوم على أنقاض الدولة الموحدية إذ أنه فى نفس الوقت الذى نشأت فيه أسرة حاكمة فى تونس أقام يغمراسن ابن زيان أسرة جديدة فى تلمسان، وهو ينتمى إلى فرع عبد الودية أو عبد الواد من قبيلة زنانة الكبيرة، ولذا .. تعرف أحياناً أسرة تلمسان بأسرة عبد الواد؛ بل أن تلقبها بالأسرة الزيانية لم يشع إلا بعد القرن الرابع عشر.

وقد بدا نجم أسرة بنى الواد فى السطوع فى منطقة غرب الجزائر. وبالذات بالقرب من تلمسان عندما وزع الموحدون الاقطاعات على العائلات والقبائل الكبيرة، التى أدت خدمات جليلة للدولة؛ فكان نصيب بنى عبد الواد بالقرب من تلمسان.

وكانت عودة السلطة إلى زنانة تعنى قيام أسرتين فى منطقتى المغرب الأوسط والغربى، وقد ارتبطتا برابطة الدم والقربة إلا أن العداوات قامت بينهما، وهما أسرتا عبد الواد فى تلمسان وبنى مرين فى فاس.

وكان يغمراسن بن زيان هذا هو سليل إحدى الأسر التى زحفت نحو الغرب أمام الهلاليين، وبعد قرن كامل وحدث بطونها وقويت شوكتها وبدأت تتجه نحو الشرق حتى استقرت بالقرب من وهران تابعة للموحدين حتى إذا حققت هذه الدولة الأخيرة وجودها انتهز رجالها الفرصة وأقاموا لهم دولة مستقلة استمرت ثلاثة قرون.

والمغرب الأوسط الذى قامت به دولة بنى زيان يقصد به الجزائر وأنه فى هذه البقعة كما اتفق العديد من المؤرخين هو وادى ملوية ولكنهم اختلفوا فى تحديد الحد

الشرقى؛ فمنهم من يرى أنها مدينة قسنطينة ومنهم من يرى أنها داخل أفريقية وأن بجاية تعنى الحد الشرقى.

وكانت حدود هذه الدولة غير ثابتة إذ أنها كانت تضيق وتوسع؛ حيث قوة جيرانها وضعفهم وهم فى الشرق بنو حفص وفى الغرب بنو مرين إلا أنه يمكن القول بأن حدودها كانت تمتد طويلاً من البحر المتوسط شمالاً إلى صحراء الجزائر جنوباً وعرضاً من جبال سعيدة ووادى ميتة شرقاً إلى وادى ملوية ومدينة وجدة غرباً.

ومن التكوين الطبيعى لمنطقة المغرب الأوسط؛ فإنه نتج عنه تكوين قبلى يتلائم مع مكونات البيئة الجبلية الصحراوية؛ حيث السفوح والسهول والوديان؛ فكانت القبائل تشكل نظاماً يختلف عن المغرب الأدنى ولقد استوطنت بالمغرب عناصر سكانية متعددة، وكانت الغالبية العظمى العرب والبربر، ولقد استوطنت القبائل العربية فى المغرب الأوسط فى مناطق مختلفة، ومنها القبائل الهلالية التى وفدت إلى المغرب فى المسيرة الهلالية ثم استوطنت أفريقية والبربر فى المغرب الأوسط انتشروا أيضاً فيه وخاصة قبيلة زنانة وأن المغرب الأوسط ينتسب إليها ويعرف بها فيقال وطنى زنانة، ومن قبائل زنانة قبيلة عبد الواد السابق الإشارة التى يندرج تحتها بنو زيان.

نسب بنو زيان

قليل أنهم من البربر ومن أبناء زنانة فمن ولد زنانة بنو عبد الواد، وبنو مرين، ومفراوة، وغيرهم، ولكن منهم من قسمهم إلى اتخاذ أولهما إلى البربر ونسب وينسب ثانيها إلى إدريس بن عبد الله بن محمد بن أبى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، وقد افتخر يغمراسن بن زيان عندما رفع نسبه إلى إدريس. وقد عمل بنو عبد الواد على تأكيد هذا النسب خصوصاً فى عهد موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن

يحيى بن يغمراسن بن زيان الذى يعتبره عصره من أزهى عصور الدولة؛ بل أنه أكثر من ذلك .. فإن بنى عبد الواد لم يكتفوا بتأكيد نسبهم إلى آل ادريس؛ بل تقربوا إلى العلويين؛ حيث كانت لهم قرية من أعمال تلمسان تعرف بقرية العلويين، وقد عمل بنو زيان على تأكيد الصلة فتزوجوا وزوجوا بناتهم إلى أبناء الشريف ويعرف بالعلوى.

كذلك تأكيداً للنسب العلوى العربى يخالف بنو عبد الواد القبائل العربية، التى استقرت فى المغرب الأوسط خصوصاً بطون عرب زغنة الذين جمعتهم وزانة عصبية الحلف وذوى عبد الله من عرب المعقل المجاورين لبنى عامر بن زغبة المستقرين بجوار تلمسان. وازدادت مكانة شيوخ هذه القبائل حتى أسند يغمراسن بن زيان فى بعض الأحيان إلى شيخ عرب سويو بن مالك ولاية تلمسان، وما يتبعها شرقاً عند خروجه لقتال أعدائه.

ظروف ظهور بنى زيان :

عاش بنو عبد الواد بداية أمرهم فى الصحراء شرق المغرب الأوسط، وانقسمت الدولة الموحدية إلى أقسام بين الحفصيين وبنى مرين ولكن وسط هذا الانقسام ما هو الموقف فى المغرب الأوسط، لقد كانت قبيلة بنى عبد الواد التى تعيش فى ضواحي تلمسان أقوى هذه القبائل جميعاً ونظروا فى الوضع الراهن وحالات التردى التى وصلت إليها البلاد، فوجدوا بلاد المغرب وقد شاعت وظهرت على السطح ظاهرة استقلال الأقاليم وتفكك الدولة؛ فكان عليهم وهم أقوى القبائل وبما لهم من زعامة وقوة وتمركز بالقرب من تلمسان أن يحققوا ذاتهم وأن يكون لهم كيان سياسى ومكان فى الصراع الدائر بين القوى المختلفة.

فاستطاع يغمراسن دخول تلمسان واتخاذها قاعدة لهم وتلمسان مدينة قديمة

إلى شرق وادى ملوية وكانت تعرف أيام الرومان باسم بوماريا واسمها بلغة البربر (تاجرات)، ولكنها عرفت منذ أيام المرابطين، وفى عهد يوسف بن تاشفين بالذات باسم تلمسان، وقد عمرها يوسف وأنشأ مسجدها الجامع وأحاطها بسور وجعلها من مراكز العلم والحضارة فى المغرب الأوسط، وفى ذلك يقول أبو عبيد الله البكرى أن تلمسان كانت دائماً مركز تجارة نافعة وعلم وعلماء، وقد نعمت تلمسان بالازدهار الحضارى؛ حيث أصبحت صورة من غرناطة ويدخل يغمراسن تمكن بنو عبد الواد من تأسيس ملكهم بتلمسان، وهكذا .. اتخذ هذا الفرع الزيائى من مدينة تلمسان مقراً للحكومة الجديدة التى أنشأها وساعدت الظروف الطبيعية على اختيار هذا المكان.

فإن تلمسان تقع فوق هضبة مرتفعة بين مصب نهر التفنة وبين المدن الداخلية، واستمرت الأسرة الزيائية فى اتخاذ تلمسان مركزاً لحكم الدولة، وكان بها حيان أحدهما للعسكريين والآخر للمدنيين، وقد احتفظ بنو زيان بامارتها ثلاثمائة عام وظلت فى حكم أحفاد يغمراسن بن زيان، وقد بدل هؤلاء السلاطين اسم الأسرة من بنى عبد الواد وأصبحوا يدعون بنى زيان أى أبناء زيان الذى كان والد يغمراش.

وتمتد مملكة تلمسان فى عهد بنى زيان كما ذكر ذلك الحسن الوزان (ليو الأفريقى) على مساحة خمسمائة وثلاثين ميلاً من الشرق إلى الغرب، ولكنها ضيقة جداً من الشمال إلى الجنوب بين البحر المتوسط، وبين تخوم الصحراء لا توجد إلا بعض النقاط المدن القليلة سوى مساحة لاتزيد عن خمسة وعشرين ميلاً، وهذا هو السبب الذى جعل هذه السلطنة معرضة باستمرار لسوء المعاملة وللإذلال الخطير على أيدي العرب الذين يسكنون الجزء المجاور للصحراء، وكان ملوك تلمسان مضطرين دائماً لكسب مودتهم بدفع أتاوات ضخمة وتقديم الهدايا لهم والقسم الأعظم من مملكة تلمسان عبارة عن مقاطعة جافة عقيمة ولاسيما فى قسمها الجنوبى ولكن السهول

القرية من السواحل منتجة جداً؛ بسبب خصوبتها وكل النطاق المجاور لتلمسان يقع في السهل مع وجود بعض الصحارى المأمون الموحدى الذى كتب له عهداً على تلمسان (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) على المسرح السياسى فى المغرب الأوسط، وبدأ كيان الزيانية بأخذ أولى ويبعدو أن الموحدىين نظروا فلم يجدوا سوى بنى عبد الواد أهلاً لحمل ولا يوجد إلا القليل من المدن والقصور فى هذه المملكة غير أن هذه البلدان تكون مزدهرة فى المنطقة الخصبة.

وكان على بنى عبد الواد أن يفكروا فى الأمر باتزان بعد دخولهم تلمسان وكان زعيمهم (جابر بن يوسف) الذى على المدينة قد أرسل بالبيعة للخليفة اسمهم فى هذه المنطقة خاصة وأن أفريقية قد ضاعت منهم بعد استقلالها فى عهد أبى زكريا الحفصى، ومن هنا .. بدأ بنو عبد الواد يضعون أقدامهم الخطوات للظهور على مسرح الأحداث فى المغرب.

وهكذا .. صادف قيام الدولة الزيانية نجاحاً نظراً لأن بنى عبد الواد كانوا يعيشون بالقرب من تلمسان، وبذلك استطاعوا ضرب قوى بنى غانية فى المدينة وأرسلوا بتبعيتهم إلى الموحدىين ونتيجة لضعف الموحدىين فى ذلك الوقت كتبوا العهد لبنى عبد الواد فى تلمسان.

ولقد كانت ظروف المغرب تفرض على بنى عبد الواد أن يحتاطوا للأمر، وأن يعطوه عظيم اهتمامهم؛ خاصة وأنهم يتتابعون ويعلمون أن دولة الموحدىين على وشك السقوط والانحدار النهائى، ومن هذه القوى الشابة التى استقلت عن الموحدىين فى الشرق والمغرب لا بد أن تهاجم المغرب الأوسط، وكان موقع هذه الدولة الناشئة بين الحفصيين فى الشرق وبنى مرين فى الغرب هو الذى جعل لها أهمية سياسية فاعتبرها كل فريق جزءاً من دولته فتبادلاها أكثر من مرة.

وقد ظلت الأسرة الزيانية أقل الدول التى خلفت الموحدىين شأنًا؛ فهى لم تسيطر على المغرب الأوسط الذى يقابل الجزائر فى وقتنا الحاضر؛ بل اقتصر حكمها فى معظم الأحيان على الجزء الغربى من الجزائر وتعرضت ممتلكاتها للعدوان. ولقد مرت الدولة بعدة مراحل حتى أصبحت دولة فتيه لها كيانها ورهبتها فى المغرب العربى.

وكان على بنى زيان أن يعملوا على المحافظة على كيانهم وسط العواصف التى تحاول أن تجتاحها فكانت الخطة فى المحافظة على بقاء الأمور فى أيديهم حتى أننا نجد شيخهم جابر بن يوسف بعد أن استولى على تلمسان ٦٢٧هـ/١٢٢٩م) كان أكثر كياسة وفطنة فى استمرار علاقته الحسنة بالموحدىين فظل الخليفة المأمون الموحدى يذكر على منابر تلمسان ويدعو له فى الخطبة لأن الدولة لاتزال فى المهد فقام بالأمر ستة شهور يدعو للموحدىين، لكن بعد وفاة جابر بايع القوم الحسن بن جابر؛ إلا أنه نظراً لصغر سنه تنازل لعمه عثمان بن يوسف أخى جابر ٦٣٠هـ/١٢٣٣م. لكن بنى عبد الواد أجمعوا أمرهم على أن تكون زعامة الدولة لأميرهم زكراز بن زيان الشهير بابن غرة وبابوعه على (٦٣١هـ/١٢٣٣). ومع دخول بنى زيان إلى تلمسان إلى أنهم فى ذلك التاريخ لم يأخذوا شكل الدولة المستقلة، وبذلك .. فإن فترة السنوات الخمس هذه تعتبر فترة الوجود الزيائى فى المدينة على اعتبار أن بنى زيان مازالوا يضعون أقدامهم على بداية الطريق محاولين خلق دولة، واستطاعوا بطريق السلم والحرب أن يكونوا قوة لا يستهان بها، واتخذوا تلمسان عاصمة لهم وفرضوا أنفسهم على القوى المناوئة لهم وبدأ فى تأسيس دولة وكيان سياسى لهم.

الفصل الأول

ظهور الدولة ككيان سياسي

تدين دولة بنى زيان بكل شيء لشيخها ومؤسسها أبى يحيى بن يغمراسن بن زيان الذى عرف كيف يثبت أقدام بيته الزياني ويحكم فى تلمسان وما حولها. وكذلك عمل على كسب ود الموحدى، وقد حكم هذا الرجل قرابة خمسين سنة هجرية (٦٣٣هـ - ١٢٣٦/٦٨١ - ١٢٨٢م)، وأبدى خلال الفترة الطويلة من الذكاء والمتانة والجرأة ما جعل دولته من أقوى دول المغرب ولكنها كانت بداية ونهاية دولة قبيلة غير مستقرة وقد أعطى لها شكل الكيان السياسى المستقل وأصبحت دولة بمفهوم عصرها فقد لبس شارة الملك والسلطان وقطع دعوة بنى عبد المؤمن من تلمسان وقطرها ولم يشأ أى مستقل استقلالاً كاملاً بالدولة؛ بل تظاهر بتأييد وطاعة الموحدى حتى يأمن شرهم ومكرهم به ونظر إلى المغرب الأوسط فوجده يخضع حتى ذلك الوقت للسيادة الموحدية بقيادة بنى عبد المؤمن وذلك فيما عدا مدن قسنطينة وبجاية التى كانت تخضع فى ذلك الحين للقيادة الحفصية بعد أن أخضعها لنفوذه أبو زكريا الحفصى (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م).

وفى سنوات حكمه الطويل تحولت تلمسان إلى سوق من أكبر أسواق المغرب العربى لأن مركزها الجغرافى وسياسة أميرها يغمراسن جعل منها سوقاً لتجارة أفريقية المدارية الاستوائية مع المغرب وإليها كان يفد تجار العاج والأبنوس والجلود والرقيق والتوابل وما إلى ذلك ولقد كان هذا الشراء الذى وصلت إليه تلمسان يجعل أميرها قادراً على تغيير معالم الدولة وصورتها الخاصة حضارية وتمدنية بدلاً من حياة البداوة التى كان يحياها بنو زيان قبل السيطرة على المدينة.

ولقد كان يغمراسن بن زيان لكى يضمن بناء الدولة ويحفظ وجودها وتوازنها وسط تيارات الصراع السياسى والعسكرى فى المغرب بعد ضعف النفوذ الموحدى فكان عليه أن يحارب بنى حفص أو يهادنهم وكذلك الموحدىين لأجلاتهم عن المغرب الأوسط، ولقد كان موقع الدولة الزيانية بين قوتين تتطلعان كلها إلى السيطرة على بلاد المغرب الأوسط توطئة لبناء الدولة الواحدة فى المغرب. فإذا حاول بنو حفص بأفريقية فرض السيطرة الحفصية على بلاد المغرب اصطدموا بالدولة الزيانية بتلمسان فتقع بينهما الحروب، وهذا ما كان يحدث بالنسبة للموحدىين ثم بنى مرين من بعدهم بالمغرب الأقصى.

وعلى هذا .. فقد اتفقت جميع المصادر بل والمؤرخون على أن يغمراسن بن زيان هذا أول من جعل لبنى عبد الواد وجوداً سياسياً مستقلاً لفترة الخمسين عاماً دون أن يعترها أدنى اضطراب بل أنه هو الذى قاوم الحفصيين للاستيلاء على تلمسان عام ٦٤٤هـ. كما صد بعد قبائل زناتة التى كانت تنافس بنى زيان (قبائل توجين) كما صد القبائل العربية القادمة من الغرب وقد قاد يغمراسن أكثر من اثنين وسبعين حملة وغزوة للدفاع عن كيان الدولة الشابة النامية التى تحاول أن تحافظ على كيانها وسط مهبات العواصف من كل الاتجاهات وبمساعدة القبائل العربية بعد أن صادقها وعقد معها الاتفاقيات وقدم لها الهبات والعطايا واقطعها الاقطاعيات. وصد بنى مرين الذين قدموا لحربه مرتين اضطر فيها لترك عاصمته والإغارة على حدود بنى مرين فى المغرب الأقصى لرفع الحصار عن تلمسان وكانت خطته دائماً تنجح ثم يعود إلى تلمسان بعد أن يشعر العدو بخطر زحفه إلى بلاد المغرب وبهذا الوجود السياسى فإن قبيلة زيان استطاعت أن تظهر منتصرة على الموحدىين وتقضى على نفوذهم فى المغرب الأوسط.

وهذا الموقع الجغرافى لبنى زيان فى المغرب الأوسط بين كتلتين سياسيتين

متحاربين الحفصيين والموحدين، والحفصيين وبنى مرين فيما بعد؛ قد جعلهم دائماً فى حروب مستمرة مع الدولتين المجاورتين ومع باقى القبائل وسكان المغرب الأوسط، وقد كان ذلك من الأسباب القوية التى حالت دون سطوع نجم الدولة الزيانية على مستوى الأحداث العالمية فلم تستطيع أن تكون قوة كبرى فى مجال الجهاد الإسلامى والصراع الدائر على أرض الأندلس ومياه البحر المتوسط؛ فهى لم تزد عن قوة قبلية عشائرية ذات كيان سياسى محدود ومحصورة بين قوتين كتب على الكيان الزيائى أن يكون فى تقال وصراع مستمر فالذى ينظر إلى الحروب والغزوات (٧٢ غزوة)؛ قام بها يغمراسن يدرك مدى الأخطار التى كانت تحدى بهذا الكيان والتى تحاول وآه بل قتله منذ ولادته فقد حارب بنى حفص عام (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) وحارب الموحدين عام (٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، فنجد أنه لم تمض إلا سنوات قليلة على ظهور يغمراسن كقائد حرب ورئيس دولة حتى تهاجمه الدولة الحفصية وتحاصر تلمسان وتخضعها للنفوذ الحفصى. وكان يغمراسن من الذكاء والكياسة والحكمة بل فطنا مناوفاً استغل الظروف المحيطة به أحسن استغلال، فأعلن طاعته وخضوعه للنفوذ الحفصى خالفاً البيعة للموحدين ومنادياً للأمير أبى زكريا الحفصى ومقيماً له الدعوة لتلمسان ومتحدياً شعور الموحدين ولكن فعلته هذه أغضبت أولياء الأمر فى المغرب الأوسط فما كان من الموحدين الذين أغضبتهم مبايعة بنى حفص وإلغاء تبعيتهم حجة ليجمعوا قواتهم وجموعهم محاولين إخضاع بنى زيان.

ولكن يغمراسن أخذ للأمر عدته فنجد أنه بعد استيلائه على تلمسان بفترة وانتقال زنانة إلى التلول والأرياف استولت قبائل المعقل العربية على مواطن زنانة. القديمة بالصحراء، فنقل يغمراسن قبائل بنى عامر العربية من أوطانها إلى جواره بصحراء تلمسان وكثرت أعداد بنى عامر وكانوا هم خط الدفاع عن المدينة ومشاركين

فى الغزو والدفاع وكان لبنى عامر دور هام فى حماية الدولة وصد العدوان والغزو فى توسيع رقعتها ولقد كانت السياسة التى اتبعها بنو زيان فى حروبهم مع أعدائهم من بنى حفص والموحدين لا بد أن تتسم بالمهادنة والذكاء العسكرى ودراسة الأحوال العسكرية وعدم الدخول فى قتال ضارٍ مع قوى تفوقه عدداً وعدة فكان أن أعلن الخضوع والولاء لأبى زكريا الحفصى.

ونظر أبو زكريا الحفصى بعد إخضاع تلمسان لنفوذه فيمن يعين والياً عليها ويضمن ولاءه فلم يجد أكفاً من يغمراسن زعيم زنانة لتولى هذه المهمة بعد أن خلع بيعة الموحدين. وهذا الأسلوب من المهادنة والخضوع والميول السلمية وضح أكثر من الموحدين فى الفترة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) عندما أيقنوا أنه لا قبل لهم بحشود الموحدين وقواتهم العسكرية الهائلة؛ فكان أن أصدر أوامره بالانسحاب من العاصمة تلمسان وتركها خاوية على عروشها وفتح أبوابها للقوات الغازية واعتصم بالجزال ودارت حرب العصابات بين أودية الجزال الضيقة والتى كانت تجيدها القبائل الزيانية خير إجابة فانتصر بنو زيان، وبهذا الأسلوب المحنك، الذى تمتاز به القبائل البدوية استطاع أن يحفظ دولته الفتية وأن يتقى شر بنى حفص بالبيعة الأسمية ويتقى شر الموحدين بالانتصار العسكرى على قواتهم.

وإذا كان يغمراسن قد حصن عاصمته بدرع قوى من العرب حين أقدم بعدة حملات تآديبية وغارات سريعة على القبائل والمدن والقرى والأودية داخل المغرب الأوسط نفسه وأقطعوا القبائل القاطنة هذه الأماكن التى يسكنوها بعد إعلان الولاء والتبعية للسلطان يغمراسن.

وإذا كان يغمراسن قد حصن عاصمته بدرع قوى من العرب حين أقدم بنو عامر من الصحراء وأقطعهم نواحي وهران وتلمسان فكانت خير سابقة وأحسن خطة لحماية

العاصمة إلا أنه لم يكتف بذلك؛ بل أسكن فريقاً من القبائل العربية الأخرى كقبيلة عكرمة؛ حيث أسكنها جبل كركرة وكان هذا نوع من التكتيك الحربى وخلق حلف سياسى مع قبائل الدولة العربية واتخاذها كخط دفاع وصد وهجوم وحماية للظهر بل استعمل سلاح الزواج السياسى والمصاهرة لأهداف مستقبلية فخطب بنت السلطان أبى اسحق الحفصى وهو الخليفة الأول، خطب ابنته لابنه وولى عهده عثمان بن يغمراسن.

وقد كانت شخصية يغمراسن بن زيان شخصية مرهوبة الجانب ولها وزنها العسكرى وثقلها السياسى فى منطقة المغرب وكان يخشى بأسها، نظراً لأنه مد نفوذه إلى المغرب الأقصى؛ حيث سجل ماساة جنوباً، ومن هنا نجد أن أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن مؤسس دولة بنى مرين ينظر إلى يغمراسن نظرة شك وريب ويقدر خطورته على الدولة المرينية الناشئة، ومن هنا كان لابد من محاربته ووقف نشاطه التوسعى فعندما عمل أبى يوسف على ضرب الخليفة المرتضى آخر خلفاء الموحدين فإنه عمل على السيطرة على أقاليم الدولة والعمل على تأمينها ضد أى خطر خارجى، وكان هذا الخطر يتمثل فى يغمراسن بن زيان الذى كان يراقب عن كسب بنى مرين نفوذهم الفعلى على إقليم سجلماسة، هذا الإقليم من الناحية السياسية كان تابعاً قبل ذلك لنقوذ بنى مرين.

ومن ثم .. عمل أبى يوسف على توجيه ضربة لخصمة العتيد يغمراسن بن زيان الذى يقف حجر عثره أيام تثبيت أركان الدولة المرينية ويهدد شرق الدولة المرينية دائماً

ويتربص بها الدوائر، وكل ذلك كان بدافع من الانتقام لأن يغمراسن كان قد وقف موقف المساعد والمساند لأبى ديوس الذى سقطت الدولة الموحدية فى عهده وأرسل يغمراسن بيعة لأبى ديوس فى رسالة خاطب بها أبى ديوس قائلاً : إياك أن تطمع بنى مرين فيما لديك فأنا أكفيك شرهم وأنا وأنت يد واحدة فى حربهم وبعد تلك الرسالة شعر أبو ديوس أنه يستطيع مواجهة بنى مرين. وخرج أبو يوسف لحصار مراكش وضيق الحصار على المدينة مما جعله يستنجد بيغمراسن بن زيان أمير تلمسان، وعلى الفور قام يغمراسن بن زيان بشن غارات مكثفة فى أطراف المغرب وخاصة ملوية، ففر أبو يوسف وأرجأ فتح العاصمة والسيطرة مؤقتاً ورفع الحصار عنها وعاد إلى فاس وفى منتصف ربيع الأول ٦١٦هـ/١٢٦٧م. سار أبو يوسف إلى وادى ملوية وكان اللقاء بوادى تلاغ وعبأ كل منهم جهده وعتاده وقواته ودارت معركة طاحنة وحمى وطيس القتال وقتل فيها أبو حفص عمر أكبر أبناء يغمراسن وفر يغمراسن حتى بعد أن لحقت به الهزيمة هو وقومه من بنى عبد الواد وعاد أبو يوسف إلى فاس.

لكن يغمراسن بن زيان كان يتربص بالدولة الفتية الدوائر ويحمل على إضعافها أو الحد من نفوذها وعلى الجانب الآخر كان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى يرى أنه لابد من كسر شوكة يغمراسن وتقليم أظافره لأن معركة تلاغ لم تكن كافية بالنسبة له وأنها لم تشف غليله ولم تطفى نار الانتقام من عدو عنيف وشرس فأجمع أمره على غزوهم فى ديارهم، ولكن نظراً لظروف الأندلس؛ فإن أبى يوسف رأى أن يبدأ بيغمراسن ثم يعود لقبيلة طلب بنى الأحمر ولاية غرناطة، لأن يغمراسن يقف مهدداً أمن الدولة المرينية فبعث إليه أبو يوسف يشرح له حقيقة الأمر والصراع الدائر على أرض الأندلس والمخاطر التى تهدد المسلمين فى غرناطة وطلب منه عقد صلح بينهما وأن يتعاونوا معاً على إنقاذ وتدعيم الجبهة الإسلامية بالأندلس ولكن يغمراسن بن زيان

رفض هذا العرض بشدة وأقسم ألا يصلحه أبداً حتى يأخذ الثأر منه أو يموت دون ذلك.

وكان ذلك الرد العنيف من يغمراسن يمثل تقصيرا في خدمة الإسلام والمسلمين في الأندلس من جانبه لأنه لم يفهم على بداوته طبيعة الأحداث السياسية التي تمر بها المنطقة بل أنه قصوراً في الفكر الإسلامي وعدم فهم لحركة الجهاد الإسلامي التي تنوى بنو مرين القيام بها في الأندلس ذلك لأن الأندلس يواجه موقفاً حرجاً على اعتبار أنها آخر المعاقل الإسلامية.

لذا .. أعلن أبو يوسف التعبئة العامة في أنحاء البلاد وحشد قوات جرارة وعتادا يفوق الوصف وسار يحفزه شعور بالإهانة وجرح الكبرياء من قبل يغمراسن وعدم تقدير للمواقف في الأندلس فكان لابد من تصفية الحساب وعند وادي ابتسيلي بالقرب من وجدة عام (٦٧هـ/١٢٧١م) دارت المعركة التي انهزم فيها يغمراسن وشفى أبو يوسف يعقوب ظمأه من معركة تلاغ بل أنه لم يكتف بالانتصار هذا بل أراد أن يستثمره بأسرع ما يمكن فتعقب القوات المنهزمة إلى تلمسان.

وتقدم لمحصنة يغمراسن في عقر داره فحاصر عاصمته واشتركت معه في هذا الحصار للعاصمة قبائل يوجين ومغرواه وكانت قبائل يوجين بقيادة زعيمها محمد عبد القوى التسجيني وكانت هذه القبائل قد جاءت لتحارب يغمراسن ولتأخذ بثأرها منه وشدد الرينيون في حصار المدينة فقطعوا كل صلة لها بمخارج الأسوار وأفسدوا كل شيء حتى أنه لم يبق بتلك الأنحاء قوت يوم، لكنه أكتفى بذلك وقرر رفع الحصار، لكنه لم يفك الحصار للمدينة إلا بعد أن تحركت قبائل يوجين إلى مواقعها ومواطنها الداخلية ووصلت في تحركها إلى ونشريس وبلغت مأمناً فقد كان أبو يوسف يخاف أن يتبعها يغمراسن أثناء انسحابها وقد أعطى أبو يوسف هذه القبائل كثيراً من مغام

الحرب وعاد إلى فاس عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م. بعد أن اتخذ بعض الخطوات الدفاعية بإعادة تأمين الحدود الشرقية للبلاد وحصن مدينة تأدنت وبنى بها حصناً منيعاً وذلك لقربها من بنى زيان وشحنه بالمؤن والعتاد والأقواس ليقف مركزاً متقدماً لمراقبة يغمراسن بن زيان وتحركاته، وكان قبل ذلك قد أمر بهدم مدينة وجدة وتخطيطها حتى لا يحتوى بها يغمراسن مرة أخرى.

لكن خطر يغمراسن لم ينته؛ فقد تعرض بنو مرين لهجوم من جانب بنى زيان فقد ظن يغمراسن بن زيان أن يضم المغرب من فاس ومكناسة وأن البلاد قد تمزقت وأن العداء والصراع الدائر بين أفراد الأسرة المرينية قد يعطيه الفرصة لتحقيق أهدافه وأن هذه الفرصة قد تمكنه من القضاء عليهم فجمع يغمراسن جيشاً كبيراً من قومه وضم إليه قبائل توجين ومغرواه وبنى عامر العرب ووصلت أنباء هذه الهجمات إلى أبي يعقوب بن عبد الحق فخرج بجيش من بنى مرين والتقى بيغمراسن عند بلدة (كلدبان) فهزم المرينيون بن عبد الواد وانسحب يغمراسن.

وفي هذا الأثناء كان يعقوب بن عبد الحق يراقب أحوال يغمراسن بن زيان فبادر بتجميع قواته وتوجيهها إلى سلا ثم فتحها عنوة، لكن على الجانب الآخر بعد هذا الصراع وجد الأمير يعقوب أنه لابد من عقد صلح مع يغمراسن فالتقى به عند مدينة (هوجريان) وأسفر هذا اللقاء عن عقد صلح آخر بين بنى مرين ويغمراسن زعيم بنى زيان كان أساسه المحافظة على السلم بين الطرفين ووضع أوزار الحرب بينهما جانباً ومعاودة الصلح هذه التي تمت بين سائر القوى السياسية المتصارعة في المغرب الأوسط والأقصى أشبه ما يكون بتوزيع المناطق النفوذ بين القوى المتصارعة.

وفي مجال الصراع بين القوى عبد الوادية والمرينية نجد أن بنى عبد الواد كان قد تم لهم الاستيلاء على مدينة سجلماسة في جنوب غرب المغرب وخضعت لهم منذ

عام ٦٥٣هـ/١٢٠٥م، لكن بنى مريـن كانوا قد تحركوا للاستيلاء عليها ولم يكن الاستيلاء عليها بالقتال بل عن طريق الانقلاب ضد حاكم المدينة وكان يغمراسن قد تحرك للاستيلاء عليها؛ حيث راسله بعض أهلها ولكن يغمراسن فوجئ بوصول الأسير يحيى إليها ودارت بينهما معركة انسحب بعدها يغمراسن بعد أن تأكد من صلابـة بنى مريـن فى سجلماسة لكن ذلك لم يمنع من سيطرة بنى زيان عليها إذ نجح بعد عشر سنوات يتجدد الصراع ٦٧٣هـ/١٢٧٤م. فنجد بنى مريـن يريدون السيطرة على سجلماسة التى لم يبق خارج سيطرتهم إلا تلك المدينة التى كانت هى القاعدة الجنوبية لدولتهم والمفتاح الجنوبى للمغرب الأقصى، وكان الاستيلاء عليها بالنسبة للمريـن يعد أمراً حيويًا خاصة وأن يغمراسن بن زيان سيطر عليها وحلفاؤه من عرب المنبات وكان بيعث كل سنة ولدًا من أولاده لضبطها وجباية خراجها من عرب المنبات. وتدم أبو يوسف يعقوب نحو سجلماسة بحشود ضخمة وهاجم المدينة واستخدم البارود لأول مرة فى حروبه وظل بنو مريـن سنة كاملة يحاصرون المدينة حتى سقطت فى صفر ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، ويسقوط سجلماسة أكمل المـرين السيادة الكاملة على بلاد المغرب الأقصى والذى ينظر إلى حال الدولة الزيانية ولم يمض على إعلانها أكثر من عشر سنوات يدرك مدى الأخطار التى تعرضت لها ومدى ما أصابها من مخاطر فى بداية أمرها والظروف الصعبة التى دفعتهـا دفعاً إلى السلم والمهادنة والمبايعة والاعتراف والتبعية وإلى الحرب ومع أن يغمراسن بن زيان ظل فترة يدعو للموحدىـن على منابر تلمسان ثم للحفصيين من بعدهم إلا أنه استطاع أن يقود دولته فى مهدها وأن يقود سفينة البلاد وسط الأمواج العاتية وأن يصل بها إلى بر الأمان وأن ينجو من الظروف المحيطة وبذلك استطاع أن يطمئن ولو لفترة قصيرة بأن أمن شر ومكر من يحيطون بها شرقاً وغرباً أما شمالاً فكان البحر المتوسط وجنوباً الصحراء. وهكذا استطاعت الدولة

الزيانية فى عصر يغمراسن أن تقف قوية مطمئنة إلى أن كيانها السياسى قد بات معترفاً به وأنه حقق أهدافه فى البقاء.

« الكيان السياسى بين التوسع والانكماش »

فى حقيقة الأمر فإن قيام الدولة الزيانية فى المغرب الأوسط ووقوعها بين فكي كماشة حفصية وموحدية ثم بنى مريـنية قد ألقى عليها تبعات ثقالا وجعلها تكون دائماً على أهبة الاستعداد العسكرى معلنة حالة الطوارئ والاستعداد للقاء العدو فى أية لحظة فالأخطار كانت تهدق بها من كل جانب بالإضافة إلى الخطر الداخلى المحتمل من القبائل البدوية؛ حيث طبيعة المغرب الأوسط.

لكن رغم أدراك قادة الدولة بأنهم يواجهون قوى متعددة فإنهم كانوا يحسبون لكل شىء حسابه ويعدون لكل أمر عدته سواء سلماً أو حرباً كما مر سابقاً ولكنها عملت على كسر الطوق الذى يحاصرها فكان عليها أن تحاول أن تمد حدودها وأن توسع منطقة نفوذها وتحقق كياناً أكبر بأسلوبها الذى تراه فاتسعت الدولة لكن هذا الاتساع لم يكن ثابتاً فبنو زيان بالذات لم تكن لهم حدود ثابتة طوال حكمهم للظروف السابق الإشارة إليها فلم تكن معالم الحدود شرقاً أو غرباً ثابتة، ومعترفاً بها طوال فترات سلطة بنى زيان، وكانت الحدود بين التوسع والانكماش ولقد كان العامل القبلى من أهم العوامل التى أثرت فى كيان الدولة مما جعلها لا تستقر فى نفوذها علن المنطقة؛ حيث كان المغرب الأوسط يضم مجموعة من القبائل البربرية والعربية وتخضع كل قبيلة من هذه القبائل المتعددة وغير المتجانسة لنظام القبيلة التى لا تستطيع الخروج عليه فكانت كل قبيلة تتعصب لنفسها وتأبى الخضوع لغير سلطان

القبيلة، وفي هذا الإطار والمفهوم القبلي والعشائري والكيانات الصغيرة قامت الدولة الزبانية.

بل كانت هذه الجماعات البدوية لا تنتظم تحت سلطة حكومية واحدة وأنها عبارة عن قوة من البدو تهدد أمن المجتمعات الحضرية الآمنة وكان على بنى زيان العمل على نشر مفهوم الدولة بين هذه القبائل المتعددة وأن تقضى الدولة على التجمعات القبلية المتنافسة وأن تجعلها لا تتصارع داخليا بل يكون صراعها شرقا وغربا لأجل حفظ الكيان السياسى .

وفي هذا الإطار القبلي قامت الدولة الزبانية فقد وجد بنو عبد الواد أنفسهم أكثر قوة من غيرهم ففرضوا سيطرتهم على بقية القبائل ولقد كانت القوة هى المحرك الاساسى لاقامة دولة بنى زيان فلم يحاول بنو زيان عقد تحالف أو تفاهم مع بقية القبائل الاخرى بل انفردوا بالسيطرة على تلمسان وضربوا عرض الحائط ببقية القبائل البربرية والعربية الأخرى لأنهم لمسوا فى أنفسهم أنهم أكبر قوة فى المغرب الاوسط . ومن هنا فقد حاولت القبائل الاخرى الوقوف بالمرصاد لهم ومحاولة ضرب كيانهم السياسى وهذا هو الخطر الداخلى الذى كانت تحاول الدولة كسرة بأية وسيلة . لكن كانت هناك قوى أخرى من القبائل البربرية العربية حاولت ضرب الدولة الزبانية من الداخل فقد وفد زعماء قبائل مغراوة وبنى بوجيين الى أبى زكريا الحفص طالبين منة الاستيلاء على تلمسان مقدمين لة أنفسهم وقبائلهم للوقوف بجانبه فى حالة مقاومة بنى زيان . وكان للعداء التقليدى بين هذه القبائل وزيان التى أحست أنها قد ظلمت من سيطرة بنى زيان على مقاليد الحكم منفردة فى حروب مستمرة مع قبائل المغرب الاوسط لاختضاعها والسيطرة عليها .

اتجهت سياسة بنى زيان منذ الوهلة الاولى الى اقامة دولة قوية ومن هنا كان

يغمر اسن بن زيان المؤسسى الفعلى للدولة وأن يعمل على اتخاذ كافة السبل لاتساع الدولة وسارت سياسة بنى زيان فى خطين متقابلين توصلان فى النهاية الى الهدف المنشود من بناء وتوسيع كيان الدولة وبقائها قوية وكان الخط السياسى الاول هو الاتجاه السلمى ويتمثل هذا الاتجاه فى قيام علاقات حسنة طيبة مع الدولة الأم التى كانت تنشر نفوذها على كل أجزاء المغرب الكبير وهى دولة الموحيدين التى كانت لاتزال قوية تحكم من مراكش رغم هزيمة العقاب ٦٠٩ هـ ثم بعد ذلك عندما انتزعت بنو مرين السلطة فى المغرب الاقصى من الموحيدين واتخاذها فاس عاصمة سياسة لهم وكان على بنى زيان مسالمة هذه القوى الجديدة بل ان سياسة المسالمة مع بنى مرين كانت تمثل عنصرا جوهريا بل اساسيا فى تفكير مخططى السياسة الزبانية ، حيث نجد أن أسلوب المسالمة وللمهادنة سار عليه كل من تولى امور الدولة وذلك لأن العاصمة تلمسان كانت تقع على مقربة من خط الحدود مع المغرب الأقصى موطن بنى مرين وفى نفس الوقت تبعد عن أفريقية موطن بنى حفص . ومن هنا كان الخطر من بنى مرين أكثر من بنى حفص . لذلك كانت خشيتهم من الاحتكاك مع بنى مرين هى الدافع الأساسى و القوى وراء مسالمتهم حتى يضمنوا سلامة حدودهم الغربية .

اما جيرانهم فى الشرق وهم بنو حفص فان بعد المسافة كان يمثل عاملا من عوامل الامان وكان الزواج السياسى أو المصاهرة السلطانية عاملا من عوامل توطيد أواصر الصداقة والمودة ومن ذلك زواج عثمان بن يغمراسن من ابنة الخليفة أبى اسحق الحفصى مما كان له بعد أساسى بعيد المدى فى حسن العلاقة والجوار على المدى البعيد .

وكان الخط السياسى لدى مخططى الكيان الزباني هو الأسلوب العسكرى بحيث يتوازى مع خط المسالمة وكان وضع بنى زيان الحرج بين القوتين قد جعل الاتجاه

العسكري أسلوبا من أساليب الحكم والبقاء بل أنه كان سمة بارزة لمد النفوذ والحفاظ على كيان الدولة داخل حدود المغرب الأوسط ومن هنا كان اصطدامهم مع بنى حفص شرقا وبنى مرين غربا فى محاولة كل منهم للسيطرة على المغرب مباشرة و محاولة بنى زيان توسيع دولتهم و تأمين حدودها .

ومن هنا برزت السمة العسكرية فى النشاط التوسعى للدولة وكانت خطة يغمر اسن ومن جاء بعده العمل على توسيع رقعة الدولة وامتدادها ودخولهم فى صراع مع قبائل المغرب الأوسط ومع بنى حفص وبنى مرين حتى تحقق للدولة فى عهد أبى ناشقين الأول الاتساع المرجو من قبل بنى زيان فى أفريقية واستولوا على تونس الا أنه كان امتدادا وقتيا ما لبث أن انكمش وتلاشى أمام الهجوم المرينى على تلمسان كما تحقق للدولة اتساعها فى عهد أبى مالك عبد الواحد الذى تولى الحكم (٨١٤هـ/١٤١١م) واستطاع أن يوسع رقعة الدولة فبسط نفوذها ، على كل المدن والأراضى التى كانت تخضع لنفوذ بنى حفص فى المغرب الأوسط وتوسع غربا حتى استولى على فاس عاصمة بنى مرين .

وهكذا يتضح سياسة الدولة التوسيعية التى اعتمدت على الناحية العسكرية والمحاولات السلمية لاحتواء الأزمات مع جيرانها . وقد نجحت فى المحافظة على وجودها وسط قوى عاتية شرقا وغربا . وهكذا نجح مخططو سياسة بنى زيان فى تنفيذ ما نصحهم به يغمراسن بن زيان فى أمن القوى المعادية سلما و حربا . وسوف ترى فى الصفحات القادمة كيف أدار بنو زيان صراعاتهم مع بنى حفص وبنى مرين من منطلق السلم والحرب وتحقيق لهم المحافظة على كيانهم السياسى من عام ٦٢٣هـ - ١٢٣٥م حتى عام ٩٥٧هـ - ١٥٥٠م أى أكثر من ثلاثة قرون وكبح جماحها حتى لا تثور ضد سيادة بنى زيان وكان على يغمر سن أن يحارب مغراوه وبنى يوجين كبرى

القبائل فى المغرب الأوسط حتى استقاموا للأمر وجنحوا للسلم .

وبوفاة يغمر اسن بن زيان . خلفه ابنة أبو عثمان ٦٥٣-٧٠٣هـ ١٨٨٢-١٣٠٤م) فأمضى كل هذه الفترة التى تزيد عن عشرين عاما محاربا للدفاع عن كيان دولته الذى بدأ يضعف بخروج القبائل عن طاعة بنى زيان بعد وفاة والده وضعف نظام الدولة فما كان من أبى سعيد عثمان الا أن يبذل الجهد الكثير وأن ينبى لاضعافهم بالقوة .

وكان على أبى سعيد عثمان أن يأخذ حيطته فى الدفاع عن البلاد ضد غارات بنى مرين وارثه عرش الموحيدين فى المغرب الأقصى حيث قاد حملة عام ٦٨٧هـ - ١٢٨٧م بلغ بها أسوار مدينة برجية الواقعة غربا وذلك لصد هجوم أبى يعقوب المرينى لكن نفوذ الدولة كان قد انحسر نتيجة لاحتلال بنى مرين للمغرب الأوسط وحصارهم تلمسان عاصمة الدولة عام ٦٩٨هـ - ١٢٩٨م . لكن يغمراسن كان قد أكمل استعداداته العسكرية للدفاع عن المدينة حيث كان أعظم ما أنشأه سور تلمسان العظيم الذى يعد أشد أسوار المدن المغربية تحصينا والتاريخ يشهد أن بقية حكم عبد الواد بعد وفاة يغمراسن كانت صراعا متصلا مع بنى مرين خاصة فنجد أنه أيام الخليفة أبى سعيد عثمان الأول بن يغمراسن بن زيان (ذى الحجة ٦٥١ - ذى القعدة ٧٠٣هـ / مارس ١٢٨٢ - يونيو ١٣٠٤م) حاصر بنو مرين تلمسان وهاجم أبو يعقوب يوسف بن يعقوب الناصر المرينى تلمسان ثلاث مرات وعجز عن الاستيلاء عليها بل أن بعض المصادر تذكر أنه حاصرها أربع مرات وفشل فى الاستيلاء عليها لدفاع بنى زيان بسورها العظيم .

وكان سكان المغرب الأوسط ينتهزون دائما الفرص للخروج على سلطة الدولة اذا انشغلت الدولة بمواجهة تمرد خارجى وكان العامل القبلى هو المحرك للدفاع عن

كيان القبيلة والتمرد على السلطة المركزية حيث بلغت الدولة من القوة ما جعل بنى زيان يزحفون في الاتجاه الشرقى حيث دولة بنى حفص ويتصرون عليهم بعد قتال ضار ويستولون على عاصمة البلاد تونس عام ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م . وتحولت الدولة من الدفاع والتحصن الى الهجوم والتوسع وفرض السيطرة والنفوذ عن الطاعة والبيعة لبنى حفص .

* * * *

الفصل الثانى

الصراع مع بنى مرين

لقد وقفت القبائل فى المغرب الأوسط ضد بنى زيان عند هجوم بنى مرين على تلمسان وحصارهم لها فكانت تضم كل مرة الى جانبهم فوقفت بنو يوجين ومفراق الى جانب بنى مرين أثناء منازلتهم تلمسان ٦٧٠هـ / ٦٨٠هـ ووقفت مغراوة الى جانبهم أيضا ٦٨٩هـ - ١٢٩٠م . ودانت قبائل المغرب الأوسط لطاعة بنى مرين خالعة طاعة بنى زيان ولم نجد هذه القبائل لذلك سبيلا سوى الانضمام لبنى حفص تارة ولبنى زيان تارة أخرى

وكان التباغض والتناغر والغيرة وراء موقف بنى يوجين من اخوانهم بنى زيان اذ رأو أنهم قد وصلوا الى درجة عالية من التفوق العسكرى ومن هنا .. فإن مناهضتهم ستعود عليهم بالخسران فوقفوا الى جانبهم أثناء حصار بنى مرين لهم عام ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م .

بل إننا لا نجد بنى يوجين تقف بمفردها . لكننا نجد أثناء هذا الغزو المرينى للمغرب الأوسط فإن قبائل بنى عامر العربية تقوم بدور إيجابى فى مقاومة الغزو واسترداد أملاك بنى عبد الواد وإعادة دولتهم فبعد استيلاء أبى الحسن المرينى على تلمسان عام ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م . لم يكن موقف بنى يوحين أقل من القبائل العربية؛ حيث أن بى يوحين وبنى عبد الواد وبنى مرين كلهم من أصل واحد ولذلك نجد العصبية تسيطر على بنى يوجين فينحازون إلى جانب بنى زيان وبذلك كانوا أكثر القبائل حظوة عند بنى زيان.

وفقد بنو زيان استقلالهم وسيطرتهم على المغرب الأوسط (٧٣٧هـ-١٣٣٦م)،
ومكنوا اثني عشر عاما والدولة تخضع للاحتلال المريني ٧٤٩هـ-١٣٤٨م.

وكان بنو مرين في هذه المرة قد أقبلوا على تلمسان بكل قواهم وبلغ من تصميمهم على الاستيلاء عليها أن بنوا بجوار تلمسان مدينة سميت (محلة المنصورة) أو المنصورة وكانت مدينة كاملة بميادينها وأسواقها ومساجدها وحماماتها ومتوفر لها كل المرافق التي تجعلها مدينة مستقلة تعتمد على نفسها وأقام بها قصرا لدار الحكم ومسجداً بل أقام الفنادق والحمامات وأطلق عليها بعض المؤرخين تلمسان الجديدة وكان بنو مرين قد حاصروا تلمسان القديمة ثمانى سنوات تصميماً على فتحها وتعبيراً عن تصميم أبي يعقوب على الاستيلاء عليها واستمر الحصار حتى مات أبو يعقوب وكان مقتل أبي يعقوب بواسطة أحد رجاله يمثل بداية انقشاع الغمة لأهل المدينة الذين قاسوا الكثير خلال فترة الحصار الطويل حتى أنهم من قسوة الجوع أكلوا الكلاب والشعابين وفك الحصار وعقد الصلح بين الطرفين.

واستطاع بنو زيان إعادة النفوذ للدولة على المغرب الأوسط عام ٧٤٩هـ بقيادة أبي سعيد وأبى ثابت الملقب بالزعيم وهما ولدا عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، ويذكر هنا الفضل الكبير لقبيلة مغراوة التي كان لها دور كبير في المساعدة والعمل على استعادة النفوذ الزباني وكانت بعض القبائل قد وقفت ضد الدولة أثناء الحصار الطويل فقام بعدة حملات تأديبية لهذه القبائل واستطاع بنو زيان هزيمتها.

وكانت القبائل العربية لا تقل عصبية عن القبائل البربرية كما لا يقل دورها خطورة وتأثيراً في اتساع الدولة وامتدادها وانكماشها فقد وقف بنو عامر ضد بنى مرين عندما سيطروا على المغرب الأوسط وظهرت العصبية عندما حاول بنو مرين الاستيلاء على أفريقية.

فوجد بنى عامر قد انتقموا لأنفسهم عندما شرعوا في تخليص المغرب الأوسط من يد قوات أبي عنان المريني ووصلت الأخبار بوفاة أبي عنان فاجتمع عرب المغرب الأوسط على مبايعة أبي حمود وحلفائه من عرب بنى عامر ووعدوه المعاونة، فاشتبك بنو عامر مع بنى مرين خارج تلمسان وهزمهم وقتل أميرهم وعاد بنو زيان إلى تلمسان عام ٧٦٠هـ/١٤٥٩م.

غير أن الأوضاع السياسية بدأت تواجه تطوراً هاماً في سياسة الدولة الزبانية فقد بدأت بعد خروجها من الصراع الدامى مع بنى مرين وهزائمها وانتصاراتها تخطو خطوات نحو تثبيت ملكها إذ أن المحن والشدائد كانت تجتد الوسائل للتغلب عليها وكانت سياسة اتباع الهدايا وبذل الأموال والاغراء المادى والسخاء فى البذل وأكياس الذهب والفضة وأقطاع الاقطاعيات من الأساليب التى اتبعتها الدولة الزبانية لكى تفرج عن نفسها شدة الحصار وتكسب ود القبائل فى داخل حدودها السياسية وكان أسلوب المال من أحسن الأساليب للسيطرة على القبائل.

لكن كما سبق القول فإن دولة بنى زيان كان كيانها على أساس قبلى والقبيلة تشكل عصب الكيان ومن هنا يمكن القول أن المواقف المتناقضة بين السلب والإيجاب والمساندة والمساعدة والغدر والطعن من الظاهر التى وقفتها قبائل المغرب الأوسط عرباً كانوا أم بربراً ليس لها ما يبررها إلا العصبية فكل قبيلة كانت تجتد فى نفسها القوة كانت تحاول بكل الوسائل فرض سيطرتها على القبائل الأخرى وهذا ما حدث بالنسبة للدولة الزبانية وأثر على امتداد الدولة واتساعها فى الرقعة المساحية ووسط نفوذها فى المنطقة فعاشت الدولة حياة مضطربة وتسببت الحروب المستمرة داخلياً بينها ومن القبائل ذات العصبية القبلية فى فقد نفوذها أكثر من مرة ولم تكن هذه القبائل سنداً وعدة لتوسيع نطاق الحدود المتعارف عليها بل كانت عامل انحسار وليس انتشاراً.

وكذلك لعب الصراع الداخلى بين أفراد الأسرة الزبانية الواحدة من أجل توليه عرش الحكم أثره الكبير على قوة الدولة وفقدت نفوذها على البلاد وخاصة المنطقة الشرقية التى دب فيها الخلاف بين أمراء الأسرة الزبانية فنادرا ما كان الوفاق يسود بين الأمراء أثر وفاة حاكم وعند تعيين خلف له فالصراع ممتد والذى يدرس تاريخ تولية الأمراء يجد الانقسام والقتل وتقسيم الدولة بين عدة أمراء وبدلاً من التوحد كان التشرذم والتفوق داخل مساحات ضيقة واستعانة بالخصم للانتصار على أفراد العائلة وتولية مقاليد الأمور والاستعانة بقوى خارجية.

ومن ثم .. فإن الدولة الزبانية كانت تعيش فيما يشبه الحرب الأهلية بين أبنائها وأبناء أبى حمود على وجه الخصوص وأصبحت الدولة تعيش حالة من الفوضى. فنجد مثلاً أثناء الصراع الذى دار بين أبى زيان وأبى حمو حول السلطة تدخلت القبائل العربية وثار عرب بنى زيد وناصروا أبى زيان فأسرع أبو حمو بإرسال قواته التى قامت بتدمير وطنهم وأصاب أبو حمو مقتلاً بعمله هذا مما جعل القبائل العربية من بنى زيد تعلن طاعتها وتخلع تأييد أبى زيان.

الخطر المرينى يتجدد

كان الخطر المرينى من أهم العقبات التى وقفت فى طريق تقدم الدولة الزبانية واتساعها وتحقيق أهدافها فى التقدم والتحضر والزدهار وبناء دولة مستقرة وثابتة الأوطاد. فالذى يتابع أحداث الغزو المرينى على تلمسان العاصمة والمغرب الأوسط نجد أنه عدوان متكرر ومستمر ولم ينقطع ألا ليعود أشد قوة وأشد ضراوة وأكثر تصميمًا على السيطرة والتدمير وإثبات الوجود وبناء المدن والتوسع على حساب الدولة الزبانية.

فنجد أن الدولة دخلت فى صراع جديد مع بنى مرين إلا أن السلطان أبى حمو الثانى استطاع إعادة نفوذ بنى زيان من جديد (٧٦٠هـ/١٣٥٨م) وطرد بنى مرين من تلمسان وعندما هاجم أبو سالم المرينى تلمسان عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م خرج منها أبو حمو وقام بالاعتداء على حدود المغرب الأقصى مما اضطر أبى سالم إلى رفع الحصار عن المدينة ونصب أبى زيان على المدينة خلفاً لأبى حمو الثانى ولكن أبى حمو قاوم هذا التعيين من قبل المرينيين مما اضطرهما للدخول فى قتال استطاع فيه أبو زيان أن ينتصر على أبى حمو عام ٧٦٨هـ/١٣٣٦م. وبذلك استطاع أبو زيان بالصراع العسكرى الداخلى والقتال أن يضعف قوة الدولة الزبانية فى المنطقة الشرقية بل جاء الاستيلاء على تلمسان. وعلى كل .. فإن أبى زيان الملقب بالقبى استطاع انهك قوة الدولة الزبانية وكانت حروبه عائقاً دون اتساع الدولة وقد حكم أبو زيان سعيد أربع سنوات أعاد فيها النظام إلى الدولة وخلفه أبو حمو موسى الأول الذى أكمل إصلاح تلمسان واتخذ سياسة التوسع شرقاً نحو حوض شليف حتى وصل قسنطينة وبجاية ولكن ولدة أبى تاشفين قتله عام ٧٤٨-٧٦٨هـ/١٣١٨-١٣٣٧م والذى كان يستعجل الحكم فى البلاد.

وكذلك زحف بنو مرين على تلمسان والمغرب الأوسط عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م بقيادة أبى فارس بن السلطان أبى العباس لكن سلطان بنى زيان أبى حمو اضطر لترك العاصمة والتحصين بالجلال للدفاع عن كيان الدولة إلا أنه قتل فى المعارك على الرغم من مساعدة قبائل بنى عامر العربية له.

وعلى هذا .. فإن المعارك بين دول المغرب الأربع بنى زيان، بنى حفص، الموحيدين ثم بنى مرين لم يتوقف طوال القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى وهى حروب عظيمة وطويلة المدى ومتكررة ولم تنته؛ بل كانت غارات كروفر

متواصلة، وهى حرب عقيمة لا قيمة ولا فائدة ترجى من ورائها سوى حب السيطرة والنفوذ وكانت نهاية هذه الحروب أضعاف هذه الدول جميعاً وخصوصاً بنى عبد الواد الذين توقفت تجارة بلدهم وانهكتها الحروب وانتهت بأن احتلتهم بنو مرين عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م وخربوا تلمسان ولما اعتلى أبو تاشفين عرش الدولة الزبانية أقام الدعوة والبيعة لأبى عباس المرينى صاحب المغرب الأقصى وخطب له على منابر المغرب الأوسط وظل أبو تاشفين تابعاً فى إدارته لبنى مرين حتى وفاته ٧٩٥هـ/١٣٩٢م، وقام أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز بن السلطان أبو سالم بن أبى الحسن من ملوك بنى مرين قام بمهاجمة تلمسان واستولى عليها وأقام دعوة أبيه أبى العباس المرينى وحققت الدولة الزبانية خضوعاً تاماً لبنى مرين إدارة وسياسة إلى أن توفى السلطان أبو العباس المرينى فاستدعى بنو مرين أبا فارس من تلمسان ليحل محل أبيه فى العرش المرينى وأرسلوا أبا زيان بن حمو ليتولى أمر البلاد تحت طاعة بنى مرين (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) وتولى أمر تلمسان.

الصراع مع بنى حفص

ولقد كان أبو تاشفين الذى أعلن خضوعه لبنى مرين يرى أنه لا أمل فى التوسع غرباً؛ حيث القوة المرينية التى يهابها فما كان عليه إلا أن يتوسع شرقاً فحاول إخضاع قسنطينة وبجاية لنفوذ دولته وحدث صراع بين القوتين الحفصية الزبانية وبين بنى زيان ودخلوا تونس واستولوا عليها.

ولما رأى بنو حفص ازدياد قوة بنى زيان بحيث أصبحت تشكل خطراً فعلياً على وجودهم بأفريقية وتهدد أمن المغرب الأدنى فإنه لم يكن أمامهم إلا طريق واحد وهو

الاستعانة ببني مرين لوقف هذا الهجوم ومحاولة درء الخطر الزباني الذى بات يهدد كيان بنى مرين أيضاً لأن ضم الأراضى الحفصية والاستيلاء على تونس يجعل من بنى زيان قوة كبرى تستطيع أن تقف وتهدد طموحات بنى مرين وهذا ما كان يخشاه المرينيون، فلبوا نجدة بنى حفص لضرب القوة الزبانية والوقوف أمام اتباع المد القادم من المغرب الأوسط وكسر نفوذ بنى زيان ونتج عن ذلك حصار تلمسان من قبل بنى مرين (٧٣٥هـ-٧٣٧هـ/١٣٣٤-١٣٣٦م). وكان معنى هجوم بنى مرين من الغرب وبنى حفص من الشرق على بن زيان فإنهم وجدوا أنفسهم لا يستطيعون الحرب فى جبهتين فسقطت تلمسان فى أيدي بنى مرين وفرض النفوذ المرينى على سكانها.

وفى حقيقة الأمر فإن تبادل الحروب بين القوى الثلاث قد استنفد قواها وجعلها فى حروب متواصلة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

لكن الظروف التاريخية كانت تفرض نفسها فأعداء الأمس صاروا أصدقاء، فإن الدور الحفصى لم يقف فى طريق التوسع الزباني دائماً، ذلك أنهم فى بعض الفترات التاريخية ساعدوا بطريق غير مباشر على إعادة نفوذ بنى زيان عندما وقفوا إلى جانب أبى حمو الثانى فساعده لطرده بنى مرين المسيطرين على المغرب الأوسط والذين كانوا يتطلعون لسيط نفوذهم السياسى والعسكرى والقيادى على أفريقية والمغرب كله وإزاحة بنى حفص كما أراحوا بنى زيان للانفراد بالسلطة الفعلية فى المغرب الكبير.

واستطاع أبو حمو الزباني عن طريق دعمه بجيش تم تسليحه بواسطة بنى حفص أن يتمكن من استعادة تلمسان مرة أخرى ولكن عندما عاد بنو زيان لتوسيع دائرة النفوذ الزباني بالعدوان على قسنطينة وبجاية فى عهد أبى حمو الثانى وقف لهم بنو حفص بالمرصاد لأن بنى حفص كانوا دائماً يحاولون ضرب نفوذ أية قوة من المغرب الأوسط يشتم منها رائحة تهديد نفوذهم فى أفريقية وكانت لهم سياسة مزدوجة أو

اللعب على كل الأطراف واحتواء عدو الأمس وعداوة صديق الأمس، فساعدوا بنى مرين للاستيلاء على تلمسان، ثم ساعدوا أبا حمو الثانى فى القضاء على النفوذ المرينى بالمغرب الأوسط، ثم ضربوا بنى زيان بعضهم ببعض أثناء الصراع من أجل السلطة، فوجد بنو حفص يساعدون أبا زيان بن السلطان أبى سعيد فى مزاحمة أبى حمو الثانى فى توليه عرش تلمسان.

والذى يتمعن فى مواقف بنى حفص من دولة بنى زيان يدرك أن محاولاتهم هذه تتجلى فى الوقوف بكل الوسائل والسبل ضد اتساع الدولة سلباً أو إيجاباً.

فقد انتصر بنو حفص على جيش أبى حمو فى بجاية؛ حيث أن هذا الانتصار قلل من شأن الدولة بين عرب المغرب الأوسط وأضعف جانبها أمام قوة أبى زيان الذى أصبح لأول مرة يمتلك قوة لا يستهان بها فى المغرب الأوسط، واستعان بالقبائل العربية فى حصار قسنطينة وبجاية، ولكن أبا بكر سلطان بنى زيان استعان ببني مرين يهاجموه من الغرب وحاصروا عاصمته وكان بنو حفص يمدونهم بالعون والعتاد العسكرى والقوات المشاركة فانهزمت جيوشه ودخلت جيوش بنى مرين بمساعدة بنى حفص عاصمته بل أصبحت دولته جزءاً من دولتهم قرابة نصف قرن حتى استعادها بنو زيان ولقد كافأ أبو زيان أنصاره وحلفاءه من العرب العامرية والمعتلية حينما وفدوا لتهنئته بالانتصار فكساهم جميعاً رغبهم كثرتهم.

محاولات بنى زيان للإخلال بميزان القوى فى المغرب

درج بنو زيان منذ عهد مؤسسها الأول أبى يحيى يغمراسن بن زيان (٦٣٣-٦٨١هـ/١٢٣٥-١٢٨٢م) على التوسع فى الأقاليم الشرقية المجاورة لكيانهم

فى المغرب الأوسط والذى تخضع لنفوذ وسيطرة الأسرة الحفصية الحاكمة فى تونس. وقد أتاحت لهم فرصة إلحاق هزيمة فادحة بالدولة الحفصية وذلك لأنه فى عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨م تمكنت قوات بنى زيان والذى كانت قائمة أساساً على القوى العسكرية من إلحاق هزيمة كبرى بالسلطان الحفصى أبى يحيى بن أبى زكريا واستولوا على الأراضى الواقعة شرق حدودهم حتى دخلوا العاصمة تونس وسيطروا عليها وسقطت عاصمة الدولة فى أيدي قوات بنى زيان.

وقام بنو عبد الواد فور دخولهم عاصمة الخلافة الحفصية بمنتصيب أحد عملائهم وهو محمد بن أبى عمران حاكماً لتونس بدلاً من سلطان الحفصيين، إلا أنه أثناء اقتحام بنى زيان العاصمة تونس فإن الخليفة أبا يحيى بن أبى زكريا الحفصى استطاع الهروب وحاشيته من العاصمة والالتجاء إلى بجاية ومن هناك أرسل وفداً يرأسه ولده الأمير أبو زكريا ومعه وزيره أبو محمد بن أفراكين للاستنجاد بالسلطان المرينى أبى سعيد ضد اكتساح القوات الزبانية لدولته وقد أحدث وصول هذا الوفد أثراً كبيراً لدى السلطان المرينى والدوائر الحاكمة فى العاصمة فاس مما كان له صدى عميق فى نفس السلطان خاصة وولى عهده الأمير أبو الحسن.

ومما لا شك فيه أن وصول هذه الأنباء المتعلقة بسبب الغزو الزباني قد جعلت خليفة بنى مرين وهو الذى كان يراقب بنى زيان مراقبة دقيقة جعلته يشعر بالخطر فى ازدياد القوة الزبانية واستيلاء أبى زيان على تونس. وضم هذه الديار للمغرب الأوسط وتوحيد المغرب الأدنى والأوسط تحت قيادة واحدة يشكل تهديداً لقوة بنى مرين وإخلالاً بموازين القوى فى المغرب، ذلك لأن وجود بنى حفص فى أفريقية (المغرب الأدنى) والحفاظ على دولتهم من شأنه أن يكبح جماح بنى زيان.

ومن ثم .. كانت هذه الحادثة تمثل نقطة تحول خطيرة فى سياسة بين مرين

قبل المغرب الأوسط والأدنى إذ بدأ المرينيون يخططون سياستهم على أساس التوسع للقضاء على أى خطر يهدد دولتهم من اتجاه الشرق حيث دولة بنى زيان.

ومن هنا .. أخذت الاستعدادات العسكرية تتم على قدم وساق والتجهيزات العسكرية والحشود تتأهب للانطلاق شرقاً بقيادة ولي العهد أبى الحسن بن أبى سعيد الذى كان على الميمنة، والسلطان أبى سعيد على رأس القوات جميعها من المتطوعين العرب، وبنى مرين وتحركوا عام (٧٣٠هـ/١٣٢٩م) ووصلوا فى تحركهم حتى وصلوا بالقرب من منطقة وادى ملوية وتمركزوا حتى جاءت الأنباء من المشرق بأن السلطان أبى يحيى بن زكريا الحفصى استطاع استعادة عاصمة بلاده وطرد الغزاة - بنى زيان - من أفريقية ومطاردتهم حتى حدود بلادهم. وقام السلطان أبو سعيد المرينى باستدعاء الأمير أبى زكريا ووزيره أبى محمد بن تافركين وأمرهم بالعودة إل يتونس بعد أن حملهم بالهدايا التى تليق بعظمة خليفة تونس وبهم وأرسل معهم القاضى المرينى وابن العزفى لخطبة ابنة السلطان الحفصى لولده الأمير أبى الحسن، وقد نجح الرسولان فى مهمتهما ووصلت العروس إلى فاس عام ٧٣١هـ/١٣٣٠م.

ومن ذلك .. فإن دولة بنى زيان لم تترك فرصة حتى تتحينها لتوسيع دائرة نفوذها وتوسيع مجال سيادتها وتحقيق حكم مؤسسها يغمراسن بن زيان بأن تكون دولتهم القوة الوحيدة فى المغرب وكان عددهم ثمانية آلاف ووهب رؤوساهم الخيل الأصيلة والأسلحة؛ بجانب ما منحهم من المال.

ومنذ بداية النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى خصوصاً خلال فترة حكم السلطان أبى حمو ازدادت قوة عرب بنى عامر وحلفائهم من القبائل العربية بالمغرب الأوسط وضعف قبائل زبانة فتملكت رغبة سائر البلاد بالاقطاع من الساحل طوعاً أو كرهاً حتى طردوا زنانة إلى سيف البحر (الساحل)، وفى الواقع فإن دفاع هذه القبائل

عن المغرب الأوسط هو فى الواقع دفاع عن مصالحها من الضياع، وهذا يفسر لنا استماتة هذه القبائل فى حروبهم ضد بنى مرين التى أرسلها الوزير الحسن بن عمر لاسترداد تلمسان والحقهم الهزيمة بها حتى اضطروهم إلى الانسحاب وهم عراة حتى حدود الدولة المرينية فى عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م، وبعد أن حققت القوات العربية انتصارها عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م .. فإنهم ثاروا على السلطان زيان وعزلوه ووضعوا مكانه أباً حمو موسى الثانى (٧٦٢ - ٧٩١هـ/١٣٦١ - ١٣٨٩م)، الذى كان لا يميل إلى الحرب، ولذا .. أمضى أيامه فى سجن الثائرين ضده ومصارعة وقتال كل من ادعى المطالبة بالعرش على الرغم من تأييد ومساندة بنى مرين له وكان من بين المتآمرين عليه ابنه، وكانت الحروب طويلة وشاقة اضطرت السلطان خلالها أن يهرب من عاصمته ليحاول بين مرة وأخرى أن يعيد الانتعاش إلى دولته؛ بل عاصمته التى خربها الثائرون وأخيراً نجح ابنه أبو تاشفين الثانى فى قتله، وقد مات والسيوف فى يده يدافع عن نفسه.

* * * *

الفصل الثالث

الدولة الزبانية في أوج مجدها

شهدت الدولة الزبانية أمجد فتراتهما التاريخية في عهد السلطان أبي مالك عبد الواحد بن السلطان السعيد أبي حمو موسى الثاني (٨١٤ - ٨٢٧هـ/ ١٤١١-١٤٢٤م) إذ نلاحظ أنه عندما تسلم مقاليد الأمور خلفاً لوالده أنه وضع كل همه في بناء جيش قوى جهزه بأحدث أسلحة العصر ودربه على أحدث الطرق القتالية؛ لأنه منذ نعومة أظفاره، وهو يسمع قصص وحكايات تدمير بلاده من قبل القوى الغربية بنى مرين والقوى الشرقية بنى حفص، وكان عليه أن يكسر شوكتهما معا وأن يجعل السيادة له على تلك الدول، ومن خلال هذا المنظور العسكري والسياسي استطاع أن يعيد للدولة كيانه وسمعتها حتى عهد جده يغمراسن بن زيان فاسترجع كل الأقاليم التي كانت تحت سيطرة بنى حفص قسنطينة وبجاية وغيرها من المدن القريبة عام (٨١٤هـ/ ١٤٢٢م)؛ بل انه لم يكتف بذلك ويقف عن هذا!! فقد كان يرى ضرورة كبح جماح القوى المرينية التي استولت على عاصمته وعاصمة أجداده مرات عديدة فلا بد من الدخول معها في صراع ضارٍ بعد أن أعد للأمر عدته وحشد كل طاقاته فتحركت قواته غرباً إلى الحدود المرينية ولكن إلى العاصمة فاس التي استطاع أن يستولى عليها وأن يدمر قوة بنى مرين وأن يعين عليها أميراً من قبله لكن ازاء هذا الانتصار الواسع على الجبهتين كان على بنى حفص أن يأخذوا للأمر عدته وأن يستعينوا بكل القبائل العربية في بلادهم فوقفوا بالمرصاد للتوسع الزباني كما كانوا يفعلون سابقاً وشنوا حملة على الدولة الزبانية انتصروا فيها انتصاراً سريعاً باتباع أسلوب الغدر والخيانة والفساد والخذعة واستطاعوا دخول تلمسان عام (٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م)

وعينوا عليها أميراً من قبلهم لكنه كان من بين أفراد الأسرة الزبانية المنشقين على أبي مالك عبد الواحد وهو الأمير أبو عبد الله محمد المعروف بابن الحمرة (٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م) ابن السلطان تاشفين الثاني وخضع بنو زيان لسلطة الدولة الحفصية وأخذ بنو حفص من ذلك الحين يلعبون دوراً هاماً في أمور الدولة الزبانية فهم الذين يولون أمير البلاد، وهم يعزلون من لا ترضى عنه السياسة الحفصية ولا يحقق أهدافها في الحكم.

وكانت بنو حفص كلما رأوا اتساع نفوذ بن زيان .. عملوا على انحسار ذلك النفوذ دائماً.

الصراع المريني - الزباني خلال القرن الثامن الهجري -

الرابع عشر الميلادي

وقفت بنو مرين كما وقف بنو حفص للدولة الزبانية بالمرصاد وطال أمد الصراع حتى أن الباحث في تاريخ المغرب الإسلامي خلال تلك الحقبة التاريخية يجد أن هذه الدول الثلاث كان بينها من العدوان والصراع ما جعل الصراع يستمر خلال ثلاثة قرون وأن هذا الصراع لم يكن في صالح القوى الإسلامية بقدر ما كان سبباً في المطامع الأوربية التي رأت أن انهاك هذه القوى الثلاث في صالحها فكان أن وضعت عدتها للاستيلاء على هذه الديار وبالذات المدن الساحلية لقطع مواردها الاقتصادية واضعافها أكثر مما هي فيه من ضعف، ولو أن هذه القوى الثلاث وحدث قواها أو على الأقل تعاونت لصالح الإسلام والمسلمين لكان ذلك من الأسباب القوية التي كانت تعيد للإسلام قوته في الأندلس لقد كان قيام هذه القوى الثلاث وبالأعلى دولة

الموحدين، ومن ثم وبالأعلى على المغرب العربي والأندلس بصفة خاصة. أن الباحث المتعمق لا يستطيع أن يفهم الأسباب الحقيقية وراء هذا الصراع أن زناتة (بنى عد الواد) وزناتة (بنى مرين) كان الأمثل أن يكون بينهما تعاون ووحدة وتضامن وليس تطاحن وتصارع دون أن يحقق أدنى هدف سوى مصلحة أعداء الإسلام في الأندلس وعودة لترصد بنى مرين وبنى زيان طوال القرن الثاني الهجري. ندرك أن بنى مرين لعبوا دوراً هاماً في كبح جماح بنى زيان وتقليم أظافرهم والوقوف بالمِرصاد لهم حتى تكون لهم دولة قوية تستطيع أن تلعب دوراً على مسرح الأحداث العالمية ولكن جعلها دولة محلية أو تابعة وليست من الكيانات الكبرى التي تلعب دوراً له تأثير في مجريات أحداث حوض البحر المتوسط الغربي؛ بل عمل بنو مرين على انحسار الدولة وانكماشها بل انكسارها، لتتوقع داخل حدود ضيقة، ولقد عمل بنو مرين على احتواء بنى زيان واخضاعهم في هذه الحالة كان يسمح لهم بالتوسع المحدود وليس في الحدود القريبة ولكن شرقاً حيث بنى حفص فالتوسع والانحسار كان يرتبط برغبة بنى مرين وكان ذلك مرتبطاً بعلاقة بنى زيان وبنى مرين فتأخذ الدولة في الاتساع كلما حسنوا علاقتهم مع بنى مرين، ثم في الانحسار إذا ساءت العلاقة ومن هنا أخذت الدولة في مسالمة بنى مرين واستطاع بنو زيان أن يوسعوا دائرة نفوذهم في المغرب الوسط عندما تكون الأمور على خير ما يرام مع بنى مرين وعندما يكون هناك ود وصفاء أو الهدايا أو المساعدات العسكرية والعتاد ففى هذه الحالة استطاع بنو زيان أن يستولوا على كثير من أراضي المغرب الأوسط وضمها إلى نفوذهم.

وانحسر نفوذ الدولة وضاعت رقعتها وتقلصت أقاليمها وكيانها نتيجة للاحتلال المرينى للمغرب الأوسط وحصارهم تلمسان (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) ثم عادت الدولة الزبانية إلى محاولة بسط نفوذها على المغرب الأوسط على المغرب الأوسط فى عهد ابن

ناشتين الأول؛ حيث استطاع بنو زيان اخضاع المغرب الأوسط كله لنفوذهم واستطاعوا السيطرة على تونس. ويتقرر دور بنى مرين فى انحسار قوة الدولة عندما استنجد بهم بنو حفص وأرسلوا إلى بنى مرين، إلا أن أبا الحسن المرينى تحرك إلى تلمسان ورسم مع بنى حفص خطة الهجوم وحاصروا تلمسان سوياً فى عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م، وفى عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م استولى بنو مرين على جميع أراضي المغرب الأوسط وأنهوا حكم بنى زيان لهذه المنطقة. وهكذا أساء بنو زيان لأنفسهم وتسببوا فى هذا الهجوم الحفصى المرينى المشترك عندما ردوا شفاعة بنى مرين فى بنى حفص.

ولم يقف بنو مرين عند هذا الحد؛ بل كرروا هجومهم على تلمسان فى عهد أبى سالم المرينى وأوغل صوب تلمسان عام ٧٦١هـ/١٣٦٩م وما فعله أبو حمو فى المرة الأولى فعله فى المرة الثانية؛ فقام بقواته متقدماً نحو حدود المغرب الأقصى فأجبر بنى مرين على ترك تلمسان وعاد أبو حمو إلى تلمسان عازماً على بسط نفوذه على سائر بلاد المغرب الأوسط فاشتبك مع حمايات بنى مرين وزحف بنو مرين إلى تلمسان واستطاعوا دخول العاصمة عام ٧٧٢هـ/١٣٧٠م، واستقر السلطان أبو فارس المرينى بتلمسان وجعلها مقراً له إلى أن مات بها عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م؛ فاضطرب بتأثر ذلك أحوال العرش المرينى وعاد بنو مرين إلى فاس تاركين على تلمسان أحد أمراء بنى عبد الواد وهو السلطان إبراهيم بن السلطان أبى ناشفين الأولى وقام بطرد السلطان أبى حمو ودخل تلمسان، لكن بنى مرين يعودون للهجوم على تلمسان مرة أخرى ٧٨٦هـ/١٣٨٤م. ثم يتركون السلطان إبراهيم ويعودوا للمغرب الأقصى بعد أن قاموا بهدم المدينة فعاد أبو حمو إلى عاصمته فعمرها بعد أن خربها بنو مرين. وعمر مسجد تلمسان الجامع وكان آية فى الجمال فى عهد حكم بنى زيان الذين عمروا البلاد، وعادت البلاد إلى سابق عهدها ومجدها ومدت سلطانها حتى بجاية من بلاد الحفصيين بمساعدة عرب بنى هلال من الزواودة وبنى معقل من عبد الله بن بنى رياح.

وكان للعرب موقف مشرف في غزوة عام ٧٦١هـ/١٣٦٠م ذلك لأنه عندما زحف أبو سالم المريني لغزو تلمسان فإن قبائل زغبة بزعامة بنى عامر تمكنت من ارغامه على الانسحاب من تلمسان أيضاً وذلك بمهاجمتهم مدن الحدود المرينية مثل مطاط، بلاد ملوية وكر سيف مما أجبرهم على الانسحاب.

ولم يقف دور بنى مرين عند هذا الحد؛ بل تعداه إلى مساعدة بعض أمراء الأسرة الزبانية المنشقين عليها، ومن هنا يمكن القول أن بنى مرين قد أثروا في اتساع الدولة الزبانية واستطاع بنو مرين إيقاف نشاط الدولة التوسع؛ بل كثيراً ما خضعت بلاد المغرب الأوسط لطاعتهم وكان ذلك يقتضى بذل الجهد من جانب بنى زيان لاستعادة نفوذهم على تلك البلاد.

وعملت الدولة على إخضاع المنطقة الشرقية للبلاد الواقعة بجانب الحدود الحفصية، ففي عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م. قاد أبو يعقوب والد أبي حمو جيشاً اتجه به صوب المناطق الشرقية لإجلاء بنى مرين عنها واستطاع هزيمة بنى مرين وقام أبو حمو عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م بحملة ضد قبائل مغراوة ومشايخها الذين ساعدوا بنى مرين ضد الدولة وأخضعهم للنفوذ السياسى للدولة.

وبعد أن تم الصلح بين أبي حمو الزباني وأبي سالم تنازل بنو مرين عن مدينة تدلس، وهران والجزائر لبنى زيان وحققت الدولة أزهى عصورها فى عهد أبي حمو الثانى، إلا أن الحروب مع القبائل القاطنة بالمغرب الأوسط ومع بنى مرين أضعفت من قوة الدولة وجعل همها الأول وشغلها الشاغل هو الحفاظ على بقائها وحماية حدودها وكبح جماح القبائل الثائرة بالداخل واستمر الحال حتى احتل بنو مرين تلمسان عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م.

* * * *

الفصل الرابع

القبائل العربية ودورها فى بناء الدولة

لعبت القبائل العربية دوراً هاماً وبالقوة فى مساعدة الدولة الزبانية منذ عهد مؤسسها الأول يغمراسن بن زيان (٧٥٣-٧٩١هـ/١٣٥٢-١٣٨٩م). وكان لها دور لا ينكر منذ الوهلة الأولى لقيام الدولة لاسيما مساعدة قبائل بنى عامر للدولة فى مهدها واتخاذ يغمراسن لها كحائط بشرى وسد منيع للدفاع عن تلمسان العاصمة وسكناهم بأطرافها وبجوارها ليكونوا عوناً لها عند ساعة الخطر وذلك لبسط ونشر اللسان والثقافة العربية بين جموع السكان.

وعلى الرغم من أن القبائل العربية فى المغرب الأوسط فى دولة بنى زيان لم يكن لهم كيان سياسى مستقل أو كيانات شبه مستقلة كما كان لآخوانهم الذين يعيشون داخل حدود الدولة الحفصية إلا أن تجمعات قبائلهم كانت تلعب دوراً بين السلب والإيجاب بين مساعدة ومساندة الدولة وبين الانقلاب عليها ومساندة بنى مرين تارة وبنى حفص تارة أخرى وبين تأييد أمير ضد أمير وبين الثورة على الدولة والخروج على الشرعية وبين الهجرة خارج الحدود والاحتواء بالدولة والخروج على الشرعية وبين الهجرة خارج الحدود والاحتواء بالدولة الشرقية بنى حفص والدولة الغربية بنى مرين؛ إلا أنه رغم كل هذا كان لهم دور مشهود وخالد فى صفحات تاريخ هذه الدولة.

ولقد أحسن بنو زيان منذ الوهلة الأولى لقيام دولتهم وسيطرتهم على العاصمة تلمسان؛ أنه لابد من محاربة القبائل العربية التى استقرعت بالمغرب الأوسط خصوصاً عرب زغبة الذين جمعهم وزيان عصبية الحلف ومن هنا .. كان استقرار بنى عامر

بجوار تلمسان. ولقد زادت مكانة شيوخ هذه القبائل لدى مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان وزادت ثقته في بعضهم لدرجة أنه كان يتولى أحد مشايخ العرب أمر العاصمة أثناء خروجه بحملات خارج البلاد.

ولقد حالف بنو زيان عرب المعقل، وبالذات فرع عبد الله فقد كان سبب مجاورتهم للدولة مع الناحية الغربية على الرغم من أنهم كانوا يسكنون صحراء المغرب الأقصى لكن اشتراك الحدود؛ حيث أن موطنهم كان بين تلمسان ووجده. وبعد أن تمكن بنو زيان من تأسيس دولتهم جعلوا عرب المنيات تحت خدمتهم وأولوهم حكم سجلماسة والسيطرة على مقاليد الأمور بها وذلك لثقتهم بهذه القبائل وكذلك لعمق التحالف؛ حيث أن موطنهم كان بالمغرب الأقصى ما بين ملوية ودرعه.

وهنا نلاحظ كيف أن القبائل العربية من عرب المعقل كان لهم دور في نشر نفوذ بنو زيان وفرض سيادة الدولة على مدينة سجلماسة ومساعدة عرب المنيات لهم في جباية الخراج والضرائب.

وفي عهد الأمير أبي حمو فإن نفوذه امتد إلى درعه مما جعل واليها وأحلافه من عرب المعقل يلجأون إلى بنو عبد الواد فقام والي درعه (عبد الله بن مسلم) بنقل معظم عرب المنيات والعمارة إلا ضواحي تلمسان وجعلهم في منطقة سكنى مع بنو عامر.

ولما كثرت ثورات أمراء بنو عبد الواد بسبب الصراع حول السلطة وحقية أي من الأمراء في هذا الأمر فإن بعض بطون القبائل العربية مثل زغبة الذين كان بنو الواد قد طردوهم إلى الصحراء في أثناء قوة الدولة فإنهم في فترة الصيف عادوا إلى التلول حيث خصوبة الأرض ووفرة المعيشة واعترفت الدولة لهم بذلك واقطعهم السهول

والأمصار مقابل المخالفة والمساندة والطاعة وعدم التمرد على الدولة حتى يمكن الأمراء من مقاومة الغزو الخارجي القادم من الشرق والغرب والاستحواذ على السلطة في البلاد والقضاء على منافسيهم المتطلعين للحكم من العاصمة تلمسان.

ولما كانت المنطقة الشرقية من البلاد هي منطقة احتكاك وصراع بين بنو زيد وبنو حفص فإن بنو زيان بعد أن بسطوا سلطانهم على المغرب الأوسط اقطعوا بنو زيد من بطون زغبة منطقة بجاية فاستقروا فيها وقاموا بحماية بجاية من غارات البربر الصنهاجية وكافأتهم الدولة بالاقطاعات الواسعة بجوار مدينة بجاية وصارت من أملاكهم وتمكن بنو زيد من الاستقلال بأوطانهم وتوزيع جبايتها وخراجها على بطونهم أثناء ضعف الدولة وانقسام الأمراء والحكام على أنفسهم.

وأثناء الصراع الذي دار حول تولي السلطة بنو أميرين من أمراء الدولة الزبانية هما أبي حمو وأبي زيان فإن القبائل العربية انقسمت على نفسها بين مؤيد لهذا ومعارض له ولكن بعد انتصار أبي حمو فإنه انتقم من القبائل التي وقفت ضده وساندت أبو زيان.

وكانت فكرة يغمراسن من نقل بنو عامر وبنو زيد إلى جواره بصحراء تلمسان من أجل الأفكار التي صانت للدولة بقاءها واستمرارها أكثر من ثلاثة قرون إذ أنهم أثناء الغزو المريني للمغرب الأوسط كانوا هم الدرع الواقى للدولة وهم الذين كانوا يقومون بدور كبير في مقاومة الغزو واسترداد أملاك بنو عبد الواد وإعادة دولتهم واستمرارهم في الحكم بل أنهم كانوا يردون الصاع صاعين لبنو مرين؛ فقد انتقم بنو عامر لأنفسهم عندما شرعوا في انقاذ المغرب الأوسط من يد قوات أبي عنان المريني وقد وصلت أخبار بوفاته فاجتمع عرب المغرب الأوسط جميعاً على مبايعة أبي حمو ومحالفيه من عرب بنو عامر ووعوده بالمساندة والمعاونة في التصدي لخصومه، فاشتبكوا

مع عرب مؤيد حلفاء بنى مرين خارج تلمسان وهزمهم شر هزيمة وقتل أميرهم وعاد أبو حمو للعاصمة في ٧٦٠هـ/١٣٥٩م وإزاء هذا الهجوم لم يجد ابن السلطان أبي عنان المريني وكان واليا على المدينة سبلاً إلا القرار. وقد قدرت القيادة الزيانية دور بنى عامر في إعادة الدولة اليغمراسية ونددوا بهزيمة الأعداء وكافأ أبو حمو أنصاره من بنى عامر. وهذا يفسر لنا استماتة هذه القبائل في حروبهم ضد قوات بنى مرين التي أرسلت لاستعادة تلمسان وإلحاقهم الهزيمة بهم.

ولقد كانت القبائل العربية هي التي تقف بالمرصاد لكل زحف مريني يريد النيل من استقلال الدولة والسيطرة على تلمسان ومن ذلك نجد أنه في عام ٧٦١هـ/١٢٣٦م عندما زحف أبو سالم المريني لغزو تلمسان فإن قبائل بنى عامر العربية تمكنت من إرغامه على انسحاب من تلمسان بل أنها ظلت تطارد قواته المنسحبة وقامت بالهجوم على مدن الحدود المرينية.

ومن هنا يتضح مدى اعتماد الدولة اليغمراسية على القوات العربية من بنى عامر واحلافهم وارتباط ذلك باستمرار بقوة الدولة ذلك عندما حدث خلاف بين أبي حمو وزعيم القبائل العامرية فإن هذا القبائل تحالفت مع أبي زيان العدو اللدود لأبي حمو ومع قوات من بنى مرين وقادت هذه التحالف قبائل بنى عامر وقامت بمهاجمة بلاد منداس من المغرب الأوسط وزحفت إليهم قوات الدولة ولكنها هزمت هزيمة نكراء عام ٧٦٥هـ/١٣٦٤م.

ومن هذه الواقعة أدرك أبو حمو أهمية القبائل العربية من بنى عامر وغيرهم من العرب فهادنهم وبذل لهم الأموال الكثيرة واقطعهم ما طلبوه من البلاد إلا أن ازدياد نفوذ أبي زيان خارج العاصمة دفع أبا حمو للاستقرار في العاصمة تلمسان.

ولما خذل عرب المغرب الأوسط أبا حمو وساندوا أبا زيان اضطر لطلب النجدة والمساندة من عرب رباح بأفريقية بزعامة الزواودة فلبوا طلبه وانتصر على الثائرين عليه عام ٧٦٣هـ/١٣٦٧م وقتل الكثير من أعدائه ولكن ما أن انسحبت رباح إلى أفريقية حتى وقعت الهزيمة بأبي حمو وكاد أن يقتل لولا مساندة عرب أولاد عسكر بن معروف العامري الذين دافعوا عنه حتى عاد للعاصمة واضطر للجوء إلى بنى عامر وزحف بهم عام ٧٧٠هـ/١٣٨٦م لمهاجمة أبي زيان وانتصر عليه وعاد إلى تلمسان.

وفي عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م بعد انحسار الغزو المريني عن المغرب الأوسط عاد أبو حمو الثاني والى تلمسان مع أنصاره من العرب وتغيرت سياسة بنى زيان تجاه عرب أولاد عريف بعد أن قام زعيمهم بدور رئيسي في عقد معاهدة صداقة بين أبي حمو وبنى مرين، وكذلك قام زعيم عرب عريف باقناع أبي زيان بن عم السلطان حمو ومنافسة على السلطة بالمغرب الأوسط بالاستقرار بأفريقية والإقامة بأوطان عرب رباح مقابل مبلغ من المال يدفع له بصفة دورية.

ومن هنا .. نرى كيف أن القبائل العربية كانت تتدخل بما لديها من نفوذ بين الأطراف الدولية المتصارعة مثلما حدث بين بنى زيان وبنى مرين ومساندة السلطان حمو وكذلك في حل المشاكل الأسرية بين الأمراء المتصارعين وإيجاد السبل للمصالحة وحتى يعود الهدوء وتسود الحياة المستقرة بالمغرب الأوسط. ومن هنا كان للمغرب الدور الفعال في استقرار الدولة.

لكن تحالف الدولة اليغمراسية مع قبائل عريف أثار ثارة أولاد عامر فحدث بينهم معارك وبين القبائل العربية في المغرب الأوسط انتهت بترك بنى عامر لسكانها بجوار تلمسان والهروب إلى الصحراء. لكن قبل نهاية دولة بنى زيان وحتى استيلاء الأتراك على الدولة وسيطرتهم على المغرب الأوسط فقد استمر عرب بنى عامر كحلفاء

مع عرب مؤيد حلفاء بنى مرين خارج تلمسان وهزموهم شر هزيمة وقتل أميرهم وعاد أبو حمو للعاصمة فى ٧٦٠هـ/١٣٥٩م وإزاء هذا الهجوم لم يجد ابن السلطان أبى عنان المرينى وكان واليا على المدينة سبلاً الا القرار. وقد قدرت القيادة الزيانية دور بنى عامر فى إعادة الدولة اليغمراسية ونددوا بهزيمة الأعداء وكافأ أبو حمو أنصاره من بنى عامر. وهذا يفسر لنا استماتة هذه القبائل فى حروبهم ضد قوات بنى مرين التى أرسلت لاستعادة تلمسان وإلحاقهم الهزيمة بهم.

ولقد كانت القبائل العربية هى التى تقف بالمصاد لكل زحف مرينى يريد النيل من استقلال الدولة والسيطرة على تلمسان ومن ذلك نجد أنه فى عام ٧٦١هـ/١٢٣٦٠م عندما زحف أبو سالم المرينى لغزو تلمسان فإن قبائل بنى عامر العربية تمكنت من إرغامه على انسحاب من تلمسان بل أنها ظلت تطارد قواته المنسحبة وقامت بالهجوم على مدن الحدود المرينية.

ومن هنا يتضح مدى اعتماد الدولة اليغمراسية على القوات العربية من بنى عامر واحلافهم وارتباط ذلك باستمرار بقوة الدولة ذلك عندما حدث خلاف بين أبى حمو وزعيم القبائل العامرية فإن هذا القبائل تحالفت مع أبى زيان العدو للدود لأبى حمو ومع قوات من بنى مرين وقادت هذه التحالف قبائل بنى عامر وقامت بمهاجمة بلاد منداس من المغرب الأوسط وزحفت إليهم قوات الدولة ولكنها هزمت هزيمة نكراء عام ٧٦٥هـ/١٣٦٤م.

ومن هذه الواقعة أدرك أبو حمو أهمية القبائل العربية من بنى عامر وغيرهم من العرب فهادنهم وبذل لهم الأموال الكثيرة واقطعهم ما طلبوه من البلاد إلا أن ازدياد نفوذ أبى زيان خارج العاصمة دفع أبا حمو للاستقرار فى العاصمة تلمسان.

ولما خذل عرب المغرب الأوسط أبا حمو وساندوا أبا زيان اضطر لطلب النجدة والمساندة من عرب رباح بأفريقية بزعامة الزواودة فلبوا طلبه وانتصر على الثائرين عليه عام ٧٦٣هـ/١٣٦٧م وقتل الكثير من أعدائه ولكن ما أن انسحبت رباح إلى أفريقية حتى وقعت الهزيمة بأبى حمو وكاد أن يقتل لولا مساندة عرب أولاد عسكر بن معروف العامرى الذين دافعوا عنه حتى عاد للعاصمة واضطر للجوء إلى بنى عامر وزحف بهم عام ٧٧٠هـ/١٣٨٦م لمهاجمة أبى زيان وانتصر عليه وعاد إلى تلمسان.

وفى عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م بعد انحسار الغزو المرينى عن المغرب الأوسط عاد أبو حمو الثانى والى تلمسان مع أنصاره من العرب وتغيرت سياسة بنى زيان تجاه عرب أولاد عريف بعد أن قام زعيمهم بدور رئيسى فى عقد معاهدة صداقة بين أبى حمو وبنى مرين، وكذلك قام زعيم عرب عريف باقناع أبى زيان بن عم السلطان حمو ومنافسة على السلطة بالمغرب الأوسط بالاستقرار بأفريقية والإقامة بأوطان عرب رباح مقابل مبلغ من المال يدفع له بصفة دورية.

ومن هنا .. نرى كيف أن القبائل العربية كانت تتدخل بما لديها من نفوذ بين الأطراف الدولية المتصارعة مثلما حدث بين بنى زيان وبنى مرين ومساندة السلطان حمو وكذلك فى حل المشاكل الأسرية بين الأمراء المتصارعين وإيجاد السبل للمصالحة وحتى يعود الهدوء وتسود الحياة المستقرة بالمغرب الأوسط. ومن هنا كان للمغرب الدور الفعال فى استقرار الدولة.

لكن تحالف الدولة اليغمراسية مع قبائل عريف أثار ثارة أولاد عامر فحدث بينهم معارك وبين القبائل العربية فى المغرب الأوسط انتهت بترك بنى عامر لسكنائها بجوار تلمسان والهروب إلى الصحراء. لكن قبل نهاية دولة بنى زيان وحتى استيلاء الأتراك على الدولة وسيطرتهم على المغرب الأوسط فقد استمر عرب بنى عامر كحلفاء

مخلصين للدولة اليفغمراسية يساهمون بقواتهم في جيش سلطان تلمسان لطرد الغزاة الأسبان من البلاد.

ومن هنا .. لم يكن العرب دعاة فرقة بقدر ما كانوا دعاة توحيد وتضامن. ولم يكونوا ثائرين بقدر ما كانوا يأبون الظلم والتعسف والاضطهاد كانوا عدة دولة بنى حفص وبنى زيان وكان دورهم في الدفاع ضد العدو لا ينكر ولا يجحد وكان دورهم في التحضير والرقي والتعمير والتشييد والبناء الزراعة واستصلاح الأراضي وتعميرها وإدخال محاصيل جديدة هم بناء؛ فلم يتعالوا على إخوانهم أبناء المغرب بل خضعوا للقيادة البربرية في أفريقية والمغرب الأوسط. والحكم يطلق هنا على الأغلبية وذلك لأن أغلبية القبائل العربية خضعت لنفوذ الدولة وساهمت بدور فعال لا ينكر في كل إدارات الدولة لكنه ليس معنى ذلك أنه لا توجد أعداد قليلة من القبائل العربية كانت دائماً تخرج على القانون والدولة شأن غيرها من القبائل العربية في ذلك الوقت؛ بل إن العرب الثعلبية مثلاً شاركوا بجنودهم وقواتهم إلى جانب بربر بنى توجين رغم العداء بينهم وبين بنى زيان، ورغم فقد الثعلبية لمكانتهم في دولة بنى زيان، ومن هنا كان عداؤهم للدولة ومناصرة أعدائها من بنى توجين أو بنى مرين وأيضاً الدولة الحفصية لكن قوات أبي حمو الأول (٧١٢هـ/١٣١٢م) قامت بمهاجمة الثعلبية في سهل منتيجة واخضاعهم لنفوذ الدولة وكذلك حاصرت قواتهم مدينة الجزائر وضمتها إلى أملاك الدولة (٧٧٠هـ/١٣٦٨م)، وظهر موقف الثعلبية العدائي للدولة عندما ثار أبي زيان ضد أبي حمو فانضم الثعلبية لأبي زيان ودعوا له بين أهل الجزائر ومليانه حتى اجتمع جميع عرب المغرب على دعوته ومبايعته وتمكن العرب من الاستيلاء على مدن تنس ومستغانم ووهران وفرغوان، مما دفع أبي حمو لاستمالة العرب لكي ينقضوا عن أبي زيان وتأييده.

كذلك فإن عرب ذوى عبيدة كانوا من الخارجين على بنى زيان نظراً لقرب مواطنهم من حدود الدولة المرينية فقد انحازوا إليهم في غزوهم للمغرب الأوسط؛ بل اعتمد المرينيون عليهم كجنود وفرسان ضمن قواتهم، فأثناء غزو أبي الحسن المريني لتلمسان حالفوه وعاونوه وأسند إليهم غزو قصور الصحراء جنوب مدينة وجدة كذلك فإن عرب حصين بن زغبة كانوا دائماً يرحبون بكل غازٍ للمغرب الأوسط على مواطن استقرارها وجاورها بعد انحسار الغزو المريني عن تلمسان استقر عرب حصين بن زغبة بجبل تيطرى وبايعوا أبا زيان أثناء الفتنة مع ادراك أبي حمو ضعف موقفه فخرج إلى الجزائر ليستعين بقبائل حصين والثعلبية ضده لكن ابنه أبي تاشفين تمكن من عزله واعتقاله بوهران ٧٨٨هـ/١٣٨٧م. وهرب أخوته المستنصر وأبو زيان وعمر أبناء أبي حمو إلى عرب حصين واستقروا بينهم.

كذلك فإن قبائل سويد ناصبت بنى زيان العداء واشتركوا مع قوات بنى مرين وكسبوا طاعة القبائل العربية بالمغرب الأوسط لحساب حلفائهم من بنى مرين مما جعلهم في وضع متميز في الدولة المرينية خصوصاً.

وهكذا .. نرى أن عدم خضوع بعض القبائل العربية للدولة والثورة عليها إنما يكون راجعاً إلى وقوع ظلم عليها أو بسبب تحالف الدولة مع قبائل عربية تناصب الأخرى العداء. لكن على كل الأحوال فإن القبائل العربية قد أدت دورها كاملاً في الدولة.

وهكذا نرى أن القبائل العربية لعبت دوراً كبيراً في استقرار دولة بنى عبد الواد في علاقتها مع جيرانها في الحرب والسلام. وقد يؤيد ذلك أن معظم السفارات التي تبودلت بينها وبين جيرانها الحفصيين والمرينيين كانوا من زعماء القبائل العربية في أفريقية والمغرب كما في عام ٧٦٣هـ/١٣٦١م؛ فقد كانوا دائماً حمالة سلام ورسول

محبة وتصالح ولم يكونوا أبدا دعاة حرب وإثارة واضطراب كما حاول أن يصور ذلك أعداء العروبة والإسلام من كتاب الغرب المتعصبين فقد كان رسول أبي زيان إلى ابن عمه أبي حمو طالبا للصالح زعيم قبائل رياح، كما كان رسول بنى مرين لطلب الصلح إلى بنى زيان هو زعيم قبائل عريف وكانوا دائما مصدر خير ومحبة في التوفيق بين المتشغفين في الأسرة المرينية.

لقد اصطنعت قبائل البرب انسابا عربية حتى تتساوى مع القبائل العربية؛ بل حتى يتم اخضاع العرب لهم. وكذلك عمدت بعض الدولة المغربية ذات الأصل البربري (بنى حفص، بنى عبد الواد، بنى مرين) إلى الاستناد للأصل العربي والنسب النبوي وكذلك مصاهرة القبائل العربية المقدمة بالمغرب فتزوجوا النساء العربيات واستخدموا في الحجابة والكتابة رجالا من العرب. ولعل هذا الانقسام نتيجة لقيام ثلاث دول متنازعة على انقاص دولة الموحدين حتى اضطرت كل دولة من هذه الدول إلى الاعتماد على بعض هذه القبائل المستقرة ببلادها اعتمادا يكاد يكون تاما؛ بحيث صار من الصعب على سلاطين وخلفاء هذه الدول الحفاظ على بلادهم في حالة تخلى هذه القبائل عنهم. فاعتمدت الدولة الحفصية على قبائل رياح ثم على قبائل بنى سليم وكرفه من عرب الأشيخ بعد أن تمردت رياح عليهم، كذلك حالف بنو زيان قبائل زغبة التي استقرت بالمغرب الأوسط وعرب ذوى عبيد الله وذوى منصور المنبات وأولاد حسين والعمارنة من المعقل أما الدولة المرينية؛ فقد اعتمدت على القبائل العربية المستقرة ببلادها بقيادة عرب سويد لاستعادة أملاك الدولة الموحدية في المغرب الأوسط وأفريقية التي استولى عليها بنو حفص وبنو زيان. ونتيجة لانتشار القبائل العربية بالمغرب وتعدد مواطن استقرارها في جميع أنحاء البلاد امتزجت بقبائل البربر وصاهرتها مما أدى إلى تطور مفاهيم القبيلة العربية بالمغرب وقد شاركت القبائل العربية هذه دولة بنى زيان

في النواحي الإدارية العسكرية والتعليمية والقضائية فاقطعتهم الأراضي وأضافت إليهم مزيدا من الاقطاعات واضطرت لإقرارهم على ما بأيديهم بمقتضى مرسوم صادر من السلطان بالتقليد والخلع واسندت إليهم الوظائف الإدارية مثل الجباية ووظائف القضاء والفتيا إلى العلماء من هذه القبائل خصوصا في المدن التي تسيطر القبائل العربية على نواحيها وازدادات شيوخ القبائل العربية لدى حكام بنى زيان بحيث عين منهم الوزراء والكتاب وكان منهم من ينسب عن السلطان في حالة خروجه للحرب وتصدروا المجالس السلطانية وأصبحوا ضمن أهل الشورى للسلطان وانضم بعضهم إلى مجلس منادته في خلوته كما اختار السلاطين منهم بعض وزرائهم وسفرائهم إلى جيرانهم من الملوك.

ولقد أثرت هذه القبائل العربية في الحياة الاقتصادية لدولة بنى زيان تأثيرا ملحوظا فنقلوا إلى المغرب الأوسط وغيره خبراتهم الطويلة في تنمية الثروة الحيوانية وتأثرت بعض القبائل الزبانية بخبرة القبائل العربية في هذا المضمار فأخذوا عنهم تربية الخيول وتحسين أنسابها كما أسندت إليهم الدولة الزبانية إدارة مراعيهم وتربية أنعامهم فقام العرب من سويد بإداراتها كما سيطرت القبائل العربية على طرق التجارة الداخلية فلا يجتازها غيرهم إلا بخفارة أحدهم ووسعوا نطاق هذه التجارة بين التل والصحراء واحتكروا تموين بعض المدن الأفريقية مقابل توزيعهم لمنتجاتهم ولقد كان لعرب بنى عامر الدور الرئيسي في مساعدة بنى عبد الواد في قيام دولتهم المستقلة في المغرب الأوسط والحفاظ عليها من هجمات أعدائها بنى حفص في الشرق وبنى مرين في المغرب.

لقد تجلت حضارة العرب في معاملتهم مع سكان البلاد؛ فقد كانوا دائما يجيرون من يلجأ إليهم ومن ذلك فإنهم قاموا بمساعدة أمير سجلماصة الأمير محمد بن عبد الحليم؛ حيث قامت طائفة من عرب الأخلاف بحراسته حيث هرب لاجئا بجوار بنى مرين.

ذلك فإنه في أحلك الظروف السياسية التي مرت بدولة بنى زيان؛ فقد كانوا هم السند والعزة فيعد أن ضعفت دولتهم كان العرب من أولاد عريف وعرب سويد سنداً لها وتمكيناً لوجودها في الاستمرار في حكم بلاد المغرب الأوسط.

وفي تاريخ العرب في المغرب الأوسط عامة أمثلة كثيرة على حسن الجوار ومسئولية الجوار وقدسية الجوار فقد أثرت القبائل العربية قتل أبنائها على تسليم من أجبر بها أو الغدر به حتى لو أدى الأمر إلى القتل على جميعهم، فعندما كانت تشتد الأمور في حصار تلمسان ويهرب الأمير أو السلطان إلى العرب يطلب الاستجارة بهم فإنهم كانوا يجيرونه ويرفضون تسليمه للسلطان كذلك أجار عرب الزواودة بأفريقية المغضوب عليهم من الدولة الحفصية أو الهاربين خوفاً من بطش حكامها أو اللاجئين طلباً للحماية مما جعل القبائل العربية في صراع دائم مع الدولة.

وهكذا .. نرى كيف كانت القبائل العربية دائماً السند والقوة والمساندة والمساعدة للدولة؛ بل كانت هي الحصن الذي يحمي دفاعات الدولة وقت الشدة، ومن هنا كانت نظرة يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانية بعيدة جداً حين استعان بقبائل بنى عامر العربية لكي تكون الدرع الواقى لحماية العاصمة تلمسان والدرع الذي يصد هجمات الأعداء من الداخل والخارج، وعلى هذا .. كان الدور العربى فعالاً ومؤثراً في بناء الدولة الزيانية وحفظ تواجدتها طوال هذه القرون الثلاثة التي كان الوجود العربى فيها هو المؤثر الفعال لهذا الكيان السياسى فى المغرب الأوسط.

* * * *

الفصل الخامس

علاقات الدولة بالدول المجاورة

كان موقع الدولة الزيانية الجغرافى وسط المغرب أو فى المغرب الأوسط له دور كبير فى التطور السياسى لبلاد المغرب كما أن الموقع المتوسط كان له أثر العلاقات مع جيران الدولة بالشرق والغرب ولما كانت تلك الدراسة تتناول الدول الثلاث بنى حفص فى المغرب الأدنى (أفريقية) وبنى زيان فى المغرب الأوسط (الجزائر) وبنى مرين فى المغرب الأقصى .. فإن العلاقات فيما بينهما سوف تكون فى فصل خاص نظراً لارتباط عناصر الدراسة مع بعضها البعض ونظراً لأن الدراسة تقع فى جزء واحد فإذاً ليس هناك من الدواعى أن تكرر فصل العلاقات عند الحديث عن كل دولة من هذه الدول الثلاث.

ولقد حاولت الدول الثلاث ضرب نفوذ الآخر. وهذا التنافس بين القوى الثلاث قد جعل بنى زيان دائماً فى شغل شاغل فقد اهتموا بتأمين دولتهم الشابة والتي يريدون لها البقاء وسط هذا الصراع، وفى ظل هذه الظروف الصعبة والحروب المتصلة والقتال المستمر، عاشت دولة بنى زيان، ولذا .. فإنه يمكن القول بأن علاقة الدولة الزيانية قد غلبت عليها الناحية العسكرية.

وقد ارتبطت دولة بنى زيان بعلاقات مع الأندلس ومصر وبلاد السودان وكذلك مع الدولة الشرقية المجاورة لها وهى بنى حفص والدولة الغربية بنى مرين وكانت دولة الموحيدين من الدول التي أقامت بينها وبين عبد الواد علاقات وسقطت هذه الدولة تحت ضربات الجيش المرينى وحتى لا يتكرر حديث العلاقات فسوف نلقى هنا حديثاً عن الموحيدين وعلاقاتهم ببنى زيان.

علاقات بنى زيان مع الموحدين

الذى ينظر إلى أحداث المغرب يجد أن علاقة بنى زيان بالموحدين كانت فى أول أمرها علاقة فيها نوع من التبعية نظراً لإعلان بنى زيان البيعة للخليفة المرتضى بالله، وذكر اسمه على منابر تلمسان والخطبة له. ثم تطورت إلى صراع مسلح ثم إلى تعاون عسكري بينهما؛ بل إن الناحية العسكرية كانت السمة البارزة فى علاقة بنى عبد الواد مع الموحدين. وكان بنو عبد الواد يسكنون ضواحي مدينة تلمسان ويتخذونها عاصمة لهم ويسيطرون نفوذهم على القبائل التى تقع سكانها فى المغرب الأوسط، فكان طبيعياً أن يجتلكوا بأية قوة تحاول إخضاع هذه المنطقة التى تقع تحت نفوذهم. وهذه المحاولة كانت تمنع محاولة الموحدين السيطرة على المغرب الأوسط وقد وقفت بنى عبد الواد ضد الموحدين ودخلوا فى صراع مسلح انتصر فيه الموحدون وأخذت العلاقة شكل التبعية والمباينة بالخلافة الموحدية.

ووقف بنو عبد الواد مع الموحدين ضد بنى مرين وهذا الموقف وضعهم فى مقدمة الدول التابعة للموحدين خاصة أنهم أوقعوا بتعاونهم مع الموحدين هزيمة فادحة بقوات بنى مرين وهى فى التطور لمحاولة تكوين دولة على حساب الموحدين، وفى الوقت الذى ضعف فيه مركز الموحدين السياسى والدينى فى بلاد المغرب بدأ بنو زيان دخول تلمسان وتبعيتهم للموحدين وعلى الرغم من عدم خشية الدولة الزيانية بل كان الموحدون يخطبون ود يغمراسن (٦٤٠هـ-١٢٤٢م) مؤسس دولة بنى زيان قدم للخليفة الموحدى المرتضى هدية بالغة وراسله بشأن التعاون والوقوف عسكرياً ضد بنى مرين.

وفى بعض الفترات التاريخية استطاعت الدولة الزيانية أن تصل إلى درجة الدخول فى صراع مسلح وعسكري مع الموحدين ولم يجد الموحدون بداً من الاتصال بأبناء

عمومتهم بنى حفص حكام أفريقية (المغرب الأدنى) لتقديم العون العسكرى والدعم لهم ومعاونتهم فى حرب بنى زيان وكسر شوكتهم والوقوف ضد قوتهم النامية والتى تتطلع لتلعب دوراً أساسياً فى بلاد المغرب وواورثة تركة الموحدين قبل ظهور قوة بنى مرين، ولكى ينفذ بنو زيان إلى رضاء بنى حفص على حساب الموحدين وكسر التعاون بينهما والذى كان سيقضى على قوتهم فى المهدي .. فإنهم خرجوا من هذا المأزق السياسى بأن خلعوا الدعوة على منابر تلمسان للموحدين واستبدلوا بدلاً منهم بنى حفص.

وبعد هذه البيعة خضع المغرب الأوسط تحت طاعة بنى حفص بدلاً من الموحدين الذين عقدوا العزم على ضرب النفوذ الحفصى بالمغرب الأوسط وأفريقية ومنع محاولاتهم للسيطرة على بنى زيان واستطاع السعيد الموحدى أن يجهز جيشاً كبيراً حاصر به تلمسان عاصمة بنى زيان (٦٤٦هـ-١٢٤٨م) وعندما علم يغمراسن بن زيان بهذه الحشود الموحدية الضخمة ترك تلمسان وتحول إلى حرب عصابات وكرووفر واصطياد قوات الموحدين بين الوديان والشعاب مما أثر فى هزيمة الموحدين وقتل قائده السعيد الموحدى، وبهذا الانتصار السريع والخاطف على قوات الموحدين استطاعت الدولة الزيانية النامية أن تشد انتباه سكان المغرب الأوسط والقوى المعاصرة فى الأندلس وأفريقية ومصر والدول النصرانية فى حوض البحر المتوسط الغربى.

لكن العداوة تحولت إلى علاقة تعاون وصدقة؛ فقد تعاون الطرفان عسكرياً ضد بنى مرين عندما استطاعوا إلحاق الهزيمة ببني مرين وقتل بنو زيان شيخ بنى مرين فى ذلك الوقت وأرسلوا رأسه إلى عبد المؤمن بن على، وفى الوقت الذى كان فيه بنو زيان على درجة من الندية مع الموحدين كان بنو حفص وبنو مرين بالمغرب الأقصى يبذلون جهداً لضرب الموحدين وإسقاط دولتهم وكان عليهم فى نفس الوقت إرضاء بنى زيان

للقوف في وجه بنى حفص والاستعانة بهم ضد بنى مرين.

وتم توقيع معاهدة صداقة وتعاون بين بنى زيان والموحدين وكان فحواها أن يلبي يغمراسن نداء الموحدين في حربهم ضد بنى مرين، ولكن التعاون العسكري بين بنى زيان والموحدين لم يكتمل ويتخذ خطوات فعلية للتنفيذ وخوض معارك مشتركة فنظراً لأن بنى مرين أدخلوا الخوف في قلوب بنى زيان للابتعاد عن الموحدين، وإذ كان التعاون العسكري بين بنى زيان والموحدين لم يكتمل في عهد الخليفة السعيد إلا أنه اكتمل في عهد الخليفة الموحدي المرتضى وأبى دبوس.

ويلاحظ أن مرحلة التعاون هذه فإن الموحدين في عهد المرتضى وأبى دبوس تركوا بنى زيان يحاربون بنى مرين وحدهم، وكان يراود نفس يغمراسن بن زياد أنه كان يريد أن يجعل نفسه الوريث الوحيد للدولة الموحدية حتى يتمكن من تحطيم القوة المنافسة له وهى بنى مرين. لكن امكانيات الدولة الزبانية والمشاكل التى تقف في طريقه حتى توحيد قبائل المغرب الأوسط وتأمين الجبهة الشرقية ضد عداوات بنى حفص وقلة قواته وانقسام القبائل الزبانية في المغرب الأوسط ومنها بنو توحين ومغراوة كل هذه العوامل وقفت حجر عثرة في طريق الوصول إلى الهدف المنشود؛ حيث استطاع بنو مرين أن يرثوا عرش الموحدين وأن تكون لهم السيادة في المغرب والأندلس وأن يعلنوا الخلافة المرينية ويتخذوا لقب أمير المؤمنين.

وبهذا .. فإن تعاون وعلاقات بنى زيان الطيبة مع الموحدين في معظم فترات تاريخهم لم تأخذ البعد الذى كان يطمع فيه يغمراسن بن زيان، لكن هذه العلاقة ساعدت على احتفاظ يغمراسن بعرش بلاده والعمل على حفظ التوازن في العلاقات بين القوى المتصارعة لاسيما أن الحفصيين كانوا يتطلعون إلى المغرب الأقصى وعلى العكس كان بنو مرين يتطلعون إلى المغرب الأدنى والسيطرة على أفريقية بعض الفترات

التاريخية. وفي كل هذه الأحوال كانت هذه القوى عندما تتعرض للهجوم تخطب ود بنى زيان. فكم من مرة عقدت معاهدات صداقة مع الموحدين ومع بنى زيان ومعاهدات صداقة وتعاون مع بنى زيان وبنى حفص ومعاهدات صداقة وحسن جوار مع بنى مرين. ومن هنا استغل يغمراسن علاقته مع الموحدين في بناء الدولة وتنظيم هيكلها الداخلى وبناء قوة عسكرية عملت لها كل الأطراف المتصارعة الحساب وطلب نجدها عند الشدة والدخول في صراع معها عندما تحس بضعف الدولة الزبانية.

علاقات بنى زيان مع مصر

لقد كان دور مصر الواضح في العلاقات السياسية مع بلاد المغرب ومع بنى زيان في تلمسان، وقد تنوعت العلاقات بينها وبنى مصر في العصر المملوكى، والذى ظهر على أشده بعد انتصارات مصر على المغول، والتتار، والصليبيين؛ فقد كانت رابطة الإسلام والتبادل الثقافى ودور الأزهر؛ ثم رابطة الحج باعتبار مصر مجاز الحجاج المغاربة إلى الأراضى الحجازية المقدسة.

وقد أورد ديوان الإنشاء المصرى في العصر المملوكى صور رسائل متبادلة بين سلاطين الممالك وسلاطين بنى حفص وبنى مرين، وكذلك سلاطين تلمسان من بنى زيان؛ فقد كتب السلطان برقوق الذى كان دائم الاتصال والكتابة إلى سلاطين بلاد المغرب فنجد أنه كتب عام ٧٩٩هـ-١٣٩٧م كتاباً إلى كل من أبى العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر الحفصى سلطان تونس، وكذلك كتاباً آخر فى نفس السنة إلى سلطان تلمسان بن بنى عبد الواد، وكتاباً ثالثاً إلى السلطان فاس وأنه حمل إلى سلطان تلمسان هدية فاخرة عبارة عن القماش والطيب والقسي، وحمل السلطان أبو زيان بنى

أبى حمو هدية عظيمة عاد بها الرسول المملوكى إلى القاهرة.

ومن هنا فإن العلاقات والصلات المصرية مع أمراء بنى زيان فى تلمسان (الجزائر) قد اتسمت بالمودة والأخوة؛ حيث كما ذكرنا تبادل سلطانها أبو زيان بن أبى حمو الهدايا مع السلطان المملوكى؛ بل أنه حين رغب السلطان برقوق عام ٧٩٩هـ-١٣٩٧م فى شراء الخيول الأصيلة العربية من المغرب بعث برسائل وهدايا إلى صاحب تلمسان أبى زيان بن أبى حمو يطلب ما يحتاج إليه من الخيول وعادت رسل السلطان برقوق محملة بالهدايا ومعها الخيل العتاق المنتقاة، وهكذا .. تعددت العلاقات وازدادت الروابط بين مصر فى عهد السلطان برقوق وابنه فرج وبين سلاطين تلمسان مما يعتبر من أقوى الأدلة والشواهد على وحدة التاريخ العربى الإسلامى.

ويبدو أن عرب ذباب المستقرين فى المنطقة الممتدة من برقة إلى قابس كانوا متخصصين بتجارة الخيول ونقلها من بلاد المغرب الأوسط وأفريقية إلى الدولة المملوكة بالقاهرة؛ حيث يقول ابن سعيد فى كتابة بسط الأرض فى الطول والعرض أن مجالات ذباب من حد قابس إلى برقة ولهم غرام بحمل الخيل إلى الاسكندرية، ويجد منهم الحجاج معونة فى ذلك الطريق الشاق.

وكانت هدايا دولة بنى زيان إلى الدولة المملوكية بمصر الخيول، وذلك عند مرور ركب الحج المغربى بالقاهرة فى طريقه إلى الأراضى المقدسة.

وحرص سلاطين المماليك بمصر على الاستزادة من خيول بلاد المغرب الأوسط وأفريقية لما تمتاز به من الشدة والصبر على المتاعب والسرعة الفائقة؛ فقد كلف السلطان الظاهر برقوق ابن خلدون بالكتابة إلى أبى زيان سلطان تامسان بأن يرسل له الخيل العتاق فأرسل ثلاثين من الجياد العربية الأصيلة، وقد وصلت هدية صاحب تلمسان مع الملوك فطولب المكلف بتربية الخيول.

كذلك ارتبطت مصر تجارياً واقتصادياً مع المغرب الأوسط؛ حيث كانت البلاد والموانئ الساحلية الممتدة من الاسكندرية شرقاً إلى طنجة غرباً كلها مرتبطة بعلاقات تجارية واسعة، ومنها تلمسان وبونة وبجاية والجزائر وشرشال وتينيس ووهران، وقد لعبت هذه الموانئ دوراً فى الترابط الاقتصادى بين مصر وبين دول المغرب وخاصة الواقعة تحت النفوذ الزياني، وقد أشار المقرئى فى مناسبات كثيرة إلى العلاقات التجارية، التى كانت تربط التجار المغاربة وتجار الاسكندرية، ونظراً لشدة حاجة سلاطين مصر إلى الخيول العربية الأصيلة؛ فقد كانت تصل من المغرب صحبة التجار والرسل الذين يرسلهم السلاطين للمماليك. كذلك كان التجار المصريون يذهبون بمنتجات بلادهم إلى هذه البلاد لبيعها فى بلاد المغرب.

ولعل أكبر دليل على الترابط الاقتصادى بين مصر وبلاد المغرب ذلك العدد الكبير من التجار المصريين والمغاربة الذين كانوا يرحلون سنوياً فى قوافل كبيرة العدد إلى بلاد وسط وغرب القارة الأفريقية لكى يقوموا بعملية التبادل التجارى مع تلك البلاد. ولقد امتاز العصر المملوكى فى مصر بذلك النشاط الاقتصادى الواسع النطاق، ولقد كان سلاطين المماليك قبل سقوط دولتهم عام ١٥١٧م لا يدخرون وسعاً فى تقوية الروابط الاقتصادية بينهم وبين بلاد المغرب.

ولقد كانت الصادرات والواردات تمثل محاولة المجتمع المغربى لسد حاجاته بتصدير الفائض من حاجته واستيراد ما يتطلبه؛ فإن النظرة فى حركة التصدير والاستيراد بين مصر وبلاد المغرب ما هى إلا جزء من حلقة التكامل الاقتصادى بين دول العالم الإسلامى.

ولما كانت مصر طريقاً للحجاج الوافدين من بلاد المغرب فطالما انتهز هؤلاء الحجاج فرصة الحج ليحطوا بالرحال بمصر والأزهر فترة طويلة أو قصيرة يغترفون خلالها

أبى حمو هدية عظيمة عاد بها الرسول المملوكى إلى القاهرة.

ومن هنا فإن العلاقات والصلات المصرية مع أمراء بنى زيان فى تلمسان (الجزائر) قد اتسمت بالمودة والأخوة؛ حيث كما ذكرنا تبادل سلطانها أبو زيان بن أبى حمو الهدايا مع السلطان المملوكى؛ بل أنه حين رغب السلطان برقوق عام ٧٩٩هـ-١٣٩٧م فى شراء الخيول الأصيلة العربية من المغرب بعث برسائل وهدايا إلى صاحب تلمسان أبى زيان بن أبى حمو يطلب ما يحتاج إليه من الخيول وعادت رسل السلطان برقوق محملة بالهدايا ومعها الخيل العتاق المنتقاة، وهكذا .. تعددت العلاقات وازدادت الروابط بين مصر فى عهد السلطان برقوق وابنه فرج وبين سلاطين تلمسان مما يعتبر من أقوى الأدلة والشواهد على وحدة التاريخ العربى الإسلامى.

ويبدو أن عرب ذباب المستقرين فى المنطقة الممتدة من برقة إلى قابس كانوا متخصصين بتجارة الخيول ونقلها من بلاد المغرب الأوسط وأفريقية إلى الدولة المملوكة بالقاهرة؛ حيث يقول ابن سعيد فى كتابة بسط الأرض فى الطول والعرض أن مجالات ذياب من حد قابس إلى برقة ولهم غرام بحمل الخيل إلى الاسكندرية، ويجد منهم الحجاج معونة فى ذلك الطريق الشاق.

وكانت هدايا دولة بنى زيان إلى الدولة المملوكية بمصر الخيول، وذلك عند مرور ركب الحج المغربى بالقاهرة فى طريقه إلى الأراضى المقدسة.

وحرص سلاطين المماليك بمصر على الاستزادة من خيول بلاد المغرب الأوسط وأفريقية لما تمتاز به من الشدة والصبر على المتاعب والسرعة الفائقة؛ فقد كلف السلطان الظاهر برقوق ابن خلدون بالكتابة إلى أبى زيان سلطان تامسان بأن يرسل له الخيل العتاق فأرسل ثلاثين من الجياد العربية الأصيلة، وقد وصلت هدية صاحب تلمسان مع الملوك فطولب المكلف بتربية الخيول.

كذلك ارتبطت مصر تجارياً واقتصادياً مع المغرب الأوسط؛ حيث كانت البلاد والموانئ الساحلية الممتدة من الاسكندرية شرقاً إلى طنجة غرباً كلها مرتبطة بعلاقات تجارية واسعة، ومنها تلمسان وبونة وبجاية والجزائر وشرشال وتينيس ووهران، وقد لعبت هذه الموانئ دوراً فى الترابط الاقتصادى بين مصر وبين دول المغرب وخاصة الواقعة تحت النفوذ الزيانى، وقد أشار المقرئى فى مناسبات كثيرة إلى العلاقات التجارية، التى كانت تربط التجار المغاربة وتجار الاسكندرية، ونظراً لشدة حاجة سلاطين مصر إلى الخيول العربية الأصيلة؛ فقد كانت تصل من المغرب صحبة التجار والرسل الذين يرسلهم السلاطين للمماليك. كذلك كان التجار المصريون يذهبون بمنتجات بلادهم إلى هذه البلاد لبيعها فى بلاد المغرب.

ولعل أكبر دليل على الترابط الاقتصادى بين مصر وبلاد المغرب ذلك العدد الكبير من التجار المصريين والمغاربة الذين كانوا يرحلون سنوياً فى قوافل كبيرة العدد إلى بلاد وسط وغرب القارة الأفريقية لكى يقوموا بعملية التبادل التجارى مع تلك البلاد. ولقد امتاز العصر المملوكى فى مصر بذلك النشاط الاقتصادى الواسع النطاق، ولقد كان سلاطين المماليك قبل سقوط دولتهم عام ١٥١٧م لا يدخرون وسعاً فى تقوية الروابط الاقتصادية بينهم وبين بلاد المغرب.

ولقد كانت الصادرات والواردات تمثل محاولة المجتمع المغربى لسد حاجاته بتصدير الفائض من حاجته واستيراد ما يتطلبه؛ فإن النظرة فى حركة التصدير والاستيراد بين مصر وبلاد المغرب ما هى إلا جزء من حلقة التكامل الاقتصادى بين دول العالم الإسلامى.

ولما كانت مصر طريقاً للحجاج الوافدين من بلاد المغرب فطالما انتهز هؤلاء الحجاج فرصة الحج ليحطوا بالرحال بمصر والأزهر فترة طويلة أو قصيرة يغترفون خلالها

العلم والمعرفة من الأزهر ويتعرفون على الحضارة الإسلامية التي كانت مزدهرة بالقاهرة، وهكذا .. كان دور مصر ودور الأزهر واسعاً في المغرب.

ولقد كان رواق المغاربة من بين الأروقة المشهورة الكبيرة في الأزهر الشريف؛ حيث كان يتخرج في هذه الأروقة العلماء الذين كانوا يرحلون إلى المغرب، وبعض منهم يفضلون البقاء للتدريس في الأزهر. وقد وصل العديد من علماء بلاد المغرب إلى تولى منصب مشيخة الأزهر، وأخذ هؤلاء العلماء المغاربة يتعاونون مع رفقاتهم المصريين في حمل رسالة العلم في الأزهر.

وعلى الجانب الآخر؛ فقد لعبت مدينة تلمسان عاصمة دولة بنى زيان بمدارسها ومعاهدها المختلفة التي أنشأها سلاطين بنى زيان دوراً كبيراً في إثراء حركة الثقافة المغربية وفي جميع الحياة الثقافية على أرض المغرب ذلك لأن تلمسان منارة أخرى من منارات الفكر الإسلامى كما أنها لعبت دوراً ثقافياً مؤثراً في المغرب الأوسط؛ بل دوراً مماثلاً في خدمة الإسلام جنوب الصحراء الكبرى، إنها شاركت القيروان وفاس والمدارس الإسلامية الأخرى على أرض المغرب في بسط الثقافة العربية الإسلامية، كما أن كثيراً من علماء تلمسان ساهموا في بناء حركة الفكر والثقافة العربية الإسلامية في البلاد العربية المجاورة، ومن ذلك رحيل الشيخ التلمسانى المغربى إلى السودان؛ حيث نزل على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب، وكان له باع طويل في العقائد ف جذب إليه المريدين من أنحاء مملكة الفونج.

وهكذا .. يكون الدور الذى لعبته مصر في إثراء الحركة الثقافية هو الدور الواضح. وأن كل المؤشرات الإسلامية وإن كانت قدمت من الجزيرة العربية إلا أنها طبعت بالطابع المصرى فى كثير من الأمور، ومن هنا شد أبناء المغرب الرحال إلى القاهرة؛ حيث كان الجامع الأزهر أكثر قدرة على العطاء لاسيما فى المذهب المالكي

الذى كان مذهب أهل المغرب جميعاً فسواء فى المغرب الأدنى والأوسط والأقصى. وهكذا .. ظهر مذهب مالك بصورة قوية ومن ثم بدأ يتغلب على المذاهب الأخرى واشتد سلطان الفقهاء والمغاربة المالكيين فى الحياة الثقافية، وهكذا كان لمصر دور خاص فى تغذية فقه مالك عن طريق الفقهاء المغاربة الذين درسوا المذهب المالكي بالقاهرة فى العصر المملوكى.

وهكذا .. كان لمصر أثر بعيد فى إثراء الحركة العلمية الثقافية والدينية فى بلاد المغرب وامتداد من حدود مصر الغربية مروراً بكل أقطار المغرب وصولاً على طنجة على شاطئ المحيط الأطلسى، وهكذا .. أعطت مصر فأجادت العطاء، ومنحت فكرها وثقافتها فأتت ثمارها طيبة وظلالاً وارفة فى أرض المغرب؛ حيث كان لمصر ثقلها السياسى والحضارى والثقافى.

لكن صلات مصر ببلاد بنى زيان الاقتصادية والثقافية والعلمية كانت أوثق منها سياسية؛ حيث رحيل أبناء تلمسان والمدن الأخرى طلباً للعلم والتجارية والتبادل الثقافى والاقتصادى بين مصر والدولة الزيانية خلال العصر المملوكى وحتى سقوط حكمهم تحت ضربات العثمانيين عام ١٥١٧م.

* * * *

علاقات بنى زيان مع الأندلس

لم يتخذ سلاطين بنى زيان منذ قيام دولتهم حتى سقوطها مبدأ الجهاد الإسلامى فى الأندلس للدفاع عن حقوق المسلمين فى هذه الديار وطردهم منها هدفاً أساسياً أو جانباً من سياستهم، إذ أنه خلال تاريخهم الطويل لم تشارك الدولة اليفراسينية بقوات عسكرية أو حشود مجاهدة من المتطوعين للدفاع عن كيان الأندلس؛ بينما ان دولة بنى مرين فى الغرب كان سلاطينها قد وضعوا فلسفة الجهاد الإسلامى نصب أعينهم منذ اللحظة الأولى لتكوين دولتهم، وبهذه السياسة الجهادية فى الأندلس .. فإن بنى مرين يتميزون عن غيرهم من الحفصيين وبنى زيان الذين لم تكن لديهم هذه السياسة للعمل والجهاد فى سبيل الله فى الميدان الأندلسى.

بل إن يغمراسن رفض أن يتعاون مع أبى يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فى إنقاذ الجبهة الإسلامية فى الأندلس بعد أن شرح له ابن عبد الحق حقيقة الأمر بالأندلس وأن يغمراسن بن زيان لم يفهم طبيعة الأحداث السياسية التى تمر بها الأندلس، لكن الذى يدرس هذا الفصل فى العلاقات بين الأندلس وبنى زيان يدرك أن ابن زيان كان يأخذ سياسة مخالفة لبنى مرين فى الأندلس فقد لعبت الدولة الزيانية دوراً فى الأندلس وتعاونت مع بنى الأحمر فى غرناطة وشاركت فى حركة الجهاد بإرسال المؤن والغذاء والعدد والخيول وكل ما يطلب منها فيما عدا القوات العسكرية لأنه كان يخشى بنى حفص وبنى مرين فى وقت واحد. ومن هنا كان حذره فى المشاركة فى حركة الجهاد فى الأندلس.

ولقد تأثرت علاقات بنى زيان بالأندلس بالأوضاع السياسية التى سادت منطقة العالم الإسلامى أثر انهيار الدولة الموحدية فى المغرب وما ترتب على انهيارها من فوضى فى المغرب والأندلس مما أعطى أعداء الإسلام الفرصة المواتية للقضاء على الوجود

الإسلامى بعد معركة العقاب ٦٠٩هـ؛ حيث بدأت المعازل الإسلامية الأندلسية تتساقط تباعاً تحت ضربات القوى النصرانية التى لم تجد جبهة إسلامية موحدة تستطيع الوقوف أمام الهجوم المسيحى القادم من الشمال. وقاسى الأندلسيون أنواعاً عديدة من الاضطهادات. لكن بقيت أجزاء فى جنوب الأندلس تكونت منها مملكة غرناطة والتى أسسها بنو الأحمر واتخذ ملوك غرناطة مواقف متناقضة مع النصارى فتارة يتحالفون مع بنى مرين وتارة يتحالفون مع بنى زيان ضد بنى مرين وتارة أخرى يتحالفون مع النصارى ضد الوجود المرينى. وهذه الخلافات خلقت علاقات ذات هدف مشترك بين بنى زيان وبنى الأحمر.

ولقد كان بنو الأحمر وبنو اشقيلولة اصهاراً وحلفاء وعندما استجد بنو الأحمر ببنى مرين فى حروبهم ضد نصارى الأندلس وقف بنو أشقيلولة إلى جانبهم فى جهادهم فكان أن توثقت علاقاتهم ببنى الأحمر لكن ازدياد النفوذ المرينى فى الأندلس واستيلاءهم على ممتلكات بنى اشقيلولة وتوسيع نطاق الجهاد فى الجبهة الأندلسية وخشية بنى الأحمر على عرشهم وكيانهم لا على الوجود الإسلامى فى الأندلس، ومن هنا بدأ الخلاف يأخذ طابعاً شخصياً وليس تفضيل المصلحة الإسلامية العليا، فتحالف بنو الأحمر مع النصارى عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨م ضد بنى مرين؛ فإنهم عملوا على الاتصال ببنى زيان فى المغرب لمعرفةهم بالعداوة التقليدية بين الطرفين وجذور الصراع العميق بين الطرفين وتعدد المعارك بين يغمراسن بن زيان وأبى يوسف يعقوب بن عبد الحق؛ حيث كانت مطالب بنى الأحمد من بنى زيان تتمثل فى ضرورة تعاون بنى زيان معهم لضرب القوة المرينية بالمغرب وتبادل معهم الهدايا واتفق الطرفان على أن يقوم يغمراسن بن زيان بمهاجمة حدود الدولة المرينية الشرقية حتى يصرف أباً يوسف عن العبور إلى الأندلس، ولقد رأى أبو يوسف المرينى أن يتجه إلى يغمراسن بن زيان

علاقات بنى زيان مع الأندلس

لم يتخذ سلاطين بنى زيان منذ قيام دولتهم حتى سقوطها مبدأ الجهاد الإسلامى فى الأندلس للدفاع عن حقوق المسلمين فى هذه الديار وطردهم منها هدفاً أساسياً أو جانباً من سياستهم، إذ أنه خلال تاريخهم الطويل لم تشارك الدولة اليفراسينية بقوات عسكرية أو حشود مجاهدة من المتطوعين للدفاع عن كيان الأندلس؛ بينما ان دولة بنى مرين فى الغرب كان سلاطينها قد وضعوا فلسفة الجهاد الإسلامى نصب أعينهم منذ اللحظة الأولى لتكوين دولتهم، وبهذه السياسة الجهادية فى الأندلس .. فإن بنى مرين يتميزون عن غيرهم من الحفصيين وبنى زيان الذين لم تكن لديهم هذه السياسة للعمل والجهاد فى سبيل الله فى الميدان الأندلسى.

بل إن يغمراسن رفض أن يتعاون مع أبى يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فى إنقاذ الجبهة الإسلامية فى الأندلس بعد أن شرح له ابن عبد الحق حقيقة الأمر بالأندلس وأن يغمراسن بن زيان لم يفهم طبيعة الأحداث السياسية التى تمر بها الأندلس، لكن الذى يدرس هذا الفصل فى العلاقات بين الأندلس وبنى زيان يدرك أن ابن زيان كان يأخذ سياسة مخالفة لبنى مرين فى الأندلس فقد لعبت الدولة الزيانية دوراً فى الأندلس وتعاونت مع بنى الأحمر فى غرناطة وشاركت فى حركة الجهاد بإرسال المؤن والغذاء والعدد والخيول وكل ما يطلب منها فيما عدا القوات العسكرية لأنه كان يخشى بنى حفص وبنى مرين فى وقت واحد. ومن هنا كان حذره فى المشاركة فى حركة الجهاد فى الأندلس.

ولقد تأثرت علاقات بنى زيان بالأندلس بالأوضاع السياسية التى سادت منطقة العالم الإسلامى أثر انهيار الدولة الموحدية فى المغرب وما ترتب على انهيارها من فوضى فى المغرب والأندلس مما أعطى أعداء الإسلام الفرصة المواتية للقضاء على الوجود

الإسلامى بعد معركة العقاب ٦٠٩هـ؛ حيث بدأت المعاقلة الإسلامية الأندلسية تتساقط تباعاً تحت ضربات القوى النصرانية التى لم تجد جبهة إسلامية موحدة تستطيع الوقوف أمام الهجوم المسيحى القادم من الشمال. وقاسى الأندلسيون أنواعاً عديدة من الاضطهادات. لكن بقيت أجزاء فى جنوب الأندلس تكونت منها مملكة غرناطة والتى أسسها بنو الأحمر واتخذ ملوك غرناطة مواقف متناقضة مع النصارى فتارة يتحالفون مع بنى مرين وتارة يتحالفون مع بنى زيان ضد بنى مرين وتارة أخرى يتحالفون مع النصارى ضد الوجود المرينى. وهذه الخلافات خلقت علاقات ذات هدف مشترك بين بنى زيان وبنى الأحمر.

ولقد كان بنو الأحمر وبنو اشقيلولة اصهاراً وحلفاء وعندما استنجد بنو الأحمر ببنى مرين فى حروبهم ضد نصارى الأندلس وقف بنو أشقيلولة إلى جانبهم فى جهادهم فكان أن توثقت علاقاتهم ببنى الأحمر لكن ازدياد النفوذ المرينى فى الأندلس واستيلائهم على ممتلكات بنى اشقيلولة وتوسيع نطاق الجهاد فى الجبهة الأندلسية وخشية بنى الأحمر على عرشهم وكيانهم لا على الوجود الإسلامى فى الأندلس، ومن هنا بدأ الخلاف يأخذ طابعاً شخصياً وليس تفضيل المصلحة الإسلامية العليا، فتحالف بنو الأحمر مع النصارى عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨م ضد بنى مرين؛ فإنهم عملوا على الاتصال ببنى زيان فى المغرب لمعرفة بالعداوة التقليدية بين الطرفين وجذور الصراع العميق بين الطرفين وتعدد المعارك بين يغمراسن بن زيان وأبى يوسف يعقوب بن عبد الحق؛ حيث كانت مطالب بنى الأحمد من بنى زيان تتمثل فى ضرورة تعاون بنى زيان معهم لضرب القوة المرينية بالمغرب وتبادل معهم الهدايا واتفق الطرفان على أن يقوم يغمراسن بن زيان بمهاجمة حدود الدولة المرينية الشرقية حتى يصرف أباً يوسف عن العبور إلى الأندلس، ولقد رأى أبو يوسف المرينى أن يتجه إلى يغمراسن بن زيان

حليف بنى الأحمر والفشتالين النصارى الذين أرسلوا سفنهم للجزيرة الخضراء وحطمها أسطول بنى مرين، فقاد حملة تأديبية ضده وتمكنت هذه الحملة من هزيمة يغمراسن ولاحقته وقضت على مقاومته قرب تلمسان وكان سبب هذه الحملة التأديبية أن يغمراسن قام بالعدوان على حدود المغرب الأقصى وخربت هذه الغارات بعض المدن والضواحي وذلك لانشغال بنى مرين فى حركة الجهاد ومحاولة إبعادهم عن دورهم التاريخى فى الجهاد الإسلامى فى الأندلس.

وأكثر من ذلك فإن يغمراسن بن زيان أرسل إلى بنى الأحمر عدداً من الخيول العتاق قدرتها المصادر بأكثر من ثلاثمائة فرس مع الملابس الصوفية واستمر فى غاراته على أطراف المغرب الأقصى.

وإذ كان بنو الأحمر حكام غرناطة هم الذين بدأوا علاقاتهم ومراسلتهم بينى زيان واستنجدوا بهم ضد بنى مرين .. فإن المواقف تقتضى التعاون والمساندة، ومن ذلك فإن بنى زيان عندما أحسوا بقوة الخطر المرينى واستعدادات ابن عبد الحق المرينى القوية وحشده الجيوش الجرارة وحرصه على التدمير والزحف إلى تلمسان؛ فإن يغمراسن استنجد بينى الأحمر وكان لبنى الأحمر نفوذ كبير على الدولة المرينية أو على الأقل تعاون ومصالح مشتركة على أرض الأندلس. فحث ابن الأحمر أبا العباس المرينى عن كف يده عن حرب ابن زيان، لكن السلطان المرينى أصر على الزحف على تلمسان واستولى عليها.

وعندما حدث الخلاف فى البيت المرينى بن العباس وموسى بن عنان، جهز بنو الأحمر جيشاً لمؤازرة أبى عنان ونزل الجيش الغرناطى سبته عام (٧٥٦هـ/١٣٨٤م)، وتوجه إلى فاس واستولى عليها، وقد كان لدخول الجيش الغرناطى أثره فى مساعدة أبى حمو الثانى الزياني فى العودة إلى عرش بلاده من جديد؛ حيث رفع بنو مرين الحصار

عن تلمسان فور سماعهم أنباء الجيش الغرناطى وسقوط فاس. والذى يتابع خطوات التعاون بين بنى زيان وبنى الأحمر فى الأندلس يتبين له أن هذا التعاون لم يحدث إلا فى فترة حكم سلطانيين فقط من سلاطين بنى الأحمر، هما أبو عبد الله محمد الملقب بالفقيه والثانى هو محمد بن السلطان بن الحجاج يوسف الملقب بالغنى بالله.

وان التعاون بين بنى زيان وبنى الأحمر لم يكن لأجل المصلحة الإسلامية وحركة الجهاد وضد العدو الذى عاث فى أرض الأندلس فساداً وقتلاً وحرقة وتدميراً وإكراهاً على العدول عن دين الإسلام الخالد، ولم يكن هذا التعاون إلا لضرب قوة بنى مرين القوة الوحيدة التى وقع عليها عبء الجهاد فى الأندلس فى تلك الفترة من فترات تاريخ الإسلام فى الأندلس ولو وجدت هذه الحركة المؤازرة الكامنة من قبيل بنى الأحمر وبنى زيان، وبنى حفص، والقوى الإسلامية الأخرى .. لتغير وجه الإسلام فى الأندلس.

ولكن مهما يكن فقد نشأت العلاقات بين بنى زيان وبنى الأحمر فإنها لم تتعد إمدادات مالية ومواد غذائية من بنى زيان دون الإمدادات العسكرية بالرجال والسلاح، ويبدو أن بنى زيان كانوا يخشون على أنفسهم الجهاد والمشاركة فى كفاح أهل الأندلس تاركين بلادهم التى يطمع فيها بنو حفص فى أفريقية وبنو مرين بالمغرب الأقصى على السواء، كما يمكن أن يكون بعد المسافة عاملاً آخر من عوامل الحيلولة دون إرسال إمدادات عسكرية وقوات حربية.

إضافة إلى أن دولة بنى زيان لم تكن دولة بحرية، ولم يكن لها الأسطول الذى يعتد به ويملك القدرة على الاشتراك فى قتال بحرى، ونقل إمدادات وقوات حربية أو

متطوعين؛ بل كانت دولة برية ولم يشر أحد من المؤرخين إلى وجود أسطول بحرى زياتى. لكن الظروف المحيطة كانت أقوى من فكر الدولة فى الاشتراك فى الجهاد.

ولقد كان الأحرى بنى الأحمر فى غرناطة أن يطلبوا من بنى زيان المشاركة فى حركة الجهاد والتعاون مع اخوانهم بنى مرين بدلاً من طلب الاعتداء على حدود بنى مرين واشغالهم عن التحرك للجبهة الأندلسية لكن هكذا تضيع أرض الإسلام ويخسر الإسلام أرضاً نتيجة جهل حكام المسلمين بالمسؤولية التاريخية الملقاة عليهم وتبعية الشعوب المضطهدة ورعايتها. وهكذا .. كانت صفحة العلاقات الزياتية وبنى الأحمر ضد الإسلام وليس لصالح قضايا المسلمين فى الأندلس.

علاقة بنى زيان مع بلاد جنوب الصحراء الكبرى

كانت تلمسان مركز هذه الدولة. وكانت مدينة كبيرة تقع على شاطئ البحر المتوسط ويربطها طريق صحراوى ينتهى إليها، ومن هنا تأتىها تجارة السودان من العاج والرقيق والذهب يتبادلها التجار مع صوف تلمسان وسلاحها ومخطوطاتها وأنها كانت محطة للتجارة الأوربية مع أفريقيا السوداء.

لقد لعبت تجارة هذه البلاد عنصراً هاماً فى التجارة التلمسانية (دولة بنى زيان)، إذ كان تجار بلاد السودان الأوسط يأتون من السودان وهم حاملين معهم كميات كبيرة من الذهب، وذلك إلى جانب أن تجارة السودان حققت لهم الوفير من الربح مما ساعد على بقاء دولتهم ككيان سياسى أطول فترة ممكنة.

ولقد كان موقع تلمسان الفريد على ساحل البحر المتوسط مما جعلها فى نظر سكان بلاد المغرب تكون البلاد الواقعة فى حوض السنغال والنيجر. وقد تأكدت هذه

الصلات عن طريق التجارة الصحراوية ونشاط القوافل التى كانت تجوب هذه الصحارى حاملة معها المنسوجات وغيرها من منتجات بلاد المغرب.

ولقد كان موقع تلمسان الفريد على ساحل البحر المتوسط ما جعلها مركزاً لتجميع البضائع القادمة من جنوب أوربا وكذلك البضائع القادمة من بلاد السودان.

وكان هناك طريق يتجه من تلمسان جنوباً عبر الصحراء إلى واحة قوات ثم إلى مدينة تمبكتو ويتفرع بعد ذلك فى الاتجاه الجنوبي الشرقى فى سلطنة البرتو كانم، وإلى مالى غرباً ثم يتجه جنوباً حيث مدينة جنى وجاو عاصمة سلاطين سنغاي، ولقد كانت ثروة البلاد كما قال عنها سلطان بنى زيان أثناء زيارة الحسن الوزان ١٥٤٠م تأتى من التجارة مع بلاد السودان وما حققته من ثراء هى سبب ثروة مملكته.

وقد لعبت تلمسان دوراً كبيراً فى ربط الطرق المتجهة إلى الجنوب عبر توات إلى تمبكتو؛ حيث كانت مهمة التجار المقيمين بها استقبال السلع الأوربية القادمة من جنوب أوربا والمدن الإيطالية وتصدير هذه السلع إلى بلاد السودان لتسويقها فى بلاد السودان؛ ثم بعد ذلك تتجه البضاعة إلى سكان الغابات فى الجنوب ونظراً لأهمية تلمسان فقد تمكن التجار البنادقة والجنوبيون من إقامة فنادق لهم بها وكذلك مستودعات لبضائعهم وكان يتردد عليها جمع كبير من تجارهم وقناصلهم.

ولقد كانت المناطق القريبة من المغرب منطقة مرور للتجارة عبر الصحراء إما إلى موانئ البحر المتوسط أو إلى الجنوب وكانت الطرق الجبلية بصفة عامة تتمركز فى ثلاثة مراكز تجارية فى اغمات وفاس وتلمسان ثم تنطلق الطرق الجبلية إلى السودان.

ولقد ارتبط سلاطين بنى زيان بعلاقات ودية مع سلاطين كانم وبرتو وسنغاي ومالى، ويتبادلوا معهم الهدايا والرسائل وكانت العلاقات متصلة عبر الطرق الصحراوية وكان طلاب من هذه البلاد يقدون إلى تلمسان لتلقى العلم فى مدارسها ومعاهدها

الدينية التي بذل لها سلاطين بنى زيان الكثير من الرعاية وحسن اختيار الأساتذة والعاملين بها.

كما أن ركب حجيج بلاد السودان الغربى كان يجد فى طريقه إلى الحج كل مساعدة وعون له عند المرور بمدينة تلمسان، وكان بعض أبناء هذه الأقطار بفضل الإقامة النهائية بالمدينة وعدم العودة تكسباً للعمل أو للدراسة فى مسجدها الجامع الكبير الذى أقامه يغمراسن بن زيان أو لتلقى علوم الطب الذى فاقت فيه المدينة كل المدن المغربية حتى أن بعض المصريين قدموا من القاهرة لتلقى علوم الطب على أيدي أساتذة تلمسان، وقد نبغ كثير من الأساتذة التلمسانيين الذين ذاع صيتهم فى بلاد العالم الإسلامى وهما العلم والحضارة فى المغرب خلال العصور الوسطى، ومهما يكن من ضعف أسرة بنى زيان فإنها جعلت من تلمسان حضارة رئيسية ومركزاً لبلاد مالى وبرنو كاتم وسنغاي، الرحال إلى تلمسان طلباً للعلم وتلقياً لعلومه التى ازدهرت فيها الثقافة الإسلامية وانتشر المذهب الملكى مذهب بلاد السودان وتأسست فيها كثير من الطرق الصوفية الشهيرة التى انتشرت بدورها فى بلاد السودان.

وكانت بلاد بنى زيان بها الموانئ المشهورة ميناء وهران، والمرسى الكبير، وكان يقصد هذين الميناءين عادة الكثير من التجار الجنوبيين والبنادقة الذين كانوا يزاولون فيها التجارة الكبرى عن طريق المقايضة، وقد أدى ذلك إلى حدوث حركة كبيرة فى تجارة السلع فى المملكة، وذلك لأنها كانت تؤلف محطة على الطرق المؤدية لبلاد السودان.

ولقد كانت تلمسان محطة وصول طلاب السودان؛ حيث كان يوجد فى المدينة القضاة والمحامون والعديد من كتاب العدل الذين يتدخلون فى الدعاوى، ونرى فيها أيضاً

الكثير من الطلبة والأساتذة فى مختلف المواد، سواء فى الشرع أو العلوم الطبيعية، وكانت بها خمس مدارس تشبه جامعات العصر الحديث، أو الكليات المتخصصة، وهى تكفل أمر معيشتهم بانتظام.

وطوال تاريخ بنى زيان الطويل الذى امتد أكثر من ثلاثة قرون تواصل دورها الحضارى والثقافى والاقتصادى مع بلاد جنوب الصحراء الكبرى ووفد إليها التجار والطلاب ورجال الإدارة لكى يتعلموا فى مدارس ومعاهد تلمسان، التى كانت توفر سبل المعيشة لطلاب الدراسة وانتشر نظام دراسة المذهب المالكى على نطاق واسع فى عصر بنى زيان الذين أولوا العلم والثقافة دوراً هاماً حتى أننا نجد أن بعض سلاطينهم وهو السلطان أبا حمو بن زيان العبد الوادى يقوم بتأليف كتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك. ويحرص على حضور مجالس العلم والفقه والدين، ويشهد مناظرة الشعر والشعراء، ووصلة الشعراء من كل جانب.

وقد كان عصر موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بنى يحيى يغمراسن بن زيان (٧٥٣-٧٩١هـ/١٤٥٢-١٣٨٩م) أزهى عصور الدولة (أبو حمو بن زيان)، وكان له أثر كبير فى ذلك الازدهار الحضارى الذى نعمت به تلمسان حتى صارت صورة متحضرة وراقية، ويبدو من تاريخ هذا السلطان أنه كان قبل كل شىء أديباً وفيلسوفاً وشاعراً وفناناً فى نفس الوقت، وقد أحاطت به طبقة من الكتاب والشعراء، ومنهم الكاتب يحيى بن خلدون (٧٨٠هـ/١٣٧٨م)، وهو مؤلف كتاب بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد، أن هذه النهضة العلمية الأدبية والفكرية والإسلامية شدت انتباه أبناء السودان الأوسط والغربى فشدوا الرحال إلى تلمسان نهلاً من فكرها وعطائها العلمى الفياض الذى تخصص له جهابذة الفكر المالكى والعلمى.

ومن هنا .. ارتبطت تلمسان عاصمة بني زيان برباط سياسى واقتصادى وثقافى وحضارى وعلمى مع بلاد السودان جنوب الصحراء الكبرى وأدت دورها على أتم أداء؛ فى نشر حضارة الإسلام وثقافته بين شعوب هذه الأنحاء من القارة الأفريقية.

* * * *

الفصل السادس

النشاط الحضارى والثقافى والاقتصادى للدولة

شهد بنو زيان فى ظل دولتهم نظاماً سياسياً دقيقاً تمثل فى عدة مناصب؛ حيث عرفوا الحاكم الذى اتخذ لقب أمير المؤمنين، ثم لقب السلطان، ثم لقب الخليفة، وأمير المسلمين، وكان السلطان يتولى الحكم عن طريق عهد من سابقيه.

وكان السلطان يعيش وفق مراسم دقيقة؛ فهو لا يظهر إلا بالنسبة للكبار ولشخصيات بلاطه الرئيسية ولا يستقبل أحدا سواهم وهم الذين يصرفون الأمور حسب النظام السائد وفى هذا البلاط مناصب وداوئر عديدة والشخصية الأولى فى البلاد السلطاني هو القائد الذى يحدد رواتب كل واحد قدر كفاءته وهو الذى يقود الجيش ويكون أحياناً على رأس الجيوش بجانب السلطان نفسه، والشخصية الثانية هو الكاتب الأول الذى يكتب ويكتب باسم الملك (ديوان الإنشاء) والخازن الذى يتسلم أموال السلطان ويحتفظ بها والعائدات السلطانية. ثم قائد الباب ومهمته حراسة القصر والذات السلطانية فى حالة الاستقبال وهناك وظائف أقل أهمية كوظيفة رئيس الاسطبلات أو قائد الحرس ورئيس التشريعات، ولا يظهر لهذا الأخير عمل إلا فى حالة استقبال السلطان لزواره.

إضافة إلى الوزير، الحاجب، القضاء العمال، شيوخ المدن، الحاميات الشرفية، وكانت تلمسان تعيش بها الشخصيات ذات المناصب الكبيرة وكانت السلطة ترجع إلى فرد من بني زيان.

وتلمسان مدينة كبيرة وعاصمة السلطة وفى عهد حكم أسرة بني زيان توسعت

تلمسان، وقد كانت تحوى ست عشرة ألف أسرة فى عهد السلطان أبى تاشفين عبد الرحمن الأول (٧١٨-٧٣٧هـ/١٣١٨-١٣٥٢م)، وبلغت درجة سامية من الازدهار وتكاثر عدد سكانها، وتوزع فيها كل المهن وأصناف التجارة بين مختلف الأحياء ويوجد بها بضعة جوامع ومساجد جميلة معتنى بها بصورة حسنة، ولها أئمة وخطباء، كما تحوى أيضاً خمس مدارس بديعة حسنة البنيان وقد شيد بعضها سلاطين تلمسان والبعض الآخر سلاطين فاس وتوجد بها بضعة حمامات كبيرة من كل المستويات وتوجد بها بضعة فنادق حسب الطراز العربى الإسلامى، ومن بينها اثنان لسكنى التجار البنادقة والجنوبين. ويوجد فى المدينة موارد عديدة للماء وأسوارها عالية وبها خمسة أبواب شديدة الاتساع وفى جوف هذه الأبواب حجرات صغيرة يقيم فيها الموظفون والحراس ويقع القصر السلطانى وسط العاصمة وتحيط به أسوار مرتفعة على غرار القلاع وهو يحوى قصورا أخرى ولكنها متقنة البناء جداً مع هندسة رائعة (طراز أندلسى)، وتوجد خارج تلمسان عدة كور بديعة بها منازل غاية فى الأناقة.

وينقسم سكان تلمسان إلى أربع طبقات صناعات وتجار وطلبة وجنود، وتجارها رجال شرفاء ومخلصون وشرفاء فى معاملتهم ويعملون جاهدين لجعل مدينتهم جيدة التموين وسفرهم الرئيسى نحو بلاد السودان وهم أغنياء جداً وعساكر السلطان رجال مختارون ويتقاضون أجوراً مرتفعة، والطلاب هم أفقر سكان المدينة لأنهم يعيشون فى مدارسهم بصورة بائسة وبعد أن يحصل أحدهم على الشهادة النهائية يعين أستاذاً أو كاتب عدل أو إماماً، وتجار تلمسان وأهلها ذوو هندام جيد ويكتسى الطلاب حسب حالتهم المادية وسارت الدولة على نظام ولاية العهد واعتمد بعض الأمراء على القوة فى الوصول إلى السلطة كما حدث فى عهد أبى سعيد وأبى ثابت وادى عبد الرحمن بن يغمراسن.

وكانت الوزارة تأخذ شكلاً وراثياً والسلطة القضائية يتولاها قاضى القضاة والسلطة العسكرية قائد الجيش، وكان حاكم الدولة هو الذى يقود الجيوش بنفسه، وهناك وظائف أخرى فى كل مدينة أو محافظة كالمحافظ وهو الوالى المحتسب، والحاجب وكان معروفاً فى الدولة الزيانية منذ نشأتها الأولى وكان الجيش بعد عمود الدولة الزيانية ووسيلة الدفاع عنها واتساع رقعتها وتمتد سلطنة تلمسان على مسافة خمسمائة وثلاثين ميلاً من الشرق إلى الغرب ولكنها ضيقة جداً من الشمال إلى الجنوب؛ فبين البحر المتوسط وبين تخوم صحراء نومديا لا يوجد إلا بعض النقاط سوى مسافة لاتزيد عن خمسة وعشرين ميلاً بين نهر الملوية ووادى الصمام، وهذا هو السبب الذى جعل هذه السلطنة معرضة للهجوم من جانب العرب الذين يسكنون الجزء المجاور من الصحراء ولا يوجد بها سوى القليل من المدن والقصور غير أن هذه المدن تكون مزدهرة.

وقد اعتمدت الدولة الزيانية فى اقتصادها على الزراعة والصناعة والتجارة والثروة الحيوانية؛ بالإضافة إلى موارد أخرى واهتمت الدولة بهذه الأمور وأولتها عناية خاصة وإنتاج السلطنة قليل، وبالتالي .. فهى قليلة السكان، ولكن نظراً لأنها محطة بين أوروبا وأفريقيا جنوب الصحراء فإن السلطان يحصل على دخل كبير من جراء حركة التصدير والاستيراد وظلت السلطنة فترة طويلة من السنين تحقق دخلاً كبيراً، وقد اهتمت الدولة بصناعة الصفن والمنسوجات والتطريز والبحث عن الثروة المعدنية، وكان لموقع الدولة الزيانية فى المغرب الأوسط أثر كبير فى ازدهار الحركة التجارية؛ بحيث يعتبر المغرب الأوسط حلقة اتصال بين شرقى وغرب المغرب.

وشهد المغرب الأوسط فى عهد الدولة الزيانية نشاطاً عمرانياً ملحوظاً تنوعت فيه الاتجاهات العمرانية فشملت الضواحي وزادت المباني الدينية والثقافية والعسكرية. وقد

اهتم أمراء الدولة بالناحية الدينية في نشاطهم العمراني؛ ففي عهد يغمراسن بن زيان بنيت صومعتان، إضافة إلى الجامعين الأعظمين بمدينة تلمسان ذات الزخارف التي من صنع أندلسي ومحراب المسجد كمحراب مسجد قرطبة وذلك من أثر اتصال حضارة المغرب بالأندلس.

واهتمت الدولة في عهد أبي سعيد عثمان بن يغمراسن ببناء مسجد أبي الحسن (٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، واجتمع على أن عهد أبي تاشفين الأول يعتبر عصر ازدهار العمران، وفي عهد أبي حمو الثاني أنشئ مسجد الولي إبراهيم وكما اهتم بنو زيان بالناحية العمرانية اهتموا بالناحية العسكرية.

وكان الاتجاه الدفاعي والهجومى هما خطأ السياسة العسكرية، التي سارت عليها الدولة طوال تاريخها ضد العدو المهاجم والهجوم خلف الخصم عند الانسحاب، ومن هنا حصنوا تلمسان بالأسوار العالية والأبراج المنيعة المتينة وأبواب المدينة ذات مصاريع مصفحة بالحديد والأسوار غاية في الارتفاع على غرار القلاع وهي رائعة الهندسة متقنة البناء.

وقصر السلطان له بيان الأول يفتح على البادية في مواجهة الجبل والثاني نحو داخل المدينة؛ حيث يقيم قائد الحرس.

وقد كان بنو زيان على دراية ببناء المدن والأسوار والقلاع والحصون ووسائل الدفاع كما أنهم كانوا على دراية بالتكتيك الحربي. ومن الناحية الهجومية استطاع ابن تاشفين الأول بناء حصن بكر على مقربة من بجاية ليكون خط دفاع أول ونقطة هجوم ضد بنى حفص كذلك اهتموا بوسائل الدفاع عن البلاد القريبة المجاورة لبنى مرين.

وقام سلاطين بنى زيان بإنشاء دار لسك العملة، وكانوا يتعاملون بالدينار الذهبى كما كانوا يسكون عملة فضة، وكذلك عملة نحاسية ذات قيمة، وأنواع مختلفة، وكان يتم التعامل بهذه العملة بين طوائف الشعب المختلفة.

وكان لهم جيش دائم وفرسان لكن في حالة الحرب أى عندما تكون البلاد في حالة قتال مع أعدائها .. فإنها تعلن حالة الاستعداد العسكرى ويجتمع لدى السلطان الجنود من الأعراب وسكان المدن والمتطوعة ويتجول في أنحاء السلطنة لحشد قوات كثيرة. وكان يوجد عدد كبير من الجنود في حراسة السلطان وأكثر من ألف فارس لحراسة القصر (شهد بذلك الحسن الوزان ليو الأفريقى، وصف أفريقية).

وفي عصر الأسرة الزيانية عاد المذهب المالكي يمثل مكانته الرفيعة من جديد في المغرب الأوسط بعد أن فقدتها في عهد الموحدين ومع تسليمنا بأن مدرسة تلمسان لن تبلغ مبلغ القيروان وفاس في ذيوع الصيت في مجال الثقافة والعلوم، إلا أن عهد بنى زيان شهد أهم تطور ثقافى عربى شهدته البلاد وهو انتشار مذهب الإمام مالك وانتشاره في القسم الغربى من العالم الإسلامى.

ويبدو أن ما سمعه أهل تلمسان على علماء المغرب من علمائهم القادمين من مصر فإنهم أخذوا يطلبون فقيه المزيد مما دفع فقيه المغرب سحنون ابن سعيد إلى الرحيل إلى مصر.

وقد صحب انتصار المالكية في بلاد المغرب الأوسط توطن الثقافة العربية في مختلف المجالات بانتشار اللغة العربية وتغلغل الثقافة الإسلامية في نفوس الناس، وظهر جيل من مثقفى سكان المغرب يطبعون الثقافة العربية بطباعهم المغربى.

وكان عصر بنى زيان قد شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب وسرعة انتشاره في

البلاد بعد أن كانت مكانته قد ضعفت في عهد الموحدين وبدأ هذا المذهب يتغلب على مذهب أبي حنيفة مسيطراً على قلوب الناس ومدارس الفقه حتى انتصر نهائياً وبدأ المالكية يغلبون على الحياة الثقافية في بلاد المغرب كلها، واشتد سلطان الفقهاء المغاربة المالكية في الحياة الثقافية والدينية؛ بل لقد أصبح فقهاء المالكية في نظر المغاربة الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام ويستشهدون في سبيل العقيدة.

وشهد عصر بنى زيان انتشار الفقهاء المالكية والذين كانت أسماؤهم تتبع بالتلمساني في العديد من الأقطار المجاورة؛ حيث لقي هذا المذهب قبولاً من الفقهاء المغاربة لاعتماده أساساً على نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف دون تأويل أو لجوء إلى الرأي معرضين عن المذاهب الأخرى، التى تعتمد على الرأي والتأويل؛ بل إن العلوم التى كانت تدرس فى مدارس المغرب الأوسط كانت تدور حول فقه الإمام مالك والعلوم الإسلامية الأخرى؛ بحيث أصبح المذهب المالكي هو الحصن الذى اعتصم به أهل المغرب.

كما أن بنى زيان قد اهتموا بالناحية الثقافية اهتماماً بالغاً فشجعوا دراسة العلوم وأنشأوا المدارس، وقد كان فى تلمسان وحدها خمس مدارس بديعة حسنة البناء، ومزدانة بالبلاط الملون وسواه من الأعمال الفنية، وقد شهد بعضها ملوك تلمسان، كما أن مدينة عباد كان بها مدرسة بديعة جداً وفندق لسكنى الأغراب وقد حملت بعض المدارس أسماء مؤسسيها فنجد مدرسة حمو الأول وكان أبو تاشفين الأول قد أقام مدرسة عرفت باسمه وكثر بناء المدارس والزوايا، وكان كل السلاطين يبدون اهتماماً بالعلوم الإسلامية كما أنهم اهتموا ببناء خزانات الكتب التى توضع بها المخطوطات ونشطت حركة نقل العلوم والمخطوطات وراجت تجارة الكتب، وحسن الاهتمام ببناء القصور والدور وشهد عهدهم نشاطاً عمرانياً مكثفاً شهد به الحسن الوزان الذى زار

تلمسان وقضى بها فترة من الزمن فى ضيافة السلطان أبى عبد الله محمد السابع ٩٠٢هـ/١٤٩٦م.

وكانت المدن الجديدة بها كل مستلزمات الحياة من تجارة وصناعة ومساجد وغيرها، وبلغت هذه العناية مداها فى عهد أبى تاشفين الأول، فقد شيد المصانع.

وكان فى دولة أبى زيان العديد من المدن الهامة، والتى منها تلمسان العاصمة ومدينة وجدة وكانت وجدة دائماً فى جانب سلاطين تلمسان ضد بنى مرين، وقد كانت أسوارها قوية وعالية كما أن بيوتها حسنة جيدة البناء وسكانها أغنياء ومهذبين وذوى مروءة وشجاعة، وقد تجددت مساكنها كثيراً. وأصبحت جميلة الطراز، والذى غلب عليه الطابع الأندلسى وأهلها يتكلمون اللغة العربية، وكذلك من المدن الهامة مدينة عباد، وهى على مسافة ميل من تلمسان فى اتجاه الجنوب وهى مأهولة بالسكان وتضم العديد من الصناعات وبها مدرسة وفندق، وهى مدينة تضم العديد من صباغى الملابس.

ومن المدن الهامة أيضاً مدينة وهران وهى على ساحل البحر المتوسط على مسافة مائة وأربعين ميلاً من تلمسان وهى مدينة كبيرة بها العمارات والمؤسسات التى تعتبر مدينة حضرية بها (المشافى) الكبيرة، (الجوامع) المساجد، والمدارس، والحمامات، والفنادق، والبالمارستانات، وهى محاطة بأسوار عالية وأكثر سكانها من الصنائع والتجار، والسكان ينتخبون رئيس مجلس يهتم بشئون المدينة، وكان بها خازن مال، ومكاس لتحصيل عوائد البناء.

ثم مدينة المرسى الكبير وأسسها سلاطين تلمسان على شاطئ البحر المتوسط على مسافة بضعة أميال من وهران وكانت تستطيع أن ترسو عليها مائة سفينة ومركب، فى

وقت واحد ولا يوجد له مثيل في العالم، قاطبة في عصر بنى زيان وكانت من عادة سفن البنادقة أن تلجأ إليه في حالة هياج البحر، وترسل بضائعها إلى وهران.

وكذلك .. مدينة مستغانم وهي تقع على البحر المتوسط وتقع على مسافة ثلاثة أميال شرقي مدينة مازاگران وشهدت تحضراً عظيماً وكثرة من السكان في عصر سلاطين بنى زيان وبها جامع جميل جداً وفيها العديد من الصناعات الذين ينسجون أقمشة الكتان وبيوتها جميلة كما تكثر بها موارد المياه والأراضي التي تحيط بها خصبة وصالحة للزراعة ولها ميناء صغير تقصده السفن الأوربية وعندما ضعفت هيبة الدولة تعرضت لمضايقات بدو الصحراء.

ومدينة شرشال على ساحل البحر المتوسط ولها سور شديد الارتفاع ويظهر فيها بجوار البحر جامع كبير عال جدا لاتزال محاربه قائمة وقت زيارة الحسن والوزان. وصف أفريقيا وكانت مأهولة بالسكان ولكنها هجرت في أعقاب الحروب بين سلاطين تلمسان وسلاطين بنى مرين وظلت قليلة السكان حتى عمرها كثير من الغرناطين بعد سقوط دولتهم ١٤٥٢م، وأعادوا بناء قسم كبير من منازلها وكذلك قلعتها وزرعوا أرضها ثم بنوا الكثير من سفن الملاحة واشتغلوا بصناعة الحرير وسكانها أكثر من ألف ومائتين نفسا.

ثم مدينة ملبائة وتقع هذه المدينة فوق قمة جبل وتبعد عن شرشال بأربعين ميلا وبيوتها متقنة ويكاد سكانها جميعاً أن يكونوا من الصنائع ومن الخراطيين ويعمل بعض منهم في الزراعة.

ثم مدينة تنيس وهي على مسافة خطوات من البحر المتوسط وبها الكثير من السكان وكانت دائماً تابعة لسلاطين تلمسان وعندما أدرك المغرب السلطان أبو عبد الله

محمد المتوفى ١٥٠٥م، وهو جد الملك أبي عبد الله محمد الذي كان يحكم ١٥٢٨م وكان قد خلف ثلاثة أبناء أكبرهم كان يدعى عبد الله والثاني أبو زيان والثالث يحيى آل الحكيم إلى عبد الله وظهر الانقسام بين الأخوة الثلاثة، إلا أن يحيى عاد إلى تنيس ونودي به سلطاناً وظل يحكم البلاد بضعة أعوام منها ونتج أرضها الكثير من الفحم.

ومدينة مازونة، وهي مدينة داخلية على بعد أربعين ميلاً من البحر وتمتد على مساحة كبيرة وبيوتها كثيرة وأسوارها عالية منيعة وهي مدينة متحضرة وقد تعرضت للتدمير من العرب والعصاة وبنى زيان وذلك لقربها من حدود سلاطين فاس وربما لتأييدها لهم وأرضها الزراعية طيبة ومنتجة ومن المدن الهامة أيضاً في سلطنة بنى زيان مدينة الجزائر وقد خضعت للسلطة سلاطين تلمسان لكن عند حدوث الشقاق بين أبناء الأسرة خضعت لحاكم بجاية ووقعت تحت سلطته لأنها كانت أقرب إلى بجاية من تلمسان وهي مدينة كبيرة جداً وأسوارها رائعة وقوية للغاية وبها أسواق جيدة كما أن بها عدداً كبيراً من الفنادق والحمامات وبها جامع كبير جداً يقع على حافة البحر. وكان خضوع سكان الجزائر لسلطان بجاية لأن سلطان تلمسان لا يستطيع أن ينجدهم وأنهم يتعرضون لأذى ملك بجاية فقدموا الولاء له وتحول بعض سكانها إلى أعمال القرصنة وكانوا يغيرون على السواحل الأسبانية وجزر يابسة ومتروقة وما يورقه وبيزاً وغيرها من المدن الإيطالية وخضعت لحكم خير الدين بربروس وأخيه عروج وضرب السكة باسمه ووعد كل سكان المناطق المجاورة بالطاعة وأرسلوا له الجزية وقد تعرضت لغزو ماوك أسبانيا.

ومدينة تقدمت وغيرها من المدن الأخرى مثل مدينة دليس، تاميد فوست، برشك، مازاگران ومدينة البطحة؛ ثم ولاية بنى راشد وكانت إمارة تحكم بيد العرب الذين يقدمون المحاربين للسلطان من الفرسان والمشاة إضافة إلى مبلغ من المال يدفع سنوياً

مبلغ خمسة وعشرين ألف دينار، ومدينة تسالة، نفرة، ومدينة رشتون، ومدينة حنين، ومدينة ندرومة، ومدينة تيجريت، ومدينة قصر ايسلى، قصر تيمز يزدغت.

هذه المدن الكثيرة العديدة والكبيرة والموانى الكثيرة خضعت لسيطرة سلاطين بنى زيان طوال حكمهم الطويل والذى يطالع الحديث المطول عن هذه المدن التى ذكرها الحسن الوزان فى كتابه وصف أفريقيا وأشار إليها بعض المؤرخين الذين جاءوا من بعده يدرك أن هذه الدولة كانت على مستوى عالٍ من الرقى والتقدم والازدهار الحضارى والثقافى وأن كل مدينة من هذه المدن الكبرى لعبت دوراً بارزاً فى إثراء الحركة الثقافية والعلمية والحضارية والاقتصادية وساعدت على تطور وتقدم المغرب الأوسط ولو أن هذه السلطنة كانت من الضعف والانهيال لما استطاعت أن تصمد أمام قوتين فى المغرب الأدنى والأقصى كل منها يريد السيطرة عليها لكنها قاومت كل تيارات الاحتواء والسيطرة والزوال من مسرح الأحداث طوال ثلاثة قرون.

لكن القوة الاقتصادية والعسكرية وثناء الدولة وقوة سلاطينها ساعدت فى بناء الأسرة الحاكمة طوال هذه الفترة وكانت الظروف الخارجية والقوى العالية الخارجية كالأتراك والأسبان والبرتغال الصراغ فى حوض غرب البحر المتوسط من العوامل التى عجلت بانتهاء أسرة بنى زيان وزوال سلطتها.

وفى فترة سقوط بنى زيان البصرة لحكم بنى زيان مرين والتى سوف نتحدث عنها فى باب العلاقات بين الدول الثلاث (بنى حفص، بنى زيان، تواجدهم القصير فى بلاد المغرب الأوسط والتى شملت النواحي العسكرية والمدينة فأسسوا مدينة المنصورة فى عهد أبى يعقوب يوسف بن عبد الحق المرينى وأحاطوها بالأسوار وبنى فيها قصراً وكذلك اهتم بنو مرين بالناحية الدينية لكسب الشعور الشعبى وتأييد السكان لهم؛ فقاموا ببناء المساجد ففى عهد أبى الحسن تم بناء مسجد المنصورة الأعظم كما قاموا

ببناء مسجد بقرية العباد كما قاموا ببناء مسجد حول ضريح أبى عبد الله الملوى، واهتم بنو مرين ببناء المدارس وأولوا العناية بالثقافة والعلوم الإسلامية وأعطوها عناية فائقة ففى عهد أبى الحسن المرينى بنيت مدرسة فى قرية العباد وفى تلمسان العاصمة كما بنيت وشيدت فى عهد أبى عنان مدرسة أخرى.

لكن مجمل القول أن الفترة التى عاشتها دولة بنى زيان شهدت اهتماماً بعلوم اللغة العربية كالنحو، والأدب، والبلاغة، والتاريخ، والجغرافيا، ولهذا اشتهر فى عهد الدولة الزيانية كثير من العلماء والمؤلفين والمؤلفات المخطوطة، واهتمت الدولة بتدريس العلوم الطبيعية كالرياضة والطب والكيمياء المخطوطة واهتمت الدولة بتدريس العلوم الطبيعية كالرياضة والطب والكيمياء وعلوم الفلك والتنجيم وكل ما يتصل بمظاهر الحياة كعلوم الحيوان والزراعة وغيرها من علوم العصر؛ حيث ساهم فيها علماء تلمسان بدور رائع.

ومن هنا .. فإن الفترة التى عاشتها الدولة الزيانية فى المغرب الأوسط تعتبر حركة نمو وإشعاع فكرى وعلمى نشطت فيه العلوم ونبغ فيها عدد وافر من العلماء فى مختلف الميادين وقد نجح هؤلاء العلماء فى أن يجعلوا من تلمسان عاصمة دولتهم مركز إشعاع ومهبط طلاب ومقصد علماء وداراً تستقطب طلاباً من أعماق شتى وتهوى إليها أفئدة طلاب العلم؛ بل مدينة ثقافية بالمعنى المعاصر، وقد ذكر ابن خلدون عبد الرحمن ويحيى بن خلدون أنهما عاشا زمناً طويلاً ينعقد فيها أسواق العلوم والصنائع وكثر فيها العلماء وضاهت عاصمتها أمصار الدول الإسلامية كغرناطة وقرطبة والقيروان وفاس والقاهرة، وكانت مكائنها لا تقل عن مكانة المراكز الخلافية فى العالم الإسلامى.

وبلغت الحياة الثقافية ذروة نشاطها فى عهد أبى حمو الثانى الذى اهتم بالعلم

والعلماء، وغدت تلمسان في عهده مركزاً ثقافياً هاماً يضاهي أهم مراكز المغرب الثقافية، كما شهد المغرب الأوسط انتشار التعليم ومدارسه في شتى المدن الكبيرة التي أشرنا إليها في الصفحات السابقة؛ بل إن المدارس وكتاب تحفيظ القرآن الكريم ودراسة علومه انتشرت في المدن والقرى وفي الزوايا والبوادي وبين سكان الجبال والسهول. ودرست العلوم الإسلامية في المساجد والمدارس وأولت الدولة اهتماماً كبيراً بتحفيظ القرآن الكريم وتشجيع التلاميذ على حفظه وهم في سن صغير، وكذلك دراسة علوم الدنيا والدين.

وقد ساهم أمراء بنى مرين في فترة وجودهم بالمغرب الأوسط في العمل على انتشار التعليم فأمرؤا ببناء المدارس والزوايا وساهموا في هذا الميدان بدور لا يقل عن دور بنى زيان وكانوا يعينون للتدريس في هذه المدارس أشهر العلماء وكان التعليم بالجان؛ بل كان يصرف الطعام والكساء والكتب المخطوطة للطلاب. وازدادت منزلة العلماء عند أمراء الدولة. وهكذا .. كانت تلمسان حلقة علمية اجتمع فيها من رجال الدين والأدب الكثيرون فغدت مركزاً علمياً يشد إليه الرحال طلباً للعلم في شتى أقطار العالم الإسلامي. فها هو العالم المصرى عبد الباسط خليل المصرى من علماء القرن التاسع الهجرى يهاجر إلى تلمسان من القاهرة في رحلة طويلة طلباً لاستكمال بعض المعلومات الطبية التي كان يلح في معرفتها فدرس على يد الشيخ محمد بن على بن بلمارستانات تشونى أحد أطباء بمارستانات تلمسان المشهورة.

ومن هنا كان لبنى زيان في فترة قوة دولتهم دور بارز في مجال العلوم الإسلامية وتدريسها وأثمرت الأنشطة التي قاموا بها في مجال الحضارة الثقافية والاقتصادية بدور بارز استطاعت الدولة رغم أنها لم تصل إلى مصاف الدول المحيطة إلا أنها لعبت دوراً لا يقل عما لعبته القيروان في عصر بنى حفص وماس في عصر بنى مرين فكانت

تلمسان لا تقل دوراً عن أدوار هذه المدن على مختلف الأصعدة التي شاركت فيها في أذكاء أنوار الحضارة الإسلامية التي كانت الصراعات الأسرية بين الأمراء المطالبين بالعرش وبين القوى المتصارعة على أرض المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وفي غرناطة كل هذه الانقسامات كانت من الأسباب القوية التي لم تساعد على السير على نهج التطور العلمى والحضارى الذى برز فيه الذين درسوا في جامعات قرطبة وطليطلة وبالرمو وفاس والقيروان وتلمسان لتصبح لهم قيادة في المجال العلمى للبشرية حتى وقتنا الحالى.

* * * *

الفصل السابع

نهاية الأسرة اليعمراسنية الزيانية

قامت دولة بنى زيان على أساس القوة القبلية ذلك لأنه كما سبق القول عندما أحست قبيلة بنى عبد الواد بقوتها فإنها استطاعت أن تدخل العاصمة وتفرض وجودها السياسى على منطقة المغرب الأوسط وفرض سيادتها على القبائل البربرية بوجين ومغراوة وغيرها من القبائل البربرية وكذلك القبائل العربية كبنى هلال وفروعها، ومن هنا كان تاريخها تاريخا عسكريا قضيت معظم سنواتها فى حرب داخلية وحروب خارجية (بنى حفص، بنى مرين).

ولقد كانت الحروب المتصلة مع القبائل القاطنة بالمغرب الأوسط وصراعها مع بنى مرين، كل هذه الأمور قد أضعفت من قوة الدولة وجعلت شغلها الشاغل الحفاظ على بقائها واستمرار الحال حتى احتل بنو مرين تلمسان (٧٩٥هـ/١٣٩٢م) وحكموا المدينة وممتلكاتها ربع قرن من الزمان قد تخلصت منهم وعادت إلى سابق عهدها ومدت سلطانها حتى بجاية من بلاد الحفصيين بمساعدة الهلالية من الزواودة وبنى معقل بن عبد الله بن رياح.

وإذ كان أبو موسى الأول قد استطاع أن يحيى الدولة فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر، وأن يحررها من الحكم المرينى وبصعوبة شديدة استطاعت الدولة أن تحافظ على كيائها، لكن كل هذه العوامل قد أثرت فى كيان الدولة فلم تستقر الاستقرار الطبيعى؛ بل أن الدولة تعرضت للإنهيار الداخلى بسبب الصراع على الحكم والسلطة، كذلك الهجوم الأسبانى على شواطئ المغرب الأوسط، ولو نظرنا إلى الدولة الزيانية فى

أواخر عهد أبو حمو الثانى (٧٦٠هـ/٧٩١هـ) نجد أن المشاكل التى كانت تنشب بسبب التنافس والتهالك على السلطة. دفعت أبا تاشفين الثانى إلى أن يستعين ببنى مرين ضد أبيه وتفشت ظاهرة قتل السلاطين.

وكان ظهور الأسبان وما يدور فى نفوسهم من حقد وكراهية للإسلام والمسلمين واتفاقهم على أن يكون المغرب الأقصى من نصيب البرتغال والمغرب الأوسط من نصيب الأسبان، وكان العدوان على المغرب من عمل أسبانيا والبرتغال التى قادت حركة الحروب الصليبية ضد المغرب؛ لأن المغرب كان دائما يشكل الخطوط الخلفية التى تحمى ظهور المسلمين فى الأندلس، وإذا كان المرابطون والموحدون قد استطاعوا أن يقدموا مساعدات فعالة للإمارات الإسلامية فى الأندلس .. فإن خلفاء الموحدين من بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين لم يتمكنوا من إيقاف الخطر المسيحى على حساب الدويلات الإسلامية فى الأندلس.

ولقد شهد القرن الثالث عشر الميلادى توازن القوى من الدويلات المغربية الثلاث وبين الدويلات المسيحية فى الأندلس، لكن النصف الأول من القرن الرابع عشر شهد تحول القوى لصالح أسبانيا والبرتغال لأنهما اتجها نحو الاتحاد؛ بينما تغلبت عوامل التفكك فى المغرب فهو لم يعد مقسما بين الدول الثلاث (بنى حفص، وبنى زيان، وبنى مرين)؛ بل ان جميع هذه الدول أصبحت فى القرن الخامس عشر ومع نهاية الرابع عشر منقسمة على نفسها فالحفصيون منقسمون إلى دولتين أحدهما فى تونس والأخرى فى بجاية، وفى المغرب الأوسط يستقل كل ميناء بحكومته الخاصة حتى شبهت هذه الموانئ بجمهوريات إيطاليا البحرية، وفى المغرب الأقصى قامت ثلاث حكومات فى نفس الوقت أحدهما فى فاس والأخرى فى مراكش والثالثة فى سبجاسة.

وبعد أن تحققت الوحدة الأسبانية، تم القضاء على غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس عام ١٤٩٢م، ويقابل هذه الوحدة استمرار التفكك في المغرب فكان ذلك أول عامل مهد الطريق لتحول أسبانيا من حرب الاسترداد إلى مرحلة الهجوم على أراضي المغرب ذاتها وظهور البرتغال كقوة بحرية كبيرة في القرن الخامس عشر، مما جعل البرتغال تتجه نحو التوسع الخارجى وتشاركها في ذلك أسبانيا. وكان تفكك المغرب السياسى أشد ما يغرى أسبانيا على ذلك؛ فقد كانت هذه الفوضى التى سادت المغرب تغرى رجال الدين المسيحيين على دفع الملوك؛ لتنظيم الحملات على شواطئ المغرب كما أن الجنود كانوا يتحرفون شوقاً إلى السلب والنهب.

وشهدت سواحل المغرب غارات مسيحية متعددة منذ القرن الثالث عشر، لكن الاحتلال الفعلى للمغرب الأوسط شهد قوة المد الصليبي في القرن السادس عشر فنجد أن النفوذ الأسباني انتشر في المنطقة المراكشية عام ١٥١٨م؛ ثم جاء بعدها دور وهران فسلمت بعد مذبحة قتل بها أكثر من أربعة آلاف شخص وأسر أكثر من ثمانية آلاف، وأخيراً سلمت بجاية في يناير ١٥١٠م بعد مقاومة جبارة وأعقب ذلك النفوذ الأسباني في طرابلس في يونيو من نفس العام كما استولوا على جريه عام ١٥١٨م، وأسروا فريقاً من الأهالى. وفي بضع سنين أصبحت أسبانيا سيده جميع النقاط الساحلية التى تستطيع أن تعتمد عليها لغزو الأقاليم الداخلية من المغرب الأوسط ولكنها لم تفعل بل اكتفت بالمناطق الساحلية، وقد ظل الأسبان على سواحل المغرب الأوسط في المدن التى احتلوها يعانون نوعاً من الحصار ما داموا لا يملكون اتصالاً بالمواطنين فى الداخل؛ فأصبحت حياة الجنوب مرهقة لهم فتعرضت مدن مثل وهران لخطر المجاعة من وقت لآخر وسوء الحالة الصحية.

ويتداخل العامل الاقتصادى مع التعصب الدينى فى دفع أسبانيا نحو هذه

السياسية التوسعية التى اتبعوها فى المغرب، وكان الأسبان مدفعين بهذه الروح منذ نهاية القرن الخامس عشر فى اعتداءاتهم على المغرب. لذا .. كانت فكرة تقسيم البلاد إلى منطقة نفوذ طبقاً لمعاهدة وقعت بين الطرفين فى عام ١٤٧٩م.

وكان للأسبان نصيب المنطقة الواقعة شرق حجر باديس، وهى نقطة تقع عند التقاء الساحل المراكشى بالساحل الجزائرى تقريباً.

وقبل نزول الأسبان إلى ساحل المغرب الأوسط عام ١٥١٠م، فقد استولى الأسبان عام ١٥٠٥م على شاطئ بلنسيا، وفى عام ١٥٠٨م استولوا على حجر باديس، وفى العام التالى سقطت وهران وبجاية، وفى ١٥١٠م دمرت طرابلس، وكان كل ذلك بدون مقاومة تذكر من قبل بنى زيان واضطرت موانئ أخرى فى المغرب مثل دلس والجزائر إلى دفع الجزية وأقام الأسبان أمام هذه الموانئ حصناً من الصخور، وكان على سلطنة تلمسان أن تواجه هذا الغزو لأن كثيراً من هذه الموانئ تتبعها ولكن الدولة الزيانية لم تكن من القوة؛ بحيث تستطيع رد الغزو الأوروبى عن المغرب.

بل على العكس من ذلك فقد تعرضت دولتهم فى هذه الفترة لتفكك جديد ونشوب ثورات داخلية احتجاجاً على الضرائب الجديدة التى اضطروا إلى فرضها لمواجهة الغزو الخارجى وانتهى الأمر بهم إلى عقد صلح مع الأسبان عام ١٥١٢م، اعترفوا فيه باستيلاء الأسبان على عدة موانئ فى غرب الجزائر.

وكان سقوط هذه الموانئ فى يد الملك الكاثوليكي فرناندو عام ١٥٠٦م/١٥٠٩م المرسى الكبير ووهران وغيره من هذه المدن خسارة جسيمة على سلطنة تلمسان حتى أن الشعب طرد السلطان أبا حمو وجاء شخص آخر من الأسر الزيانية هو أبو زيان، وهو عم أبو حمو وولده عبد الله بعد أن أطلق سراحه من السجن

ووضعه على العرش، ولكنه لم يتمتع بذلك كثيراً لأن العرش كان مطمح الأخوين الأتراك خير الدين وعروج بابروس. لكن عندما طرد الشعب أبا حمو .. فإنه ذهب إلى وهران فوراً، وكانت تخضع للحماية الأسبانية وسافر معها إلى أسبانيا لمقابلة ملك أسبانيا الامبراطور شارل وناشده أن ينجده ويساعده ضد سكان تلمسان وضد التركي خير الدين وأخيه عروج وأرسل الامبراطور مع أبا حمو جيشاً دخل بواسطته إلى مملكته وقتل الوالي مع حاشيته واسترد أبو حمو سلطته على تلمسان، وكان ظهور هذه القوى الجديدة الغزاة الأسبان والمغامرون العثمانيون؛ فقد كان على الأسرة الزيانية أن تختار حماية إحدى هاتين القوتين، وفي خلال التنافس على السلطة بين أفراد الأسرة استنجد بعضهم بالعثمانيين، والبعض الآخر بالأسبان، ووسط هذا الصراع انتفت الأسرة تماماً؛ لأنه بعد هذه الأحداث كافأ أبو حمو القوات الأسبانية ورغبة منه في الطمأنينة ظل وفياً لتعهداته التي قطعها على نفسه تجاه الامبراطور شارل الأول ملك أسبانيا الذي أمده بألفي رجل، وراح يرسل له كل عام الجزية المحددة، وهي مائة وعشرين ألف دينار من الذهب واثني عشر حصاناً عربياً من العتاق وستة من أناث الصقور، وقد تمسك بهذه المعاهدة مدة حياته وبعد موته آلت أمور السلطنة إلى أخيه عبد الله أبي محمد عبد الله الذي تولى عام ١٥١٨م، وظل يحكم حتى عام ١٥٤٠م، وأرسل خطاب وفاء وطاعة لخير الدين بربروس بعد أن استولى هذا على ميناء الجزائر في ٢٧ ماير ١٥٢٩م؛ فإنه رفض طاعة الامبراطور وتنفيذ بنود المعاهدة التي وقع عليها أخوه وذلك بسبب الثقة التي كانت له عند السلطان التركي سليمان بن سليم الأول سلطان الأتراك.

ولقد كان نمو القوة التركية في غرب حوض البحر المتوسط من الأسباب القوية التي جعلت القوى الأسبانية غير مستعدة لاحتلال المنطقة الداخلية في المغرب، ولذلك أثر الأسبان اتباع نظام أشبه بالحماية على سلطنة تلمسان الضعيفة واحتلال الموانئ

التي يمكن تموينها من أسبانيا عبر البحر.

وهكذا .. كان ظهور قوة البحارة الأتراك المغامرين الذين جاهدوا القوى الأسبانية سبباً في التفكير في عدم خوض حرب داخلية مع سلطنة تلمسان.

ولقد كان التطاحن على السلطة العامل القوي والوحيد الذي عجل بنهاية الأسرة الزيانية ذلك لأنه في الوقت الذي استولى فيه الأسبان على المرسى الكبير ووهران، وتدلّس، وشرشال، وبجاية، وعلى جميع مدن الساحل. كانت السلطة الزيانية في أشد فترات التطاحن والصراع على الحكم فلم يستطيع أبو حمو الثالث صد العدوان الأسباني وأوقع المغرب الأوسط في مشكلة كبرى إذ وقع نفسه في أحضان أسبانيا وأدى لها جزية سنوية. لذا .. كان اتجاه الشعب وخاصة العلماء ورجال الدين والقضاة وطلاب العلم والصناع والحرفيين إلى ضرورة الاستعانة بالقوى التركية الإسلامية لصد الزحف الصليبي الأسباني الذي يريد بديارهم الشر والكفر.

وأخذت الوفود تذهب إلى الأخوين التركيين، وهما عروج بن يعقوب التركي، وأخيه خير الدين اللذين كانا قد أسسا ولاية الجزائر العظيمة وربطوها بالدولة العثمانية، لذلك .. فإن الظاهرة الأساسية التي تميز تاريخ المغرب في هذه الفترة الصراع العثماني الأسباني في غرب البحر المتوسط. ولبي الأخوان على الفور طلب سكان المغرب الأوسط وأصبح ذلك الجزء من المغرب ساحة حرب بين الأتراك والأسبان. ودخل الأتراك المغرب الأوسط وأزاحوا أبا حمو عن الحكم لالتجائه إلى أعداء الإسلام، وفر أبو حمو إلى وهران وتولى أبو زيان أحمد عرش تلمسان، لكن كما سبق القول كان زبو حمو قد عاد بقوات من الأسبان ضربت حصاراً حول تلمسان فاضطر عروج إلى اختراق هذا الحصار فقتل عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م، وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان حمو الثالث وطلب خير الدين العون والمساندة من حكومة الأستانة فأرسل السلطان

سليم الأول ٩٢٤هـ/١٥١٨م ألفين من قوات الأنكشارية؛ بينما استعان الأمير أبو محمد عبد الله بالأتراك ونجد أبا عبد الله محمد بن السلطان محمد بن عبد الله ينحاز للأسبان محتمياً بهم ضد الأتراك.

ويبدو أن الصراع بين الأتراك والأسبان قد طال، ومن ثم استنجد أبناء المغرب الأوسط بالأشراف السعديين في المغرب الأقصى واستطاع السعديون الزحف صوب المغرب الأوسط والاستيلاء على تلمسان ٩٥٧هـ/١٥٥١م.

وهنا يتضح مدى ما وصلت إليه الدولة الزيانية من ضعف وتحرك الأتراك لطرد السعديين من الجزائر ودارت بين الطرفين معركة انهزم فيها السعديون وعادوا إلى المغرب الأقصى. ودخل الأتراك تلمسان بقيادة حسن بن خير الدين، وعزل أبا زيان وولى مكانه الحسن بن عبد الله عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م، ولم تكن للسلطان حسن سلطة تذكر، وإنما كانت السلطة الفعلية للأتراك، وفي عام ٩٦٢هـ/١٥٥٤م خلع الأتراك وضمت تلمسان منذ ذلك الحين إلى حكومة الجزائر وانقرضت أسرة بنى زيان على يد آخر سلاطينها السلطان الحسن بن عبد الله.

ومن هنا .. فإننا نرى كيف أن الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة المالكة كان السبب المباشر للتدخل التركي الأسباني، وكيف أن الصراع بين الأتراك العثمانيين والأسبان على مصير المغرب قد عجل بنهاية الأسرة الزيانية، التي قيل أن الوالى التركي صلاح ريس، وليس حسن بن خير الدين هو الذى دخل مدينة تلمسان وجعلها جزءاً من آيالة الجزائر عام ٩٦٢هـ/١٥٥٥م، وأصبحت تلمسان وإقليمها جزءاً من المغرب الأوسط العثماني.

وهكذا .. طويت صفحة من صفحات التاريخ في المغرب الأوسط استغرق تاريخها

ثلاثمائة وأربعة وعشرين عاماً هجرياً، وثلاثمائة وخمسة عشر عاماً ميلادياً تحت سيطرة الأسرة الزيانية التي عملت على استقلال المغرب الأوسط وسط الصراعات الإقليمية في المغرب بين المغرب الأدنى والمغرب الأقصى ومحاولة إيجاد توازن بين هذه القوى التي كانت تطمح في السيطرة على كيان الأسرة الزيانية، وكيف أن هذه الأسرة لم تكن تقف مكتوفة الأيدي أمام تحدى القوتين ففى بعض حقبتها التاريخية احتلت قوات بنى زيان تونس عاصمة الدولة الحفصية، وفى بعضها الآخر سيطرت قواتها على فاس عاصمة الدولة المرينية. وبهذا .. تكون قد وضعت نهاية الدولة تحت السيطرة التركية التي صانتها من رجس التدخل الأسباني الذى ربما لو خضعت له البلاد فى تلك الفترة من القرن السادس عشر الميلادى لتغير وجه المغرب الأوسط عما هو عليه الحال حالياً.

* * * *

الأسرة الزيانية التي حكمت المغرب الأوسط

- ١ - أبو يحيى يعمراسن بن زيان (٦٣٣هـ-١٢٣٥م)
 - ٢ - أبو سعيد عثمان بن يعمراسن (٦٨١هـ-١٢٨٢م)
 - ٣ - أبو زيان محمد الأول (٧٠٣هـ-١٣٠٣م)
 - ٤ - أبو حمو موسى الأول بن عثمان (٧٠٧هـ-١٣٠٧م)
 - ٥ - أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (٧١٨هـ-١٣١٨م)
 - ٦ - أبو سعيد عثمان الثاني بن عبد الرحمن (٧٤٩هـ-١٣٤٨م)
 - ٧ - أبو حمو موسى الثاني بن يوسف (٧٦٠هـ-١٣٥٨م)
- خضعت سلطنة بني زيان أثناء فترة حكم أبي سعيد عثمان في أيدي بني مرين طوال الحكم - اثني عشر عاما - (٧٣٧هـ-٧٤٩هـ)، وأثناء حكم أبي حمو موسى - سبع سنوات - (٧٥٣هـ-٧٦٠هـ).
- ٨ - أبو تاشفين عبد الرحمن الثاني (٧٩١هـ-١٣٨٨م)
 - ٩ - أبو ثابت يوسف الأول بن عبد الرحمن (٧٩٥هـ-١٣٩٢م)
 - ١٠ - أبو الحجاج يوسف بن موسى (٧٩٥هـ-١٣٩٢م)
 - ١١ - أبو زيان محمد عثمان بن موسى (٧٩٦هـ-١٣٩٣م)
 - ١٢ - أبو محمد عبد الله الأول بن موسى (٨٠١هـ-١٣٩٨م)
 - ١٣ - أبو عبد الله محمد الثالث (الواثق بالله) (٨٠٤هـ-١٤٠١م)
 - ١٤ - عبد الرحمن الثالث بن محمد الثالث (٨١٣هـ-١٤١٠م)

- ١٥ - السعيد بن أبي أحمد موسى الثاني (٨١٤هـ-١٤١٧م)
- ١٦ - أبو مالك عبد الواحد (٨١٤هـ-١٤١١م)
- ١٧ - أبو عبد الله محمد الرابع بن أبي تاشفين الثاني الملقب بابن الحمرة (٨٢٧هـ-١٤٢٣م)
- ١٨ - أبو مالك عبد الواحد (تولى الحكم للمرة الثانية) (٨٣١هـ-١٤٢٧م)
- ١٩ - أبو عبد الله محمد الرابع (ابن الحمرة) للمرة الثانية (٨٣٣هـ-١٤٢٩م)
- ٢٠ - أبو العباس أحمد - العاقل بن أبي حمو الثاني (٨٣٤هـ-١٤٣٠م)
- ٢١ - أبو ثابت محمد الخامس المتوكل على الله (٨٦٦هـ-١٤٦١م)
- ٢٢ - تاشفين بن محمد الخامس (٨٩٠هـ-١٤٨٥م)
- ٢٣ - أبو ثابت محمد السادس (٨٩٠هـ-١٤٨٥م)
- ٢٤ - أبو عبد الله محمد السابع (٩٠٢هـ-١٤٩٦م)
- ٢٥ - أبو زيان أحمد الثاني المسعود (٩٠٩هـ-١٥٠٣م)
- ٢٦ - أبو حمو موسى الثالث (٩٠٩هـ-١٥٠٣م)
- ٢٧ - أبو زيان أحمد الثاني عودة للحكم مرة ثانية (٩٢٣هـ-١٥١٧م)
- (سقوط مصر تحت الحكم التركي)
- ٢٨ - أبو حمو موسى الثالث تولى الحكم للمرة الثانية (٩٢٤هـ-١٥١٨م)

٢٩ - أبو محمد عبد الله الثاني بن المتوكل

(٩٢٤هـ-١٥١٨م)

٣٠ - أبو سرحان مسعود

(٩٢٥هـ-١٥١٩م)

٣١ - أبو محمد عبد الله الثاني (للمرة الثانية)

(٩٣٠هـ-١٥٢٣م)

٣٢ - أبو عبد الله محمد الثامن

(٩٤٩هـ-١٥٤٢م)

٣٣ - أبو زيان أحمد الثالث

(٩٤٩هـ-١٥٤٢م)

٣٤ - أبو عبد الله محمد الثامن (عاد للحكم مرة ثانية)

(٩٥٠هـ-١٥٤٣م)

٣٥ - أبو زيان أحمد الثالث (عاد للحكم مرة ثانية)

(٩٥٠هـ-١٥٤٣م)

٣٦ - الحسن بن عبد الله الثاني

(٩٥٧هـ-١٥٥٠م)

وكان السلطان ابن عبد الله آخر سلاطين أسرة بني زيان كما سبق القول؛ فهو الذى شهد عهده انضمام حكومة تلمسان إلى حكومة الجزائر التركية وسقوط دولة بني زيان نهائياً من على مسرح الأحداث فى المغرب عام ٩٦٢هـ/١٥٥٤م، وصارت ولاية تركية تخضع لحكم الأستانة.

* * * *

الباب الثالث

بني زيان على مسرح الأحداث فى المغرب الأقصى

قبيلة بني مرين من القبائل الزنانية التى لم تشأ الخضوع لنفوذ الموحدين على عكس أبناء عموماتهم بني زيان، ولهذا أثروا الهجرة إلى الصحراء جنوباً على الدخول فى طاعة الموحدين وحياة الصحراء تلائمهم لأنهم من البدو الرحل. وكانوا يرحلون فى فصل الربيع إلى شمال المغرب الأقصى لرعى ابلهم ومواشيهم فيقضون شهوراً من السنة نازلين بين فكيك وملوية حتى إذا اقترب فصل الشتاء رجعوا إلى بلادهم فى الزاب أفريقية إلى سبلماسة.

وكان موطنهم الأصلي فى المغرب الأوسط ثم دفعتهم قبائل بنو هلال العربية غرباً، ولم يرغبوا أن يدخلوا فى طاعة الموحدين على عكس بني عموماتهم بني وطاس الذين دخلوا فى طاعة الموحدين وساهموا فى بناء الدولة، لكن بني مرين منذ البداية كانت أحاسيسهم نحو الاستقلال، فانحدروا مع نهر ملوية إلى الجنوب حتى منابعه عند وادى نهر زيزا أحد منابع المولودية شمال تاقللت وسبلماسة، وهناك عاشوا مستقلين وإن كانوا مخالفين للموحدين. وقد اشتركت منهم قوة كبيرة فى معركة الأراك التى انتصر فيها الموحدون على الفونسو الثامن ملك قشتالة، وفى تلك المعركة أصيب شيخهم محبو بن حمامة بجراح خطيرة مات فيها وخلفه فى رئاسة القبيلة ابنه عبد الحق الذى سيقع عليه عبء بناء دولة بني مرين فى المغرب الأقصى والذى استطاع باتفاقه مع الموحدين أن يدخل برجال قبيلته بلاد المغرب الأوسط ويمتد حتى آخر سيف على نهر المولودية.

ولم يجد بنو مرين بداً من الانسحاب جنوباً حتى أصبحت ديارهم في النصف الثاني للقرن السادس بين قبيلة زاب أفريقية وسجلماسة وكانت قبائل مرين بدوية كثيرة النقلة طلباً لمواطن الكلا ومساقط المياه فيرتحلون شمالاً وربما يصابون إلى أجر سيف وما أن ضعفت دولة الموحدين بعد معركة العقاب في الأندلس حتى وجدوا الفرصة السانحة فتدفقوا إلى سهول البلاد الغربية باسطين سلطانهم على بوديها بالقوة طوراً وبالمهادنة أحياناً أخرى.

وهم قبيلة قوية من قبيلة زنانة البترية، ولم تكن قبيلة مرين قبيلة عادية من قبائل زنانة؛ بل كانت تمثل قسماً قوياً له عراقة وسطوة ونفوذ وقوة باسم القبائل الزنانية، بل كانوا أعلاها حسباً وأشرفها نسباً. ورغم هذا الأصل الزناني البربري .. فإن المرينين يرفعون نسبهم إلى مضر؛ حيث يجتمعون بنسب الرسول ﷺ، والبعض ينسبهم إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

ولم يكن لهذه القبيلة مكان محدد تستقر فيه؛ حيث كانت قبيلة بدوية أخذوا يشنون الغارات على حدود المغرب الجنوبية، ولم تزد أهدافهم عن كونها غارات بدوية تقصد السلب في المناطق الحضرية، ولم تكثر الدولة الموحدية لهذه الغارات، ذلك لأنه لم يكن لهم مكان استقرار معلوم ودائم؛ بل تعددت أماكن استقرارهم فقد يستقروا في بلاد القبيلة من إقليم الزاب الأفريقي، وذلك قبل دخولهم إلى بلاد المغرب الأقصى في المنطقة الممتدة من جنوب مدينة القيروان إلى صحراء بلاد السودان، وكانت طبيعتهم البدوية تجعلهم ينتقلون من مكان إلى آخر، وهذه طبيعة القبائل البدوية التي ما تكاد تستقر في مكان حتى ترحل إلى مكان آخر، وبهذا لم يكن لهم مكان معلوم ومحدد للسكنى والإقامة. لكن من الممكن القول أنهم كانوا يتحركون في نطاق المنطقة الممتدة من بلاد الجريد شرقاً إلى المغرب الأقصى غرباً؛ حيث أنه يكاد

يكون معلوماً لدى الدارسين لتاريخ هذه القبيلة، وتحركاتها قبل أن تصبح دولة ذات كيان سياسي أنها بسطت نفوذها وسيطرتها الفعلية على المنطقة الممتدة من بلاد الزاب إلى تاهرت وبالتحديد ما بين تلمسان وتاهرت وأنها كانت قبل دفعها غرباً تسيطر على منطقة تلمسان وهي بؤرة التجمع القبلي لبنى مرين، والذين تحركوا منه شرقاً وغرباً.

وعلى هذا .. فإن المكان الأول الذي كانت تستقر فيه قبائل بنى مرين هو المغرب الأوسط وليس المغرب الأقصى الذي أقاموا فيه دولتهم فيما بعد ذلك لأن المنطقة الأولى التي انتشروا فيها كانت إلى الشرق من تلمسان في اتجاه مدينة تاهرت ثم تقدموا في الاتجاه الجنوبي الغربي؛ حيث أماكن المعيشة أكثر وفرة في بلاد الزاب والجريد، ثم كانت الاندفاع الأخيرة نحو بلاد المغرب الأقصى، ومن ثم .. أصبحوا يقفون على أعتاب المغرب الأقصى الشرقية.

ولقد كانت بنو مرين في فترة إقامتها في المغرب الأوسط من القبائل النشطة ذات الفعالية في الأحداث التاريخية، ومن هنا اضطرت دولة المرابطين في فترة بسط نفوذها على المغرب إلى احتوائهم ومهادنتهم وتقديم الهدايا لهم. ولما كان جدهم الأكبر مرين بن ماخوج الزناني قد نشأ في بيت الزعامة للقبيلة؛ فقد كانت شخصيته من القوة والصلابة؛ بحيث تؤهله للقيادة والنخب ولدين، هما حماسة وعسكر، وفي عهد محبوب بن حماسة بن مرين شارك بنو مرين في أحداث المغرب مما دفع المنصور الموحدى أن يسند قيادة القبائل المتطوعة من زنانة ومرين إلى محبوب بن أبي بكر بن حماسة. وبذلك ساعد بنو مرين الموحدين في تأسيس دولتهم وعملوا على تدعيم كيانها السياسي وتوطيد أقدامها من بلاد المغرب؛ بل أنهم لم يكتفوا بذلك داخل المغرب؛ بل شاركوا في حركة الجهاد في الميدان الأندلسي.

ويعتبر أبو محمد عبد الحق بن محبوب بن بكر بن حماسة بن زيان بن محمد بن

محمد بن علي بن تاشفين بن يحيى بن علي بن ابراهيم بن اسماعيل بن عمر بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ابن خلدون) مؤسس هذه الدولة.

وقد تقلد أبو محمد عبد الحق بن مجبو زعامة قبيلة بنى مرين بعد وفاة والده ويعتبر عبد الحق أول من قاد قبائل بنى مرين إلى داخل بلاد المغرب الأقصى.

وأن عبد الحق مؤسس الدولة المرينية حاول الانتساب إلى الأصل العربى والنسب القرشى النبوى وأظهر ذلك صراحة عن طريق كتابهم وشعرائهم وعقد أواصر القرى والمصاهرة مع زعماء القبائل العربية المستوطنة بالمغرب وإن كان ذلك لا ينفي بأى حال من الأحوال أصلهم المغربى من بربر زناتة، ولعل هذه السياسة العربية التى انتهجتها هذه الدولة المرينية كان وازعاً ضرورياً لاكتساب الشرعية القانونية فى مواجهة اعتدائها من الموحدىن واحتواء القبائل العربية واخضاعها بجوارهم من جهة أخرى إضافة إلى النسب القرشى فنجد أن مؤسس الأسرة المرينية عبد الحق بن مجبو يتزوج بشريفة عربية من بنى علي الحسنين الشرفاء اسمها «سوط النساء»، وأنجب منها الإوده عبد الله وادريس وعبد الرحمن، ومن ثم هذا حذوه معظم أمراء بنى عبد الحق فى الدولة المرينية؛ فقد تزوجوا من النساء العربيات واستخدموهم فى الحجابة والكتابة.

ولقد كان الفراغ السياسى والعسكرى وسوء أحوال الدولة الموحدية بعد هزيمة معركة العقاب التى وقعت بالأندلس يوم الإثنين ١٥ صفر ٦٠٩هـ، ١٧ يونيو ١٢١٢م، والتى هلك فيها ألوف من خيرة محاربى المسلمين وعشرات الألوف من أبناء البربر. ففى أعقاب هذه الهزيمة فاء يعقوب المرينى إلى دخول المغرب الأقصى وفكروا جدياً فى الاستقرار النهائى ذلك لأن اضطراب الأحوال فى الدولة الموحدية من أثر تلك الهزيمة القاسية فى واقعة العتاب، وما ترتب على ذلك من أحداث قاسية واضطراب الأمور، وما أصاب الحياة من خلل فى جميع النواحي الإدارية، والسياسية، والعسكرية

فى جميع الأحوال فى نواحي البلاد؛ حيث أنه لم تمض على هذه الواقعة خمسة شهور إلا ومات الخليفة الموحدى الرابع أبو محمد الناصر فى ١٠ شعبان ٦١٠هـ/ ٥ يناير ١٢١٣م. وبموته تعتبر نهاية الدولة الموحدية بهذه الكارثة العسكرية أصبح بنى عبد المؤمن من الموحدىن عاجزين عن حماية دولتهم. ومن ذلك فقد كان ذلك الميعاد والفوضى هو الوقت المناسب لبنى مرين لكى يدخلوا البلاد فى ظل الفوضى السياسية والضعف العسكرى ووفاة عاهل الموحدىن وأن يقيموا إقامة دائمة لأنهم كانوا قد دخلوا المغرب قبل هذه الأحداث؛ فإن الموحدىن لاشك فى أنهم كانوا سوف يطاردونهم ويقاومونهم ويقضون على وجودهم داخل نطاق الدولة الموحدية. وهكذا كانت أحداث الأندلس والشرخ السياسى فى البيت الموحدى ونتيجة الهزيمة القاسية من الأسباب القوية لدخول بنى مرين إلى المغرب الأقصى.

ولما كانت بنى مرين من القبائل الكثيرة العدد القوية الشكيمة العنيدة ذات الصلابة الحديدية نظراً لظروف المعيشة السابقة؛ فكان لابد لهم أن يستغلوا الظروف الحالية التى تعيش فيها الدولة الموحدية أحسن استغلال فكانت أنظارهم تتجه لبناء دولة كما أقام المرابطون والموحدون دولا لهم على أرض المغرب.

وبعد أن طاب لهم المقام والاستقرار فى المغرب الأقصى، وعدم تفكير الدولة المنهارة سياسياً وعسكرياً فى طردهم أو القدرة على مقاومة وجودهم فإن بنى مرين بدورهم أرسلوا إلى أشياخ القبائل من بنى مرين فأجمعوا أمرهم وشدوا رحالهم هابطين إلى بلاد المغرب الأقصى للانضمام لإخوانهم ولكى يشدوا أزر إخوانهم ويعملوا سوياً لإقامة الكيان المرينى المرتقب الذى كان يخالج فكر عبد الحق ولما كان دخولهم فى هذه الظروف يجعلهم على حذر وخوف من الدولة التى كانت قادرة فى أقصى ظروف الضعف أن تطردهم فقد عملوا على عدم التركيز فى مكان واحد حتى لا يكونوا تحت

بصر ورقابة الدولة؛ فكانت حركة انتشار واسعة شملت الريف من أقليم تازة وفضلوا الاستقرار في النواحي المرتفعة من المغرب الأقصى لأنها توفر الحماية لهم.

لكن ظروف إقامتهم جعلتهم يتصادمون مع القبائل العربية ومحاولة الحد من سطوة العرب بعد ما أصاب الموحيدين من ضعف واضطراب وعدم قدرة على تيسير الأمور وحكم البلاد بالقوة.

وكان أن نشب الصراع بين بنى مرين وبين عرب رياح وجشم حلفاء الدولة الموحدية التي بدأت عوامل التفكك والانحلال تدب في أوصالها إذ أنه عندما تمكن الأمير المريني من الاستيلاء على رباط تازا عام ٦١٣هـ / ١٢١٦م، وأخذ يغير غرباً على بلاد الهبط في شمال المغرب دفع الموحدون بأنصارهم من القبائل العربية، وهم عرب رياح التي كانت أشد قبائل المغرب قوة وأحدهم شوكة وعنفاً لحدائث عهدهم بالبداءة والقدرة على مقاومة النفوذ المريني الذي بدأ يظهر. ورحبت رياح بذلك دفاعاً عن بلادهم التي هي بلاد الهبط، والتي استقروا بها. ثم زحف عرب رياح وبربر بنى عسكر الذين هم أبناء عمومة بنى مرين إلى مقاتلة بنى مرين وتقابلوا «بوادي سيو» فانتصر العرب وتمكنوا من قتل الأمير عبد الحق وابنه الأكبر ادريس عام ٦١٤هـ / ١٢١٧م. وتولى قيادة القبائل المرينية الأمير عثمان بن عبد الحق.

ويعتبر عبد الحق المريني أول من نقل بنى مرين من عيشة البداوة إلى التفكير في بناء دولة في المغرب الأقصى وكان اشتراك بنى مرين في القوات التي يرسلها الموحدون للقتال في الأندلس والمغرب قد اكسبهم خبرة قتالية واطلعتهم على الازدهار والعمران في المدن، ومن هنا .. تآقت أنفسهم إلى تكوين دولة، وقد ظل بنو مرين طيلة ثلاث سنوات حتى موقعة وادي سيو يعملون على توسيع رقعة نفوذهم في المغرب الأقصى. وقد أدرك الموحدون أن هذا التوسع يهدد دولتهم ومن هنا .. عملوا على القضاء عليهم

فكانت معركة وادي سيو التي لم يتم الانتصار النهائي فيها لبنى مرين. ذلك لأنه أثر قتل عبد الحق وابنه ادريس فإن ابنه السعيد عثمان قرر عدم دفن والده وأخيه إلا بعد أخذ ثأرهما من عرب رياح وفعلاً تمكن من إيقاع الهزيمة بهم وشردهم في أماكن كثيرة، وغنم معسكرهم وأذعن عرب رياح للخضوع لبنى مرين وفرضوا عليهم اتاوة سنوية، بعد أن استطاع الأمير أبو سعيد عثمان بن عبد الحق أن ينهي الحرب الدائرة بينهم لصالح بنى مرين.

وازدادات قوة بنى مرين بعد هذا الانتصار مما مكن أبا سعيد عثمان بن عبد الحق أن يبذل جهوداً كبيرة لبسط نفوذ بنى مرين على أراضي جديدة بعد أن بدأ المرينيون حياتهم السياسية بصراع طويل وسريع ومدمر مع الموحيدين استمر ثمانية وخمسين عاماً، ذلك لأن خصوم الموحيدين قد دخلوا في دائرة نفوذ بنى مرين.

وكان انتصار بنى مرين على الموحيدين ذا دلالة سياسية أكثر منها دينية لأنه لم يكن لهم مذهب ديني يدعون له كالمرابطين والموحيدين، حقيقة أنهم ادعوا أنهم حماة الدين ولكن الفضل في انتصارهم في وادي سيو يعود إلى قوة جيشهم، إضافة إلى أنهم عملوا على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية، ومن هنا كسبوا محبة الناس لهم أكثر مما يعود إلى اعتقاد الناس بأحقيتهم في العرش، ولم يحصلوا على ائامة كيانهم السياسي نتيجة هذه المعركة؛ بل نتيجة خطوات طويلة ومعارك طاحنة أخذت وقتاً طويلاً.

* * * *

الفصل الأول

بداية ظهور الدولة

فى عام ٦١٦هـ/١٢١٩م بلغت الأحوال فى المغرب الأقصى درجة شديدة من سوء الإدارة وانتشار الأمراض وعم الغلاء جميع أوساط الشعب وعجز أمراء الموحدين عن ممارسة سلطاتهم السياسية والدينية وحدث تدمير شديد بين القبائل فى أنحاء المغرب مما دعا الأمير أبا سعيد عثمان بن عبد الحق المرنى زعيم قبائل بنى مرن والطامع فى انشاء كيان سياسى على نمط المرابطين والموحدين دعا كبار القوم فى قبيلته وأشياخ العشيرة من بنى حمام لكى يتدارس معهم الأوضاع الاقتصادية والسياسية وما آلت إليه الأمور فى البلاد، وبعد نقاش طويل أعلن المجتمعون خلع طاعة الموحدين خاصة وأن الموحدين فقدوا سيطرتهم تماماً على القبائل. ولم يعد لهم نفوذ إلا فى المدن الكبرى التى تخضع لحكم الولاة من قبلهم، ولقد كان من السهولة بسط نفوذ بنى مرن على القبائل فى ظل غياب قوة الدولة وضعف مندوبيهم وعدم قدرتهم على تحصيل الجباية والزكاة.

بل إن الأمير أبا سعيد عثمان اتخذ خطوة حاسمة فى سبيل إضعاف كيان الموحدين وبسط نفوذه على المدن توطئه لتوسيع دائرة الكيان المرنى والانطلاق به من السيطرة على القبائل إلى السيطرة على المدن الكبرى؛ فنجد أنه صالح أشياخ مدن قابس ومكناسة ورباط ووتازى وغيرها من المدن وتعهد لهم بأن يقف حائلاً دون غارات القبائل البدوية على هذه المدن فى نظير الاعتراف بنفوذه السياسى عليهم.

ولقد كان الموقف القوى الذى وقفه أبو سعيد عثمان بن عبد الحق من الخليفة

الموحدى الرشيدى بعد أن عمل الأخير على دفع بنى مرن خارج الأقاليم التى أوغلوا فيها حتى ممرتا شرق وادى سيبو والنصر الكبير الذى حققه ودخول بنى مرن السهول شمال مراكش ووادى سيبو دافعاً لأن يتحرك أبو سعيد لمحاولة وضع اللبنيات الأولى نحو بناء دولة؛ بل أنه لم ينته عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م. حتى كانت جميع قبائل المغرب قد خضعت لهم وتملكوا جميع بوادى المغرب من وادى ملوية التى رباط الفتح.

لكن إزاء هذا التوسع فى دائرة بنى مرن وخضوع القبائل والمدن الكبرى لهم فإن الخليفة الموحدى، وقد أحس بخطورة السعيد بن عثمان المرنى على كيان دولة الموحدين لم يجد أمامه وسيلة إلا الثأر والاغتيال فأرسل فى عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م من يقتل أبا سعيد عثمان غدرًا. وهكذا تولى بعده أخوه محمد بن عبد الحق بن حمام المرنى قيادة المرنين نحو تحقيق هدفهم الذى طال أمده أكثر من خمسين عاماً حتى استطاعوا إسقاط دولة الموحدين وبناء دولتهم، ومن هنا .. فقد كان يتحمل عبء الدفاع عن كيان بنى مرن وحمل راية الكفاح ضد الكيان الضعيف للموحدين أن يسير على نهج سلفه، ومن هنا منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها محمد بن عبد الحق نجد أنه سار على نهج أخيه أبى سعيد عثمان فقام بفتح الكثير من قلاع بلاد المغرب وأخذ يؤمن المكاسب التى حصل عليها بنو مرن من هدف القبيلة فى عبد الحق، وأخيه أبى سعيد عثمان وانطلق نحو هدف القبيلة فى بناء الدولة.

ودخل محمد عبد الحق مع بنى عسكر الذين هم فرع من بنى مرن فى معارك كثيرة ودارت معركة معهم انتصر فيها ابن عبد الحق على جيش بنى عسكر، لكن هذا الانتصار أفزع الخليفة الموحدى الرشيد الذى بادر بإرسال جيش من الموحدين (بربر مصمودة) والقبائل العربية والفرنجية والمرزقة وفرسان من الأسبان حتى بلغ الجيش الذى أرسله عشره ألف مقاتل لقتال بنى مرن، لكن بنى مرن انتصروا للمرة الثالثة على

قوات الموحدين وإزاء هذه الانتصارات لم يجد الخليفة الموحدي الرشيد من سبيل سوى المسالمة والمهادنة لبنى مرين وقد شهد عهد محمد الأول بن عبد الحق استعادة نفوذ بنى مرين في شمال المغرب واستطاع أن يتغلب على بنى زيان وأخرجهم من إقليم تلمسان؛ حيث قامت دولتهم وقد دامت فترة حكم محمد الأول بن عبد الحق خمس سنوات (٦٣٧هـ - ٦٤٢هـ)؛ حيث قتل في معركة مع قوات الخليفة الموحدي السعيد، وذلك أثر ازدياد قوة المرينيين واتساع دائرة نفوذهم فإن الخليفة الموحدي جهز جيشاً للانتقام منهم فما كان منه إلا أن جهز جيشاً من العرب والغز والروم والمصامدة والموحدين ورجال القبائل، والتقى الجيشان بالقرب من فاس وقتل الأمير المريني محمد الأول الشهير بأبي معروف عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م، ولحقت الهزيمة ببني مرين وتركوا فاس وارتدوا إلى البوادي والصحراء.

ولقد وضعت هذه المعركة حداً مؤقتاً لاندفاع بنى مرين للاستيلاء على المدن والتدخل في شئون الحضرة والاكتفاء بسيطرتهم على سكان البوادي والصحراء إلا أنهم رغم الهزيمة القاسية وقتل أميرهم إلا أن أشياخ القبيلة وعليه القوم بها بايعوا خليفته وأخاه أبا يحيى أبو بكر بن عبد الحق (٦٤٢-٦٥٦هـ / ١٢٤٤-١٢٥٨م).

ولقد كانت فترة أبي بكر من أهم الفترات التاريخية في حياة بنى مرين إذ وقع على كاهله مسئولية الحفاظ على كيان بنى مرين والإبقاء على قوة الدفع لبناء وتأسيس دولتهم وحمايتهم من المخاطر، ومن هنا .. كان عليهم الوقوف أمام الموحدين والكيد لهم انتقاماً لقتل العديد من رؤسائهم (عبد الحق وابنه ادريس، والسعيد عثمان ابن عبد الحق ومحمد الأول بن عبد الحق)، ولقد كان عهد أبي بكر عهداً شهد حسم الصراع مع الموحدين إذ أن ذلك الأمير قد جعل استقلال بنى مرين أمراً طبيعياً وواقعياً؛ حيث دخل في صراع طويل مع الموحدين تمكن فيه من التغلب عليهم ودخل قابس

ومكناس ووصل سلطانه إلى شاطئ البحر واحتل سلا والرباط وعلى يديه قامت دولة مرين وعاصمتها فاس.

لكن السعيد الموحدي تبعه بحشود من العرب، والتقى به بالقرب من تامسينا وانتهى الأمر بهزيمة بنى مرين وانسحابهم من أرض المعركة، لكن بنى مرين استغلوا فرصة مقتل السعيد الموحدي في صراعه مع بنى زيان وتمكنوا من استعادة رباط تازا ومكناسة وفتح فاس وضواحيها حتى أنه لم يبق بيد الموحدين غير بلاد الحوز الجنوبية.

وفي ظل هذه الانتصارات التي كان لابد من تأمينها والحفاظ عليها فاستعمل أبو بكر أسلوباً سياسياً بارعاً، وهو الاعتراف بالتسمية للخلافة الحفصية في تونس والتعاون معهم للتعاون في وقف خطر بنى زيان وادخال قوى جديدة في الصراع في المغرب الأقصى هي قوة بنى حفص واستخدامها في ضرب التعاون الزياني الموحدي، بعد أن ظل خلفاء الموحدين يحكمون ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م.

وفي حقيقة الأمر .. فإن الأمير أبا بكر بن عبد الحق يعتبر أول الكبار من أمراء بنى مرين وهو أول سلاطين بنى مرين وإن كان هو رابع شيوخهم الذين قامت على أكتافهم اللبنة الأولى لبناء الدولة وكان أبو بكر من الذكاء والحكمة والكياسة السياسية؛ حيث أنه وجد نفسه بين قوتين بنى زيان والموحدين فما كان منه إلا الاحتماء والالتجاء إلى بنى حفص في أفريقية وقام بنو حفص من جانبهم بمساعدة بنى مرين وتدمير تحالف (بنى زيان - الموحدين) والاستيلاء على تلمسان عاصمة بنى زيان عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٣م. ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبنى حفص.

وخلال فترة حكم أبي بكر عبد الحق التي امتدت أربعة عشر عاماً .. فإنه عمل

على توطيد دعائم حكمه داخلياً بعد أن آمن خطر بنى زيان خارجها فعمل على تأمين الجبهة الداخلية وتقسيم مناطق النفوذ المريني في المغرب الأقصى بين القبائل وأنزل كل قبيلة في مكان محدد لها ومسئولية كل قبيلة في حماية منطقتها ثم العمل على تقليص النفوذ الموحدى والاستيلاء على ما تبقى من المدن الكبرى. ووجد أبو بكر صفوف بنى مرين وحشد الخليفة الموحدى السعيد جيشاً كثيفاً يعاونه زعيم بنى زيان يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان بقوة تزيد على الألف فارس وحشد الموحدون جمع القبائل المعادية لنفوذ بنى مرين معهم فى القتال لكن ذلك التحالف لم يجعل أبا بكر يتخلى عن موقفه فى ضرورة الاستيلاء على مدن الموحدين والتمكين لبناء الدولة.

الأمير عبد الحق وخطوات الإعداد لإنشاء الدولة المرينية

٦٤٢هـ - ٦٥٦هـ / ١٢٤٤م - ١٢٥٨م

لم يمض عام واحد على تولية أبى بكر قيادة المسيرة المرينية نحو بناء دولة وكيان سياسى لهم حتى استطاع السيطرة على مدينة مكناس ذلك أنه فى عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م خضعت المدينة لبنى مرين وخلعت طاعة الموحدين وفتحت المدينة أبوابها لبنى مرين سلماً وأرسل أهل مكناسة ببيعتهم إلى الأمير الحفصى أبى زكريا نكاية الموحدين ومحاولة اصباغ الشرعية على ما يقوم به بنو مرين من الاستيلاء على أراضى الموحدين ومحاولة كسب التأييد الشعبى ببيعتهم لبنى حفص فى أفريقية وكان استيلاء بنى مرين على مكناسة ضربة قوية للخليفة الموحدى السعيد وها هو يشاهد دولة الموحدين تتمزق اربا أمام عينيه فالحفصيون سيطروا على أفريقية وبنو زيان يسيطرون على المغرب الأوسط ويسيطون نفوذهم على أبواب المغرب الأقصى وأقاموا هذه الأرجاء

الدعوة لبنى حفص وبنى هود واقتطعوا أجزاء من الأندلس وأقاموا الدعوة لبنى العباس وبنى الأحمر فى غرناطة وأقاموا الدعوة لبنى حفص وهؤلاء بنو مرين لا يمر عليهم يوم دون اقتطاع أجزاء من المغرب الأقصى فسيطروا على ضواحي المغرب الأقصى ثم فتحوا مكناسة أخيراً وأقاموا فيها الدعوة لبنى حفص حكام أفريقية.

لكن لم ينته عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، حتى كان الخليفة الموحدى السعيد قد قتل، ومن معه على أيدي بنى زيان وكان مقتل السعيد الموحدى فاتحة أمل لبنى مرين لأنه بعث جديد لهم وكان على أبى بكر بن عبد الحق أن يعترض فلول الموحدين المشحبة من المغرب الأوسط أثر مقتل سلطانها؛ حيث فروا إلى مراکش وتم له ذلك واستطاع أن يضم عدداً أكبر من جيش الموحدين إليه ثم يتجه نحو مكناسة للمرة الثانية وفتحها واتجه إلى رباط تازا وفتحها مسرعاً قبل أن يتجه إليه يغمراسن بن زيان لفتحها وضمه لأملاكه فى المغرب الأوسط.

لكن أهداف بنى مرين لم تتوقف عند فتح مكناسة وضمها إلى ديارهم ولكن كان الهدف هو السيطرة على كل أرجاء المغرب وأقصاء الموحدين من البلاد فكانت الخطوة الثانية مدينة فاس للعمل على انتزاعها بكل السبل والوسائل من أيدي الموحدين فحاصرها الأمير أبو بكر يحيى بن عبد الحق حصاراً شديداً وشدد عليها الحصار حتى خرج إليه أشياخها وتمت مبايعته خارج أسوارها ثم دخلها أبو بكر فى ربيع ثانى عام ٦٤٦هـ/١٢٤٩م، وبذلك خضعت فاس لسيطرة بنى مرين، وخلعت طاعة الموحدين وظل الأمير أبو بكر المرينى مقيماً بالمدينة أكثر من عام، لكن بعد مغادرته المدينة خلع أهلها البيعة والارتضاء ببيعة الخليفة الموحدى المرتقى، وعاد الأمير المرينى إلى المدينة لفتحها عنوة، لكن الأحداث لم تكن فى صالح أبى بكر وبنى مرين، ذلك أن يغمراسن بن زيان زعيم بنى عبد الواد فى المغرب لأوسط انتهاز فرصة ثورة

سكان فاس وخلعهم طاعة المرينين فأراد الاستيلاء على إقليم رباط نازى الذى كان يخضع فى الماضى لحكم بنى زيان أيام الموحدين وحكموه فترة طويلة، وفى نفس الوقت كان الخليفة المرتضى الموحدى قد راسل سراً حاكم المغرب الأوسط يغمراسن ابن زيان ليوقف فى وجه بنى مرين، لكن زعيم عشائر بنى مرين غير اتجاه الحملة العسكرية من طريقها إلى فاس إلى الاتجاه المضاد نحو رباط تازى بدلاً من فاس وليقابل يغمراسن الذى سيطر على وجده ودارت معركة شرسة عند مدينة (اسيلي) فر بعدها يغمراسن إلى تلمسان وكانت هذه المعركة أول لقاء مباشر بين قوات بنى مرين وقوات بنى زيان وبعد هذا الانتصار عاد الأمير أبو يحيى المرينى عام ٦٤٧هـ/١٢٥٠م إلى فاس وأحكم قبضته عليها وطلب أهلها الصلح فدخلها الأمير المرينى فى جمادى الآخرة عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وشدد على أهلها وتوطد النفوذ المرينى والسلطة المرينية فى هذه المدينة.

الخطط العسكرية :

ثم بعد ذلك كان على بنى مرين أن يسيروا فى نفس المنهج الذى اختطوه لأنفسهم بمتابعة فتح المدن والحصون والقلاع التى تخضع للموحدين وضرورة حصر الموحدين فى نطاق ضيق حول عاصمتهم مراكش فكان عليهم أن يوسعوا دائرة المدن تحت قبضتهم ففتحوا مدينة سلا ورباط الفتح وكانت خطة بنى مرين العسكرية فى ذلك الاستيلاء على هاتين المدينتين والهدف منها قطع الصلة بين الموحدين وبين شمال المغرب الأقصى وبذلك لا يكون لهم أدنى صلة بهذه النواحي والبقاء محاصرين فى منطقة جنوب المغرب الأقصى.

ولكن على الجانب الآخر لم يكن الخليفة المرتضى الموحدى غافلاً من خطط

المرينين وما يريدون القيام به فقرر أن يبدأ بالهجوم بهدف إيقاف زحفهم نحو سلا ورباط الفتح والنقى المرتضى الموحدى ومعه قواته من بنى مرين بالقرب من مكناسة واستطاع المرينيون هزيمة الموحدين بسهولة، وكان ذلك بخدعة وحلت بالموحدين هزيمة دون قتال وكان ذلك دليلاً على ما أصاب القوى الموحدية من انهيار وتحاول الوقوف أمام بنى مرين، وسيطروا على بلاد زناتة وسلا ورباط الفتح عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م.

وكان خضوع هاتين المدينتين (سلا ورباط الفتح) قد دفع موسى بنى زيان التوكاسى وأخاه على بن زيان بالالتجاء إلى المرتضى الموحدى محرضين إياه على قتال أبى يحيى بن عبد الحق وإزاء حشود المرتضى طلب بنو مرين السلام والصلح، ولم يقبل المرتضى ذلك بتأثير وزرائه الذين أفتوا بعدم جواز وجود ملكين فتقابل الجيشان فى (أمان ليملول) وانسحب بنو مرين من ميدان القتال وخاف الموحدون أن يكون الانسحاب خدعة فلم يتبعوهم.

وفى عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م حشد المرتضى جيشاً ضخماً بلغ تعداداه مائتى ألف مقاتل وسارية حتى وصل إلى قرب فاس وجبال بهلولة والتقى بالأمير المرينى أبى بكر يحيى وللمرة الثالثة يهزم الموحدين بدون قتال، وفر الخليفة إلى مراكش وترك قواته وعدته وعجلت قواته بالانسحاب تاركين خلفهم بعض آلاتهم ومضاربهم فضمها بنو مرين بدون قتال. وازدادت قوة بنى مرين بما غنموه فسارعوا بمهاجمة بلاد تادلا وقضوا على حاميتها من عرب جشم وقدمت له القبائل خضوعها ومنذ هذا الوقت صار اضمحلال دولة الموحدين وانهاؤها من مسرح الأحداث سريعاً واستعادتها بنو مرين.

وكانت هزيمة الموحدين فى موقعة جبل بهلولة ضربة قاضية للموحدين مما اضطر الأمير المرتضى إلى طلب الصلح مع المرينين وأرغموه على دفع الجزية واكتفى

بما لديه من من مناطق يحكمها تمتد إلى جنوب المغرب الأقصى لكن بنى مرين كانت لديهم آمالهم وطموحاتهم باقتلاع جذور الموحدين تمهيداً لإقامة دولتهم بالمغرب الأقصى دون أن تنازعهم في تلك الأماكن قوة أخرى وتمكن بنو مرين بفضل مساعدة ومخالفة عرب المعقل من الاستيلاء على درعه وسجلماصة جنوباً عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م.

وقد استغل بنو مرين الصلح مع المرتضى وتم الاستيلاء على سجلماصة ودرعه، وكان الاستيلاء على سجلماصة عن طريق انقلاب ضد حاكم المدينة وليس عن طريق القتال والحشد العسكري والحصار. وكان يعمراسن بن زيان حاكم تلمسان قد تحرك لأخذ سجلماصة؛ حيث راسله بعض أهلها ولكن يعمراسن فوجئ بوصول الأمير المريني أبي بكر يحيى بن عبد الحق ودارت بينهما معركة انسحب بعدها يعمراسن بعد أن تأكد من تمكن بنى مرين من سيطرتهم على المدينة.

وبعد أن سيطر بنو مرين على سجلماصة ودرعه ظل الأمير أبو بكر يعمل طوال العامين ٦٥٥هـ، ٦٥٦هـ على تثبيت أقدام بنى مرين فى سلا ورباط الفتح وسجلماصة حتى توفي فى جمادى الآخرة عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. وبوفاة الأمير أبي بكر بن عبد الحق انتهت مرحلة استيلاء بنى مرين على المدن الكبرى فى المغرب الأقصى وبدأت مرحلة جديدة لها أهميتها فى بناء قواعد الدولة الجديدة التى ستمارس دورها على مسرح الأحداث فى المغرب والأندلس وفى عالمها المعاصر.

بويغ عمر بن أبي بكر بن عبد الحق المريني بعد وفاة أبيه ليتولى أمر بنى مرين، لكن أشياخ بنى مرين وأهل الحل والعقد وقادة الفكر والدين لم يقبلوا تولية أمر الإمارة رغم رضا عامة الشعب وقادة الجيش ذلك لأن الخاصة من أهل الرأى كانوا يرون أن عمه يعقوب بن عبد الحق الذى كان خارج فاس فى مدينة تيارى عند وفاة أخيه هو

الأحق بقيادة مسيرة بنى مرين للقضاء نهائياً على دولة الموحدين، لكن الأمور لم تستقر وظلت طوال أربعة شهور ولم تتفق الأمة على عمر بن أبي بكر مما دفع الأمير يعقوب ابن عبد الحق للقدوم إلى فاس ساعياً لإنهاء الأوضاع المتردية بالمدينة وتهدة الأحوال بين بنى مرين وحسم الأمر الذى كان مقسماً بين عمر وعبد الحق وتنازل عن الحكم لابن أخيه عمر ليتولى العرش على أن تكون له بلاد نازى يحكمها إضافة إلى ملوية وبطوية، لكن شيوخ بنى مرين لم يقبلوا بالتنازل وأصروا على مبايعة يعقوب وأمام أمراء المشايخ والخاصة وأهل الرأى والقرار القوى من جانب مؤيديه فإنه قبل تكليفهم له فلما علم عمر بن أبي بكر بذلك خرج لقتال عمه عبد الحق لكنه انهزم وتنازل عن قيادة بنى مرين لعمه يعقوب وتولى عمر حكم إمارة مكناسة، فصار يعقوب بن عبد الحق أميراً منتخباً من قبل الخاصة، وأهل الحل والرأى، وهكذا .. وطد وضعه وشرعيته أمام الشعب.

بنى مرين تحت قيادة يعقوب بن عبد الحق

٦٥٧ - ٦٨٥هـ / ١٢٥٩ - ١٢٨٦م

بوفاة الأمير أبي بكر عبد الحق كان نفوذ الموحدين ينحصر فى المنطقة الواقعة بين وادى أم الربيع وبين عاصمتهم مراكش وأما بنو مرين فقد امتد سلطانهم ما بين ملوية وأم الربيع وسجلماصة وكانت القبائل العربية فى المغرب الأقصى تميل أحياناً إلى الموحدين وأخرى إلى بنى مرين وجدير بالذكر أن قيام دولة بنى مرين لم تعتمد على سواعد ومساندة العرب؛ بينما كان الموحدون يعتمدون كثيراً على القبائل العربية.

وكان الأمير يعقوب سيد بنى مرين من الشخصيات القوية، وكان له باع طويل

في الحركة السياسية والبناء السياسي في بلاد المغرب والأندلس وأنه ما كادت أوضاع بني مرين تستقر في بلاد المغرب حتى عمل على حفظ السلام وخدمة أهداف بني مرين والوقوف بحزم وقوة ضد محاولات طرد المسلمين من الأندلس، وقد تعرض بنو مرين إلى عدة هجمات من جانب بني زيان.

وكان يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان يرى في الصراع الدائر بين عمر بن أبي بكر وعمه يعقوب بن عبد الحق فرصة مناسبة للقضاء على يعقوب وتحقيق أهدافه في التوسع غرباً في المغرب الأقصى وأن تقسيم المغرب بين فاس (عبد الحق بن يعقوب) ومكناسة (عمر بن أبي بكر بن عبد الحق)، قد تمزق، وأن هناك عداء مستحكما بين عمر بن أبي بكر حاكم مكناسة وعمه يعقوب في فاس، وأن هذه الفرصة تمكنه من القضاء عليهم فجمع يغمراسن بن زيان جيشاً كبيراً، وضم إليه القبائل من بني توجين ومغراوة البربرية وبني عامر حلفائه من القبائل العربية ووصلت أنباء هذه الحشود إلى الأمير يعقوب بن عبد الحق فخرج بجيشه من بني مرين والتي بيغمراسن عند بلدة، كلديان، وانهزم بنو زيان وانسحب يغمراسن بن زيان.

وكانت الجبهة الداخلية قد أصابها التصدع أثر الصراع بين عمر بن أبي بكر وعمه يعقوب؛ فعمل الأخير على تأمينها لكي يستطيع أن يواجه الموحدين وكان قد تم قتل منافسه عمر بن أبي بكر عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م. وبمقتل الأمير عمر بن أبي بكر عادت مكناسة إلى حكم يعقوب وجددت له البيعة وبذلك توحدت الأراضي المرينية تحت حكم يعقوب. واستطاع يعقوب بعد ذلك أن ينزع مدينة سلا من حكم أحد أفراد بني عبد الحق الذي استعان بالأسبان فتم طردهم منها عنوة، وهكذا.. خضعت سلا ليعقوب بن عبد الحق، وبعد أن أتم الأمير يعقوب بن عبد الحق تنظيم شؤون سلا وأصلح ما تخرب فيها وأمر بإعادة الحياة إلى مرافقها عين أحد رجاله عليها.

وبعد ذلك زحف بنو مرين بقيادة يعقوب بن عبد الحق إلى تامسينا شمالاً فواجهتهم القوات الموحدية فانسحبوا إلى وادي أم الربيع بعد أن اتفقوا مع عرب بني جابر من جشم بالتخلي عن الموحدين عند نشوب المعركة ووقع الموحدون في الفخ وانهزموا وانضم شيخ عرب الخلط إلى السلطان يعقوب المريني الذي استولى على مدينة تامسنا وكذلك مدينة آنفا وهي المسماة حالياً بالدار البيضاء ثم استمر في زحفه جنوباً حتى انتهى إلى جبل النجليرا بالغرب من مدينة مراكش عام ٦٦٥هـ/١٢١٢م، وهكذا سيطر بنو مرين على معظم بلاد المغرب وبذلك وصل النفوذ الفعلي لبني مرين حتى وادي أم الربيع، ومن هنا.. فقد قربت نهاية الخليفة المرتضى بالله الموحدى ودب الذعر في صفوف الموحدين وارتاب المرتضى في أنصاره من العرب واعتقل بعض زعمائهم وقتل جملة منهم ثم عهد لابن عمه أبي ديوس بقيادة الجيش الموحدى واستطاع أبو ديوس أن يوقف زحف السلطان يعقوب المريني ويقتل بعض كبار قواده.

لكن صلحاً تم بين الخليفة المرتضى والسلطان يعقوب اعترف فيه خليفة الموحدين بالوجود المريني وما وصل إليه من سيطرة على المدن والأراضي التي تحت يديه. وبعد معاهدة الصلح هذه مع الموحدين اتجه السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى الشرق؛ حيث دولة بني زيان في تلمسان فعقد صلحاً مع يغمراسن بن زيان والتقى الطرفان عند مكان يسمى (جوهريان) وأسفر هذا اللقاء عن صلح آخر مع بني زيان قصد معه المحافظة على السلم بين الطرفين ووضع نهاية للصراع العسكى بينهما.

والذى يدرس تاريخ تلك الفترة، وما تم فيها من معاهدات للصلح بين الأطراف الثلاثة يدرك أن الكيان السياسى لبني مرين قد توطد واعترفت به القوى الأخرى وأن ما تم هو توزيع لمناطق النفوذ بين القوى الثلاث المتصارعة في المغرب الأوسط والأقصى (بني زيان، الموحدين، بني مرين).

لكن الصلح مع الموحيدين لم يدم فترة طويلة ذلك لأن المرتضى الموحدى كان يشعر بالخطر المرينى المحيط به ويدرك نوايا أبي يعقوب بن عبد الحق فى القضاء على دولته وأن نوايا بنى مرين لم تكن إلا تحقيق أهدافهم، ومن هنا .. فلا بد من جولة جديدة من القتال مع بنى مرين ولم يأت عام ٦٥١هـ/١٢٦٠م إلا وكانت قوات الطرفين تلتقى للقتال مرة أخرى عند مضيق أم الربيع وكعادة الموحيدين كان اعتمادهم على العرب فشملت هذه الجولة جميع القبائل العربية فى المغرب الأقصى والتي منها قبيلة شعبان والخلط والاثبج وبنى جابر والعاصم وقوات من الروم والموحيدين وكان ميدان المعركة فى مكان تنحسر عنه مياه الوادى ودارت الدائرة على الموحيدين ولحقت بهم الهزيمة بسبب انسحاب عرب بنى جابر. وتركت هذه الهزيمة آثارها النفسية على سكان العاصمة مراكش وخشى القوم زحف قوات بنى مرين إليها؛ حيث تركت العاصمة دون حماية عسكرية، ودون دفاعات قوية، ولم تمض إلا أيام قليلة حتى كان السلطان أبو يعقوب بن عبد الحق بعد قواته وسار بها نحو العاصمة مراكش وكانت قوات الموحيدين بقيادة أبي العلاء ادريس بن عم الخليفة المرتضى والمشهور بأبى ديوس الذى كان قد أبلى بلاء حسنا فى المعركة.

غير أن الهدف الهناتى لبنى مرين كان اسقاط خلافة الموحيدين والسيطرة على دار الخلافة فى مراكش، ومن ثم .. فإن جهودهم لم تتوقف ففى عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م تقدم أبو يعقوب بن عبد الحق وخلفه جيش جرار نحو العاصمة بهدف الاستيلاء عليها، وهناك بايعته القبائل التى تقطن بالمناطق المحيطة بالعاصمة من عرب ومصامدة واكتفى أوى يعقوب بإظهار قواته وإرهاب الخليفة، ومن ثم .. عاد أدراجه مرة ثانية إلى فاس غير أن مثيرى الفتن سعوا عند الخليفة المرتضى وأوهموه بأن أبا ديوس بن عمه يطلب الأمر لنفسه وشعر أبو ديوس بهذه الوشاية، وخشى من بطش

الخليفة المرتضى فقرر إلى فاس وأن الخليفة المرتضى أدرك عن رجاله بأنه مراسلات سرية متداولة بين بنى مرين وأبى ديوس وأن أبا ديوس عقد مفاوضات بينه وبين ابن أبى يعقوب عام ٦٦١هـ/١٢٧٣م، وطلب منه أن يعينه بقوة من عنده تعينه على دخول العاصمة مراكش على أن يشركه بعد ذلك فى الفتح والغنيمة فاستجاب السلطان يعقوب إلى طلبه وأمدّه بخمسة آلاف من بنى مرين وأهاب بالقبائل والعرب من أهل مملكته أن يكونوا معه يداً واحدة وسار أبو ديوس بهذه الكتائب ومعه زعماء القبائل العربية وافتتح أبواب العاصمة واستقل بالحكم فيها عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، وتلقب بالوائى بالله؛ بينما فر المرتضى إلى مدينة أزموور واستتب الأمر لأبى ديوس وأصبح خليفة الموحيدين ووصلت أنباء استيلاء أبى ديوس على السلطة فى مراكش فأرسل أبو يعقوب إليه طالباً الدخول فى طاعته لكن رفض طلبه فقرر أبو يعقوب يوسف الهجوم على مراكش وحشد قوات ضخمة وأطلق جيشه المرينى فى جهات مراكش، لكن أبى ديوس لما رأى أنه لا قبل له بتلك القوات أرسل إليه، بالوفاء بما عاهده عليه، لكن القبائل العربية بايعته وأيضاً يغمراسن بن زيان وشعر أبو ديوس أنه يستطيع مواجهة بنى مرين، ومن ثم .. ذهب أبو يعقوب لحصار مراكش للمرة الثانية وضيق الحصار على الموحيدين، مما جعل أبا ديوس يستمد العون من بنى زيان وقامت قوات بنى زيان من توها بالهجوم على أطراف المغرب الأقصى وخاصة ملوية، فرفع أبو يوسف الحصار عن مراكش وسار للقاء بنى زيان وتقابل الطرفان فى وادى تلاغ ولحقت الهزيمة ببني زيان.

بعد أن آمن أبو يعقوب مكر بن زيان خرج فى شعبان ٦٦٦هـ/١٢٦٨م فى حشود كبيرة وعبر وادى أم الربيع ودمر كل عناصر الحياة الاقتصادية لإضعاف أبى ديوس واستمرت هذه العمليات حتى نهاية ٦٦٦هـ/١٢٦٨م.

معركة وادى غفو ومولد دولة بنى مرين

فى أواخر عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م استعد أبو دبوس للحرب ولقاء أبى يوسف وخرج من مراكش بعد أن استدرجته قوات بنى مرين وتظاهر أبو يوسف بالفرار حتى يتم إبعاده عن عاصمته، ومن ثم .. قطع الطريق عليه للعودة والاحتفاء بأسوار العاصمة ونزل أبو دبوس بوادى غفو، بعد أن كان الخليفة الجديد قد نقض العهد وتنكر لاتفاقه الأخير مع أبى يعقوب بن عبد الحق المرينى فتحرك الآخر لمحاصرة مراكش بهدف القضاء النهائى على نظام حكم الموحدين ومهد لذلك لغزو عرب الخلط من جشم ببلاد تادلا فأوقع بهم وانحاز على أحواز مراكش مما أغضب شيوخ العرب والمصامدة على أبى دبوس واتهموا بالخوف من مقاتلة بنى مرين رغم ما أنزلوه من دمار ببلادهم وما سلبوه من أموالهم فاضطر أبو دبوس إلى القتال وكان وادى غفو هو المكان الذى احتدم فيه القتال بين الطرفين وحاول أبو دبوس الفرار من المعركة إلى مراكش لكنه قتل، وكان ذلك فى يوم الأحد ٢ محرم ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، وتعتبر معركة وادى غفو نقطة تحول فى تاريخ دولة بنى مرين إذ كان ذلك إيذاناً بمولد دولة جديدة وإنهاء دولة الموحدين من مسرح الحياة السياسية فى بلاد المغرب والأندلس، وتقدم أبو يوسف إلى العاصمة مراكش فدخلها بعد سبعة أيام من المعركة، وكان ذلك فى التاسع من المحرم ٦٦٨هـ/١٢٦٦م، وأصبح دخول العاصمة إعلاناً رسمياً بقيام الدولة المرينية التى أصبحت تسيطر على سائر بلاد المغرب الأقصى من وادى ملوية وجبال الأطلس الوسطى شرقاً وحتى المحيط الأطلنطى غرباً، ومن رباط تازى وجبال غمارة شمالاً حتى مراكش ووادى تتسبقت جنوباً وغدت هذه الدولة تقوم بدورها فى خدمة الإسلام وبناء صرح الحضارة الإسلامية فى بلاد المغرب وتلقب أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بلقب أمير المؤمنين ورغم اتساع دولته ونجاحه فى القضاء على دولة الموحدين إلا أنه ومن جاء

بعده من بنى مرين لم يحملوا لقب الخلافة واكتفوا بلقب أمير المسلمين، ناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ملك البحرين، وملك العدوتين.

ويعتبر أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المحارب الولى الذى بنى صرح هذه الدولة.

وقام أبو يوسف يعقوب باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية من أجل تثبيت دعائم البناء الجديد وفرض سيطرتها وقوتها على كافة الأقاليم وقد نجح بنو مرين فى ذلك فى فترة سريعة لأن حركتهم كانت حركة سياسية بحتة لم تكن ذات طابع دينى أو فكر إسلامى تدعو له كما فعل المرابطون والموحدون من قبل فلم يتخذ بنو مرين وسيلة لإثارة المشاعر الجماهيرية، وإنما كان شعارهم هو إقامة دولة ذات حكم سياسى يراعى مصلحة البلاد ويحافظ عليها وشعور الأهالى بالأمن والأمان فى ظل حكم الدولة الجديدة، وفى ضوء هذا الشعار الذى رفعه بنو مرين سار أمير المؤمنين أبو يوسف بن يعقوب وبذل جهوداً لإخضاع بقية الأقاليم، والتى منها إقليم السوس ودرعه وفضلاً عن طنجة وسبتة التى كانت تقع خارج منطقة نفوذ الموحدين، وكان لابد من تأسيس الدولة ضد أية مخاطر خارجية وكان الخطر الزياني وزعيمه يغمراسن بن زيان يمثل حجر عثرة أمام انطلاق بناء الدولة الجديدة، والذى كان يسعى لبسط نفوذه الفعلى على إقليم سجلماسة، والذى كان تابعاً لبنى مرين.

وكان أبو يوسف يعقوب هو الذى نظم القبائل العربية ودفع بها إلى محاربة الأقاليم التى لازالت خارجة عن طاعته فنزلت قواتهم حتى واجه توات، وتأقلت، وضموا إليه أودية الملوية ودرعه وتوغلوا فى بلاد السوس الأعلى، وكان أبو يوسف يعقوب قد أرسل ابنه على رأس حملة كبيرة إلى بلاد السوس وتمكنت من إخضاع الأقاليم وقام هو بنفسه بغزو وادى درعه، ومن به من العرب، ونقل هؤلاء العرب إلى

مراكش ليكونوا تحت رقابة الدولة ثم قام عام ٦٦٦هـ/١٢٧١م بحملة إلى رباط الفتح وغادرها إلى سلا وهناك أصابه المرض وطلب ولاية العهد لابنه مالك بن عبد الواحد وهذه أول مرة يتم فيها مراسم تعيين ولي عهد في الدولة الجديدة، وعمل أبو يوسف وابنه مالك على إخضاع القبائل العربية، وطلب الثوار مغادرة الأراضي المرينية إلى تلمسان وانتقل بعضهم إلى تلمسان وغادروها بعد ذلك إلى الأندلس.

وبعد عودة أبي يوسف إلى فاس توفي ولي عهده أبو مالك في صفر ٦٦٧هـ/١٢٧٢م، ومن ثم .. أخذت البيعة من أشياخ بنى مرين والعلماء والفقهاء والقاضى وعمال الأقاليم بولاية العهد لولده الأمير يوسف وكان لهذه الجولة التي قام بها أبو يوسف يعقوب في هذه المناطق حديثة الانضمام للدولة الجديدة أثرها في استقرار الأمن والأمان وإحساس القبائل وسكان المدن بالولاء للدولة الجديدة، ومن ثم اتجهت أنظار ابن عبد الحق إلى الاستيلاء على سبتة وطنجة وذلك لما لهما من أهمية كبرى نظر لأنها ثغر العدو المغربية ومرقا السفن والأساطيل وبها دور صناعة السفن والآلات البحرية كما أنهما المعبران الوحيدان إلى الأندلس؛ حيث ميدان الجهاد الإسلامى الذى كان ينظر بنى مرين؛ ففي عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣ تحرك أبو يوسف نحو طنجة ووصل أمير المسلمين ابن عبد الحق إليها أوائل عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م، ثم فتح طنجة وبعد الانتهاء من تنظيم الأوضاع الداخلية بالميناء الهام أرسل أبو يعقوب ابنه يوسف للاستيلاء على سبتة ودخل حاكم المدينة ابن الغرفى فى طاعة بنى مرين. وكان ضم سبتة وطنجة مفتاحاً للعبور إلى الأندلس أمام بنى مرين وتم للمرة الأخيرة ضم إقليم سجلماسة للدولة فى صفر ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، وسقوط سجلماسة أكمل بنو مرين سيادتهم على جميع أراضي المغرب الأقصى واتخذ ابن عبد الحق من فاس عاصمة للدولة المرينية الجديدة، كما أنه رأى ضرورة وجود عاصمة جديدة له؛ حيث بنى قصرًا

ومستقرًا له وحاشيته ومركزًا لإدارته ومعسكرًا لقواته فما كان منه إلا أن أصدر فى شوال ٦٧٤هـ/١٢٧٥م أمره ببناء عاصمة جديدة، سماها فاس الجديدة، وقد أطلق على هذه المدينة البيضاء بينما ظلت فاس القديمة مركزًا للتجارة والعلم وأتاح بناء فاس الجديدة لفاس القديمة أن تحافظ على سكانها القدامى المستقرين بها.

* * * *

الفصل الثاني - الفصل الثالث

جهاد بنى مرين فى الأندلس

سارت دولة بنى مرين على سياسة أسلافها المرابطين والموحدين التى تقوم على حماية الأندلس ومسلميه من أطماع جيرانهم المسيحيين وكانت الأندلس على عهد الدولة المرينية قد اقتصرت حدودها على مملكة غرناطة فى جنوب شرق الأندلس، وكان ملوك بنى الأحمر أبو بنى نصر الذين يرتفع نسبهم إلى سعد بن عباد الأنصارى سيد الخزرج على عهد الرسول ﷺ يحكمونها. ولا شك أن مملكة صغيرة محاطة بالأعداء مثل غرناطة كانت فى حاجة إلى مساعدة جيرانها وأخوانها فى الدين والعقيدة بالعدوة المغربية، ولقد استجاب سلاطين بنى مرين إلى هذا النداء وقادوا الجيوش وأرسلوا الحملات عبر المضيق لمساعدة أخوانهم الغرناطيين من جهة والاحتفاظ ببعض القواعد الجنوبية الأندلسية التى تضمن لهم السيطرة على مضيق جبل طارق من جهة أخرى.

ولقد كانت نظرة بنى مرين إلى ميدان الأندلس مباشرة بعد إتمام سيطرتهم على المغرب الأقصى فى استئناف سياسة الجهاد الإسلامى ضد نصارى الأندلس، والمرينيون بهذه السياسة يتميزون عن معاصريهم من الحفصيين، وبنى زيان، فالحفصيون وبنى زيان لم تكن لديهم هذه السياسة للعمل والجهاد فى الميدان الأندلسى. وقد بدأ بنو مرين عملهم فى الميدان الأندلسى فور عودة أبي يوسف من فتح سجلماسة إذ أنه أثر عودته وصل وفد من السلطان محمد الفقيه سلطان غرناطة شرح تدهور أوضاع المسلمين فى الأندلس ويطلب المدد والعون والمآزر من بنى مرين.

وكان الأمير عبد الحق قد وجه قوات مرينية بقيادة أبناء أخيه عام

٦٦٠هـ/١٢٦١م إلى الجهاد فى الأندلس؛ حيث كانت هذه أول قوة مرينية عاملة فى الميدان الأندلسى وبذلك وجهه الأمير يعقوب المرينى طاعة الثائرين عليه من البيت المرينى إلى حرب أعداء الإسلام فى الأندلس.

وكانت قوات قشتالة بقيادة ألفونس العاشر قد قامت بمهاجمة الأراضى الأندلسية فقام ابن الأحمر قبل وفاته عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م بتوجيه نداء إلى أمير المسلمين السلطان المرينى أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب عوناً ومساندة، لكن العون والمساندة لم يصل إلا بعد وفاة ابن الأحمر أيام ولده محمد الثانى الملقب بالفقيه (٦٧١-٧٠١هـ/١٢٧٣-١٣٠٢م)، وكان عهده قد أصاب بعض الضعف فى الصف الإسلامى وأحس محمد الثانى بأنه لم يعد يستطيع الاعتماد فى قواه وحدها فراسل أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق أمير بنى مرين وطلب منه أن يعاونه بقوة عسكرية.

ورأى أبو يوسف أن يبدأ جهاده فى الميدان الأندلسى بحملة جعل ابنه أبا زيان قائداً عليها. وخرجت الحملة من فاس فى شوال ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م قاصدة الى طنجة وكانت الحملة من أنجاد بنى مرين وفرسان العرب وهبأهم للقتال ودفع اليهم رأيته المنصورة وعبرت الحملة ونزلت بطريف من بلاد الأندلس وكان قوامها خمسة آلاف مقاتل وشتت غارات على ديار النصارى ووصلت فى تقدمها الى شرش. ولقد لعبت أساطيل بنى الغرفى حكام سبتة دوراً هاماً فى عمليات العبور ونقل الجنود والمعدات من قصر المجاز الى مدينة طريف.

وقد شجعت نتائج الحملة التى قادها الأمير أبو زيان السلطان أبو يوسف يعقوب على العبور بنفسه الى الميدان الأندلسى، وذلك فى صفر عام ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م. ولما كان السلطان المرينى رجل حرب وسياسة ودهاء فانه قبل أن يعبر الى الأندلس قام

بارسال حفيده تاشفين بن مالك الى يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان طالبا عقد صلح معه وذلك تأمينا لحدوده الشرقية من خطر غارات بنى زيان ، وقد أشاع جو الصلح الذى تم بين الطرفين جوا من الاستقرار فى المغرب الأوسط والأقصى وساد الهدوء سائر بلاد المغرب العربى واستطاع بنو مرين أن ينقلوا عملياتهم العسكرية لصلح أبى يوسف حتى أنه تصدق بالأموال ونحر الذبائح ، وعمل على الاستفادة من القبائل العربية فى حركة الجهاد الاسلامى فى الميدان الأندلس . فقد حشد أبو يوسف مع قواته العديد من فرسان القبائل العربية من شعبان والخلط والعاصم وبنى جابر وجشم واثبيج ودوى وحسان والشبانات من المعقل وقبائل رباح وغيرهم وقد بذلوا جهودا كثيرة فى هذا الميدان وطوائف من المتطوعين البربر . ودخل بجيوشه فى الأراضى الأندلسية وكان بنو الأحمر قد تنازلوا عن طريف والجزيرة الخضراء ورندة وأنزل بها القوات المرينية واتجه أبو يوسف من طريف الى الجزيرة الخضراء ثم الوادى الكبير وتوغل فى الأراضى التابعة لملك قشتالة الفونسو العاشر يدك حصونها وقلاعها ويقاثل جنودها حتى بلغ نهر الوادى الكبير قرب أشبيلية بل أنه وصل الى الغرب من قرطبة واستولى على حصن بالملة بالقوة واقترب أبو يوسف من مدينة استجه ووصلت الأخبار بتقدم النصارى واستطاع أبو يوسف أن يقتل قائده نونو مع عدد كبير من من خبرة ضباطه وجنوده وبلغ عدد القتلى من مسيحي أسبانيا فى هذه المعركة ثمانية عشر ألف وخمسمائة جندى . وقد قاتلت القبائل العربية ببسالة وتحملت عبء المعركة .

وبعد عدة أيام اتجه أبو يوسف الى أشبيلية بعد الانتصار الأول فى ربيع الأول ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م وقد قدرت المصار الاسلامية (ابن أبى زرع ، ابن خلدون ، عدد جيش قشتالة بتسعين ألف ، وكان استعداد الجيش القشتالى ضخما فى العدد والعدة مقبلا على الحرب بقوة وبقيادة بحرية بهرت الحروب فى تلك المناطق بالإضافة

الى أنها تقاتل فى أرض تعرفها شبرا شبرا ، غير القوات المرينية كانت تقاتل فى أماكن لم تطأها من قبل وياشر الأمير أبو يوسف القتال بنفسه وابنه يوسف على المقدمة ثم استعد للقتل وجاهد المسلمون صابرين محتسبين ونادى على المسلمين بالقتال ، حازت الجيوش الاسلامية المغربية والأندلسية نصرا حاسما فى هذه المعركة التى أعادت ذكريات الزلافة والارك وتشتت الجيش القشتالى وقتل قائده ، وكان حصار أشبيلية العاصمة قد أتى بثماره فطلبت الأمان والصلح ، وبعد أن قضى فى الأندلس خمسة شهور عاد الى المغرب فى أواخر رجب ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م بعد أن ترك فى الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة اخوانهم الأندلسيين فى رد اعتداء قشتالة .

وكان هذا الانتصار قد ساعد محمد الفقه على تثبيت أمره وتم الاتفاق على أن نقيم هذه القوة من المقاتلين الزناتين بنى بين مرة فى مملكة غرناطة ويرأسهم قائد يسمى شيخ الغزاة ومن ذلك التاريخ سيصبح شيخ الغزاة من كبار الشخصيات فى مملكة غرناطة .

وكانت أخبار انتصاراته قد سبقته الى المغرب ، وقد كتب أبو يوسف أمير المؤمنين الى جميع بلاد المسلمين بالأندلس والمغرب يشرح تفاصيل انتصاراته . وقد أسفر العبور الأول هذا الذى قام به أبو يوسف الى تلك الاراضى الاسلامية عن رفع الروح المعنوية للمسلمين اذا ساهم اخوانهم فى المغرب فى تحقيق هذا الانتصار كما أن هذا الانتصار أتاح بأحلام نصارى الأندلس فى تخطيطهم لطرد المسلمين من هذه الديار حيث أدركوا أن هناك قوة شابة جديدة تقتحم ميدان القتال جهادا فى سبيل الله ونصرا اخوانهم فى العقيدة .

كما أن هذا العبور قد أتاح للدولة الجديدة أن نجد لها رأس قدم فى الأراضى الأندلسية تستطيع أن تعتمد عليه فى العبور مرات أخرى قادمة حيث سيطرت قوات

بنى مرين على ثلاث قواعد هامة هي ، الجزيرة الخضراء ، طريف ، رندة ، وبذلك أتت هذه الغزوة المباركة التي قتل فيها أكثر من ثمانية عشر ألفاً من قوات النصارى بشمارها.

أما العبور الثاني بميدان الجهاد فى الأندلس فقد تم فى المحرم من عام ٦٧٦هـ / ١٢٧٧ م حيث عبر أبو يوسف للأندلس وكانت حملته الى أشبيلية وقد شاركت فيه كما هى العادة القبائل العربية التي يقتصر عملها فى هذه الحملة على تنفيذ ما يصدر اليها من أوامر عسكرية كما هو الحال فى الحملة الأولى بل شارك شيوخها كستشارين فى المجلس الحربى للسلطان المرينى لابتداء الرأى حول الخطط العسكرية وأفضل الطرق للملاقاة العدو وقد نجحت هذه الحملة فى تحقيق أهدافها اذ حاصرت قواتها المرينية والعربية أشبيلية وشريش وقرطبة وجبان وأنزلت بضواحيها الدمار واقتحمت بعض حصونها عنوة مما اضطر ملك قشتالة الفونسو العاشر الى عقد هدنة مع سلطان المغرب أبى يوسف يعقوب .

وكان السلطان يعقوب المنصور قبل توغله فى أراضي قشتالة قد التقى بابن الأحمر حيث قامت القوات المغربية والأندلسية المشتركة بالقضاء على كافة الحصون المحيطة بها وتدمير كل مظاهر العمران حول أشبيلية ونالت شريش ضربات لا تقل عن ضربات تلقته أشبيلية .

ولقد كان أبو يوسف يهدف الى احتلال قرطبة وإعادة الأمور الى سابق عهدها للإسلام والمسلمين ، الا أن الأمر كان يحتاج الى تكاتف جهود سائر القوى الإسلامية فى بلاد الأندلس وبخاصة قوات غرناطة واستجاب ابن الأحمر لهذه الخطوة والتقى به عند قرطبة وقامت الجيوش الإسلامية بمهاجمة قرطبة ولم تستطع الجيوش النصرانية الصمود أمام هذا التحالف القوى فتراجعت وتحصنت بالمدينة وأرسل ملك النصارى

وفدا يطلب الصلح من أبى يوسف لكن أبا يوسف ترك لابن الأحمر حكم غرناطة وإبرام عقد الصلح مع نصارى فشتاله والأكثر من ذلك فإن أبا يوسف عند عودته إلى الجزيرة الخضراء، وفى طريقه بغرناطة تنازل عن جميع الغنائم لابن الأحمر، لكن ابن الأحمد توجس خيفة من الوجود المرينى وتشكك كثيراً فى مسلكهم. وكان تنازل أمير مالقة لأبى يوسف عن بعض المدن الصغيرة سبباً فى تحالف ابن الأحمر ضد أبى يوسف مع ملوك قشتالة.

ولا أدري لماذا تحالف محمد بن نصر بن الأحمر مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة على مساعدته فيما كان يفكر فيه من العدوان على بلاد المغرب وبالفعل قام الأسطول القشتالى بمهاجمة أصيلة على الساحل المغربى كما احتل سبتة بمعاونة قوة من ملك غرناطة. ولعل تحالف غرناطة مع ملك قشتالة يعود إلى أن السلطان أبا يوسف كان يترك فى كل غزوة يقوم بها عدداً من قواته؛ فقد ترك فى الغزوة الأولى ثلاثة آلاف مقاتل، وها هو يترك فى هذه الغزوة ألف مقاتل من بنى مرين والعرب.

وقد يكون الدافع لتخوف سلطان غرناطة محمد الثانى الفقيه من أطماع سلطان المغرب، وظن به الظنون وخشى أن يغلبه على بلاده كما فعل يوسف بن تاشفين مع المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف فلجأ إلى جيرانه المسيحيين، وعقد مع سانشو الرابع ملك قشتالة (بعض المصادر ذكر ألفونسو العاشر ملك قشتالة) وخايمي الثانى، ملك أراجون معاهدات دفاعية ضد ملك المغرب واستطاع كل من الملكين سانشو وخايمي أن يقنع سلطان غرناطة بضرورة احتلالهما بصفة مؤقتة لبعض قواعد المضيق مثل طريف والجزيرة الخضراء التي كانت فى يد المرينيين لأنها تعتبر رأس جسر لعبور القوات المغربية إلى الأندلس ووافق سلطان غرناطة على ذلك بشرط أن تسلم له هذه القواعد بعد ذلك. وكان هذا تصرفاً شاذاً من حاكم مسلم يسمح لحكام أعداء

للإسلام بإنزال قواتهم في الجزيرة الخضراء. وقد جعل هذا الموقف سلاطين بنى مرين يأخذون حذرهم في التعامل مع بنى الأحمر وأحسوا بأنه لابد لهم أخذ الحيطة والاحتياطات فأصبح من شروطهم للاشتراك في القتال في الأندلس أن يكون بيدهم الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومالقة.

والذى ينظر إلى ما فعله حكام غرناطة من بنى الأحمر يدرك أن حكام غرناطة وساستها كان خوفهم على أملاكهم هو الشغل الشاغل لهم بل المصلحة الشخصية فوق مصالح المسلمين، وأنه كان لا يعينهم في المقام الأول الدفاع عن الإسلام ضد الزحف المسيحي لابتلاع أملاك المسلمين بالأندلس وكانت أكبر فرصة عند قشتالة وأرجون للتفرقة بين المسلمين نقض الصلح مع أبى يوسف، ومن ثم أرسل أساطيلهما إلى الجزيرة الخضراء لقطع الامدادات أمام وصولها إلى الأندلس.

وفي نفس الوقت هاجمت هذه الأساطيل الجيش المريني الرابض في هذه المناطق، وأسرع الأمير يوسف بن السلطان يعقوب لمباشرة حربهم ومنيت أساطيل أرجون وقشتالة بهزيمة فادحة أمام الأسطول المغربى واضطرت إلى الإقلاع عنها خائبة السعى وتمكن المغاربة من السيطرة على هذه المناطق الهامة، وهكذا .. خسر الأسطول القشتالى قواته البحرية وأصبحت هذه المناطق محطات وقاعدة للقوات المرينية التى تعبر إلى الأندلس للجهاد فيه.

ونعود إلى ابن الأحمر فنجد أنه لم يكتف بما فعله بشأن الإسلام والمسلمين وتحالفه مع أعداء الدين؛ بل أنه أغرى عامل أبى يوسف على مآلقة واتفق معه على أن يتنازل عن مآلقة مقابل أن يجعله حاكماً على أقليم آخر؛ بل وصل به الأمر بغدره بأبى يوسف الذى قدم له كل العون إلى آخر مدى بأن راسل يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان والعدو اللدود لبنى مرين وتبادل معه الهدايا واتفقا على أن يقوم يغمراسن بن

زيان بمهاجمة حدود الدولة المرينية الشرقية حتى يصرف أبا يوسف عن العبور إلى الأندلس، لكن كل ذلك لم يفت فى عضد أبى يوسف إذ كانت قواته المؤلفة من سبعين سفينة قد حققت النصر ودمرت الأسطول القشتالى، لكن ابن خلدون يدافع عن بنى الأحمر ويذكر أن أسطولهم عاون الأسطول المرينى بعد أن أدرك حكام غرناطة خطورة تحالفهم مع القشتالين ضد أبى يوسف.

وكان لهذا النصر البحرى المرينى صدهاء الكبير فى الأندلس والمغرب.

ولما كان الجهاد فى بلاد الأندلس هو الهدف الذى ارتضته الدول المرينية سيراً على سياسة اسلافها من المرابطين الموحدين فإننا نجد باستقرار الأوضاع فى بلاد المغرب (صراعات المغرب الأوسط مع الأقصى) عاد الميدان الأندلسى يشغل بال أبى يوسف واهتمامه وشكل عنصراً هاماً فى السياسة المرينية. ولما كانت الانتصارات السابقة قد جعلت من دولة بنى مرين محور اهتمام الجميع فلجأ إليها فى عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م، وقد من قيل ذلك الأسباني «هراندة» ليطلب معاونته فى استرجاع عرشه الذى استولى عليه ولده شانجة، وكان شانجة الرابع قد ثار على أبيه عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م ألفونس العاشر مما أثار السخط عليه فى مملكته، ولقد لبى السلطان المرينى المنصور طلبات الوفد وعبر إلى الأندلس (العبور الثالث) لمعاونة ألفونسو العاشر، وهرع إلى لقاء السلطان باحواز الفجوة قرب رنדה، وأمدّه أبو يعقوب بالمال والجيش.

ولقد كان العبور الثالث فى ربيع ثانى ٦٨١هـ/١٢٨٢م. والتقى به ألفونسو العاشر ورأى المنصور المرينى مساعدته ضد ولده شانجة، أو سانشو لتعميق الخلاف داخل البيت الحاكم فى قشتالة واضعاف الجبهة المسيحية وأحداث تصدع بها وانقسام بين قواتها العسكرية، وأمدّه بمائة ألف دينار وقوات رمزية إسلامية، مساعدة له فى حربه ضد ولده وتدخل المنصور معه فى إدارة الحرب التى دارت بين الأب وابنه حول

قرطبة وطليلة وحصن بربط، ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م لاسترجاع مالقة والحصون الغربية من بنى الأحمر، وقام أبو يوسف بجولة حربية أخرى امتدت من طليلة وقرطبة حتى وصل إلى أيديه ويابسة وجبال ألبرت ثم عاد إلى المغرب بعد أن ولي أحد أحفاده والياً على هذه الأماكن التي حررها من النصارى.

والذى ينظر إلى العبور الأول والثانى يدرك بعد الاستعداد الذى استعده المسلمون لهذه المعارك؛ حيث كان لديهم حماس عظيم لاسيما أن السلطان المنصور المرينى كان يخطبهم ليزيد حماسهم؛ فنجد أنهم كانوا ينقضون على القوات النصرانية فى حماس بالغ أعاد إلى الأذهان حماسهم فى موقعى الزلاقة والأرك على اختلاف فى حجم القوات الإسلامية فى كل من هذه المعارك وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً ومزقوا قوات قشتالة فى كل مرة شرمزق، وهذا خير دليل على أن قوة الإسلام فى الأندلس كانت لاتزال قادرة على الدفاع عن نفسها وأنه لو أتاحت للمسلمين فرصة توحيد الصفوف والوعى والإدارك الكامل لخطورة ما يجرى على أرض الأندلس لاستطاعوا أن يصمدوا ويحافظوا على ما بقى بأيديهم من أراضٍ ولاستعادوا ما استولى عليه الأسبان من أراضٍ احتلت من قبل.

وعبر السلطان المنصور المرينى أبو يوسف للأندلس للمرة الرابعة فى صفر عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م. وهذه أقوى الحملات التى واجهها القشتاليون إذ بلغت الجيوش أربعة منها ثلاثة من المتطوعين وجيش بنى الأحمر لمعاونة أبى يوسف وقد بلغ أحد جيوش المتطوعين فى هذه الحملة ثلاثة عشر ألف من المصامدة وثلاثة آلاف من بربر المغرب وكان دور القبائل العربية هاماً فى هذه المعركة، وتظهر هذه الحملة مدى الضربات التى وجهها أبو يوسف لدولة قشتالة خلال هذه الحملة، وكان الجهد الحربى مركزاً لمدينة أشبيلية باعتبارها عاصمة قشتالة ومدينة شريش باعتبارها مصدر خطر مباشر

على المسلمين، كما اشترك الأسطول المرينى فى هذه الحملة وكانت مهمته منع الأسطول القشتالى من الاقتراب من ممر العبور من المغرب والأندلس. واستطاعت سفن الأسطول المرينى أن تقوم بواجبها على خير أداء.

تذكر المصادر أنه عند وصول المنصور المرينى إلى مدينة شريش وانضمام بقايا حاميتها من بنى مرين والعرب بالأندلس له، قام فرسانه عرب العاصمة بمنع الإمدادات من الوصول إلى المحاصرين وقتل الفارين والإغارة على حصن شالوقة وقتلوا حاميته وقام عرب الخلط بالحراسة حول شريش مع عرب العاصمة ليل نهار. وعندما أرسل الأمير يعقوب حفيده أبا على المنصور بن عبد الواحد للإغارة على أشبيلية كان معظم فرسانه من عرب العاصمة والخلط والأثبيج ومجلس الحرب يضم رؤساء العرب ولقد كانت للعرب اليد الطولى فى جميع الإمدادات التى وصلت من المغرب إلى الأندلس ورغم عجز الجيش المرينى من احتلال شريش وتحقيق نصر عسكري كنصر المنصور الموحدى فى معركة الأرك عام ٥٩١هـ/١١٩٥م إلا أن المؤرخين تناولوا دور القبائل العربية بالتمجيد والفخر.

ولقد رأى ملك قشتالة شائجة أنه لا قيل له بجيوش المسلمين فأرسل وفداً من الأحرار والرهبان يفاوض السلطان المرينى عما يراه ويطلب الصلح وتم الصلح على أساس شروط رفعها أبو يوسف وقبلها شانشو ومنها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس، واعترف الجميع بسيادة بنى مرين على الموقف فى الأندلس واستكمالاً لمظهر السيادة المرينية على ما بأيدي المرينيين من أراضى أندلسية أرسل المنصور المرينى ابنه الأمير أبا زيان ليقف بجيوشه على الحدود من بلاد وبلاد ابن الأحمر.

وعاد أبو يوسف يعقوب إلى الجزيرة الخضراء بعد إقراره الصلح مع مملكة قشتالة

وقام بتنظيم حاميات الثغور وأسند إلى عرب العاصمة حمايم اسطوبونه والاستقرار بها مكافأة لهم.

ومات أبو يوسف في الجزيرة الخضراء في العشرين من المحرم عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، ونقل جثمانه في الثاني والعشرين من نفس الشهر إلى المغرب إلى مدينة رباط الفتح؛ حيث دفن بمسجد شالة، وهي الجبانة الملكية لبنى مرين بالقرب من مدينة الرباط. وكانت وفاته قبل العودة إلى المغرب، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس. ويعتبر أبو يوسف المنصور من أعظم سلاطين المغرب؛ فقد كان من طراز يوسف من تاشفين وأبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى؛ وكان حريصاً على الجهاد في الأندلس، ومن هنا .. قام بأربع جولات في هذا الميدان استطاع أن يوسع رقعة دار الحرب في الميدان الأندلسى فوصل إلى طليطلة وقرطبة؛ بل وصل إلى مجريط وهي قرية من آخر معاقل وصل إليها الإسلام في بلاد الأندلس كما وصل إلى جبال البرت وهو الذى أنقذ مملكة غرناطة من الانهيار السريع أمام ضربات قشتالة وأرجون وأن موته قد ترك سمعة خفاقة في المجال الأندلسى والمغربى والعالم الإسلامى فى ذلك الوقت إذ كان شخصية تجلت فيها عمق العقيدة الإسلامية والغيرة على مصالح الإسلام والمسلمين والعمل على حماية الديار الإسلامية وتجهيز القوات بسرعة فائقة وإعلانه حالة التعبئة فى جميع أنحاء البلاد، وقت الاستعداد للحرب ومروره على القبائل والمدن والأعراب لجمع القوات والمؤن والذخائر، ولقد كان من الشخصيات التى يذكرها تاريخ بنى مرين بكل فخار؛ فقد وقع عليه عبء إنهاء سلطة الموحدين فى المغرب وورث دولة كانت مقسمة بين عديد من الحكام وقبائل عربية وبربرية، واستطاع أن يوحدوها وأن يجعل من كل أراضى المغرب الأقصى دولة ذات سيادة واحدة وأخضع الموانئ التى كانت مستقلة فى عهد الموحدين مثل سبتة وطنجة ورفع لواء الإسلام دفاعاً عن حق المسلمين فى ديار الإسلام فى الأندلس.

ولى يوسف بن يعقوب المرينى الحكم فى ٥ صفر ٦٨٥هـ/١٢٨٨م خلفاً لوالده وبايعته جميع قبائل بنى مرين والقبائل العربية فوزع الأموال والهدايا على الجميع وعين أخاه الأمير أبا عطية حاكماً على ممتلكات بنى مرين بالأندلس وأسند قيادة الجيش المرينى فى هذه البلاد لأبى الحسن على بن يوسف وكانت بها قوات من إثني عشر ألف رجل ما بين فارس وراجل، وقد لقب بالناصر لدين الله، وهو من السلاطين الأقوياء ولازم والده يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فى جميع أعماله الحربية والسياسية والإدارية وخاصة الحروب فى المغرب والأندلس.

ولقد كان له شأن فى الجهاد فى الأندلس إلى جانب إخوانه مسلمى غرناطة. ولقد أثرت الثورات المتتابعة فى بلاد المغرب فى عهد يوسف بن يعقوب فى مدى الجهد من جانبه فى الميدان الأندلسى؛ فلم يكن جهده يقاس بالنسبة لجهد أبيه لكنه حاول الإبقاء على العلاقة بينه وبين بنى الأحمر. قوية لا سيما وأن ابن الأحمر محمد الفقيه كان له نشاط واضح فى ميدان الجهاد ومهتماً به، لكنه صار أحياناً إلى المسلك الشاذ فى مهادنة بعض ملوك النصارى فى أسبانيا ضد آخر منهم؛ بل وأحياناً ضد بنى مرين ولقد شهدت فترة حكم يوسف هذا تنازلات عن بعض الأراضى التى تسيطر عليها الدولة المرينية فى الأندلس وذلك حرصاً على صمود وقوة وقدرة الجبهة الإسلامية على الوقوف أمام القشتالين ووحدها والقضاء على كافة المشاكل والخلافات مع بنى الأحمر وطلب من ابن اشقيلولة ترك الأندلس والانتقال إلى المغرب، وأنهى مشكلته مع بنى الأحمر. وكانت هذه الخطوات يتنازل بنى مرين لحكام غرناطة من بنى الأحمر عن العديد من الحصون من شأنه تقوية العلاقات بين فاس وغرناطة وذلك لكبح جماح قشتالة ولا تفكر فى الهجوم على المسلمين فى الأندلس. وقد نحت سياسة يوسف فى تهدئة الأحوال فى الأندلس.

حتى كان عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م عندما نقض كل من سلطان غرناطة وسانشو الرابع ملك قشتالة اتفاقهم السابق مع بنى مرين وهاجم سانشو النخوم والثغور الأندلسية وأرسل يوسف إلى قائد بنى مرين بالأندلس بالهجوم على مدينة شريش؛ إلا أن ابن الأحمر هاجم مدينة اسطبونة، وتمكن من الاستيلاء عليها بعد انتصاره على واليها وتعاونت كل من قوات قشتالة وأرجون في محاصرة طريف والاستيلاء عليها بعد حصار دام ستة شهور، لكن قائد بنى مرين شن الغارات على حدود قشتالة وجهاز يوسف قوات للعبور بها من قصر الحجاز، إلا أن القوى المسيحية بقيادة سانشو عندما أحست بذلك أرسلت أسطولاً قشتالياً لمنع بنى مرين من العبور ونجح هذا الأسطول في تخطيم أسطول بنى مرين الذي تصدى له في بحر الزقاق عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، وأدى ذلك إلى تأخير العمليات العسكرية في الأندلس، لكن بعد إصلاح السفن وتعويض الفاقد منها استطاع الأسطول المريني إنجاز عملية العبور بنجاح دون أن يجرؤ الأسطول القشتالي على الاقتراب من الأسطول المريني.

وعبر السلطان يوسف إلى الأندلس ونزل بطريف وأشعل جبهة القتال وشن الغارات على أشبيلية وشريش كما حاصر حصن كبير ثلاثة أشهر وأصدر السلطان يوسف أوامره لفرسان بنى مرين والعرب بشن الغارات على المسيحيين قبل عبوره بقواته وبعد عبوره قامت قوات بنى مرين والقبائل العربية بالهجوم على الأماكن المحددة لها وأحرزت بعض الانتصارات، ومع ابتداء فصل الشتاء القارص بالأندلس عادت تلك القوات إلى المغرب في أول المحرم عام ٦٩١هـ/١٢٩١م.

ولقد كانت مهمة المرينين هناك هي معاونة المسلمين والحفاظ على وجودهم بالأندلس واستمرت العلاقات الطيبة بين غرناطة وفاس حتى وفاة السلطان محمد الفقيه عام ٧٠١هـ/١٣٠٢م، وقد كسب محمد الفقيه معركة استجه بالتعاون مع القوات

المرينية، ولم يكن الفقيه ليقول كفاية عن أبيه فقد تمكن خلال الفترة الطويلة التي حكمها (٦٧١-٧٠١هـ/١٢٧٣-١٣٠٢م) تمكن أن يحافظ على مملكته ويزيد من قوتها إلا أنه كان يتخوف من بنى مرين وحاول الانضمام إلى ملوك قشتالة ضدهم وهو أمر سيلجأ إليه ملوك غرناطة فيما بعد مما أدى في النهاية إلى وقوع القشور بين بنى مرين وبنى الأحمر وكان كل ذلك في النهاية وبالأعلى الاسلام المسلمين في الأندلس ولقد كان اختلاف المسلمين قادة وحكاما فيما بينهم واستعانة بعضهم بالعدو على البعض أشد وبالا ووطأة بالاسلام وأهله ودياره فقد فقدت ديار الاسلام في الأندلس عبر تاريخها الطويل بسبب قصر نظر حكام غرناطة وغيرهم وعدم تفهمهم للمخطط الذي يحاك ضدهم ودخولهم في تحالفات مع أعداء الاسلام ضد اخوانهم في الدين والعقيدة والوطن الواحد .

وفي أيام محمد الفقيه بدأت مشكلة النزاع على مضيق جبل طارق تأخذ شكلها الحازم لأن كلا من مملكة غرناطة ومملكة قشتالة وسلطنة بنى مرين ومملكة أرغون ثم الجمهوريات الايطالية البحرية تدرك أهمية ذلك الزقاق الذي يعد مفتاح البحر المتوسط والسيطرة عليه تتيح لصاحبه قوة بحرية عظيمة فينفذ الى المحيط الاطلسي والساحل الغربي لشبه الجزيرة الايبيرية . وكانت في عهد ولده محمد المخلوع قد ساءت العلاقات مع بنى مرين وجرت أحداث داخلية في مملكة غرناطة انتهزها ملك قشتالة فأرسل جنده لحصار جبل طارق ومدينة المرية بمعاونة ملك أراغون (حاييمى الثانى) بالرغم من المعاهدة القائمة بينه وبين سلطان غرناطة وجرت قرب المرية معركة قادها عثمان بن أبى العلاء شيخ الغزاة ضد جند أرغون هزم فيها قوات النصارى ورفع الحصار عن المرية الا أن جبل طارق يعد الحصار الشديد أرغم على التسليم .

وقد صمدت غزوات بنى مرين بالأندلس منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب

لانشغاله بالحروب مع بنى زيان وانشغال حفدته من بعده بأمر المغرب الداخلية .
والصراع حول السلطة فى الدولة مع قصر مدة ولايتهم الى أن تولى عرش بنى مرين
السلطان أبو الحسن المرينى (٧٣١ هـ / ١٣٣١ م - ٦٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) .
وكانت له رغبة فى الجهاد فى الأندلس ورغم اشتراك أبى الحسن المرينى فى التوقيع
على معاهدة السلام بين هذه الدول الثلاث ومدتها أربع سنوات ووقعها بنو الأحمر
ومملكة قشتالة على ألا تمر قوات مغربية الى الأندلس وكذلك اشتراكه فى معاهدات
سلمية مماثلة مع ملك أرغون وتسابق ملوك أسبانيا والمغرب مستغلين فرصة السلام فى
التسليح والاستعداد للحرب وكان اهتمام كل فريق موجها نحو تقوية بحريته لأنها
الضمان الأساسى للسيطرة البحرية بعد ذلك ، وكان ملك قشتالة قد استولى على جبل
طارق ومن ثم أراد السلطان أبو الحسن المرينى انتزاعه من يديه وعودته للحكم المرينى
الاسلامى وبدأت المعركة بينهما فى ربيع الأول سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م فى مياه
الجزيرة الخضراء انتهت بغرق معظم الاسطول الأرغونى وقتل قائده وانسحاب فلوله
الى برشلونة وهزيمة الأسطول القشتالى أمام أسطول المغرب واستولى المسلمون على
بعض قطعه وبهذا النصر التاريخى أصبح السلطان أبو الحسن المرينى سيدا بلا منازع
على جبل طارق وصار من السهل عليه نقل قواته الى الأندلس فى سهولة ويسر .

ولقد كانت مجهودات السلطان أبى الحسن فى جمع كلمة قبائل زناتة (بنى
زيان وبنى مرين) وتوحيد قوى المغربين الأوسط والأقصى له مدى بعيد فى استئناف
حركة الجهاد فى سبيل نصرة المسلمين فى الأندلس بصورة لم يسبق لها مثيل فى
تاريخ الدولة المرينية اذ أصبح بنو مرين بتوحيد البلاد (الأقصى والأوسط) لديهم
طاقات هائلة سواء أكانت اقتصادية أو عسكرية وبشرية مما تمكنهم من العمل فى
ميدان الجهاد بالأندلس ، كما أن الجبهة الشرقية زمن بنى زيان زال خطرهما بعد

التوحيد وأصبح بنو مرين فى مأمن ، وكان السلطان أبو الحسن المرين يبدى استعدادا
للجهاد أكثر من أى سلطان سابق فيما عدا أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق والده ،
ولقد كانت رؤيته السياسية تصل الى مدى بعيد حيث كان يدرك بثاقب نظرته أن
الخطر المسيحى لا يهدد الأندلس فقط بل يهدد كيان المغرب وسواحله قبل الأندلس
لأن الأندلس هى خط الدفاع الأول عن المغرب ، بل أن الأندلس هى جناح المغرب
وكان يرى ضرورة تأمين هذا الخطر والعمل بكل جهده لسلامة ودفع الأخطار عنه
وحصر النفوذ المسيحى ومنعه من تحقيق أهدافه فى طرد المسلمين من الأندلس .

وكان السلطان أبو الحسن قد استقبل فى بلاطه بمدينة فاس عام ٧٣٢ هـ /
١٣٣١ م . السلطان محمد بن اسماعيل الأحمر سلطان غرناطة وكان سقوط جبل
الفتح فى يد نصارى الأندلس عام ٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م اعظم نكبة منيت بها
الأندلس وتم الاتفاق مع سلطان غرناطة لاستعادة جبل الفتح وكان سلطان غرناطة
يعاونه الأمير مالك بن أبى الحسن والأسطول المرينى قد تمكنوا من استعادة جبل الفتح
عام ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م بعد ثلاثة وعشرين عاما على احتلاله وبعد استعادته ثم
تحصينه تحصينا قويا وياشر السلطان هذه العمليات العسكرية بنفسه وذلك نظرا لأهميته
الاستراتيجية وكانت أحداث غرناطة والقشتالين من أجل العرش قد أسفرت عن مقتل
السلطان محمد بن اسماعيل الأحمر عام ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م . وتولى عرش غرناطة
السلطان يوسف الأول الذى حرص على توطيد علاقته مع بنى مرين لأجل الدفاع عن
الدين والأهل والعرض والديار واستنجد بالسلطان أبى الحسن الذى كانت لديه رغبة
فى الجهاد ، وتحرك الأمير أبو مالك بن السلطان بقواته الى الأندلس وعبر المضيق
واقترح بلاد الثغور وتوغل فى الأراضى القشتالية وحقق انتصارات عظيمة ولما كان بعد
المسافة داخل الأراضى الأسبانية قد جعل القوات المسيحية تحاول قطع خط الرجعة

عليه وأبدي كبار قادة بنى مرين الرغبة فى الانسحاب والعودة لكن الأمير مالك رفض ذلك ودارت معركة انتهت بمقتل الأمير مالك حيث ثم الهجوم على المؤخرة أثناء الانسحاب وكانت معركة غادرة .

ولقد عمقت وفاة ابن السلطان أبو الحسن الاحساس لديه بضرورة العبور للميدان ليتولى بنفسه قيادة العمليات العسكرية ضد نصارى الأندلس وتمت استعدادات كبيرة وحشدت كل الطبقات فى المغرب الأقصى وبعث السلطان أبو الحسن الى أصحابه وحلفائه بنى حفص فى أفريقية يطلب منهم ارسال نجدة - فأرسلوا اليه أسطولاً من ست عشرة سفينة بقيادة قائد بجاية وضم ضد الأسطول الحفصى سفناً من طرابلس وفاس وجربة وغيرها وبلغ عدد السفن التى تجمعت لهذه الحملة مائة سفينة وحشدت الجيوش البحرية وانتقل هو الى سبتة ومنها الى الأراضى الأندلسية وأصدر أوامره للأسطول المرينى بالهجوم على الأسطول الأسباني وتمكن الأسطول الاسلامى من سحق أسطول قشتالة وبهذا الانتصار أصبح الطريق مفتوحاً للعبور أمام القوات البحرية دون أدنى خطر وبلغ عدد القوات الاسلامية ستين ألف وعبر السلطان أبو الحسن فى أواخر عام ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م ، وفى عام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م وجهت ضربات الى طريف يعاونه سلطان بنى الأحمر أبو الحجاج يوسف الذى كان أبرع ملوك بنى الأحمر بعيد الهمة عالى خلال شاعرا عالما وحاميا للعلوم والفنون واسع المطامع جم النشاط .

ولكن القوات البحرية القشتالية تمكنت من السيطرة على الطريق البحرى وقطع الطريق من المغرب والأندلس وثم قطع خطوط الامداد والتموين وقد اشتركت فى هذه المعركة قوات من قشتالة وأراغون والبرتغال والانجليز ، وقد بارك البابا هذه المعركة البحرية .

وفى جمادى الأولى ٧٤١ هـ / ١ أكتوبر ١٣٤٠ م جمع ملك قشتالة قوات ضخمة من القشتاليين وانضمت اليهم قوات اخرى من الأراغون والبرتغاليين والمتطوعين الأوربيين (انجلترا أو بحر الشمال) وسار الجميع ووجهتهم مدينة طريف للاستيلاء عليها بصورة نهائية لقطع الطريق من الأندلس والمغرب وقد اتخذ فى هذه الظروف أبو الحجاج يوسف بن نصر والسلطان أبو الحسن المرينى أدركا أهمية هذه المعركة الاستعدادات اللازمة والحشد القوى نظرا لأن أنظار هذا المجاهد الكبير كانت تتجه الى مدينة طرف القاعدة الباقية فى أيدي غرناطة من ثغور المضيق فلو أنه استولى عليها لصار المضيق كله فى يده كما صار الطريق مفتوحاً الى أشبيلية لهذا عول على السيطرة عليها وأجاز اليها العساكر القوية . ولما تكاملت العساكر وكان عددها ستين ألفاً تم عبورها فى يسر وسهولة نظرا لسيطرة الاسطول ونزل بساحة طريف ووفاء سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف عبد المؤمن العرب فى قرطبة وشريش وأشبيلية وأسكن العرب فى بلنسية وفى شرق الاندلس وكذلك فى بطليموس ، وقد قلل هذا من انتشار الهلالية فى المغرب الاقصى مما ساعد على بقاء نسبة المتكلمين باللغة البربرية حالياً دون غيرها فى الجزائر وتونس .

الا أن اظلاله الزحف الهلالي قد جعلت من بلاد المغرب قطراً عربياً خالصاً وأصبحت فيه مراكز للثقافة والحضارة والعلوم الاسلامية المختلفة فى مدن مثل القيروان وفى مسجد القرويين بفاس وفى تلمسان وغيرها من مراكز العلوم الاسلامية وهذا الانتعاش الثقافى والعلمى فى القرن الخامس والسادس الهجرى دون ما سبق من عهود ربما كان ما أسبابه تقارب فى السلالات أو نوع من القرابة الوحيدة والامتزاج الجنسى والسلالى .

وهكذا لم تكن الوحدة اللغوية قائمة دون أن تستند الى شئ من القرابة الروحية من العرب الهلالية وسكان المغرب ، ولما كان من الممكن أن تحدث استجابة من سكان

المغرب للمؤثرات العربية والاسلامية دون احساس بوحدة الجنس والتقارب السلالي .

وهكذا كانت المعجزة التي تحققت على أرض المغرب من وحدة الدم والجنس والسلالة واللغة والعقيدة والعادات والتقاليد والقيم والمفاهيم الاجتماعية والتراث الحضارى ولم يكن ذلك الا من أجل القرابة ، وهكذا لم يبق من أرض المغرب الواسعة الا جزر بسيطة فى قمم الجبال العالية الشاهقة لم تكن تتلاءم وطبيعة سكنى العرب الهلالي الذى زحف فى كل بقاع المغرب مواطنا متجاوبا متفاهما مع أخيه فكان الوجه الحضارى الذى تنعم به المغرب ، بل الاكثر من ذلك انتشار اللغة العربية كثيرا وأن قوة تأثير هذه اللغة يظهر فى اللهجات الريفية فى القرى المغربية فقد تفرعت من لسان عربى مغربى وهكذا قدمت الغزوة الهلالية للغة العربية مكسبا كبيرا اذ ضمت أهل المغرب الى لسان القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف الذى أحبه أهل هذه الديار ودافعوا عن عقيدتهم ولغتهم وبهذا أفادت الغزوة الهلالية أهل المغرب بتقديم لغة حضارية ذات أصول عريقة يستعملونها ويفكرون بها ويقدمون عن طريقها عصارة تفكيرهم العلمى ليضاف الى الحضارة الاسلامية .

كما اننا نلاحظ أن المناطق الأقرب من المغرب الاسلامى الى المشرق كانت أكثر تأثرا بالعرب فى العادات والتقاليد واللغة حيث نجد فى ليبيا معظم سكانها كانوا ينتسبون الى قبيلة أولاد على وهو فى هذا يعد امتدادا لما نحده فى الجانب المصرى من القبيلة حيث نجد الفروع الشرقية من تلك القبيلة التى تمتد بطونها غربا حتى تصل الى طرابلس وقد يرجع ذلك الى تغلغل نفوذ عرب الزحف الهلالي وزيادة تأثيرهم فى المغربين الأدنى والأوسط ، بل اننا نجد أن من ينظر الى أقوال علماء علم الانساب (النسابة) وأقوالهم فى المغرب يرى انهم يدخلون بعض البربر فى العرب أو يفعلون العكس . فيدخلون بعض القبائل العربية كهوارة فى النسب البربرى أو نرى بعض القبائل العربية تدعى النسب العربى (صنهاجة ، المصامدة) ونرى من يقول بالاصل

الوافد للعرب والبربر وهكذا فان الخلط بين نسب العرب والبربر دليل على أن الفروق بينهما كانت تختفى . كما تعتبر محاولة البربر الانتماء الى العرب دليلا على نية صادقة ونزعة قوية للتعريب وكان التقارب هو الذى ساعد على اندماج العرب مع البربر وعدم اندماج البربر بمن سبق العرب فى الوصول الى المغرب من الرومان والقرطاجيين وغيرهم من المستعمرين .

وقد وجد البربر أنفسهم بعد الفتح العربى الاسلامى ازاء شعب من بنى عموماتهم يشاطرونهم ويشاركونهم مثلهم وعاداتهم وتقاليدهم فهنا امتزج العنصران ولم يزد توالى القرون التمازج الا قوة وعمقا ومن معابر انتشار العروبة نجد ان الزحف الهلالي كان له انجاز ضخم فى اقليم المغرب من الناحية الحضارية فقد ضموا الى العروبة أمة عظيمة هى أمة البربر وأضافوا الى الرقعة العربية منطقة واسعة هى منطقة المغرب العربى بأقسامه المختلفة (ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب - موريتانيا) ولم تتم هذه الانجازات فجأة وانما تمت فصائل الزحف الهلالي بالتدريج وتغلغلت آثارها فقد تمت الهجرة ببطء وملأ العرب بلاد المغرب بالتدريج فقد جاوز العرب طرابلس الغرب بعد أن مكثوا بها سنين وزحفوا خطوة خطوة وسكنوا قد بدأت تتجمع فى أسبانيا والبرتغال واستمرت قشتالة على سياستها من العبث فى الأراضى الأندلسية ناقضة العهود لكن صلحا عقد بين الأندلس غرناطة وبين ملك أرغون بدور الرابع لكن ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر تجهز عام ٧٥٠ هـ للاستيلاء على جبل طارق وضرب بجيشه حوله حصاره الشديد ، لكن الوفاء تفشى فى الجيش وكان الفونسو من ضحاياه وأنقذ الله العلى القدير جبل طارق من خطر جيشه بعد قرابة سنة من بدء الحصار الى الانسحاب وقد وجهت بهذه المناسبة رسائل كثيرة الى الأندلس والمغرب ومصر ، وترك المسلمون موكب الملك يحتاز غرناطة الى أشبيلية ، لكن أحداثا ظهرت كانت تهدف الى تصفية غرناطة وتوزيع أراضيها بين حكام أسبانيا النصرانية وباركها البابا لكنها

فشلت .

وكان استيلاء البرتغال على مدينة سبتة عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ تذكيراً بانهيـار دولة بنى مرين وهكذا انقلب الوضع بالنسبة للمسلمين وتحولت الحرب المقدسة على أرض الأندلس إلى أرض المغرب وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على جزء كبير من ساحل المغرب .

والملاحظ هنا على دور بنى مرين فى الجهاد فى الميدان الأندلسى انهم لم يحرزوا انتصارا فى تلك البلاد كتلك الانتصارات السابقة التى كان لها بعدها السياسى والعسكرى على الساحة الأندلسية كمعركة الزلاقة فى عهد المرابطين على يد يوسف بن تاشفين ، ومعركة الاراك فى عهد الموحدين وذلك لان بنى مرين كانوا يقاتلون بامكانيات المغرب الاقصى فقط دون المغرب الادنى والأوسط وقد استنفذ منهم العمل فى هذين الميدانين كثيراً من الجهد والعمل مما أعاق التفرغ الكامل للعمل فى ميدان الجهاد فقد صرف النزاع المرينى - الزياني الوقت الكبير من سياسة بنى مرين وربما كان خط الجبهة الشرقية مكشوقاً أمام بنى زيان رغم معاهدات الصلح ، وحاول بنو مرين التوسع فى المغرب لتحقيق الوحدة المغربية كسابق عهدها أيام المرابطين والموحدين وذلك دفعا للنشاط العسكرى فى الأندلس الا أن ذلك لم يعد بالنتائج المرجوة الا أن الوحدة لم تكن لتدوم الا لسنوات قليلة لوجود قوة بنى حفص فى أفريقيا وبنى زيان فى المغرب الأوسط ، الا أن جهود بنى مرين فى الأندلس ودورهم لا ينكر فقد حافظوا على بقاء الاسلام أطول فترة ممكنة ، بل أن مجرد وجودهم على الطرف الآخر للمضيق جعل نصارى أسبانيا يفكرون كثير قبل القيام بعمل عسكرى ضد مسلمى الأندلس .

وتبقى كلمة أخيرة فى هذا الفصل وهو أن جهل حكام بنى الأحمر بالخطر المحقق بهم وبديارهم وتعاونهم مع الأعداء وهم نفس الأعداء ضد أخوانهم فى العقيدة وكذلك طموحات بنى مرين فى الأندلس وعدم تفضيل المصلحة العليا وهى مصلحة

الدين والعقيدة والشعب جعلت الأعداء يجدون الثغرات للنفاذ منها حتى حققوا الهدف النهائى وهو طرد جميع المسلمين من ديار الأندلس ذلك الفردوس المفقود .

وغضب وحيق وحرق وتقوم بتأييده ونصرته وكان الجوار معترفا به قبل النزوح الى المغرب لكنه أصبح جزءا من العرف السائد بين القبائل وقد أخذت به القبائل البربرية كصنهاجة وكنامة وزناتة وهوارة ومغوارة وغيرها من القبائل البربرية الأخرى اذ رأت فى ذلك العرف نوعا من الشجاعة والكرم والبأس والقدرة على حماية المستجير .

والتاريخ العربى الهلالى فى عصر بنى زيرى والموحدين وبنى حماد ملئ بأمثلة جوار وقدسيته فقد أثر عرب افريقية قتل أبنائهم على تسليم جازهم والغدر به ولو أتى القتل على كل القبيلة وكيف كان الامراء المتصارعون على الحكم والثوار فى وحه الدولة يلجأون الى القبائل العربية لحمايتهم من بطش السلطان أو قواته وكيف كان العرب يحسنون جوار من يلجأ اليهم .

هذه صفات وأعراف عربية أصيلة فمن يتمسك بها يأبى عليه وازعه الضميرى أن يقوم بالسلب والنهب والقتل والتدمير كما صور ذلك ابن خلدون .

وقد أجاز عرب الزاودة بأفريقية المغضوب عليهم من أبناء الدولة الزيرية والحمادية أو الهاربين خوفا من بطش حكامها واللاجئين اليها طلبا للحماية مما جعل القبائل العربية فى صراع دائم مع الدولة بسبب الجوار الذى أخذه البربر عن اخوانهم العرب . ونتيجة لانتشار القبائل العربية بالمغرب وتعدد مواطن استقرارها فى جميع أنحاء البلاد امتزجت بقبائل البربر وصاهرتها مما أدى الى تطور مفاهيم القبيلة العربية فيما يختص بالعلاقة التى تربط الرجل بالمرأة والزواج والحلف والجوار والشعر والغناء والزى وحركة التنقل والارتحال ومساكنهم وحكامهم وعلمهم واختيارهم لشيخ القبيلة ومساعديه وتأثرهم فيما يختص بالعادات والتقاليد وتأثر ثقافتهم بطريقة التعليم فى المغرب لحاجة

القبيلة المستمرة الى زعيم القبيلة والقاضى والمفتى لمساعدة الزعيم فى حكم القبيلة .
وكذلك الى جانب كل هذا كان المظهر الدينى الاخلاقى الذى تجلت صورته
بوضوح فى حياة بعض رؤساء القبائل وأفرادها الذين كرسوا حياتهم للعلم والدين وبناء
المساجد والاربطة والزوايا وعمل الخير .

كذلك فانه عندما استولى الموحدون على بجاية من أيدى بنى غانية فان بعضا
من سكانها خافوا على أنفسهم من بطش الموحدين فلجأوا كمجموعات كبيرة الى
القبائل العربية المجاورة لمدينة بجاية فأجارتهم وحسن جوارهم حتى استقرت الأمور فى
البلاد وعادوا الى مساكنهم ولقد تحملت القبائل العربية ضغط الدولة عليها من أجل
تسليم من سبق اجارته وكان الرفض طابع العرب فى معظم الحالات .

كذلك نقل العرب الى المغرب ظاهرة التحالف والاحلاف التى كانت تتم بين
القبائل عملا على الوقوف فى وجه عدو مشترك . ذلك لان القبيلة منفردة وحدها قد
لا تقوى على مواجهة أعدائها فكان لابد أن تنضوى تحت لواء حلف قوى يضم العديد
من القبائل مما يدعم قوتها ويحافظ على وجودها وقد تكون الاسباب العسكرية من أهم
مظاهر ظهور الاحلاف أو تكون عوامل اقتصادية أو تجارية والحلف أن يحلف الجميع
على عهد يعاهدون عليه أن يكونوا يدا واحدة وصفا واحدا فى مواجهة الاخطار المحدقة
لهم فقد تحالفت قبائل زناتة مع رباح وتحالفت بنو توجين مع الاثيج وتحالفت مغراوة
مع بنى المعقل وظهر تحالف كثير من قبائل البربر مع العرب الهلالية فى مواجهة
الأخطار الجسيمة التى تتعرض لها البلاد كما أن العرب وقبائلهم وبطونهم كانت
تضمهم الاحلاف ساعة العسرة والشدة فقد تحالفت عرب رباح وزغبة وبنو قره والاثيج
وتناسوا ما فيهم من عدوان وتأثرات فى مواجهة زحف الموحدين على أفريقية واستطاعوا
بهذا الحلف هزيمة قوات عبد الله بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ، كذلك
تحالفت القبائل الهلالية فى المغرب الأقصى من عرب العاصم والخلط وسيفان وبنى

جابر والحارث فيما بينهم ضد استبداد الوزير عمر بن عبد الله وغمس العرب أيديهم
فى الماء ، بل أكثر من ذلك فانهم كانوا يعقدون الحلف عند قبر أحد الشيوخ
الصالحين المشهود لهم بالكرامات لكى يكون للحلف طابع الاخلاص والقدسية ويأخذ
صبغة دينية ، ثم يتصافحون بعد ذلك على التمسك بالحلف وقد سرى نظام كما أنه
أنشأ الأبراج العالية فى داخل البحر أمام ميناء مدينة سبتة للمراقبة وليحول دون دخول
سفن الأعداء فى مرساها .

والذى يطالع الفصل السابق عن جهاد بنى مرين فى الأندلس يستطيع أن يتبين
الدور الذى قامت به البحرية المرينية فى حركة الجهاد وما ساهمت به سفنه وكيف
كانت تتصدى لسفن الأعداء وقد حدثت معارك كبيرة وكثيرة وكانت الغلبة فى
معظمها للأسطول الاسلامى الذى كان يشارك فيه أسطول الحفصيين وبلاد الأوسط مع
أسطول بنى مرين .

ولقد كان السلطان أبو الحسن المرينى الذى تمت فى عهده واقعة طريف
٧٤١هـ / ١٣٤٠م السلطان الذى فاق غيره فى الاهتمام بالأسطول والبحرية ورجالها
وذلك لأنه ربما كان يخطط للمدى البعيد للاستفادة منها فى غزواته المتعددة فى
الأندلس . حتى أنه كان أول سلطان فى المغرب يستخدم الأسلحة النارية ومدافع النفط
والبارود وهى المدافع التى كانت تقذف النيران لكن معركة طريف خذلته وأفسدت كل
الخطط التى كان يسعى لها لتحرير الأندلس من قبضة الذين أهانوا الاسلام والمسلمين
حيث أنه كانت له رؤى تختلف عن غيره من حكام بنى مرين اذ كان يرى أن
الأندلس هو جناح المغرب ، بل هو خط الدفاع الأول عن المغرب . ومن هنا اهتم
السلطان أبو الحسن المرينى بتحسين القواعد البحرية التابعة لبنى مرين سواء فى
الأراضى المغربية أو الأراضى الأندلسية على الضفة الأخرى وأهمها جبل طارق الذى

حرره من من أيدي القشتاليين عام ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م وازدهرت صناعة السفن في عهده وتعددت أنواعها ، وعمل على تزويد السفن بالبحارة المهرة والعدد والآلات وجدد دار صناعة السفن وزودها بكل ما تحتاج إليه .

وخاض السلطان أبو الحسن بأسطوله معارك بحرية عديدة ضد أساطيل قشتالة وأرغون وانتصر في العديد منها كما انهزم في المعركة البحرية التي دارت عام ٧٤١ هـ حيث اشتركت في ذلك قوات بحرية من الانجليز وأرغون والبرتغال وقشتالة وسفن المدن الإيطالية وقد بارك البابا انتصار هذه الحملة .

وقد كانت كل هذه المعارك تدخل في نطاق الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق . وآلت الأمور في بلاد المغرب الأقصى بعد الصراع بين أبي الحسن وابنه أبي عنان الى أبي عنان فارس (٧٤٩ - ٧٥٩) والذي اهتم باعادة بناء الأسطول المغربي وأعاد توسيع وصناعة السفن وعمل على تعويض ما تفقدته البحرية المرينية من سفن بعد هزيمة القيروان التي هزم فيها العرب والده والعاصفة المدمرة التي أتت على معظم الأسطول . بعد أن كانت دار الصناعة في سلا تساعد دار صناعة سبتة في الأمداد بالسفن اللازمة للبحرية وكانت ذات شهرة عالية في بناء السفن اضافة الى أن أهلها كانوا من المقاتلين والملاحين المهرة .

وقد سار أبو عنان على سياسة والده في توجيه عنايته نحو جبل طارق باعتباره قاعدة بحرية هامة لبلاده ولقد اهتم بهذه القاعدة اهتماما كبيرا وزاد في تحصينها وبناء سور بطرق جبل الفتح وبعث اليه العدد الوفرة والأقوات والرجال والسلاح ، واهتم ببناء أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعته ، وقد حظى الأسطول في عهد السلطان أبي عنان بعناية خاصة وأهتمام زائد حتى أن هذه السفن كانت تصل الى ميناء الاسكندرية بمصر ولقد ترأس قيادة الأسطول المريني عدد من كبار قواد البحر في ذلك

العصر كان منهم من سبتة أو من الأندلس حيث كان مشهودا لهم بالعراقة في القيادة البحرية لا سيما بنى العزقي .

وفي عهد السلطان أبي الحسن المريني كان قائد البحر محمد بن علي بن أبي طالب العزقي الذي تولى القيادة العليا للأسطول وانتصر على أسطول قشتالة وأرغون والبرتغال في مياه الجزيرة الخضراء عام ٤٧٠ هـ / ١٣٤٠ م واستمر هذا القائد في منصبه الى أن قتل بعد وقعة القيروان عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م .

وكانت القوات البحرية تقوم في أوقات مناسبة من السنة بالمناورة البحرية التي كانت تتم مرة أو مرتين الى ثلاث مرات كل عام وذلك طبقا لحالة الاستعداد العسكري وكانت المناورة البحرية يشرف عليها السلطان بنفسه ثم يتقدمهم القائد الأعلى للبحرية .

وكانت المناطق من القبائل العربية والبربرية لا يستطيعون الاعتماد على موارد الاقليم القاطنين فيه فيضطرون الى النقلة والارتحال انتجاعا للكللا وطلبا للمرعى والمعيشة المشهودة .

ومن هنا كان الظاهرة الاجتماعية في ظل هذا المجتمع البدوي أن يشتد التنافر فيه بين السكان وتكثر الهجرات من مكان الى آخر وتثور الفتن وتنتشر الغارات ولا تتعلق القبائل وبطونها بالارتباط بالارض بالصورة التي نجدها في مجتمعات السهول والوديان حيث الاستقرار الدائم وانهم لا يدافعون عن أرض معينة طالما أنه من الممكن الانتقال الى مكان آخر توجد فيه وسائل المعيشة ميسورة انما كان الدفاع عن الاسرة والعشيرة والقبيلة فأصبحت القبيلة محور الحياة في المجتمع المغربي العربي .

ومن هنا كان السكان يرحلون صيفا وشتاء الى جهات تتوافر فيها مصادر الرزق

والعيشة ومصادر الحياة وهذه الحركة المستمرة شمالا وجنوبا فى مختلف مناطق المغرب فى أنحاء أماكن العشب والكلا كمرعى للأبل والماشية كثيرا ما كان يترتب عليها حروب نظرا لقيام قبيلة لسلب مرعى قبيلة أخرى وأراضيها .

ولقد كانت القبائل البربرية أكثر معرفة ودراية بأماكن المرعى والكلا والعشب ومصادر المياه لان هذه أوطانها ، ومن هنا كانت تترك أماكنها للقبائل العربية وتندفع زاحفة غربا وجنوبا فى حركة اخلاء تامة لأماكن استقرارها بعيدا عن مواطن العرب فى بداية الزحف الهلالي . لكن لم يمض وقت طويل حتى عاد البربر الى أماكن واحدة وما صحب الاستقرار من انصهار وامتزاج وحسن جوار ونقل كل القيم والعادات والتقاليد .

لكن ظاهرة النقلة والحل والترحال كانت مرحلة أولى من مراحل الاستقرار الهلالي ذلك لان الزحف الهلالي كما جاء فى أقوال الكثير من المؤرخين كان يتميز بأن العرب المستقرين فى بلاد المغرب كانوا من بدو العرب انتقلوا بأحيائهم وحللهم وخيامهم وجاوروا أهل البلاد من البربر الذين لم يكونوا يعرفون الخيام والتى كان يصحبها العرب معهم والتى كانت تصنع من الوبر والصوف ويسهل هدمها عند غزوهم أو حروبهم .

لكن لم يمض على دخولهم المغرب الا فترة يسيرة حتى بدأوا يستقرون ويتأثرون بالمظاهر الحضارية العمرانية وانتقل بعض زعمائهم من سكنى الخيام الى سكنى القصور وحياة النعيم والرفاهية واتخذوا من الخيول العربية الأصيلة مطية لهم بدلا من الجمال ، ودخلت حياة الرفاهية بين فصائل القبائل العربية وانهم كانوا يعتمدون كثيرا على أنعامهم التى كانت تهتم بها القبائل العربية الهلالية فهم لا يستطيعون أن يستغنوا عنها فى جمع التصارييف .

وكان لكل قبيلة شيخ يتولى ادارتها ورياستها ويكون صاحب القول الاول فى شئونها واليه يلجأ أفراد القبيلة فى كل أمر من أمورها وهو كبير القبيلة أو البطن أو الفخذ ويكون زعيم أو رئيس المجلس القبلى أو ما يسمى رئاسة القبيلة التى تتكون من مجموعة من الأفراد يعاونون شيخ القبيلة وكان شيخ القبيلة يعاونه فى ادارة أمورها أحد أقاربه أو أبنائه أو اخوته بناء على تزكية من أفراد القبيلة أو وجود اجماع عليه ويتم الاختيار لهؤلاء الاشخاص لتمتعهم ببعض الصفات المتميزة كالثروة والوجاهة والفراسة والصفات القتالية أو حسن الأخلاق والسيرة والقدرة على حل المشاكل وإيجاد السبل للتغلب عليها .

وقد كان للقبيلة حق تغيير زعيمها وشيخها اذ ما أساء التصرف وأدى من الاعمال مالا يتلائم مع مصالح القبيلة أو عرض وجودها للخطر أو تسبب فى مذلة أو شرف القبيلة أو أدى من الاعمال ما يمس شرف القبيلة بل أن الأمر كان يصل الى حد القتل والاغتيال عندما يحاول كبار القبيلة عزله ولم يستجب فكان يتم الاتفاق على اختيار من يثق فيه ويجوز الاجماع ويتم خلع من يتولى اذ كانت أفعاله تحقق أهدافا شخصية وكانت الشجاعة القتالية والحربية وكثرة الجمع حوله من أبنائه وأقاربه واخوته الهامه بشتى الطرق ولكن المحاولات باءت بالفشل وانتهى الأمر باستسلام الجزيرة الخضراء فى ربيع أول ٧٤٤ هـ / ١٣٤٤ م .

وهكذا نرى كيف أن الأسطول البحرى المرينى قد لعب دورا هاما فى حركة الجهاد الاسلامى فى الميدان الأندلسى ، ذلك لان دور الاسطول كان يتوقف عليه كل التحركات ولذا فقد كانت سفنه دائما فى أقصى درجات الاستعداد طوال العام وكانوا يختارون من خيرة رجال البحرية المشهود لهم بحسن القيادة والشجاعة والخبرة الطويلة والمران الشديد كما أن توفير المواد اللازمة للصناعة قد أبدى سلاطين بنى مرين اهتماما

شديدا بتوفيرها وامداد السفن المقاتلة وحشدها بالجنود والمعدات والآلات والاستعانة بالخبرة البحرية من الدول المجاورة حتى لو كانوا من دول الاعداء (قشتالة ، أرغون ، جمهوريات ايطاليا) ولقد كانت الاستعانة بالمرتزقة فى البحرية والجيش ثغرة استطاع أن ينفذ منها الأعداء الى أسرار الدولة وقوتها حيث أن هؤلاء لم يكن ولاؤهم على درجة عالية للدولة التى يخدمون فيها ولكن ولائهم كان لأوطانهم الأولى وعقيدتهم السابقة وربما كانوا ولا يزالون عليها .

لكن استطاعت البحرية المرينية أن تقوم بدورها بقدر الظروف العالمية المحيطة وبما توفر لها من امكانيات وطاقات محلية أو عالمية وشاركت أعظم مشاركة وأدت دورها وواجبها ونفذت كل الأعمال التى كانت توكل إليها أما أسباب الهزائم التى كانت تحدث لها فلم تكن ضعفا أو عدم قدرة على القتال ولكن كانت الظروف فوق قدرتها ولا تستطيع مقاومتها وفوق طاقتها ومن هنا كانت تحدث الهزائم التى كانت أقل كثيرا مما تحقق من انتصارات ومن يتصفح المواقف يدرك قوة أسطول بنى مرين والواجب الملقى على كاهل البحرية المرينية .

* * * *

الفصل الرابع

المد المرينى فى المغرب الأوسط والأدنى

منذ أن دخل أبو يوسف يعقوب عبد الحق مراکش عاصمة الموحدين وازال ملكهم فى التاسع من محرم عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م والدولة المرينية ترى نفسها أنها أحق بأملاك الموحدين فى المغرب الأوسط والأدنى وأن خروج بنى زيان فى تلمسان وبنى حفص فى تونس عن الدولة الأم فى مراکش يجب أن يعود الى سابق عهده وأن يتم السيطرة على هذه الدول لكى يقوم المغرب الموحد كما كان فى سابق عهده أيام حكم المرابطيين والموحدين وقد كان هذا خطا ثابتا فى السياسة المرينية سار عليه كل السلاطين بدءا من أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى رأى أنه لابد من وقف خطر بنى زيان وزعيمهم يغمراسن بن زيان على حدود دولته الشرقية ومن هنا كانت معركة وادى تلاغ فى ربيع الأول ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م التى هزم فيها قوات بنى زيان ومن ثم كانت الأنظار تتجه شرقا لتوجيه ضربات لخصمه العنيد يغمراسن الذى كان يهدد دولته وانتصر عليه مرة أخرى فى معركة (اسيلي) بالقرب من وجدة عام ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م وحاصر تلمسان وحصن قادولت القريب من بنى زيان وشحنه بالقوات والعتاد والمؤن ليقف مركزا متقدما لمراقبة يغمراسن بن زيان وتحركاته وكان قبل ذلك قد أمر بهدم مدينة وجدة وتخطيطها حتى لا يحتوى بها يغمراسن مرة أخرى .

وفى عهد يوسف بن يعقوب (٦٨٥ - ٧٥٨ هـ / ١٢٨٦ - ١٣٠٨ م) فر محمد بن ادريس احد أبناء أسرة بنى مرين الى تلمسان ثم ثورة عمر بن عثمان بن يوسف الهسكورى وقد تم نفيه أيضا الى تلمسان وثم ثورة الأمير أبى عامر بن السلطان يوسف وكان السلطان قد عين أحد أبنائه فى اقليم مراکش للحيلولة دون قيام أية حركة انفصالية به خاصة انه كان موطن الموحدين ، لكن الأمير أبا عامر خلع طاعة

أبيه وأخذ الدعوة لنفسه إلى مصر رغم مروره بمناطق استقرار القبائل العربية ببلاد المغرب وكان الركب يحمل معه الهدايا والأموال الكثيرة التي وصلت في إحدى الرحلات إلى مائة وخمسين ألف دينار ذهباً وكسوة للكعبة الشريفة ومصحف مكلل بالجواهر والياقوت والأموال السائلة التي كانت ترسل لتوزع على أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة وهي أموال كان يسيل لها لعاب قطاع الطرق والمفسدين؛ بل أن الركب كان ينعم بوفائه وكرمه وضيافته واستقبال القبائل العربية التي تسكن على طريق الحج.

وهكذا يتضح لنا دور العرب الهلالية في نشر الطمأنينة والأمان والعلم والإيمان والعمل بما جاء به القرآن الكريم ومن كل هذه الخصال والصفات الاجتماعية التي انتقلت إلى المغرب وسادت الحياة اليومية لأهل المغرب نجد ذلك التلاحم والامتزاج والانصهار بين عناصر العرب والبربر مما ساعد على وجود تلك الفرشة العريضة والواسعة من البناء السكاني العربي والاجتماعي في السلوك والعادات والقيم والتقاليد والأعراف التي لا زال يتصف بها الإنسان المغربي الذي يبدو في تصرفاته ملامح الإنسان العربي المغربي الهلالي الذي نقل مفاهيم وحضارة الجوار الحجازي للمدينة المنورة ومكة المكرمة إلى أرض المغرب .

فانتقلت مفاهيم وأعراف وقيم وعادات لم تكن سائدة في البوادي والجبال والسهول حيث كانت الزخفة العربية الأولى قبل منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي يقتصر دورها على العرب المستقرين بالمدن والأمصار والدين أسسوا المدن الإسلامية وأقاموا الدويلات العربية الإسلامية ببلاد المغرب وذلك حتى أواسط القرن الخامس الهجري ، وهكذا كان انتقال القبائل العربية من هلال وسليم ومعدل إلى بلاد المغرب وانتقالها وامتزاجها مع العناصر المستقرة من البربر مظهراً من مظاهر التغير الاجتماعي الذي عرضنا له في هذا الفصل وخدمة للأجيال اللاحقة التي

ورثت مفاهيم اجتماعية ذات أصول عربية راسخة عاشت على تربة المغرب فأنت ثمارها في ذلك الرصيد الحضاري الاجتماعي الزاخر في أوجه الحياة المغربية .

البعد الاقتصادي للزحف الهلالي

لقد أتيح لعرب الهلالية عندما استقرت جموعهم في مناطق استقرارهم بعد أن هادنوا السلطة السياسية واندمجوا مع الكيان السياسي للبلاد التي استقروا بها سواء بنى زيري أو بنى حماد وتعاونهم مع المرابطين والموحدين وانتشارهم في شتى أرجاء المغرب أن تسهم هذه القبائل في تنمية اقتصاد البلاد التي وطنوا فيها حيث أن كثيراً من مدن المغرب المختلفة قد اتخذها الهلالية أوطاناً استقروا بها أو كانت ضواحيها ومراعيها موقع استقلالهم وسيطرتهم ، لقد شارك الهلالية في البعد الاقتصادي للدول التي استقروا فيها فقد كانوا يتحركون في يسر وسهولة كما سبق القول ومن هنا ساهموا في الحركة الاقتصادية وساهموا في تنمية موارد الدول التي استقروا بها سواء كانت زيرية أو حمادية أو مرابطية أو موحدية ثم في العصور اللاحقة مع بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين .

وقد أدخل الهلالية إلى المغرب تربية الخيول العربية الأصيلة التي انتقلت معهم من مصر والجزيرة العربية ولقد كان من الطبيعي أن تهتم القبائل العربية في المغرب بأنواع الحيوانات المختلفة التي جلبتها معها من مصر وبلاد العرب حيث أنها لا تستطيع أن تستغنى عن ممتلكاتها من الأغنام والمواشي والأنعام وقد استفادوا بخبرتهم في الاحتفاظ بسلامة أنساب الخيول والأبل وكانوا يدافعون عن ثروتهم الحيوانية أكثر مما يدافعون عن أى شئ آخر فقد كانوا يحمون بها حريمهم وتعينهم على الإغارة والنجاة وتصحبهم حيثما يكونون حتى أصبحت هذه العلاقة الحيوية بين الفرسان والخيول يضرب بها المثل في التعاطف والتآلف واشتهر بنو سليم وهلال بنى عامر بتوليد وتكثير

الخيول الاصيلة وارتباطهم بهذا الحيوان فقد اعتمد الهلالية على الخيول فى فتوحاتهم فى هذه البلاد المترامية الاطراف فى أواخر القرن الخامس وقبل وفاة المعز بن باديس الزيرى كانت له هديته الى قرطبة خمسين فرسا ثم ألحقها بتسعمائة بعد عودة ابنه من قرطبة، لكن رغم دور الهلالية فى كثرة وانتاج الخيل الى المغرب إلا أنه قتل داخل بلاد المغرب الأوسط بندرومه وانسحبت جميع قوات بنى مرين من جميع بلاد المغرب الأوسط وعلى الرغم من أن السلطان أبا ثابت نفذ مطالب بنى زيان الا أنهم بادروا الى تدمير مدينة المنصورة .

وفى عهد السلطان أبا الربيع سليمان (٧٠٨ - ٧١٠ هـ) وهو شقيق أبى ثابت وحفيد السلطان يوسف بن عبد الحق ، وكان قد عقد اتفاقا لحسن الجوار بينه وبين موسى بن عثمان بن يغمراسن حاكم تلمسان ونفذ موسى الاتفاق ورفض أن يساعد اعداء أبى الربيع سالم عندما راسلوه بعد أن خلعوا طاعته وأحجم عن مساعدتهم.

وفى عهد أبى سعيد عثمان (٧١٠ - ٧٣١ هـ) تعرض لبعض المتاعب اثناء حكمه كان بعضها من جانب بنى زيان فى تلمسان ، ذلك لان بنى زيان بمقتضى الصلح الذى تم بين موسى بن عثمان بن يغمراسن وأبى الربيع سالم كان يقوم على أساس تسليم الثائرين والفارين الى بلاده ، لكن سلطان تلمسان الجديد أبا حمو سهل طريق وصول الثائرين الى الأندلس ومن ثم رأى السلطان أبو سعيد عثمان ضرورة القيام بحملة ضد بنى زيان استطاع بها اكتساح بلاد المغرب الأوسط ومحاصرة تلمسان لكنه عاد مسرعا الى تازى دون أن يحقق أهدافه .

ويعتبر عهد السلطان أبى الحسن بن يوسف وابنه أبى عثمان أزهى عصور بنى مرين فى المغرب الأوسط ، ذلك لأن سياسة بنى مرين فى عهد أبى الحسن كانت

قائمة على امتداد رقعة الدولة والتوسع على حساب من يجاورونه شرقا سواء بنى زيان أو بنى حفص والمغرب الأوسط وأفريقية ، وذلك لتحقيق وحدة المغرب أملا فى أن يصبح الحاكم الوحيد فى المغرب وكان بنو مرين يشعرون أنهم أحق من غيرهم بتلك الزعامة لأنهم هم الوحيدون من سائر القوى فى بلاد المغرب الذين حملوا العبء الأكبر للقضاء على دولة الموحدين ، وكانت أحقيتهم تعود الى أنهم أقوى القوى الثلاث ولما حققوه من الاستقرار والازدهار الحضارى والاقتصادى وكان عهد أبى الحسن على بن عثمان ، وابنه أبو عنان فارس بن أبى الحسن والذى دام قرابة الخمسة والثلاثين عاما هما اللذان أخضعا هذه البلاد ، وأما الجهود التى بذلت قبلهما فلم تكن الا بمجرد غزو أو عمليات تأديبية .

ولقد ساعدت العلاقات القوية التى توطدت بين دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى ودولة بنى حفص فى أفريقية بعد زواج السلطان أبى الحسن من بنات الأسرة الحفصية ، ساعد ذلك القيام بمشروعاته التوسعية فى أفريقية (المغرب الأدنى) بعد أن كان بنو حفص يتعرضون للهجوم والغارات من قبل بنى زيان ، ولقد واثت الظروف المناسبة لأبى الحسن عندما رفض بنو زيان الصلح والتعاون مع بنى مرين وخلف جوا من حسن الجوار والتعايش السلمى بين القوى الثلاث فى بلاد المغرب ولو لفترة مؤقتة ، وتمت سفارة بين أبى الحسن المرينى والسلطان أبى تاشقين الزيانى وكانت هذه السفارة تحوى مطالبة أبى الحسن لبنى زيان بالتخلى عن مدينة تدلس « وأن يرجع الى حدود بلاده شرقا ولو لعام واحد فقط لكن أبا تاشقين أساء الرد ومن هنا بدأت سياسة التوسع المرينى وامتداد السيطرة على المغرب الأوسط وتحركت قوات أبى الحسن ونزلت عند تاسالت فى شعبان ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م الى الشرق من تلمسان وفى نفس الوقت كان الأسطول المرينى الحربى يتحرك نحو تلمسان لمعاونة القوات البرية ونجح

الأسطول المريني في حمل مدد من جنود الجيش المريني من وهران الى بجاية حيث اشتركت هذه القوات مع الجيش الحفصي في الاستيلاء على بعض المدن ومنها بعض الثغور الهامة لبنى زيان وبفضل المساعدة السريعة للأسطول المريني تمكن بنو حفص من اكتساح بعض المدن وأبعدوا عن بجاية خطر بنى زيان ، ولم يتحرك أبو الحسن من مكانه انتظارا لوصول صهره السلطان الحفصي أبي يحيى للاشتراك في الهجوم على تلمسان ، لكن أخبار أخيه عمر حاكم سجلماسة وتعاونه السرى مع بنى زيان بقيادة أبي تاشفين وكانت بنود الاتفاق تقضى بتعاون كل من الطرفين ضد أبي الحسن وانسحب أبو الحسن الى سجلماسة مع ترك قوات تحمى المؤخرة بقيادة ابنه وتمكن من دخول سجلماسة في ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م وقتل أخاه عمر وتوقفت أعمال بنى مرين في المغرب الأوسط مع انشغال القوات المرينية في الأندلس الا أنه في منتصف عام ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م . حاصر بنو مرين مدينة وجدة وتغلب بنو مرين على وهران ومليانة وتينيس والجزائر وقام حلفاء أبي الحسن بالاستيلاء على شرق المغرب الأوسط حتى مدينة لمدية ومضى السلطان أبو الحسن في يسط نفوذه على المغرب الأوسط واقاليمه واستمر حصار تلمسان ثلاث سنوات حتى سقطت في يد أبي الحسن في العشرين من رمضان ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م . ودافع عنها أبو تاشفين الزياني دفاع الأبطال لكنه قتل .

واتخذ أبو الحسن خطوات ادارية لدمج المغرب الأوسط بجميع سكانه مع الدولة المرينية واستطاع أبو الحسن أن يجمع كلمة بنى وابين مع بنى مرين وهم أبناء عمومه وبنى عبد الواد وبنى توجين وسائر زناتة وانزلهم بلاد المغرب وأصبح سلطان زناتة . ولم يكتف السلطان أبو الحسن بما تحقق له في المغرب الأوسط بل أخذ يرنو ببصره متطلعا الى أفريقية رغم المغامرة وحسن العلاقة والصلة . الا أن الفكر السياسى

لهذا القائد الذى دمرته معركة طريف عام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م بل وقتلت طموحاته كان الاتجاه نحو المغرب الأدنى ولذا كان يتحين الفرص للتوسع في المغرب الأدنى للقضاء على بنى حفص حيث كان بنو حفص القوة الوحيدة الباقية التى تحول دون توحيد المغرب كله تحت حكم بنى مرين بزعماء أبي الحسن . وآت الفرصة مواتية له عندما توفى الخليفة أبو يحيى الحفصى عام ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م . وحدثت وفاته خلافات كثيرة فى البيت الحفصى اذ تولى الأمير عمر بن يحيى عرش البلاد بدلا من أخيه أبي العباس أحمد الذى كان وليا للعهد والذى كان شاهدا عليه لدى السلطان أبي الحسن المريني واستطاع الحاجب ابن تافراجين أخذ البيعة للأمير عمر لكنه أخيرا اضطر للفرار الى المغرب الأوسط لدى السلطان أبي الحسن مما أحدث خللا فى صفوف الأمير عمر بن يحيى الحفصى ومن ثم واصل الأمير أبو العباس أحمد تقدمه نحو تونس ودخلها فى ٩ رمضان ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م . ولكن الأمير عمر بن يحيى دخل بقواته من بجاية ودخل المدينة تونس وقتل أخاه الأمير أبا العباس وأخويه خالد وعبد العزيز ، وكانت نهاية هذه الحرب الأهلية لهذه المأساة بداية تدخل بنى مرين العسكرى فى المغرب الأدنى (أفريقية) ذلك لأن السلطان أبا الحسن قد وقع وثيقة ولاية العهد باعتباره صهرا أو شاهدا ، تحرك أبر الحسن فى صفر ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م . الى تونس بعد أن أسند الى ابنه أبي عنان ادارة شؤون المغرب الأوسط ، ولم يكد أبو الحسن يدخل أرض أفريقية حتى انهالت عليه مبايعة حكام الأقاليم .

وكان أبو الحسن قد استجاب لتحريض القبائل العربية الثائرة على الحفصيين بتونس فبعد أن احتل وهران زحف الى أفريقية بقواته من بنى مرين والعرب وأصبح على باب بجاية واثناء ذلك وفد عليه شيوخ عرب أفريقية وامراؤها من نسل عرب الفتح المستقلين ذاتيا بامارات بلاد الجريد الزاب ويسكرة مبايعين ومؤيدين فأقرهم على بلادهم واقطاعاتهم ودخل أبو الحسن المريني تونس فى موكب حافل من شيوخ

القبائل بالمغرب وأفريقية، وهكذا .. استطاع السلطان أبو الحسن المريني أن يعيد للمغرب الكبير وحدته وكذلك وصلته بيعة حاكم طرابلس وكما بايعه عدد من أمراء الحفصيين فإن القبائل العربية أدت دورا كبيرا في تأييد السلطان أبي الحسن فبايعوه ومنهم أمير الزواودة وعرب الكعوب وقتل الأمير عمر بن يحيى الذى سرق عرش البلاد من أخيه أبي العباس أحمد وكان السبب فى السيطرة المرينية وأصبح الطريق مفتوحا أمام أبي الحسن للدخول الى تونس ودخلها فى ٨ جمادى الآخرة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م حيث تلقاه أهلها وأعلنوا مبايعتهم وبهذه الجهود استطاع أبو الحسن المريني أن يجعل المغرب موحدا كما كان أيام المرابطين والموحدين وامتد من مسراته شرقا الى السوس الأقصى غربا والى رندة من عدوة الأندلس وبدأت هذه الانتصارات تحدث آثارها بين سائر القوى فى العالم الاسلامى لكن فى محرم من نفس العام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م حدثت ثورة على أبي عنان فى تلمسان وخرجت عن طاعته مما اضطر أبا عنان الى الفرار منها وزحف أبو الحسن المريني الى تلمسان وحاصر المدينة وأثناء تفقده لحصونها ومعابنته أبوابها فاجأه فرسان بنو زيان بهجوم خاطف مقلدين ما فعله زعيم الأسرة اليعمراسنية ، يغمراسن بالخليفة السعيد الموحدى وكادوا يقتلون أبا الحسن لولا موقف أمير عرب سويد الذى دافع عنه ودخل بنو مرين تلمسان مرة أخرى .

ثم عاد الى أفريقية لكي يعيد تنظيم البلاد وتسليح ثغور أفريقية بالقوات والآلات الحربية وإعادة النظر فى اقطاعات العرب فأراد أن يطبق نظام المغرب الأقصى وترك لهم ما كان فى حدود المعقول أما اقطاعات الأرض للمضواحي والتي تؤدى الى الاستقلال الذاتى ومنافسة الدولة فقد عوضهم عنها برواتب من ديوان الجند والغنى الاتاوات والتي كانت تفرض بالحفارة نظير الحراسة وعدم الاتجار . وبذلك واجهته الأوضاع الاقتصادية فقد كان الخلفاء الحفصيون يذلون العطاء للاعراب وترك لهم الحفصيون

حرية التصرف ، لكن هذه التصرفات أفرغت السلطان أبا الحسن واسترجع هذه الاقطاعات من العرب وكان ذلك يتعارض مع مصالح القبائل العربية . وأدت هذه الاجراءات الى تدمير بعض القبائل العربية بأفريقية فثاروا وأغاروا على معسكرات بنى مرين وقواتهم بثغور المغرب الأدنى وامتدت أيديهم الى أملاك السلطان بضواحي تونس وتآمر العرب والحفصيون لطرده من أفريقية ، وبدأت القبائل العربية حركة مقاومة للغزو المريني فى أنحاء أفريقية وتطورت معارضتهم الى احياء الخلافة الحفصية لكي يعملوا من خلالها على مقاومة بنى مرين ، لكن قوات بنى مرين استطاعت أن تحجز انتصارات أولية على جيش القبائل العربية وقام السلطان أبو الحسن بالقبض على شيوخ العرب الوافدين على تونس للتهنئة بعيد الفطر وتوحدت جميع القبائل العربية وتبايعوا على الموت وصاروا يدا واحدة رغم ما بينهم من عدوات وتأرات ضد بنى مرين وتمكنوا من الحاق هزيمة لأن جيش القبائل العربية كان يزيد عن ثلاثين ألف مقاتل ونجا السلطان بنفسه وتحصن بالقيروان وكانت الهزيمة انتكاسة خطيرة لبنى مرين بعد موقعة طريف الأندلسية فقد قاومه بنو زيان وبنو يوجين ومغراوة وغيرهم وانسحبت من تحالفها مع بنى مرين وحاصر العرب القيروان فى ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م .

وكانت القبائل العربية قد استطاعت أن تستميل ابن تافراجين حاجب بنى حفص وعين العرب أحد سلالة الموحدين وآخر خلفائهم وهو أحمد بن أبي دبوس الموحدى خليفة لهم ودفعوه لحرب بنى مرين داخل تونس ، وما ان شاعت أخبار هزيمة أبي الحسن المريني ومحاصرته بالقيروان وكان السلطان وهو محاصر يقضى وقته فى تلاوة القرآن الكريم الذى كان يحفظ جزءا كبيرا منه وفى سماع الأحاديث الدينية والمحاضرات من مختلف العلماء الذين حرص على تقريبهم وتوالت عليه المشاكل فثارت تونس وقامت العامة من أهل المدينة بمحاصرة بنى مرين بقلعتها ومن بها من

أبناء السلطان وحريمه ووجوه قومه وامناء بيت المال ولم تستطع القوات المرينية المرافقة للأمير أبي سالم إبراهيم بن السلطان والوافدة من المغرب الأقصى كمدد لوالده أن تصل إلى القيروان لفك الحصار حيث انقضت عليها قوات القبائل العربية فلجأ إلى تونس لينضم إلى المحاصرين من بنى مرين وتخلي حاجب الحفصيين ابن تافراجين عن السلطان أبي الحسن وبدلاً من مفاوضة القبائل العربية لصالح سيده أبي الحسن وضع يده في يدهم فقلدوه حجابة سلطانهم أحمد بن أبي دبوس ، وحاول السلطان أبو الحسن التفاهم مع القبائل العربية وعقد عدة اجتماعات مع رؤسائهم وأسفرت هذه الاجتماعات عن حماية القبائل العربية له حتى خروجه من القيروان ، لكنه سرعان ما ظهرت الخلافات العربية القديمة بين القبائل العربية المتحالفة وأنفرط عقد الوحدة وعملت كل قبيلة على الاستفادة من نكبة بنى مرين فوافق أولاد مهلهل على الإفراج عن أبي الحسن مقابل مبلغ من المال ، لكن أولاد أبي الليل لم يكن يعنيه المال لأنه كان اتفاهمهم مقابل إطلاق سراح بعض زعمائهم وشيوخ العرب المعتقلين بالمدينة فوافق أبو الحسن المريني على ذلك ودعم هذا الاتفاق زواج ابنه الأمير أبي الفضل بابنه زعيم عرب الكعوب فأخرجوه من القيروان سرا إلى سوسة وركب إلى تونس وأفزح دخول أبي الحسن إلى تونس ابن تافراجين حيث فر إلى الاسكندرية بمصر وتم القبض على سلطانهم أحمد بن أبي دبوس وسلموه لأبي الحسن وأودع السجن وظل أبو الحسن في تونس ولجأ إلى القبائل العربية تدعيماً لموقفه وظل طيلة عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م وفي شوال ٧٥٠ هـ / ١٣٤٨ م تحرك لاستعادة نفوذه بأفريقية لكن نظراً لهزيمة القيروان وما أشيع عن وفاة أبي الحسن فان ابنه أبا عنان كان قد أخذ البيعة لنفسه واستصدر وثيقة بذلك وأصبح لأبي عثمان الحق في تولية واعتلاء عرش بنى مرين وبويع سلطاناً عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م ، وعندما علم أبو عنان بأن والده لا زال حياً

أرسل إلى عماله بأن يصدوه عن المغرب ويأدر بارسال الولاة الحفصيين إلى بلادهم ليحاربوا أبا الحسن والده ويكونوا حائلين بينه وبين العودة إلى بلاده في المغرب الأقصى .

واستغلت القبائل العربية جو الاقتسام وانضمت إلى الأمير الحفصي أبي العباس الفضل تعاونه على استرجاع ملك أبيائه ودخلت في طاعة الأمير الجديد وطلبت العون من بلاد الجريد وقفصة وقابس وجربه وغيرها من المدن واكتملت الحلقة على أبي الحسن حيث بقايا بنى زيان الذين اجتمعوا في عاصمتهم تلمسان ليبيعوا أميرهم عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى ابن يغمراسن سلطاناً لحياء دولة بنى زيان وتمكن عثمان هذا من الاستيلاء على العاصمة تلمسان وطرده بقايا بنى مرين منها في جمادى الآخرة عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م ، وهكذا حصلت أفريقية والمغرب الأوسط على استقلالها بفضل الدور الذي لعبته القبائل العربية في مساندة الحفصيين في المغرب الأدنى ومساندة بنى زيان في المغرب الأوسط . أما المغرب الأقصى فقد كانت تتصارع قوى أبي عنان بن أبي الحسن وحفيده منصور بن مالك والمغرب يمر بظروف سيئه وتتقاذفه الأمواج فقرر أبو الحسن الرحيل إلى بلاده . وألقت به الأمواج على ساحل الجزائر وتمكن من تجميع بعض قواته وأنصاره واتجه بهم إلى تلمسان لكنه هزم شر هزيمة على يد قوات بنى زيان بقيادة أبي ثابت شقيق السلطان الزياني عثمان بن عبد الرحمن وهزمه عند شديونة وفر أبو الحسن إلى سلجماسة ثم منها إلى مراكش ودخل في حماية واستجارة القبائل العربية لكن أبا عنان قاد حملة ضد والده وهزمه وفر إلى جبل هتانة ومات عام ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م .

وفى كل هذه الأحداث التي جرت على أرض المغرب الأوسط وأفريقية كان للعرب دورهم في الصراع الدائر بين أفراد البيت المريني والذي انتهى بتنصيب الأمير

أبى عنان سلطان فى ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م وتأرجحت طاعة العرب فى مدينة المغرب بين أبى الحسن وابنه أبى عنان وحسم الصراع بينها على أرض المغرب الأوسط وقامت عرب سويد بالقضاء على ثورة أبى العنان وحلفائه من بنى زيان وعرب بنى عامر . .

وزاد الأمر سوءا بتحول عرب أولاد أبى الليل الى الحفصيين ومحاصرتهم لأبى الحسن المرينى بتونس عدة مرات ومبايعة امارات الجريد للأمير الفضل الحفصى فلم يسع السلطان أبى الحسن الا أن يقرر العودة الى المغرب ويترك تونس وركب البحر فى أسطول ضخيم (خمسمائة قطعة) فى فصل الشتاء قاصدا المغرب . فلم يلبث أن هاج البحر وغرق الأسطول بمن فيه من علماء وجنود وخلص السلطان على قطعة خشب من بقايا سفينة غارقة ونجا بنفسه الى الجزائر تاركا ابنه فى تونس فحاصرت القوات الحفصية وكادوا أن يتفكوا به وبأنصاره لولا تدخل عرب ابن حمزة الذين من عرب الكعوب اصهاره الذين أخرجوه الى مخيماتهم وأوصلوه الى أبيه عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م ، وهناك فى الجزائر اجتمعت عليه ووالده أبى الحسن قوات كبيرة من عرب سويد والديالم والحرب وحصين وغيرهم ، والتف حوله عرب الثعالبه فزحف بهم نحو تلمسان والتقى بقوات بنى زيان وحلفائهم من عرب بنى عامر بقيادة الأمير أبى ثابت شقيق الخليفة الفضل الحفصى ودارت الدائرة على القوات المرينية ومن تحالف معها وفر أبو الحسن وولده الى الصحراء حتى بلغ سجلماسة بالمغرب الأقصى عزما على استرداد ملكه .

وتولى أبو عنان بن أبى الحسن المرينى الحكم (٧٥٢ - ٧٥٩ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٨ م) وكان يخطط للتوسع فى المغرب الأوسط وأفريقية ومحاولة استرداد ما فقد فى عهد أبيه وكانت العلاقة مع بنى زيان فى تلمسان فى صراع دائم حيث كان بنو زيان يمثلون فى نظر أبى عنان قوة لا يستهان بها رغم تحالفه معهم وقد بقى بنو زيان

يثبتون أقدامهم فى المغرب الأوسط بعد هزيمتهم لأبى الحسن وابنه أبى الفضل . ومحاولة إعادة بناء دولتهم فانه كان لايد من كسب رضا ومودة أبى عنان ومن ثم قاموا بارسال وفد كبير على رأسه مشايخهم للتهنئة بالعرش ولتوقيع معاهدة السلام وتعاون وحسن جوار وكان بنو زيان فى تلك الفترة يشعرون بنوع من التبعية ، لكن عندما استردوا أنفاسهم وأقاموا صرح دولتهم وتكون جيشهم وتحسنت أحوالهم الاقتصادية ونمت حركة التجارة الخارجية والداخلية أحسوا بكيانهم السياسى وقوتهم فرفضوا طلب أبى عنان فى شفاعه كبير قبيلة مغراوة واعتبروا ذلك تدخلا فى شئونهم الداخلية وأن فى هذا مساسا بسيادة الدولة وغضب أبو عنان من ذلك الرفض ومن ثم كان يحس أنه القوى عدة وعتادا فاتخذ للأمر عدته وحشد قواته للاستيلاء على المغرب الأوسط ، وفى أوائل عام ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م . رفع درجة الاستعداد القصوى وتحركت قواته وعلى الجانب الآخر كان السلطان الزياني أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن وأخوه أبو ثابت عن طريق جواسيسهم وعيونهم التى كانت ترصد كل هذه الاستعدادات على علم بكل هذه الحشود واتخذ للامر عدته وأهبطه واستعدا لملاقاة أبى عنان والتقى الجمعان فى « أنكاد » فى ربيع ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م . والحق بهم أبو عثمان هزيمة قاسية وسقط سلطانهم أبو سعيد عثمان أسيرا وفر أخوه الأمير أبو ثابت بعد أن حافت بهم الهزيمة لكن أبا ثابت يثبت لبعض الوقت لكنه هزم عند مدينة شلف وفر الى شرق المغرب الأوسط ولكنهم فى النهاية قتلوه واستقر الأمر لبنى مرين وأبى عنان فى المغرب الأوسط مرة ثانية .

وكان زعيم قبائل عرب سويد والمقل سببا فى هزيمة بنى زيان حيث قام ومعه أتباعه من العرب بمتابعة الفارين من ميدان المعركة حتى تمكنوا من أسر وقتل الأمير أبى ثابت وانتقموا لهزيمتهم السابقة التى أوقعها بهم هذا الأمير فى عهد أبى الحسن

المرينى وكافاه أبو عنان فأقطعه بلاد السويد وقلعة أبي سلامة وكثيرا من بلاد توجين .
 وكان على أبي عنان أن يتابع السير للسيطرة على بلاد الحفصيين فى المغرب
 الأدنى حيث كان ينظر الى امراء البيت الحفصى الذين يتولون حكم الولايات
 والأقاليم ما هم الا عمال عاديين شأنهم شأن بقية عمال الدولة فى المغربين الأوسط
 والأقصى بحيث يمكن عزلهم واقصاؤهم من وظائفهم واحلال آخرين بدلا منهم أو
 نقلهم الى ولايات أخرى بدلا من التى يتولون حكمها ، وكانت بعض المشاكل
 الداخلية فى أعوام ٦٥٤ - ٦٥٥ هـ تحول دون الاتجاه أكثر بعدا الى الشرق فاكتمت
 بالسيطرة على بجاية وقسنطينة ، لكن لم يأت عام ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م حتى كانت
 الاستعدادات فى المغرب الأقصى تجرى على قدم وساق لقيام بنى حفص بالاعتداء على
 بعض ولاه بنى مرين وعزلهم وطردهم من البلاد وكان ذلك يشكل انتهاكا صارخا
 للنفوذ المرينى واعتداء على الوجود المرينى فى أفريقية وتحركت القوات المرينية نحو
 قسنطينة وعزل السلطان الحفصى أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر وأرسله أبو
 عنان الى سبتة وأحدث استيلاء أبو عنان على قسنطينة رد فعل عنيف فى أفريقية ،
 حيث قام امراء المدن والأقاليم من فورهم بارسال البيعة لأبى عنان وكذلك شيوخ
 القبائل العربية وزعمائها وقبائل البربر الكبيرة وخطب لأبى عنان فى سائر أنحاء أفريقية
 فيما عدا مدينة سوسة والمهدية وتوزا ، ثم رحل أبو عنان الى تونس ودخل فى صراع
 مع القبائل العربية وحاول السيطرة عليها الا أنها أعلنت عصيانها وحاول أبو عنان
 القضاء عليهم الا انهم توغلوا فى الصحراء ولم تجرؤ جنود بنى مرين على التوغل وراء
 المجهول فى الصحراء الواسعة حتى لا يصيبهم ما أصاب أبا الحسن وقواته من قبل
 وعادوا الى المغرب الأقصى ورفضت بعض القبائل التبعية لبنى مرين مفضلة عليهم بنى
 حفص لكنهم يتمتعون بكثير من الحرية ولأن بنى مرين كانوا يطبقون فى المغرب

الأدنى نفس الأساليب الادارية والتنظيمية التى كانوا يطبقونها فى بلاد المغرب الأقصى
 ومن هنا فان تحقيق وحدة المغرب بين الأقاليم الثلاثة قد فات أوانه وبات ضربا من
 المستحيل ولم يمض وقت طويل على عودة أبى عنان الى المغرب الأقصى حتى مرض
 ومات فى ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م .

وبوفاة أبى عنان انتهت آخر مرحلة من مراحل توحيد المغرب ومن النفوذ المرينى
 فى بلاد المغربين الأوسط والأدنى كما أن وفاة أبى عنان كانت آخر حلقة من سلسلة
 سلاطين بنى مرين الأقوياء وأسدل الستار على النفوذ المرينى شرقا فلم يحاول أى من
 السلاطين الذين حكموا من بعده القيام بأية غزوة فى الأقاليم وأكتفوا بالقيوع فى
 قصورهم ولم نعد نسمع عن حشود مرينية بعد حدود المغرب الأقصى شرقا فى اتجاه
 بنى زيان أو بنى حفص .

* * * *

الفصل الخامس

مظاهر حكم بنى مرين وانجازاتهم فى المغرب الأقصى

٦٥٦ - ٨٧١ هـ / ١٢٥٨ - ١٤٢٧ م

تكون مجتمع المغرب الأقصى فى عصر حكم بنى مرين فى مجموعات بشرية ساهمت فى بناء هيكل وشكل الدولة ولعب كل منهم دورا فى قيام هذه الأسرة بالحكم طوال ما يقرب من قرنين من الزمان وقد شكل البربر بصفة عامة وبنو مرين بصفة خاصة السواد الأعظم للمجتمع المرينى لأنهم كانوا عماد الدولة بل العمود القوى الذى ارتكزت عليه الدولة فى قيامها حيث أنهم هم الذين بسطوا نفوذهم على الحكم بالقوة وكانوا هم صفوة المجتمع وبسطوا نفوذهم على قبائل البربر الأخرى فهم الطبقة الحاكمة والوزراء والقادة والحجاب وعلية القوم لا سيما بن حمامة وكان لهذه النزعة أثر كبير فى غلبة عناصر بنى مرين فى مدن البلاد المغربية وفى الحواضر الكبرى كفاس وبفضل اعدادهم الكبيرة استطاعوا السيطرة على كل المدن اضافة الى بوادى البلاد وأصبحوا حكاما للولايات ونجحت كل قبائلهم فى حفظ التوازن مع القوى الأخرى سواء كانت عربية أندلسية أو قوى أخرى أصبحوا هم من بيوتات فاس الكبرى وتغير حالهم من البداوة الى حياة المدينة بصورة واسعة وقد كان ذلك أكثر الأشياء ألما على نفوس الأندلسيين الذين كانوا أسبق فى مجال الحياة المدنية والحضارة لان تجمع بنى مرين ضم بعض الأندلسيين حيث كانوا قلة فى أول عهد بنى مرين ثم ازداد عددهم مع جهاد بنى مرين فى الأندلس وقد بدأت هجرتهم الى البلاد المغربية فى القرن السادس وأصبحت مراكش مركز الشغل السياسى للأندلسيين ثم كانت فاس وكانت هجرة الأندلسيين الى المغرب الأقصى أكثر منها الى البلاد الشرقية كالمغرب الأوسط والأدنى .

ولقد حاول بنو مرين جمع طاقات الأندلسيين للاستفادة بهم ضد نصارى الأندلس المتربصين الدوائر بالاسلام فى تلك الديار كما ضم مجتمع المغرب الأقصى فى عصر بنى مرين بعض العرب وقبائلهم الكثيرة وقد بدأت هذه القبائل العربية فى التوسع نحو المغرب الأقصى بعد الفتح الموحدى فى هضبة الشطوط واستعان بهم بنو مرين فى مجابهة نصارى الأندلس وكانت قبائل رياح من الجشم تسكن بلاد الهبط من قصر كنانة والمحيط وجشم وهم الخلط وسفيان وجابر بلاد تامسينا وغمارة مما يلي ساحل طنجة الى سلا وظل لهذه القبائل وجود قوى لا سيما فى حوض سيو ووادى أم الربيع وأزمور وأصبح لهم كيان فى المناطق الساحلية والسهول وانتشر عرب المعقل قرب فج تازا ونتيجة لهذا الوجود العربى فقد تعربت بادية المغرب الأقصى وطبعت بالطابع العربى .

ولم يعتمد بنو مرين على القبائل العربية حتى التى حملت لواء المعارضة ضد الوجود المرينى فى بلاد المغرب الأوسط والأدنى وساهمت فى اعادة بنى حفص فى افريقية وبنى زيان فى تلمسان مرة ثانية وقد ارتبطت الأسرة المرينية الحاكمة ببعض القبائل العربية برباط النسب فتزوج يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ - ٦٨٥ هـ) أرملة أمير عرب سفيان الثائر عليه بعد وفاته ٦٨٠ هـ ، كما تزوج بنت أمير عرب الخلط صاحب الدور الشهور فى غزوات الأندلس وأنجب منها ابنه عثمان الذى تولى حكم المغرب ٧١٠ - ٧٣١ هـ وقد تمركزت هذه القبائل فى المواضع المشار اليها وفى كثير من أماكن المغرب الأقصى ، ولقد كانت هذه العناصر الثلاثة (البربر - العرب - الأندلسيين) تشكل عصب المجتمع المرينى اضافة الى أقليات أخرى كثيرة منها الغز أو الأتراك أو الأكراد ويطلق عليهم الأغزاز وهم من المماليك المصريين وقد ظهوروا فى المجتمع المغربى فى عهد المرابطيين وكانو مصدر خطر فى عهد الموحدين ثم أصبحوا

يشكلون عنصرا قويا في الجيوش نظرا لشجاعتهم ونكايتهم في عدوهم حتى التي دفعت الموحدون لاستخدامهم في الجيش الموحدى ثم جاء بنو مرين واستفاد منهم استفادة كبيرة وظل ذكرهم يتردد في الأعمال العسكرية ويبدو أن بعضا منهم قد تولى اماره بعض الولايات ويأتى بعدهم الروم وقد شهد القرن السادس حركة تجارة واسعة في الرقيق الرومى وكانت بجاية المركز الرئيسى لهذه التجارة مع حركة الحروب فى عهد المرابطين والموحدين وبسبب المعارك ازدادت أعدادهم فى بلاد المغرب الأقصى وقد عملوا عبيدا أو خدما اضافة الى عملهم كجنود فى الجيش وكخصيان فى القصور وكثير منهم الجند الرومى وطبيعة عملهم العسكرى فرضت وجودهم فى المدن الكبرى مثل فاس ومراكش ومكناسة ولاسوس ويبدو أن بعضهم أسلم أو تظاهر بالاسلام وكانوا يشكلون فرقة من فرق الجيش وكان قائدهم يطلق عليه قائد جند النصارى .

ويأتى بعد ذلك اليهود ، وقد برع يهود المغرب فى التجارة فكثرت ثراؤهم لا سيما فى فاس فى عهد بنى مرين وقد كان القرن السادس والسابع الهجرى عصر الازدهار المالى لليهود فى المغرب وقد استأنفوا مسيرتهم مع بنى مرين بعد تنحية الموحدون وكان لهم دور فى الحياة السياسية فى الدولة المرينية حتى كان منهم صاحب السلطان يعقوب بن عبد الحق وقد أدى تحكم اليهود فى مقاليد الأمور فى دولة بنى مرين الى مقتل آخر سلاطينهم وهو عبد الحق المرينى وقد كانوا أكثر عملا فى الخطط الادارية واشتغلوا فى الادارة المالية والوزارة والحجابه وقد غدوا أصحاب أموال ممدودة وأنهم عملوا فى الصياغة المصرفية وكان لهم الدور الرئيسى فى الأعمال المصرفية (طبيعة اليهود فى كل العصور) اضافة الى عناصر أخرى وغيرهم من الأقليات فى المجتمع المرينى .

ومن هنا يتضح أن سكان المغرب فى العصر المرينى كانت الغالبية العظمى من

البربر والعرب وأن تعددت بعض العناصر الأخرى نتيجة هجرة الأندلسيين والغزوات المستمرة من نصارى أسبانيا والنزاع من قبائل المغرب الأوسط والأقصى والأدنى ولا شك أن هذه الأحداث قد أثرت على شكل ونظام الدولة والنشاط الحضارى والثقافى وغيره من الأنشطة الأخرى للدولة .

النظام السياسى :

ظهر بنو مرين على المسرح السياسى فى بلاد المغرب الأقصى كقوة سياسية وعسكرية منذ عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م عندما اسقطوا نظام الخلافة الموحدية وقضوا على آخر سلاطينهم أبى دبوس فى مراكش ، ولقد كان نظامهم فى الحكم والسياسة يختلف كل الاختلاف عمن جاورهم شرقا من بنى زيان الذين استقلوا عن الموحدون بالمغرب الأوسط عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م وعن بنى حفص الذين استقلوا بالمغرب الأدنى عام ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م لكن كفاح بنى مرين ضد الموحدون لم يكن بين ليلة وعشاها بل استغرق خروجهم على الدولة الموحدية حتى اسقاطها ما لا يزيد عن خمسين عاما ، ولما كانت ثورتهم لتحقيق العدالة الاجتماعية وشعور المواطنين بالأمن والأمان ولم تكن لهم أهداف دينية أو فكر دينى يدعون له كالمرابطين أو الموحدون بل كانوا أصحاب فكر سياسى أكثر منه فكر دينى .

وقد كان السلطان هو رمز الحكم والسياسة فى البلاد واتخذ بنو مرين نظام السلطنة شعار الحكم بدلا من الخلافة التى كان يتخذها الموحدون وبنو حفص فقد عمل الأمير عبد الحق منذ أن شغل فكرة قيام دولة مرينية فى أن يكون لقبه السلطان بدلا من الخليفة وقد سار رؤساء بنى مرين على هذا الخط فتلقبوا جميعا بلقب سلطان وقد كان السلطان يتولى عن طريق البيعة ولا تصح له السلطة الا بعد مبايعته

فكانت البيعة تتم أولا عن طريق أشياخ بنى مرين وأهل الحل والعقد وعليه القوم وقواد الجيش وكبار رجال الدولة على بيعة خاصة وهؤلاء يكونون مجلس وصاية على العرش وبعد ذلك تتم البيعة العامة ويقوم بها كبار رجال القبائل والقبائل جميعها التي تفد الى القصر السلطاني بالعاصمة وجموع الشعب وقد ظل بنو مرين يتخذون لقب أمير المؤمنين أو أمير المسلمين حتى اسقاط الدولة الموحدية في عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م .

وكان السلطان يعاونه مجلس استشاري مكون من أشياخ ويضم رؤساء بعض القبائل العربي وكان نظام الحكم شوري وليس ملكيا استبداديا كما صور ذلك كتاب الغرب اذ كان السلطان يرجع الى مجلس الأشياخ في كل الأمور التي تهم الدولة كاعلان حالة الحرب والتعبئة العامة وجمع الضرائب وارسال السفارات أو عقد المعاهدات وذلك تطبيقا لقوله تعالى : (وشاورهم في الأمر ، وأمرهم شوري بينهم) .

وكان يلي منصب السلطان مباشرة ولي العهد وهو من المناصب الهامة في الدولة وكان الغرض من تعيين ولي العهد وأخذ البيعة له هو المحافظة على تسلسل الحكم في البيت الميريني ، وكان ولي العهد يقوم بمنصب نائب السلطان ويقوم أحيانا بقيادة الجيوش نيابة عن السلطان ويتولى الحكم في البلاد عندما يغادرها السلطان الى الأندلس أو المغرب الأوسط (السلطان أبو الحسن واختار ابنه أبا عنان حاكما على المغرب الأقصى أثناء حملاته على المغرب الأوسط وبلاد أفريقية) ، وكانت ولاية العهد تسبب كثيرا من الخلافات من أفراد الأسرة الحاكمة عندما يموت السلطان فجأة وتحدث الاختلافات .

وكان يلي منصب ولي العهد الوزير أو كبير الوزراء الذين كانوا دائما من أصحاب السيف وكان الوزير رابطة السلطان والرعية ، وكان ديوان الانشاء والكتابة من أهم وأخطر الوظائف المعاونة للسلطان الميريني وكان ذلك الديوان يضم عددا كبيرا من

الكتاب الذين يقومون بكتابة الكتب والرسائل وكان سلاطين بنى مرين يسندون الى كتابهم بعض المهام الأخرى التي رفعت من شأن الوظيفة وأصحابها .

وكانت وظيفة الحاجب وظيفه تنظيمية وهي أن يقوم الحاجب بباب السلطان ليكون صلة ربط بينه وبين الرعية حيث لا يتداخل ذلك مع وظيفة الوزير وهو يترأس مجموعة الحرس السلطاني بباب السلطان وكان سلاطين بنى مرين يعينون بعض حجابهم أما من عبيدهم المخلصين أو من أهل الذمة أو من الخصيان من أهل الثقة .

وعندما تولى السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق السلطة كاملة في البلاد فانه عمل على اعادة التنظيم الاداري للبلاد وأقاليمها المختلفة فبدل النظام الموحدى الذى كان معمولا به فى السابق والذى كان يقسم البلاد الى ستة أقاليم رأسية فأضاف عليها بنو مرين ثلاثة أقسام أخرى ليصبح تسعة أقاليم وجعلوا كل اقليم مستقلا بذاته عن الأقاليم الأخرى وكانت سبته الميناء الهام لها وضع خاص اذ أسندت ادارة هذه الأقاليم والأنحاء التابعة له لأسرة العزفى ، وكان كل حاكم اقليم له مسؤوليات محددة ملتزم بتنفيذها وعليه واجبات لا بد أن يؤديها قبل الدولة والعاصمة فاس وضمت ادارة الحكم دواوين مختلفة كل ديوان عليه مسؤوليات محددة مثل ديوان العسكر وتولى أمور الجيش والبحرية وديوان الخراج والأراضى الزراعية وديوان الأنشاء ، وغيرها من الدواوين المختلفة والى جانب هذه الدواوين كانت هناك وظائف لها نظارات كنظارة الأحباس والأوقاف .

كذلك أبدى سلاطين بنى مرين اهتماما خاصا بالقضاء وذلك لاشاعة العدل بين الرعية والحكم بالكتاب والسنة المطهرة واحساس الناس بالطمأنينة والأمن على حياتهم وممتلكاتهم والشعور بالأمن والأمان ولقد كانت هذه فلسفة حكمهم التى قام عليها النظام ذلك لأن تنظيم القضاء والعيش فى جو من العدالة يحقق الاستقرار

الادارى للدولة وتسير الحياة وفق متطلبات القيادة السلطانية ، وكان منصب قاضى الجماعة فى المغرب الأقصى والذى يعادل منصب قاضى القضاة فى بلاد المشرق من أخطر الوظائف فى الدولة لأنه يلى منصب السلطان مباشرة ولأنه منصب الفصل فى القضايا بين الناس ولقد حرص سلاطين بنى مرين على تعيين أكثر قضاة دولتهم بأنفسهم لا سيما قاضى الجماعة نظرا لأهمية المنصب وجلاله .

وكان قاضى الجماعة (قاضى القضاة) يتبعه من حوله القضاة الذين يتوزعون فى الولايات والأقاليم والذين كان يتم اختياره لفترة معينة لا تطول حرصا على عدم الالتزام بالمبادئ التى عينوا عليها وكان يوجد بجانب القضاة القضاء العسكرى وكان السلطان يعينه للفصل فى القضايا الهامة بالجيش وللإفصل فى القضايا داخل هذا الجهاز الحاكم الهام والحيوى للدولة وكانت السمة الغالبة فى القضاء هو الصلاح والتقوى والتفقه الشديد فى قضايا الدين والفقه والخوف الشديد من الله والحرص على التزام العدل والنزاهة .

وقد أسند الى القاضى احيانا القيام بمهمة السفير لدى الدول الخارجية كبلاد المشرق العربى ، لبنى زيان وبنى حفص وبنى الأحمر وقشتالة وأرغون وغيرها من الدول ذات العلاقة بالمغرب الأقصى فى العصر المرينى .

اضافة الى أن سلاطين بنى مرين قد حرص العديد منهم على الجلوس للنظر فى المظالم التى ترفع اليهم والتى تتطلب حكمهم . وكان السلطان أبو الحسن المرينى يجلس يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع للنظر فى المظالم بنفسه وأبدى سلاطين بنى مرين حرصا شديدا على اشاعة جو من العدل بين الرعية تمكيننا لهم للعمل خارج القطر وحماية للجبهة الداخلية .

كما أن نظام الشرطة كان معمولاً به فى دولة بنى مرين وكان صاحب الشرطة فى كل اقليم من أقاليم الدولة يأتمر بأمر الوالى أو حاكم المدينة وكان يوجد الى جانب ذلك ديوان الحسبة وهو معاون للقضاء والشرطة ووظيفة المحتسب هى البحث عن المنكرات والمحافظة على المصالح العامة وقد اهتم بنو مرين بهذه الوظيفة اهتماما كبيرا وكان صاحب الحسبة أحد عناصر الادارة الهامة فى كل مدينة من مدن الدولة المرينية .

وأقام بنو مرين نظامهم الحالى من الجباية على أساس أن كل والٍ من ولاية الاقاليم مسئول مسؤولية كاملة عن الجباية فى اقليمه والاتفاق فى ولايته ثم يبعث بما تبقى للادارة المركزية فى العاصمة وكانت الولايات التسع المقسمة اليها الدولة تخضع لاشراف دقيق من الناحية المالية وكان المشرف على الجباية يسمى كاتب الجباية أو صاحب الأشغال وقد أطلق على هذا الديوان فى عهد أبى عنان بن أبى الحسن اسم ديوان الجند والحساب .

* * * *

الحركة الثقافية والفكرية في عهد بني مرين

شهد القرن السادس والسابع الهجريان نموا ثقافيا في بلاد المغرب الأقصى في ظل حكم بني مرين فقد أدى طرد الكثير من المسلمين من الأندلس وفرار الكثير منهم الى المغرب الأقصى بفنهم وعلمهم وثقافتهم احتفاء في جو الاستقرار الذي فرضه بنو مرين على بلادهم ولقد كان طبيعيا ان يعتصم هؤلاء ومن بينهم العلماء بأقليم بعيد عن متناول أيدي نصارى الأندلس اضافة الى حركة الهجرة من الشرق حيث تابع العلماء نشاطهم الثقافي فالتجأ أغلبهم الى مدارس المغرب الأقصى في فاس ومراكش وسبتة وطنجة واغمات (تلمسان تحت حكم بني مرين) فكانت الثقافة والحضارة الاسلامية في أشد قوتها وعنفوانها في عصر بني مرين وبرزت فاس عاصمتهم متفوقة على جميع مدارس المغرب وبرزت في ميدان الحضارة وتألق نجمها في عالم الفكر والثقافة .

ولقد ساعد على ذلك حصاد قرنين من النشاط العلمي والثقافي بفعل جهود المرابطين والموحدين وجاء بنو مرين ليجدوا حقلا خصبا ومجالات ثقافية وعلوما وآداب نزهو بها بلاد المغرب الأقصى ولكن بنو مرين عملوا من جانبهم على الانطلاق بخطوات أوسع في تلك المجالات الفعلية التي أتاحت للعقلية المغربية أن تبذل في عطاءها . والذي ساعد على ذلك أن سلاطين بني مرين لم يقيموا دولتهم على فكر ديني معين ولم يفرقوا بين العلماء واحتضن السلاطين في مجالسهم العلماء على اختلاف مستوياتهم ولذلك شهد عصر بني مرين بالمغرب الأقصى وجود أكبر حركة ثقافية وعلمية وفكرية شهدتها البلاد طوال تاريخها الاسلامي .

فقد شهد المغرب الأقصى ذلك العدد الضخم من المدارس العالية المتخصصة التي انتشرت في طوال البلاد وعرضها على نحو لم تشهده البلاد من قبل إضافة إلى أن

هذه المدارس قد امتدت الى المغرب الأوسط تحت سيطرة بني مرين .

ولقد أسدى سلاطين بني مرين للعلم والحضارة الثقافية الاسلامية اليد الطولى ومكنوا المدارس العليا وعلماءها لا سيما مدرسة الطب العليا في سلا ، من متابعة الرسالة المقدسة للعلماء بعيدا عن كل ما يهددهم أو يقطع عليهم جهودهم في البحث والعطاء لا سيما أن السلاطين أجزلوا لهم في العطاء ومنحوهم كل الفرص للإبداع وقد أدى ذلك الى اختراع وانتاج المدافع الحربية التي تقذف النيران وغدا هذا السلاح مستعملا فيما بعد واخترع العلماء الأسلحة الجديدة والتي تشبه المدفع وكانت مجهزة بآلات قاذفة وهي النفط .

وقد صان المرينيون تراث الحضارة الاسلامية الذي ورثوه عن المرابطين والموحدين وعملوا على دفع هذه الحركة للأمام استفادة منها في كل المجالات وبسطوا ظل حمايتهم على العلماء واخذت مدارس المغرب الأقصى لا سيما مدارس فاس وسبتة وسلا في كنفهم تزداد تفوقا وتألق نجمها حتى لقد قيل ان جامعة فاس هي أقدم الجامعات العلمية (أنظر كتابنا : الاسلام والثقافة العربية في أوروبا . القاهرة ، ١٩٧٩) في العالم وأنها ورثت تقاليد مدرسة القيروان وصار لهما السبق في مضمار الثقافة الاسلامية وقد ظلت هذه الجامعة التي شد اليها المغاربة والمشاركة الرجال تغذي الحياة الثقافية في العالم الاسلامي طيلة أربعة قرون .

ولم يضع سلاطين بني مرين أدنى العوائق أمام العلماء المغاربة وغيرهم من علماء الأندلس وأدبائهم المهاجرين الى المغرب الأقصى وتمتعوا ببعض المميزات التي يتمتع بها أبناء المغرب بل لقد انضم كثير من هؤلاء العلماء الى مجالس سلاطين بني مرين وشغل بعضهم مناصب عليا في الدولة وقد أدى ذلك الى تطعيم الحركة الفكرية والعلمية وتعميق جذورها في المجتمع المغربي حتى غدت فاس عاصمة الفكر والعلم

والحضارة والثقافة الى جانب أنها العاصمة السياسية وكانت مجالس السلاطين عبارة عن ندوات علمية تطرح فيها الأفكار وتناقش وكان شغف السلاطين بالعلم وحبهم العلماء دافعا لعقد هذه المجالس العلمية وكانوا يعقدون هذه المجالس للمناظرة والمحاضرة ومطارحة الأفكار بين الأدباء والعلماء ورجال الدين والفقهاء والشعراء .

وكان السلطان أبو الحسن وابنه أبو عنان من محبى هذه المناظرة ومجادلة العلماء وكان الأخير عارفا بالمنطق وعلوم الرياضة والفلك وأصول الدين ، وقد شهد البلاط المريني فى عهد أبى الحسن أعظم مجالس العلم والعلماء التى شهدتها الدولة حيث احتضن البلاط المريني فى عهده حشدا من العلماء لا يحصى عددهم ، حتى أن المصادر تذكر أن أسطول أبى الحسن عندما غرق فى مياه تونس فى فصل الشتاء كان من بين سفينه الغارقة (خمسمائة قطعة) عدد من العلماء لا يقل عن أربعمئة عالم فى التخصصات المختلفة .

وكانت المساجد تقوم برسالتها كما قصد هذه المساجد العلماء والعباد وقاموا بدورهم فى تقديم الفتوى والفقهاء وعلوم الدين للناس اضافة للمدارس المتخصصة . وكان السلطان أبو الحسن من أبر سلاطين بنى مرين بالعلماء وأعرفهم بقدرهم وكان يحرص أشد الحرص على تتبع أخبار العلماء فى أنحاء البلاد وكان يضم النابهين وأصحاب الاختراعات العباقرة منهم الى مجلسه وأجرى عليهم العطايا وقد شجع سلاطين بنى مرين حركة التأليف والوراقة وساعدوا العلماء على الاكثار من المخطوطات حيث كانوا يجزلون ويزيدون لهم العطايا على مؤلفاتهم الجديدة وتشجيعا لهم على مواصلة الحركة العلمية وكانت جوائز السلاطين لهؤلاء العلماء سخية .

كما اهتم سلاطين بنى مرين بخزانات الكتب وتعيين الموظفين عليها ووقف الأموال عليها وفتحها للطلاب للبحث والدراسة واهتم أبو الحسن وابنه أبو عنان بتزويد

هذه المكتبات بالمخطوطات وشرائها من دول المشرق والأندلس والاعتزاز بهذه الخزانات من الكتب .

وقد اهتم بنو مرين بالمدارس وتعتبر المدارس المرينية أبلغ دليل على روعة الحضارة الاسلامية المغربية والأندلسية ذات الطابع المريني حيث قدموا اللوازم لهذه المدارس ومتطلباتها حيث كان الطلبة يقيمون فيها على نفقة السلطان المريني واهتموا بها لاتخاذها ميدانا لتدريس الفقه المالكي عملا على القضاء على مذهب التوحيد (الموحدين) وقد أنشأ المرينيون مدارسهم على نمط جديد لم يعهده المغرب من قبل وهى مدارس التعليم العالى المتخصص والسكن الداخلى للطلاب بعد أن كانت العصور السابقة تشهد لقاء العلماء لدروسهم فى المساجد وبصفة خاصة مسجد القروين وقد بنى سلاطين بنى مرين مدارسهم فى العاصمة فاس وغيرها من مدن المغرب الأقصى .

وكانت مدرسة الصغارين أولى المدارس التى أنشأها السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بالقرب من السوق الذى يضع فيه النحاس الأصفر وجاء السلطان أبو سعيد عثمان المريني فاهتم ببناء المدارس فى فاس وخاصة مدرسة العطارين ومدرسة المدينة البيضاء وغيرها الكثير من المدارس الأخرى ولم يكتف سلاطين بنى مرين بانشاء المدارس فى العاصمة فاس بل أنشأوها فى سائر بلاد المغرب الأقصى والأوسط وانشأ السلطان أبو الحسن مدرسة فى مدينة تازى ومكناسة وسلا وطنجة وسبتة وانفا وأزمور واسفى واغمات ومراكش والقصر الكبير والعباد بالقرب من تلمسان وبالجزائر مدارس أخرى وأنشأ أبو عنان بن الحسن المدرسة العنائية وكانت متخصصة فى الطب وأنشأ أبو عنان بن الحسن المدرسة العنائية عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م . وقد أراد بنو مرين التوسع فى العلم بانشاء المدارس الكثيرة على نحو لم تعرفه بلاد المغرب من قبل وذلك لاغلاق جميع المنافذ أمام مذهب التوحيد ونشر المذهب المالكي وأقام بنو مرين

نظام السكنى والاقامة الداخلية للطلبة ليتسنى لهم التحصيل ولخلق جيل من الطلاب ليس من أهل المدن وإنما من أهل البوادي والجبال والصحراء فانتشر التعليم على نطاق واسع بفعل هذه السياسة وشهدت عصور بنى مرين أزهى عصور المغرب الأقصى فى مجال الفكر والثقافة والأدب والتعليم الجامعى الذى أدخل لأول مرة فى تاريخ المغرب وحرص بنو مرين على تنشيط حركة التعمير والبناء وشعروا بحاجتهم الى المدن الجديدة سيما وقد انتقلوا من حياة البداوة الى المدن ونزحت القبائل وازداد عددها وضافت عليها المدن القديمة فشهدت فترة حكمهم ظهور الكثير من المدن الجديدة ومنها فاس الجديدة (المدينة البيضاء) وتم بناؤها عام ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م فى عهد أبى يعقوب بن عبد الحق وبقيت ملاصقة لمدينة فاس القديمة ونزل فيها السلطان بحاشيته وذويه وأصبحت هذه المدينة من أعظم مدن الدولة ، ثم مدينة البنية وأمر ببنائها السلطان يعقوب بن عبد الحق واختار لها مكانا ملاصقا لمدينة الجزيرة الخضراء (مدينة ذات هدف عسكرى) وكذلك مدينة منصورة تلمسان وبنيت فى عهد يوسف بن أبى يعقوب فى أثناء حضارة تلمسان عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م . وكذلك مدينة قطاوين وأسسها أبو ثابت المرينى عام ٧٧ هـ / ١٣٠٧ م . وكان الهدف من بنائها عسكريا وكما اهتم بنو مرين ببناء المدن الجديدة وحرصوا أيضا على تجديد المدن القديمة وبناء الأسوار لها وتوصيل الحياة اليها .

واهتم سلاطين بنى مرين وعلاء القوم من الأسرة الحاكمة وأشياخهم ببناء المساجد الجديدة فاحتوت كل مدينة من هذه المدن الجديدة على مسجد كبير كالمسجد الجامع بفاس الجديدة الذى بنى عام ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ، وغير هذه المساجد فى المدن الجديدة ، مساجد أخرى لا تقع تحت الحصر بنيت فى جهات الدولة المختلفة اضافة الى الزوايا والأربطة وبنى العديد من المساجد فى المدن الجديدة فى عهد السلطان

أبى الحسن المرينى وكذلك ابنه أبى عنان واهتم سلاطين بنى مرين بترميم المساجد القديمة واصلاحها وتزويدها بكل ما يحتاج اليه حفاظا على الطابع الاسلامى للمساجد ، وفى عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق زود مسجد القروين بكل ما يحتاج اليه ونال مسجد الأندلس نفس العناية التى لقيها مسجد القروين وعمل سلاطين بنى مرين على تهئية المساجد فى دولتهم كى تؤدى رسالتها فى نشر المذهب المالكى الذى استعاد مكانته التى كان عليها قبل ظهور الموحدين وكان سلاطين بنى مرين يهتمون بأنفسهم بفهم هذا المذهب واتاحة الفرصة له لأنه المذهب المفضل والمحبيب عند شعبهم وكان السلطان أبو الحسن يحرص على أن يوضع بين يديه مؤلفات المذهب المالكى والذى يعتبر أكبر من غيره من المذاهب الأخرى واجتذب سلاطين بنى مرين على المذهب المالكى وقام أبو عنان بتجديد ضريح الشيخ (أبو ميمونة دارس بن اسماعيل) وهو من أوائل حملة المذهب المالكى ، لدرجة أن عبد الرحمن بن عفان الجزولى وهو من أكبر علماء المذهب المالكى فى ذلك العصر كان يحضر مجلس علمه أكثر من ألف فقيه مالكى كانوا يدرسون المدونة لابن سحنون وقام العلماء بتدريس المذهب المالكى فى المدارس والمساجد حيث كان هذا المذهب هو محور التعليم فى العصر المرينى ذلك لأن المسلمين ببلاد المغرب شديداً التمسك بسنة رسول الله ﷺ معرضين عن اتباع المذاهب الأخرى التى تعتمد على رأى والتأويل وهذا هو سر انتشار المذهب المالكى الذىلقى قبولا من الفقهاء المغاربة لاعتماده اساسا على نصوص القرآن الكريم والأحاديث . ولقد أصبح المذهب المالكى فى بلاد المغرب هو الحصن الذى اعتصم به سكان البلاد . بل أمعنوا فى تعصبهم للمذهب المالكى فمن كان مالكا قبلوه ومالوا اليه ومن كان غير ذلك حاربوه والمالكية وافقت طبيعة المغاربة ، كما ان الفقهاء المالكيين سموا فى نفوس المغاربة الى مرتبة الزعماء الذين يعارضون الحكام فى سبيل

اعلاء كلمة الحق وانتصرت المالكية على مذهب الموحدين وصمدت رغم محاربة الموحدين لها وازداد انتشارها في العصر المريني .

وشهد العصر المريني ازدهار العلوم الاسلامية والدينية من تفسير القرآن الكريم وعلم الحديث وتأثرت هذه العلوم بالمذهب المالكي واصبحت هذه العلوم تواكب هذا المذهب وتشبعت به واهتم العلماء والمفسرون في العصر المريني بدراسة القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول للتشريع الاسلامي واهتم السلاطين أيضا بحفظ القرآن الكريم وتفسيره وكان السلطان أبو عنان حافظا للقرآن الكريم كله وازدهرت بعض العلوم المتصلة بالقرآن كعلم القراءات وازدهر علم الحديث باعتبار الحديث هو المصدر الثاني للتشريع ولقى علم الحديث رواجاً كبيراً حيث كان بعض العلماء من المتصوفة يتكسبون من نسخ كتب الحديث . لذلك كانت كتب الحديث أوسع انتشاراً من غيرها من المؤلفات الأخرى وحرص الأهالي على تعليم أولادهم الحديث وحفظه بجوار القرآن الكريم لاحظ حب الشعب للرسول ﷺ ولأحفاده ، الأسرة الادريسية والسعدية ، والعلوين الحكام الحاليين في المغرب .

أما الفقه في العصر المريني فقد لقي تقدماً كبيراً وكان الفقه في الدولة يسير وفق المذهب المالكي وبرع كثير من العلماء في علم الفرائض والأصول وذلك بظهور كثير من الفقهاء في العصر المريني الذين نبغوا وتفقهوا فيه وظهرت كثير من المؤلفات التي ألفت في مختلف فروع الفقه كما يدل على ذلك أن الفقهاء أصبحت لهم المكانة السامية في البلاد وفي مجالس العلم التي كانت تعقد في البلاد السلطانية كما تولى الفقهاء أرفع المناصب في الدولة ومنها القضاء والافتاء والحجابة وكان القضاء مستقلاً حيث أن قضاة الأقاليم في المغرب لم يكونوا مستقلين عن الإدارة أو السلطة فقط بل عن سلطة قاضي الجماعة بفاس .

ولم تكن العلوم الفقهية في عصر بني مرين قاصرة على العلوم الدينية فقط وإنما شملت مختلف العلوم الأخرى العلمية كاللغة العربية وعلم النحو والتاريخ والسير والرحلات والجغرافيا والفلك والطب والرياضة والعلوم والمنطق وغيرها من العلوم الأخرى التي قامت بدورها في اذكاء الحركة العلمية والفكرية والثقافية والتعليمية في العصر المريني الذي كان المجتمع يتقدم نحو الرقي والرفاء وعم النمو والتقدم كافة المرافق والجوانب وغدت فاس درة في جبين الحضارة المغربية والاسلامية وتقدمت العلوم والفنون وكثرت المدارس والجامعات وعمرت الدور بالكتب وانشئت المكتبات الكثيرة ووصفت فاس بأنها جوهرة العلم والعلماء وكانت فاس أعظم علما وأكثر فضلاً بالنظر الى غيرها من الممالك لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة منها .

وتابع علماء اللغة العربية جهودهم في العصر المريني التي بذلها علماء اللغة السابقين وظهرت في بلاد المغرب طائفة من الكتاب المجدين فكانت فاس بها جوهرة العلم والعلماء وكانت فاس أعظم علما وأكثر فضلاً وبرعوا في الكتابة وأحاطوا بأسرار اللغة فتهاقت عليهم السلاطين والرؤساء يستخدمونهم في دواوين الانشاء وزاد نشاط حركة البحث في العلوم الدينية من تفسير وقراءة وفقه وحديث وسار العلماء الدارسون الى فهم أسرار اللغة العربية وكان أكثر علماء العصر المريني على صلة كبيرة بالدراسات اللغوية وقد أدى هذا الى دعم اللغة العربية وصار علماء اللغة يجمعون الى براعة الفقهاء براعة الشعراء والنبهاء ويتصرفون تصرف المطبوعين ويتكلمون باللسنة المجيدين وقد أدى ذلك الى نهضة كبرى في علم النحو وظهر الكثير من علماء النحو اضافة الى ظهور العديد من كتاب التاريخ والسير وقد أرخ هؤلاء للدولة المرينية ومنهم ابن أبي زرع وابن عذارى المراكشي ، وابن خلدون وابن الخطيب والجرائي وغيرهم من علماء التاريخ ، كذلك من الرحالة المشهورين ابن بطوطة الذي أصدر السلطان أبو

عنان أمرا بتدوين رحلته التي كانت أحسن ما كتب من أدب الرحلات وظهر العديد من الجغرافيين ونشط علم الرياضيات ، وكما ارتفع شأن الفقه والحديث والأدب والشعر فقد تألق نجم علوم الفلسفة والطب حيث لقي هذا العلم جانبا كبيرا من اهتمام السلاطين الذين أنشأوا له مدرسة عليا اسمها مدرسة الطب العليا في سلا وقد زاد ذلك من اهتمام بنى مرين بصحة المواطنين وكثرة الممارسات والمكتبات التي كانت تضم العديد من الكتب والمخطوطات .

وظهر علم المتصوفة والذين كان لهم دورهم في الحركة الفكرية سيما أنهم لقوا تقدير سلاطين بنى مرين واحترامهم وقد تركت هذه الحياة العقلية والعامة والفكرية اثرها البعيد في حياة شعب المغرب في العصر المريني اذا أقبلت طوائف الشعب على الثقافة الاسلامية بجوانبها المختلفة ينهلون منها ما طاب لهم وأصبحت عقول شبابها وطلابها أكثر استعدادا لحياة علمية رفيعة (المدارس العليا المتخصصة) وتفتحت عيونهم على آفاق جديدة في ميدان العلم حتى شاع العلم بين أفراد الرعية لا سيما بعد انتشار العديد من المدارس واقبل الجميع على التعليم بعقول واعية حتى أنه لم تمض خمسون عاما (نصف قرن) على حكم بنى مرين حتى ظهر هناك جيل من العلماء برع في العديد من المجالات واحتلوا مكان الشيوخ المعلمين الذين جلسوا في المدارس بدلا من المساجد يخدمون الناس والتلاميذ وينفعونهم وأخذ الطلاب يختلفون الى مدارسهم ويروون عنهم ، وبذلك انتشرت الثقافة العربية الاسلامية وكثر الانتاج العلمى وشاعت المعرفة حيث نشأ العلم وانتشر وعم وتشهد على ذلك المؤلفات الكثيرة والمكتبات العامة والخاصة وازدهار صناعة الوراقة وكثرة الوراقين .

واهتم سلاطين بنى مرين بالنواحي الصحية حرصا على علاج أفراد الشعب ومن هنا اهتموا بإنشاء الممارسات لعلاج المرضى وكان السلطان أبو يوسف يعقوب بن

عبد الحق أول بنى مرين الذى قام ببناء مستشفى للمرضى والمجانين ورتب عليها الأطباء ليتفقدوا أحوال المرضى وتابع بنو مرين هذه السياسة فأنشأوا العديد من المستشفيات في المدن الكبرى وليس في العاصمة فاس واهتموا بالرعاية الاجتماعية وبنوا معهدا للفقراء والضعفاء واليتامى وأقاموا مدارس لتعليمهم واهتموا برعاية الشيوخ والفقهاء الذين لا يستطيعون النفقة على أنفسهم وكذلك اهتموا ببناء الفنادق لازدهار الحركة التجارية في البلاد حيث لعبت الفنادق دورا كبيرا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب وانتشرت على طول الطرق في أنحاء الدولة المرينية ما يشبه الفنادق الصغيرة وهذه كانت تقوم بخدمة المسافرين والمحافظة على أمتعتهم وقد تواجدت هذه الفنادق الصغيرة على مسافات ثابتة يعلمها المسافرون وتقدر باثنى عشر ميلا .

كما اهتم بنو مرين ببناء القناطر وأنشأوا القناطر وجددوها بين عدوتى الأندلس والقرويين في فاس القديمة وأصلح السلطان أبو سعيد عثمان المريني العديد من القناطر واعتنى السلطان أبو الحسن المريني ببناء المزيد من القناطر داخل فاس وغيرها من مدن المغرب ووصل المياه للعديد من المدن (مدينة تلمسان) وزاد اهتمامه بمشروعات المياه وقد انفق السلطان أبو الحسن أموالا طائلة لتوصيل المياه الى مدن سلا وتلمسان .

واهتم بنو مرين بإنشاء الحصون والأسوار لا سيما المدن الساحلية حيث المدن التي هي مرفأ للأسطول الذى نما وزاد قوة وفنا في عصر بنى مرين واكثروا من القلاع والحصون لان دولة بنى مرين تميزت بكثرة الحروب التي خاضتها وتركزت أهم هذه التحصينات الدفاعية على الحدود الشرقية للمغرب الأقصى لمراجعة خطر بنى زيان وفي بلاد الأندلس وعلى طول خط السواحل المطل على البحر المتوسط لمواجهة خطر الأسطول الأسباني المسيحي على ساحل البحر المتوسط والمحيط . وقد ذكر مارسي أن آثار هذه القلاع والحصون لا تزال باقية حتى اليوم ، وكانت المنشآت الصناعية

العسكرية مثل مدينة البنية التي كانت ميناء هاما للأسطول المريني والتي بنيت ملاصقة للجزيرة الخضراء وأعيد بناء مدينة وجدة وحصنت أسوارها كما بنى السلطان يوسف بن أبي يعقوب حصن « تاوديت » على الحدود الشرقية في مواجهة بنى زيان وقرر السلطان أبو الحسن المريني بعد استيلائه على جبل الفتاح ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م تحصين جبل الفتاح لأهميته الاستراتيجية حتى أنه كان يشرف عليه بنفسه واستغرق بناؤه سبع سنوات ولم يكن اهتمام أبي الحسن بجبل الفتاح فحسب وإنما اهتم أيضا بجميع القلاع والحصون التي للمسلمين في الأندلس فشحنها بالرجال والعتاد والذخيرة والزاد والأقوات وما تحتاجه الحصون من الآلات والعتاد وذلك توطئة للتوسع في حركة الجهاد ويدل على ذلك ما رواه المؤرخون من أن أبا الحسن أقام الحصون في بلاد الأندلس وشحنها بالأسلحة والأطعمة ورتب فيها عسكريا نقيا من نخبة رجاله وأسكنهم بها كما بنى قلعة حصينة قرب فاس ليحتمى بها الجند عند الخطر .

الحياة الاقتصادية :

تركزت الحياة التي تمخضت عن قيام دولة بنى مرين أثر سقوط الموحيدين اثارا بارزة في الميدان الاقتصادي ، فان الأحوال الاقتصادية في البلاد كانت أكثر تأثرا بالظروف التي أدت الى قيام الدولة من أى ناحية من نواحي الحياة في المغرب في القرن السادس الهجري والسابع الهجري .

وقد اعتمدت الدولة على عدة مصادر لتمويلها وهي الزكاة والخراج والجزية والضرائب والغنائم والصادرات وكانت هذه الموارد تصب في خزانة الدولة ويضاف إليها المكوس وقد حرص سلاطين بنى مرين على استعمال ذوى العدل والسمعة الطيبة في جميع هذه الجهات التي تقوم بجمع هذه المصادر لتمويل الدولة وكانوا يلتزمون جانب العدل في تحصيل هذه الموارد وقد طبق سلاطين بنى مرين القواعد الشرعية لتوزيع هذه

الموارد وكانت الزراعة من المصادر الرئيسية التي تدر دخلا للدولة فقد كان المغرب الأقصى في القرنين السابع والثامن الهجري الثالث عشر والرابع عشر الميلادي مجتمعا زراعيا على الوجه الأغلب وكان سكانه يعتمدون اعتمادا كبيرا على الزراعة وتنفش البداوة في أرجائه وقد ازدهرت الزراعة في العصر المريني بفضل ما تمتع به المغرب الأقصى من دعائم ضرورية للزراعة وأهمها جودة التربة وتنوع المناخ ووفرة المياه والمغرب الأقصى به عدة أنهار تسهل عملية الزراعة منها ملوية ، نهر أم الربيع أو أبو الرقاق ، نهر السوس الأقصى ، نهر درعة ، نهر سيو ونهر بهتا ، نهر تسفيت ، ومن هنا ازدهرت الزراعة ومن هنا كثرت المحاصيل الزراعية وكذلك الخضار والفاكهة والى جانب ذلك كانت الغابات التي كانت مصدرا يمد أهالى المغرب الأقصى بالأخشاب المستخدمة في صناعة السفن وساعدت الغابات على وفرة الثروة الحيوانية وكذلك الثروة الداجنة (الدواجن والأسماك) .

وكان بنو مرين لما بسطوا سلطانهم على المغرب الأقصى لما استقر مفهوم التوحيد واطمأن الناس على أموالهم فاقتنوا الدور والضياح والأراضي الزراعية وزاد زحف الأندلسيين نحو الأراضي المغربية مشترين للضياح بسبب الاستقرار الذي شهدته البلاد وقد ازداد ذلك من التقدم الزراعي واقتبل الناس على شراء الأراضي الزراعية واستثمارها وقد أولى أهلها عناية خاصة بالزراعة وقد أمر سلاطين بنى مرين باشاعة الاستقرار دائما واتخاذ المحارث والانتساع في الزراعة وحرمو على الجند السير في الأرض المزروعة وهكذا ظل الاعتماد على الزراعة في بلاد المغرب الأقصى كمورد من موارد الدولة في عهد بنى مرين كما كان الحال في عهد الموحيدين وقبلهم المرابطين وكانت الصناعة من الأنشطة الاقتصادية الهامة التي يعتمد عليها سكان الدولة اذ امتدت الأهالي بكل ما يحتاجون اليه من صناعة وموارد . ويعنى بالصناعة تصنيع الانتاج الزراعي وما يتصل

به واستخراج المعادن وتصنيعها وقد ازدهرت الصناعة في العصر المريني عما كانت عليه في عصر الموحيدين بسبب اتساع العمران وتدمت الصناعة بسبب توافر المواد الخام اللازمة لصناعة . وكان الغالب على المغاربة طوال القرن التاسع وما بعده أنهم معجبون بالصناعة ويحبون تعلم حرفها الجديدة ولقد ساعدت النهضة الزراعية على قيام صناعات جديدة في بلاد المغرب الأقصى حيث مركز السلطان السياسى ومكان الصناعات الجديدة ، وقد اهتم سلاطين بنى مرين بالصناعات الحربية لحاجة الجيوش المغربية لها والتي يدافعون بها عن البلاد وصد العدوان عن الاسلام فى الأندلس وقد استخدم المرينون السلاح النارى فى الدفاع عن الجزيرة الخضراء التى هاجمها القشتاليون فى عام ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م . واستخدموا مدافع البارود ، وازدهرت صناعة الأزياء العسكرية وازدهرت الصناعات المساعدة التى يحتاج اليها الجيوش واهتم سلاطين بنى مرين بالصناعة اللازمة للأسطول المرينى وخاصة صناعة السفن لاهميتها فى الصناعات الحربية فى الميدان الأندلسى للدفاع عن سواحل دولتهم وازدهرت صناعة السفن وتعددت أنواعها وقد حرص سلاطين بنى مرين على حماية الصناع لأنهم الذين ينتفعون بهم وشجعوا الصناعات الحربية لحاجة الدولة لهذا النوع من الصناعات واتساع نطاق الموارد وزاد الطلب على أشياء الترف واستجلبوا الخبرات الصناعية الأندلسية فى مختلف الصناعات مثل الصناعات الطبية والصيدلية والكمياء . وقد برز من أهل المغرب العديد فى مختلف الصناعات فى البناء وهندسة الرى والمعمار والهندسة .

وتقدمت صناعة النسيج والصوف وكثرت الثياب المتخذة من الأصواف والبسط وصناعة الورق والوراقة وكان المغاربة يتخذون ثياب الصوف فى الشتاء وثياب القطن والكتان فى الصيف وازدهرت صناعة الكتان المغربى وادت العناية بالكتب التى تطور

صناعة التجليد وازدهرت الصناعات الجلدية والصباغة ، والصناعات الخشبية والنهضة المعمارية وصناعة الآلات الموسيقية ، وكثرت المطاحن وصناعة الزيوت والصابون ، وصناعة السكر ، والعقاقير الطبية والعطور وكثر استخراج المعادن ورادت معرفة أماكن التعدين وطرق البحث والتنقيب والصناعات الفخارية وصناعة الزجاج .

وانعكست حالة الأمن والاستقرار التى سادت الدولة على نشاطها التجارى ، وقد حرص سلاطين بنى مرين على توفر الأمن حماية للتجار فى المغرب كما شهد عصر بنى مرين تأمين المواصلات بين مدن الدولة وتنظيم فرق لحراسة الطرق بين المدن واداء الخدمة للقوافل وحمايتها من أى خطر يهددها وتوافرت الأسواق الداخلية وازداد النشاط التجارى الخارجى وكانت الأسواق تمد الأهالى بكل ما يحتاجون اليه .

ولقد كان من الطبيعى أن تتأثر التجارة فى عهد بنى مرين بما طرأ من متغيرات على الإنتاج الزراعى والصناعى لا سيما أن المغاربة قد شغفوا بالتجارة لا سيما أن التجارة كانت مصدرا أساسيا لدخل الدولة وقد ازدهرت التجارة الداخلية فى عهدهم .

وكانت تجارة المرور من أهم أنشطة التجارة الخارجية فى الدولة المرينية ولعبت الموانئ أهمية كبرى فى التجارة الخارجية وكان ميناء سبتة ترد اليه معظم التجارة الخارجية وكانت السفن تتردد بين موانئ المغرب الأقصى وكانت مدينة مريّة الأندلسية قاعدة الاتصال الاقتصادى بين أوروبا وبلاد المغرب الأقصى لذلك حرص سلاطين بنى مرين وسلاطين بنى الأحمر فى غرناطة على تأمين طرق التجارة البحرية بين البلدين واحترام تجار النصارى من أسبانيا ومن المدن الايطالية . وعدم الاعتداء عليهم أو على أموالهم وتجارتهم وانشاء الفنادق لسكنائهم والعمل على توفير الأمن والراحة لهم وكانت قوافل الحج البحرية والبرية هى الوسيلة الرئيسية لربط المشرق العربى ومصر بالدولة المرينية فى مجال التجارة الخارجية وكان التجار ينظمون القوافل التى تحمل

التجارة المغربية والأوربية الى بلاد السودان الغربى والأوسط وجنوب الصحراء الكبرى ونشطت الحركة التجارية مع بلاد الأندلس ودول جنوب أوربا الا أن الحروب الطاحنة مع نصارى أسبانيا فى بعض الفترات جعلت التجارة معهم وغيرهم الى أوربا تزدهر الى فى سنوات الهدنة وهذه كانت كثيرا ما تخرق . وكانت علاقات بنى مرين ممتازة جدا ببلاد السودان الغربى والأوسط (انظر علاقات بنى مرين ببلاد السودان الغربى) وقد حرصوا على أن تكون الطرق الخارجية ببلاد السودان مفتوحة والحركة بها سهلة حسبما يذكره الادريسي وابن بطوطة ولم تكن علاقة بنى مرين بصقلية والمدن الايطالية بأحسن منها مع نصارى الأندلس .

وكان بنو مرين يبنون الأسواق فى المدن الجديدة أو عندما تتسع المدينة وكانت شديدة الحرص على تشييد الفنادق للتجار وتجهيزها بما تحتاج اليه . ويلاحظ الدارس للتجارة الخارجية المغربية على الرغم من توتر العلاقات مع الدول المعاصرة الهامة فى حوض البحر المتوسط خلال القرن السابع والثامن الهجريين ، ان التجار المغاربة كانوا يدخلون صقلية والمدن الايطالية وأسبانيا المسيحية كما كان تجار تلك الدول يدخلون الى المغرب فى أوقات الهدنة والصلح وكان التجار المغاربة يصلون الى ايطاليا وجنوب فرنسا ويدخلون الى بلاد المشرق ومصر كما كان التجار المشاركة يدخلون الى المغرب ، وعمل اليهود فى بلاد المغرب فى الصيرفة والتعامل بالدرهم والدينار وقد مهد انتشار اليهود فى أوربا وبلاد الشرق وعمل اليهود فى المغرب فى التجارة الخارجية ، الا أن دور المدن الايطالية كان أكثر من دور اليهود .

ولقد ترك تزايد أعداد الأجانب فى التجارة المغربية خاصة فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى تأثيرا كبيرا على أوضاع التجار المغاربة وبسبب نفوذ تجار المدن الايطالية فى تجارة البحر المتوسط والتجار السودانيين وأهل غانة فى تجارة السودان فقد

تأثر وضع أرباب الأموال الكبيرة من التجار المغاربة وواجه التجار المغاربة صعوبات كثيرة فى التجارة الخارجية وبصفة خاصة فى مراكز التجارة الساحلية الا أن دورهم فى العصر المرينى كان لا يزال له وضعه المؤثر فى الحركة التجارية الخارجية والداخلية بوجه خاص .

وتعتبر السكة الوجه الاقتصادى للدولة اذ يتوقف على قيمة السكة (العملة) القوة الشرائية والاستقرار الاقتصادى وكانت السكة المستعملة فى الدولة المرينية تصنع من الذهب والفضة وكان معظم الذهب يأتى من بلاد السودان والفضة من داخل البلاد حيث المناجم المحلية .

وكانت السلطنة المرينية تتخذ دور ضرب للعملة وقد تعددت دور الضرب فى المغرب وكانت توجد دور سكة للعملة فى عدوة القروين بفاس وأخرى فى عدوة الأندلسين وكانت هناك دار أخرى فى مراكش واغامت وتلمسان وفاس وسجلماسة وتول لمطة وسبتة وسلا . وجعل بنو مرين لكل دار سك نقود أمانة وكان السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق أول من اهتم بإنشاء دارا لسلك العملة المرينية وغير شكل الدينار الموحدى وإعادة الى شكله قبل الموحدى وقد ارتفعت القيمة الشرائية للدينار المرينى واستعمل الى جانبه الدرهم وكان دينار الذهب يساوى ستين درهما الى جانبها كانت توجد عملات أصفر تصنع من النحاس وقد تميز العصر المرينى بقوة نفوذه وكان للانتعاش الزراعى والصناعى والتجارى أثره الكبير فى تقدم الدولة .

وتلك هى صورة مبسطة وموجزة للأحوال العامة لعهد بنى مرين وإنجازاته فى جميع الأصعدة التى عرضنا لها فى ذلك الفصل الذى أوجزناه بقدر المستطاع دون الدخول فى تفاصيل لأن كل مجال من هذه المجالات التى عرضنا لها تحتاج الى دراسة مستقلة وهذا ما نتركه للباحثين والدارسين الذين يسيرون على الدرب .

الفصل السادس

السياسة الخارجية لسلطنة بني مرين

بعد أن أسقط بنو مرين خلافة الموحدين في عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م وأصبحت لهم شخصيتهم الدولية المستقلة فقد ارتبطت دولتهم بعلاقات سياسية (دبلوماسية) وثقافية واقتصادية مع دول العالم المعاصر ولقد كان لهذه السياسة أثرها الكبير في دعم الدولة المرينية سياسيا واقتصاديا وحضاريا وثقافيا ، بل أن علاقاتها شملت معظم العالم الاسلامي فقد كانت العلاقة مع بلاد المشرق وبالذات مصر علاقة ود ومحبة الناس في المغرب على صلة بأخوانهم يرتادون بلدان كل منها للسفر والحج ولتلقى الدرس كما استقبل بالترحيب علماء المشرق ورجالهم في بلاد المغرب ووجدوا فيها الأمل والتشجيع وكذلك استقبل ابناء المغرب (ابن خلدون) في بلاد المشرق وتولوا المناصب العليا وبعض مشايخ الأزهر كانوا من أهل المغرب ، ولم يحدث مع بلاد المشرق على المستوى الرسمي صدام ، ومواجهة بينهما بل حدث تعاون يدل على حسن الصلة فالعقيدة تجمع بين هذه الأطراف وكان لذلك أثره في ألا تتخذ العدواة شكلا عنيفا بين الجهات الرسمية .

وكانت علاقاتهم وطيدة مع مصر والشام والعراق والجزيرة العربية ومع بلاد السودان الغربي جنوب الصحراء الكبرى وارتبطت بعلاقات مع الحفصيين في المغرب الأدنى وبنى زيان في المغرب الأوسط وبنى الأحمر في غرناطة وكانت لهم علاقات مع القوى المعادية في قشتالة وأرغون .

علاقات بني مرين مع مصر :

تطلع سلاطين بني مرين الى مصر باعتبارها قلب العالم العربي الاسلامي وكانت

مصر محط أنظار سلاطين بني مرين لأنها الواجهة التي تطل منها بلاد المغرب على بلاد المشرق العربي ، من ذلك سعى سلاطين بني مرين الى توطيد علاقاتهم بمصر والمشرق العربي وكانت مصر مرتبطة بقوافل الحج ولقد تنوعت العلاقات في العصر المملوكي الذي ظهر على أشده بعد انتصارات مصر على المغول والتتار والصليبيين ولقد كان لمصر دورها في توجيه بعض الأمور الداخلية والمبادلات الرسمية في الرسائل بين الاطراف السياسية في كل من الحجاج المغاربة الى الأراضي المقدسة ، وفي ظل حكم المماليك الجراكسة والبرجية واتسمت العلاقات مع بني مرين في فاس بروح المودة والاخاء فقد قبل السلطان العباسي أحمد بن أبي سالم المريني شفاعة السلطان برقوق في الشيخ يوسف بن علي بن غانم أحد شيوخ العرب بالمغرب وكان يوسف قد لجأ الى القاهرة عام ٧٥٣ هـ / ١٢٣٩ م تأجيا من سخط السلطان أحمد بن أبي سالم بعد قيامه بثورة عربية ضد نظام الحكم .

وفي عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م كان السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق قد استولى على المغرب الأوسط الذي كان يحكمه بنو زيان الذين كانوا يعوقون تقدم القوافل نحو مصر والمشرق العربي وقد خرجت أول قافلة تحمل حجاج بني مرين الى الأراضي الحجازية عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م ، وأرسل هدية قيمة أكثرها من الخيول وحمل هذه الهدية أحد المماليك المصريين العاملين في البلاط المريني وهو (ايدغدى الشهير زورى) ووصلت الهدية عام ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م . وتعتبر هذه الرسالة أول صفحة في العلاقات المصرية المغربية في العصر المريني .

وقد رد السلطان الناصر محمد بن قلاوون على هدية السلطان يوسف بهدية عظيمة وقد وصلت هذه الهدية الى مدينة المنصورة بالمغرب الأوسط عام ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م . وقد احتفل السلطان يوسف المريني بالوفد احتفالا عظيما وأرسله الى بلاد

المغرب الأقصى لتفقد معالم هذه البلاد وآثارها ، وفي هذا الأثناء توفي السلطان يوسف فقام خلفه السلطان أبو ثابت عامر بن أبي عامر بمتابعة اكرام الوفد المصرى وقدم لهم عند عودتهم هدايا قيمة وعاد الوفد المصرى الى بلاده فى ذى الحجة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ ، لكن اللصوص سطوا على القافلة المصرية ونهبوا ما معهم مما أدى الى تأثر العلاقات وفترتها بين البلدين ولم ترسل مصر أدنى وفد بعد ذلك رغم ارسال بنى مرين للعديد من الوفود وربما يكون بنو زيان فى المغرب الأوسط وراء هذه الحادثة ليتعكر جو العلاقات الودية بين مصر وبنى مرين (ابن خلدون) .

وقد أرسل السلطان المصرى الناصر محمد بن قلاوون هدية صغيرة مع رسالة عتاب لما أصاب القافلة المصرية فى بلاد المغرب وقد غضب السلطان أبو ثابت من ذلك وأرسل خطابا يلوم فيه سلطان مصر على ما جاء فى رسالته وهديته وأدت هذه الرسالة الى قطيعة استمرت حتى عهد السلطان أبى الحسن المرينى وكانت سياسته المعتدلة وقيمه الاسلامية قد أدت الى اعادة العلاقات مع مصر مرة ثانية بل وصلت الى عهدها الذهبى وكان انتصاره فى بلاد المغرب الأوسط قد أعاد مكانته والمغرب فى مصر وبلاد المشرق العربى والعالم الاسلامى ، وكان السلطان أبو الحسن هو الذى بدأ بأرسال سفارة الى مصر وسلطانها الناصر محمد بن قلاوون يخبره فيها بالفتح وكان حامل رسالة بنى مرين فارس بن ميمون بن وردار وأرسل سلطان مصر رسالة تعزية فى وفاة السلطان أبى الحسن .

وفى عام ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م . خرجت قافلة من بنى مرين وبها والده السلطان وكان سفير البلاط المرينى الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون (عثمان بن جرار) وارسل معه السلطان أبو الحسن هدية ضخمة كانت حديث المجال فى المشرق والمغرب وكانت بها ٥٠٠ خمسمائة من عتاق الخيل بسروج من الفضة والذهب ووصل الركب الى مصر فى عام ٧٣٨ هـ / ١٣٣٨ م . وأمر الناصر محمد بن

قلاوون باستقبال الوفد أحسن استقبال وقدرت قيمة الهدية بما لا يزيد عن ألف دينار وقد أدى ذلك الى حسن العلاقة ، ولما عاد موكب الحجاج المرينى من الأراضى الحجازية الى مصر جهز لهم السلطان الناصر هدية تعادل فى قيمتها وفخامتها الهدايا التى أرسلت الى مصر .

وظلت العلاقات قائمة بين أبى الحسن والسلطان الناصر محمد بن قلاوون حتى توفي الأخير عام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م وقد شهد الناصر ملكا طويلا عاصر فيه ستة من سلاطين بنى مرين ، ابتداء من أبى يعقوب يوسف الى أبى الحسن المرينى .

وقد شهدت العلاقات المصرية المرينية توتراً ملحوظاً أواخر عهد السلطان أبى الحسن حين فر الوزير الحفصى ابن تافراجين الذى كان يمثل المقاومة الحفصية ضد بنى مرين من أفريقية إلى مصر، أرسل السلطان أبو الحسن الميرنى إلى السلطان المملوكى حسن بن الناصر قلاوون للقبض على ابن تافراجين وارساله إلى المغرب؛ إلا أن السلطات المصرية رفضت ذلك باعتباره فى حماية مصر وأن ابن تافراجين فى حماية أحد المماليك الأقوياء.

ولم يقتصر دور قوافل الحج على دعم العلاقات الدينية السياسية بين مصر وبنى مرين لكن تدعمت خلال هذه الفترة العلاقات الاقتصادية فقد حملت قوافل الحج فى عودتها منتجات هذه البلاد إلى الديار المصرية؛ حيث كان الحج وسيلة لتصدير السلع المغربية إلى مصر وبلاد المشرق الإسلامى كما أنها أدت إلى انتعاش الصناعات المغربية التى كانت تحملها القوافل وكانت الخيول لها حظ كبير فى هذه التجارة لحاجة مصر الشديدة إليها حتى كان يدفعهم إلى إرسال الرسل لطلبها فقد بعث السلطان برقوق برسائله وهداياه إلى سلطان فاس أبى العباس بن أبى سالم لشراء أعداد من الخيول المغربية.

وعن العلاقات الثقافية فقد كان لها نفس الحظ من النشاط فقد رحل علماء بنى مرين إلى مصر وبلاد المشرق الإسلامى الذين كان منهم الكثيرون كما رحل إلى العاصمة المرينية فاس بعض علماء مصر والمشرق؛ حيث كان سلاطين بنى مرين يحرصون على استقبال هؤلاء العلماء وضمهم إلى مجالسهم العلمية؛ فقد وفد من مصر والعراق ومكة المكرمة والمدينة المنورة وفود كثيرة إلى أبى الحسن الميرنى.

وقد حفظ ديوان الإنشاء المصرى (القلقشندى) : صبح الأعشى فى صناعة الانشا (ج ٨، ص ١٠٣، ص ١٠٦) نص رسالة متبادلة بين السلطان المصرى المملوكى فرج بن أبى سعيد برقوق فى شعبان (٨٠٤هـ/١٤٠١م) إلى السلطان عثمان بن أبى عباس المرنى، وكانت الرسالة تعرض رغبة السلطان المرنى لتقديم المساعدات العسكرية لصد أعدائها من الصليبيين وبقايا التتار وتعنى هذه الرسالة أن بنى مرين وقفوا من السلطات المصرية موقف المترقب للتعاون ضد خطر التتار والمغول أيام تيمور لنك ٨٠٣هـ/١٤٠١م، ويبدو أن السلطان المرنى كان يتابع موقف الجبهة المصرية أمام التتار ويدل على ذلك الرسالة التى أرسلها السلطان فرج للانسحاب من دمشق والعودة إلى مصر بعد أن علم بوجود مؤامرة للاستيلاء على الحكم فى مصر أثناء غيابه فى دمشق لإقامة سلطان جديد. وهذه بعض من أوجه العلاقات بين مصر المملوكية وبنى مرين فى فاس للاستزادة حول هذا الموضوع. راجع كتابنا دور مصر الحضارى فى القارة الأفريقية، فضل دور مصر السياسى فى بلاد المغرب.

علاقات بنى مرين مع حلفاء بنى الأحمر فى غرناطة :

إن نظرة عامة على سير العلاقات بين بنى مرين وبنى الأحمر فى غرناطة بعد أن تدخل السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق فى الصراع الدائر بين غرناطة والممالك النصرانية فى الأندلس ودور بنى مرين فى حركة الجهاد الإسلامى يدرك منها

أن تلك العلاقة لم تكن تسير على وتيرة واحدة؛ بل كانت تخضع للمتغيرات فهى علاقات يشوبها الحذر والترقب ومرجع ذلك إلى تشكك سلاطين بنى الأحمر كثيراً فى نوايا بنى مرين وتطلعهم إلى حكم بلاد الأندلس، ولهذا كان يغلب على هذه العلاقات التذبذب بين الود المتبادل أو العداء والتنافر فى بعض الأحيان ولذا .. فإننا نجد أنه ما أن استتب الوضع السياسى لبنى مرين باستيلائهم على آخر المعازل فى المغرب سبلماسة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م. حتى استجابوا للنداء ولحضور رسول سلطان غرناطة محمد الثانى الفقيه طالباً معاونته ضد زحف نصارى الأندلس للاستيلاء على ممتلكات المسلمين، ونظر بنو الأحمر للعالم الإسلامى فلم يجدوا أمامهم سوى بنى مرين، وذلك لقرب دولتهم منهم ولشعورهم بمكانة بنى مرين العسكرية بين سائر القوى فى المغرب (بنى زيان، بنى حفص)، وقد استجاب يعقوب بن عبد الحق للجهاد فى الأندلس معتمداً على قواته وعلى بنى اشقيلولة الذين نظراً لحرصهم على الإسلام أكثر من حرصهم على مصالحهم الذاتية وضعوا أنفسهم تحت تصرف بنى مرين؛ بل من أجل الإسلام والمسلمين تركوا الأندلس نهائياً وقبلوا العيش فى المغرب (روح إسلامية خالصة للدين عكس بنى الأحمر)، وأدى خلاف بنى الأحمر مع بنى اشقيلولة إلى حدوث نوع من الجمود فى العلاقات خلال العبور الأول للسلطان المرنى إذ ترك محمد الثانى الفقيه السلطان يقاتل منفرداً فى العبور الثانى ٦٧٦هـ/١٢٧٥م إعادة الجسور مع بنى الأحمر لمهاجمة قرطبة، وتم التفاهم وأسفر التقارب عن هزيمة الجيوش المسيحية وتحصنها بمدينة قرطبة وطلب الصلح مع المسلمين وترك سلطان المغرب الأمر لبنى الأحمر وتنازل لهم عن الغنائم، لكن شكوك حكام غرناطة ودرس يوسف بن تاشفين والموحدين مائل أمامهم فى تعاملهم مع بنى مرين، لكن تنازل بنى اشقيلولة عن مالقة والغربية فجر الموقف ووصل العداء بينهم إلى درجة أن بنى الأحمر

سعوا للتحالف مع أعداء الإسلام وطاردى المسلمين من ديارهم فى الأندلس، تحالفوا مع النصارى فى قشتالة وتحالفوا مع بنى زيان أعداء بنى مرين وجعل عامل مالقة من قبل بنى مرين يعلن الخروج عن غرناطة بنى مرين، لكن أبا يوسف أفضل هذا المخطط، وقام بنو الأحمر بمعاونة أسطول بنى مرين القوى بتحطيم الأسطول القشتالى ودخل بنو مرين الجزيرة الخضراء بالقوة وأسفر التقارب الذى حدث بينهما خلال العبور الثالث إلى تلاحم القوتين وخلال العبور الرابع نجح بنو مرين وبنو الأحمر فى إبعاد النصارى خلف نهر الوادى الكبير وراء الخط الذى يمتد من قرطبة إلى أشبيلية وشرش كما أسفرت معارك العبور الرابع عن صلح بين المسلمين ونصارى الأندلس أقره كل من سلطان الأندلس (غرناطة) والمغرب وملك قشتالة.

وقد لعب شيوخ الغزاة من بنى مرين دوراً هاماً فى تاريخ العلاقات بين بنى مرين وبنى الأحمر، وكانت العاصمة غرناطة هى مقر القيادة العامة لهذه القوة المغربية.

وبعد وفاة يعقوب بن عبد الحق حاول ابنه يوسف تلاحم القوتين فتنازل لبنى الأحمر عن كثير من الأراضى والقلاع والحصون، ولم يحتفظ إلا بالقواعد اللازمة للعبور، وهى طريف ورندة والجزيرة الخضراء عملاً للقضاء على المشكلة التى تشغل بال بنى الأحمر، وهى الخوف على ممتلكاتهم، لكنه رغم هذه التنازلات فقد تحالف بنو الأحمر مع ملك قشتالة ضد بنى مرين، وكان ذلك سبباً فى ضياع مدينة طريف وعدد من الحصون التى كان يملكها بنو الزحمر ورفض ملك قشتالة تسليم ذلك فيما بعد.

وقد أدرك محمد الفقيه الثانى سلطان غرناطة خطأ هذه السياسية فعاد يطلب ود بنى مرين فلم يتردد المرينيون وعادت العلاقات معهم ودية حتى وفاة السلطان محمد الفقيه (٧٠١هـ/١٣٠١م)، ورغم أن العلاقات سارت سيراً حسناً فى بداية عهد خليفته أبى عبد الله المخلوع إلا أنه تحالف مع ملوك قشتالة؛ بل أنه اعتدى على مدينة

سبتة الخاضعة لحكم بنى مرين وقد أحدث ذلك شرخاً فى العلاقات، ومات أبو يوسف فجأة (٧٦١هـ/١٣٠٦م)، وجاء بعده أبو ثابت الذى مات هو فجأة عام (٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، ولكن أخوه السلطان أبو الربيع سلمان المرينى قد تمكن من إلحاق الهزيمة بعثمان بن أبى العلاء الذى ساعده بنو الأحمر، وتمت السيطرة على سبتة وضمها نهائياً للدولة المرينية وظلت العلاقات غير ودية حتى اعتلاء السلطان أبى الحسن العرش عام (٧٣١هـ/١٣٣٣م).

وكانت فى الفترات السابقة على تولية أبى الحسن قد اقتضت العلاقات على العون المادى وبعض المساعدات بل القوات والخيول فى عهد السلطان أبى الربيع، لكنها تجمدت نهائياً فى عهد السلطان أبى سعيد عثمان المرينى الذى أصر على ضرورة تسليم قائد شيخ الغزاة الذى سبب كثيراً من المشاكل للأسرة الحاكمة، وقد رفض بنو الأحمر تسليمه.

لكن الأحوال تبدلت فى عهد السلطان أبى الحسن إذ صادفت دعوة بنى الأحمر لبنى مرين لمعاونتهم فى وقف زحف النصارى عليهم؛ فقام المسلمون بالاستيلاء على جبل الفتح فى ذى الحجة عام (٧٣٢هـ/١٣٣٣م). لكن أبا الحسن منى بهزيمة فادحة عند طريف عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م، وقد صرفت نتائج هذه المعركة القاسية أنظار المرينيين عن القيام بأى جهد عسكري بعد ذلك. وفى ربيع عام ٧٤٤هـ/١٣٤٤م تم عقد معاهدة سليمة بين قشتالة وغرناطة والمغرب مدتها عشر سنوات، وما كادت حركة الجهاد ضد المسيحيين فى أسبانيا تهدأ حتى دب نزاع جديد بين سلطان المغرب أبى عنان فارس المرينى ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. وبنى الأحمر فى غرناطة والسبب فى هذا النزاع يرجع إلى أن اثنين من أخوة أبى عنان وهما الأمير أبى الفضل وأبى سالم خرجا عن طاعة أخيهما السلطان وهربا إلى سلطان غرناطة ملتمسين

حمايته وقبل الحجاج أبو يوسف طلبها وأواهما في بلاطه وقد أثار هذا العمل غضب السلطان المريني فأرسل إلى سلطان غرناطة خطاباً شديد اللهجة مليئاً بعبارات الاحتجاج والتهديد، وكان رد حاكم غرناطة واضحاً إذ أوعز إلى الأمير أبي الفضل بالسفر إلى قشتالة وطلب معونة من ملكها. بدور الأول لمحاربة أخيه وانتزاع الملك منه ووافق ملك قشتالة على طلب الأمير المغربي أبي الفضل لأنه كان متخوفاً من أطماع أبي عنان فأمدّه بالأموال والأساطيل والجنود وأنزله بنواحي السوس في جنوب المغرب كي يشعل حرباً أهلية ضد أخيه وثار ثائرة السلطان أبي عنان لهذا العمل العدائي، غير أن الظروف سرعان ما هدأت من روعه عندما قام واليه على درعه بمقاومة حملة أبي الفضل بمساعدة حلفائه وأعوانه من عرب المعقل وتمكن من القبض على أبي الفضل وإرساله لأخيه ليقتله عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م.

ونظراً لهذا الموقف .. فقد اقتضت العلاقات في عهد أبي عنان على العلاقات الدبلوماسية، والتي انحصرت في تبادل الرسائل والسفارات، أو رسائل ترافقها الهدايا من بني الزحمر لأبي عنان، بعض هذه الرسائل كان للتهنئة بفتح تلمسان وبجاية أو الانتصار على الثورات الداخلية، ورغم هذه الرسائل إلا أن بني الأحمر طلبوا من أبي عنان مساعدة بحرية لحماية السواحل الأندلسية، وقد استجاب أبو عنان لطلبات سفير بني الأحمر عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، وكان في مقدمة هذه المطالب العون الحربي لمقاومة أطماع القشتاليين.

بعد وفاة السلطان أبي عنان قويت العلاقات بين الطرفين وخاصة في عهد أبي سالم المريني الذي أعطى السلطان الغرناطي محمد الغني بالله الأحمر ووزيره حق اللجوء السياسي للمغرب بعد الانقلاب الذي أطاح به، وقد وصل إلى فاس عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م، وفي عهد السلطان أبي زيان محمد بن يعقوب الذي تولى أمر بني

مرين عام ٦٧٣هـ/١٣٦١م أصدر مرسوماً يعنى بالاهتمام بوزير السلطان محمد الغني بالله وهو ابن الخطيب الذي عمل على ربط علاقة فاس، وبني الأحمر بنوع من المودة والإخاء، وارضاء سلاطين بني مرين في كل ما يطلبونه من ساسة غرناطة.

وقد استقل الغني بالله محمد بن الأحمر بعد استرجاعه للعرش في غرناطة مرة ثانية ضعف سلاطين بني مرين بعد أن أقام بينهم فترة طويلة عرف بخبايا الدولة، وذلك أثناء نفوذ الوزراء للتدخل في الشؤون الداخلية لهم، وكان ذلك عن طريق استغلال الأبناء المرشحين لتولي حكم بني مرين والموجودين تحت إشرافه ورعايته في بلاط بني الأحمر في الأندلس، وكان سلطان بني الأحمر في غرناطة يمارس هذه السياسة مع بني مرين لإجبار سلاطينهم على السير في تلك السياسة، وفي حالة عدم طاعة أوامره كان الغني بالله يدفع إلى المغرب بشخصية أخرى من بني مرين ويساعده بالمال والسلاح والرجال حتى تنجح هذه الشخصية في الاستيلاء على زمام الأمور في الدولة، وكانت تعقد معهم معاهدات تتضمن نصوص هذه المعاهدات تصرف بني الأحمر في الأراضي المغربية، وقد كان هؤلاء السلاطين يقومون بعقد اتفاقيات مع ملك قشتالة، وأرغون بناء على طلب سلطان غرناطة، وأصبح بنو مرين مطية لغرناطة وحكام النصارى في الأندلس. ولقد بدأت هذه السياسة بعد وفاة السلطان عبد العزيز المريني عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، وانتهت بوفاة السلطان محمد الغني بالله بن الأحمر ٧٩٣هـ/١٣٩٠م، واستمرت تسعة عشر عاماً. وبعد انقضاء هذه المرحلة لم تشر المصادر إلا إلى حادثتين فقط، وهي تدخل بني مرين في شؤون بني الأحمر بمؤامرة دبرها أبو العباس أحمد المريني لاغتيال أبي الحجاج يوسف الثاني سلطان غرناطة والثانية مساعدة السلطان المريني أبي سعيد عثمان بن أبي العباس أحد ثوار جبل الفتح ضد بني الأحمر وأرسل لهم قوات مغربية بقيادة أخيه عبد الله بن أبي العباس أحمد،

ولكن تم أسره ثم أطلق سراحه واغتيل أخوه أبو سعيد، وتولى عرش بنى مرين، والذي يلقي نظرة فاحصة على العلاقات بين بنى مرين وبنى الأحمر فى غرناطة يدرك تمام الإدراك أن المصلحة الشخصية ربما لدى الطرفين كانت هى الغالبة عليها دون النظر لصالح المسلمين والإسلام؛ فلقد كان على بنى مرين ألا يحتفظوا بقواعد لهم، وأن تكون قواتهم تحت سيطرة بنى الأحمر، وأن بنى الأحمر لم يعنهم فى المقام الأول إلا المحافظة على عرشهم فالأرض إسلامية سواء للمغرب أم للأندلس والقوات الإسلامية، سواء كانت أندلسية أو مغربية لكن حب السيطرة والتملك دون النظرة البعيدة بالأخطار المحدقة وسياسة النفس الطويلة التى اتبعها الأسبان فى حركة الاسترداد لم تكن تخطر على بال مخططى السياسة الإسلامية فلو أنهم أدركوا بثاقب نظر بعيد خطر المخطط لما تم عقد مصالحات، ولا اتفاقيات، ولا تعاون بنى الأحمر مع قشتالة وأرغون ضد بنى مرين ولا تحالف بنى زيان وقشتالة على حساب بنى مرين. أنها أمور تدعو للأسف؛ فقد كانت الضحية دائماً هى الشعوب والأرض والديار، وفقد الإسلام أرضاً عمرها أكثر من ثمانية قرون.

ولقد ازدهرت العلاقات الثقافية بين الطرفين ذلك لأن حركة الانتقال بين البلدين كانت ميسورة للعلماء والأديان والفقهاء، ولم تكن الخلافات السياسية تحول دون تدفق الأندلسيين إلى المغرب أو انتقال علماء المغرب إلى غرناطة؛ فقد رحل الكثير من العلماء والفقهاء والسفراء والشعراء والصالحين والمتصوفة والذين كان لهم دور ثقافى وتأثير حضارى فى بلاد المغرب واستعان بهم السلاطين وكانت عدوة الأندلسيين بفاس خير شاهد على ذلك، وقد شجع حق اللجوء السياسى الذى سار عليه بنو مرين وبنى الأحمر الكثير من علماء الدولتين على الرحيل من بلد إلى آخر وساعد ذلك على ازدهار حركة الفكر والثقافة والحضارة وتقدم العلوم والكيمياء والطب والصيدلة، وظهور

الاختراعات، وقد كانت فاس وغيرها من المدن الكبرى فى المغرب الأقصى ملاذاً خصباً لطلبة العلم الأندلسيين الذين حولوا بها، والذين كانوا يرحلون بدورهم إلى تلمسان؛ حيث تقدمت دراسة الطب فى مدرسة تلمسان.

ولقد أسهم بنو مرين فى حركة التجارة الخارجية بينهم وبين من بقى من المسلمين فى الأندلس خاصة وأن هناك أجزاء من مدن جنوب الأندلس كانت تخضع لهم مما سهل حركة النقل مثل رندة، وطريف، والجزيرة الخضراء، ومن ثم .. كانت سببة ميناءً هاماً وحلقة الاتصال الرئيسية مع أسواق الأندلس لتتنقل منها البضائع المغربية والسودانية وبلاد الشرق الإسلامى إلى دول أوروبا ودول حوض البحر المتوسط، لكن هذا النشاط التجارى قد قل عن مثله أيام المرابطين والموحدين نظراً لضيق الرقعة التى كان يسيطر عليها المسلمون فى بلاد الأندلس وخطر الأسطول القشتالى والأرغونى لكن فترة المعاهدات والصلح كانت تدعم حركة التبادل التجارى مع مسلمى الأندلس لكنه فى نهاية العلاقات بين الطرفين نلاحظ أن بنى مرين لم يحرزوا انتصارات مدوية فى الأندلس كتلك التى أحرزها المرابطون فى معركة الزلاقة والموحدون فى معركة الأراك، وذلك لضعف امكانيات المرينيين وتوحد صفوف نصارى الأندلس، ولقد كان الفكر المرينى يرى فى التوسع فى تحقيق الوحدة المغربية بضم بنى زيان فى المغرب الأوسط وبنى حفص فى المغرب الأدنى، قد يدفع نشاطهم ويزيد من قوتهم وقدرتهم على الوقوف أمام الخطر الصليبي فى الأندلس إلا أن ذلك كان على العكس؛ فقد استنفذ طاقاتهم وقدراتهم القتالية، ولم تدم انتصاراتهم فى الميدان الأندلسى، بل إن وحدة المغرب لم تدم إلا لفترات قصيرة جداً نظراً لوجود بنى زيان وبنى حفص، إلا أنه يمكن القول إنصافاً للحق أن دور بنى مرين فى الأندلس كان دوراً مشهوداً له على مر التاريخ؛ فقد دخلوا ميدان الجهاد دون سائر القوى الإسلامية الأخرى وحافظوا بقدر إمكانياتهم على بقاء الإسلام لأطول فترة ممكنة؛ بل إن مجرد وجودهم فى عدوه المغرب فى عصر

نفوذ الوزراء قد جعل نصارى الأندلس يفكرون كثيراً قبل القيام بأى عمل من الأعمال العسكرية ضد بقايا المسلمين فى غرناطة التى كانت مساحتها تقل يوماً بعد يوم.

علاقات بنى مرين مع قشتالة وأرغون فى الأندلس :

اتسمت علاقة بنى مرين مع هاتين الدولتين بسمة عدم التوافق والتنافر وليس بسمة العداوة لأن الإسلام لا يعادى أحداً ولا يحارب إلا من اعتدى عليه، ومن هنا كان موقف بنى مرين مع ملوك قشتالة وأرغون الذين هددوا الوجود الإسلامى بالأندلس وحاصروا أهله وعملوا على طردهم من ديارهم التى أقاموا بها أكثر من ثمانية قرون هو موقف دفاع ولقد عمل بنو مرين على خوض المعارك والاشتراك مع حكام غرناطة ضد القوتين اللتين كانتا تتمسكان فى مصير الأندلس وهما قشتالة التى توحدت عام ٦١٤هـ/١٢١٧م ودولة أرغون التى ظهرت كقوة فى أسبانيا عام ٧٣٢هـ/١١٣٧م، ورغم العداوة التى كان يكتنفها حكام المملكتين للإسلام والمسلمين إلا أن قشتالة كانت أكثر إيجابية فى عداوتها من أرغون، ولقد علا نجم الدولة الميرنية فصار قوة عالمية نظراً لاشتراكهم فى حركة المقاومة، لكن حالة الحرب والعداوة لم تكن لتدوم، إذ كانت تتبعها أحياناً فترات من السلم والصلح عن طريق المعاهدات التى كانت تتم بين الطرفين؛ حيث كانت حركة التجارة والتنقل تتم بينها وبين ما يسمى مسيحي أسبانيا وتجارة صقلية وجنوب إيطاليا وكان التجار المسلمون يقومون بعبور أراضي هذه الدول بتجارتهن أو الوصول إلى موانئهم للتجارة دون أدنى اعتراض؛ حيث واجهت التجارة المغربية مع بلاد البحر المتوسط صعاباً كثيرة لأن علاقة بنى مرين ببلاد البحر المتوسط الأوروبية كانت متوترة؛ فالحروب الدائرة رحاها على أرض الأندلس جعلت التجارة لا تزدهر إلا فى حالة الهدنة، وهذه كانت كثيراً ما تخرق.

كذلك .. فإن الصراع المسلح والحرب العسكرية كانت لا تؤثر على التبادل

الثقافى بين أصحاب الإسلام والمسيحية من رجال الدين وصلة الحضارة حيث سماحة الإسلام وعمق حضارته ورغبة رجال العلم فى أسبانيا المسيحية فى الاستزادة من العلوم الإسلامية، وقد تدعمت العلاقات الثقافية والحضارية خلال فترة السلم وازدهرت الثقافة الإسلامية فى الجانب المسيحى، ووفد طلاب أسبانيا المسيحية وجنوب أوروبا إلى جامعة فاس للدرس والتحصيل وتلقى علوم المسلمين على أكبر علماء العصر فى ذلك الوقت واستخدم حكام بنى مرين أسلوب المهادنة والاحتواء والمصالحة لكسب ود طرف على حساب الطرف الآخر من ذلك نجد أن السلطان أبا يوسف يعقوب استغل الخلاف بين قشتالة وبين أرغون لتكوين محور يضم بنى مرين وحكام غرناطة وأرغون ضد قشتالة لكن هذه المحاولات باءت بالفشل لرفض حكام أرجون الدخول فى معاهدة مع المسلمين ضد اخوانهم المسيحيين فى قشتالة لاحظ موقف بنى الأحمر فى غرناطة من بنى مرين.

وقد كان خوف حكام غرناطة من تزايد النفوذ المرينى مدعاة لتحالفهم مع نصارى الأندلس مما أضعف موقف بنى مرين، محمد الثانى الفقيه سلطان غرناطة تحالف مع سانشو ملك قشتالة ويدور الثانى ملك أرغون مع بنى مرين فى عام ٦٩١هـ/١٢٩١م، وكذلك تحالف نفس السلطان مع سانشو الرابع ملك قشتالة وخايمي الثانى ملك أرغون ضد يعقوب بن عبد الحق وأسفر ذلك عن ضياع مدينة طريف وسبتة وعدة حصون من أملاك بنى الأحمر.

وفى نفس الوقت دفع موقف بنى الأحمر العدائى لبنى مرين إلى التقارب بين المرينيين والأرغونيين فقد ثارت سبتة على أبى يعقوب المرينى بتحريض من بنى الأحمر ووجه أبو يعقوب طلباً إلى خايمي الثانى ملك أرغون لتقديم بعض المساعدات البحرية لمعاونة القوات المرينية فى سبتة من البحر لكنه لم يستجب لطلبه لأن يعقوب عقد صلحاً مع فرناندو الرابع ملك قشتالة وكان ٧٣٤هـ/١٣٣٤م قد شهد توقيع معاهدة

بين فاس وقشتالة المريني بتقديم عون بحرى له مكن بنى مرين من الاستيلاء على سبتة عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وقد عقدت معاهدة أبرمها أبو الحسن سلطان المغرب وغرناطة مع ملك قشتالة بعد معركة طريف بثلاث سنوات وكان عام الثانى ملك أرغون بعد ذلك من مساعدة السلطان أبو الربيع سليمان هذا الصلح شاملاً لمحمد الثالث سلطان غرناطة. وقد تمكن خايمي وغرناطة مدتها أربع سنوات وقد انضمت أرغون إلى هذه المعاهدة، وبعد معركة طريفة أصبح بنو مرين وبنو الأحمر فى موقف صعب بعد هزيمتهم، وقد رفضت مقترحات المسلمين لدى النصارى، ولم يعقد الصلح إلا بعد استيلاء قشتالة على الجزيرة الخضراء، وفى عهد أبى عنان المرينى أكد التزامه بينود المعاهدة، وفى عام ٧٥٩هـ/١٣٤٧م جددت المعاهدة بين بنى مرين وملك قشتالة لمدة خمس سنوات أخرى وفى عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م احتج بيدور الرابع ملك قشتالة لدى أبى عنان المرينى لعدم وفاء محمد الخامس سلطان غرناطة بنصوص الاتفاقية المبرمة بينهم.

وكانت آخر المعاهدات التى أبرمت بين بنى مرين وبنى الأحمر وأرغون وقشتالة هى معاهدة عام ٨١٦هـ/١٤١٥م. وقد جرى تجديدها والعمل بها عام ٨١٧هـ/١٤١٤م، وعام ٨١٨هـ/١٤١٥م. كما أنه بالنسبة لباب العلاقات بين البلدين تجدر الإشارة إلى أن بعض أبناء البيت المرينى قد لجأ إلى ملوك قشتالة مثل أبى الفضل شقيق السلطان أبى الحسن والذى أمده ملك قشتالة بالمال والسلاح والأسطول لكن تم القضاء على محاولته، وكذلك من الشخصيات الأخرى الأمير أبو سالم أحمد المرينى الذى تولى عرش بنى مرين لجأ إلى بلاط قشتالة، وقد عاونه ملك قشتالة؛ حيث حملته إحدى القطع البحرية القشتالية مثلما فعلت سابقاً مع الأمير أبى الفضل وأنزلته ساحل المغرب ليطالب بعرش بنى مرين، ومن هذه الشخصيات أيضاً الأمير أبو زيان محمد بن عبد الرحمن بن أبى الحسن المرينى، وقد استدعاه الوزير محمد بن عبد الله

من بلاط قشتالة وأقامه على العرش المرينى عام ٧٦٣هـ/١٣٦١م.

من هذا ندرك مدى الضعف الذى أصاب البيت المرينى فى عصر تحكم الوزراء، وكيف أصبح لقشتالة كما كان لغرناطة نفوذ قوى على سلاطين بنى مرين، وهكذا وصل الهون والضعف بحكام المسلمين فى تلك الحقبة حتى كان تسلطهم يتم عن طريق قوى خارجية تعمل لغير صالح الإسلام، ومن هنا .. بات الوجود الإسلامى فى خطر حتى تم القضاء على غرناطة نهائياً عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م. ومن ثم تداعت أحوال المسلمين، وذلك نتيجة لجهل الحكام وتحكمهم فى الرعية، وقيام الخلافات والابتسامات بين حكام المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وما أصاب المسلمين من بلاء فى الأندلس إنما يعود إلى تلك الانقسامات والأهواء الشخصية ودائماً الشعوب هى الضحية والحكام يعيشون حياتهم كما يتراءى لهم ووفق المزاج الشخصى اللهم الا ما ندر من حكام المسلمين العقلاء النبهاء العارفين بكتاب الله وسنة رسوله والذين ساروا على نهجه ومن هنا كان لهم مقام مرفوع فى مسيرة التاريخ على مر الأزمان والأجيال .

علاقات بنى مرين مع بلاد السودان الغربى

جنوب الصحراء الكبرى

حرص سلاطين بنى مرين كما حرص أسلافهم من المرابطين والموحدين على أن تكون علاقاتهم ببلاد السودان الغربى طيبة وممتازة كما حرصوا على أن تظل الطرق الصحراوية مفتوحة لحركة التنقل والانتقال وأن تظل هذه الطرق دائمة ومتصلة . وكانت دولة مالى الكبرى تعاصر قيام دولة بنى مرين (انظر إبراهيم طرخان ، دولة مالى الإسلامية).

القاهرة، ١٩٧٣)، وقد ارتبطت معها بأوثق الروابط وأهمها وكانت مالى تمثل أكبر الوحدات السياسية جنوب الصحراء الكبرى وكانت المسالك الصحراوية (انظر رسالة المؤلف الدكتوراه سياسة سنغاي الاسلامية الخارجية ١٩٨٣) التى تربط المغرب بهذه البلاد وكانت هذه الطرق تخرج من بلاد المغرب الأقصى الى مصب نهر السنغال أو من جنوب مراکش الى مصب نهر السنغال (منحنى) نهر النيجر وحتى المناطق الجنوبية وجاءت أول اشارة العلاقات السياسية بين مالى وبنى مرين خلال عهد السلطان أبى الحسن المرينى حيث أرسل السلطان منساموسى سفارة ترأس أحد رجال البلاد المالى ومعه أحد المترجمين من صنهاجة .

وفى زمن مسنامفا (١٣٧٧ - ١٣٤١) كانت فى تمبكتو عاصمة مالى سفارة من قبل السلطان أبى الحسن المرينى أعظم سلاطين بنى مرين فى فاس وتضم السفارة عددا من كبار البلاط المرينى برياسة الزعيم الشهير ابن غانية وجاءت هذه السفارة ردا على بعثة التهنة التى كان السلطان موسى قد بعث بها من قبل لتهنة السلطان أبى الحسن أثر انتصاره ومنح تلمسان ، وكانت السفارة المغربية تحمل معها هدية فاخرة الى مساموسى ولكنها وصلت بعد وفاته فاستقبلها ابنه مغان وتسلم الهدية وقد أحسن السلطان مغان اكرام الوفد المرينى وعند العودة أرسل وفدا من كبار بلاط الدولة المالية . وقد احدثت وفاة السلطان أبى الحسن المرينى دويا فى بلاد مالى وشعبه حيث جلس السلطان لتقبل العزاء .

وفى عهد السلطان منسا سليمان شقيق منسا موسى وليس ابنه كما تذكر المصادر والمراجع التى تقع فى أخطاء قاتله رحل الى بلاط تمبكتو عاصمة مالى الرحالة المعروف ابن بطوطة مرسلا من قبل سلطان بنى مرين فى فاس وهو السلطان أبو عنان فارس المتوكل على الله (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ / ١٣٤٨ - ١٣٥٨ م) وكان

سلطان فاس قد اغتصب العرش من ابنه أبى الحسن على بن عثمان صاحب السفارة السابقة وكان هدف أبى عنان من سفارة ابن بطوطة فى بلاد مالى دراسة الطرق التجارية والوقوف على حجم تجارة الذهب المتبادلة بين هذه الأقطار وبين مصر وذلك للعمل على تحويل ما يستطاع تحويله بها الى بلاده نظرا لأهمية الذهب وتجارته فى ذلك القطر واستمرت العلاقات الودية بين مالى وبين بنى مرين حتى سقوط دولتهم وكان تبادل الهدايا بين البلاطين يحظى باهتمام سلاطين الدولتين وأرسل مسنا سليمان هدية الى أبى الحسن ، كذلك أرسل مسنا سليمان مستشاره « زاطة » بالهدايا الى السلطان أبى سالم المرينى .

ولقد صاحب هذه العلاقات السياسية الودية علاقات ثقافية واقتصادية وحضارية تتمثل فى انتقال العلماء والطلاب وازدياد الحركة التجارية ونمو الاقتصاد وازدهاره فى كلا الجانبين وانتقال المؤشرات المغربية من اللغة العربية والكتابة والخط المغربى والمذهب المالكى والتنظيمات الادارية والمعمارية والمالية وظهور أحياء التجار العرب والمغاربة فى العاصمة تمكيتو لاتخاذ السلاطين المالىين للمستشارين المغاربة ، وكان مسنا موسى وأخوه مسنا سليمان قد جعلوا من مالى مركزا حضاريا جنوب الصحراء الكبرى بالاضافة الى أنها مركز تجارى (علاقات المغرب السياسية الثقافية والاقتصادية مع هذه البلاد فصل فى رسالة الدكتوراه (١٤٠ - ١٨٦ ، للمؤلف ٢٦١ - ٢٨٧ - ٣٤٨ - ٣٧٥) ، رسالة الماجستير للمؤلف سلطة البرنو الاسلامية بها فصول عن العلاقات) .

وكانت رحلة الحج التى قام بها مسنا موسى للأراضى المقدسة فى الحجاز ومروره بالقاهرة أثرها فى انخفاض سعر الذهب وزادت سمعة مالى لدى أوروبا ورسمت خريطة للعالم الاسلامى ظهرت مالى بها ومن ثم صارت جزءا من العالم الاسلامى ترتبط مع

أقطاره بشتى الروابط ونجاحه مع بلاد المغرب حيث كانت القوافل التجارية القادمة من المغرب تزود مالى بكل ما تحتاج اليه من منتجات أوروبا وبلاد المغرب وخاصة الكتب والمخطوطات والمؤلفات العلمية وظهر فن البناء المغربى فى بلاد مالى ومارس التجار المغاربة كثيرا من الصفقات التجارية .

وربط الاسلام وعمق الصلات الحضارية والثقافية والدينية والعلمية فقد حمل التجار العرب ولا سيما المغاربة رسالة الاسلام الى تلك الديار ووقع عليهم العبء الأكبر فى اىصال المؤثرات الحضارية والثقافية الاسلامية الى مالى ولقد كان التجار هم أنفسهم علماء وسرعان ما كانت القوافل التجارية يلحق بها العلماء كرحيل الشيخ جلال الدين السيوطى الى بلاد غرب افريقيا ، الشيخ محمد عبد الكريم المغيلى وغيرهم من علماء المغرب ومصر الى مالى وسنغاي فيما بعد . .

واشتهرت اللغة العربية على نطاق واسع وكتب مؤرخو بلاد مالى باللغة العربية (عبد الرحمن السعدى ، تاريخ السودان) ، أحد باب التمبكتى : قبل الابتهاج بتطريز الدياج ، محمود كمت : تاريخ الغتاشى) .

لقد صار كل شئ اسلاميا عربيا فى بلاد مالى وتأثرت بالتجارة والثقافة والحضارة الاسلامية ولا سيما المغربية كما أن بلاد مالى وسنغاي جنوب الصحراء الكبرى قد رحل اليها كثير من علماء الأندلس (الساحلى) الذى قام ببناء المساجد فى مالى السلطان مسنا موسى ومسنا سليمان) وغيره من السلاطين .

أن الصلات الدبلوماسية (السياسية) والثقافية والاقتصادية مع بلاد السودان فى عصر بنى مرين قد شهدت ارتباطا وثيقا ونموا وازدهارا فى مختلف المجالات والأصعدة حتى أن هذه الروابط والصلات كانت مقدمة لقيام السلطان المنصورى السعدى عام

٩٩٩هـ / ١٥٩١م بإرسال حملة عسكرية بسطت نفوذ المغرب على بلاد السودان الغربى .

هكذا نرى أن الروابط الأخوية الاسلامية كانت تسود فى جو من التكافل الاقتصادى والتعاون الاسلامى فى شتى المجالات ولم تكن العلاقات الدبلوماسية وتبادل السفارات والوفود والهدايا الاجزاء بسيطا فى هذه الصلات التى كانت تدعمها حركة الشعوب لاداء فريضة الحج وطلاب العلم والمعرفة والتجار الذين ساعدوا على خلق الجو الاسلامى الذى عاشته مالى وأن حسن الجوار والعلاقة كنت دائما هى الطريق للروابط الأخوية الاسلامية التى تميزت بها الدولة المرينية طوال حكمها الذى زاد عن قرنين ونصف من الزمان .

* * * *

الفصل السابع

العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية بين بني مرين

وبني زيان وبني حفص (الدويلات الثلاث)

كان انفصال أبي زكريا الحفصي عن الدولة الموحدية عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م وإعلانه الاستقلال التام بالمغرب الأدنى عن الدولة الأم في مراكش وكذلك استيلاء يغمراسن بن زيان على تلمسان وإعلانه عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م قيام دولة بني زيان في المغرب الأوسط وكذلك استيلاء يعقوب بن عبد الحق على مراكش عاصمة الموحدين وقتله الخليفة أبي دبوس ودخوله عاصمة الموحدين عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م نهاية للدولة الموحدية كانت تحكم المغرب الكبير من حدود برقة (بني غازي) شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا وبالأعلى هذه الدويلات الثلاث بمقدار ما كان نكسة ونكبة للمسلمين في بلاد الأندلس.

ذلك لأن التشرذم الذي شهدته هذه الدويلات والدخول في صراعات داخلية وحروب كثيرة فيما بينها وتحالفات مع أعداء الديار والدين كل هذا قوض من دعائم الدولة الإسلامية بالأندلس كما زاد من مطامع الأوروبيين في تلك البلاد فكانت الحملات على أفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والاخلال بالتوازن العالمي وتعرض سواحل هذه الدول لعدوان دول أوربا واحتلالها للعديد من المدن ودفعها للجزية وهي صاغرة للقوى الخارجية واستعانة بحكام بعض من هذه الدويلات بالمسيحيين بعضهم على بعض والدخول في تحالف ضد أخوانهم في العقيدة والوطن والمصير.

العلاقات المرينية الحفصية

لم تكن العلاقة بين بني حفص في تونس (المغرب الأدنى) وبني مرين في المغرب الأقصى تسير على وتيرة ثابتة بل كانت تتحكم فيها الظروف والمواقف ومن ثم مرت هذه العلاقة بعدة مراحل كانت كل منها تعنى نهاية فترة معينة من العلاقات بحيث اذا أنتهت حلقة حققت فيها بنو مرين أهدافها غايرتها مرحلة أخرى تختلف كل الاختلاف عما سبقها من مراحل وفي النهاية يسعى بنو مرين إلى تحقيق ذاتهم والاعتراف بكيانهم ثم سيادتهم في المغرب كله ففى حالة اعلان الدولة واسقاط دولة الموحدين أى قبل عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م كانت بنو مرين تتبع اسميا الخلافة الحفصية وتدعو لها. وفي هذه المرحلة أعلن بنو مرين تبعيتهم لبني حفص وكان الهدف اضعاف لون من ألوان الشرعية على حركتهم ضد الموحدين وكان بنو مرين يبعثون ببيعة البلاد التي يتم فتحها إلى الأمير أبي زكريا الحفصي وكان بنو مرين يرسلون الهدايا والأموال لبني حفص في سبيل مساندتهم على صاحب مراكش وكذلك كسب التأيد الشعبي في بلاد المغرب الأقصى وتمت في ذلك سفارات متبادلة بينهما كان لها أثرها المباشر في تقريب وجهات النظر وتوحيد الأهداف، ومن تلك السفارات السفارة التي أرسلها الأمير يعقوب بن عبد الحق عام ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م إلى البلاط الحفصي وقد رد عليه المستنصر الحفصي بأرسال سفارة ماثلة عام ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م فأرسل هدية عظيمة للأمير المريني يعقوب بن عبد الحق.

وقد ظل المرينيون خاضعين لهذه التبعية حتى بعد فتحهم لمراكش لكنها كانت تبعية اسمية وقد بدأ ذلك منذ عهد السلطان أبي يعقوب ويوسف بن يعقوب فعندما حاصر تلمسان خرج عليه راشد بن محمد فأتبعه جنود بني مرين حتى دخل الأراضي الحفصية في أفريقيا وهنا وقف الحفصيون في وجه القوة المرينية وقامت الدولة الحفصية

بحمايته كذلك لجأ الثوار الحفصيون إلى بلاط بنى مرين عام ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م. ومن ثم ساءت العلاقات بين الطرفين واتخذ بنو مرين ذلك ذريعة لاحتلالهم بجاية ومن ذلك نجد أنه منذ أن قوى أمراء بنى مرين وهم يتطلعون إلى المغربين الأوسط والأدنى فلما تمكنوا من السيطرة على المغرب الأوسط نظروا إلى أفريقية طامعين فى بناء دولة المغرب الكبير.

وأصدر السلطان يوسف أوامره لأخيه أبى يحيى بن عبد الحق بالاستيلاء على بجاية ونجح الأمير فى مهمته ودخل المدينة وكان ذلك بمثابة إعلان حرب على بنى حفص ونهاية تبعية بنى مرين الاسمية. لكن ذلك لم يؤثر فى العلاقات ففى عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م أوفد سلطان تونس الحفصى الملقب بأبى عصيدة بن يحيى الواق وفدا للزيارة وزيادة الصلة مع السلطان يوسف بن يعقوب وتعددت السفارات وتحسنت العلاقات وأدى ذلك إلى توطيد دعائم الصداقة مما دعا السلطان يوسف بن يعقوب إلى الاستعانة بالأسطول الحفصى لاحكام الحصار حول تلمسان وتعاون الطرفان ضد بنى زيان وقد لقي أفراد الأسطول الحفصى حفاوة كبيرة من حكام وهران المرينى وبذلك تنوعت العلاقة وأختلفت بين الطاعة والاستقلال حتى وصل الأمر إلى استعانة الدولة الحفصية بالدولة المرينية وتطلب عوناً منها للقضاء على اطماع بنى زيان فى أفريقية. وكان السلطان أبو يحيى بن زكريا الحفصى قد طلب معاونة السلطان أبى سعيد عثمان المرينى لدفع خطر بنى زيان الذين اقتحموا تونس ونصبوا على ملك الحفصيين محمد بن عمران، أحد عملائهم ولكن الحفصيين نجحوا فى استعادة العاصمة تونس قبل وصول المدد المرينى وقد وجد السلطان أبو سعيد عثمان المرينى فى ذلك فرصة لتقوية العلاقات فأرسل فى خطبة أبنة السلطان الحفصى أبى يحيى لولده الأمير أبى الحسن ولقد شعر أبو الحسن بأهمية ارتباطه بعلاقة المصاهرة مع الحفصيين فى تونس، لذلك كان أصراره على مصاهرتهم مرة ثانية ولقد ربطت علاقة المصاهرة بين الدولتين المرينية

والحفصية برباط قوى متين ومن ذلك ان السلطان أبا يحيى الحفصى جعل الأمير أبا الحسن أحد شهود عقد ولاية العهد فقد شهد هو العقد عندما أرسل أبو بكر الحفصى حاجبه أبا القاسم بن عيو « فى سفارة إلى بنى مرين. وبذلك جعل السلطان الحفصى السلطان أبا الحسن فى منزله الوصى على العرش عند وفاته عندما كتب وصيته لابنه أبى العباس أحمد وكان اختلاف بنى حفص بعد مقتل أبى العباس أحمد (٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م) سببا فى تدخل أبى الحسن فى أفريقية ومبرراً لتنفيذ التوسع المرينى وكان حجة بنى مرين أن الأمير أبى الحسن كان أحد شهود عقد الولاية.

وهكذا .. طمع أبو الحسن المرينى فى ملك أفريقية بعدما أحس بضعفها وبعدمها لجأت إليه الدولة الحفصية وإلى أبيه طالبة العون لحمايتها من بنى زيان وبعد ما استطاع أبو الحسن أن يفرض سلطانه على المغرب الأوسط ومحاولة أبى الحسن أن يكون الوارث للدولة الموحدية وكان أبو الحسن يحدث نفسه بحكم تلمسان وأفريقية.

وكان التوسع المرينى سببا فى قيام علاقات من العداء بدلاً من الود والاخاء وقد رحب بعض الأمراء الحفصيين بسيطرة أبى الحسن على أفريقية وكانت الفترة الأولى، الاحتلال الأول (٧٤٨ - ٧٥٠ هـ / ١٣٤٧ - ١٣٤٩ م) وكان أبو الحسن قد أعد قواته واستعان بقوات من بعض ولاية بنى حفص وبعض القبائل العربية وقدمت له العون العديد من الولايات والتي منها قابس ونوزر، قفصة والزاب، طرابلس وقسنطينة، وتمكن جيش أبى الحسن من القبض على الخليفة أبى حفص عمر وعلى قائده، وتم قتلها ودخل أبو الحسن المرينى تونس فى ٨ جمادى الآخرة عام ٧٤٨ هـ ليكون قد أعلن توحيد المغرب الكبير تحت سيادته.

لكن القبائل العربية استطاعت هزمته فى عام ٢ محرم ٧٤٩ هـ قرب القيروان؛ حيث قاد حركة المقاومة أحد الأمراء الحفصيين الذى تعاون مع العرب وانقضت

أفريقية على السلطان أبي الحسن المريني في أوائل ٧٥٠هـ مما اضطره إلى ترك أفريقية. وانتهت فترة الاحتلال المريني التي استمرت عامين وخمسة عشر يوماً.

وتحسنت العلاقات لفترة قصيرة بين الدولة الحفصية ودولة بني مرين عقب انتهاء فترة الاحتلال السابقة فتبدلت الهدايا بين الخليفة الحفصي والأمير المريني ولكن أطماع أبي عنان في ملك أفريقية أفستت هذه العلاقات لأنه يفكر في أن تظل تحت سيطرته فيما لم يستطيع أن يطيقه أبوه فبدأ عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م في إفساد العلاقة بالخليفة الحفصي وتوطيد علاقته بوالى بجاية الأمير الحفصي أبي عبد الله بن محمد ونجاحه بعد أن تمكن من إعادة سيطرته على المغرب الأوسط، وقد استغل أبو عنان فرصة وجود والى بجاية الحفصي في بلاطة فجعله يتنازل عن ولاية بجاية دون اراقة دماء، وبعد أن تمكن أبو عنان من بجاية، وبعد أن فرض أبو عنان سيطرته على بجاية استولى على قابس وطرابلس .. فإنه نظر إلى أفريقية والى قسنطينة لأنها قاعدة قوية ومن يستولى عليها يمكنه الاستيلاء على تونس وحتى عام ٧٥٣هـ زحفت جيوشهم على قسنطينة إلا أنها اضطرت للانسحاب لكن عام ٧٥٥هـ شهد المحاولة الثانية لأخذ قسنطينة لكنه فشل، وفي عام ٧٥٨هـ استولى على قسنطينة بعد حصار دام أربعين يوماً.

وحشد أبو عنان قوات برية وبحرية للاستيلاء على تونس واستطاع في رمضان ٧٥٨هـ أن يدخل عاصمة بني حفص وتمت البيعة له حتى أغلب أجزاء أفريقية فيما عدا المهديّة وسوسة وتورزر، وبدأ العرب المقاومة الثانية للاحتلال المريني وحدث انشقاق في الجيش المريني وانصرف كثير من قواته إلى المغرب حتى كان ابن أبي عنان إلا أنه تراجع -هو نفسه- إلى المغرب وأسرع أهل تونس بالثورة على من بقى من بني مرين ودخلوا المدينة وعادت إلى ملك الحفصيين (٧٥٣هـ-٧٦١هـ) وبعد وفاة السلطان أبي

عنان عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م أخذت العلاقات بين الطرفين تسير في اتجاه جديد يقوم على الود المتبادل لاسيما أن العلاقات بين أفراد البيت المريني كانت علاقة صراع للوصول إلى العرش ففي عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م أطلق منصور بن سليمان بن عبد الحق المريني سراح أبي العباس الحفصي صاحب قسنطينة. وكانت هذه المدينة آخر ما تبقى للمرينيين في أفريقية وقدم أبو العباس أحمد الحفصي مساعده الأمير أبو سالم بن أبي الحسن المريني في تولية عرش البلاد، وفي مقابل ما قدم أبو العباس الحفصي حفظ أبو سالم المريني الجميل للأمير الحفصي أبي العباس فتنازل له عن قسنطينة وأمر واليها المريني بالانصراف عنها وتسليمها لأبي العباس الحفصي ويعود قسنطينة إلى الدولة الحفصية انتهت الاحتلال المريني الثاني، والذي لم يتمكن من فرض نفوذه على البلاد الحفصية واستمرت العلاقات ودية طيلة عهد أبي العباس أحمد الحفصي حتى وفاته عام ٧٩٦هـ/١٣٩٤م، واستمر ذلك الود حتى كان عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م عندما وصل إلى البلاط المريني نائر حفصي هو أبو عبد الله محمد بطلب معاونة السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز ضد السلطان الحفصي وقد أرسل معه السلطان المريني حملة عسكرية سرعان ما عادت ادراجها إلى المغرب الأقصى دون أن تحقق أهدافها، وقد أدت هذه الحملة إلى جو من سوء العلاقة إذ أنه بعد نجاح السلطان الحفصي في قتل الأمير أبي عبد الله محمد أرسل رأسه سرّاً وعلقت على أحد أبواب العاصمة فاس إلا أن العلاقات قد تحسنت؛ ففي عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م أرسل السلطان المريني أبو سعيد عثمان بعض الرسل والهدايا إلى البلاد الحفصي ورغم ذلك فإن السلطان الحفصي أبا فارس عبد العزيز عندما قام بحركته التي استولى فيها على تلمسان بالمغرب الأوسط عام ٨٢٧هـ/١٤٢٣م حرص على التوجه بقوات بني حفص نحو فاس لإخضاعها لنفوذ بني حفص واعتبارها مناطق نفوذ لكن الأمير المريني أبا سعيد عثمان

صاحب فاس أحق البيعة والتبعية له ووصلت البيعة إلى تونس، وكان السبب في بيعة بنى مرين يعود إلى ما كان يعانيه بنو مرين من ضعف وظلت علاقات التبعية حتى أرسل عام ٨٦٤هـ/١٤٥٩م. السلطان عبد الحق المريني آخر سلاطين بنى مرين هدية عظيمة إلى السلطان الحفصي، وقد استقبل الحفصيون رسول بنى مرين أحسن استقبال.

كذلك .. فإن العلاقات الثقافية لم تتأثر كثيراً بالأوضاع السياسية التي كانت قائمة بين بنى حفص وبنى مرين لقد كان جو للعلم والعلاقة الثقافية والتعاون بين تلمسان وفاس والمدارس التي أنشأها سلاطين بنى مرين في المغرب الأوسط ومدنه المختلفة وحركة التنقلة في المخطوطات بين البلدين ومدارس الزيتونة والقروين وتعاون تونس وفاس واستقبال الطلاب للدراسة والعلماء للتدريس كل هذا كان يجرى على قدم وساق في أقصى الظروف فنجد أن أبا الحسن المريني عندما أبحر من تونس عائداً إلى بلاده أثر فشله في البقاء في أفريقية اصطحب معه نحو أربعمئة عالم منهم ابن الصباغ والظمى، وكان ينتقل العلماء من أفريقية إلى المغرب الأقصى في يسر وسهولة دون أدنى اعتراض ووصل بعض طلاب بنى مرين الدراسة في تونس وفي مدرسة الشماعين، وكذلك وصل بعض من علماء بنى مرين للتدريس في هذه المدرسة إلا أن العلاقات الاقتصادية كانت تتأثر بجو العلاقات السياسية، بين بنى حفص وحكام بنى مرين وبنى زيان؛ فكانت العلاقات الاقتصادية تنشط عندما كان جو العلاقات يسوده الود والسلم بين بنى زيان وبنى حفص ففي تلك الحالة يصبح الطريق آمناً أمام حركة القوافل التجارية، وكانت قوافل الحج المتجهة إلى مصر والمشرق العربى تقوم بدور رئيسى في هذا النشاط الاقتصادى بين أفريقية الحفصية والمغرب الأقصى. لذلك .. حرص المرينيون على تثبيت أقدامهم في المغرب الأوسط تسهيلاً للحركة التجارية

وتأميناً لطريق الحج، ومهما يكن من أمر هذه العلاقة فإن صلة الدم والعرق والدين والجوار والعقيدة الإسلامية جعلت هذه العلاقات تتسم بروح التسامح والتوافق أحياناً كثيرة، وأن سحابة الصيف التي كانت تسود العلاقات سرعان ما كانت تتقشع ويتم الصفاء وتاريخ البلدين الطويل به سمات ولحات من التعاون والتضافر من أجل الصالح العام؛ فقد اشتركت قوات بحرية وبرية من بنى حفص في مساعدة بنى مرين في حركة الحياض الإسلامية في الأندلس هذا دليل على قوة العقيدة وتلك لمحة بسيطة عن العلاقات.

العلاقات المرينية الزيانية

طُبعت العلاقات بين بنى مرين وبنى زيان بطابع العداء المتواصل والمتوارث، والذي ظل تتوارثه الأجيال حتى أنه لم يهدأ عبر تاريخ الدولتين إلا لفترات قليلة لا تحسب في عمر الدولتين والتي كانت تسود فيها المودة والسلم، والذي كان يفرض على بنى زيان من مركز قوة بنى مرين وانهزام بنى زيان، لكن بنى زيان سرعان ما كانوا يسارعون إلى نقض الصلح وعودة العلاقة إلى حالتها الطبيعية، وتاريخ العداوة بين الطرفين رغم رابطة العقيدة والجوار والانتماء لقبيلة واحدة عداً قديم؛ فقد كان بنو زيان الذين هم بطن من بطون بنى زيادين في صراع دائم مع بنى مرين، وكانت الغلبة دائماً لأجداد بنى زيان نظراً لكثرة عددهم مما اضطر بنى مرين للإقامة الدائمة في الفياض والقفار والصحراء في المغرب الأوسط وبعد زوال المرابطين أصبح بنو زيان من أصدقاء الموحدين في المغرب الأوسط وقاتل بنو زيان المرينين عام ٥٤٠هـ/١٢٤٥م، وألحقو بهم هزيمة فادحة وقتلوا زعيم بنى مرين، وكان بنو مرين يشعرون بالمرارة لما يلاقونه من أبناء بنى عمومته بنى زيان حتى اضطر بنو مرين للرحيل من المغرب

الأوسط عام ٦٠١هـ/١٢٠٤م فى أعقاب حرب دارت بينهما واستقر بنو مرين عند مدخل المغرب الأقصى عند وادى ملوية ودخلوا بلاد المغرب الأقصى عام ٦١٠هـ/١٢١٣م، وكانت هذه الأحداث من أسباب العداوة.

واستغل الموحدون هذا العداء منذ عام ٦١٠-٦٦٨هـ/١٢١٣-١٢٦٩م طوال هذه الفترة التى تزيد عن خمسين عاما تحالف الموحدون مع بنى زيان عندما تحالف يغمراسن بن زيان مع السعيد الموحدى وبنى عسكر لكن أبا يحيى المرينى قضى على هذا التحالف عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م. وعاد بنو زيان، وقام يغمراسن بمحاصرة رباط تازى، ولكن الأمير يحيى لاحق يغمراسن حتى ألحق به هزيمة قاسية عند أبيسلى وتحالف يغمراسن بن زيان مع أبى دبوس آخر سلاطين الموحدين وشن غارات كثيفة على أطراف المغرب الأقصى وخاصة إقليم ملوية للتخفيف من حصار أبى يعقوب بن عبد الحق حول مراکش مما دفع يعقوب بن عبد الحق إلى توجيه ضربة انتقامية إلى يغمراسن فهزمت وقتل ابنه عند وادى تلاغ وعلا نجم بنى مرين بانتصارهم على أعدائهم من بنى زيان واسقاط خصومهم الموحدين.

ولقد حاول بنى مرين بكل الطرق ضرب القوة الزيانية، وكانت الوسيلة العسكرية أهم وسائلهم ثم بذروا الشقاق بين أفراد البيت الزيانى الحاكم واستخدام الإغراء بالمال، وكانت خطة بنو مرين العسكرية هو حصار تلمسان عاصمة الدولة ثم تخريبها وتدميرها وكانت خطة بنى زيان الانسحاب من العاصمة تلمسان والتوغل داخل حدود بنى مرين بالمغرب الأقصى وتدمير ممتلكات بنى مرين ولاسيما فى الحدود مما كان يضطر بنى مرين للإقلاع عن تلمسان لكنهم كانوا يعيدون الكرة أكثر من مرة وبهزيمة بنى زيان زادت الثقة لدى بنى مرين فأصبحوا بعد إقامة دولتهم يطمعون فى إسقاط دولة بنى زيان كما اسقطوا دولة الموحدين والسيطرة على المغرب كله والقضاء على

أعدائهم التقليديين بنى زيان، وفى الوقت نفسه يلاحظ أن بنى زيان كانوا لا يتركون فرصة إلا واغتنموها فى سبيل ضرب قوة بنى مرين.

ونهض بنو مرين قاصدين تلمسان (٦٣٠هـ/١٢٧١م) لتحقيق غرضهم ولجأ بنو مرين إلى القوة العسكرية فزحفوا صوب بنى زيان والتقى الجمعان وانتهت المعركة بهزيمة بنى مرين وفرار يغمراسن إلى تلمسان فحصارها المرينيون ثم عادوا إلى بلادهم واستخدم بنو مرين وسيلة أخرى فى ضرب بنى زيان وفى تأليب قبائل المغرب الأوسط عليهم فأكثروا فى إكرام قبيلة بنى يوجين البربرية وبالفعل وقف بنو يوجين معهم فى حربهم ضد بنى زيان.

وفى عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م مد بنو مرين أيديهم إلى بنى زيان يطلبون الصلح معهم ليتفرغوا للعمل ضد نصارى الأندلسيين ولكن يغمراسن رفض الصلح وأصر على موقفه المعادى لهم وقام أبو يوسف يعقوب بحملة ضد يغمراسن بن زيان هزمته وحاصرت العاصمة تلمسان ورغم هذا أصر السلطان أبو يوسف على التصالح مع بنى زيان فى المغرب الأوسط قبل عبوره الأول إلى الأندلس وأرسل حفيده أبا يوسف بن تاشفين فى وفد من بنى مرين لعقد الصلح مع يغمراسن والرجوع للمودة ووضع أوزار الحرب تفرغا للجهاد فى الأندلس فأكرم يغمراسن الوفد وأرسل مشايخ بنى زيان إلى فاس ومعهم الهدايا وتم عقد الصلح بين الطرفين عام ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م وأضطر بنو زيان لقبول الصلح لكن بنى زيان نقضوا الصلح واتفقوا مع بنى الأحمر فى غرناطة الأندلس لمهاجمة أملاك بنى مرين الشرقية لصرف أبى يوسف عن العبور للأندلس للمرة الثالثة وكان هذا الموقف سببا فى قيام أبى يوسف بحملة تأديبية وهزم فيها يغمراسن عند موقع يقال له الملعب بالقرب من تلمسان عام ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م وقضوا على هذا التحالف بحربهم الحاسمة ضد بنى زيان هذه وحاصروا تلمسان وعادوا إلى بلادهم.

ووقف بنو زيان موقف المدافع عن أنفسهم عام ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م حتى عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م وبلغ الوضع مداه بين الطرفين عندما قدم بنو مرين أمير مفراوة بالمغرب الأوسط مستصرخا من اعتداء بنى زيان ومستنجدا ببنى مرين ووصلت الحملات التأديبية ضد بنى زيان زروتها عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م عندما حاصر السلطان أبو يعقوب يوسف تلمسان طيلة ثمانية أعوام وحاصروا تلمسان حصارا شديدا حتى استولوا فى أثناءه على غالبية المغرب الأوسط واستخدم بنو مرين كل الطرق لاحكام الحصار فقاموا ببناء سور حول تلمسان كما قاموا ببناء مدينة أطلقوا عليها المنصورة على أحسن طراز وأستمر الحصار ثمانية أعوام وأنقذ المدينة مقتل السلطان أبى يعقوب يوسف و انسحب المرينيون من المغرب الأوسط. واختلف بنو مرين بين تأيد أبى ثابت بن أبى عامر وبين أبى سالم بن يعقوب وفى هذا الأثناء راسل أبو ثابت بنى زيان فى تأييدهم له ووعدهم بالافراج عن تلمسان فى حالة أنتصاره وبعد توليه العرش وفى بنى زيان بما وعد به وتنازل عن البلاد التى أخضعها بنى مرين لسلطانهم داخل حدود المغرب الأوسط وارتحل بنو مرين واشتروا على بنو زيان عدم دخول تلمسان الجديدة ومن ذلك فان بنى مرين أصبح لهم موطن قدم فى المغرب الأوسط للاطلاع على أخبار بنى زيان، ولكن بنى زيان هدموا المدينة ووقفوا بالمرصاد لبنى مرين فأووا اليهم الخارجين على سلطة فاس. ووقفوا بجانب آخرين فى حروبهم ضد بعضهم البعض ورفض بنو زيان تسليم الخارجين على دولة بنى مرين، وكانت آخر الحملات التأديبية التى قام بها أبو سعيد عثمان المرينى عام ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م. وكان سببها أن السلطان الزياني أبا حمو سهل فرار الثائر عبد الحق بن عثمان إلى الأندلس فغزا تلمسان أيام أبى حمو وكذلك ساعد بنى زيان فى عهد أبا تاشفين، الأمير أبا على بن السلطان أبى سعيد عثمان المرينى عندما خرج على أبيه وبعثوا إليه بقوات إلى نواحي تازى ليشغل أبا سعيد عن حرب أبنه.

وعلى هذا .. فإن بنى مرين لم يلجأوا للصالح مع بنى زيان الا لتأمين جبهتهم الشرقية لبعض الوقت وكان صلحا مؤقتا ثم يعودون للهجوم على بنو زيان ولذا لم يرضخ بنى زيان للصالح.

ولذا .. فإن بنى مرين فى المراحل الأولى لم يستطيعوا ضرب بنى زيان وساروا على المنهج الذى رسمه لهم مؤسس دولتهم يغمر سن بن زيان بمنع بنى مرين من التوسع شرقا وجعل كل المغرب الأوسط أرضا لبنى زيان فاستولى بنو زيان عام ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م على تونس فلم يجد بنو حفص بدا من الاستعانة ببنى مرين أعداء بنى زيان التقليديين فكانت فرصة لسلطان بنى مرين للقضاء على دولة بنى زيان والاستيلاء على المغرب الأوسط لكى تكون خطوة تقربهم إلى أفريقية فرفضوا طلبهم ومن ذلك أتخذ بنو مرين هذا الرفض ذريعة للزحف نحو تلمسان وكان السلطان أبو الحسن الموينى الذى خلف أباه أبى سعيد عثمان قد فشل فى إقامة علاقات من الود والتفاهم مع بنى زيان وحسن الجوار بين القوى الثلاث فى المغرب بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين وجاءت هذه الجهود بعد قيام أبى الحسن بدور بارز بجانب اصهاره بنى حفص حيث قام أبو زيان بن تاشفين باحتلال أجزاء من ممتلكات الحفصيين الذين كانت تربطهم بهم علاقات مودة وعاد بنو زيان لأسلوبهم القديم فى التعامل فأساء أبو تاشفين سلطان بنى زيان معاملة رسول أبى الحسن الموينى وقد فجرت هذه الأحداث تطلعات أبى الحسن فى التوسع فى المغرب الأوسط فرآى القضاء نهائيا على بنى زيان ففى عام ٧٣٧ هـ / ١٣٢٦ م قام أبو الحسن بغزو شامل للمغرب الأوسط وافتتح تلمسان وقتل أبا تاشفين وبذلك سيطر على المغربين الأوسط والأقصى وتلاشت دولتهم وأصبح المغرب الأوسط أقلهما من أقالم الدولة المرينية، لكن بنى زيان لم يستسلموا للضرب فانتهزوا الفرصة لضرب القوة المرينية وانسحبوا من أرض المعركة التى

دارت بين بني مرين وبين القبائل العربية أثناء قتاله القبائل العربية بالقرب من القيروان (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) فانهزم بنو مرين شر هزيمة وتمكنوا في نفس العام من أحياء دولة بني زيان وبايعوا أميرهم عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمر اسن سلطانا على تلمسان وأقاموا دولتهم من جديد وانتقلوا من الخضوع إلى الاستقلال واستفاد بنو زيان في تدعيم موقفهم من الصراع الدائر بين أبي الحسن في المغرب الأوسط ثم في سلجماسه وولده أبي عنان. وقد ساعد أبو عنان بني زيان ضد أبيه للوصول إلى السلطة بعد اتفاق أبي عنان معهم بالسيطرة على بلادهم واستطاع أبو عنان هزيمة أبيه عام ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م، ثم عاد أبو عنان للسيطرة على المغرب الأوسط مرة ثانية عام ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م. واستولى عليه وقتل سلطان بني زيان وبسط نفوذه من جديد وظلت بيعة بني زيان للمرينين قائمة واستمر ذلك طوال ست سنوات حتى وفاة أبي عنان عام ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م حتى استطاع أبو حمو موسى بن يوسف أحياء الدولة من جديد وأعاد استقلالها مرة أخرى. وظل بنو زيان خلال عصر تحكم الوزراء في سلاطين بني مرين في عدائهم التقليدي مما دفع بني مرين لاحتلال المغرب الأوسط في عام ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م. وكان أبو حمو في تلك الفترة يترك تلمسان ويهاجم أطراف المغرب الأقصى حتى يجعل قوات بني مرين تترك تلمسان واستطاع بنو مرين اغراء بني عامر العرب بالمال وكذلك تفريق شمل البيت الزياني والوقوف مع أمير ضد آخر واشعال الفتنة كذلك سيطروا على تلمسان عام ٧٩١ هـ / ١٣٨٨ م. في عهد السلطان العباسي أحمد، قد أنهكوا قوى الدولة بل أن بنو مرين أخذوا يتدخلون في تولية سلاطين بني مرين هادفين من وراء ذلك انهاك القوى الزيانية والذي يلاحظ سير هذه العلاقات يدرك أن بني مرين حاولوا عدة مرات ضرب القوة الزيانية لكنهم لم يستطيعوا توجيه ضربة قاصمة لهم الا بعد تحالفهم مع بني حفص كما أن بني مرين عند تحالفهم مع بني حفص كانت نظرتهم أشمل فأنهم يعتبرون الاستيلاء على

تلمسان خطوة لاستيلائهم على أفريقية والدليل على ذلك أن أبا الحسن المريني بعد أن استولى عن المغرب الأوسط استغل الخلاف الدائر داخل البيت الحفصي وزحف إلى أفريقية وأستولى عليها ٨٤٨ هـ / ١٣٤٧ م كذلك فأن بني زيان أستغلوا انشقاق بني مرين على أنفسهم وأعادوا اقامة دولتهم بينما أستغل بنو مرين الانشقاق لذا لم يواجهوهم في زحفهم نحو تلمسان أنما أتبعوا الهجوم المماثل فكانوا يتركون تلمسان لبني مرين ثم يزحفون إلى المغرب الأقصى مما يضطر بني مرين للاقلاع عن تلمسان.

وعلى هذا فإن علاقة الدولة الزيانية بدولة بني مرين قد تأرجحت عدة مرات بين الخضوع والاستقلال والتبعية وكان بنو مرين في كل هذه الحالات في مركز القوة يستخدمون كل الوسائل لضرب بني زيان.

لكن مما يلفت النظر أنه خلال سيطرة بني مرين على المغرب الأوسط كانت تلمسان المنصورة طوال احد عشر عاما مقرا للحكومة المرينية يمارس منها أبو الحسن تسير أمور الدولة في المغرب الأوسط والأقصى وأنشأ بنو مرين بها القصور والمساجد والمدارس والبيمارستانات وأهتم السلطان والأشياخ بمجالس العلم والعلماء ونشروا التعليم وأكثروا من بناء المدارس في المدن الكبرى وكانت مجالس أبي الحسن تضم كثيرا من العلماء والأدباء وكثر عدد الطلبة بالرحيل إلى فاس لتلقى العلم على أئمتها وعلمائها ومن هؤلاء الذين عادوا إلى فاس أبو عبد الله محمد السلوغي الذي أصبح رائدا علميا في بلاد المغرب الأوسط حيث أسس له أبو تاشفين ابن أبي حمو الزياني مدرسة يدرس فيها ما حصله من علوم فاس كما اهتم المرينيون باعادة تعمير مدينة المنصورة التي سبق انشاؤها في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف.

وتلك هي لحة مختصرة عن العلاقات بين بني مرين وبني زيان والتي كانت في مجملها صراع متواصل أضر بقضايا الإسلام والمسلمين في الأندلس.

علاقة الحفصيين مع بني زيان

كانت القوى الثلاث التي ظهرت على أنقاض الدولة الموحدية تحاول كل منها بسط نفوذها على المنطقة فكانت تصطدم بالدولة الزيانية عندما يحاول بنو حفص الامتداد غرباً ، وعندما يحاول بنو مرين التوسع في المغرب الأوسط شرقاً ومن ثم كانت الدولة الزيانية هي الأخرى تحاول تثبيت أركانها.

ولقد كان بنو زيان في بداية قيام دولتهم يتعاونون مع الموحيدين مما أغضب الحفصيين وبني مرين في آن واحد وقد كان بنو زيان في حاجة إلى الموحيدين لان بني زيان ينظرون إلى بني حفص وبني مرين على أنهما قوتان شابتان يؤثر وجودهما على الدولة الزيانية مستقبلاً.

ولقد أغضبت علاقة بني زيان بالموحيدين بني حفص في المغرب الأوسط وظهر ذلك في هجومهم على تلمسان عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ولا شك في أن هجوم بني حفص على تلمسان أثر في أنجاز الدولة التوسعية، ومن ثم فانه بعد قيامها بسبع سنوات ٦٣٣هـ تراها تخضع لنفوذ بني حفص وكان الخضوع شكلياً لا يتعدى الدعاء لبني حفص على منابر تلمسان والمغرب الأوسط ورغم محاولة بني زيان التوسع شرقاً إلا أنهم اصطدموا ببني حفص عندما حاول ابن تاشفين اخضاع قسنطينة وبجاية وحدث صراع بين القوتين الحفصية والزيانية فانتصر بنو زيان ودخلوا تونس العاصمة واستولوا عليها عام ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م. لكن أثناء توسع بني زيان في عهد ابن تاشفين استنجد بنو حفص ببني مرين لضرب القوة الزيانية ونتج عن ذلك حصار بني مرين لتلمسان عام ٧٣٥هـ / ٧٣٧م، ولم يستطع بنو زيان مواجهة قوة بني حفص في الشرق وبني مرين في الغرب فسقطت تلمسان وفرض النفوذ المريني على سكانها.

وتحسنت العلاقات بين الحفصيين وبني زيان عندما وقف بنو حفص إلى جانب أبي حمو الثاني صاحب تلمسان وساعده لطرده بني مرين من المغرب الأوسط والذين كانوا يتطلعون إلى بسط نفوذهم على أفريقية والمغرب كله واستطاع أبو حمو بمساعدة جيش حفصى تم تسليحه عن طريق بني حفص استعادة تلمسان مرة أخرى، ولما حاول بنو زيان توسيع مناطق نفوذهم في عهد أبي حمو الثاني وقف لهم بنو حفص وكانوا دائماً يحاولون ضرب نفوذ أية قوة بالمغرب الأوسط يشم منها رائحة تهديد نفوذهم في أفريقية مساعداً بني مرين للاستيلاء على تلمسان لكبح جماح القوة الزيانية ثم ساعدوا أبا حمو الثاني في القضاء على نفوذ بني مرين بالمغرب الأوسط لمنعهم من التوسع شرقاً على حساب ممتلكات الحفصيين، ثم ساعدوا أبا زيان بن أبي سعيد في مزاحمة أبي حمو الثاني على عرش تلمسان، وهي محاولات تهدف إلى إضعاف النفوذ الزياني سلباً وإيجاباً.

وقد خاض جند بني حفص حرباً ضد أبي حمو الثاني في بجاية؛ حيث أن هذا الانتصار قلل من شأن الدولة بين عرب المغرب الأوسط وأضعف جانبها أمام أبي زيان المنافس على العرش والذي أصبح لأول مرة ذا قوة لا يستهان بها في المغرب الأوسط.

ولما تولى أبو مالك عبد الواحد بن السلطان أبي حمو الثاني الحكم في الدولة الزيانية استطاع أن يعيد للدولة كيائها وسمعتها السياسية واسترجع كل ما كان بين الحفصيين عام ٨١٤هـ / ١٤١١م من أملاك بني حفص في شرق سلطنتهم؛ بل أنه لم يقف عن هذا الحد بل توسع غرباً في المغرب الأقصى؛ حيث استطاع أن يستولى على فاس عاصمة بني مرين وأن يعين عليها أميراً زيانياً من قبله.

ولم يقف بنو حفص أمام توسع بني زيان في المغرب الأقصى الذين شنوا حملة على بني مرين وانتصروا فيها، لكن بني حفص استطاعوا عام ٨٢٧هـ / ١٤٢٧م أن

يدخلوا تلمسان وأن يعينوا عليها أميراً من أسرة بنى زيان لكنه كان من قبلهم وخاضعاً لهم هو أبو عبد الله محمد المعروف بابن الحمزة بن السلطان تاشفين الثانى وخضع بنو زيان لسلطة الدولة الحفصية وأخذ بنو حفص منذ ذلك الحين يلعبون دوراً هاماً فى أمور الدولة الزيانية فى تولية الأمراء وعزلهم وكلما ازداد النفوذ الزيانى كان عاملاً على التوسع، وكانوا يعملون على وقف هذا التوسع لأنه كان دائماً يكون على حساب أراضيهم وديارهم فى بجاية وقسنطينة.

ومن ثم .. فإنه يمكن القول أن العلاقات بين الطرفين فى أغلب قتراتها كانت صورة من الصراع الدائم؛ حيث تصارعت أفكار كل منها عكس الآخر كان بنو زيان يريدون التوسع شرقاً وبنو حفص يريدون التوسع غرباً، وهذا جعل المجابهة بين الطرفين قوية وكانت زيان تابعة ثم استقلال ثم تفوق عسكري ثم تبعية بنى زيان للحفصيين شكلية، ولم تنشأ العلاقة صراعاً عسكرياً، وكانت تبعية بنى زيان للحفصيين شكلية، ولم تنشأ العلاقة من فراغ فعندما استقل بنو حفص بحكم المغرب الأدنى عن الموحدين عام ٦٢٥هـ/١٢٢٧م كان هدفهم الاستيلاء على المغرب كله وتطورت العلاقة بين الطرفين كل يحاول الاتساع على حساب الطرف الآخر، ومن ثم كان تحالف بنى زيان مع أعداء بنى حفص، وهكذا .. وجد بنو حفص أنفسهم أمام قوة تقف حائلاً دون استقرارهم وتوسعهم وحاول بنو زيان التوسع داخل حدود المغرب الأوسط بإخضاع شلف، ومن ثم .. استنجد بنو يوجين ومغراوة ببني حفص للظهور على قوة بنى زيان، وكانت بنو حفص أكثر قوة فى جعل بنى حفص يستولون على تلمسان عام ٦٣٩هـ/١٢٤١م. ومن ثم وضعنا تحت حماية حفصية كما فعلوا بقسنطينة وبجاية من قبل. وكان أبو زكريا الحفصى قد أرسل إلى يغمراسن بشأن عقد صلح أو اتفاق بينها على أن يدين بنو زيان للدولة الحفصية فأبى يغمراسن، ومن ثم استولى بنو

حفص على تلمسان بينما لحق بنو زيان بالصحراء وأرسل يغمراسن بن زيان إلى أبى بكر الحفصى بشأن التفاوض وقبل بنو حفص التفاوض وعاد بنو زيان إلى تلمسان شريطة أن يقيموا الدعوة لبنى حفص على منابرهم بدلاً من الخليفة الموحدى وأن يعاونوهم ضد الخليفة الموحدى بمراكش، وهذا الاتفاق بين بنى زيان وبنى حفص أخذ شكلاً عملياً بالدعاء للحفصيين على منابر تلمسان واضطر زعيم بنى زيان بالاعتراف بسيادة الحفصيين وأصبحت بلاد المغرب الأوسط تحت وصاية وحماية الحفصيين.

وكان بنو زيان يتلقون الأوامر من سلطان بنى حفص وكانت الأمور فى تلمسان تسير بيد بنى زيان، ومن ذلك حربهم ضد العرب الذين ساعدوا أبا زكريا وكذلك معاداتهم للموحدين أعداء بنى حفص ضد بنى مرين عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م. ولقد استولى الأمير الزياني محمد بن محمد بن أبى ثابت الملقب بالمتوكل على تلمسان وطرد سلطان بنى زيان أبا العباس أحمد إلى الأندلس عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م. وهنا نهض بنو حفص إلى تلمسان بجيوش ضخمة وأدرك بنو زيان أنهم فى مأزق فطلبوا الصلح واستطاع الوفد الزياني أن يعقد الصلح على أن يدخل بنو زيان فى طاعة بنى حفص وعاد بنو حفص إلى تونس مرة أخرى، ولم يهنأ بنو زيان باستقلالهم وسويد (قبيلة عربية) إلى تلمسان ونصب الحفصيون على جيش العرب قائداً لهم وحاصرت الجيوش تلمسان (٨٧١هـ/١٤٦٦م) وهدم بنو حفص أسوار المدينة وأرسل المتوكل وفداً يطلب الصلح وزوج ابنته للخليفة الحفصى ودخل فى طاعتهم إلى أن توفى عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م.

وبلغ بنو زيان درجة من القوة جعلتهم يهاجمون بنى حفص فى عقر دارهم ويستولون على تونس وتعاون بنو حفص مع بنى مرين، وتم إخضاع تلمسان واستخدم بنو حفص طريقاً آخر لضرب القوى الزيانية بعد احياؤها من جديد، وهى حرب بنى زيان

بعضهم لبعض فوقفوا بجانب أمير ضد آخر ثم كانوا يتركون هذا الأمير ويقفون مع الآخر وهم يأملون في كل هذه المواقف أن يقضى بنو زيان بعضهم على البعض الآخر.

واستخدم بنو حفص القوة الحربية في حرب بنى زيان، لكن في عام ٨١٤هـ/١٤١١م استطاع بنو زيان أن يسترجعوا ما بين الحفصيين شرقاً مما دفع بنى حفص للهجوم على تلمسان وبعد معارك طاحنة استطاعوا تحريك مقاليد الأمور في تلمسان ويعينون أمراء بنى زيان كما يشاءون ويخلعون كذلك كما يريدون وتتجلى هذه التبعية الرسمية لبنى زيان في إرسال أبى مالك السلطان المخلوع والقاطن بالمغرب الأقصى إلى بنى حفص لكى يتم إعادته مرة ثانية للعرش الزيانى وذلك دليل على أن بنى حفص كانت لهم اليد الطولى في تسيير الأمور فى تلمسان وإلا لماذا أرسل أبو مالك إلى بنى حفص بصدد إعادته ووعد بنو حفص بالعودة.

وعندما ساءت الأمور فى تونس وحدث الانقسام بين الأمراء من الناحية الغربية؛ حيث عمل أمراء هذه الناحية على الاستقلال عن أفريقية فقد استغل ذلك بنو زيان وأعلنوا استقلالهم عنهم؛ حيث كانت علاقة بنى زيان بأمرى بجاية الحفصى طيبة، وهذه العلاقة لم يرض عنها سلطان بنى حفص فلم يتحركوا لنجدة بنى زيان أثناء حصار بنى مريـن لهم وأكثر من ذلك فإن سلطان بنى حفص أرسل لسلطان بنى مريـن أثناء حصارهم تلمسان وفداً لتجديد الصلة والصداقة وأدى هذا الموقف إلى إعلان بنى زيان استقلالهم الذاتى فخرج بنو زيان عن طاعة بنى حفص وأعلنوا استقلالهم فلم يعد يذكر بنى حفص على منابر تلمسان ولقد حاول السلطان أبو بكر شقيق أبى البقاء خالد السيطرة على الأقاليم القريبة لكنه عاش فى صراع مع بنى زيان الذين حاولوا بدورهم إخضاع نايبين بنى حفص من أراضى داخل المغرب الأوسط.

وإذا كانت العلاقة بين بنى زيان وبنى حفص قد ساءت منذ هجوم بنى مريـن

على تلمسان مما أدى إلى تطور العلاقة من التبعية إلى الاستقلال، لكن فى عهد أبى تاشفين الأول الزيانى؛ فإنه قد استغل فرصة الخلاف بين أبناء البيت الحفصى فى أفريقية، وكذلك خروج بنى سليم على بنى حفص واستغل بنو زيان فرصة الانقسام والصراع الداخلى ووجهوا عدة ضربات قوية بدأوها بمحاولتهم للاستيلاء على بجاية وقسنطينة عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م - ٧٢١هـ/١٣٢١م، وتكررت هجمات بنى زيان على بجاية وقسنطينة واستطاع بنو زيان بناء مدينة تاز بزدكت بالقرب من بجاية وجعلوها بمثابة القاعدة العسكرية للمساعدة فى الزحف على الأقاليم الشرقية واستطاع بنو زيان هزيمة بنى حفص هزيمة قاسية والاستيلاء على تونس ثم تركوها لرعيـم عرب بنى عمران الذى لم يستطيع صد أبى يحيى الحفصى واستردادها مرة ثانية.

ولقد كان هدف بنى زيان الاستيلاء على بجاية وقسنطينة فقط، دون زحفهم على تونس نظراً لصراع عرب بنى سليم وأبى يحيى الحفصى.

لكن طابع العداء والصراع سرعان ما تبدد وأخذ طابع الهدوء النسبى يسود العلاقات وذلك فى الاتفاقيات التى تمت بين بنى زيان وبنى حفص والمصاهرة التى تمت بين الطرفين، وفى الهدايا المتبادلة والسفارات مثلما حدث فى عهد يغمراسن بن زيان، وساعد بنو زيان على استعادة سيطرتهم على قبائل المغرب الأوسط ولم يفكروا فى محاربة بنى حفص والصلح الذى تم فى عهد المتوكل الحفصى بين بنى زيان وبنى حفص عندما حاصر بنو حفص تلمسان عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م؛ حيث عاش بنو زيان فى هدوء وإن كانوا تابعين لبنى حفص وكذلك حالة الزواج السياسى التى تمت بالمصاهرة عندما خطب يغمراسن ابنة أبى اسحاق بن أبى زكريا الحفصى لابنه عثمان وكذلك تبادل الهدايا أثناء حكم أبى العباس أحمد بن أبى حمو موسى الثانى وكذلك تم عقد معاهدة صلح وحسن جوار عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠م، وحدث نوع من الاستقرار

بين الطرفين ووردت رسل من قبل السلطان أحمد العاقل عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م إلى سلطان بنى حفص حاملاً هدية فرد السلطان الحفصى بهدية مع الرسول المذكور وحدث مثل ذلك في عهد السلطان الزياني محمد المتوكل فبعد أن تم الصلح بين بنى زيان وبنى حفص تحسنت العلاقات بينهم إلى حد تبادل الهدايا.

كما أن العلاقات الثقافية بين الطرفين لم تتوقف؛ فقد كانت تلمسان في الظروف العادية قبلة العلم والعلماء يشد إليها الرجال طلاب العام من أفريقية والمغرب الأقصى، ومن مصر وبلاد المشرق وسائر العالم الإسلامى وكثير من العلماء الذين كانوا يلقبون بالتلمساني والذين رحلوا إلى المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربى والسودان الشرقى وبلاد الشام والحجاز ونشطت العلاقات الثقافية بين القيروان وتلمسان وكانت قوافل الحج تنقل طلاب المعرفة للحج والدرس والتحصيل وارتبطت القيروان مع تلمسان وغيرها من بلاد المغرب الأوسط بروابط وعلاقات ثقافية.

كما أن حركة التبادل التجارى والعلاقات الاقتصادية بين البلدين كانت تزدهر لاسيما أوقات السلم وكانت الصلات بين البلدين قوية وساعدت فترة السلام والهدوء بين البلدين على ازدياد الروابط الاقتصادية بين المغرب الأدنى والأوسط ونعم سكان البلدين بتبادل منتجات كل منهما كما أن منتجات بلاد المغرب الأقصى وأوروبا كان يتم نقلها إلى أفريقية (تونس) ومصر وبلاد المشرق العربى (عبر بلاد بنى زيان).

وهكذا .. نرى كيف كانت تسير العلاقات السياسية والاقتصادية بين بنى زيان فى المغرب الأوسط وبنى حفص فى المغرب الأدنى.

وتلك هى صورة العلاقات التى كانت تتم بين البلدين الشقيقين والمتجاورين والتى لم تكن فى معظم فتراتهما إلا صراعات من أجل السيطرة وبسط النفوذ، لكن

الذى يلاحظ حركة العلاقة وتطورها يدرك أن بنى زيان كانوا دائماً وفى معظم فترات التاريخ هم الطرف الأضعف سواء فى علاقتهم مع بنى حفص أو مع بنى مرين. لذا .. كان المغرب الأوسط دائماً يتعرض للهجوم من الشرق والغرب رغم حرص بنى زيان على الحفاظ على استقلالهم إلا أن تلمسان عاصمتهم لم يكن يمر عليها زمن قصير إلا وتهاجم من بنى حفص أو بنى مرين.

* * * *

الفصل الثامن

نهاية الدولة وسقوطها

بعد وفاة السلطان أبي عنان فارس المريني في عام ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م استبد بأمر الدولة وزيره حسن بن عمر فترة من الوقت الى أن تولى السلطان أبي سالم ابراهيم سلطة المغرب عام ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م فأبعد هذا الوزير الى مراكش تحفظاً منه وريبة بمكانته في الدولة غير أنه لم يلبث أن ثار ضد السلطان أبي سالم في عام ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م ولجأ الى عرب جشم ببلاد تادلا فأجاره كبيرهم فأرسل أبو سالم جنوده للقضاء على ثورته فاحتلت بلاد جشم واعتصم الوزير حسن بن عمر بالجبل بجوار بربر صناكة الذين قبضوا عليه وسلموه وقتل بفاس .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن الهجري تمزقت الدولة المرينية بين الأمراء المتنافسين على السلطة بين فاس ومراكش وقام زعماء العرب بدور نشيط بن المتنافسين سعى زعيم عرب بنى صبيح في الصلح بين الوزير ابن عمر بن عبد الله بفاس وعامر بن محمد الهنتاتي بمراكش وفي عام ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م ثار عامر بن محمد الهنتاتي على سلطانة أبي الفضل بمراكش وهرب خوفاً من بطشه الى فاس مبايعاً سلطانها عبد العزيز وعندما علم السلطان أبو الفضل زحف عبد العزيز وانسحب الى بلاد تادلا وترك فاس واعتصم بحماية أهل تادلا من عرب بنى جابر من جشم فأتبعه عبد العزيز وانهزم أبو الفضل وهرب الى قبائل صناكة وتم أسره ونقله الى عبد العزيز الذي أمر بقتله وقتل مستشاره مبارك بن عطية في عام ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م .

وفي عصر قوة الوزراء (٧٥٩ - ٨٦٩ هـ / ١٣٥٧ - ١٤٦٥ م) أصبح سلاطين بنى مرين العوبة في يد الوزراء حيث ضعف السلاطين وضعف تأثير أهل

الحل والعقد على هؤلاء الوزراء وانفرد الوزراء بترشيح السلاطين ولم يكن أحد يجزئ على الاعتراض على ما أفسده الوزراء المستبدون وقد أدى ذلك الى ضعف الدولة ومن فان مقتل السلطان أبي عنان وما تم في أعقاب مقتله قد أصبح تحولا كبيرا في النظام السياسي وكان هذا التحول هو انتقال السلطة الفعلية الى أيدي الوزراء بدلا من السلاطين وأصبح هذا التحول دلالة على انتهاء عصر القوة المرينية وأنها في طريقها الى الانهيار والسقوط وصاحب ذلك تقلصها داخل حدودها السابقة في المغرب الأقصى حيث استرد الحفصيون أملاكهم في قسنطينة وبجاية وتمكن أبو حمو موسى الزياني من استعادة تلمسان (٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م) . بمعاونة عرب بنى عامر وكانت هذه نهاية السياسة التوسعية لبنى مرين وكانت هذه الخسائر أهم أسباب ضعفهم واندفاع الدولة نحو الانحلال والتفكك ومارس الوزراء سلطانهم الواسع .

كذلك فانه في عصر نفوذ الوزراء الذي امتد الى مايقرب من مائة عام وعشرة هجرية ومائة وثمانية عام ميلادية لم يعد لولاية العهد قيمة كبيرة فكثير من سلاطين بنى مرين في هذه الفترة لم يجزئ على تحديد ولي عهده في حياتهم لأن مقاليد الأمور والسلطة كانت في يد الوزراء ولم يكن من صالح الوزراء تحديد ولي العهد حتى يصبح في امكانهم اختيار السلطان الذي يريدون .

ولقد كانت الدولة المرينية في المغرب الأقصى في أواخر القرن الثامن الهجري ، وأوائل القرن الرابع عشر الميلادي تعاني اقتصادا متدهورا وانعكست آثار التدهور الاقتصادي على الحياة السياسية اذ أدى ذلك الى اضمحلال الدولة المرينية وسقوطها وتركت آثار التدهور الاقتصادي بصماتها على الحياة السياسية منذ النصف الثاني من القرن التاسع الهجري وفي الفترة التي صاحبت نهاية المرينين في بلاد المغرب .

وبدأت هذه الفترة بتولى السلطة أبي سعيد بن أبي العباس أحمد الذي بويع عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م وصار للحجاب نفوذ أقوى من الوزراء حتى أصبح الحجاب في يدهم جميع الخيوط والوظائف السلطانية ومفاتيح باب القصر وصار الحاجب هو صمام الأمن والأمان للسلطان الجالس على العرش وأدت هذه السيطرة من الحجاب الى المؤامرات داخل القصر السلطاني والى مقتل أو هروب السلاطين بأنفسهم خوفا على حياتهم فى القصور ، وقتل السلطان أبو العباس ثم وقف السلطان مكتوف الأيدي ولم يقدر على الدفاع عن حدود دولته أمام خطر الحفصيين .

فقد منح السلطان أبو سعيد عثمان بعض القبائل العربية من بنى سليم وهى الثائرة على الدولة حق اللجوء للمغرب الأقصى والاستقرار وضماها الى جانب الجيش المرينى لمحاربة أبي فارس الحفصى وجعل قيادتهم فى يد الأمير أبى عبد الله محمد بن أبى زكريا صاحب بونة وكان نائرا على أبى فارس الحفصى ولكن السلطان الحفصى أبا فارس رأى فى ذلك عداوة له فبادر الى لقاء قوات بنى سليم وبنى مرين وهزمهم وأرسل رأس قائدهم الى فاس وتقدم أبو فارس الحفصى واستولى على تلمسان ثم تقدم لتأديب سلطان بنى مرين أبى سعيد عثمان ولم يكن فى استطاعة السلطان المرينى أن يواجه سلطان بنى حفص وأرسل له البيعة وبذلك امتد نفوذ بنى حفص الى المغرب الأقصى وبايعت فاس للخلفاء الحفصيين وبهذه البيعة الأخيرة تعنى أن المرينين صاروا من الناحية السياسية تابعين لبنى حفص فى تونس وتوفى أبو سعيد عثمان عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م بعد أن حكم ثمانية عشرة عاما وخلفه أخوه عبد الله المعروف سيدى عبو . وكان هذا السلطان هو آخر سلاطين بنى مرين وأطولهم مدة وفى أيامه ضعف أمر بنى مرين وتداعى الى الانحلال وكان مصير الدولة بين الحجاب والوزراء .

وفى هذه الفترة كان للقبائل العربية دور خطير فى توجيه أحداث المغرب فقد كانت القبائل العربية تجتمع لنصرة أمير مرينى ضد آخر حتى انتهى الأمر الى استقرار أبى العباس أحمد بن أبى سالم المرينى بفاس . ومنافسة ابن أبى يغلوسن بن أبى على المرينى بمراكش تفصل بين أملاكها ولاية أزموور العربية شبه المستقلة ويلاحظ هنا فى أثناء ضعف السلاطين وظهور ولايات عربية شبه مستقلة داخل الدولة ، ولقد أصبح الوزراء فى هذه الأحوال حتى سقوط الدولة وزراء تفويض لأن السلاطين تركوا للوزراء تدبير الأمور برأيهم وتوجهاتهم وفق اجتهادهم واستبد هؤلاء الوزراء بالدولة وعلى نفوذهم على نفوذ السلاطين وقد جمع هذا الصنف من الوزراء جميع مقاليد السلطة فى أيديهم ولم يبق لمعظم السلاطين فى عصر نفوذ الوزراء سوى شكلية السلطة ولذلك لم يكن هناك فى الدولة فى الغالب سوى وزير واحد ووزيرين فى معظم الأحوال .

واشتد الصراع بين العاصمتين فاس ومراكش وأصبحت الدولة تنقسم فيما بينها قسم يناصر فاس والآخر ينحاز الى مراكش ، لكن القتال اشتد وطال حتى تمكن أبو العباس أحمد من الاستيلاء على مراكش فى أواخر فترة حكمه فى عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ، ووجد المغرب غير أن أبا العباس لم ينعم بالحكم طويلا اذ بعد عامين فقط من توحيد البلاد قام موسى بن أبى عنان بطرده من الحكم عام ٦٨٦ هـ / ١٣٨٤ م ففر الى الأندلس . وهرب وزيره الى عرب المعقل لكنه أرسل الى السلطان موسى وسلموه له فقتله .

وحينما ضاقت الحاشية والاتباع بالسلطان موسى بن أبى عنان وتأمرت عليه وعملت على ضرورة استبدال سلطان جديد به يأتى من غرناطة (لاحظ تحكم الأندلس

فى تعيين سلاطين بنى مرين وتغير الأحوال) وكانت غرناطة قد أصبحت ملجأ للمطالبين بالعرش المرينى والمبغدين عن السلطة بالمغرب وكان زعيم القبائل العربية محمد الصبيحى على رأس الوفد المرسل الى الأندلس لاحتضار السلطان الجديد معتمدا على ازدياد نفوذ جنده .

وساءت العلاقة بين الدولتين المرينية ومملكة غرناطة فأعاد ابن الأحمر سلطانها السابق أبا العباس أحمد الى المغرب وأعلنت القبائل العربية تأييدها له المغرب واجتمعت على مبايعته وساعدته ودخل فاس عام ٧٨١ هـ / ١٣٨٧ م . وقتل من تردد فى مبايعته وتحكم بنو وطاس فى مقاليد الأمور وازداد نفوذهم .

وفى عهد آخر السلاطين بنى مرين عبد الحق بن أبى سعيد بن أبى العباس (٨٢٣ - ٨٦٩ هـ / ١٣٢٠ - ١٤٦٥ م) غزا الوزير أبو زكريا يحيى بن زيان الوطاسى عرب الشاوية لتمردهم على الدولة ففرق شملهم .

واضطربت أحوال الدولة المرينية بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس بعد أن سيطر الحجاب غير المسلمين على مقاليد الأمور مما اضطر شيوخ المرينين ورؤساءها الى الدعوة للثورة التى عمت أحياء فاس كلها واضطروا الى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبى عبد الله محمد بن على الادريسى نقيب الأشراف بفاس فى رمضان (٨٦٩ هـ / ١٤٦٥ م) الذى استمر فى الحكم يعاونه ابنه وسار الناس خلف سلطانهم الجديد نقيب الأشراف بعد أن تحكم غير المسلمين فى السلطان عبد الحق وكان مطية لأهدافهم ومنفذا لأوامرهم وكان يعمل برأيهم ومشورتهم وتم انتزاع خاتم الملك من يده وضربت عنقه لسيره وراء أهواء غير المسلمين فى رمضان ٨٦٩ هـ / ١٤٦٥ م . وبهذه النهاية انتهت آخر صفحة من صفحات الدولة المرينية بعد أن عاشت فى بلاد

المغرب أكثر من قرنين من الأزمان جادت بعطائها الفكرى والعلمى والحضارى فأحسنن العطاء ووقفت قواتها على أرض الأندلس تجاهد فى سبيل دفع العدوان عن أخوة الاسلام بقدر ما أتاحت لها من امكانيات فى ذلك العصر وبقدر ظروفها السياسية فانها لم تبخل عن الذود والعطاء والدفاع .

والذى ينظر الى تاريخ سلاطين بنى مرين الذين حكموا البلاد من هذا القرن ويزيد قليلا منذ ازدياد نفوذ الوزراء يدرك أنهم زادوا عن سبعة عشر سلطانا كان بعضهم يتولى السلطة ثم يعزل ثم يعود اليها مثل السلطان أبو العباس أحمد أو أنه هؤلاء السلاطين أصبحوا مطية لتنفيذ أوامر الوزراء أو الحجاب أو تنفيذ أوامر دولة خارجية مثل غرناطة بل الذى زاد الطين بلة أن ملوك قشتالة وأرغون كثيرا ما ساعدوا بعض السلاطين وأمدوهم بالسلاح والمال والرجال لاستعادة سلطانهم فى بلاد المغرب الأقصى ومن السلاطين الذين تولوا عرش البلاد من كان منهم يقيم لدى ملوك قشتالة .

لكن حكم نقيب الأشراف لم يدم طويلا ذلك لاننا نجد أن محمدا بن الشيخ زكريا الوطاسى يعين نفسه سلطانا على المغرب عام ٨٧٦ - ٨٩٠ هـ / ١٤٧٢ - ١٥٠٤ م مؤسساً بذلك الدولة الوطاسية ، وهكذا انتهت دولة بنى مرين الدولة التى أسسها عبد الحق المرينى وكافح بنو مرين طويلا حتى استقرت على أيدي أبناء عمومته من بنى وطاس .

وتلك هى لمحة موجزة ومختصرة عن تاريخ دولة بنى مرين خلال حكمها للمغرب الأقصى نضعها بين يدي رجال البحث والتاريخ والدارسين .

سلاطين بني مرين الذين تولوا حكم المغرب الأقصى

- ١ - أبو محمد عبد الحق أبو خالد مجبو بن أبي بكر بن حماسة المريني (٥٩٢هـ-١١٩٥م)
 - ٢ - أبو سعيد عثمان بن عبد الحق (أدرغال) (٦١٤هـ-١٢١٧م)
 - ٣ - محمد الأول بن عبد الحق (٦٣٧هـ-١٢٣٩م)
 - ٤ - أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق (٦٤٢هـ-١٢٤٤م)
 - ٥ - أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦هـ-١٢٥٨م)
 - ٦ - أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (الناصر لدين الله) (٦٨٥هـ-١٢٨٦م)
 - ٧ - أبو ثابت عامر بن أبي عامر (٧٠٦هـ-١٣٠٦م)
 - ٨ - أبو الربيع سليمان بن أبي عامر (٧٠٨هـ-١٣٠٨م)
 - ٩ - أبو الحسن علي بن عنان (٧١٠هـ-١٣١٠م)
 - ١٠ - أبو الحسن علي بن عنان (٧٣٢هـ-١٢٣١م)
 - ١١ - أبو عنان فارس المتوكل بن أبي الحسن علي (٧٤٩هـ-١٣٤٨م)
- أبو زيان محمد بن أبي فارس أبي عنان، وتم عزله في الحال (٧٤٩هـ-١٣٥٧م)

- ١٢ - محمد السعيد بن أبي عنان تولى وعمره خمس سنوات (٧٥٩هـ-١٣٥٧م)
- ١٣ - أبو سالم إبراهيم بن علي (٧٦٠هـ-١٣٥٨م)
- ١٤ - أبو عامر تاشفين بن علي (٧٦٢هـ-١٣٦٠م)
- ١٥ - عبد الحليم بن أبي علي عمر (حكم سلجماسة منذ ربيع) (٧٦٣هـ-١٣٦١م)
- ١٦ - أبو زيان محمد الثاني المستنصر بن أبي عبد الرحمن (٧٦٣هـ-١٣٦١م)
- ١٧ - أبو فارس عبد العزيز المستنصر بن علي (٧٦٨هـ-١٣٦١م)
- ١٨ - أبو زيان محمد الثالث السعيد بن عبد العزيز (٧٧٤هـ-١٣٧٢م)
- ١٩ - أبو العباس أحمد المستنصر بن إبراهيم (حكم بقابس) (٧٧٦هـ-١٣٧٤م)
- ٢٠ - عبد الرحمن بن بغلوسن (٧٧٦هـ-١٣٧٤م)
- ٢١ - موسى بن أبي عنان المتوكل على الله أبو فارس (٧٨٦هـ-١٣٨٤م)
- ٢٢ - أبو زيان محمد المنتصر بالله بن أحمد (٧٨٨هـ-١٣٨٦م)
- ٢٣ - أبو زيان محمد الرابع الواثق بالله بن أبي الفضل المستنصر (حكم للمرة الثانية) (٧٨٨هـ-١٣٨٦م)

- ٢٤ - أبو فارس أحمد (٧٩٦هـ-١٣٩٣م)
 ٢٥ - عبد العزيز بن أحمد (٧٩٩هـ-١٣٩٦م)
 ٢٦ - عبد الله بن أحمد (٨٠٠هـ-١٣٩٧م)
 ٢٧ - أبو سعيد عثمان الثاني بن أحمد (٨٠١هـ-١٣٩٩م)
 ٢٨ - أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد الثاني
 (نهاية أسرة بني مرين) (٨٣١-٨٦٩هـ/١٤٢٧-١٤٤٥م)

* * * *

الخاتمة

إن الذى يتصفح طيات هذا الجزء من الموسوعة يدرك تمام الإدراك كيف ظهرت هذه الدويلات على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب العربى، وكيف أن الخليفة المنصور الموحدى ٥٩٥هـ/٦١١هـ قد أقطع عبد الواحد بن أبى حفص حكم المغرب الأدنى (أفريقية) على أن يظل تابعاً، وتحت نفوذ الموحدى بالمغرب الأقصى إلا أن ابنه أباً زكريا الحفصى استطاع الخروج على طاعة الدولة الموحدية وإعلان المغرب الأدنى إمارة مستقلة ويسقط اسم الخليفة الموحدى من الخطبة؛ بل أن الحفصيين لم يكتفوا بذلك؛ فقام المستنصر بالله بن أبى زكريا الحفصى بإعلان الخلافة وتلقب بلقب الخليفة مثله مثل خلفاء الموحدى وبدأت التوسعات الحفصية فى المغرب الأوسط على حساب الوجود الموحدى؛ بل أن نفوذهم قد وصل إلى الأندلس وبلاد المغرب الأقصى نفسها مقرر حكم الموحدى، ولم يأت عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م إلا وكانت أفريقية تمارس سيادتها بنفسها دون أن تعبأ بالوجود الموحدى وكان ذلك من أسباب ضعف الخلافة الموحدية.

بل إن انفصال الحفصيين لم يكن كافياً لإقطاع أحد أوصال الخلافة فتمرد المغرب الأوسط؛ حيث قامت قبائل بنى عبد الواد الزيرية بالاستيلاء على تلمسان عاصمة الإقليم وإعلانهم عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م قيام دولة لهم فى المغرب الأوسط، وعلى الرغم من أنهم لم يعادوا الموحدى منذ ظهور دولتهم حتى سقوطها عام ٦٦٨هـ على يد أبى يعقوب يوسف بن عبد الحق المرينى .. إلا أنهم بإعلانهم الاستقلال عن

الموحدين واقتطاع المغرب الأوسط لنفوذهم فإن ذلك أضعف دولة الموحدين أكثر فأكثر وفقدت هيبتها ونفوذها لدى الأهالي. فما كان من القبائل المرينية التي كانت تحلم ببناء الدولة على نمط المرابطين والموحدين إلا أن تستخدم المعاول لهدم البناء الموحدى والانقضاض عليه دفعة دفعة فأخذوا فى شن الهجمات على الدولة أو بقايا دولة الموحدين فى المغرب الأقصى منذ عام ٦١٠هـ حتى عام ٦٦٨هـ تاريخ سقوط مراكش فى أيدي الموحدين أكثر من خمسين عاما فى استنزاف موارد الدولة الموحدية. وهكذا ظهرت للبيان ثلاث دويلات فى المغرب الأدنى بنو حفص ، وفى المغرب الأوسط بنو زلمان ، وفى المغرب الأقصى بنو مرين على أنقاض الدولة الأم الموحدين .

والذى يتابع الأحداث السياسية التى مرت بها هذه الدويلات منذ ظهورها حتى سقوطها ونهاية وجودها السياسى بعلم أن قيام هذه الدويلات لم يكن فيه فائدة ترجى للعالم الاسلامى والمسلمين بقدر ما أضر بالمصالح الاسلامية فالتمزق والتشرذم والتفكك أضعف من هيبة المسلمين أمام القوى الخارجية فالدولة الواحدة صارت ثلاث دويلات مما مكن عدو الاسلام أن يتابع تنفيذ خططه فى ظل الكيانات الصغرى محققا أهدافه البعيدة فى أضعاف الوجود الاسلامى فى الأندلس وفى غرب حوض البحر المتوسط وفى الهجوم على السواحل الاسلامية وانتزع زمام المبادرة من أيدي المسلمين والاخلال بالتوازن العسكرى بعد أن كان تفوقا عسكريا للمسلمين طوال خمس قرون .

ولهذا كان قيام هذه الدويلات وبالا على قضايا المسلمين ولم يكن قيامها الا خسارة للقضية الكبرى فى الأندلس . كذلك فان هذه الدويلات لم تكن الأحوال والعلاقات السياسية بينها الا كما هو الخلاف والسيطرة وبسط النفوذ وكبح جماح آية قوة تحاول السيطرة على حساب القوى الأخرى .

فالحفصيون كانوا يريدون التوسع غربا على حساب بنى زيان وبنو زيان يريدون التوسع شرقا على حساب الحفصيين وبنو مرين يريدون التوسع شرقا على حساب بنى زيان وبنى حفص وكل منها تحاول الادعاء بأنها ورثة العرش الموحدى ، الحفصيون يرون أنهم أحق باعتبارهم فرع من الأسرة الموحدية وبنو زيان يرون أنهم أحق باعتبار صداقتهم وصلة المودة طوال تاريخ الموحدين والوقوف معهم فى خندق واحد ضد كل الأعداء فى سقوط الدولة فى عهد أبى دبوس والدولة المرينية ترى أنها أحق بالسيطرة على المغرب كله باعتبار أنها الورثة الوحيدة لملك الموحدين وأنها التى أسقطت خلافة الموحدين ومن ثم يكون لها السيطرة على المغرب الأوسط والأدنى ومن ثم اشتعلت الحروب واحتشدت الجيوش ودامت الحروب فترات طويلة استنفدت موارد وطاقت كل منها فالذى نظر الى تطور الاحداث يرى أن تلمسان عاصمة الزيانين لم تكن الا مطية للحفصيين وبنى مرين فتارة تخضع للحفصيين وتخطب ودهم وتقدم البيعة للخلفاء الحفصيين وتارة اخرى تخضع لنفوذ وسيطرة بنى مرين وتارة اخرى تسيطر قوات بنى مرين على الحفصيين وبنى زيان وتبسط نفوذها على المغرب الأوسط والأدنى وتارة اخرى تجتد قوات الحفصيين تصل الى فاس عاصمة بنى مرين ويقدم سلطانها البيعة للسلطان الحفصى وفى فترات أخرى من تاريخ هذه الدول يقوم بنو زيان بالسيطرة على تونس ودخول قواتهم الى العاصمة تونس واخضاعها لسيادتهم وفى حقبة تاريخية اخرى يدخل بنو زيان عاصمة المرينيين وكأن المنطقة كانت ميدان صراع داخلى بدلا من التوحد وجمع الصف ومعرفة الهدف ومساندة أخوة الاسلام فى الميدان الأندلسى .

ولم نجد الا أن عبء الجهاد يقع على بنى مرين للدفاع عن قضايا المسلمين فى الأندلس ومساندة بنى الأحمر فى غرناطة ، وتقديم العون البشرى والمادى والمعدات والعبور عدة مرات لوقف الزحف المعادى القادم من الشمال بمساندة دول أوروبا وقيام

قشتالة وأرغون بقيادة حركة الاسترداد وطرد المسلمين من ديارهم وأوطانهم . بل أن بنى الأحمر لم يحفظوا لبنى مرين موقف الأخوة الإسلامية فتعاونوا مع أعداء الأندلس من النصارى وقدموا لهم الأراضى الاستراتيجية للوقوف فى وجه بنى مرين ، بل أنهم فى بعض الحقب التاريخية تدخلوا فى شئون بنى مرين وأصبحت لهم ولقشتالة اليد الطولى فى تعيين وعزل السلاطين الذين صاروا العوبة فى يد الوزراء والحجاب .

وهكذا صار تاريخ هذه الدويلات من سعى إلى أسوأ صراعا وتنافرا وتطاحنا وتباعدا فالمسلم يستعين على أخيه عدو الاسلام ويحارب أخاه من أجل السلطة أو تعدى على الحدود وضم المدن والأراضى وخادم يقتل سيده أو يضع له السم ويقطع رأسه ويصلبها على أبواب فاس .

صحيح أنى ركزت أكثر على الجانب السلبى فى هذا الغرض الا أن هناك وجهها مشرفا من تاريخ هذه الدويلات لقد قدمت هذه الدويلات للاسلام وللحضارة الاسلامية حركة علمية وثقافية وحضارية وعمرانية شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء فلقد تطورت النهضة الاسلامية وأبدع علماء الاسلام فى كل حقل من حقول العلم والنهضة الفكرية والثقافية وأبدع طلاب العلم وصارت مدن فاس ومراكش وتلمسان والقيروان وسبتة واغمات وسلجماسة ووهران وطرابلس مدنا علمية تشد إليها الرحال طلبا للعلم والاستزادة من الأبحاث التى يقدمها الأساتذة وبذل السلاطين جهودا مشكورة فى انشاء المساجد والمدارس العلمية والمدارس العليا المتخصصة ووفروا الامكانيات تحت تصرف الأساتذة والطلاب وقدم لهم السكن والاقامة والمنح والعطايا وضمت مجالس السلاطين صفوة رجال العلم والفكر والثقافة وكانت المناظرات ومن هنا قدمت القيروان وتونس وتلمسان وفاس وغيرها من مدن المغرب الأدنى والأوسط والأقصى عطاء فكريا وعلميا لا يزال حتى يومنا هذا يشهد بعظمة هذه الدول فى هذه المجالات المختلفة .

لكن العطاء قد يكون أكثر خصبا ونماء فى حالة الوحدة والتعاون نحو وجهة واحدة ومعرفة الهدف البعيد والاحاطة بما يدور من أحداث وتحركات أودت بالأندلس ذلك الفردوس المفقود فى ظل قيام هذه الدويلات .
وذلك ما تم التوصل اليه فى تلك الدراسة .

تم بحمد الله

* * * *

المصادر والمراجع

أولا - المصادر :

- ١ - الادريسي : محمد بن عبد العزيز الشريف : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . لندن ، ١٩٨٦ م .
- ٢ - ابن الأحمر : أبو الوليد بن الأحمر : روضة النسر في دولة بني مرين : الرباط ، ١٩٦٢ م .
- ٣ - البكري : عبد الله بن عبد العزيز : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب : دى سلان ، الجزائر ، ١٩١١ م .
- ٤ - التيجاني : أبو محمد عبد الله بن محمد : رحلة التيجاني ، نشرة حسن حسني عبد الوهاب : تونس ، ١٩٥٨ م .
- ٥ - ابن الخطيب : لسان الدين : أعمال الاعلام . جزء المغرب وصقلية ، نشرة أحمد مختار العبادي ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ م .
- ٦ - ابن الخطيب : لسان الدين : الاحاطة بأخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة ، ١٩٦٥ م .
- ٧ - ابن خلدون : المقدمة . بيروت . ١٩٧٨ م .
- ٨ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم . القاهرة ، ١٩٨٤ م .
- ٩ - ابن خلدون : أبو زكريا يحيى . بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - الجزائر - ١٩٠٣ م .

- ١٠ - ابن أبي دينار : محمد بن أبي القاسم القيرواني . المؤنس في أخبار أفريقية . تونس ، ١٢٨٦ هـ .
- ١١ - الجزنائي : أبو الحسن علي : زهرة الأس في بناء مدينة فاس - الجزائر - ١٩٢٣ م .
- ١٢ - ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار تاريخ المغرب وتاريخ مدينة فاس - ١٨٤٢ م .
- ١٣ - الدباغ : عبد الرحمن بن محمد : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان . تونس ، ١٣٢٠ هـ .
- ١٤ - الرقيق القيرواني : تاريخ أفريقية والمغرب . تونس ، ١٩٦٨ م .
- ١٥ - ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب . قطوان ، ١٩٦٣ م .
- ١٦ - الزركشي : أبو عبد الله محمد بن ابراهيم : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور - تونس - ١٩٦٦ م .
- ١٧ - ابن القاضي : احمد بن محمد بن احمد ، جذوه الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس . د . ت .
- ١٨ - السلاوي : أبو العباس أحمد الناصر : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى : القاهرة ، ١٩٥٤ م .
- ١٩ - ابن القنفذ : أبو العباس احمد بن الخطيب : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية - تونس - ١٩٦٨ م .
- ٢٠ - القلقشندي : أحمد بن علي : صبح الأعشى في صناعة الانشا : القاهرة ، ١٩٦٣ م .

- ٢١ - المالكي : أبو بكر عبد الله : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية .
نشرة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١ م .
- ٢٢ - موسى أبو يوسف : أبو حمو بن زيان العبد الوادي واسطة السلوك في سياسة الملوك - ١٢٧٩ م .
- ٢٣ - مؤلف مجهول : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية . الجزائر ، ١٩٢٠ م .
- ٢٤ - مؤلف مجهول : مفاخر البربر ، نشرة ليفي بروفيسال - الرباط - ١٩٣٤ م .
- ٢٥ - النويري : شهاب الدين بن عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب .
القاهرة - ١٩٥٤ م .
- ٢٦ - مؤلف مجهول : نبذة العصر في أخبار ملوك بني مضر . تحقيق الفريد البستاني - المغرب - ١٩٤٠ م .

ثانيا : المراجع :

- ١ - ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ - الدار البيضاء - ١٩٦٥ م .
- ٢ - ابراهيم احمد العدوي : المجتمع المغربي - القاهرة - ١٩٦٤ م .
- ٣ - ابراهيم احمد العدوي : مصر الاسلامية - القاهرة - ١٩٧٥ م .
- ٤ - ابراهيم بيضون : الدولة العربية في أسبانيا - بيروت - ١٩٨٥ م .
- ٥ - ابراهيم على طرخان : دولة مالي الاسلامية - القاهرة - ١٩٧٣ م .
- ٦ - ابراهيم على طرخان : امبراطورية البرتو الاسلامية - القاهرة - ١٩٧٥ م .
- ٧ - أحمد الزواوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا - القاهرة - ١٩٥٤ م .

- ٨ - أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس - الاسكندرية -
١٩٦٨ م .
- ٩ - احمد محمد كاني : الجهاد الاسلامي في غرب أفريقيا - القاهرة - ١٩٨٧ م .
- ١٠ - احسان عباس : تاريخ ليبيا من الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري -
بيروت - ١٩٦٧ م .
- ١١ - الحبيب الجناحي : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية في المغرب العربي - تونس - ١٩٦٨ م .
- ١٢ - زاهر رياض : استعمار افريقية - القاهرة - ١٩٦٥ م .
- ١٣ - زاهر رياض : شمال افريقية في العصور الوسطى - القاهرة - ١٩٨١ م .
- ١٤ - زاهر رياض : الممالك الاسلامية في غرب افريقية - القاهرة - ١٩٦٨ م .
- ١٥ - الحسن الوزان : ليو الأفريقي : وصف أفريقيا ، ترجمة - عبد الرحمن حميده - الرياض - ١٣٩٩ م .
- ١٦ - جمال حمدان : العالم الاسلامي المعاصر - القاهرة - ١٩٧١ م .
- ١٧ - حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين - القاهرة - ١٩٥٦ م .
- ١٨ - حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في أفريقيا - القاهرة -
١٩٦٣ م .
- ١٩ - حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس - القاهرة - ١٩٨٠ م .
- ٢٠ - حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب - القاهرة - ١٩٤٧ م .

- ٢١ - حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية - تونس - ١٩٧٢ م .
- ٢٢ - حسن على حسن : دراسات فى تاريخ المغرب العربى - القاهرة - ١٧٩٩ م .
- ٢٣ - حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى القارة الأفريقية - القاهرة - ١٩٨٤ م
- ٢٤ - سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى - القاهرة - ١٩٦٥ م .
- ٢٥ - صلاح العقاد : المغرب العربى : ١٩٦٩ م .
- ٢٦ - عبد العزيز السيد سالم : المغرب الكبير - القاهرة - ١٩٦١ م .
- ٢٧ - عبد العزيز السيد سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس - بيروت - ١٩٦٩ م .
- ٢٨ - عبد الرحمن على حجي : التاريخ الاسلامى للأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة - القاهرة - ١٩٨٣ م .
- ٢٩ - عبد العزيز بن عبد الله : معطيات الحضارة المغربية - المغرب - ١٩٥٧ م .
- ٣٠ - عبد القادر الصحراوى : جولات فى تاريخ المغرب : الدار البيضاء - ١٩٦١ م .
- ٣١ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الاسلام والثقافة العربية فى أوروبا - القاهرة - ١٩٧٩ م .
- ٣٢ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الاسلام والعروبة فى السودان - القاهرة - ١٩٨٦ م .
- ٣٣ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : حركة المد الاسلامى فى غرب أفريقية - القاهرة - ١٩٨٥ م .

- ٣٤ - عبد الله على علام : الدولة الموحدية بالمغرب - القاهرة - ١٩٧١ م .
- ٣٥ - عبد الله جنون : مدخل الى تاريخ المغرب - الدار البيضاء ، د . ت .
- ٣٦ - عبد الوهاب منصور : قبائل المغرب - الرباط - ١٩٧٠ م .
- ٣٧ - عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام - الجزائر - ١٩٥٥ م .
- ٣٨ - عز الدين احمد موسى : النشاط الاقتصادى فى المغرب الاسلامى - القاهرة - ١٩٨٣ م .
- ٣٩ - محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس - القاهرة - ١٩٦٤ م .
- ٤٠ - محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير - القاهرة - ١٩٦٤ م .
- ٤١ - محمد عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب - تطوان - ١٩٥١ م .
- ٤٢ - محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية - القاهرة ، د . ت .
- ٤٣ - مراجع عقيلة الغنامى : قيام دولة الموحدين - بنغازى - ١٩٧٠ م .
- ٤٤ - الميلى : مبارك بن محمد الهلالى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث - الجزائر ، د . ت .
- ٤٥ - مصطفى أبو ضيف أحمد : أثر العرب فى تاريخ المغرب - الاسكندرية - ١٩٨٣ م .
- ٤٦ - محمد محمد أمين : العلاقات العربية الأفريقية (فضل) - القاهرة - جامعة الدول العربية - ١٩٧٨ م .
- ٤٧ - يسرى الجوهري : افريقية الاسلامية - القاهرة - ١٩٨٠ م .

المراجع الأجنبية

- 1 - Barth, H. : Travels and discoveries in North and Central Africa, London, 1875.
- 2 - Baulin, J. : The Arab role in Africa, London, 1962.
- 3 - Baur T. : West Africa trade, Cambridge, 1950.
- 4 - Brunschrig, W. : La Berberie orientale sous les Hafside, Paris.
- 5 - Cooley, W.P.: The Negro Land of the Arabs, London, 1940 - 1947.
- 6 - Despois, T.V.: Afrique du Nord, Paris, 1964.
- 7 - Doutte, E.F.: Notes sur l'Islam Maghribin, Paris, 1960.
- 8 - Dozy, L.R.: Recherches sur l'histoire d'Espagne, Amsterdam.
- 9 - Gautier, E.F.: Notes sur l'Islam Mag, du Nord, Paris, 1927 - 1965.
- 10 - Gautier, E.F.: Le passe d'Afrique du Nord, Papot, 1940.
- 11 - Hopkins, J.P.: Medieval Muslim government in Barbary, London, 1948.
- 12 - Levi-provenciel, E.: Histoire d'Espagne Musulmane, Paris, 1960.
- 13 - Marcais, G.: Les Arabes en Berberie, Paris, 1930.
- 14 - Marcais, G.: La Barberie Muslmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1942.
- 15 - Mussignon, L.: Le Maroc dans les premières années du XVI siècles, Aleg, 1906.
- 16 - Hamet, L.: La Civilisation arabes en Afrique, Paris, 1911.

- ٤٨ - ارنولد ، توماس : الدعوة الى الاسلام . ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين . القاهرة ، ١٩٧٠ م .
 - ٤٩ - أوليفر ، رولاند ، جون فج : موجز تاريخ افريقية . ترجمة دولت صادق - القاهرة - ١٩٦٥ م .
 - ٥٠ - جوليان ، شارل اندريه : تاريخ افريقية . ترجمة طلعت عوض ابازة - القاهرة - ١٩٦٨ م .
 - ٥١ - ستودارد الورتوب : حاضرم العالم الاسلامى . ترجمة وتعليق شكيب ارسلان - بيروت ، د . ت .
 - ٥٢ - لاند ، روم : تاريخ المغرب . ترجمة نقولا زيادة - بيروت - ١٩٨٣ م .
- ثالثا : رسائل جامعية :**
- ١ - زين العابدين السراج : دولة الكائم الاسلامية . رسالة ماجستير - آداب القاهرة - ١٩٧٥ م .
 - ٢ - طاهر راغب حسين : الدولة الحفصية . رسالة ماجستير - دار العلوم .
 - ٣ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة البرنو الاسلامية . رسالة ماجستير - جامعة القاهرة - ١٩٨٣ م .
 - ٤ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاي الاسلامية . رسالة دكتوراه - جامعة القاهرة - ١٩٧٥ م .
 - ٥ - عبد المرضى محمد عطوة زايد : دولة بنى زيان بالمغرب . ماجستير - دار العلوم - جامعة القاهرة - ١٩٨٢ م .
 - ٦ - محمد عيسى صابر سليم : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة بنى مرين بالمغرب . رسالة دكتوراه دار العلوم - ١٩٧٩ م .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	التمهيد
١٠	المقدمة
١٤	الباب الأول : انهيار دولة الموحدين وظهور الإمارات الثلاث
١٩	الفصل الأول : كيف ظهرت دولة الحفصيين
٢٧	الفصل الثاني : الدولة الحفصية في أزهى عصورها
٤٤	الفصل الثالث : بنى حفص والغزوة الصليبية
٥٠	الفصل الرابع : خلفاء بنى حفص بعد الغزوة الصليبية
٦٠	الفصل الخامس : سيطرة بنى مرين على تونس
٧١	الفصل السادس : الدولة الحفصية بعد طرد بنى مرين
٨١	الفصل السابع : سلاطين بنى حفص في ظل الخلافة العثمانية وحتى سقوط الدولة
٨٧	الفصل الثامن : علاقة الدولة الحفصية بالدول المجاورة
٩٣	الفصل التاسع : مآثر الخلافة الحفصية في مختلف الميادين
١٠٦	الباب الثاني : بنو زيان على مسرح الأحداث بالمغرب الأوسط

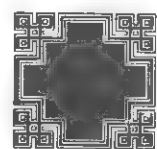
- 17 - Julein, A.: Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1931.
- 18 - Scolt, S.P.: History of the Morish Empire in Europe, London, 1940.
- 19 - Terasse, H. : Histoire du Maroc des origines, Casablanca, 1949 - 1954.
- 20 - Warmington, B. : The North African provinces, Cambridge.
- 21 - Westerman, D. : Les peuples et les civilisation de l'Afrique, Paris, 1949.
- 22 - Piquet, V. : Les civilisations de l'Afrique du Nord, Paris, 1956.
- 23 - Kjein, J. : La Tunisie, Paris, 1960.
- 24 - Antichan, P.H.: La Tunisie son passe et son avenir, 1824.
- 25 - Martin, St. : Le Nord de l'Afrique dans l'Antique, Paris, 1863.

* * * *

الصفحة	الموضوع
١١٤	الفصل الأول : ظهور الدولة ككيان سياسى
١٢٩	الفصل الثانى : الصراع مع بنى مرين
١٤٠	الفصل الثالث : الدولة الزيانية فى أوج مجدها
١٤٥	الفصل الرابع : القبائل العربية ودورها فى بناء الدولة
١٥٥	الفصل الخامس : علاقات الدولة بالدول المجاورة
١٧٣	الفصل السادس : النشاط الحضارى والثقافى والاقتصادى للدولة
١٨٦	الفصل السابع : نهاية الأسرة اليفمراسنية الزيانية
١٩٧	الباب الثالث : بنو مرين على مسرح الأحداث بالمغرب الأقصى
٢٠٤	الفصل الأول : بداية ظهور الدولة
٢٢٢	الفصل الثانى : جهاد بنى مرين فى الأندلس
	الفصل الثالث : البحرية فى عهد سلاطين بنى مرين
٢٥١	الفصل الرابع : المد المرينى فى المغربين الأوسط والأدنى
٢٦٦	الفصل الخامس : مظاهر حكم بنى مرين وانجازاتهم فى المغرب الأقصى
٢٩٠	الفصل السادس : السياسة الخارجية لسلطنة بنى مرين
	الفصل السابع : العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية بين بنى مرين وبنى
٣١٠	زيان وبنى حفص

الصفحة	الموضوع
٣٣٢	الفصل الثامن : نهاية الدولة وسقوطها
٣٤١	الخاتمة
٣٤٦	المصادر والمراجع العربية والأجنبية

موسوعة تاريخ المغرب العربي



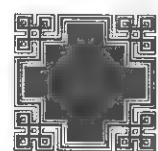
المغرب العربي

بين

بنى وطاس والسعديين

وظهور الأشراف العلويين

دراسة فى التاريخ الإسلامى



الجزء السادس



الإهداء

إلى زوجتي

منة الله... وهبة السماء وعطاء القدر ونعمة الأيام ، بداية البداية ونهاية النهاية...
مسك الختام وعنبر المسك، فإليها الفضل كل الفضل بعد المولى عز وجل في ظهور
هذا العمل المتكامل بأجزائه الست، فكان هذا الإهداء عرفاناً بما أتيح لي من وقت
حتى كان هذا الجهد على تلك الصورة.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمي

التمهيد

هذه سادسة الأخماس في موسوعة المغرب العربي الإسلامي بل نهاية التتمة بعد رحلة مشوار طويل عبر تاريخ الإسلام العريق العتيد العبق بالمغرب عبر عشرة قرون زمنية طويلة، بدأت مع الفتح العربي الإسلامي وطرق الجيوش الإسلامية من صحابة رسول الله ﷺ بقيادة عمرو بن العاص عام ٢٣هـ/٦٤٣م وانتهى هذا المشوار الطويل بظهور الأسرة العلوية الشريفة النبوية الحسب والنسب لكي تكون خاتمة هذه الدراسة بأجزائها الست خاتمة طيبة ارتضت بالحسب النبوي الشريف أن يكون نهاية هذه المسيرة عبر أغوار التاريخ ذلك لان العمل العلمى المضنى والبحث الطويل والذي بذل طوال عشر سنوات أو يزيد بحثا متواصلا بل تفرغا كاملا عبر العديد من المؤلفات والأبحاث والمكتبات والمراسلات والدوريات وما اليها من الوسائل المختلفة التي عولت عليها كثيرا في تلك الدراسة .

ذلك لانه لم يكن من السهل إزالة العديد من الاستفهامات التي كانت تقابل الكثير من المؤرخين والباحثين على اختلاف ما تناولوه من دراسات سابقة عن المغرب العربي ورفع اللبس عن العديد من الحقائق العلمية التي لم يتم التوصل إلى إجابة شافية لها مثل الحديث عن الأسرة الوطاسية وندرة ما كتب عنها، بل أننا لم نجد الكثير من التأكيدات التاريخية والشواهد التي تعطى هذه الأسرة حقها في تاريخ المغرب رغم الاعتراف بأنها اضعف حلقات التاريخ المغربى الطويل، وقد يكون لاغلب المؤرخين عذرهم في عدم الكتابة نظرا لاقتصارهم على معلومات كانت ضرورية في تلك الدراسة بل أن هناك العديد من الحلقات الضائعة في أبحاثهم لاسيما بعض الرسائل الأكاديمية للماجستير والدكتوراه والتي لم تكن على النحو المطلوب في معالجة الأحداث وعدم الروابط بينها وبين الأماكن التي جرت فوقها مثل معركة القصر الكبير في عهد عبد المالك بن محمد الشيخ ١٥٧٨م .

ومن هنا فقد بدت تلك الدراسة وكأنها سلسلة مترابطة الحلقات وهي تدفع أمامها المعلومات لكي يتصل كل فصل بالفصول التي تليه ومن هنا جاءت بهذه الصورة الواضحة، ولاشك أن بعض الصفحات في تلك الدراسة قد تكون بها متناقضات أو صفحات معتمدة التاريخ نظرا لكتابات المؤرخ المجهول عن الدولة السعدية والتي كان لا بد من الأخذ بما جاء بها ولكن ليس بالصورة التي ذكرت فكان لا بد من التحليل والتمحيص نظرا للتفاعلات القبلية في حركة التاريخ المغربي المؤرخ المجهول من أنصار الأسرة الوطاسية وقد انعكس ذلك على وجود انقسامات سلبية في حركة التاريخ المغربي نظرا لان العامل التاريخي كان يخضع لبعض الأغراض والتوقعات وأن بعضا من هذه الكتابات لم تكن بالصورة الموضوعية بحيث تستطيع أن تمسك بخيط التاريخ في حركة زمنية يحتفظ خلالها كاتب التاريخ بثبات دورة ولا يتعدى الخط الموضوعي لكي يحتفظ بالرؤية الواضحة فكان لا بد من أخذ هذا الاعتبار عند دراسة كل فترة من فترات التاريخ ذلك لان الفترة الزمنية التاريخية قد تخضع للهوى بين مؤيد ومعارض، هدام وبناء، بين مغرض ومزائد ولكن كان علينا أن تتمثل العامل التاريخي وصولا للحركة المغربية عموما .

ومن هنا فنحن نطالب قارئ التاريخ أن ينظر من منظار حضاري للصورة الإسلامية المغربية لقياس قدرة هذا البلد الإسلامي العظيم العريق في دراسة أحداثه، ذلك لان المغرب الإسلامي بأقطاره المختلفة له خصوصية مغايرة عن غيره من الأقطار الإسلامية الأخرى فهو لا زال إلى اليوم يحمل عبق الأندلس ذلك الفردوس الإسلامي السليب الذي يتواكب مع كتابة هذا الجزء مرور خمسمائة عام على سلبه رغم محاولات المغاربة المتعددة للعودة بالإسلام اليه مرة أخرى، لكن نصر الله وفتحته قريب .

عبد الفتاح مقلد الغنيمي

أول أيام عيد الفطر المبارك ١٤١٢هـ / ٤ أبريل ١٩٩٢م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي له العزة والجبروت وبيده الملك والملكوت يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بیده مقاليد الأرض والسموات والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله النبي الخاتم العربي القرشي المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وعلى آله وأصحابه واتباعه وأحفاده وذريته إلى يوم الدين .

أما بعد فهذا هو الجزء السادس من موسوعة التاريخ المغربي تنمة العمل وخاتمة المشوار الطويل نتحدث فيه عن كيفية ظهور الأسرة الوطاسية وحكمها لبلاد المغرب الأقصى وكيف انتهت هذه الأسرة من مسرح الأحداث السياسية وكيف تمهد الطريق إلى صعود الأسرة السعدية الشريفة لتقود مسيرة العمل الوطني والجهاد الإسلامي في أقصى ديار المغرب وكيف ارتدت عباءة الشرافة لتتولى الحكم وما هي مراحل الحكم وكيف انتهت إلى كهولة متهاكة ثم جاءت الأسرة العلوية الشريفة القرشية الهاشمية لتحمل راية العمل الإسلامي والحكم الشريف في بلاد المغرب منذ عام ١٠٧٥ - ١٤٩٢هـ ١٦٤٦ - ١٩٩٢م .

وفي حقيقة الأمر فقد قسمت تلك الدراسة إلى ثلاثة أبواب كل باب منها يؤدي إلى الباب الذي يليه بحيث تكون تلك الدراسة وحدة متكاملة في تاريخ المغرب في ضوء الحركة العالمية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكيف كانت تلك الحقبة من علامات النصر المغربي جهادا إسلاميا قطع دابر المد الصليبي وانقذ القطاع الغربي للعالم الإسلامي من حركة استعمارية متعصبة حيث شهدت هذه الدراسة انصع صفحات التاريخ المغربي عبر ادواره التاريخية منذ وطئت أرضه أنوار الدعوة الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فقد شهدت أرض المغرب في ٣٠ جمادى الأولى عام ٩٨٦هـ الرابع من أغسطس عام ١٥٨٧م نصرا إسلاميا مؤزرا على أرض المغرب

على كل القوى الأوروبية في معركة القصر الكبير بقيادة المجاهد الإسلامي عبد المالك ابن محمد الشيخ العربي الشريف .

ولقد كانت تفاصيل هذه الأبواب الثلاث كما يلي حيث عالجت في الباب الأول نهاية دولة بني مرين وظهور بني وطاس وقسم هذا الباب إلى خمسة فصول كان الفصل الأول عن بني وطاس على مسرح الأحداث السياسية بالمغرب الأقصى ومن حكم من هذه الأسرة بدءا من محمد الشيخ مؤسس الأسرة. وامتدادا إلى ابنه أبو عبد الله محمد الشيخ ثم إلى أحمد الوطاس ثم إلى يوحسون الوطاس آخر سلاطين الأسرة وفي حقيقة الأمر لقد لاقيت صعوبة جمة في تحديد فترات حكم كل منهم وفي تباين وتداخل فترة حكم كل منهم نظرا لأن الذين كتبوا عن هذه الأسرة التي دام حكمها ثمانين عاما لم يزيلوا الغموض الذي أحاط بفترة حكمها فكان على أن أقدم ما قدرت عليه من عمل .

ثم الفصل الثاني عن الأتراك العثمانيين وظهورهم في المغرب وسيطرتهم على بلاد الجزائر وتونس وطرابلس ومقاومتهم للاستعمار الأيرى البرتغالي الأسباني وطردهم له من كل هذه الديار وتطلعهم إلى السيطرة على بلاد المغرب الأقصى وإعادة فتح الأندلس .

وكان الفصل الثالث عن الاستعمار الأيرى لبلاد المغرب وكيف انتقل الصراع مع منتصف القرن الخامس عشر الميلادي إلى سواحل المغرب والسيطرة البرتغالية الأسبانية على موانئ المغرب الأقصى وموقف بني وطاس المتخاذل من قوى الاستعمار .

ثم كان الفصل الرابع عن الطريقة الصوفية ودورها في إذكاء روح الجهاد الإسلامي ومحاولة رد الاعتبار للوطن السليب ورفع الروح الإسلامية لطرد الغزاة وموقف بني وطاس من التيار الإسلامي المجاهد .

ثم كان الفصل الخامس وهو نهاية الباب الأول عن القاء نظرة أخيرة على محاولة الأسرة الوطاسية العودة لحكم المغرب الأقصى بمساندة الأتراك وعودة يوحسون الوطاسي وحكمه البلاد ستة شهور ثم قضاء السعديين على حكمه .

ثم يأتي بعد ذلك الباب الثاني في هذه الدراسة هو عن الأشراف السعديين وظهورهم ككيان سياسي على مسرح الأحداث بالمغرب وقد قسمت هذا الباب إلى تسعة فصول متصلة كل فصل يعالج موضوعا متصلا بما سبقه من فصول وما يليه من فصول أخرى طبقا لتسلسل الأحداث وعرض الموضوع. وكان الفصل الأول عن الدولة السعدية بعد مؤسسها محمد القائم بأمر الله ومن تولى مقاليد الأمور من بعده أمثال أحمد الأعرج، محمد الشيخ، عبد الله الغالب بن محمد الشيخ ومحمد المتوكل بن الغالب ودور كل منهم في حكم المغرب والأحداث التي تمت في خلال هذه الحقبة التاريخية في المغرب .

ثم الفصل الثاني عن أمير المؤمنين عبد المالك بن محمد الشيخ وكيف اضطلع بمقاليد الأمور والصراع بينه وبين ابن أخيه محمد المتوكل وكيف استطاع أن يستولى على الحكم بمساعدة الأتراك .

ثم كان الفصل الثالث عن معركة القصر الكبير عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م وماحقته المغرب من انتصارات كبيرة حقق لها دورا بطوليا رائدا في الدفاع عن حياض الإسلام وديار المسلمين .

وبعد كان الفصل الرابع وهو عن أحمد المنصور السعدي الذهبي وقد شهدت البلاد أزهى عصورها وأعظم إنجازاتها وكيف لعبت دورا كبيرا في المجال العالمي وكيف راودته فكرة العودة بالإسلام إلى دياره بالأندلس .

ثم الفصل الخامس عن احمد المنصور الذهبي وفتح بلاد السودان الغربى (فتح سنغاي) وكيف تم تكوين الوحدة الإسلامية فيما وراء الصحراء الكبرى وظهور كيان إسلامى قوى استمر فى حكم هذه البلاد منذ عام ١٥٩٠ إلى ١٧٦٠ م .

والفصل السادس عن الدولة السعدية بعد حكم احمد المنصور وكيف كان الصراع بين أبناء المنصور وأحفاده من أجل السيطرة على الحكم سببا فى تمزق البلاد وقيام كيانات صغيرة مستقلة تتصارع من أجل توسع دائرة كل منها على حساب الأخرى وازدياد حدة المطامع الأجنبية والتنازلات عن الأرض والعرض والدار. وما ترتب عليه من أحداث وبعده كان الفصل السابع عن أحوال المغرب فى عهد الأشراف السعديين وكيف حققت البلاد خطوات واسعة فى مختلف المجالات والاصعدة والانتقال إلى العصور الحديثة وما تم إنجازه فى المجال الزراعى والصناعى والتجارى وتطور الجيش والأسطول والشرطة وأثر الحضارة الثقافية التى طبع بها البلاد العصر السعدى وكيف أن هذا العصر يعتبر نقلة حضارية للمغرب وبصفة خاصة عصر أحمد المنصور الذهبي الذى دام أكثر من ربع قرن .

وجاء الدور على الفصل الثامن وهو قبل الأخير فى هذه الفصول ليكون عن السعديين وعلاقاتهم بالقوة المعاصرة وكانت العلاقات السعدية التركية والسعدية الإنجليزية والسعدية البرتغالية والسعدية الأسبانية ثم الفرنسية والهولندية لكنها تسير فى نسق واحد وهو الحفاظ على وحدة المغرب واستقلاله والتبادل التجارى والاقتصادى مع محاولة الدخول فى معاهدات بما يحفظ للمغرب دوره، لكن كانت هناك نقط ضعف كثيرة من الجانب المغربى لم يحاول أن يستغلها أو يملأ فراغها والاستفادة منها لتحقيق أهدافه الكبرى فى إنهاء الجيوب الاستعمارية من فوق أرضه .

ثم تتمة الباب الثانى وهو الفصل التاسع والأخير فى هذا الباب عن انهيار الدولة

السعدية وسقوطها وكيف أن عوامل الضعف والانهيار أنشبت أظافرها فى كل الجسد السعدى فانه كسابق عهد الدول السابقة لم تستطع أن تحرك ساكنا إزاء قوة الدفع القوية المنطلقة إلى بناء كيان إسلامى قوى فكان الباب الثالث والأخير فى هذه الأبواب الثلاث صلب الدراسة وهو عن الأشراف العلويين حكام المغرب الأقصى ودورهم فى قيام حركة الإصلاح الدينى فى المغرب وتحرير البلاد وإعادة وحدتها والقضاء على كل الولايات والإمارات الصغيرة وصهرها من جديد فى كيان قوى واحد وتطلع قادة الأسرة العلوية إلى بناء المغرب الكبير وكيف كان تطلعهم إلى المغرب الأوسط (الجزائر) ليكون نقطة انطلاق للمغرب الأقصى وكيف أن الاتراك تقاربوا مع العلويين باسم الإسلام والدين وكيفية تطلعهم إلى هذه الديار وكيف شهد المغرب عصرا قويا فى عهد المستنصر بالله أبى النصر إسماعيل بن الشريف بن على (١٠٨٢ - ١١٣٠ هـ / ١٦٨٢ - ١٧٢٧ م) وكيف طرد الإنجليز من طنجة عام ١٦٨٤ م وكيف أن هذه الأسرة لازالت تحكم باسم الإسلام وشرعة القرآن وذيلت هذا الباب بالنسب الشريف للملك الحسن الثانى ملك المغرب منذ على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه وصولا بذلك النسب إلى الحسن الثانى ملك المغرب الحالى (١٩٩٢) .

ثم كانت خاتمة البحث وهى خلاصة ما توصلت اليه من نتائج فى هذه الدراسة وتلاها خاتمة بالمصادر والمراجع العربية والأجنبية والرسائل العلمية الأكاديمية التى عول عليها فى هذه الدراسة حتى كانت على هذه الصورة .

والله نسأل أن أكون قد سددت فراغا وأضفت جديدا علما بأن الكمال لله وحده والله من وراء القصد .

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمي

أول أيام عيد الفطر المبارك ١٤١٢ هـ / ١٤ أبريل ١٩٩٢ م

الباب الأول

نهاية بنى مرين وظهور بنى وطاس

بوفاة السلطان أبى عنان المرينى فى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٨م استبد بأمر الدولة الوزراء ومع حلول النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى تمزقت الدولة المرينية بين الأمراء المتنافسين على السلطة بين فاس ومراكش وأصبح الصراع يدور بين العاصمتين فاس ومراكش إلى أن تمكن أبو العباس أحمد المرينى من الاستيلاء على مراكش فى أواخر فترة حكمه فى عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م ووحد المغرب غير أن هذه الوحدة لم تدم طويلا وفى عهد آخر سلاطين بنى مرين السلطان عبد الحق بن أبى سعيد ابن أبى العباس ٨٢٣ - ٨٦٩هـ/١٤٢٠ - ١٤٦٥م ضعف أمر بنى مرين وانتقلت السلطة إلى الوزراء والحجاب وصار للحجاب نفوذ أقوى من الوزراء حتى أصبح الحجاب فى أيديهم جميع الخيوط والوظائف السلطانية وأصبح الحجاب هو صمام الأمن والأمان للسلطان الجالس على العرش ولم يكن باستطاعة السلطان المرينى مواجهة الأحداث .

وكان السلطان أبو سعيد والد عبد الحق قد توفى عام ٨١٨هـ/١٤١٥م وخلفه أخوه عبد الله المعروف سيدى عبو، وثارت العامة عليه فى فاس واعتورته رماحهم وسهامهم حتى قتل ولما قتل تنازع أمر السلطنة بعده اثنان من إخوته وبعد قتال شديد لم يستطيع أحد منهما أن ينتصر على صاحبه، اتفق أهل الحل والعقد ومن يؤخذ برايتهم من العلماء وكبار رجال الدولة على مبايعة عبد الحق بن أبى سعيد عثمان وهو آخر سلاطين بنى مرين فى حكم المغرب وأطولهم مدة وفى أيامه ضعف أمر السلطنة وتداعت للانحلال وأحدثت بها المخاطر من كل جانب وأصبحت البلاد مطمعا للأتراك العثمانيين والفرنجة الأسبان والبرتغاليين وأمسك بزمام الحكم الوزراء والحجاب ولم يكن لعبد الحق أدنى سلطة أو اتخاذ قرار ينفرد فى الدولة إلى حكمها كآبائه وأجداده

من قبل، وفى عهد عبد الحق هذا زاد استبداد الوزراء وطراً على منصب الوزير شئ من التعديل لخطورة وضعه وجمعه السلطة الكلية للقصر فى يديه وأصبح للوزير مهام الحجاب وأصبح يطلق على الوزير اسم الحجاب وعلى الحجاب اسم الوزير وقد تولى منصب الوزارة بهذا المعنى والوضع القوى والمتحكم فى مقاليد القصر السلطانى مجموعة من أبناء البيت الوطاسى ومنهم يحيى بن زيان الوطاسى وكان لهذا الوزير الفضل الكبير فى القضاء على تمرد عرب الشاوية وكان الوزير هذا قد قام بغزوهم فى ديارهم لتمردهم على سلطان البلاد وتزايد ضررهم وزحفهم على احواز مكناس وفاس سالبين أهلها أموالهم وماشيتهم منزلين الرعب والدمار بالناس حتى اضطروا الناس إلى الرحيل جنوباً، فما كان من الوزير أبى زكريا يحيى بن زيان الوطاسى إلا أن قضى على سلطانهم وفرق شملهم وخرّب منازلهم الشاوية هؤلاء بطن من بطون سويد، وسويد هى إحدى بطون بنى مالك من زغبة الهلاليين وكان نفوذهم قد زاد فى الدولة المرينية واستبدوا بكثير من الأمور، لكن الوزير الوطاسى هذا قد أغتيل غدرا بين عرب انكاد فى عام ٨٥٢/١٤٤٨م .

وبعد قتله آلت أمور الوزارة فى فاس لعلى بن يوسف الوطاسى ويحيى بن يحيى ابن زيان الوطاسى وكان تولى هذا الوزير للوزارة بداية نذر شؤم على أسرته وعلى الدولة المرينية إذ أخذ يغير كثيراً من معالم الحكم فى الدولة المرينية. وذلك لانه استقل بالحجابة وأخذ فى تغيير مراسم السلطنة وعوائد الدولة ولم يعد للسلطان عبد الحق أدنى أهمية لانه أنقص فى عدد قوات الجند التى كانت تعتمد عليه الدولة ودخل فى عدااء مكشوف مع أقارب السلطان من البيت المرينى ونقض كل ما أبرم من معاهدات وإتفاقيات قبل توليه الوزارة ولم يعد مسؤولاً عن تنفيذ أدنى بند من بنود هذه الإتفاقيات وحمل مسؤولياتها على الوزراء الذين سلفوه فى هذا المنصب وعامل الرعية بالعسف

والشدة وتدخل في كل كبيرة وصغيرة في البلاد ومنها تدخل في أمر القضاء الذي كان مستقلا عن شئون الوزارة ويتبع مباشرة السلطان المريني واختلف في أمور فقهية وقضائية مع قاضي قضاة فاس الفقيه أبي عبد الله محمد بن عيسى المصمودي الذي كان يريد أن يطوعه لأهدافه فلما قضى بعزله من منصب القضاة وجاء بقاضي من قبله ينصاع لما يريده الوزير الوطاسي وهو الفقيه يعقوب التسولي وكان القاضي السابق المصمودي من الذين يشهد لهم بالعدل والنزاهة والقوة في الحق، لكن إزاء كل هذه التصرفات التي كان يقوم بها يحيى بن يحيى الوطاسي كانت تصل مسمع السلطان عبد الحق الذي كان يدبر في الخفاء أمرا للتخلص من كل ما هو وطاسي بعد أن أفزعته هذه التصرفات وجرحته وضعه السلطاني بين أفراد الأسرة المرينية الذين كانوا يتوجسون خيفة من مطمع بنى وطاس في ملك بنى مرين وتولى حكم المغرب بدلا منهم غير أنهم ليسوا من بنى عبد الحق وكان مما ضاعف من مخاوف الأسرة المرينية والسلطان عبد الحق بن أبي سعيد بصفة خاصة أن جميع أفراد الأسرة الوطاسية كانوا يؤيدون الوزير يحيى بن يحيى الوطاسي في جميع الخطوات التي كان يتخذها للحد من سلطة السلطان وتدعيم وضع الأسرة الوطاسية وشعر السلطان وأفراد البيت المريني أن بنى وطاس بالتفافهم حول الوزير يحيى كادوا أن يغلبوه على أمر السلطنة وشئون الحكم فاتخذ من جانبه قرارا بالقبض عليهم والتنكيل بهم ونكل بهم وقبض على كل من تدور حوله شبهة من بنى وطاس وكان منهم الوزير يحيى بن يحيى وإخوته أبو بكر وأبو شامة وعلى وعمهم فارس بن زيان وقريبهم محمد بن على بن يوسف وذبحهم جميعا ويذكر السلاوي في أخبار هذه المذبحة التي أوقع بها السلطان عبد الحق المريني بنى وطاس أنه لم ينج منها إلا إثنان من أفراد الأسرة الوطاسية هما محمد الشيخ (مؤسس الأسرة الوطاسية فيها بعد) ومحمد الحلو حيث لم تصبهما النكبة وكان محمد الشيخ الوطاسي قد خرج للصيد فاتصل به الخبر قبل أن يصل إلى فاس عائدا من صيده

فذهب على وجهه لا يلوى على شيء، أما محمد الحلو الآخر فقد إختفى بعيدا عن العيون حتى إذا سكنت العاصفة تسلل ولحق بمحمد الشيخ فسارا جنوبا إلى جهة الصحراء وجعلا يترددان فيما بينها وبين البلاد الهبطية (بلاد الهبط المغربية) حتى ملكا أصيلا وخضعت لهما قبل استيلاء البرتغال عليها في العهد المريني .

وبعد مذبحة بنى وطاس ظل منصب الوزارة شاغرا لا يقبل على تولية أحد خوفا من بطش السلطان وكذلك تخوف السلطان عبد الحق من ظهور نفوذ الوزراء وسطوتهم في الحكم بعد ذلك واستبدادهم بأمور السلطنة دونه كذلك فإن ما قام به عبد الحق المريني من مذبحة بشعة لبنى وطاس لم يلق قبولا من قبل الشعب المغربي عامته وخاصته وجميع طوائف الشعب وكان ذلك يصل إلى مسامعه وأنهم نقموا على سلطانهم لإيقاعه بالوطاسيين وأن أنظار الشعب المغربي تعطى آذانا صاغية إلى محمد الشيخ الوطاسي وابن عمه محمد الحلو اللذين يحكمان أصيلا، لذا اضطرم حقد السلطان عبد الحق على رعيته بعد أن رفض الكثير من رجال البلاط تولي أمر الوزارة تحسبا للأحداث المستقبلية وخوفا من أن تصل الأمور بهم إلى ما وصل اليه بنو وطاس ولما لم يجد يدا من ذلك ونكاية في رعيته التي أبدت تعاطفا شديدا مع بنى وطاس قام بتعيين إثنين من اليهود في منصب الوزارة والحجابة فكان هارون الوزير اليهودي وشاويل حاجب السلطان وكان هذا التصرف الأحقق غير الملتزم بالشرعية الإسلامية ونصوصها قد أثار سخط كافة طوائف الشعب المغربي لا سيما رجال القضاء والفقه ورجال الدين والعلماء وأصحاب الحرف المهنية وعلية القوم ونقم عليه الكثير من أبناء البيت المريني الذين رأوا في تعيين الوزير هارون، والحاجب شاويل إهانة لكرامة المسلمين لأنه تصرف بمس الشعور الديني ويجرح كرامة الوطن المغربي ومن هنا فقد عبد الحق كل تأيد شعبي له بين عامة شعبه وخاصته لاسيما أنه كانت هناك قلة من عليه القوم ترى في

استبداد الوزير الوطاسي يحيى بن يحيى ومحاويلته التفكير في الانفراد بالحكم والسلطة دون السلطان مبررا للمذبحة التي قام بها السلطان عبد الحق، لكن مما زاد في حنق الشعب المغربي وحقده وسخطه على سلطان بلاده أن الوزير اليهودي هارون أظهر من الشدة والعسف والبطش وسوء المعاملة والضرب والمصادرة وعدم احترام المشاعر الإسلامية والتصرف الأحق وتحكمه في أمور المدينة وسيطرة اليهود على جمع مقاليد الأمور وإهدار كرامة الانسان لاسيما النساء من آل بيت الشرافة العلوية الإدريسية، وساد البلاد حالة من التذمر التي نجمت عن الإجراءات المالية الجديدة التي سنّها السلطان عبد الحق ووزيره اليهودي هارون والتي مست بشدة مجتمع الأشراف في فاس وكان هذا اليهودي يخرج في زى الملوك ويخدمه المسلمون ويحكم بين أهل الإسلام في شكاياتهم ويأمر وينهى ويصفد بالحديد ويقتل ويضرب وهذا من أكبر مصائب الدهر التي وصلت بالبلاد المغربية من قبل تصرف سلطان أحق لا يقيم وزنا للقيم الإسلامية التي ينتمى إليها، بل أكثر من ذلك أن هارون وشاويل تحكما في الأشراف والفقهاء ومن دونهم من الرعية وكان اليهودي هارون قد ولي على شرطته رجلا يقال له الحسين وأمره بأن يستخدم كل وسائل العنف والشدة وجميع وسائل التعذيب واستيلاء الأموال بآية طريقة وفي عهد هذين الوزيرين (هارون) والحاجب شاويل وصلت الدولة المرينية إلى درجة كبيرة من الضعف والانحلال والتفكك ولم يستطيع السلطان عبد الحق الذي فقد هيئته وسمعته بين رعيته وضعف قوته العسكرية أن يدافع عن طنجة التي هاجمها الأسبان بقوة صغيرة واستولوا عليها عام ٨٦٩هـ/١٤٦٤م .

واقتربت نهاية السلطان ومعه نهاية الدولة ومن عينهم في الوزارة والحجابه، ذلك لأن الوزير اليهودي كان قد أصدر أمره بالقبض على امرأة شريفة من الأشراف الحسينيين في إحدى أحياء مدينة فاس وأثقل عليها بالضرب الشديد بل أوسعها ضربا

وزاد عليها في المهانة شدة الأسواط فجعلت تتوسل اليه بالرسول محمد ﷺ لكن اليهودي لما سمع اسم رسول الله ﷺ زاد في ضربها وبالغ في عقابها (السلوى) وانتشر الخبر في المدينة وأسرع كبار القوم بالذهاب بها إلى خطيب مسجد القرويين الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن موسى الورياكلى وكانت له صلابة شديدة في الحق وشرح له المجتمعون تحكم اليهود في رقاب المسلمين واتفق الجميع بعد أن تعاهدوا على كتاب الله مع الشيخ الورياكلى على التخلص من السلطان والفتك بالوزير اليهودي هارون جزاء فعلته وبيعة الشريف أبي عبد الله الحفيد وهو محمد بن علي بن عمران الإدريسي الجوطي نسبه إلى جوطه وهي قرية على نهر سيوفى العدو الجنوبية لم يبق منها الا آثار نزلها جدهم يحيى بن محمد بن يحيى العدام بن القاسم بن إدريس فنسب إليها وهو من بيت بنى عمران وهي فرقة من أدارسة فاس استقروا ببيت جدهم إدريس وكانت لهم السيادة الروحية على أهل المغرب (كافة) وهم من آل البيت العلوي ووافقوا على ذلك وبايعوا الشريف ودعوا له على المنابر، وهكذا اضطربت الأمور بدرجة نهائية في المدينة المرينية فاس وتدهورت الأمور من جراء سيطرة اليهوديين على مقاليد الأمور مما اضطر شيوخ المدينة ورؤساءها إلى هذه المبايعات للشريف أبي عبد الله ضد السلطان عبد الحق فخرج الثائرون إلى فاس الجديدة وهاجموا الوزير هارون والحاجب شاويل وتم قتلهم والاستيلاء على أموالهما نكاية بما ارتكبا في حق الإسلام والمسلمين، وعلم السلطان عبد الحق بأبناء الثورة وكان في ذلك الوقت خارج مدينة فاس يؤدب بعض قبائل الهبط الثائرة (الزركشى، تاريخ الدولتين) فعاد إلى فاس مسرعا واضطرب حال المدينة وثار عليه الجند وأيقن بالنهاية وساروا به إلى فاس حتى إذا وصلوا إليها خرج اليه أهلها ومعهم سلطانهم الجديد الشريف أبو عبد الله الحفيد، ثم أخذت عتقه يوم الجمعة ٢٧ رمضان ٨٦٩هـ/١٤٦٥م. هذا الشريف الحفيد وكان يتولى أمر نقابة الأشراف بفاس فاستدعوه فحضر وكانت فترة حكمه منذ وفاة والده أبي سعيد عثمان ستة

وأربعين عاما وانقرضت بموته دولة بنى مرين في المغرب، وكما سبق القول فان رؤساء فاس كانوا قد اجتمعوا إلى الفقيه الوريثي وأجمعوا رايهم على مبايعة هذا الشريف الحفيد وكان تولى أمر نقابة الأشراف بفاس فاستدعوه فحضر وبايعوه في العشر الأواخر من رمضان عام ٨٦٩هـ وتم أمره، وكان مقتل عبد الحق نهاية الدولة المرينية في حكم المغرب وبداية ظهور كيان سياسي جديد ستؤول إليه مقاليد الأمور في البلاد في ظل الصراعات الدولية العنيفة التي كانت تعصف بالمغرب الأقصى وتقضى على إستقلاله وكيانه السياسي في خضم الصراعات الدولية العنيفة من الشرق والشمال وكل منها يتربص بالمغرب للانقضاض عليه .

الفصل الأول

بنو وطاس على مسرح الأحداث بالمغرب الأقصى
الأمير محمد الشيخ بن أبي زكريا بن زيان الوطاسي
٨٧٦ - ٩١٠هـ / ١٤٧٢ - ١٥٠٤م

بمقتل عبد الحق بن أبي سعيد المريني عام ٨٦٩هـ آلت أمور فاس إلى الشريف أبي محمد عبد الله بن محمد الادريسي الذي ظل يحكم البلاد ويعاونه ابنه كوزير له وفي نفس الوقت فان بنى وطاس تمكنوا من استغلال الأحداث الجارية وقاموا بخلع الشريف أبي عبد الله عن الإمارة والإمامة في مدينة فاس عام ٨٧٥هـ بعد حكم دام ست سنوات في ظل الأشراف العلويين وكان الذي خلعه أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي لكن فترة حكم منصور الوطاسي هذا لم تدم الا عاما واحدا حيث انقض على الحكم محمد الشيخ بن أبي زكريا وزير عبد الحق المريني وقائده وأعلن نفسه سلطانا على المغرب منذ عام ٨٧٦هـ / ١٤٧٢م مؤسسا للأسرة الوطاسية بعد أن أخذ العرش لنفسه من ابن عمه وكان محمد الشيخ الوطاسي في ذلك الوقت يحكم مدينة أصيلا وكان شجاعا مقداما وأحسن في نفسه بالقدرة على الاستيلاء على كرسى العرش الفاسي والعمل على تنحية الشريف أبي عبد الله عنها لاسيما وأن كلمة الناس في المدينة لم تكن قد اتفقت بعد عليه وكان الناس يعيشون على افتراق كلمتهم بين مؤيد ومعارض فجمع محمد الشيخ جندا كثيفا وزحف إلى فاس يريد السيطرة عليها فبرز اليه الشريف بقوات والتقوا بالقرب من مدينة مكناسة ووقعت بينهما حرب عظيمة دارت الدائرة فيها على الشيخ الوطاسي فأضطر إلى العودة إلى أصيلا، لكنه عاود الكرة مرة ثانية وجمع جندا آخر وزاد في العدد والعدة وزحف به إلى فاس العاصمة وحاصرها نحو عامين (حولين كاملين) والشريف محاصر فيها مع أرباب

دولته، لكن أثناء فترة الحصار وصلت اليه الأخبار بتقدم قوات برتغالية واستيلائها على مدينة أصيلا وعلى بيت ماله وأهله وأولاده فرفع الحصار عن فاس ورجع مسرعا إلى أصيلا يريد استعادتها من أيدي البرتغاليين وحاصرها حصارا شديدا لكنها امتنعت عليه فاضطر إلى عقد هدنة مع البرتغال لاسيما أنه لم يستطيع دخول أصيلا ولا السيطرة على قاس وعاد مسرعا إلى فاس وضيق الحصار على الشريف ومن معه فخرج فارا بنفسه وسلمها اليه فدخلها محمد الشيخ وتمت بيعته وتفرغ لقتال القبائل التي تعيش باحواز فاس وغيرها من المدن فدخلت جميعا في طاعته ومن ثم بدا يمارس مسئولياته كأمر للبلاد هذا ما رواه السلاوي، ولكنه هو الذي يذكر بنفسه إن الذي خلع الشريف في فاس أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي، لكن ربما يكون ابن منصور الوطاسي كان أحد قواد محمد الشيخ الوطاسي وأنه ربما كان قد دخل المدينة قبل ابن عمه محمد الشيخ ثم سلم مقاليد الأمور له وفي حقيقة الأمر فانه إذا كان الوطاسيون قد نجحوا في القضاء على دولة الأشراف التي قادها الوريثاكلي وتعين أبي عبد الله الشريف الجوطي إماما وحاكمها لفاس وعزلهما له والقضاء على كيان الأشراف في ذلك الوقت وعودة لنفوذهم المفقود أثر الهزيمة التي قام بها السلطان عبد الحق المريني فان ذلك لم يكن الا هدنة مؤقتة لكي يتحرك الاشراف قادمين من الجنوب لكي تكون نهاية دولة بني وطاس على أيديهم. وهكذا تصاعد دور الوطاسيين بعد أن كانوا وزراء أوصياء على أبناء عمومتهم أبناء الأسرة المرينية وهكذا ظهر المغرب الوطاسي على انقاض المغرب المريني .

على أن المغرب لم يلبث بعد قليل أن قتل سلطانه عبد الحق المريني في رمضان ٨٦٩هـ مايو ١٤٦٥م وبموته انقرضت الدولة المرينية في المغرب وقام نزاع على الملك بين الشريف الادريسي محمد بن علي وبين قائد مدينة أصيلا محمد الشيخ الوطاسي

وهو ابن الوزير السابق أبي زكريا وامتد الصراع بين الطرفين سبع سنوات (١٤٦٥ - ١٤٧٢م) اضطر خلالها محمد الشيخ إلى ترك أصيلا ومحاصرة خصمه في فاس وانتهاز ملك البرتغال الفونسو الخامس هذه الفرصة وهاجم مدينة أصيلا بأسطول ضخم مكون من ٤٧٧ سفينة بها ثلاثون ألف مقاتل وذلك في أغسطس ١٤٧١م وبعد مقاومة عنيفة تمكن من احتلال المدينة وأسرع عدد كبير من أهلها من بينهم زوجات وابن محمد الشيخ كانوا معتصمين بحصن المدينة، وعندما علم محمد الشيخ بأخبار هذه الحملة ترك جزءا من جيشه لمواصلة حصار فاس واتجه نحو أصيلا لنجدتها ولكنه ما كاد يصل إلى مدينة النصر الكبير حتى بلغته الأنباء بسقوط أصيلا ووقوع أسرته في أسر البرتغاليين. ورأى محمد الشيخ أن الاتفاق مع ملك البرتغال هو الحل الوحيد للخروج من هذه الأزمة والتفرغ لمحاربة خصمه في فاس على الرغم من أن نصوص هذه الاتفاقية لم نصل اليها الا انه يوجد في المدونة الخاصة بقصر الفونسو الخامس بعض شروطها وهي تنص على أن تمتد الهدنة عشرين سنة وأن يحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلا (أصيلا) وأن يطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته

على أن ملك البرتغال رغم شروط هذه الهدنة اتجه بقواته وأساطيله نحو مدينة طنجة التي خاف سكانها أن يكون مصيرهم مثل مصير سكان أصيلا فأخذوا في الجلاء عنها مما سهل على الجيش البرتغالي مهمة احتلالها في أغسطس ١٤٧١/٢٩م بعد خمسة أيام من احتلال أصيلا. وكان محمد الشيخ في ذلك الوقت منهمكا في محاربة خصمه الشريف محمد بفاس ثم انتهى الأمر بفرار هذا الأخير إلى تونس بعد أن نخلي عنه أتباعه ودخل محمد الشيخ العاصمة فاس عام ٨٧٧هـ/١٤٧٢م مؤسسا بذلك دولة بني وطاس .

ولقد كان الوطاسيون فرعا من بنى مرين من القبائل الزيانية وكانوا ينزلون فى ضواحي بلاد الريف حيث آلت اليهم جباية أمصاره ورعاياه وكانوا أول الأمر يحكمون بلاد المغرب الأقصى فى مدينة بنى مرين وعندما ضعف أمر بنى مرين كما سبق القول سيطر أبو زكريا يحيى بن أبى زيان الوطاسى وحاشيته على الأمير الصغير عبد الحق بن أبى سعيد بن عثمان المرينى وخلعه من الوزارة أبنائه وعندما انتهى أمر بنى مرين عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م وصار السلطان الفعلى فى شمال المغرب الأقصى بيد الجماعات الصوفية أقاموا أميرا من أبناء الادارة لكن الوطاسيين أصبحوا أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد عام ٨٧٦هـ/١٤٧٢م .

وهكذا انتقلت مقاليد الأمور إلى دولة جديدة باسم أسرة جديدة هى الأسرة الوطاسية لكنها لم تكن تملك مقومات الأسرة القوية ولا القدرة على تجديد الدماء فى كيان الدولة لاسيما أن هناك أحداثا كثيرة فى ذلك الوقت تجرى على أرض المغرب لم تكن لتواكب حركة السير البطئ والمتهاون مع الأسرة الوطاسية والتي كانت تعتقد أن العامل الدينى والقومى القبلى والاقتصادى هو أساس بناء الدولة ومن هنا فإن كل الارهاصات التى كانت تحيط بها لم تكن تقدر لهذا الكيان الهش الذى استغل ظروفه ليقوم كيانا سرعان ما تلاحقه الأحداث لكى ينذر بسقوط الإمارة الوطاسية البالية لعدم قدرتها على مواجهة الصدمات الخارجية وإن كان محمد الشيخ الوطاسى قد حاول بقدر ما سمحت له امكانيات الدولة إخضاع القبائل المحيطة بفاس لاسيما أن محمد الشيخ كان قد عقد إتفاقا مع البرتغاليين ولم تكن هناك دوافع إسلامية دينية وراء الحركة السياسية للاستيلاء على السلطة فى فاس وخلع الاشراف ولاسيما ان محمد الشيخ هذا مؤسس الأسرة الوطاسية طور علاقاته مع القوى الاستعمارية المحتلة لبلاده ولم يحاول ان يستغل المبررات التاريخية فى العلاقات الخارجية والذى كان الدور المرينى قد رسمه

لنفسه بالدخول فى حركة الجهاد الإسلامى ضد القوى الابيرية التى كانت تحاول كبت النفس الأخير لدولة بنى الأحمر فى غرناطة واتخذت لها مواقع على أرض المغرب ومن هنا فقد بات القضاء على الأسرة الوطاسية امرا واردا لاسيما انه لم يكن لها أدنى مضمون ترتكز عليه مثل الفاطميين والمرابطين أو الموحدين أو بنى مرين أو غيرها من الأسر التى ظهرت على أرض المغرب لكن هناك آراء تدافع عن محمد الشيخ الذى أسس الحكم الوطاسى عام ١٤٧٢م وذلك انه كان مضطرا ان يتفق مع البرتغاليين ويترك لهم أصيلا من أجل الاستيلاء على فاس فى العام التالى حيث أنه ترك أصيلة للبرتغاليين عام ١٣٧١م حيث بدأ تاريخ الدولة الوطاسية التى سيكون سقوطها على أيدى الأشراف السعديين لكن بدأ من هذا التاريخ تصاعد التوسع البرتغالى ومحاولة الوجود العثمانى التركى للرد على هذا التوسع ومحاولة السيطرة على المغرب وقد ظل الأمير الوطاسى محمد الشيخ يحكم البلاد فى ظل هذه الصراعات حتى عام ١٩١٠هـ/١٥٠٤م بعد أن حكم البلاد ما يقرب من اثنين وثلاثين عاما كانت حافلة بالأحداث والصراعات الدامية على أرض المغرب وكان على محمد الشيخ أن يكسب شرعية لحكمه فقام عام ١٤٧٢م بالدخول فى طاعة الخلافة الحفصية والدعاء للخلفاء الحفصيين وتقبل فكرة الدخول فى طاعة الخلافة الحفصية رغم ما كان يتهدد هذه الخلافة من تفكك وتدهور وقد قامت الدولة الوطاسية منذ نشأتها وهى ضعيفة وعاجزة عن حماية البلاد وصيانة الامن والدفاع عن البلاد ضد الفرنجة الأسبان والبرتغاليين المحتلين وقد أدى هذا إلى انتشار الفوضى والفتن وإلى انقسام المغرب بحيث صار بنو وطاس يحكمون فى عاصمتهم فاس وهناك العديد من الموانى المحتلة من قبل الأسبان والبرتغاليين وكذلك ظهرت فى البلاد أمارات شبه مستقلة وإن كانت تخضع اسميا للدولة الوطاسية مثل أمارة شفاوتين والقصر الكبير وتطوان والتى ظهرت ككيان قوى النشأة بسبب مجاهدة المحتلين الأسبان والبرتغال الذين سيطروا على العديد من موانى

وسواحل المغرب وقد ظهرت هذه الإمارات والمدن بسبب ضعف وقيادة محمد الشيخ الوطاسي وعدم قدرته على مجابهة الخطر الذي بات يتهدد أرجاء المغرب من قبل القوى الصليبية المحتلة، وحيث قامت هذه الإمارات والمدن شبه المستقلة بدور كبير في صد المحتلين وكسر شوكتهم .

كما أن عصر الوطاسيين قد شهد ظهور بعض الإمارات في جنوب وشرق المغرب كأمرأ هنتانة وإمارة أسرة هنتانة في مراكش تنتمي إلى قبائل مصمودة البربرية وقد امتد نفوذها على جنوب بلاد المغرب في البلاد الواقعة من مراكش حيث سواحل البحر المحيط (المحيط الأطلسي)، وقد كانوا في منافسة شديدة مع الوطاسيين من الشمال إلا أنهم كانوا يخضعون ويعترفون بالولاء لحكام فاس الوطاسيين وكانت تشاركهم في ذلك أغلب الإمارات والوحدات المستقلة بالمغرب والذين كانت عاصمتهم مراكش والذين يعترفون اسمياً بالإمارة الوطاسية إلى فاس ويرسلون لها الأموال كل عام اتقاء لشرها. وكذلك إمارة دريد التي تقع في شرق المغرب وكانت هذه الإمارة لا تزال تخضع لحكم بنى مرين الفارين من وجه الوطاسيين منذ دخولهم فاس وقد ساعد على بقاء هذه الإمارة مستقلة عن نفوذ الوطاسيين أنها كانت بعيدة عن فاس العاصمة ولم تستطع قوات الوطاسيين أن تصل اليهم وتدخل في صراع مباشر معهم وكذلك بسبب ضعف حكم الوطاسيين بصفة عامة، بالإضافة إلى أن الأمراء المرينيين حكموا إمارة دريد ظلوا يتحينون الفرصة للقضاء على مغتصبي السلطة من أيديهم وظلوا على هذه الحال إلى أن سقطت دولتهم وإمارتهم بأيدي الاشراف السعديين، إضافة إلى وجود بعض القلاع والحصون ومراكز الاحتلال البرتغالي والأسباني التي كانت تمتد على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط وكانت هذه الموانئ والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية البرتغالية والأسبانية في طريقها إلى الهند والشرق الأقصى

كما أن هذه المراكز كانت نقاطاً للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب وقد امتد نفوذ هذه المراكز إلى القبائل والأهالي الذين كانوا يتعاملون معهم وكانوا يقبلون الخضوع لهم .

وهكذا فانه كان من الطبيعي أن يكون هذا التفكك والانحلال السياسي الذي عانت منه المغرب قد أطمع المحتلين الفرنجة للاتجاه إلى مزيد من توطيد أقدامهم والاستيلاء على أرض المغرب وسواحل ذلك لان المغرب الأقصى وقد انهكته الفتن والحروب الداخلية وضعف حكام بنى وطاس الذين استولوا على السلطة من أشراف فاس ولذا فانه كان يعاني من حكومة ضعيفة في فاس وتفكك سياسي وضعف اقتصادي وانهيار الوحدة السياسية بسبب قيام الوحدات والإمارات المستقلة كما أنه كان يعاني من حالة كساد وضعف اقتصادي بسبب الحصار وفرض السيادة الأسبانية والبرتغالية ومنع تعامل الدول الأوروبية مع داخل البلاد ومن هنا نشأ تخلف اجتماعي بسبب سيادة الروح القبلية في البلاد، كما أن الكساد والفكر والجمود الثقافي وحالة الانهيار الحضاري وبأس العامة من أحوال الأمراء لاسيما وأن بلادهم لا ينفك يوم إلا وتقع مدينة جديدة أو ميناء ساحلي جديد في أيدي المحتل الغاضب الأوروبي القادم من شبه جزيرة إيبيريا وغلب الجهل وتفشت الأوبئة والأمراض والسذاجة التي غلبت على عقول العامة حيث كان المغرب كله مهدداً بالسقوط تحت أقدام القوى الأوروبية المحتلة نتيجة لغيبة القوى الوطنية المسلحة بالجهاد الإسلامي والقادرة بما لديها من إمكانيات في الوقوف في وجهه القوى الخارجية وعدم وجود جبهة قوية متماسكة تستطيع أن تقود البلاد ضد هذه القوى .

وهكذا فان فترة تولي الأمير الوطاسي محمد الشيخ السلطة في شمال المغرب الأقصى مؤسساً للأسرة الوطاسية الذي يذكر عنها الدكتور حسين مؤنس أنهم كانوا

أصحاب سلطة اسمية في فاس ولم يكن بيدهم في حقيقة الأمر شيء من السلطة أو السلطان ويذكر كذلك عنهم أن الوطاسيين لم يكونوا في حقيقة الأمر أسرة حاكمة بالمعنى الصحيح لكن فترة وجودهم على قمة الجهاز السياسي الحاكم في فاس قد شهدت أكبر وأخطر تطور في الأوضاع السياسية في المغرب الأقصى ذلك لأنه خلال تلك الحقبة وهي الربع الأخير من القرن التاسع الهجري، والخامس عشر الميلادي كانت أوراق اللعبة السياسية على أرض المغرب غير واضحة فقد كانت الكيانات السياسية متداخلة والقوى السياسية تتصارع على أرض المغرب لاسيما بعد التواجد التركي العثماني في المغربية الأوسط والأدنى وماتلا ذلك من أحداث بالنسبة للخلافة الحفصية في تونس وبنى زياد في تلمسان وكيف توطد النفوذ التركي العثماني والصراع مع القوى الأسبانية من أجل القضاء على نفوذها في السواحل المغربية وما تم بعد إسقاط هاتين الدولتين وما آل إليه أمر بنى وطاس من ضعف وعجزهم من مواجهته التحديات الخارجية ورد فعل القوى الأيبيرية واتخاذهم مواقع متعددة توطئة للقضاء النهائي على الوجود الوطاسي في المغرب .

وهكذا كانت الدولة الوطاسية تعيش كهولتها منذ نشأتها وتشهد سقوط إمارتها كل يوم بعد أن عاشت حالة التشرذم حتى نهاية نفوذها فهي لم يكن لها أمر من تحرر الثغور التي يسيطر عليها الأسبان والبرتغال والذين كانوا قد وضعوا أيديهم على العديد من المدن في عهد بنى مرين وتوسعوا في بسط النفوذ أيام حكم محمد الشيخ الوطاسي حيث سقطت بعض المدن التي نشير إليها في فصل لاحق عند الحديث عن الوجود الإستعماري الأسباني البرتغالي في المغرب الأقصى .

وهكذا دامت فترة حكم الأمير محمد الشيخ الوطاسي اثنين وثلاثين عاما لم يستطع فيها التوسع الأيبيري أن يخضع البلاد في كيان سياسي واحد وكانت الأحوال تنذر بالخطر لاسيما ان بلاد المغرب كانت تموج بتيارات فكرية ستلعب دورها في

حركة الجهاد الإسلامي هي فترات تاريخية لاحقة .

أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي الشهير بالبرتغالي

٩١٠ هـ - ١٥٠٤ م / ٩٣٢ هـ - ١٥٢٥ م

آلت إليه الأمور بعد وفاة أبيه مؤسس الأسرة الوطاسية حيث كان أكبر إخوته وكان البرتغاليون قد أسروه وهو صغير عندما استولوا على أصيلا عام ١٤٧١ م وتم إطلاق سراحه مع إخوته بعد ان قام والده بعقد هدنة مع البرتغاليين .

وفي عهده كانت الطرق الصوفية قد بدأت تمارس دورها وتحاول أن تجد لها مجالا في العمل السياسي بعد ان زاد نفوذها وتجمع الناس حولها وفي عهده ظهر اسم سيدى عبد الله الغزوني الذي وفد إلى مراكش من الشمال لكي يتولى رئاسة الطريقة الجزولية وكانت له مساجلات وجولات مع السلطان أبي عبد الله البرتغالي الذي أمر بالقبض عليه سبب وشاية الشيخ أبي عبد الله محمد بن غازي .

وكان السلطان أبو عبد الله البرتغالي قد كلف الحسن الوزان ليو الأفريقي عام ١٥١٠ - ١٥١٧ م القيام برحلات في الممالك الإسلامية المجاورة وخاصة جنوب الصحراء وقد أخطأ يوفل في كتابة (الممالك الإسلامية وتجارة الذهب) في القول أن الذى كلف ليو الأفريقي عام ١٥١٠ م بالقيام برحلات إلى الممالك الإسلامية المجاورة هو الشريف السعدى محمد القائم بأمر الله ولكن حقيقة الأمر أن الذى كلفه بهذا العمل هو الشيخ الوطاسي الشهير بالبرتغالي .

وفي عهد النفوذ الإستعماري الأسباني البرتغالي زيادة كبيرة ذلك لان الأسبان حاولوا عام ١٥٠٥ م احتلال ساحل اغادير على المحيط الأطلسي، كذلك فان البرتغاليين نجحوا في نفس العام ١٥٠٥ م في احتلال نفس المنطقة، ثم حدث اتفاق

بين أسبانيا والبرتغال أعطت أسبانيا بمقتضاة الحق للبرتغال فى التوسع فى مناطق سواحل المغرب الجنوبية الأطلسية فى مقابل اعتراف البرتغال لأسبانيا بمشروعيتها فى التوسع فى الجزء الشرقى على ساحل المغرب الشمالى فى المنطقة الممتدة من باديس حتى مليلة وربما يكون فشل البرتغال فى احتلال المدن الساحلية الشمالية التى تقع تحت سيادة سلطنة فاس هو الذى حدا بها إلى الاتجاه إلى البلاد الجنوبية أو مملكة مراكش ولكن عن طريق خلق العطاء الاتجاه إلى البلاد الجنوبية أو مملكة مراكش ولكن عن طريق خلق العملاء والذين قدم لهم خدمات جليلة .

والجدير بالذكر أن البرتغاليين نزلوا عام ١٥٠٤م على مقربة من ميناء أزموور وهو ميناء كبير على المحيط الأطلسى ولكن لم يتم لهم احتلاله الا عام ١٥١٣ كما استولوا عام ١٥٠٧م على ميناء اغادير واسفى، ولما قام البرتغاليون باحتلال أزموور توغلوا منه جنوبا لفرض سيطرتهم على مازكان، وقد حاول البرتغاليون التقرب إلى حاكم مراكش فى ذلك الوقت الأمير الناصر على الهنتانى لاستمالته إلى صفوفهم وتحالفهم معهم ولكنهم فشلوا وفى نفس الوقت وصلت الأوامر من حكومة البرتغال فى لشيوتة إلى قواتها المرابطة فى اسفى وازموور ان تتهاى لاحتلال مراكش وفى مطلع عام ١٥١٥م كانت مراكش محاصرة بالقوات البرتغالية، لكن المحاصرة فشلت بسبب المساعدة التى قدمها حاكم فاس أبو عبد الله محمد البرتغالى الوطاسى للمجاهدين وكان فشل احتلال البرتغال لمراكش وافعالها للاتجاه إلى محاربة القوى الاسلامية الكبرى فى فاس الممثلة فى قوات الوطاسى والقضاء على نفوذ وسلطان الوطاسين فى فاس، فأرسلوا اسطولا عظيما إلى ميناء المعمورة فى يناير ١٥١٥م ولكن اجبروا على الانسحاب فى نفس السنة ونتيجة لفشل البرتغاليين فى احتلال مراكش والمعمورة فانهم اتجهوا إلى محاولة ايجاد الاعوان والعملاء مثل اولاد عمران والقواد مثل يحيى بن أوتاقوت ومع

ذلك لم تسقط المعمورة فى أيديهم الا بعد مقاومة شعبية عنيفة اواخر عام ١٥١٥م وادى تقاعس بعض قبائل الجنوب وعدم مشاركتها فى الدفاع عن هذه المدن إلى ان تسقط المعمورة فى أيدي القوات البرتغالية وضعف حركة المقاومة، كذلك؛ تحالف الاسبان مع الوطاسيين .

وهكذا شهدت فترة حكم السلطان محمد البرتغالى تدهور الاوضاع فى المغرب الاقصى وانقسام البلاد من طرابلس شرقا حتى رباط الفتح غربا فقد تداعى الحفصيون فى تونس وبنى زيان فى تلمسان إلى التدهور والسقوط واستبد الاعراب وزعماء القبائل بالداخل وانتقلت مدن الساحل فى المغرب الاقصى إلى ايدى اعداء الاسلام وكان هناك صراع داخلى عنيف يدور بين بنى وطاس والثائرين عليهم لاسيما ان الوطاسيين ادركوا منذ اليوم الاول لتولى الحكم ان مقاتلة المسيحيين من أسباب تدعيم حكمهم بالمغرب غير ان الاحداث المتوالية التى حلت بمسلمى الاندلس بعد النكسة عام ١٤٩٢م وطرد المسلمين من الاندلس نهائيا وعدم قيام الامير محمد الشيخ بن ابى زكريا الوطاسى امير فاس فى ذلك الوقت بمساعدتهم وانجادهم نظرا للطبيعة الانعزالية فى تركية ضد الامير وعدم وجود النخوة والنجدة الاسلامية فقد اثارت هذه المواقف استياء الشعب المغربى واهاليه ضد نظام الحكم الجديد بالرغم من المحاولات التى يذلها الامير محمد البرتغالى هذا ابن محمد الشيخ لمقاومة المسلمين فى شمال البلاد .

وقد دارت مراسلات بين السلطان الوطاسى والملك البرتغالى يطلب فيها السلطان أبو عبد الله البرتغالى وقف تعدى حاكم البرتغال فى المغرب مانويل ومنعه من التعرض لسفن الوطاسين التى يرسلها السلطان الوطاسى إلى الجزائر ثم إلى تونس ولكن هذه المراسلات لم تؤد إلى ما كان يطلبه أبو عبد الله البرتغالى وقد دارت هذه المراسلات عام ١٥١٤م/ ١٢٩٠هـ .

وازاء ضعف موقف الوطاسيين من الاطماع الايبيرية فان كيانهم السياسى من قبل الاهالى أصبح امرا مشكوكا فيه لاسيما أنه لم يعد هناك تأييد قبلى بعد أن تقلص دورهم فى المقاومة الجادة للخطر الصليبي فى الاندلس والذى ادى تخاذلهم فيه إلى سقوط غرناطة وضعف المقاومة على الارض المغربية، ومن ثم فقد بدأت المشاعر المغربية تبحث عمن ياخذ بيدها ويتفقد كرامة الوطن والاسلام من ازدياد الضغط الايبيرى على المدن الساحلية والتوسع للداخل فكان أن اتجهت إلى الوحدات السياسية الصغيرة بعد ان فقدوا أمالهم فى حاكم فاس فكانت الانظار إلى شمال البلاد حيث مدينة شفا وثن، بعد ان شاهدوا تفكك بلادهم واقتطاع اراضيها خلال الحكم الوطاسى وما اصاب البلاد من التدهور بحيث لم يبق فى ايدي الوطاسيين غير عاصمتهم فاس وبعض مدن المغرب التى تعد على اصابع اليد الواحدة فقد أصبح تغير الاوضاع والقيادة امرا ضروريا. فى هذه الظروف التى تجثم فيها القوى الايبيرية البرتغالية والاسبانية على ارض البلاد وفشلت القيادة الوطاسية فى مواجهه العدو التاريخى الذى خلص من تصفية المجتمع الاسلامى فى الاندلس فى الوقت الذى يعمل فيه المستعمر الايبيرى فى الهجوم على المجتمع الاسلامى المغربى ويواصل هجماته لاكثر من نصف قرن وعجزت الدولة الوطاسية فى اتخاذ موقف الدفاع الذى غلب الدولة المغربية فى الدفاع عن الكيان الاسلامى بعد أن سيطر البرتغاليون فقط على جملة مدن من البلاد بالمغرب الأقصى فيها ما بين سبتة والقصر وطنجة واصيلا وافقا (الدار البيضاء) والجديدة وحصن البريعة مازكان والعرائش واغادير واسفى والمعمورة (المهدية) وبالجملة فانه لم يبق من ثغور المغرب الاقصى بيد المسلمين الا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفوجى المسلمون بهذا التوسع البرتغالى حيث دهموا به فى بلادهم واستحوذوا على بلاد الهبط وضائقوا الاهالى حتى اضطر السكان إلى النزوح إلى الاطراف الداخلية والقرى النائية بعيدا عن السواحل .

فكان ان ظهرت الحركة السعدية التى ادرك الوطاسيون ان شعار الجهاد الاسلامى الذى رفعته هذه الحركة فى الجنوب قد انقلب إلى حركة سياسية تهدف إلى القضاء على ملكهم حيث سيتم فى النهاية القضاء على حكم الاسرة الوطاسية فعلا بعد الدخول إلى فاس، وفى بادئ الامر فان الحكام الوطاسيين أيدوا الدعوة السعدية وامامها القائم بأمر الله واعانوه وأرسلوا له من فاس بالمعدات والمؤن وساعدوه فى جهاده ضد البرتغاليين ولكن فى ذلك لم يكن يتبادر إلى فكر الامام القائم العمل على خلع السلطان الوطاسى فقد كانت الحركة السعدية لانزال تمر بمرحلة الدعوة والاستقطاب لقبائل المغرب وسكانها ومن هنا فان العلاقات السعدية الوطاسية فى ذلك الوقت كانت علاقات طيبة وحسنة وكان بنو وطاس يمدون أهل السوس بالمال والعتاد الحربى وتروى المصادر أن الشريفين احمد الاعرج واخاه محمد الشيخ لما خرجا للجهاد مع أهل السوس فبرزت جهودهما فى ميدان الجهاد ولما وفدا إلى فاس لدى السلطان محمد البرتغالى تلقاهما بالترحاب واقبل عليهما لتفوقهما فى الجهاد ضد الصليبين ومنحهما حاكم فاس عتادا وفيرا وخيلا كثيرة وعادا إلى بلاد السوس ثم عادا اليه فأعطاهما مثل ذلك ولما كثرت معاوكتهما ضد الايبيريين المحتلين وارتفعت رايات انتصارهما حتى صارت القبائل تقدم اليهما واخذت هذه القبائل تساعدتهما، حينئذ خلعا طاعة الوطاسى واعلنا ذلك ببلاد السوس ومهما تكن حقيقة الروايات السابقة فان دوام الحال من المحال فى العلاقات السياسية لاسيما بين كيان قد أصابه الوهن وكيان ناشئ من قلب الجنوب المغربى برفع لواء الجهاد الاسلامى وبحشد قواته لطرد الغاصب من أرضه المحتلة بالعتاد الحربى والعمل على انتهاء الاحتلال بالقوة العسكرية ورفض الاحتلال المباشر الذى سلمت به القيادة الوطاسية وباسم الجهاد الاسلامى واحياء الدولة الاسلامية تصاعدت القوة العسكرية للامامة والامارة السعدية ونمت قدراتها القتالية وبدأت تخطوا خطوات ناجحة فى تحرير بعض الموانئ الساحلية من قبضة الاسبان والبرتغال وبدأ

الانتصار الايبيري يضعف امام قوة الاسلام المتجددة واحياء حركة الجهاد الاسلامي يدعم الاسرة الشريفية وقبائل الجنوب المؤيدة لها بالدعم والمساندة بعد أن حرر السعديون بعض المعازل المغربية الاسلامية من القوات الايبيرية وما قام به الاخوان احمد الاعرج ومحمد الشيخ ونزعوها إلى بناء كيان سياسى ومن ومن كل هذا فان العلاقة لا بد أن تسوء بين الوطاسين والسعدين بعد أن وضحت النوايا وأحس الوطاسيون ان الكيان الجديد يستند إلى أسس ومبادئ ودعوة تختلف عما عليه حال حكام فاس .

ولقد كان من الطبيعى أن يحدث الصدام بين الطرفين وأن تنشأ الحروب والمعارك ولا بد أن يخلو الميدان لأحد منهما حتى يستطيع أن يمارس دوره وكانت كل الشواهد تشير إلى ان كل المعارك سوف تكون لصالح الامارة السعدية لأنها تسعى إلى توحيد المغرب وخوض هذه المعارك من اجل الحفاظ على وحدة المجتمع المغربى الذى تريد ان يتخلص المجتمع من أمراضه وتنمو الدولة صحيا وهى فضلا عن ذلك تقوم بعمل بطولى وقلب الاوضاع وجمع الشتات ونقل حركة التاريخ من الكهولة ورفض الهيمنة التاريخية التى تخارباها القوى الايبيرية على حساب بلدان المغرب الاسلامى وعودة تاريخ المغرب إلى الحيوية والتفتح وعودة الدولة إلى دولة جديدة تحمل شعار الشرافة القرشية النبوية العلوية الحسنية الهاشمية لكى يكتب لتاريخ المغرب الاسلامى بعد جديد فى معركة التاريخ وبمعنى آخر ممارسة الدور الدينى القرشى النبوى فى تاريخ البلاد وجعل عباءة الشرافة القرشية مرحلة تتواكب تحت هذه العبء التفاعلات المغربية حيث يتحول العامل الدينى إلى عامل تاريخى ويضم اليه العامل الاقتصادى والسياسى وتتكفل كل هذه العوامل فى احداث الدولة السعدية التى تحاول الوصول بالمغرب إلى لم شمله والدخول فى صراع حقيقى مع الوطاسيين وان يحدث الصدام وتحمل القيادة الشابة خسائر بشرية والكثير من المصاعب والوصول إلى نهاية المطاف فى اسقاط هذا الكيان

الوطاسى لاسيما ان الانظار كانت قد اتجهت إلى القائم بأمر الله الادريسى الحسنى الشريف والدكل من احمد الاعرج ومحمد الشيخ اللذين احزرا فى اقليم السوس انتصارات واسعة ضد البرتغاليين مما دفع الكثير من المغاربة إلى الالتفاف حولهما. لاسيما ان السعدين عملوا علانية على القضاء على الحكم الوطاسى وكذلك الوحدات الانفصالية الصغيرة فى البلاد ثم العمل على توسيع رقعة المغرب وتكوين دولة مغربية على طراز دول الموحدين وقبلهم المرابطين لاسيما وقد استجاب السعديون لرغبات القبائل والاهالى والمجاهدين وظهروا كقادة يلتحمون مع المشاعر الاسلامية ويذكرون روح الجهاد مختلفين كل الاختلاف عن الوطاسين وبعض رؤساء الامارات المحلية الذين قبلوا التحالف مع القوات الايبيرية البرتغالية أو الاسبانية فى سبيل الابقاء على مصالحهم الخاصة ومن هنا سوف يحدث التصادم الذى يقع نهاية للاسرة الوطاسية .

أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بن محمد بن الشيخ
آخر سلاطين بني وطاس

٩٣٢هـ - ٩٥٦هـ - ١٥٢٥ - ١٥٤٩م

آلت الأمور في بلاد المغرب الشمالي بعد وفاة محمد البرتغالي الوطاسي إلى أخيه أبي حسون بن محمد الشيخ لكنه لم يدم في تولي السلطة إلا شهرا قليلة إذ ثار عليه ابن أخيه أحمد بن أبي عبد الله وذلك بتأييد ابن الشريف مولاي إبراهيم أمير شرافة شغشاون حيث أنه أيد أحمد بن السلطان الوطاسي محمد البرتغالي في عام ١٥٢٦م ضد عمه أبي حسون، بل أنه لم يكتف بذلك بل قام بالزواج من ابنة محمد البرتغالي. ومن هنا عمل هؤلاء الأشياخ المحليين على مساعدة أسرة بني وطاس في الحكم حيث قام بين هذه الأسرة حاكم شغشاون بدور الوسيط والحاجز بين القوى البرتغالية والوطاسية حيث ارتضى شريف شغشاون أن يصل دوره السياسي والحربي الذي كان يرفع لواء الجهاد الاسلامي بأن يلعب لعبة التوازن إلى درجة بلغت حسن التفاهم مع البرتغال في سبته واصيلة والعراش وكذلك علاقات طيبة مع الوطاسيين في فاس.

كذلك فإن مولاي إبراهيم الشريف قام تحت ضغط المشاعر الاسلامية بالعمل تحت راية الجهاد الاسلامي واعلن في اعوام ١٥٢٣، ١٥٢٥م جهادة وهجومه على اصيلة ومحاولة انتزاعها من ايدي البرتغاليين، بل ان دور هذا الشريف قد تجاوز حدود امارة شغشاون إلى حد أنه في مجرد الاحداث في تاريخ المغرب الوطاس قد شغل منصب الوزير بل قام مقام الوزير للسلطان أحمد الوطاس، بل ان حكم الوطاسيين قد تضاعف إلى جانبه حيث انه اقام اقامة دائمة في فاس وترك اخاه مولاي محمد بن علي يتولى حكم امارة شغشاون وشرافتها وذلك حتى موت مولاي إبراهيم على عام ١٥٣٩م.

ولقد كانت السلطة الحقيقية للسلطنة الوطاسية في يد مولاي إبراهيم ابن علي إلى حد أن نفوذه قد زاد على نفوذ السلطان بحيث اعتبر الايبيريون (البرتغال والاسبان) انه السلطان الحقيقي للبلاد وعولت عليه السياسة البرتغالية الكثير من الامل وذهبت من اجل هذا إلى اصدار اوامر بضرورة مراعاة مشاعر الدين الاسلامي لدى رجل الدين المسيحي عند زيارتهم للمغرب.

بل ان مولاي إبراهيم بن علي وزير السلطان أحمد الوطاس قد لعب دورا كبيرا في توقيع معاهدة عام ١٣٥٨م بين سلطان فاس السلطان أحمد الوطاس وبين جان الثالث ملك البرتغال وتلخص بنود هذه المعاهدة التي تعطي صورة واضحة عن طبيعة التطور الذي طرأ على العلاقات البرتغالية الوطاسية ومدى تحكم القوى الايبيرية في السياسة الوطاسية مما يكون له اثر بالغ في تحريك القوات السعدية المجاهدة في محاولة منها للقضاء على السلطة للوطاسية بعد ان ثبت تعاونها الفعلي مع البرتغاليين بتوقيع هذه المعاهدة ولقد نصت هذه المعاهدة على ان يستمر سريان هذه المعاهدة احد عشر عاما تنتهي في عام ١٥٤٩م. والاعتراف بان البرتغال ليس لها الا الحصون والمدن التي تحتلها مثل طنجة وسبتة والقصر الصغير وأصيلا.

أما المغاربة الذين يقطنون خارج هذه المدن والموانئ ويعيشون بجوارها فانهم يخضعون لسلطة وسلطان امير فاس. كما انه يمكن لهؤلاء الرعايا التنقل في حرية في الاماكن المذكورة، كما نصت الاتفاقية على تحريم الاتجار في الاسلحة وعدد من السلع مع الاتراك والفرنسيين اذا ما حدث ورست على ارض برتغالية (لاحظ هنا الديار الاسلامية المغربية صارت ارضا برتغالية) سفن تركية أو فرنسية أو أى سفن مسيحية غير اسبانية أو برتغالية بغرض التعامل التجاري مع المغاربة، فان البرتغاليين لن يسمحوا بالشراء منها وبالمثل لن يسمح للمغاربة بالتعامل أو الشراء مع المسيحيين او الاتراك

وكذلك تتوقف الغزوات من جانب الطرفين ويتم مناهضتها كى لا يتاح لقوى العدو مهاجمة احدهما وقد استخدم البرتغاليون اسلوب المهادنة وكسب الصداقة فى تعاملهم مع شريف شنشاون ومع السلطان الفاسى الوطاسى وذلك للدور الذى قام به حاكم اصيللة البرتغالى لكسب ود الشريف وبذل كل ما فى وسعه الحيلولة دون محاربتة، بل ان التعاون قد امتد بين الطرفين إلى حد استخدام الاطباء البرتغاليين فى علاج بنت السلطان محمد البرتغالى الوطاسى زوجة مولاى ابراهيم بن على الشريف .

ولقد عم السخط ارجاء المغرب من جراء هذه التصرفات من قبل اشراف شنشاون وحكام فاس الوطاسية مما دفع محمد الناصر المتتاني امير مراكش ان يرسل الامير محمد الاعرج واخاه محمد الشيخ بالدخول فى طاعتهم والثورة على الحكم الوطاسى بعد ان كان امراء هنتاة المصمودون ناقلين على الحكم الوطاسى ومن هنا لبي السعديان دعوة امراء مراكش المصمودين ولم ياتى عام ٩٣٠هـ حتى دخل الامير السعدى مدينة مراكش وجعلها مركز القيادة بنطلق منها إلى سائر البلاد المغربية وباستقرار الامراء السعديين فى مراكش ايقن السلطان احمد الوطاسى ان السعديين لم يكن قصدهم الجهاد بل كان قصدهم القضاء على مملكة فاس وتأسيس دولة لهم فى المغرب مستغلين ظروف البلاد والاحتلال الابيرى وتزعيمهم حركة الجهاد المقدس ضد المحتل الاوربى .

غير ان السعديين إلى عام ٩٣٦هـ لم يكونوا فى امارة مراكش والسوس سوى امارة تتمتع بالولاء الاسمى للسيادة الوطاسية فى فاس حيث انهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت قد وضعوا امام نظرهم تكوين الدولة المغربية الكبرى الشمولية التى عرفها المغرب فى عصور سابقة ذلك لانشغال الامارة السعدية منذ دخولها مراكش ١٥٢٠م / ٩٢٦هـ بمشكلات علاقات المحلية مع بلاد الجنوب وامارات السوس التى تابى الخضوع لامارة السعديين الامر الذى شجع البرتغاليين على الخروج على سياستهم

الاستراتيجية فى التوسع وهى سياسة الالتزام بالسيطرة على القواعد الساحلية والموانئ بعد ما وصات اليهم الاوامر من البرتغال بالعمل والتحرك للداخل لاحتلال مراكش فى عام ١٥١٥م، وكان البرتغاليون قد نجحوا فى عام ١٥١٢م فى بسط نفوذهم السياسى بين القبائل فى اقليم السوس حتى دانت لهم بالخضوع قبيلة اولاد مطاوع قرب مدينة مراكش بعد ان فقدت هذه القبائل الحماية التى كانت توفرها لها قبيلة هنتانة التى كانت تحكم فى مراكش وقبل أن يثبت السعديون مقدرتهم على تحمل عبء السيادة على البلاد ورأى البرتغاليون فى أشياخ هنتانة المصامدة ملوك مراكش طوال القرن الخامس عشر الميلادى فرصة لبسط سلطانهم على المدينة وانتزاعها من أيديهم حيث ظلت السيادة إلى هنتانة على القبائل فى التلال المحيطة ومع ذلك لم تتعد سلطة سلطان مراكش من أشياخ هنتانة حدود المدينة واحوازا وصارت له السيادة الاسمية حتى دوکالة عندما كانت قبائل هذا السهل الساحلى تتجه بأنظارها إلى قبائل مراكش المحابة أثناء توسع البرتغال على الساحل الاطلسى، لكن الحملة البرتغالية التى كان قوامها ثلاثة آلاف جندى قد فشلت فى احتلال مراكش، مما دفع الامير احمد الاعرج السعدى إلى محاولة الاستيلاء على المدينة لرفع مكانته فى بلاد المغرب ولاسيما اهل السوس، وفى عام ١٥١٨ اغتيل يحيى ابن تعافقت الحليف المغربى البرتغاليين وواصل أبناء الشريف السعدى هجومهم على رجاله وفى هعام ١٥١١، ١٥٢٠م تمكن أبناء الشريف من دخول مراكش دون قتال بعد أن هجرها جانب كبير من أهلها من جراء ظروف المجاعة .

وتزوج احمد الاعرج من ابنة الامير محمد بن ناصر بوشتنوف والى مراكش ثم نقل رفات الشيخ الجزولى مؤسس الطريقة الجزولية فى عام ١٥٢٤م وفى حقيقة الامر فان مجئ السعديين برفات الشيخ الجزولى إلى مراكش كانت البداية الحققة للعصر

السعدى وبهاتين الخطوتين ضمن تأييد الاسرة الشرعية الهنتانية المالكة فى مراكش واستقطاب انصار الجزولية، لكن رغم ذلك فلم يخل الامر من محاولة لاقصاء السعدين عن مراكش بعد شهور قليلة من ذهاب احمد الأعرج لاقتسام الخراج مع أخيه محمد الشيخ فى بلاد السوس حيث حاول حاكم مراكش السابق استردادها لكنه سرعان ما اذعن من جديد ودخل فى طاعة روج ابنته بعد ان عاد اليها بقواته فى عام ١٥٢٤، وازاء الدخول الثانى فان السلطان الوطاسى أبو العباسى أحمد تأهب لمحاربة السعدين فى المناطق الشمالية وكان على السلطان الوطاسى ان يتجه إلى مراكش لانتزاعها من ايدى السعدين فلما أحس احمد الاعرج بنية الوطاسى ورأى انه لا طاقة له بمقاتلة قوات حاكم فاس فانه حصن المدينة وشحن حصونها بالاسلحة وملأها بكل ما تحتاج اليه المدينة وقت الحصار وزحف الوطاسى إلى مراكش وحاصرها حصارا شديدا لكن اثناء الحصار وردت انباء للعباس احمد بان بعض ابناء عمه قاموا عليه بثورة فى فاس فارتحل عائدا إلى مراكش، ويعد هذا الحصار الطويل لم تمض شهور معدودة حتى قضى الاشراف السعديون على الامير الهنتاتى ابى شنشوف) مقتولا بالسهم لانهم ربما احسوا فيه رغبة للخضوع للسلطان الوطاسى وبذلك صار احمد الاعراج السعدى حاكما وحيدا وسيدا لمراكش وتلقب بالامير واختار اخاه محمد الشيخ خليفه له فى حكم بلاد السوس .

وكان على السلطان احمد الوطاسى ان يجعل هدفه الاول محاربة الاشراف السعدين الذين يكادون ينزعون منه ملكه وملك اجداده ومن هنا فقد وقعت بين الطرفين حروب جسيمة كان النصر فيها متبادلا بين الطرفين لكن السلطان احمد الوطاسى لم يستطع الدخول إلى مراكش وانتزاعها من ايدى السعدين فتركها لهم، ومن ذلك فقد صارت مراكش حاضرة الامارة السعدية الشريفة، وازاء عدم قدرة السلطان

الوطاسى على السيطرة على مراكش فقد سعى الاخوان السعديان إلى دخول مراكش للمرة الثانية إلى كسب رضى السلطان الوطاسى وارسلوا إلى فاس مبعوثا من قبلهما للتعبير عن ولاء التبعية والبيعة للسلطان الوطاسى وكان هذا الاسلوب الماكر الذى اتبعه احمد الاعرج فى رسالة مع مبعوثه إلى السلطان الوطاسى يقول: ما أنا الا واحد من عمالك على هذه المدينة وما كان يعطيه أهل هذه البلاد كل عام ابذله لك مضاعف) وسواء أكان ذلك صدقا ام باطلا لكن هذا الاسلوب رأى فيه السلطان ابو العباس احمد نوعا من الخداع والتمويه فسارع إلى حصار مراكش .

وقام على حصارها فى وقت كانت فيه المدينة تعاني من آثار سيول مدمرة لامطار هذا العام ٩٣٣هـ / ١٥٢٧م ولم تسقط المدينة فى ايدى الوطاسين بسبب صمود أهل مراكش ومساندة الشيخ الغزولى للسعدين وكان الشيخ الغزنونى (عبد الله) شيخ الطريقة الجزولية فى مراكش وخليفة الشيخ عبد العزيز بن عبد الحق التباع الذى خلف الشيخ محمد الجزولى فى شياخه الطريقة والذى احضر رفاقه احمد الاعرج ودفنه فى مراكش، ومن هنا قام رجال الطريقة الجزولية بمساندة ومساعدة السعديين على يد الشيخ عبد الله الغزنونى وأنصاره مما اضطر الوطاسى إلى رفع الحصار عن مراكش للمرة الثانية فى يونيو ١٥٢٧م وفر عائدا إلى فاس .

ويتحدث الناصر السلاوى فى كتابه الاستقصاء عن اخبار هذه الغزوة الوطاسية وحصار مراكش فيقول ان الحصار دام على المدينة فترة طويلة وتحدث العامة إلى الشيخ ابى محمد عبد الله الغزنونى وكان قد استوطن مراكش وراء رفات شيخه الجزولى بان الحصار قد طال عليهم وان الناس قد سئموا الحصار، فركب الشيخ فى جماعة من اشراف الطريقة الجزولية الذين كان لهم زى خاص وسار وسط اصحابه حتى خرج من باب فاس (احد ابواب مراكش) فوجد رماة السلطان الوطاسى ابى العباس الوطاس يرمون

اهل البلد بالرصاص فوقف الشيخ وجاءت رصاصة فى صدره قبض عليها بيده ثم عاد إلى منزله ولم يات الليل الا والسلطان الوطاسى يرفع الحصار عن المدينة ورحل إلى فاس بسبب قيام ابناء عمومته بالثورة عليه تأييدا لعمهم المخلوع ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسى .

لكن سرعان ما يتجدد النزاع الحربى بين الوطاسيين والسعديين ويعود السلطان احمد الوطاسى بجيش اكبر عدة ورجالا ومجهز بكل ما يحتاج اليه حصار المدن وذلك فى الوقت الذى كان فيه السعديون قد اعدوا تنظيم قواتهم الحربية واستعدوا بدورهم لقتال الوطاسيين والتقى الجيشان فى بلدة انماى قرب دنمات فى عام ١٥٢٩م/ ٩٣٥هـ ولكن المعركة لم تكن حاسمة وكذلك من اشهر المعارك التى وقعت بين الوطاسيين والسعديين وقعه ابنى عقبة التى لم يتحقق الانتصار فيها لاي من الطرفين وازاء هذه الاحداث فقد اضطر السلطان ابو العباس احمد الوطاسى تحت الحاح الفقهاء والعلماء إلى الدخول فى مفاوضات مع السعديين وعقد صلح بين المتحاربين وكان علماء البلاد ورجال الفقه والدين لما روا ما وقع بين السلطان ابنى العباس احمد الوطاسى صاحب فاس وبين الشريف السعدى احمد الاعرج المعروف وصاحب مراكش من القتال من اجل السيطرة على مراكش واقصاء كل منها للآخر والقتال الشديد وفناء الكثير من القوات فتدخل الفقهاء والعلماء من اجل الصلح والتراخى بينهم حقنا للدماء وعدم ايجاد ثغرة لتدخل الاعداء لذلك كانت مبادرة العلماء والصالحين لكن العلماء عندما دخلوا على ابنى العباس الاعرج واخيه ووزيره محمد الشيخ لم يجدوا عندهم قبولا للصلح وامتنعا عن مساعدتهم فى الوصول إلى بر الامان بالبلاد بدلا من حالة الحرب الطويلة، لكن هذه المساعى سوف توتى ثمارها بعد فترة من الزمن ويتم عقد الصلح بين الطرفين لكن ازاء الرفض السعدى فان الامير الوطاسى اضطر إلى عقد

معاهدة صلح مع البرتغاليين الذين يحتلون البلاد ضد السعديين وذلك للمحافظة على مصالحه وعرشه والقضاء على القيادة الناشئة لكن كان من نتيجة هذا التحالف بين الوطاسيين والبرتغاليين ان تاججت نار الثورة فى قلوب المغاربة ضد الاحتلال البرتغالى على شواطئ المغرب الجنوبية وضد حلفائهم الوطاسيين الذين ازدادوا ضعفا وكان لقيام البرتغاليين باخلاء مراكزهم فى اسفى وازمور واصيلا اثره فى ان تعطى ابا العباس احمد الاعرج السعدى قوة تمكنه من انتهاز فرصة الاضطرابات التى تسود مدينة فاس فاندفع بقواته جنوب بلاد تادلا فحدث بينه وبين السلطان الوطاسى معركة ابنى عقبة قرب وادى العبيد عام ٩٤٢هـ / ١٩٣٦م انتهت بهزيمة الوطاسى الذى تخلى عن بلاد تادلا وتامسنا للامير السعدى، ثم تدخل كبار القوم ورجال الدين والعلماء للمرة الثانية بعد ما راوا من الخسائر التى حلت بالبلاد ولاسيما وان اجزاء كبيرة منها تقع فى ايدى المحتلين الايبيرين وما تعانيه بلاد المغرب من جراء هذا الصراع الدامى، وهكذا نرى انه عندما بدأت الوقائع الفاصلة فى التاريخ الحربى للسعديين ضد الوطاسيين وتوجس السلطان احمد الوطاسى خيفة على دولته ومصير ملكه لاسيما بعد واقعة ام الربيع وانكسار قواته امام الزحف السعدى الجارف فانه امام ضغوط قوى النزاع المحيطة بعرشه كان سعيه من جديد إلى رفع لواء الجهاد الاسلامى ومناشدة الوحدة الجهادية والتحالف مع العثمانيين ودعوة لخير الدين بابروسيا إلى التحالف معه باسم تحرير الاراضى الاسلامية من قبضة المحتل الايبيرى وتحرير طنجة واصيلا وهكذا سعى الوطاسيون إلى العثمانيين الاتراك مع ظهورهم فى الحوض الجنوبى للبحر المتوسط واتجهوا إلى العمل تحت لواء الوحدة الاسلامية معهم املا فى الحد من الاخطار التى تخدق ببلاد المغرب من جرء الخطر الايبيرى .

ومن هنا فقد صار يقع على جانب الوطاسيين كامر واقعة التسليم بالامارة

السعدية وحكمها للجنوب وسيطرتها على مراكش بعد ان كانت مقدمة ظهورها اماره محلية تابعة لسلطنة فاس لكن منذ هذه الواقعة صارت اماره مستقلة تقع حدودها تبعا لتطور الاحداث وكان هذا التطور عام ١٥٣٦م بعقد صلح تادله بعد ان انزل احمد الاعرج هزيمة كبرى بالوطاسين فى معركة وادى العبيد وكان تدخل العلماء وراء اتفاق الصلح الاخير وبمقتضاه سلم السلطان الوطاسى باقتسام البلاد مع الامير السعدى وذكر السلاوى ان وقعة وادى العبيد كانت اواخر عام ٩٤٢هـ وادت إلى هزيمة الوطاسين على حين ذكر أن وقعة أبى عقبة كانت يوم الجمعة ٨ صفر ٨٤٣هـ وقد تم الصلح بين الطائفتين على ان يكون للاشراف السعديين حكم البلاد من تادلا شمالا إلى بلاد السوس جنوبا ويكون لبنى وطاس من تادلا شمالا إلى بلاد المغرب الاوسط وقد حضر هذا الصلح قاضى القضاة بفاس ابا الحسن على بن هارون المطغرى والامام الشهير ابو مالك عبد الواحد بن احمد الوانشرى وغيرهما من مشايخ فاس ومراكش. وان كانت بعض المصادر تذكر ان الاتفاق تم على ان يكون من ام الربيع شمالا للوطاسيين ومن ام الربيع جنوبا للسعديين واقتسم ابناء القائم بالله السعدى هذه المنطقة فيما بينهما واستقر أبو العباس احمد الاعرج فى مراكش واستقر اخوه محمد الشيخ فى زودانت وقام الوطاسيون بعد ذلك بعقد معاهدة تحالف مع البرتغاليين فى ٢٤ يوليو ١٥٣٨م / ٩٤٤هـ وتهدف هذه المعاهدة إلى حماية الوطاسين والحيلولة دون انقراض ملكهم ومع تنظيم التعاون العسكرى بين الطرفين وهكذا سعى السلطان احمد بن محمد الشيخ نحو البرتغاليين اذ نجد ان السلطان احمد الوطاسى يسعى إلى البرتغال ويقوم بارسال سفيره يعقوب اليهودى للشبونة العاصمة البرتغالية فى ٢٣ سبتمبر ١٥٣٤م من اجل اجراء مفاوضات طويلة لم يكتب لها ان تظهر الا فى عام ١٥٣٨ حيث عقدت الهدنة المشار اليها سابقا ومدتها احد عشر عاما والذى ينظر إلى تطور الاحداث بهذه الصورة وارتقاء الوطاسين فى احضان الايبيرين ولاسيما البرتغاليين الذين

باحتلون بلادهم طلبا للحماية من أبناء وطنهم فى العقيدة والدين واللغة يشعر باسف شديد اذ ان المصالح الشخصية والعروش جعلت هؤلاء الامراء يتحالفون ضد الاسلام والمسلمين والارتقاء تحت اقدام العدو الذى دنس ارض الاسلام ومتناسين روح الجهاد المقدس وكان من الافضل ان تتحد الجهود وتتوحد الاهداف ليصبح ذلك قوة للاسلام والمسلمين على الاقل فى بلادهم المغرب وتكون لديهم القدرة على تحرير البلاد لاسيما الموانئ والسواحل التى تمثل شريان الحياة للبرتغال فى طريقها إلى مستعمراتها فى الهند والصين وافريقيا لكن هذه المعاهدة التى عقدت بين الوطاسيين وحلفائهم البرتغاليين للعمل سويا ضد السعديين لم تفت فى عضد السعديين بل زادت من حماسهم لصعد عدوهم فحاربوا وطردهم البرتغاليين عام ٩٤٨هـ / ١٥٤١م من حصن سانتا كروز وتبعه اخلاء المراكز البرتغالية الجنوبية ووطد السعديون اواصر العلاقات الطيبة مع قبائل الاطلس. وذلك يعنى ان السلام والامن سادا علاقات القبائل بجنوب المغرب فى رحاب الامارة السعدية وان الاخلال بضوابط السلام يعود إلى الوطاسين والبرتغاليين .

وكان نجاح محمد الشيخ عام ١٥٤١ فى تحرير اغادير (سانتا كروز) من أيدي البرتغاليين قد اكسبه شهرة وسمعة طيبة فى جميع انحاء المغرب حيث تطلعت اليه الانظار باعتباره بطل المستقبل الذى يحفظ المغرب من كل عدوان .

وكان هذا النصر قد دعم لقبه من الشيخ إلى المهدي هذا بينما انزعجت البرتغال من هذا الانتصار على ممتلكاتها بالمغرب فكان قرار الجلاء خوفا من هزيمة اخرى فقررت الجلاء عن اسفى وازمور مع الاحتفاظ بالبريجة الجديدة وكان البرتغاليون قد فكروا فيما قبل ذلك فى اعوام ١٥٣٣، ١٥٣٤م فى اخلاء مدينة اسفى وازمور عقب حصار الامير احمد الاعرج لميناء اسفى عام ١٥٣٤ فى مايو ويونيو من هذا العام وما

انزله الشريف الاعرج بالحاميه البرتغالية من هزائم فى هاتين المدينتين، لكن ظهور الصراع وشدته بين الوطاسين فى فاس والسعدين فى مراكش عام ١٥٣٦م جعل البرتغاليين يؤجلون فكرة الاخلاء لكن هزيمة اغادير عام ١٥٤١م جعلت من الاجلاء امرا محتوما .

ويحدث نزاع بين الاخوين السعدين تنتهى فى النهاية بنجاح محمد الشيخ الاخ الاصغر ويتمكن من أسر شقيقه احمد الاعرج ويتم اطلاق سراحه بعد الاتفاق بين الاخوين بعد اتفاق عائلى ولكن سرعان ما عاد النزاع بين الاخوين ولكن محمد الشيخ تمكن من القبض من جديد على اخيه ويتم نفيه واسرته إلى مدينة سجلماصة (تافيلالت) وبذلك ينفرد محمد الشيخ بامارة السعدين فى المغرب المراكشى ودانت له مراكش عام ٩٥١هـ / وازاء التحالف بين الوطاسين والبرتغاليين فإن محمد الشيخ لم يعترف بالمعاهدة التى بين الوطاسين ولا بالصلح الذى تم بينهم وبين اخيه احمد الاعرج وبين السلطان ابى العباس احمد الوطاسى فقرر الاستيلاء على بقية بلاد المغرب وخاصة مدينة فاس للقضاء نهائيا على حكم الوطاسيين بالمغرب الاقصى وفتح حصن فونتي عام ٩٤٧هـ واخذه من البرتغاليين وفتح راسفى عام ٩٤٨هـ / ١٥٤٥م واثناء المعارك بين محمد الشيخ والوطاسين والبرتغاليين واخيه احمد الاعرج كانت مدينة مراكش قد تردد اهلها لفترة فى اعلان البيعة لاي من الاطراف المتحاربة والتردد فى الدخول فى طاعة محمد الشيخ ودعوته واقصاء الوطاسين وخوفا من عودتهم إلى حكمها بعد ان يسفر تنازع الاسرة السعدية عن عودة السطوة لسلطان الوطاسين، لكنها اعلنت له الطاعة وبايعه اهلها عام ٩٥١هـ / ١٥٤٤م وقدم اليها محمد الشيخ الملقب امغار او المهدي .

وفى سبيل تحقيق هدف السعدين فى الاستيلاء على بقية بلاد المغرب واسقاط

حكم الوطاسين نهائيا استطاع محمد الشيخ ان يجمع جموع القبائل المغربية والمتطوعة ورجاله لزوايا والاربطة الصوفية والمجاهدين لمحاربة الوطاسين وفى طريقه من مراكش إلى فاس استطاع ان يستولى على البلاد والامصار التى كانت بايدى الولاة وان ياتى عليها جميعها ففتح مكناسه عام ٩٥٥هـ بعد حصار طويل ولم يعد امام محمد الشيخ سوى الاستيلاء على فاس عاصمة الدولة الوطاسية وذلك لكى يتفرغ للقضاء على بنيه الوحدات السياسية الصغيرة فى البلاد وخاصة الامارات المنتشرة فى المناطق الشمالية والشرقية بالمغرب ويتم له توحيد البلاد .

وكان الشيخ ما زال فى شباب العمر (اربعة وخمسين عاما) حيث ذكر لسلاوى ان ولاة ابى عبد الله محمد الشيخ الملقب بالمهدى كانت عام ستة وسبعين وثمانمائة هجرية (١٤٩٠م) مما مكنه من تنظيم قواته وحشدها واعادة تنظيمها على القتال الهجومى والاتجاه بها إلى فاس بعد ان جمع كل حشوده وحاصر المدينة حاضرة بنى وطاس وكان على الحاكم الوطاسى ابى العباس احمد بن محمد البرتغالى ان يعد للامر عدته مما جعل فترة الحصار تطول لتصل إلى اربعة عشر شهرا والمدينة لاتزال تقاوم بشدة وكان على محمد الشيخ السعدى ان يجد من وسيلة لاختضاع المدينة بعد ان طال عليه الزمن فى حصارها ودخلت عامها الثانى فأخذ يرسل عن طريق وسطاء ورسل السلطان احمد الوطاسى ويعطيه العهد ان هو بايعه بالولاء والتنازل عن حكم البلاد بانه سوف يعوضه عن فاس ويعطيه حكم مدينة سجلماصة فى الجنوب على ان تكون له ولمن يخلفه من ذريته ولكن السلطان الوطاسى رفض ذلك بعد ان زين له الامور وقال له انما جاء إلى الشمال ودخول فاس من اجل محاربة الايبيرين الذين يحتلون ديار الاسلام .

ولما طال الامر على محمد الشيخ واعيته الحيل فى فتحها بحثا عن سبيل وسبب يمكنه من فتحها بعد ان رفض الوطاسى كل الشروط، فقبل له لاسبيل إلى ذلك الا

إذا بايعك الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أحمد لوانشريس نظرا لحالة من دور في المدينة وقوة نفوذ الفقهاء العلماء وتأثيرهم على العامة في هذه الأحوال لاسيما أنهم يشدون من آزر سلطانهم أحمد الوطاسي ويتحملون كل ويلات الحصار الطويل فأرسل السعدى إلى الفقيه لوانشريس رسالة سرية يعده فيها ويمنيه بأن تكون له اليد الطولى في البلاد ويعينه قاضى القضاء لكن الفقيه الفاسى رد على المهدي السعدى بأنه في حالة بيعته للسعدى فإن بيعة أبى العباس أحمد الوطاسي فى رقبته ولا يحل لى شرعها الا لمحج شرعى وهو غى موجود، اذ ان الدفاع عن المدينة لا ينقضى من نقض البيعة له، وفشلت هذه المراسلات وكان من امر لوانشريس ما كان وهو الذى كان يلقي دروسه اليومية بمسجد القرويين بفاس .

ولم يجد أبو العباس الوطاسي آخر الامر بدا من التسليم بعد الحصار الطويل فاتفق مع محمد الشيخ المهدي على تسليم فاس ودخلها السعديون وقبضوا على آخر سلاطين بنى وطاس وحاشيته واهله واتباعه وساقوهم إلى مراكش بعد ان عاد بهم محمد الشيخ فى صحبته وجميع افراد أسرته حيث لاقوا جميعا حتفهم بالسم بعد اربعين يوما من وصولهم إلى العاصمة السعدية بعد ان ساقوهم معهم فى نحو اربعة عشر خباء واذنوا لخدامه ان يمشوا معه واجروا عليهم الاتفاق والاقامة إلى ان ارسلوهم إلى مراكش فى نحو اربعمائة رجل من بنى وطاس وخاصة السلطان واتباعه وخدامه ووصفاته ورحل من فاس والناس يكون معهم حتى وصلوا إلى مراكش واجروا عليهم الضيافة والاتفاق مدة اربعين يوما ثم اصبح السلطان الوطاسي يوما ميتا هو وخاصته ونحو الاربعين رجلا مسمومين ودفنوا فى يوم واحد .

ولم ينج من افراد الاسرة الوطاسية غير العم يوحسون الذى كان قد تمكن من الفرار من الاسر فى فاس وقبل رحيل الاسرة الحاكمة إلى مراكش وكان أبو حسون بن

محمد الشيخ قد فر بعد النجاة من الاسر إلى الجزائر للاستنجاد بالأتراك ويعتبر دخول فاس عام ٩٥٦ هـ هو الدخول الاول للسعديين بعد القضاء على الوطاسيين .

ومن ناحية اخرى لم يبق امام محمد الشيخ غير تأكيد امارته فى ربوع المغرب وذلك بضممان بيعة العلماء والفقهاء وعليه القوم واعيان البلاد وحواضرها وولاء تأيد اشياخ القبائل العربية والبربرية المقيمة فى الشمال فى زمن عرف بالتدخل الاجنبى الايبيرى ومحاولة التأثير على قوة الدولة وجعلها تعيش فى انقسام وتفكك وتشردم كما كان سابق عهدا اثناء حكم الوطاسيين مما يؤثر على الهدف الاسمى للدولة السعدية فى السعى للوحدة ويقطع الطريق على النزوع للقوى المحلية لمحاولة خلق وحدات صغيرة والاستعانة بالقوى الاجنبية، وها هو بوحسن بن محمد الشيخ الوطاسي الذى استطاع ان ينجو بنفسه من القتل يسعى مسعاة بين القوى الخارجية سواء كانت تركية عثمانية او اوربية برتغالية او اسبانية يستعين بها ضد محمد الشيخ السعدى لكى يستعيد ملك الوطاسيين وكان الاهداف الشخصية ومصالح الذات كانت هى طابع تلك العصور بغض النظر عن الاهداف العليا لمصلحة الشعوب وقضية التراب الوطنى وصون الوجود الاسلامى والدفاع عن العقيدة من الاخطار التى تتهددها .

الامير ابو حصون بن محمد الشيخ الوطاسي آخر بقايا الوطاسين

٣ صفر ٩٦١هـ - ٢٤ شوال ٩٦١هـ

كان ابو حصون الوطاسي هو الوحيد الذي استطاع الفرار من فاس قبل ان يتعرض جميع افراد الاسرة الوطاسية بالموت سما في مراكش وقد فر إلى مليلة الميناء الذي يقع على البحر المتوسط والذي يخضع للسيطرة والاحتلال الاسباني وذلك سعيا وراء الاستعانة وطلب النجدة من القوات الاسبانية للعودة إلى الحكم الذي انتزعه السعديون من أسرته، لكن طلبه لم يجد صدى عند الاسبان ولم يقدموا له ادنى معونة ثم اتصل بالبرتغاليين حلفاء الوطاسين والذي كانت هناك معاهدة صداقة بين الطرفين منذ عام ١٥٣٨م وتنتهى فى عام ١٥٤٩م وهو للعام الذي انهى فيه السعديون الوجود الوطاسي فى فاس وطلب منهم مساعدته فى استعادة ملك آباءه واجداده من السعديين ولكن الاسبان كانوا مشغولين بمشاكلهم الداخلية اضافة إلى حركة الكشف الجغرافية التى كانت تتجه إلى امريكا والشرق الادنى واكتشافاتهم البحرية التى كانوا يولونها جل اهتمامهم قد حازت على التصيب الاكبر من الاهتمام لانهم لم يجدوا جدوى من مساعدة خليفهم لاسيما وان اوضاع السعديين فى البلاد قد تكون مناسبة لهم لاسيما وانهم اماراة ناشئة وصغيرة ويمكن التعامل معها افضل من الوطاسين ولكنهم اشارا عليه بالاستعانة بالأتراك العثمانية والذهاب إلى الجزائر لاسيما وان الوطاسين قد سبق لهم طلب العون والمساندة من الأتراك العثمانيين ضد التوسع

البرتغالي وقيام العثمانيين بارسال سفارة إلى محمد الشيخ السعدى لاطلاق سراح السلطان احمد الوطاسي الامير بعد وقفه تادلا عام ١٥٤٧م وقد استجاب الامير السعدى لطلب السلطات العثمانية وقام باطلاق سراح احمد الوطاسي فى المرة الاولى.

ها هو بوحصون الوطاسي يسعى مسعاه إلى العثمانيين تارة اخرى ويتوجه إلى الجزائر ويقابل حاكمها واخذ ينرى للأتراك والجزائريين ما يعود عليهم بالنفع والفوائد ان ساعدوه ودخل فاس عاصمة اجداده بالمغرب الاقصى واخذ يلج عليهم فى المساعدة وطل مقامه بهم ورأى الاتراك الفرصة سائحة لهم لبسط نفوذهم على المغرب وتحركت القوات التركية بقيادة صالح التركمانى مع ابى حصون الوطاس قاصدين مدينة فاس لاستعادة السيطرة الوطاسية على البلاد. تحقيقا لاهدافهم السياسية والاقتصادية واملا فى ضم المغرب الاقصى إلى السلطنة العثمانية تحقيقا لمقولة السلطان سليمان الاول القانون العثمانى (انا عبد الله وسلطان هذا العالم ويبركه الله انا على رأس العالم المحمدى الاسلامى) ارادة الله وسلطان هذا العالم، وما ذكره سليمان الاول من هذه المقولة تعبير صادق عن قوة هذه السلطنة التى اضحت امبراطورية الخلافة الاسلامية ولم يعد سلاطين آل عثمان حماة الحدود الاسلامية فحسب وناما اضحوا حماة العالم الاسلامى باكملة والمتحدثين باسمه فى العلاقات الدولية والشئون السياسية والتجارية.

ويتحرك صالح الرئيس التركمانى على رأس الحملة التركية العثمانية لابی حصون الوطاس والمولى عمر فى عام ١٥٥٣م وذلك لاستعادة فاس من ايدى الوطاسين ولكن التدخل التركى العثمانى كان قد تأخر خمس سنوات من بدء حصار فاس عام ١٥٤٩م إلى قيام حملة صالح ريس التركمانى فى صحبة بوحصون عام ١٥٥٤م هذا بينما ورد فى تقرير أسباني من جبل طارق ما يفيد بأن الشريف السعدى يعد جيشا قوامه عشرة آلاف جندي ثم تحركوا إلى باديس ووجدة ومنها إلى تاترا ثم إلى فاس التى

دخلوها في ٨ يناير ١٥٥٤م، ٣ صفر ٩٦١هـ بعد ان انهزم محمد الشيخ السعدى فى حروب كثيرة خاضتها معه القوات التركية الوطاسية ومنازلتهم له وطرده من فاس وعودة السلطة الوطاسية ودخل بوحسون عاصمة مملكة منتصرا وعاد محمد الشيخ إلى مراكش واخذ يعد العدة لجولة اخرى من القتال مع الوطاسين والأتراك الذين ساعدوه، لكن الوطاسين والأتراك كانوا قد تسيدوا على شرق المغرب ومناطقه الوسطى من فاس وديدو عدة شهور. وكان دخول الأتراك وبوحسون الوطاسى إلى فاس للحكم باسم ولى العهد ناصر الوطاسى (القاصرى أو ابو قصرية) والسلطان العثمانى .

وقد نجح الأتراك العثمانيون فى هذه المرة بالاحتفاظ بخدمتهم كحامية عسكرية بين قوات المغرب اذ ابقى بوحسون فرقة تركية مكونة من اربعمائة فارس بعد رحيل القوات العثمانية التى شاركت فى فتح فاس ولم يكن الأتراك يريدون فى هذه المرحلة سوى توطيد نفوذهم العسكرى وهو فى توفير حامية عسكرية ذات كفاءة ودراية قتالية عالية والامام باستخدام كافة الاسلحة لاسيما الاسلحة النارية منها لتضاف إلى الحامية التركية او تحل محلها وهى الحامية التى كانت بالبلاط المغربى منذ ايام ابي حسون الوطاسى (٤٠٠ جندي ومن اضعف اليهم من مرتزقة ومتطوعين وافدين) .

وهكذا تشابكت الخيوط حول اخبار المغرب فى هذه السنوات فالسعديون يدخلون فاس وينهون الحكم الوطاسى وبوحسون الوطاسى يستعين بالقوات التركية ويستعيد فاس من السعدين والأتراك ينسقون جهودهم بالسلطنة الوطاسية المغربية عن طريق الجهاد الاسلامى ضد الاستعمار الايبيرى لاسيما وان ابا حسون كان قد فطن إلى غدر الاسبان عندما طلب من حاكم مليلة الاسبانى اعانته ضد محمد الشيخ السعدى، وكانت رسالة قد وردت من ملك الاسبان إلى الامير الوطاسى بوحسون تقول له.. ياسلطان ان اعطيتك جيشا من النصارى نسير به لم يبق لك فى المغرب ناصر ولا فى المسلمين حبيب فتجمع كلمة المسلمين عليك ويتفق رايهم على قتالك فيقاتلونك

ويجاهدون فيمن معك ويقاثلوك الصديق قبل العدو والذي يليق بك ان تذهب إلى الجزائر وتنعم لهم بالمال وتخرج معك بحملة من الترك من اربعة آلاف واكثر، وهكذا اسرها لهم بوحسون وربما يكون قد اخذ ينصيحهم وذهب إلى الجزائر .

ويذكر المؤرخ المجهول ان العلماء والفقهاء ورجال الدين وعليه القوم استقبلوا السلطان الوطاسى بوحسون احسن استقبال والقى الشيخ الزقاق احد كبار علماء فاس خطبه فى استقبال السلطان الوطاسى وانصاره من الأتراك العثمانيين قال فيها «هذا بقية امرائكم الذين شيّدوا البلاد وسعد بهم العباد وشرفوا المساجد وبنوا المدارس وقاموا بامر الدين والدنيا» .

وتلك الخطبة تدل دلالة قاطعة على حب العلماء للوطاسيين لانهم ربما روا شدة وعنفا فى الحكم السعدى لاسيما ان فقهاء فاس ومكناس كانت لهم مواقف من الامارة السعدية لانهم لم يكونوا على وفاق معهم مما يدفع السعدين للقضاء فيما بعد على قادة الحركة الفقهية والعلمية والفكرية بالبلاد جملة واحدة، لان هؤلاء كانوا يؤلبون الناس عليهم من فوق المنابر ويوقدون عليهم نار الفتنة عند اكابر القوم وأهل الحل والعقد لكن محمد الشيخ السعدى أعد للامر عدته واستنفر جميع قبائل بلاد السوس والاجزاء الجنوبية من المغرب وانتهاز فرصة الخلاف الذى نشب بين الوطاسيين والأتراك من اجل الاموال التى كان يطلبها الجند والهدايا والمنح والعطايا فزحف إلى فاس ودارت بينه وبين الوطاسيين معركة حاسمة وشديدة الوطأة وكان الظفر فيها لخليفة السعدين وقتل ابو حسون فى ٢٤ شوال ٩٦١هـ واستولى السعديون على فاس واراد الخليفة السعدى قتال مولاى عمر حاكم ديدو الذى استعان بالأتراك وكان ضمن حملة بوحسون، وديدو هذه مجموعه من القرى الواقعة على الهضبة المطلّة على سهل تقرطا والتى تمتد على طول الضفة اليمنى لنهر ملوية وكان رئيس أو شيخ هذه المجموعه

يشمل بنفوذه وادى ظا حتى تازة وكان يدين بالولاء للوطاسين وقد بدا مستقلا اواخر عهدهم وقد لقبه الاسبان بلقب ملك حسبما لقبوا بوحسون بنفس اللقب اثناء وجوده فى بادس غمارة ومنذ عام ١٥٤٢م قام على حكم ديدو الشيخ عمر (عمار) بعد مقتل اخيه لكن فى اكتوبر ١٥٥١م طرده عبد الله بن محمد الشيخ وكانت عودته إلى ديدو فى نهاية عام ١٥٥٣م اثناء مسيره حملة بوحسون وصالح رايى التركمانى إلى فاس لكن فى يوليو ١٥٥٤م بعد مقتل بوحسون فى فاس أعلن ولاء التبعية للشريف السعدى إلى حين كانت وفاته عام ١٥٦٠ م .

لكن سقوط فاس هذه المرة ودخول محمد الشيخ اليها انتهت الدولة الوطاسية نهائيا واصبح محمد الشيخ الخليفة الاوحد بلا منازع داخل بلاد المغرب وهكذا كان عام ٩٦١هـ نهاية الاسرة الوطاسية .

الفصل الثانى

الأتراك العثمانيون ببلاد المغرب

شهدت بداية القرن السادس عشر الميلادى تحولا كبيرا فى ظهور الأتراك العثمانيين باعتبارهم اقوى الدول الاسلامية لاسيما فى عهد سليم الاول وسليمان العظيم القانونى حيث حمل السلطان العثمانى لقب خليفة المسلمين الذى حصل عليه من الخليفة العباسى بالقاهرة كما حملوا لقب خليفة الحرمين الشريفين ومن هنا فى ظل ما يواجهه المغرب الاسلامى تطلع اليه اهالى هذه الديار كمنفذين لهم بعد ان ارهقتهم غارات الايبيرين المسيحية (البرتغال والاسبان) ومن هنا كان على الأتراك العثمانيين مواجهة الوجه الصليبي بروح الجهاد الاسلامى لوقف المظاهر الاستعمارية للديار الاسلامية ومحاولة وضع مراكز قوة ونفوذ لها ببلاد المغرب والدخول فى سباق مع البرتغال واسبانيا ووقف التوسع الايبيرى لاسيما انه استطاع ان تكون له قواعد وجيوش استعمارية على الساحل التونسى والليبي وكان على الأتراك العثمانيين ان يقفوا امام وجود البرتغال والاسبان مع مطلع القرن السادس عشر وان يعملوا على بناء سلطنة عثمانية فى بلاد المغرب فى مقابل انحسار الوجود العسكرى الاسبانى والبرتغالى والعمل على تقوية روح التضامن الاسلامى ورفع الروح الدينية للدولة الاسلامية العثمانية مع الامارات التى كانت توشك على النهاية والسقوط ومقتضيات التبعية لهذه الدويلات للدولة الاسلامية الكبرى والولاء للخلافة الاسلامية الشرقية التركية العجمية على حساب الوحدات السياسية الصغيرة للمغرب والاحتواء فى ظل الخلافة العثمانية وقوفا لحركة الاستيطان الاوربى الايبيرى التى ترفع راية الصليب من اجل الاستغلال والسيطرة وكان العثمانيون قد دخلوا مصر عام ١٥١٧م ومن ثم فعن طريق موقع مصر الجغرافى سوف يتمكن العثمانيون من التقدم إلى بلاد المغرب العربى ولذا فقد

أصبحت طرابلس وتونس والجزائر كلها ولايات فى الامبراطورية العثمانية ولقد كان مجيئ الاتراك العثمانيين إلى بلاد المغرب بمثابة نجدة انقذت البلاد من الغزو الاوربى الايرى وعلمت على توحيد البلاد سياسيا .

وكان الوجود العثمانى فى بلاد المغرب بداية بالدور العسكرى الذى قام به اخوان بربروسا الذين استقروا فى ميناء جيجلى الجزائرى وتسيده و كانوا اربعة عروج واخوته الياس واسحق وخير الدين ويصل نسبهما إلى اب تركى وام اندلسية عاشا حياة الجهاد العثمانى فى جزيرة مدلى من جزء بحر الارخبيل اليونانى وقد انجب هذا الاب المدعو يعقوب ابن يوسف والتي تروى بعض المصادر أيضا (الاوربية) انه كان مسيحيا واسلم وعمل فى صفوف الانكشارية، لكنه انجب من الام الاندلسية اولاده الاربعة اسحاق وعروج، خير الدين، محمد الياس. واختار محمد الياس طريق العام ودراسة الفقه وحفظ القرآن الكريم ثم لحق باخوته الثلاثة الذين اختاروا طريق الجهاد الاسلامى البحرى (وليس القرصنة كما اطلق الاوربيون على حركة الجهاد الاسلامى كرد فعل لطرد المسلمين من الاندلس) فى غرب البحر المتوسط حيث ذكريات الاندلس والمغرب الاندلسية التى كانت تلقى بذكريات وطنها الاندلس والارض السليبية وما زالت الانباء تتردد عن مزيد من المعارك الخاسرة امام القوى الابيرية وكان ان لقي عروج (اشتقاقا من المعراج المقدس ليلة الاسراء والمعراج) من الجهاد المقدس البحرى على الساحل التونسى ثم الجزائرى من فرص النجاح ما لم يصادفه غيره من رجال الجهاد البحرى فى شرق البحر المتوسط وقد اتخذ مدينة جربة (جزيرة جربة التونسية) اولى قواعده فى بلاد المغرب ولحق به فيها اخوه خير الدين واسحق ومحمد الياس ونظرا لدورهما فى الجهاد الاسلامى اقطعهما السلطان الحفصى ابو عبد الله محمد مرفأ حلق الوادى عام ١٥١٠م ومنذ عام ١٥١٢م كان انتقالهما إلى المغرب الاوسط حيث بنى زيان حكام

تلمسان او الجزائر متخذين من مدينة جيجل على بعد ١٠٢ كيلوا متر غرب بجاية قاعدة ينطلقان منها إلى أنحاء المغرب الاوسط فى اتجاه المغرب الاقصى حيث فاس ومراكش وكانت جيجل فى يد حامية جنوه الايطالية قبل ان يحررها عروج عام ١٥١٤م وهكذا تجلى الوجود العثمانى بوجود هؤلاء الاخوان العثمانيين فى جيجل الواقعة على الشاطى الشرقى لخليج بجاية وبعث عروج إلى السلطان العثمانى بهدايا من غنائهم انتصاره فى جيجل ورد السلطان بارسال اربع عشرة سفينة حربية يبحارنها واسلحتهم وعتادهم ورجال عسكريين اى هكذا كانت باكورة الحامية العثمانية التى ترمز إلى السيادة العثمانية مع ارسال المير السنوى إلى تركيا والخطبة للخليفة فى الصلاة باسم السلطان العثمانى وسك السكة (العملة) العثمانية بالجزائر إلى سمات السيادة العثمانية والتبعية لسلطانها وفى عام ١٥١٦م بعد محاولات متكررة للاستيلاء على بجاية ونقل عروج قاعدته إلى الجزائر بناء على دعوة جاءته على لسان وفد من جزائر بنى مزنة يمثل المجتمع الاندلسى بالمدينة وهكذا وقفت القبائل لمناصرة نشاط هؤلاء الاخوة وعرفت طبيعة دورهم الجهادى الاسلامى والسياسى فى بلاد المغرب. وكانت المحاولة الاولى للاخوين العثمانيين فى المغرب الجزائرى عندما هاجما بجاية بالرغم من فشل هجومها فقد مكنت معركة بجاية رجال القبائل المحيطين بالمدينة بالتعرف على القوة الحربية الحقيقية التى يتصف بها الجند الانكشارى العثمانى ولقد اعجب اهل البلاد لاول مرة بهذه الشجاعة التركية النادرة وهذه الحمية التى يتحلى بها المقاتل التركى مع اصابة قائدهم بجروح خطيرة اثناء المعركة مما اكسب الاتراك كل مودة وعطب وتعاون اسلامى .

ولقد كانت بجاية فى هذه الفترة الزمنية التى تدور فيها المعارك ذات اهمية استراتيجية وقاتلية ودفاعية فهى تقع على مجرى وادى الصمام الذى يخترق الجبال

القبلية تحت اسم وادبي الصمام عند مدينة اقبو ومن هنا فلم يكن الاستيلاء عليها سهلا لاسيما انها كانت مسورة واسوار المدينة كانت عالية والمواقع الجبلية حصينة وقد قاتل الاسبان دفاعا عنها قتالا مميتا، لكن هذه المحاولة كانت مقدمة لعدة محاولات ناجحة فيما بعد وقد ادى هذا الموقف القتالي إلى مساندة قبائل مكناسة وزواوة المقيمة بالتلال المحيطة بالمدينة والذين وضعوا انفسهم تحت تصرف عروج واخوته. ورفضت هذه القبائل كلها التعامل مع الاسبان ورفضت التعامل الاقتصادي مع اسواقهم مما سبب عزلهم عن النشاط التجارى .

وهكذا كان ظهور الاتراك بهذه الصورة المشار اليها عن طريق نشاط الاخوة عروج على مسرح الاحداث فى المغرب العربى يمثل حلقة فى سلسلة حلقات تلك الدراسة التى كان المغرب الاقصى على الصورة التى عرضنا لها تحت السيادة الوطاسية لكن المغرب الاوسط كانت الاسرة الزيرية التى يلقب شيوخها بل كهولها يحكمونه بعد ان عمرت ثلاثة قرون واجهت فيها ضغوط كل من الحفصيين فى المغرب الادنى وبنى مرين فى المغرب الاقصى وكانت آواخر القرن الخامس عشر الميلادى قد شهدت تقلص كيان بنى زيان بحيث لم يبق لهم سوى العاصمة تلمسان وبعض الاحواز التى تحيط بها ولقد كانت البلاد من جراء النزاع الطويل مع بنى حفص وبنى زيان (انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة) معرضة للحصار من جانب القوتين عبر تاريخها الطويل مما كان له أكبر الاثر على تدهور الدولة ودورها السياسى وتعرضها للغزو الاسبانى والبرتغالى وادى ذلك إلى تفكك الدولة مما ساعد الاسبان على احتلال المدن الساحلية وتعامل شيوخ القبائل فى السهول الساحلية للمغرب الادنى والاوسط (الحفصى الزيانى) مع سلطات الاحتلال الاسبانى وذلك بحكم سيطرة الاسبان على المداخل الساحلية وتحكمهم فى حركة تجارة البحر المتوسط وبعد ان سلم السلطان

الزيانى ابو حمو الثالث بالتبعية لاسبانيا بعد نكبة وهران عام ١٥٠٩م التى انتصر فيها الاسبان بتاريخ ١٧ مايو ١٥٠٩م على المدينة التى بلغ عدد القتلى فيها اكثر من اربعة آلاف قتيل واستولى الاسبان على ما لا يقل عن ثمانية آلاف اسير ولم يقتل من الاسبان الا اعداد قليلة ومن جراء هذه المعركة سلم السلطان الزيانى ابو حمو الثالث بالتبعية المباشرة لاسبانيا، كذلك خضع للتبعية الاسبانية قبائل بنى عامر العربية الهلالية وغيرهم من القبائل التى تقيم فى انحاء وهران وهذا عن كيان دولة بنى زيان وما يترتب على ذلك من التدخل العثمانى التركى الذى سنرى صورته الفعلية فى الصفحات التالية والذى سيرفع راية الجهاد فى وجه الغزو الاسبانى محررا هذه البلاد من قبضة الحكم الاوروبى الايبيرى الصليبيى وهكذا سقطت السلطة الزيرية ودانت بالتبعية للسلطات الاسبانية وكما سلم سلطان تلمسان بالتبعية للاسبان فقد جاء الدور على السلطان الحفصى فى تونس ابى عبد الله لكى يسلم بالتبعية أيضا للاسبان بعد ان عمات عوامل الضعف والانهيال فى دولتهم وقبوله احتلال بجاية بعد كارثة غزوها عام ١٥١٠م وبعد قبول شيخ الجزائر الشيخ سلم بن تومى استرضاء الاسبان وقبول احتلالهم حجرة الجزائر عام ١٥١١م وبعد ان توج الاسبان انتصاراتهم بالجمع بين الاميرين الحفصيين المتحاربين عبد الرحمن مغتصب السلطة وعبد الله السلطان المخلوع فى معاهدة واحدة استسلامية مما دفع الاسبان إلى احتلال طرابلس الليبية فى نفس العام وقد دفع ذلك ملك اسبانيا فرديناند إلى تعاونه مع فرسان جزيرة رودس من أجل الاستيلاء على مصر .

لاسيما وان المدن والبلاد المغربية فى تونس والجزائر كانت تعمل على كسب رضا الاسبان ومن ذلك ما قامت به شياخة الثعالبة بالجزائر بعد ان وقعت احداث احتلال بجاية بارسال وفد من اعيان المدينة الجزائرية إلى بجاية استرضاء للاسبان (بدلا

من اعداد انفسهم وقواتهم للجهاد والقتال يرسلون للاستلام) وعقد اتفاقا مع السلطات الاسبانية اعترافا بالتبعية وفيه سلم الوفد الجزائري للاسبان باكبزر جزر الجزائر التي يدعوها اسطقله والتي بنى الاسبان على انقاض مسجد اسلامي (ومنارته قلعتهم البحرية المسماه بصخرة الجزائر) كذلك عندما وقع سلاطين الذل والمهانة الحفصيين عبد الرحمن وعبد الله وملك اسبانيا فردناندو، وفيها اعترف عبد الله لعبد الرحمن (لاحظ اسماء كل منهما عبد الرحمن، عبد الله) بملكه نظير تسليم عبد الرحمن لاحتلال اسبانيا لمدينة بجاية وصخرة الجزائر وتدليس وكل المراسى البحرية وتوابعها كل ذلك في وقت انهارت فيه الجبهة الاسلامية بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ م .

كذلك يقوم الحفصيون بتسليم جميع الاسرى المسيحيين إلى اسبانيا دون مقابل مالي والتعهد بتزويد الاسبان في بجاية بالمؤن التي يحتاجون اليها وحددت الاتفاقية مقاديرها السنوية مجانا وكذلك ضمانا لتنفيذ بنود هذه الاتفاقية يقوم كل من الأميرين المسلمين بابقاء رهينة في البلاط الاسباني وحدث اثناء توقيع تلك الاتفاقية ان كان ابن عبد الله الحفصى صغير السن ونشا وشب على يد الرهبان ومنحه ملك اسبانيا لقبا من القاب العائلة المالكة فعاش حياته ومات مسيحيا .

ومن تلك المحن فقد تعرض الاسلام ودياره للخطر فكان ان استدعى الامير الحفصى عام ١٥١٢م عروج طالبا معاونته ومدافعا عن ديار الاسلام بعد ان اضطر إلى ترك العرش حتى جعل كثيرا من المسلمين ينضمون إلى حركة الاتراك العثمانيين دفاعا عن الاسلام ودياره وكان ان سيطروا على جيجل عام ١٥١٦م ورات هذه المدن التونسية والجزائرية في الوجود التركي حصنا لها بعد ان كانوا قد اضطروا إلى دفع الجزية للاسبان وخضعوا لتهديد مستمر من مدافع السفن الحربية من القاعدة الاسبانية في نبون الجزائرية واستعدت الجالية الاندلسية التي ذاقت الوان العذاب على ايدى

الاسبان من جراء التهديدات الاسبانية ان تؤيد عروج لاسيما انه كان يوجد من الاندلسيين خمسة عشر الف يحسنون استخدام الاسلحة النارية من بينهم عشرة الاف رجل من العرب الذين زحفوا من الاندلس في السنوات الاخيرة وهم من خيرة الجند في الجزائر وقد دعم ذلك الوجود العثماني وشد من ازره واعطاه دفعة قوية لمحاولة ايجاد قاعدة قوية للقوة الاسلامية انطلاقا منها لطرد المحتل الاسباني ومن هنا بدا تنظيم عروج العسكرى لاسيما بعد دخول القوات العثمانية التي اقلتها اربعة عشر سفينة حربية اشبه بتحالف عثماني عربي اندلسى يقود راية الجهاد الاسلامي ضد الوجود الاسباني، بينمارات قوات التخاذل والانهازم التي تخضع للاسبان من الامير الحفصى احمد امير بونه والشيخو الثعلبي وامير نيس الزيانى (الامير يحيى) في هذا التحالف الجديد ما هو الا سطوة قبلية بريرية باسم السلطنة العثمانية .

لكن التوسع العثماني الاندلسى الزواوى الذى رفع راية الجهاد الاسلامي محاربا لفكرة السيطرة البرتغالية الاسبانية نجح في ان يوسع دائرة الوجود والتوسع بحدود الدولة الصغيرة التركية فضم اليه مدينة نيس والمدينة ومليانه واليليدة وهكذا لم يات عام ١٥١٧ وهو عام سقوط القاهرة في ايدى السلطان سليم الاول الا وكان عروج قد تمكن من فتح مدينة تلمسان وضمها للباشوية التركية الجزائرية وهكذا قبلت بعض القبائل القتال بجانب العثمانيين وقبول سيادتهم الاسلامية والانطواء تحت راية الاسلام وجهادا للاسبان لاسيما وان قبائل زواوة استطاعت ان تكلف الاسبان ما بين ثلاثة آلاف قتيل او اكثر عند محاولتهم احتلال جزيرة قرقة مما رفع الروح المعنوية لدى مسلمى الساحل بعد ان كبدهم خسائر فادحة في الارواح .

لكن على الجانب الآخر كانت هناك عقبات تواجه التوسع التركى العثماني وترك في ذلك خطرا على نفوذها القبلى والذين ينظرون إلى الامور نظرة ضيقة وبروح

قبلية تتناقض مع الروح الاسلامية التي كان يجب ان تسود ارجاء العالم الاسلامي في ذلك الوقت لاسيما وان الطرف الآخر كانت سفنه ترفع راية الصليب عاليا ومن هنا ظهرت مقاومة شيخ الثعالب الذي كان رمز القبيلية الضيقة لكن هذا الشيخ القبلي الذي قبل الخضوع ودفع الجزية السنوية للاسبان برفض الانطواء تحت راية الاسلام لكنه لقي حتفه عام ١٥١٥م. وكان هذا الشيخ هو (السالم القومى) الذي قتل بامر عروج نظرا لتحالفه مع الاسبان لكن ابنه يحيى بن سالم التومى ذهب إلى وهران بطلب عون الاسبان لمساعدته في استرجاع شياخة ابيه وقد رأى الاسبان في ذلك فرصة لتوسع دائرة نفوذهم ومن ثم امدوه بقوات كبيرة استطاع عروج العثماني ان ينتصر عليها في معركة باب الواد (سبتمبر ١٥١٦م) ويذكر ان ضحايا الاسبان بلغوا ثلاثة آلاف قتيل واكثر من ٨٠٠ اسير اسباني وهكذا استطاع النفوذ التركي ان يحرز انتصارا باهرا على الاسبان وقد رأى عروج ان الاوضاع غير مستقرة بالمغرب الاوسط فنهض إلى محاربة قبائل بنى يرتلاسن لكنه هزم وقتل عام ١٥١٧م بالقرب من تلمسان وقد تم دفن عروج بمدينة الجزائر العاصمة حيث دفن بجوار ضريح سيدى رمضان وقبره عن يمين الداخل متصلا بجدار المسجد .

وقد ادت وفاة المجاهد البحرى العثماني إلى نكسة في حركة المد العثماني حيث ادت إلى نكسة كبرى لهذه الياشوية الجزائرية مما دفع خير الدين إلى التخلي عن بعض المدن التي كان يسيطر عليها الاتراك ومن ثم يتنقل إلى مدينة جيجل محاولا جمع صفوف قواته التركية وانتظارا لوصول امدادات تركية جديدة وقد استمر ذلك الوضع حتى عام ١٥٢٥ بعد ان تزعمت قبيلة بنى عامر العربية التي تسكن بجوار تلمسان حركة المقاومة للسيطرة التركية لاسيما وان اهل تلمسان قد سلموا سيطرة الاتراك بعد ان عاملوهم بالشدة والقسوة وصادروا اموالهم فكانت العودة إلى جيجل .

والذى يعود إلى النظر في الجزء الخامس من هذه الموسوعة يدرك ان اماره بنى زيان حتى هذا التاريخ كانت تتنازعها القوى التركية ممثلة في عروج واخيه خير الدين والحماية الاسبانية ممثلة في اعلان التبعية والسيطرة على بعض القواعد والمدن الساحلية وكذلك وجود قوى الثعالب وبنى عامر العربية وقوى الاندلسيين والبربر من امازيغ وزواوة وذلك حتى عام ١٥٣٤م عند وفاة الامير عبد الله الثيبتى الذى خلف ابا حمو الثالث على الامارة الزيرية .

لكن عام ١٥٤٨م شهد بعدا جديدا في قوة القبضة التركية على الامور في تلمسان اذ استطاعت ان تضع الامير الحسن بدلا من ابناء ابي عبد الله محمد الاخيرين وان يكون الحاكم الفعلى للبلاد بيد القائد محمود التركى مع وضع حامية كبيرة من الاتراك في تلمسان لاسيما ان ابناء السلطان الريانى كانوا يلجأون إلى الجزائر طلبا للنجدة من خير الدين والتزاما بالبيعة والولاء للسلطان العثماني .

وهكذا كان عام ١٥٤٨م هو عام العودة التركية بصورة قوية وهكذا كانت الفترة السابقة من اعوام ١٥١٠ - ١٥٤٨م هى فترة تمهيد يقوم بها رجال الجهاد الاسلامى العثماني توطئه للسيطرة التامة التركية على بلاد المغرب الاوسط والادنى (الزيراني- الحفصى) .

ولقد كان دخول القوى الاسلامية البحرية المجاهدة بتأييد الخلافة التركية العثمانية يهدف في المقام الاول إلى تخليص بلاد المغرب من المحتلين الايبيرين (الاسبان والبرتغال) والقضاء على نفوذ الفرنجة، ثم ضم واطوء هذه الديار فى ظل الخلافة العثمانية التى سيطرت على بقية العالم الاسلامى الشرقى وكان من الطبيعى ان يمتد نفوذ الاتراك إلى بلاد المغرب وخاصة بعد سقوط بلاد الشام عام ١٥١٦ ومصر عام ١٥١٧م وذلك لمجاورة المغرب لمصر من كل هذا للنشاط الذى قامت له اسرة بابا روسا

من رجال الجهاد الاسلامي البحري المشهورين في ذلك العصر وهو القرن السادس عشر الميلادي العاشر الهجري .

ولقد كان نشاط القوى الاسلامية في بلاد الجزائر الرامية إلى توحيد الجهود مع السلطان البحرية المجاهدة التي اتخذت لها مواطن قدم في جيجل وبجاية والتي عملت بالتعاون مع عروج واخوته على التخلص من القيادات الوطنية من بنى زيان وفيما بعد من بنى حفص بعد ان عجزوا عن مقاومة الخطر الاسباني والذين كانوا يحتلون وهران والمدن الكبيرة في ذلك الوقت بل ان اسرة بنى زيان قد تهاونوا وخضعوا للنفوذ الاسباني وطلبوا حمايتهم والحكم في ظل التاج الاسباني ودفع الجزية السنوية للملك اسبانيا، بل تمادوا في دور السلبية والمهانة التي لا تتلائم ابدا مع الروح الاسلامية والاصول العربية وطلبوا حمايتهم من خطر الثائرين من الاهالي ورجال الجهاد الاسلامي المتطلعين للقضاء على حكمهم بالبلاد وبعد تعاونهم مع قوى الاحتلال الايبيري .

وسار عروج إلى تلمسان حيث اقام حاميات اسلامية تركية عثمانية بتشجيع من القبائل في مدينة مديّة ومليانة وامتد حكمه حتى وصل إلى حدود بلاد المغرب الأقصى وقضى عروج على حكم بنى زيان في تلمسان ولكن آخر حكام بنى زيان (عبد الله السلطان المخلوع) استنجد باعداء البلاد والاسلام والعروبة الاسبان وارسلت اسبانيا قوات قوامها ١٥ الف رجل تمكنت من التوغل في اراضي الجزائر ومحاصرة تلمسان ولقد صمد عروج امام هذا الحصار ثم تمكن من ان يخترق خطوط الحصار بعد ان اعلن اعداؤه من بنى زيان الثورة ضده وواصل فراره الا ان الاسبان تعقبوه وتغلبوا عليه وقتلوه عام ٩٢٤هـ / ١٥١٨م وقد سبق الاشارة إلى ذلك في الصفحات السابقة .

وبعد مقتل عروج تولى قيادة عمليات الجهاد في المغرب الكبير اخوه خير الدين بابار رسا الذي اتصل بالدولة العثمانية يعرض على سلطان الخلافة العثمانية التركية الدخول في طاعته وضم المغرب الاوسط تحت نفوذها فامده السلطان سليم الاول بالفين من خيرة الجنود الانكشارية وسمح له بتجنيد الاهالي والأتراك من تركيا نفسها حتى يتمكن من مواجهة قوى الاستعمار الايبيري التي تريد السيطرة على القوى الاسلامية في بلاد المغرب كما سبق لها ان طردت المسلمين من ديارهم في الاندلس .

وبهذه المبادرة التي قام بها خير الدين أصبحت الجزائر منذ عام ١٥١٨م إحدى الولايات العثمانية ولكن بقي على خير الدين ان يبذل جهودا مضنية قبل ان يؤسس ولاية قوية في حين اننا نجد على الجانب الآخر فان القوى الايبيرية الاسبانية استطاعت ان تعيد إلى عرش الحضرة الزيانية في تلمسان السلطان أبا حمو الثالث عام ١٥١٨ وهو نفس العام الذي طلب فيه خير الدين دخول المغرب الاوسط تحت لواء الخلافة العثمانية والذي استطاع بفضل المساعدة الاسبانية ان يظل في حكم البلاد ثم استمر هذا الخضوع للقوى الاسبانية إلى وقت وفاة من خلفه على العرش الزياني (الامير عبد الله الثبتي) عام ١٥٣٤م. ولقد كانت السنوات الخمس عشرة (١٥١٨ - ١٥٣٤م) بعد وفاة أبي حمو الثالث في نفس العام الذي عاد فيه للسلطة سنوات نزاع اسرع في تلمسان بين ابي محمد عبد الله الثبتي واخيه ابي سرحان مسعود، والذي استطاع ان ينتصر على اخيه ابي سرحان مسعود وحاول ان يتخذ في سياسته الخارجية موقفا محايدا بين القوى العثمانية التركية في الجزائر وبين القوى الاسبانية، لكن اخاه أبو سرحان مسعود ثار عليه وطلب الاعانة من خير الدين، القوات التركية في عام ١٥١٩م واستطاع بمساعدة القوى التركية الجزائرية ان يستولي على تلمسان ويطرد اخاه عبد الله الثاني ويبيع السلطان العثماني سليم الاول ثم نكث بالبيعة واعلن تمرده على

القوات وطردها من تلمسان والباحث حين يقلب في صفحات تلك الحقبة واقوال المؤرخين لاسيما المعاصرين او المقربين من الاحداث يدرك مدى قصر النظر الذى كان يحكم عقلية بعض الحكام اذ كيف يبرر سلطان البلاد تعاونه مع القوى الخارجية الاجنبية غير المسلمة والتي لاتضم سوى الشر بالاسلام واهله .

ويتعاون معها على قوى اسلامية تركية عثمانية مهما يكن نوع الحكم وطبيعة العلاقة بين الحكام الاتراك والحكام السابقين وان الذى يقلب صفحات تاريخ اسبانيا والبرتغال وانجلترا وفرنسا وايطاليا وصقلية فى تلك الحقبة من القرن السادس عشر الميلادى يدرك انه مهما تكن الخلافات بين القوى الكاثوليكية والبروتستانتية فى عدم السماح للقوى الاسلامية باحتلال شبر من الارض الاوربية مهما كانت درجة التعاون، لكن القوى الاسلامية لم تكن تفطن لاساليب القوى الاوربية التى كانت تسعى للتفرقة بين القوى الاسلامية وجعلها تتصارع مع بعضها البعض حتى نضل ضعيفة وغير قادرة على مواجهة الاحداث منفردة بعد استنزاف ثرواتها والعوز العسكرى لحمايتها وهذا ما كان يتجلى فى ارتقاء القوى المغربية سواء فى المغرب الاوسط والاقصى فى ظل الحماية الاسبانية او البرتغالية مما دفع الاتراك لاتخاذ مواقف حاسمة ازاء هذا الصراع وضرورة تدخل الدولة المباشر بدلا من القوات البحرية الاسلامية المجاهدة فى غرب البحر المتوسط التى مارست دورها بقوة وفاعلية بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الاندلس عام ١٤٩٣م والتى اطلق عليهم الاوربيون قراصنة البحر وللأسف الشديد سار على نهجهم بعض المؤرخين العرب واطلقوا اسم القراصنة على حملة الجهاد الاسلامى التى كانت قوة تعمل لرد فعل طرد المسلمين من الاندلس واحتلال الموانئ والمدن على السواحل المغربية .

السيادة التركية العثمانية المباشر للمغرب

بعد ان طلب خير الدين من السلطان سليم الاول دخوله فى طاعة الدولة فانه اخضع الملاحة فى غرب البحر المتوسط للاسطيل التركية لذا هابتة جميع الدول الاوربية واصدر السلطان العثمانى قرارا بترقيته عسكريا واستطاع ان يثار للاندرلسين والمورسكين الذين تعرضوا لاقصى انواع العذاب والاضطهاد على ايدى القوى الاسبانية بالقيام ببعض الغارات على ثغور البلاد المسيحية وعلى قواتهم وسفنهم الذاهبة فى طريقها إلى الشرق الاقصى او فى طريق عودتها فى ان واحد حتى انه فرض على كل سفينه تمر من سفن الاعداء ضريبة لا بد من دفعها ولم تكن اهداف خير الدين ورجال الجهاد البحرى الاسلامى تقف عند حد ضم بلاد المغرب الاوسط إلى الدولة العثمانية والحكم باسمها بل كان السعى إلى توحيد بلاد المغرب تحت التاج العثمانى لاسيما ان القوات البحرية العثمانية كانت تجد فى ذلك الوقت معاونة من عدد من رؤساء القبائل وحكام المدن المغاربة، ولما توفى خير الدين اسندت ولاية الجزائر إلى ابنه حسن باشا الذى واصل سياسة ابيه فى تدعيم السيطرة العثمانية فى بلاد المغرب، لذا عملت القوى الاوربية إلى محاصرة نشاطة والقضاء عليه، لذا قاد حاكم اسبانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية عام ١٥٣٥ حملة لاستعادة سلطان الحفصيين بتونس والذين كانوا يحكمون فى اواخر عهدهم باسم الاحتلال الاسبانى وكانت تونس قد سقطت عام ١٥٣٤م فى يد خير الدين، ونجح شرلمان فى اعادة النفوذ الاسبانى على تونس .

لكن عام ١٥٤٨م شهد عودة القوى التركية إلى ممارسة دورها بقوة فى تلمسان واقاموا على امارتها الامير حسن ابن الامبراطور أبى عبد الله محمد كواجهة للحكم الزياني لكن كان يخضع لحماية القوات التركية، لكن القوى الاسبانية استطاعت عام

١٥٤٤ ان تعيد السلطان محمد السابع ابن ابي عبد الله محمد الزياني إلى عرش البلاد، لكن ثورة عارمة قامت في تلمسان استطاعت ان تنهى حكم هذا السلطان الذي تعاون مع الاسبان وان تعبد أخاه احمد الثالث بن ابي عبد الله محمد. غير انه اعلن تقربه إلى السلطات الاسبانية وابتعد عن الاتراك لكنه خلع من السلطان لكن الاحداث لم تكن لتظل والصراع يدور بين الاخوة على عرش البلاد وكان ان اضطرت القوات التركية ١٥٤٧م بقيادة حسن باشا بن خير الدين ونائبة على حكم الجزائر إلى خوض معركة بموقع بالقرب من مستغانم حيث دارت معركة استمرت لمدة اسبوع او يزيد اضطر الاسبان بعد هزيمتهم إلى الانسحاب إلى وهران وهكذا ظلت لعبة الصراع بين الاخوة والصراع على تولي السلطة الزيانية إلى ان استطاعت امارة الجزائر العثمانية ان تعيد تثبيت كيانه السياسي والاداري وتصدر تنظيماتها التي تكفل لها ادارة هذا الاقليم على اسس واضحة وثابتة لاتسمح بتكرار الاحداث التي تدور بين امراء بني زيان وذلك بعد ان كان قد مضى الوجود التركي اكثر من نصف قرن .

وكما حدث للأسرة الزيانية في تلمسان حدث للأسرة الحفصية في تونس التي سقطت في ايدي الاسبان عام ١٥٣٥م بعد ان حكمت اكثر من مائتي عام (انظر الجزء الخامس من الموسوعة) (اسرة بني حفص في المغرب الادنى) .

وكانت هذه الاسرة قد اصابها الضعف نظرا لعدم قدرة سلاطين هذه البلاد على مواجهة الاخطار الداخلية والخارجية وعدم قيامهم بالمسؤولية التاريخية للمقاومة على عاتقهم حيث استطاع الاسبان في ذلك العام ١٥٣٥م دخول تونس العاصمة بعد معركة استمرت ما يقرب من الاربعين يوما استباح الاسبان العاصمة مدة ثلاثة ايام حتى بلغ عدد القتلى اكثر من سبعين الف نسمة وتبددت ثروات المدينة واثارها ونفائسها واموالها وخضع السلطان الحسن بن محمد لحكم الاسبان بمقتضى معاهدة

نصت على اعتراف السلطة الحفصية بتبعيةها للدولة الاسبانية وملكية الاسبان ملكية مطلقة لمرسى حلق الوادي وقرطاجنة وعنابة والمهدية والزام السلطان بدفع مبلغ مالي سنويا للسلطات الحاكمة في اسبانيا، وان يغلق بلاده امام المهاجرين الاندلسيين المسلمين واليهود، ولقد كان انشغال هذا السلطان بما يلبي رغباته الشخصية دون مصالح الرعية والبلاد والدين سببا في ما اصاب البلاد من فساد فكان ان هيا الله القوى التركية العثمانية لكي تقوم بواجبها الاسلامي مهما يكن نوع الحكم الذي تمارسه لكنها كانت دولة اسلامية تحترم مشاعر البلاد والعباد ولا ترفع راية الصليب فوق قصر الحاكم، لكن تونس كانت قد خضعت للحكم العثماني في الفترة من ١٥٣٣م/ ١٥٣٥م ثم اضطرت إلى تركها لكي تعود إلى دائرة الحكم الاسباني المباشر عام ١٥٧٣م على الرغم من انتصار تركيا على الاسبان في معركة جربة عام ١٥٦٠م التي حلت بالاسبان ككارثة حربية عظيمة انتصر فيها العثمانيون انتصارا ساحقا على القوى الايبيرية في اكتوبر من نفس العام وكانت جربة التي درات فيها المعركة تقع في خليج قابس التونسي وكانت تخضع لحماية اسبانية من قوة بحرية مكونة من ٦٥ سفينة حربية وقد حاصرها الاتراك حصارا محكما دام طوال ستة اسابيع متواصلة لم يكتب لاحد من القوات او السفن النجاة حيث تم ابادتهم نهائيا مما دفع اسبانيا لكي تطلب المساعدة من فرنسا ازاء القوة التركية التي باتت تهدد كل القوة الاوربية في حوض البحر المتوسط مما دفع القوة الاسبانية ان تعمل ما بوسعها العمل على الانتقام لهذه الهزيمة المخزية التي حلت بها ومحاولة الوقوف امام الخطر العثماني الذي بات يرسم صورة المستقبل البحري في حوض البحر المتوسط منفردا لاسيما وان خطط الاتراك كانت ترمى إلى ضرب القوى الاسبانية في المغرب وسواحلها ومالطة وصقلية وجنوب ايطاليا والعمل على اعادة النفوذ الاسلامي إلى الاندلس لكن العلاقات التركية المغربية لم تكن تسير على نفس النهج لاسيما بعد نكسة الاسطول العثماني عام ١٥٧١م في

معركة ليباتو التي انتصر فيها الاسطول الاسباني على الاسطول التركي العثماني كرد فعل على هزيمة جربة المخزية .

لكن الباشوية التركية بعد انتصار جربة عام ١٥٦٠م بدأت تمارس حكمها المباشر وفق الرواية التركية التي عملت على انهاء الوجود الايبيري والاسرتين الزبانية والحفصية والتبعية للامبراطورية العثمانية التي نصت باى للبلاد تنفيذا للحكم العثماني الذي عمل على اخضاع كل الاملاك الزبانية والحفصية لتنظيمات الحكم العثماني المباشر .

في اطار الحكومة بين الاستانه والولايات العثمانية في اطار الحكم الذي تم فيه تقسيم الامبراطورية العثمانية إلى ولايات فقد كان تخطيطا للاسطول الاسباني وكسرا للهجوم الاسباني في نفس الوقت والتوسع غربا على سواحل المغرب غرب شرشال بنحو ١٢٠ كيلو متر باتجاه وهران. كذلك تم لهم الاستيلاء على طرابلس وكانت طرابلس- ليبيا قد وقعت تحت سيطرة الاحتلال الاسباني في الفترة من عام ١٥١٠-١٥٢٥م ولما كان الاهالي قد كرهوا الحكم المسيحي وكانوا قد سمعوا عن سيطرة الاتراك على مصر عام ١٥١٧م وقيام دولة الاتراك القوية التي استولت على القسطنطينية عام ١٤٥٣م بل انهم استولوا على الشرق الاسلامي كله وحمل سلطانهم لقب الخلافة وادركوا في نفس الوقت عدم قدرتهم على محاربة الاسبان فسافر وقد منهم إلى تركيا وكان ذلك عام ١٥٢٥م مستجدين بالخلافة الاسلامية فاستجاب السلطان لطلب الوفد الليبي وأرسل مراد أغا على راس قوة عسكرية ثم امده باسطول بحري تحت قيادة سنان باشا استطاع ان يستولى على مدينة طرابلس عام ١٥٥١م وعين ورغون باشا واليا عليها وهكذا سقطت تحت السيطرة التركية واصبحت بلاد المغرب منذ ذلك الوقت ثلاث ايلات تركية طرابلس، تونس، الجزائر وكانت القوة الحفصية في يد خير الدين ثم ابنه

حسن والتوسع غربا حتى ساحل اسبانيا ورفع شعار انقاذ الاندلسيين الفارين والعمل على تحرير الاندلس وتهديد خطوط الملاحة البحرية الاسبانية في المحيط ولاسيما الممتلكات الاسبانية الامريكية ولقد كانت هذه التوسعات والانتصارات دفعا للحدود التركية العثمانية إلى حدود المغرب الاقصى ووقفا على بوابة المغرب الوطاسي الذي كانت يتهده في تلك السنوات الزحف السعدي القادم من الجنوب والذي كان يدخل في صراع مع بني وطاس حول السيطرة على مراكش .

ومن هنا كانت الفترة التي استغرقها العمل العسكري العثماني في توطيد نفوذه في الجزائر اولا ثم تلمسان من عام ١٥٤٨ حتى عام ١٥٦٠م وانتصاره على الاسطول الاسباني في جربه ثم ما تلى ذلك من بسط النفوذ التركي على تونس وضم هذه الولايات إلى تركيا وتقسيمها كولايات ما هو الا مقدمة للسيطرة الكاملة على كل بلاد المغرب وتوحيده تحت السيادة التركية بعد فترة زادت عن ربع قرن من الزمان تم فيه اخضاع تونس وتلمسان نهائيا إلى امارة الجزائر كانت فيها القوى الاسلامية التي ترفض الخضوع للسيادة الاسلامية التركية نجد لها مبررا قويا للاتجاه نحو طلب المساندة من اسبانيا بحجة الولاء القبلي او الاقليمي والمحافظة على كياناتها الصغرى التي كانت قد وصلت إلى مرحلة الكهولة والشيخوخة والتي لم يعد وجودها على رأس السلطة مبررا تحكمها للبلاد. ولقد كان من عوامل تاخر فرض السيادة التركية على هذه البلاد هو تخلص القيادات في بني زيان وبني حفص من كل تعهداتها للاتراك وكمحاوله كسب ود السلطات الاسبانية مثلما حصل في حملة شرلمان نفسه على تونس ١٥٣٥م وفي مقابل ذلك تنازل السلطان الحفصي عن مدينة عنابة وقد ادى هذا التداخل إلى صراعات قوية بين القوى التركية التي نرى في وجودها في البلاد الاسلامية باعتبارها مقر الخلافة وفي الخلافة نفسها سنداً شرعياً لكي تمارس نفوذها ولكي ذلك كان

يجعل مصير القيادات الزيبانية والحفصية بلا ضمان مما كان يدفعها إلى طلب الحماية الإسبانية وقد اُخِرَ هذا من فرص النظر إلى مشاكل مسلمي الأندلس ومحاولة إيجاد مخرج لحل قبضاتهم التي كانت تتفاقم في ظل محاكم التفتيش والاجبار على التنصر أو ترك البلاد واغراق السفن التي تنقلهم إلى بلاد المغرب أو دفع حكومات بني زيان وبني حفص إلى اغلاق بلادهم في وجه اللاجئين الأندلسيين .

ولقد وضعت السلطة العثمانية نصب عينها ضرورة السيطرة الكاملة على جميع بلاد المغرب من طرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً فكانت السيطرة على طرابلس وبجاية وحلق الوادي ثم أخيراً حجر مادي من أراضي السلطنة الوطاسية بفاس ومن ثم بات واضحاً أن سياسة الغزr العثماني قد حققت أهدافها في إيجاد مواقع متقدمة لها في المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، ولكن هذا لم يكن هدفها النهائي في امتلاك هذه المعابر حيث أنها كانت ترى في القضاء على كل الجيوب التي أقامتها القوى الأيبيرية الإسبانية والبرتغالية عائناً يقف أمامها تحذ من تطلعاتها إلى الأندلس في وقت كان العالم الأوربي يموج فيه بالصراعات مما كان سيدفع بالقوى العثمانية بالتدخل لولا أنها وجدت تحاذلاً من قوى الزيبانيين في تلمسان والحفصيين في تونس والذين كانوا يلجأون إلى هذه القوى للاستنجاد بها وكذلك كانت القوى الوطاسية تتخاذل في تعاونها مع الأتراك العثمانيين من أجل إنهاء الوجود الاستعماري ولم تكن تلجأ إلى طلب المساعدة من القوى العثمانية إلا لحظة الاحساس بالخطر الدائم لاسيما في وجود قوى نامية ناشئة تسعى لكي تجتذ لها مكاناً في الصراعات التي تجرى على أرض المغرب لاسيما أن القوى التركية بعد أن بسطت لواءها على المغريبين الأوسط والأدنى كانت تتطلع إلى المغرب الأقصى الذي كان في تلك الحقبة من السيطرة العثمانية على بلاد بني زيان وبني حفص يواجه صراعاً بين الوطاسيين المعاصرين لكل هذه الأحداث وبين

السعدين القادمين من الجنوب لإنشاء دولتهم على حساب بني وطاس كما كان للأتراك كلمتهم على حساب بني زيان وبني حفص وهكذا كان الوجود التركي معاصراً لحكم بني وطاس في المغرب الأقصى .

الفصل الثالث

الاستعمار الايبيري (البرتغالي - الاسباني) وموقف بنى وطاس

أ- الاحتلال البرتغالي

كانت معركة طريف التي دارت رحاها في جمادى الاولى عام ٧٤١هـ / ٣٠ أكتوبر ١٣٤٠م بين القوات الاسلامية بقيادة سلطان بنى مرين ابي الحسن على بن عثمان بن يعقوب وبين ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر والتي تطلق عليها المصادر الاسبانية واقعه نهر سلاوا على اسم النهر المجاور لطريف فى جنوب اسبانيا بداية النهاية للوجود الاسلامى فى بلاد الاندلس حيث كانت كارثة طريف قد وضعت حدا للمساعدات الاسلامية القادمة من المغرب لآخوة الاسلام فى الاندلس لانه توالى على حكم بنى مرين سلاطين لم تكن لهم قوة اسلافهم ولا حذرهم وحيطتهم وشعورهم بالخطر المحدق بالاسلام واهله ودياره على ارض الاندلس وعاشوا عيشة ترف ولهو ومن تصاريه القدر العجيبة انه فى الوقت الذى كانت فيه عوامل الضعف تدب وتضرب باطيانها فى فاس والمغرب كانت القوة تتجمع فى كل من اسبانيا والبرتغال لكى تأخذ بيدها زمام المبادرة بعد احراز الفونسو نصره الحاسم فى معركة سلاوا والذى يقال ان سلاح المدفعية استخدم فيها لأول مرة فى تاريخ أوروبا .

ومن هذه المعركة بدأت حرب الاسترداد تأخذ بعدا آخر وبدأت حرب الغزو الخارجى ترسم فى اذهان الاوربيين وقيامهم بالحرب المقدسة ضد الوجود الاسلامى وبدأت موازين القوى تميل لصالح هذه القوى التى رأت فى نفسها القدرة على الامساك بزمام الامور فى الصراع الدائر على أرض الاندلس والعمل على نقله للمغرب من منظور حصار غرناطة بالاستيلاء على الموانئ المغربية وقطع الصلة بينها وبين الامدادات التى قد تصلها من الجانب المغربى فى المستقبل القريب .

ولما كانت القوى الايبيرية البرتغالية تتربص بديار الاسلام وانتهاز الفرص لتحقيق اهدافها فان حكومة البرتغال انتهزت واستغلت الاحداث والظروف السياسية والاقتصادية السائدة بالمغرب فى عام ١٤١٥م حيث كان الطاعون منتشرا على نطاق واسع بالبلاد والمجاعة تسود الديار من جراء النزاع الدموى الحاد الذى يدور حول تولية عرش البلاد بين السلطان المرينى ابي سعيد عثمان واخيه مولاى يعقوب . وكان ان قامت البرتغال فى سرية تامة ومطلقة باعداد حملة حربية كبيرة احاطتها بكل وسائل الكتمان من اجل تحقيق اهدافها المنشودة بعد أن أعدت لها اعدادا ضخما من اسطول مكون من مائتين وعشرين سفينة حربية تقل ثلاثين الف جندي واستطاعت فى نفس يوم وصول الحملة ١٢ اغسطس عام ١٤١٢م احتلال المدينة والسيطرة عليها . وبذلك سقطت سبتة فى ايدي البرتغاليين .

ولقد كان نقل ميدان الصراع من الاندلس إلى الشواطئ المغربية هو انهاء الوجود الاسلامى بالاندلس وبداية مرحلة جديدة من الصراع وهى المرة الاولى فى تاريخ الصراع بين القوى الاسلامية فى حوض غربى البحر المتوسط وبين القوى المسيحية بزعامة الياوية يتم فيها احتلال مدينة اسلامية وقد كان هذا الاحتلال بداية للتوسع البرتغالى فيما وراء البحار نحو انشاء امبراطورية على حساب الديار الاسلامية بعد ان استطاع ملوك المسيحيين فى شبه جزيرة ايبيريا التغلب على القوى الاسلامية من اجل الاسترداد ونجح هؤلاء الملوك فى تحقيق اهدافهم بفضل الخلاف الذى كان يدب بين قادة المسلمين وسوء الظن الذى ساد بين ملوك المسلمين فحرمهم نعمة الاتحاد والتآلف من اجل الوقوف فى وجه هذا الخطر، بل نجح الامراء المسيحيون فى أن يخرجوا باساطيلهم البحرية وجيوشهم البرية ليغزوا الشاطئ المغربى المقابل لاسيما ان الملك جون الاول الذى ارتقى عرش البرتغال عام ١٣٨٥م قال لاولاده ليس هناك ميدان يكسبهم الفخر

من حملة ضد المغاربة في بلادهم فشرع في اتخاذ العدة لهذه المغامرة العظيمة التي اثارت كثيرا من القلق لدى ملكي قشتالة وغرناطة (لاحظ تحالف ملوك المسلمين في غرناطة مع قشتالة التي ابادت ديار المسلمين وقضت على الوجود الاسلامي بالاندلس ولكنه ارسل يهدئ من روعهما ويطمئنهما ان الهدد الرئيسي من عزواته ليس الا الوقوف في وجه رجال الجهاد الاسلامي البحري والتي اطلقت عليهما المصادر الاوربية ظلما وعدوانا اسم قراصنة البحر المسلمين والذين كانوا يهاجمون المراكب المسيحية، لذا فان الهجوم على سبته ليس الا هجوما على احد معاقل هؤلاء الغزاة البحرين المجاهدين في سبيل الدفاع عن العقيدة الاسلامية وذكرت بعض المصادر الاخرى ان الاسطول الذي اعد للغزو كان مكونا من اثنين واربعين ومائة قطعة حربية كلها برتغالية الجنسية الا عددا قليلا منها ولم يأت عام ١٤١٥م حتى كانت سبته قد سقطت في أيدي البرتغاليين وعين حاكما عليها الامير هنري الابن الثالث للملك جون وهو الذي حمل اسم هنري الملاح .

وكانت سياسة القضاء على الوجود الاسلامي في المغرب واتباع سياسة الارض المحروقة واخلاء البلاد من سكانها وشهوة التوسع قد دفعت هنري الملاح واخيه فرناند والذين نهضا من اجل المزيد من التوسع في بلاد المغرب وتوسيع دائرة نفوذهما والعمل على احتلال مدن جديدة فكان ان اعدا بعد أحد عشر عاما من احتلالهم سبته وفي عام ١٤٣٦م حملة للاستيلاء على ميناء طنجة الهام لكن هذه الحملة فشلت في تحقيق الهدف التي تحركت من أجله وذلك للدور الهام الذي قام به الوزير الوطاسي ابو زكريا يحيى بن زيدان الوطاسي وزير السلطان عبد الحق آخر سلاطين بني مرين حيث كانت هذه الحملة قد تسربت انباء تحركها إلى مدينة طنجة وكانت الحملة مكونة من ثمانية آلاف جندي حيث لاقوا هزيمة منكرة على أيدي حامية المدينة والاهالي الذين

دافعوا عن ديارهم وعقيدتهم بالاضافة إلى القوات التي قدمت من فاس وبعث بها الوزير الوطاسي ووقع المغاربة بالبرتغاليين هزيمة قاسية وتم حصار القوات من الخلف والامام بعد وصولهم بثلاثة ايام مما دفعهم إلى رفع الحصار والاعتراف بالهزيمة والانسحاب ودارت محادثات اظهر فيها الجانب المغربي الاسلامي روح التسامح والمحبة التي عرف بها المسلمون وتركوا الحملة تعود إلى ميناء سبته والتي وعد البرتغاليون الانسحاب منها في مقابل تركهم يعودون إلى سفنهم والمدينة المحتلة وكانت روح التسامح التي تعامل بها المسلمون المغاربة قد جعلت البرتغاليين ينكصون بعهدهم وهذه طبيعة الانسان الاوربي الكراهة والحاكمة للاسلام وعقيدته السمحة على مر التاريخ والازمان بعد ان احتفظ المغاربة بشقيق هذا الملاح وهو الابن الرابع والاصغر للملك جون الاول ملك البرتغال رهينة لديهم لكن الروح الصليبية ضحت بابن الملك وتركته سجيناً في سجون فاس في مقابل تحقيق الهدف والمبدأ الذي تصر اليه الروح الصليبية وهي تدمير ديار الاسلام وطردهم منها وقد ظل فرناندو سجيناً حتى مات في يونيو ١٤٤٣م اي بعد اسيرة بسبع سنوات وهكذا كانت هذه الروح الصليبية مشبعة بالكراهية للاسلام .

وفي عهد الملك البرتغالي الفونسو الخامس تمكن البرتغاليون من احتلال ميناء القصر الصغير وهو الميناء الذي يقع في المسافة بين ميناء سبته المحتل وميناء طنجة التي حاول البرتغاليون احتلالها ويبدو ان الذي دفع البرتغاليين لهذا هو قرب الميناء من سبته وذلك في عام ١٤٥٨م وهكذا سارت الحركة الاستعمارية البرتغالية في طريقها المرسوم نحو التوسع والعمل على امتداد الدائرة الاستعمارية وانتهاز الفرص للاستيلاء على اراضى جديدة في وقت كان المغرب فيه يعاني من المشاكل الداخلية والصراعات مما دفع الامير هنري الملاح للعمل على تحقيق هدفه بضرورة الوصول إلى تحالفات جديدة

للعمل على محاربة المسلمين لكن الأمير هنرى الملاح مات عام ١٤٦٣م بعد استيلائه على ميناء القصر الصغير، لكن فى نفس العام الذى مات فيه الأمير هنرى قام الملك الفونسو الخامس فى السنة المذكورة بقيادة حملة حربية قادها بنفسه من أجل توسيع دائرة السيطرة البرتغالية على بلاد المغرب وذلك عودة للاستيلاء على طنجة لكن هذه المحاولة باءت بالفشل كما باءت قبلها حملة عام ١٤٣٦م وفشلت فى احتلال المدينة رغم المحاولات المتعددة التى قام بها البرتغاليون لكن صمود الحامية المغربية حال دون تحقيق الهدف الصليبي بل ان كارثة حلت الاسبان اذ وقع فى الاسر اكثر من ١٠٠ شخص من النبلاء وعلية القوم ورجال البلاط وقتل اكثر من ٢٠٠ مائتى من نفس الطبقات العليا فى القيادة البرتغالية واطلق البرتغاليون على طنجة مقبرة نبلاء البرتغال لكن رغم المحاولات الفاشلة التى منى بها البرتغاليون الا أنهم وقد رسموا لانفسهم هدفا لا يمكن ان يحيدوا عنه قاموا فى اعوام ١٤٤٨، ١٤٤٩م باعداد حملة للاستيلاء على الدار البيضاء التى كان يطلق عليها فى السابق مدينة انفا واستطاعت الحملة البرتغالية ان تدخل المدينة التى وجدوها خالية من اية دفاعات مغربية لكنهم اضطروا إلى تركها وان كانوا قد احتلوها دون مقاومة تذكر لما احتلوا القصر الصغير قبل ذلك بعشر سنوات دون مقاومة من المدينة بعد ان جربة عام ١٥٤٨م على القصر الصغير حملة مكونة من اسطول ضخيم به اكثر من مائتى وثمانين سفينة قتالة تصل قواتها خمسة وعشرين ألف رجل وسيطر البرتغاليون على المدينة بعد قتال طويل وضاد لان الامدادات المغربية لم تصل إلى سكان المدينة فى الوقت المناسب حيث جاءت متأخرة أربعة شهور عن ميعاد التسليم ولم يجد لها وسيلة لطرد الحامية البرتغالية التى قاومت الحصار المغربى حتى اضطر المغاربة إلى رفع الحصار عن القصر الصغير فى يناير ١٤٥٩م ويبدو ان الهدف من التوسع البرتغالى فى بلاد المغرب عن طريق ساحل البحر المتوسط وليس عن طريق ساحل مراكش المطل على المحيط الاطلسى هو العمل على

شطر المغرب الاسلامى إلى قسمين حتى يمكن التمكن من اراضيه والقدرة على اجتياح الداخل فى يسر وسهولة .

وازاء تضارب وتضاد الاهداف التوسعية البرتغالية الاسبانية فانه قد تم فى عام ١٤٩٤ وذلك بعد نجاح حركة الاسترداد المسيحية من تصفية كل الوجود الاسلامى بعامين اثنين ١٤٩٢م والقضاء نهائيا وللابد على امارة غرناطة الاسلامية بالاندلس ان عقدت البرتغال واسبانيا اتفاقية فيما بينهما لتقسيم خطوط الاحتلال والسيطرة على ديار المسلمين وقد عرفت هذه الاتفاقية باسم اتفاقية توردسلاس وتم بموجبها تقسيم المستعمرات بحيث كانت الاقاليم الشرقية من نصيب البرتغال والمستعمرات الغربية من نصيب اسبانيا هذا بينما بلاد المغرب الاسلامى قد اضيفت لها اتفاقية اخرى عام ١٥٠٩م تم بمقتضاها جعل المستعمرات الاسبانية تقع فى الشرق فى الجزائر وتونس وطرابلس والمستعمرات الغربية تقع فى المغرب الاقصى متخذة من خط طول ٢ شرقا الحد الفاصل مع امتداد ساحلى فى المغرب يجعل مليلة وباديس وغمارة تدخل ضمن الاملاك الاسبانية وكذلك قلعة سانتا كروز فى الجنوب المراكشى .

ولقد كان ظهور السيادة التركية العثمانية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط وكذلك القضاء على غرناطة الاسلامية والنجاح الباهر الذى احرزه التوسع الايبيرى واستكمال حركة الاسترداد المسيحى كل حلقاتها دافعا وراء هذه الاتفاقيات تقسيما لديار الاسلام بالمغرب وارضاء للروح البابوية والمتعطشة للديار الاسلامية وبسبب تحريض رجال الدين المسيحى الكاثوليكى لهذه النشاطات التوسعية فى ذلك الوقت وقد كانت فكرة القفز وراء البحار فلسفة استعمارية ذات شقين فاما الشق الاول فهو ضرب المسلمين فى ديارهم وابعادهم عن اخوانهم فى الاندلس والهدف الثانى العمل على الحيلولة دون تفكير المسلمين بالعبور مرة اخرى لاعادة فتح شبه جزيرة ايبيريا مرة اخرى،

كذلك للقضاء على الروح القتالية العالية التي كان يديها المقاتل المسلم في شبه جزيرة ايبريا جعلهم يتبعون المسلمين في اى مكان يعيشون فيه لاسيما في المغرب حيث كان المغرب له النصيب الاكبر من مهاجرى الاندلس. وهكذا كان انتقال الصراع بهذه الصورة التي عرضنا لها انتقالا من شبه جزيرة ايبريا إلى الاراضى المغربية وتلقت المغرب الضربات المسيحية المستمرة والمتواصلة نظرا لما تملكه المغرب من سواحل طويلة على البحر المتوسط وساحل المحيط الاطلسى وبحكم موقعها الجغرافى قريبا من البرتغال واسبانيا وهكذا شهد اواخر القرن الخامس عشر الميلادى بل ربيع الاول انتكاسة اسلامية وتحول سياسة الهجوم الاسلامى إلى الدفاع امام القوى الايبيرية بسبب الضعف والوهن والتدهور الشديد اللذين اصابا جسد هذه الدول وكان المخطط الاستعمارى الايبيرى قد عمل على تطويق بلاد المغرب واحتلال موانيه المطلة على البحر المتوسط ولقد كانت اقدم محاولة استعمارية للشواطىء المغربية هي التي قد قام بها البرتغاليون عام ٦٥٨هـ / ١٢٥٥م حين قدم البرتغاليون فى هذا العام وفى عهد الامير المرينى أبى يوسف بن عبد الحق المرينى واحتلوا مدينة سلا، لكن المغاربة نجحوا فى طردهم منها بعد اربعة عشر يوما ثم انهم دخلوا مدينة مراكش عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٥م .

ومن هنا فقد استطاع البرتغاليون معرفة مراكز الضعف فى البلاد المغربية. وقد استطاع البرتغاليون ايضا السيطرة على ميناء اصيلام عام ٨٧٦هـ / ١٤٧٣م. واستولوا فى نفس الوقت على طنجة، ومن حسن نية حكام المسلمين فقد تحالف المسلمون فى المغرب بقيادة الوطاسين مع الاسبان واشتركوا فى الهجوم على مدينة سبتة عام ٨٧١هـ / ١٤٧٦م بعد احتلالها من قبل البرتغاليين باكثر من نصف قرن لكن الهجوم فشل بعد خذل الاسبان للوطاسين، وفى عام ١٤٨١هـ بسط البرتغاليون حمايتهم للمرة الثانية على مدينة اسفى وفى عام ١٤٨٦م / ٨٨١هـ سيطروا على مدينة ازمو

وفى عام ١٤٩٧ / ٨٩٢هـ احتلوا مدينة ساء الواقعة على المحيط الاطلسى وفى عام ١٥٠٥م نجح البرتغاليون ايضا فى احتلال ساحل اغادير على المحيط الاطلسى وكان ان حدث اتفاق عام ١٥٠٩م بين البرتغال والاسبان ثم بمقتضاه اعطاء الحق للبرتغال للتوسع فى مناطق سواحل المغرب الجنوبية الاطلسية فى مقابل اعتراف البرتغال لاسبانيا بمشروعية التوسع فى الجزء الشرقى من ساحل المغرب الشمالى فى المنطقة من باديس حتى فضاضة ومليلة وربما كان فشل البرتغال فى احتلال الموانئ الشمالية التي تتبع مملكة فاس هو الذى حدا بها إلى الاتجاه إلى البلاد الجنوبية أو مملكة مراكش .

لكن هناك آراء تذكر ان التقسيم الذى تم بين البرتغال واسبانيا قد احيى الدور القديم لقيستالة وحصلت على نصيبها فى بلاد المغرب وان هذا التقسيم قد نبع من مشاعر العداوة المتحكم للمسلمين ومن دوافع صليبية كارهة لكل ما هو اسلامى ومن دوافع حركة الاسترداد المسيحى فى ايبريا التي كانت تحكمها قحة المشاعر الصليبية فى اواسط القرن الخامس عشر الميلادى، لاسيما ان البرتغال قد سعت مبكرا إلى البابوية فى روما للحصول منها على البراءة المقدسة لاضفاء الشرعية الكنسية على التوسع البرتغالى وراء البحار وذلك فى اعقاب الدوى الهائل فى الاوساط المسيحية الاوربية اثر نجاح محمد الفاتح الخليفة العثمانى فى احتلال القسطنطينية عام ١٤٥٣م / ٨٤٨هـ فكان البابا نيقولا الخامس بابا الفاتيكان فى روما قد منح البرتغال فى الثامن من يناير عام ١٤٥٤ وبعد سقوط القسطنطينية بعد شهور حق التاج البرتغالى فى احتلال سبتة باسم المسيحية والبابوية وغيرها من الممتلكات الساحلية فى شاطئ الغرب وما بعدها .

وهكذا كان فكر العصور الوسطى تحكمه روح التعصب المسيحى والتسامح الاسلامى ومن هنا تلاقت كل الاهداف البابوية مع الاهداف البرتغالية والاسبانية فى خط واحد وهو ضرب الديار الاسلامية لاسيما بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م .

وهكذا اتخذت الروح الصليبية شعارا ترفعه البرتغال بالتعاون مع اسبانيا وبمباركة من البابوية .

ولقد كانت كل السفن الحربية والاستطلاعية والكشفية ترفع شعار الصليب في حين لم يكن شعار المسلمين المصحف او السيف او شهادة لا اله الا الله محمد رسول الله ترفع وكانت الروح الصليبية واضحة كل الوضوح مهما حاول مؤرخو العصور الوسطى وكتاب الحوليات المسيحية ربط دفاع الحركة الاستعمارية بدوافع سياسية او اقتصادية او غيرها من الدوافع فتاريخ الحركة الاستعمارية في بلاد المغرب لا يمكن ان تتسع له بضع صفحات في ثنايا هذا البحث الموجز الذى يقدم للقارئ العادى والمتخصص يحتاج إلى جهد جهيد للتوسع في هذه الحركة التى رفعت شعار الابداء التامة لكل ما هو مسلم والا لما لجأت البرتغال للحصول على براءة من البابوية الا لكى تكون الروح المسيحية هى الدافع وراء كل هذا النشاط وكانت براءة البابوية هى الوسام الاكبر في حركة الانتشار السريع للقوى البرتغالية بل كانت حافزا مشجعا لالهاب روح الصليب في نفوس الجند الذين كانوا يتدفعون تحت شعار الصليب للتوسع في اراضى المغرب كلما سنحت لهم فرصة مناسبة وكلما وجدوا ضعفا في الصف الاسلامى المغربى المسالم الذى كان يتخذ من القرآن الكريم وسنه رسول الله ﷺ منهاجا في تعامله مع القوى المسيحية التى كانت تنكث بالعقود والمواثيق ما دامت تقف في طريق تحقيق اهدافها ولم يكن يهمها الا الهدف وهو السيطرة على كل ديار المسلمين .

ولقد كان كل هذا النشاط الاستعمارى البرتغالى يتم في أواخر عهد الاسرة المرينية وفي سيادة عصر الوزراء الوطاسين الذين كانت بأيديهم مقاليد الامور في البلاد، لكن ضعف السلاطين والوزراء كان وراء كل هذه النكسات الاسلامية والسيطرة الاستعمارية البرتغالية في ديار المغرب الاسلامية .

وقد اتساع نطاق الغزو البرتغالى للمغرب في النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى حيث شملت هذه الفترة موانئ البحر المتوسط والاطلسى على السواء .

وفي فترة سيطرة اليهوديين هارون وشاويل على عبد الحق المرينى تمكن البرتغاليون من تحقيق اهدافهم في السيطرة على البلاد الواقعة على الساحل ان تولى الوزارة هذان اليهوديان في الفترة من عام ١٤٢٠ - ١٤٦٥ م وقد استولى البرتغاليون على ازموار عام ١٤٦٨ في ظل فترة حكم نقيب الاشراف أبى عبد الله محمد الادريسي في فاس (٨٦٩ - ٨٧٦ هـ / ١٤٦٥ - ١٤٧٢ م) ومن هنا فقد استغل البرتغاليون فترة الفوضى والصراع الداخلى واستطاعوا السيطرة على الموانئ الهامة وكذلك وقبل سيطرة الوطاسين بعام عام ١٤٧١ م سيطر البرتغاليون على ميناء اغادير في الساحل الاطلسى الجنوبى وكذلك استولوا على أصيلا في نفس العام وبعد عامين ١٤٧٣ م استولوا على أزموار وكذلك على اسفى عام ١٤٨٨ في ظل حكم الوطاسيين .

وهكذا بسطت البرتغال نفوذها على جميع بلاد المغرب الساحلية ومنها سبتة والقصر الصغير وطنجة وأصيلا وانفا (الدار البيضاء) ومازكان حصن البريجة والعرائش واغادير واسفى والمهدية ومن هنا فلم يبق في ايدى المسلمين اصحاب الديار الا اعداد قليلة من الثغور المغربية مثل سلا ورباط الفتح وطارق البرتغاليون المغاربة بعيدا عن المدن الساحلية مما دفع الاهالى إلى الانطواء في اطراف الصحراء والقرى النائية وكان فرض السيطرة البرتغالية على بلاد الهبط الجنوبية وساحل مراكش الجنوبى قد أصبح اكثر وطأة منها في شمال البلاد واكثر توغلا في الاراضى الداخلية اذ امتد نفوذهم إلى مدينة مراكش نفسها كما اسسوا هم انفسهم ميناء مزعان ولقد كانت محاولة التدخل في داخل البلاد عام ١٤٨٩ ردا على حركة الجهاد الاسلامى لطرد البرتغاليين من بلاد المغرب والتى قادها اشراف شفشاون مما دفعهم إلى الزحف إلى مراكش والجدير

بالذكر ان البرتغاليين كانوا قد نزلوا عام ١٥٠٢م على مقربة من ميناء ازموور وهو ميناء كبير على المحيط الاطلسي ولكن لم يتم لهم احتلاله الا عام ١٥١٣م كما استولوا عام ١٥٠٧ على ميناء اغادير للمرة الثانية بعد ان كانوا قد احتلوه عام ١٤٧١م لكنهم طردوا منه وعادوا اليه وقد اتاحت الفرصة للبرتغاليين عند احتلالهم لميناء ازموور بالتوغل منه جنوبا لغرض سيطرتهم على مازكان وقد حاول البرتغاليون استمالة بعض زعماء القبائل والمدن الداخلية ولكنهم قبلوا بالرفض الامن فئة صغيرة من ضعاف النفوس وطلاب السلطة من العملاء الماجورين وازاء الفشل في تحقيق الاهداف صدرت الاوامر من لشبونة العاصمة البرتغالية إلى قواتها المراقبة في اسفى وازموور ان تنهيا احتلال العاصمة الجنوبية للبلاد مراكش وفي مطلع عام ١٥١٥م كانت مراكش محاصرة بقوات برتغالية لكن المحاولة منيت بالفشل الذريع بسبب المساعدة التي قدمها حاكم فاس السلطان محمد البرتغالي الوطاسي للمجاهدين وكان فشل احتلال البرتغاليين لمراكش دافعا للانجاء لاحتلال فاس العاصمة والقضاء على الحكم الوطاسي فارسلوا اسطولا برتغاليا عظيما إلى ميناء المعمورة في يناير عام ١٧١٥م ولكنهم انسحبوا بالقوة في نفس العام نتيجة لفشلهم في احتلال مراكش والمعمورة وقد ادى التقاعس عن الجهاد إلى فتح المجال امام الاحتلال البرتغالي في ارسال حملاته إلى مراكش والمعمورة بل انه استطاع ان يمد نفوذه إلى اقليم السوس ودرعه ومن اسقى إلى مراكش وهكذا فان العهد الوطاسي قد شهد سقوط معظم الموانئ الشمالية إلى نهر سبو وموانئ الجنوب من مصب ام الربيع إلى السوس كانت كلها بيد البرتغاليين فما عدا سلا ورباط الفتح كما ذكر سابقا التي تحولت إلى حصون اسلامية قوية وقد استغرق البرتغاليون نحو ثلاثة ارباع القرن (٧٥ عام) في احتلال الموانئ الشمالية ومثلها في ضم الموانئ الجنوبية وهكذا حصلت البرتغال على النصيب الاكبر من الموانئ من الموانئ المغربية في الشمال والجنوب سعيا للدخول إلى داخل البلاد .

(ب) «السيطرة والاحتلال الاسباني»

لم تكن اسبانيا قد دخلت ميدان السيطرة على بلاد المغرب الاسلامي الا بعد توقيع اتفاقية «توردي سلامي» في يونيو ١٤٩٤م والتي بمقتضاها تخضع اقليم طرابلس وتونس والجزائر للسيطرة الاسبانية ومن هنا بدأت اسبانيا تمارس سيطرتها وتوسعاتها وكما اتجهت الغزوات إلى تونس ومدن المغرب الاوسط فانها اتجهت إلى طرابلس بليبيا بسبب محاربة المسلمين بها وما كان يتردد عليها من قوافل قادمة من داخل افريقيا وخاصة برنو وتشاد وكاتم وكانت تزخر بنشاط تجاري بعد ان استعادت ثقة التجارة البحرية مع الموانئ الايطالية ومع ميناء مرسلية الفرنسي، لذا اغار عليها الاسبان واستولوا عليها في بداية القرن السادس عشر ولكن هذا لم يدم اكثر من خمس عشرة سنة (١٥١٠ - ١٥٢٥م) اقاموا خلالها سورا حول المدينة وما زالت اثاره باقية ولم تلبث اسبانيا ان تنازلت عنها لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يسكنون جزيرة مالطة وظلت سيطرتهم عليها من عام ١٥٢٥ إلى عام ١٥٥١م إلى ان طردهم منها الاتراك ايام سليمان القانوني .

وليس معنى هذا ان الاسبان لم ينافسوا البرتغاليين في السيطرة على بلاد المغرب الاقصى لاسيما جنوب مراكش اذ تذكر المصادر الاسبانية ان حاكم الجزر قد اقام محطة للصيد وتجارة الرقيق في مكان سموه (سانتا كوردي ماركيبيا) وانهم احتلوه عام ١٤٧٧م إلى عام ١٥٢٤م ولا يعرف المغاربة اسم هذا المكان كما انه يصعب تحديد موقع هذه المحطة غير انه بسبب تحديد الاسبان للمطالبة بهذا الموقع فقد تحايل الخبراء الاسبان فادعوا انها تقابل منطقة سيدى افنى، ولكن على اية حال فقد انصرف اهتمام الاسبان بالساحل الغربى منذ القرن الخامس عشر وذلك إلى ساحل البحر المتوسط وذلك اثر الاتفاقية المشار اليها والتي قسمت المغرب إلى قسمين الاولى تقع غرب حجر

باديس وقد تركت البرتغال والثانية تقع إلى شرق هذه النقطة ويتولى الاسبان فيها مهمة حرب الاسترداد وكان الاسبان في ذلك الوقت يحتلون مينائى سبتة ومليلة ومن ثم اتجهوا شرقا إلى ساحل الجزائر ثم تونس وطرابلس .

ولقد قامت اول محاولة لتنفيذ خطة الاسبان فى شمال افريقيا (المغرب العربى) عندما نزلت اول الحملات الاسبانية فى ميناء المرسى الكبير فى غرب الجزائر غير ان التغلغل الحقيقى على سواحل المغرب لم يبدأ الا فى عام ١٥٠٨م عندما استولى الاسبان على حجر بادس وفى العام التالى سقطت وهران وبجاية فى ايديهم وفى عام ١٥١٠م دمر ميناء طرابلس واضطرت موانى دلس الجزائر إلى دفع جزية للاسبان وكانوا قد اقاموا امام هذه الموانى حصنا على صخرة مواجهة وبعد ذلك عقدت مملكة تلمسان معاهدة صلح فى عام ١٥١٢م اعترفوا فيها باستيلاء الاسبان على عدة موانى فى غرب الجزائر .

كما ان اسبانيا استولت على مليلة ويونة (وعنابة) وهران وكان لها وجود على الساحل الاطلسى للمغرب فيما ادعته من حقوق فى الاراضى المقابلة لجزر كناريا وبالتحديد فى المنطقة الممتدة ما بين راس كانت ورأس تؤيد (اسفى وافنى) ووضح نشاطها فى تجارتها من ميناء ناركوكو (شمال اغادير) استنادا إلى حماية القلعة الاسبانية فى سانت كروز عند عين فوتى .

ولقد كان ضعف بنى وطاس وغيرهم من سلاطين بنى حفص وبنى زيان سببا فى نجاح الحملات الحربية الاسبانية فى الاستيلاء على اجزاء من الشاطئ ثم بناء حصون فيها تقيم بها حاميات اسبانية لمرقلة الكيان الاسلامى وتعطيل مصالحها وكانت الغيرة المسيحية سببا فى قيام كثير من هذه الحملات لاسيما وبعد ان الحرب تنتقل إلى بلد خارجى غير بلادهم، كما ان حصونهم وحامياتهم تمنع الاساطيل الاسلامية من

الخروج من الموانى الاسلامية لجندة مسلمى الاندلس هذا إلى ان الصراع الدينى للاسلام وقوته يضاف اليهم طمعهم فى الاستيلاء على الذهب والتوابل وملح البارود وغيره من منتجات هذه السلطنات الاسلامية والتى كانت تحمله سفنهم من هذه البلاد ومن هنا كانت تلك الحركة الاستعمارية الواسعة التى تزعم بابا روما الدعوة لها وحمل رايتها ورفع الصليب اعلانا بمحاربة المسلمين فى عقر دارهم وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى وبالتحديد عام ١٤٥٣م .

لكن القوى التركية العثمانية والقبائل المؤيدة لها دفعت الحركة الاستعمارية الاسبانية إلى ان تتوقف عن التوسع بل تنحسر عن مستعمراتها ولم يبق لها سوى قاعدة مليلة ووهران بعد ان تخلت عما كان بيدها من قواعد ساحلية سيطرت عليها على الساحل التونسى واللىبى ولم يبق فى يدها الا القواعد الغربية من السواحل المغربية والقرية للاساطيل الاسبانية. والتى تكون على مقربة من مضيق جبل طارق بحيث لا يكون الفاصل بعيدا عن الساحلين المغربى والاسبانى فكان لها ميناء سبتة وطنجة ولم يكن هذان الميناءان سوى جيوب استعمارية مقطوعى الصلة بالاحواز (الاماكن) المجاورة لهما وسكانها بسبب العداء التاريخى بين القوى الاسبانية المستعمرة وبين شعوب المغرب الاسلامى لاسيما بعد نمو القوى التركية العثمانية كما سبق ان عرضنا سابقا على حساب الانحسار الاسبانى الذى راي فى الوجود التركى لاسيما بعد ترحيب اهالى البلاد به خطرا يتهدهه فكان ان انسحب بالقوة، او انصرف الممتلكاته فى جزر البحر الكاريبى .

وكان الاسبان قد اتخذوا قبيل طردهم من بلاد المغرب الاوسط وتونس وطرابلس من ميناء المرسى الكبير قاعدة حربية للهجوم على الشواطئ واستمر الاسبان فى هجماتهم فاستولوا على مدينة فضاضة عام ١٥٠٦م ووسعوا من نطاق تحركاتهم

العسكرية في شمال بلاد المغرب وسقطت العديد من الموانئ والسواحل وهكذا فانه على مدى قرن ونصف من الزمان سقطت المغرب الأقصى في ايدي الاسبان والبرتغاليين واصبح المغاربة تحت رحمة الاسبان والبرتغاليين بعد احتلال معظم ديارهم .

وقد كان للاسبان وجود في ميناء عنابة منذ عام ٨٦٧هـ / ١٤٦٣م ومعه بداوا هجومهم الكبير إلى المغرب الجزائري او التلمساني باحتلال مدينة المرسى الكبير عام ١٥٠٥م وبمجرد تمركزهم بالمدينة نشطت حركتهم التجارية واقاموا سوقا تجاريا وتعاملت معها القبائل المحيطة بالمدينة وتوسعت دائرة هذا التعاون مع احتلال وهران عام ١٥٠٩م لكن لما احكم الاسبان سيطرتهم على هذه البلاد فانهم فرضوا قيودا شديدة على الحركة التجارية لاضعاف قوة البلاد اقتصاديا ومن ذلك نجد الملك فرديناند في عام ١٥٠٥م يصدر قرارا بوقف التجارة مع باديس وجميع مغاربة افريقيا وفي عام ١٥٠٦م حرمت الملكة التجارة مع تلمسان وغيرها من المدن المغربية فيما بين مضيق جبل طارق وتونس، لكن الحكومة الاسبانية قررت في عام ١٥٣٠م احتكار حركة التجارة والتبادل التجارى وسحبت من حاكم وهران وغيره من حكام المدن سلطة البت في المسائل التجارية التي تخص بادس وتلمسان وننسى .

وقد استخدم الاسبان اقصى درجات القسوة في تعاملهم مع السكان المغاربة على الساحل ومن ذلك فانه عندما دخلوا مدينة وهران الجزائرية قتلوا من سكانها اكثر من اربعة آلاف نسمة وبلغ عدد الاسرى الذين سيقوا إلى السفن لبيعهم كرقيق اكثر من ثمانية آلاف رجل بينما لم يخسر اسبانيا غير ثلاثين رجلا وقد كتب قائد الحملة إلى ملك اسبانيا يقول له ان احتلال المدينة كان سهلا والعملية العسكرية كانت ميسورة وهذا الانتصار الميسور للاسبان جعل المسلمين يعتقدون ان الاسبان ما جاءوا إلا من اجل السلب والنهب وانهم متى ادركوا غايتهم وبلغوا هدفهم فانهم سوف يغادرون

البلاد مع الاسلاب وهذا ما جعل الخسائر في القتلى والاسرى تكون كثيرة حيث ان الاسبان كان هدفهم هذه المرة السيطرة والاحتلال الدائم للبلاد بعكس التوقع الذي كان يدور في اذهان الاهالي وكان من القبيل ان تكون هذه المدن الساحلية على اتم استعداد للقتال والمقاومة لاسيما وانه قد سبق ان سقطت بعض الموانئ المجاورة في ايدي الاسبان وكان الامر الطبيعي يقتضى الحذر والحيطه حتى لا تتكرر مثل هذه الاحداث وتقع اعداد كبيرة من القتلى والاسرى في ايدي الاسبان .

لكن القبائل العربية والبربرية سكان الجبال كانوا دائما يقفون بالمرصاد للقوات الاسبانية لاسيما وانهم عرفوا ان الاسبان لا يستطيعون التوسع خارج المدن الساحلية التي يسيطرون عليها بعد ان حاولوا التوغل للداخل فلاقوا هزيمة نكراء عام ١٥٠٧م على ايدي رجال قبائل دوار العربية عندما كانت حملة اسبانية تتجه إلى مدينة «مسرعين» التي تبعد ثلاث مراحل عن المرسى الكبير في اتجاه وهران. وكان يقود هذه الحملة قائد القلعة الاسبانية في المرسى الكبير بقوة من رجال حامية القلعة وبعض اعوانه من القبائل المجاورة حول المرسى الكبير ووهران واستطاع اهالي الجبال المحيطة بمدينة مسرعين بمساعدة قوة من وهران هزيمة الحملة الاسبانية مما دفع حكومة اسبانيا ان ترسل نجدة عسكرية كبيرة خوفا من ان تسترد حامية وهران الاسلامية مدينة المرسى الكبير، ثم حقق الاسبان دخولهم وهران واعقب انتصارهم في وهران واحتلالهم لمدينة عنابة (يونة) بعد مقاومة لاتكاد تذكر واعقبوه باحتلال طرابلس ثم قام الاسطول الاسباني بالهجوم على جزيرة جربة لكن الاسبان هزموا وظلت محاولاتهم المتكررة لكسر المقاومة الاسلامية في جربة وانزلوا بها خمسمائة جندي لاقوا جميعهم حتفهم على ايدي حامية المدينة ومساعدة رجال المقاومة الاسلامية الذين ابدوا مقاومة نادرة للوقوف امام الخطر الاسباني الذي كان يتفوق عليهم في قوة اطلاق النيران وحدائث السلاح

المستخدم والمدفعية التي تطلقها السفن والتي لم يكن لاهل السواحل علم بها وهكذا استطاعوا كسر حركة المقاومة .

ولما كانت تركيا العثمانية الاسلامية قد دخلت بلاد المغرب الاوسط والجزائر فانها كانت من جانبها تعمل على طرد الوجود الاسباني من وهران والمرسى الكبير تحقيقا للسيادة الاسلامية وقام حاكم الجزائر بالكتابة إلى المولى محمد الشيخ السعدى حاكم مراكش واقترح عليه القيام بعمل اسلامي مشترك لطرد الاسبان من وهران والمرسى الكبير وكانت القبائل العربية الاسلامية من سكان المغرب الاوسط قد سبقت إلى حصار وهران والتي كانت ترى في قدوم القوات التركية والمغربية املا في تحرير المدينة التي اتخذ حاكمها الاسباني الاستعدادات الحربية اللازمة للملاقاة الحملة وذهب إلى اسبانيا في نهاية عام ١٥٤٩م حتى طال غيبته في اسبانيا لمدة تزيد عن اربع سنوات حيث اناب عنه في حكم وهران ابنه «دوين مارتن» وكان ذهابه إلى اسبانيا استكمالا للاستعدادات الحربية وربما كانت فترة غيابه الطويلة عن المدينة هو خوفه من العقاب في حالة فشل الدفاع عن المدينة وسقوطها في ايدى القوات الاسلامية المشتركة التركية السعدية لكن تحرير المدينة لم يتم في هذه الفترة .

كما ان القوى المغربية المجاهدة التي رأت في الوجود الاستعمري الاسباني والبرتغالي لارضها اهدارا لكرامتها العربية الاسلامية فانها لم تطق السيطرة الايبيرية على اراضيها مما كان له صدى قوى في نفوس سكان البلاد وتبلور ذلك في حركة الجهاد الاسلامي وجمع الاموال لاسيما أن القوات التركية استطاعت طرد المحتل الاسباني من طرابلس وتونس والمغرب الاوسط ولم يبق في يدها الا وهران والمرسى التي سيتم تحريرها مستقبلا على ايدى القوات التركية وكان سكان المغرب الاقصى يرون ضعف الحكام الوطاسين وعدم قدرتهم على الدفاع عن البلاد، بل ان هذه القيادة

الوطاسية سوف تضطر إلى التعاون مع القوى المسيحية في الوقت الذي تشعر فيه بتهديد قيادات وطنية مجاهدة اخرى في اقليم المغرب الاقصى ولم يكن لسلطين بنى وطاس حول ولا قوة لان طبيعة نظامهم لم تكن تسمح لهم بالاعتماد على الاهالي حتى في قواتهم المحاربة الا كجنود مرتزقة وبذلك فانهم كانوا منفصلين عن شعوبهم لذا لم يجدوا بدا من الخضوع للغزاة المسيحيين يرمون في احضانهم ويحتمون بنفوذهم وكانت البلاد في تلك الاحوال في نزاع داخلي بين القوى الجديدة وبين بنى وطاس الذين ارتموا في أحضان الاسبان والبرتغال حيث كانت حركة الكفاح الاسلامي ضد القوى الاستعمارية الصليبية نجد لها صدى رائعا في اركان البلاد ولاسيما الجزء الجنوبي الذي رفع راية الكفاح خلف القيادة السعدية الشريفة التي رأت في الوجود الايبيري اهدارا لكيان البلاد وللروح الاسلامية الوثابة التي ترى في حرية ديارها املا لا بد من تحقيقه بعد ان رأت هذه القوى مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر الاختلال الكبير في قوى الصراع وميل التوازن العسكري إلى صالح القوى المسيحية بعد ان بدأت القوى الاسلامية تتعرض للغزو والانكسار بل والانحسار في عقر الدار بدلا من سياسة الفتح والغزو والجهاد والاستيلاء فكان ان بدأت الامواج البشرية المسيحية محاولات التغلب على القوى الاسلامية وكان لها لا بد ان تنتقل من اسلوب الدفاع عن اسبانيا وبقايا الاندلس والبرتغال إلى الهجوم فكانت الاحداث التي مرت على ارض المغرب والتي كان يقع على القوى الاسلامية المجاهدة التصدى لها ومحاربتها والقضاء على الجيوب الساحلية الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية وهذا ما كان من عمل القوى الوطنية المغربية .

واذا كانت القوى الوطنية المغربية في بلاد المغرب قد استطاعت في فترات تاريخية لاحقة من رفع راية التحرير من كل القوى المحتلة الا ان الاوضاع في بلاد

المغرب الأقصى قد تقف مغايرة لحركة التاريخ اذ اننا لا نزال نجد بعض الجيوب الاستعمارية القديمة تتمثل في الوجود باحتلال ميناء سبتة ومليلة حتى وقتنا الحاضر وانه من السذاجة التسليم بالواقع الحالي وهو عدم تحرير سبتة ومليلة حتى تاريخ كتابة ذلك البحث وذلك كظاهرة قائمة للحركة الاستعمارية التي قادتها البرتغال واسبانيا في القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر، لكن ماذا يعنى استمرار احتلالها من قبل القوى الاسبانية وماذا يعنى مفهوم بقاء هذه الظاهرة في وقت تم فيه تحرير بلاد العالم من قوى الاحتلال انه ربما تكون العلاقات الدولية المعاصرة في غرب البحر المتوسط تدفع بالموقف الحالي بين المغرب واسبانيا ان يكون على وضعه لاسيما بعد ان تم تحرير بلاد الريف الاسباني من قبل القوى الاستعمارية وضمها للديار المغربية .

ان الاسرة العلوية الشريفة الحسنية النسب السلالية المحمدية والتي تتمثل حاليا في جلالة الملك الحسن الثاني بن الملك الجليل العظيم السيرة العطر التاريخ محمد الخامس لا بد انه بذل من الجهود المكثفة مهما تكن مضنية وطويلة للعمل على انهاء الوضع الشاذ لمدينة سبتة ومليلة في ظل السيادة الاسبانية وذلك لكن تزيل الضجر المستحوذ على نفوس العديدين في عالمنا العربي والاسلامي وتدخل بدلا منه السرور والفرحة لاسيما على ابناء المغرب نظرا للمكانة الرفيعة التي يمثلها جلالة الملك الحسن الثاني وشعب المغرب العريق في نفوس ابناء الامة العربية والاسلامية .

الفصل الرابع

«الطرق الصوفية ودورها في اذكاء روح الجهاد»

كانت الطرق الصوفية من الملامح الهامة في التاريخ المغربي وثمة وثائق تدل على ازدهارها منذ القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري)، ذلك لان الدين وثيق الصلة دوما بالحياة اليومية لكل مغربي ومن ثم لم تلبث الطرق الصوفية ان اخذت تقوم بدور هام في الحياة الوطنية في البلاد وثمة يضعه من الذين انشأوا الاسر المغربية الحاكمة بداوا زحفهم نحو العرش من احدى هذه الزوايا وذلك في الزمن الذي تؤرخ له اواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر عندما كان يحاول الاسبان والبرتغال ان يحتلوا المغرب الاسلامي كانت الزوايا والاربطة نقط الالتقاء الرئيسية للحياة الوطنية والمقاومة .

ولقد كان مؤسسو هذه الطرق عادة أولياء يحترم الناس تقواهم وورعهم وكان بعضهم صوفيين اصولين بما في كلمة التصوف الاسلامي من معنى تقليدي عظيم ومع ان اكثرهم كانوا يعلنون انهم يسرون على كتاب الله وهدى السنة النبوية المطهرة ونشر الشريعة الاسلامية الا انهم لم يتورعوا في نشر تعاليم خاصة بهم بالرغم من ان هذه التعاليم كانت تقع ضمن الاطار الواسع لتعاليم الاسلام السمحة، الا انها كثيرا ما كانت تنحرف عن الاصول الدقيقة في نواح عدة، وقد وقع المغرب لقرون عدة تحت سلطان فرق تركزت في الطرق الدينية وقد تباينت هذه الطرق فكان منها طرق ترتفع إلى غاية السمو وطرق لم يكن يهمها سوى التطور الروحي والاتناء الصوفي والتقرب إلى الله بالعبادة والعمل الصالح وترويض النفس على تحمل المشاق ومنها طرق كانت تهبط إلى صعيد من الخرافة والشعوذة ومثل ذلك يقال عن شيوخ الزوايا وقد كانت هذه الطرق تضم العديد من افراد الشعب المغربي والذين كانوا ينضمون إلى هذه الزوايا وكان

لا بد ان يؤثر بعض من هؤلاء تأثيرا قويا في شئون الدولة .

وفي ظل ظروف الاحتلال الاسباني والبرتغالي خاب ظن الشعب المغربي في الوحدات السياسية التي كانت تعيش بجوار حكم الوطاسين كإمارات مستقلة بالمغرب اذ اتجه رؤساء هذه الوحدات إلى لتمكين نفوذهم الداخلي والعمل على الاستقلال عن حكم الوطاسين في فاس، كما ان حركة الجهاد البحري الاسلامي لم تستطيع ان تخلص الموانئ المغربية من ايدي المسيحيين. وفي هذه الظروف الحالكة التي تحيط بالمغرب من جراء خطر القوى الاستعمارية الايبيرية التقت القوى الوطنية المغربية المجاهدة باتجاه صوفي جديد نما وترعرع ضمن ثورة قادها العلماء الصوفية والاشراف وقد اصبح اقطاب التصوف في هذه الفترة جهابذة العلوم بحيث اضافت إلى ازدهار الثقافة العلمية الاسلامية اشعاعا روحيا جعل من الامة المغربية كتلة متراسه في وجه العدو الايبيري وقد اقيمت مراكز المقاومة على طول السواحل المغربية الشمالية الغربية تحت امره الاولياء والصالحين والاشراف والمرابطين .

وكانت الطريق الصوفية التي سادت المغرب في اواخر عهد الدولة المرينية والعهد الوطاسي الذي نحن بصدد دراسته هنا ان ظهر التنظيم الديني للطرق الصوفية متمثلا في طريقتين كبيرتين كانتاهما سمة الطابع الصوفي في الحياة المغربية وهي الطريقة الشاذلية والقادرية وتعد الطريقة القادرية التي تأسست في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي على يد عبد القادر الجيلاني اوسع الطرق الصوفية انتشارا، اما الطريقة الشاذلية فقد كانت في القرن السادس عشر الميلادي يقوم على رعايتها ويحمل اسمها البيت الجزولي وقد انتمت الاسرة السعدية بعد هجرتها إلى اقليم السوس لهذا البيت طريقته وآهلها دعوى الانساب للاشراف للتطور بالتنظيم الصوفي الديني الجزولي إلى الدور السياسي في قيادة احداث النزاع الاسرى والقبلي والطائفي بين جمع المغاربة

واحداث القتال ضد البرتغاليين والاسبان وان كانت الدعوة الصوفية قد تاخرت في المغرب الاقصى كى نرى في التدهور السياسي والاقتصادي الذي اصاب البلاد في القرن الخامس عشر فرصة لقيادة المسيرة الجهادية الا ان ذلك لا ينبغي على الاطلاق ان المغرب الاقصى منذ القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) قد شهد ظهور العديد من رجالات الطرق الصوفية الذين ذاع صيتهم في ارجاء المغرب والذين منهم الشيخ القطب الصوفي ابو مدين الغوث المتوفى عام ١١٩٥ وتلميذه القطب الروحي ابو محمد صالح المتوفى ١٢٣٣م وكذلك عبد السلام بن مشمش المتوفى ١٢٣٨م ورغم دور هؤلاء الاقطاب في الحركة الصوفية الشاذلية الا ان دورهم كان صوفيا روحيا لم يكن لهم ادنى عمل سياسي ولم يستطيعوا ان يشتثمروا نشاطهم الديني إلى نشاط سياسي وربما لان لظروف السياسية في ظل حكم اسرة عبد المؤمن بن علي قائد الموحدين متعتهم هذا الدور السياسي الذي كانت تتطلع به خلافة الموحديين في حكم المغرب، ومن ثم كان ان تعاون شيوخ الشمال المغربي مع اخوانهم في الطريقة الشاذلية مع شيوخ الجنوب التي عرفت مراكش وحواضرها وشهد العصر المخودي ظهور شيخ الصوفية مولاي بوشعيب الازموري (ت ١١٦٦هـ) حيث تعاظمت الحركة الصوفية بالمغرب إلى ان جاء القرن الخامس عشر الميلادي لكي تلعب دورها الذي اختارته لنفسها في ظل ظروف الاحتلال الايبيري ولكن نجد في البيت السعدي الشريف سندا يبعث روح المقاومة الاسلامية والدور السياسي الذي تقوم به الطريقة الصوفية الجزولية .

وشهد النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي ذبوع صيت وشهرة الشيخ محمد بن سليمان الجزولي ودعوته الصوفية في جنوب المغرب بصورة لم تشهد مثلها تلك النواحي المغربية حيث جمع تعاليم طريقته في كتاب باسم «دلائل الخيرات» وينتمى هذا الشيخ إلى جزولة احدى القبائل السملالة البربرية في بلاد السوس وقضى

بعضاً من عمره في مدينة فاس استطاع أن يؤلف كتابه المشار إليه. وقد مات الشيخ محمد الجزولي بين أعوام ١٤٦٥ أو ١٤٧٠ م. وسوف يكون لقصة موته باعث للجهاد ضد بقايا أسيرة بني مرين ودفعاً لحركة الجهاد الإسلامي.

ولقد كان موته في مدينة اقفال على بعد ثلاثين كيلو متراً من مدينة الصويرة في وقت كانت تتساقط فيه البلاد في أيدي الأسبان والبرتغاليين وقبل أن تتولى أسرته بني وطاس عرش المغرب بعامين أو سبع أعوام. وكان في ذلك الوقت قد ترك مدينة فاس عائداً إلى بلاد الجنوب حيث ذهب إلى قرية تيسست بالقرب من مدينة مازكان وتقابل بها مع شيخ زاوية لمغار ثم تركها بعد ذلك ووجهه للقاء اتباع طريقته إلى مدينة أسفى التي لم يمكث بها طويلاً بسبب عدااء حاكمها الشديد له فعاد إدراجه إلى الصحراء البادية ليدعو لطريقته بين قبائل حجة وشياظمة فتبعه كثير من زوايا الصوفية لكنه مات فجأة وقد قيل أنه قتل بالسم ومات الجزولي عام ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م وهو المؤكد وليس عام ١٤٧٠ م كما ذكرت بعض المصادر وقام على دعوته من بعده عمرو ابن سليمان المغيطي المعروف بالسياف ويقال له المريدى ويبدو أن الذين أطلقوا عليه اسم السياف نظراً لأنه استخدم سيفه في قتل من وضعوا السم لشيخه والانتقام منهم فرداً فرداً لاسيما أن الذين سموه هم بعض فقهاء عصره والذين كانوا يخشون نفوذه وظل عمرو المغيطي في تتبعهم وقتلهم وقضى عليهم وقد اتهم تلميذه السلطان عبد الحق المرينى آخر خلفاء بني مرين (٨٢٣ - ٨٦٩ هـ / ١٤٢٠ - ١٤٦٥ م) وربما يكون قد وضع له السم في فترة تولى الأسيرة الشريفة حكم فاس (٨٦٩ - ٨٧٦ هـ / ١٤٦٥ - ١٤٧٠ م) وذلك لأنه ربما كان قد رفض أن يبايع محمد بن علي الإدريسي الجوطى الذى تولى السلطنة في فاس بعد قتل عبد الحق المرينى لأن الشيخ الجزولى ترك فاس فجأة وقد اتهم عمرو السياف فقهاء السلطنة بدس السم لشيخه وقتله وقاد البلاد لثورة مستغلاً حالة

التدمر الناجمة عن الإجراءات المالية الجديدة التي سببها السلطان ووزيره اليهودى هارون والتي ضاق بها واثرت في مجتمع الاشراف في العاصمة فاس وظل السياف على ثورته هذه مدة عشرين عاماً حاملاً معه رفات شيخه أينما حل وجعل من الجزولية طريقة صوفية ثم تجاوزت شهرة عمرو السياف انحاء المغرب الاقصى وصار يدعو الناس إلى تعاليم الجزولية كما ذكرها شيخه في كتابه دلائل الخيرات وجذب الانصار والمريدين إلى مقر رفات شيخه في افعال حيث دفن بعد أن قتل عمرو السياف عام ١٤٨٥ م في عهد مؤسس الأسرة الوطاسية أبى عبد الله محمد الشيخ الوطاسى وكان سبب قتل السياف انه ادعى النبوة وزعم انه يعلم الغيب وانه مثل الخضر مع موسى عليهما السلام. وان يلقي الخضر وياخذ عنه ومن ثم تم قتله.

ومما يذكر أن ثورة عمرو السياف هذه التي دامت عشرين عاماً كانت اثرها مباشراً من اثار دعوة الشيخ الجزولى. والتي مهدت للطريق لأن تتواصل المسيرة فان موت الجزولى والسياف لم يمنع مواصلة الحركة الصوفية سعيها للانتشار بين اهالى المغرب لاسيما وانه قد اشتهر من رجالاتها الشيخ عبد العزيز التباع الذى توفى فى مراكش فى فترة حكم ثانى حكام بنى وطاس أبى عبد الله محمد البرتغالى. ثم خلفه على الطريقة الجزولية الشيخ الصوفى عبد الله الغزونى والذى وفد إلى مراكش قادماً من الشمال وكانت قد آلت اليه زعامة الحركة خلفاً للشيخ عبد العزيز التباع وكانت الوشايات كثيرة من مشايخ عصره لدى السلطان ابى عبد الله البرتغالى الوطاسى لاسيما بعد أن امر بالقبض عليه ورجال طريقته بعد أن وشى به الشيخ أبو عبد الله محمد بن غازى لكن الشيخ التباع استطاع الهرب واستطاع أن يواصل العمل فى طريقته حتى بداية ظهور العهد السعدى.

والذى ينظر إلى ثورة عمرو السيف التى ظلت عشرين عاما وزيادة انتصاره ومريديته ثم مواصلة السير على نهج الطريقة بعد وفاته وقيام الشيخ عبد العزيز التبايع ومن بعده الشيخ الغزوني انما يدرك ان هذه الثورة كانت بداية احياء طريق العمل السياسى وربطه بالعمل الدينى لاسيما انه فى الجنوب فى اقليم السوس وبالقرب من مراكش كان المجتمع الشريفى الادريسى العلوى السعدى قد بدا يدرك البعد الحقيقى للخطر الذى يتعرض له المغرب من جراء الانقسامات الداخلية والاضطراب الايبيرية التى سيطرت على جميع المدن الساحلية ولم تترك للمغاربة غير مدينتى سلا ورباط الفتح، وكان دور الحركة الشريفة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى محاولة اطواء حركة الصوفية وزعامتها تحت لوائها وكذلك السيطرة على القبائل الجنوبية والعمل على اقضاء الحكم الوطاسى الذى لم يكن له ادنى سند روحى او صوفى او دبنى ولم يكن له عون الا مساندة بعض القبائل وان الاسرة الوطاسية قد فقدت مقومات الكيان السياسى الحاكم وانها قد وصلت إلى مرحلة الكهولة والضعف يجعل الطريقة الصوفية تبحث لها عن قيادة تستطيع ان تمسك بزمام الامور والوصول بالشعب المغربى إلى اهدافه فى المحافظة على كيانه السياسى الممزق فى غرب العالم الاسلامى لاسيما انه كان ما يزال ممسكا بمقومات الدولة والعمل على رفع روح الاحياء الوطنى لاسيما بعد ان تحالف الوطاسيون مع البرتغاليين المحتلين وهذا كان يسقط عنهم صفة الحكم الشرعى للبلاد .

وفى الجنوب حيث اقليم السوس كان الجو الصوفى والدينى والجهادى والسياسى ومؤهلا لان تلعب هذه البلاد دورها فى اذكاء روح الجهاد فى سبيل كرامة التراب المغربى ودفع العدوان عن ديار الاسلام لاسيما بعد ان ادركت قبائل هذه الاقاليم ما أحاطت البلاد من اخطار وما ساد المجتمع من تفاقم الاحوال سواء فى ظل الحكم

الوطاسى والسيطرة الاجنبية الاوربية واحتلال العدو وطمعه فى بلادهم والسيطرة على مقدراتهم ولم يكن امام زعماء القبائل الا ان يلجأوا إلى رجال الطرق الصوفية والعلماء ورجال الدين لكى يجدوا لديهم الحلول المناسبة التى يستطيعون من خلالها ايجاد السبل الملائمة للخروج من ذلك المازق التاريخى الذى تعيشه البلاد ولم يكن امامهم فى ذلك الا اقليم الا الشيخ الصالح ابى عبد الله محمد المبارك الاقاوى الذى يحمل اسم الاقاوى نسبة إلى قرية فى اقليم السوس ووضعوا حالة البلاد التى كانت امامه صورة متكاملة من التمزق السياسى وتفرق كلمة القبائل وخضوع بعضها للسيطرة الاجنبية الايبيرية وقبول تعاملها مع الاسبان والبرتغاليين وقيام القوات الاوربية بالهجوم عليهم ومواصلة محاربتهم للسيطرة على بلادهم واجبارهم على التعامل التجارى معهم لاسيما فى السكر الخام الذى كان يكثر انتاجه فى بلاد السوس . وكانت طريقته الجزلية قد جذبت اليها رجال القبائل مما جعلهم يهرعون إلى راس الرباط وزعيمه أبى عبد الله بن مبارك فى مدينة تارودانت، ومن ثم كان على راية الجهاد التى رفعتها الطريقة الشاذلية الجزولية منذ عام ١٥١١م لاسيما فى مناطق الجنوب حيث اقليم السوس واهله الذين يعانون وطأه الاحتلال البرتغالى وسيطرته على اراضيهم الساحلية فى ميناء اغادير والتغلغل منها إلى المناطق الداخلية ومن هنا فقد كان على هذا التغلغل ان يواجه من قبل رجال الطريقة الصوفية الجزولية التى كانت قد ضربت بجذورها العميقة فى المجتمع الجنوبى حيث بلاد الهبط والسوس وان الطريقة قد مضى عليها ما يقرب من نصف قرن من الزمان وكانت الظروف التاريخية المعاصرة للاحتلال البرتغالى وكذلك الاحوال السياسية السيئة التى تمر بها الاسرة الوطاسية والمعاناة الاقتصادية التى يعانى منها الشعب المغربى من جراء صد ابواب المدن الساحلية امام التجارة المغربية وما تركه اسلوب الغزو البرتغالى على الحياة الاقتصادية وتعاقد السيطرة التوسعية البرتغالية بعد ان بلغت اقصاها فى الجنوب . فكان على الراية الصوفية ان

نبحث لها عن من يقود حركة الجهاد السلامي ضد القوى المحتلة التي بدأت تشكل حاجزا منيعا للعمل على ترويض روح الجهاد وكبح جماح الحماس الشعبي خلف الطريقة الجزولية ولكن كان لابد ان يحدث المخاض الذي ينتج عنه مولد حياة شابة لاسرة جديدة تقود النضال السياسي والديني والصوفي من احساس بالخطر البرتغالي المباشر على مركز اقامتها في مدينة واحة آفة وراء جبال الاطلسي حيث تنطلق القوافل التجارية المثجة جنوبا إلى بلاد السودان الغربي وحيث محاولة البرتغاليين تهديد العلاقة التجارية بين مدينة تيدس واحة لاسيما ان مدينة تيدس لها مكانة دينية لدى الطريقة الجزولية الصوفية وانها كسوق تجارى هام وكبيرة تلعب دورا في رفع روح الجهاد للحركة الجديدة وكانت هذه السوق تعقد سنويا والتي كانت تنافس في شهرتها تارودانت والتي كانت الطريقة الجزولية ممثلة في زعيم اقة رؤية في ضرورة مواجهة هذه الاخطار الخارجية بعد ان فزع الناس من الساحل وبات الهروب للداخل حيث الواحات الجبلية الاطلسية وكان تجمع رجال القبائل حول الطريقة التي كانوا يرون في الانتماء لها هروبا من الواقع الاليم ونظرة للمستقبل بعد ان فشل حكام بنى وطاس في القدرة على مواجهة الخطر الخارجى بل وصل بهم الامر إلى التعاون مع المحتل الاجنبى من اجل الكيان السياسى الذى باتت قوى الانهيار تتكالب عليه خارجيا فكان على الداخل ان يعول على اسرة عريقة ذات اصول تاريخية ودينية وبيت شريف لكي تكون المبادرة بيدها لاسيما وان هذه الاسرة او البيت الشريف قد انتمى إلى البيت الجزولى وطريقته منذ مطلع القرن السادس عشر بعد ان هاجرت إلى اقليم السوس وكانت الصلة الشريفة بالبيت النبوى الشريف وطوق الشرافة القرشية المحمدية التي تحمle في رقبتها دافعا لها لان تتقدم الصفوف لكي تاخذ بالتنظيم الصوفى الدينى الجزولى إلى بعد آخر غير البعد الدينى وهو البعد السياسى الجهادى لكي تعمل على احتواء الازمات التى تنشأ من القبائل والاسر والطوائف التى كانت تمزق الكيان السياسى للمغرب لاسيما

ان القتال يدور على ارضه والمطامع البرتغالية والتركية العثمانية تحاول الانقضاض على البقية الباقية حول فاس أو مراكش.

وهكذا كان النسب القرشى المحمدى الحسنى الطالبى هو الركيزة القوية بل هو السند الذى لا سند بعده وغاية ترتكز عليها حركة الجهاد الاسلامى كى تبعث دورا سياسيا جديدا بعد تدهور الدور الوطاسى وبعد حالة القتال والصراع القبلى، فكان ان رفعت الطريقة الجزولية الشاذلية راية الجهاد لالاسرة السعدية الشريفة لكي تعود مسيرة المغرب بروح جديدة واسرة جديدة وبدا المغرب عصرا جديدا يعد من امجد واشرف واعظم صفحات تاريخ المغرب طوال عصوره المختلفة حيث يخلد السعديون تاريخ بلادهم بالكفاح الاسلامى .

الفصل الخامس

نظرة اخيرة على الاسرة الوطاسية

حكمت الاسرة الوطاسية بلاد المغرب الاقصى طوال فترة زمنية تصل إلى ثمانين عاما هجريا (٨٧٦ - ٩٥٦ هـ) وما يقرب من ثمانية وسبعين عاما ميلاديا (١٤٧١ - ١٥٤٩ م) تبادل فيها حكم البلاد اربعة من أمراء بنى وطاس بدءا من أبى عبد الله محمد الشيخ الوطاسى الذى استطاع ان يسقط حكم الاشراف الورياكين فى فاس بعد ان انهى حكم الشريف محمد بن على الادريسي الجوطى الذى حكم ست سنوات (١٤٦٥ - ١٤٧١ م) وانتهت الاسرة الوطاسية بسيطرة السعدين على فاس عام ١٥٤٩ م بعد القضاء على حكم أحمد الوطاسى وان كان ابو حسون قد عاد بمساعدة الاتراك إلى عرش البلاد الا ان فترة حكمه لم تدم الا ثمانية شهور ٣ صفر ٩٦١ إلى ٢٤ شوال ٩٦١ هـ) الا ان هذه الفترة قد حفلت بالاحداث السياسية والاجتماعية والعسكرية التى لم تشهدها بلاد المغرب فى مرحلة من مراحل تاريخها السابق فعلى الصعيد الداخلى شهدت البلاد تحرشا سياسيا لم تشهده من قبل اذ تكالبت القوى الخارجية البرتغالية والاسبانية على احتلال جميع الموانئ والمدن الساحلية على ساحل البحر المتوسط وكذلك الساحل المغربى المطل على المحيط الاطلسى بحيث لم يبق فى ايدى المغاربة سوى ميناء سلا ورباط الفتح وتحكم العدو الايبيرى فى مداخل البلاد ومخارجها ولم يعد للكيان السياسى الوطاسى قدرة فعالة للتصدى لهذا الغزو الخارجى وان كان قد حاول ان يجد سبيلا للتعاون مع القوى الخارجية للمساعدة فى تحرير بلاده فقد تعاون احمد الوطاسى وقبلة والده محمد البرتغالى مع الاتراك العثمانيين من أجل طرد البرتغاليين من بلاده وكذلك تحالف مع الاسبان من اجل طرد البرتغاليين لكن هذه المخالفات لم تجد ادنى وسيلة للتغلب على قوى الاحتلال الذى بات يتهدد البلاد بعد

ان تحكموا فى رقاب العباد وبدا نفوذهم يمتد للدخل وقيامهم بغزو العاصمة فاس وقبلها العاصمة الجنوبية مراكش لكن هذا الغزو لم يحقق واصيب بالفشل .

كذلك فان ظهور بعض الكيانات المستقلة الصغيرة داخليا وان كانت تتبع اسميا السيادة الوطاسية الا انها كانت تمارس نفوذها على الاقليم الذى يخضع لها كما خضعت بعض المناطق لسيطرة القبائل وباتت الاوضاع الداخلية تنذر بالخطر اضافة إلى الخطر الخارجى .

وكان ظهور الاسرة السعدية الشريفة التى ظلت تقاوم القوى الاستعمارية الصليبية فترة تزيد عن عشرين عاما بدءا من عام ١٥١٢ حتى عام ١٥٣٢ م حيث بدا الصراع ياخذ بعدا جديدا بدا بمحاولة السعدين القضاء على نفوذ الوطاسيين وكان ان احتدم الصراع من عام ١٥٣٢ حتى عام ١٥٤٩ والذى استمر سبعة عشر عاما فى حروب متواصلة مع الاسرة الوطاسية لاسيما مع احمد الوطاسى وان كانت فترة والده محمد البرتغالى قد شهدت تصادما وطاسيا سعديا استطاع ان ينتزع مراكش من ايدى الوطاسيين لكن فترة حكم احمد الوطاسى هى التى جاءت بالقوة الشابة السعدية على انقاض الدولة المترهلة الوطاسية فكانت فترة حكم الوطاسيين هى اضعف حلقات التاريخ المغربى اذ انه رغم استمرار فترة حكم متصلة طوال ثمانين عاما الا ان المظاهر الحضارية والثقافية والعمرانية والاقتصادية والتعليمية لم تكن بتلك الصورة التى كانت عليها فى العصور السابقة كالمرابطين او الموحيدين او بنى مرين والذين استولوا على السلطة منهم ولا كالسعدين الذين لحقوا زمنيا وامسكوا بزمام القيادة فى المغرب الاقصى من بعدهم .

لكن الذى ينظر إلى احداث هذه الاسرة التى حاول الكثير من المؤرخين عدم اعتبارها اسرة حاكمة (حسين مؤنس وغيره) واعتبارها حلقة بين مرحلتى الاسرة المرينية

والاسرة السعدية الا ان السلاوى يذكر ما يدل على ان الدولة كانت لها بعض المائر الحضارية والثقافية العمرانية والاسلامية وكان لها دور لا ينكر فى مجال المحافظة على العقيدة الاسلامية والعمل بقدر المستطاع لكسر حركة الحصار التى كانت تفرض على المغرب لاسيما ان اول حكام الاسرة الوطاسية محمد الشيخ الوطاسى قد شهد انهيار آخر المعقل الاسلامى فى الاندلس وسقوط غرناطة عام ١٤٩٢م ونزوح الهجرات الاندلسية الكبيرة إلى بلاد المغرب حيث اقرب البلاد الاسلاميه قاطبة إلى الاندلس وكان على المغرب الوطاسى ان يعمل على استقبال هذه الملايين المهاجرة إلى بلادهم ومن ثم فان هذه الهجرة الاندلسية كان لها دورها فى الحياة الوطاسية لاسيما ان استمرار تدفق المهاجرين الاندلسيين قد استمر طوال فترة الحكم الوطاسى بداية من عام ١٤٩٢ حتى عام ١٥٤٩م اى طوال اكثر من نصف قرن وقد كان للاندلسيين فضل لا ينكر فى جميع مجالات الحياة اليومية .

ومن ذلك فاننا نجد عن عودة ابى حسون بن محمد الشيخ الوطاسى عندما عاد لتولى السلطة فى فاس ويدخل عاصمة اجداده نجد المؤرخ المجهول الذى كتب كتابا سماه الدولة السعدية يذكر ان العلماء ورجال الدين وعليه القوم واهل الحل والعقد استقبلوا السلطان الوطاسى احسن استقبال ووقف الشيخ الزقاق احد كبار علماء فاس يذكر الناس بما فعله الوطاسيون اثناء فترة حكمهم للمغرب فيقول عن ابى حسون انه بقية امرائكم الذين شيّدوا البلاد وسعد بهم العباد وشرفوا المساجد وبنو المدارس وقاموا بامر الدين والدنيا .

والذى ياخذ بهذه الخطبة وما جاء فيها من اقوال لا شك انها كانت على جانب كبير من الصحة والقبول لاسيما انه كان يخاطب أناسا معاصرين للاحداث ويذكرهم بامجاد وافعال الاسرة الوطاسية يدرك ان حكام بنى وطاس قد اهتموا رغم ظروف الفترة

الزمنية بالحياة الدينية والتعليمية فقاموا ببناء المساجد والاغداق عليها والاهتمام بامور رجال الدين والعلماء قربوهم اليهم واهتموا بالحركة العمرانية استفادة من خبرات اهل الاندلس وقاموا ببناء المدارس والاهتمام بالتعليم الدينى فى المدارس التى كانت تقوم على تدريس المذهب المالكي والعلوم المتصلة به وتحفيظ القرآن الكريم فى الكتاتيب التى كانت منتشرة فى طوال البلاد وعرضها وكذلك تدرس العلوم المتصلة بالحياة اضافة إلى الفقه والحديث والتفسير كانت تدرس الفلسفة والرياضيات والطب والهندسة والكيمياء وغيرها من العاوم المعاصرة .

كذلك كان الاهتمام ببناء المدن الجديدة وتحسين القديم فيها واقامة القلاع والحصون لاسيما ان البلاد كانت تتعرض للهجوم المتواصل من قبل البرتغاليين والاسبان وكان على الوطاسيين كسبا للرأى العام الشعبى والعمل على بناء الاستحكامات والقلاع والحصون والحصول على الاسلحة النارية الحديثة وبناء السفن الحربية وحشدتها بالقوات والاهتمام بالجيش ومحاولة تجنيد العديد من ابناء القبائل والاستعانة بالسودان المرتزقة فى صفوف الجيش وكذلك العمل على الذود عن كيان البلاد والبذل والعطاء وتقديم كل عون للحركة الاسلامية المغربية المجاهدة التى ترعمتها الاسرة السعدية فى بادئ الامر وتقديم المال والعتاد والسلاح والخيول والمؤن الحربية للاسرة السعدية ومساعدتها فى جهادها وكذلك عملت أسرة الوطاسيين على مساعدة اهل مراکش فى اثناء حصار البرتغاليين للمدينة وعملت على اذكاء روح الجهاد الاسلامى والتقرب إلى رجال الطرق الصوفية بعد ان ثبتت فاعليتها فى تحرير بعض المدن والموانئ الساحلية من ايدي البرتغاليين وان كانت بعض المواقف قد املت على حكام بنى وطاس التعاون او التحالف مع القوى الصليبية الايبيرية الا ان ذلك قد يكون ضعفا من حكام بنى وطاس فى بعض المواقف التى كانوا يعيشون فيها فى مآزق

عسكرية او دفعا لخطر يتهدد كيان العرش وربما كانت سمة الحكام الذين كانوا يفضلون مصلحة فردية على مصلحة البلاد والعباد وكانت روح العصور الوسطى تسود فيها حالة التحالف مع العدو التقليدى من اجل تحقيق هدف شخصى ادى فى النهاية إلى عزله هؤلاء الحكام ونصب الشعب المشائق لهم ومحاولة ايجاد السبل والوسائل للتخلص منهم والالتفاف حول قيادة وراية جديدة تعمل على اجلاء المحتل الغاصب والقضاء على الامارات والاقاليم المستقلة عن الكيان الشرعى فى فاس، ومن هنا فقد شهدت فترة حكم بنى وطاس فى المغرب اكبر تطور فى الاوضاع السياسية ذلك هو انتقال السلطان الفعلى من ايدى سلاطين بنى وطاس إلى ايدى الجماعات الصوفية الدينية التى انشأها شيوخ وأئمة الطرق الصوفية المجاهدة من امثال الشيخ الجزولى والجيلانى وابن عروس مدفوعين فى ذلك بالحماس الدينى الذى شمل المغرب كله نتيجة لاشنداد خطر الغزو النصرانى البرتغالى والاسبانى على سواحل المغرب، وتلك هى المقدمات التى مهدت لقيام دولة الاشراف السعدين الذين استطاعوا تزعم حركة الجهاد الاسلامى ضد العدو النصرانى والوقوف فى وجهه ووقف تقدمه لابتلاع المغرب الاقصى كله .

وعلى هذا فانه يمكن القول استنادا إلى تلك الاراء ان فترة حكم الوطاسين كانت مقدمة لظهور الدور الدينى الصوفى الذى لعبته هذه الطرق للوقوف والتصدى للخطر الصليبي الزاحف من جنوب اوربا بعد طرد المسلمين من ديارهم، كما ان الفترة الوطاسية قد شهدت تفتح قوى عالمية اخرى كإنجلترا وفرنسا وهولندا وغيرهما من الدول الاوربية التى ادركت دور المغرب فى صلة الربط بينها وبين المستعمرات التى احتلتها او فى طريقها إلى تكوين مستعمرات لها وراء البحار. ومن ثم كانت محاولة ايجاد موانئ لها تكون محطات للانطلاق منها جنوبا إلى جنوب القارة الافريقية والمحيط الهندى

والاطلنطى وجزر الهند الشرقية (اندونيسيا) والملايو وغيرها من البلاد التى كانت تسعى تلك الدول إلى امتلاكها او الاتجار معها. ذلك لان الاسرة الوطاسية ظلت تمارس دورها السياسى فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى وهى الفترة إلى كانت فيها هذه الدول غير البرتغال واسبانيا تحاول البحث عن اسواق تجارية لها فى ارض المغرب الغنى بموارده الطبيعية ونتاجه الوفير .

كما ان لا يمكن انكار ان الوطاسين قد حافظوا على استقلالهم فى المغرب الاقصى رغم التدخلات السياسية فى ذلك الوقت وخطر الوجود التركى العثمانى فى المغرب الاوسط والصراع الايبيرى الاسبانى البرتغالى على ارض المغرب، فان بنى وطاس عملوا قدر طاقتهم وامكانياتهم المحدودة لاطواء كل بلاد المغرب تحت الراية العثمانية لكن الوطاسيين حافظوا على عرشهم امام ضغوط قوى النزاع المحيطة به ومن هنا كانوا يهادنون الاتراك تارة والقوة الصليبية تارة اخرى وعندما كانوا يشعرون بشدة الخطر الصليبي كانوا يرفعون شعار الجهاد الاسلامى ومناشدة العمل مع الاتراك العثمانيين من اجل طرد القوى الاستعمارية من المغرب، كما انهم كانوا يلجأون إلى الاسبان متحالفين معهم ضد البرتغاليين ومع الاخيرين ضد الاسبان وكل ذلك من اجل عمل التوازن السياسى المطلوب فى منطقتهم التى تحف بها الاخطار من كل جانب مرعاة للظروف السياسية السائدة، لكن كل ذلك يجعل الاسرة الوطاسية تنجح فى البقاء طويلا فى عرش البلاد بسبب نزوع القوى المحلية التامة فى الجنوب حيث بلاد السوس وهدفها فى اسقاط بنى وطاس بعد ان خاب مسعاهم فى توحيد البلاد تحت قيادتهم وفى القضاء على البؤر الاستعمارية والجيوب الاسبانية البرتغالية التى شكلت اكبر تحدٍ حقيقى يواجه القوى الدينية فى بلاد المغرب خلال النصف الاول من القرن السادس عشر الميلادى حيث كان التنازل عن الموانئ المغربية الاسلامية للبرتغاليين او الاسبان

يشكل نهاية النهاية بالنسبة للدولة الوطاسية التي كان سقوطها مؤكدا بل مؤشرا إلى تصاعد قوى السعدين حيث ان ملامح ظهور حركة جهادية جديدة بدأت تأخذ زمام المبادرة رافضة للوضع الاستعماري البرتغالي والاسباني والامارات المحلية الصغيرة وعدم قبول الحماية المسيحية وتطلعات الطرق الصوفية إلى مراكش في راية الشرافة الحسنية الطالبية القرشية دفعا لكي تتحرك هذه القوى من جنوب بلاد السوس حيث الاتجاه شمالا لاسقاط قوى الوطاسية التي تهاوت امام ضربات روح الجهاد السعدي وكان على بن وطاس اى يسلموا قيادة المغرب الاقصى كرها منهم للسعدين الاشراف وتلك نهاية بنى وطاس .

حكام الاسرة الوطاسية

- ١ - ابو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي
٨٧٦ - ٩١٠ هـ - ١٤٧١ - ١٥٠٤ م .
 - ٢ - ابو عبد الله محمد بن محمد الشيخ الوطاسي - البرتغالي
٩١٠ - ٩٣٢ هـ - ١٥٠٤ - ١٥٢٥ م .
 - ٣ - ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسي
٩٣٢ هـ - ١٥٢٥ م .
 - ٤ - احمد بن عبد الله محمد البرتغالي ابو العباس
٩٣٢ هـ - ٩٥٦ هـ - ١٥٢٦ - ١٥٤٩ م .
- فترة حكم الاسرة الوطاسية في فاس
٨٧٦ - ٩٥٦ = ٨٠ عام هجرى .
١٤٧١ - ١٥٤٩ = ٧٨ عام ميلادى .
- ٥ - ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسي
٣ صفر ٩٦١ هـ - ٢٤ شوال ٩٦١ هـ .

يشكل نهاية النهاية بالنسبة للدولة الوطاسية التي كان سقوطها مؤكدا بل مؤشرا إلى تصاعد قوى السعدين حيث ان ملامح ظهور حركة جهادية جديدة بدأت تأخذ زمام المبادرة رافضة للوضع الاستعماري البرتغالي والاسباني والامارات المحلية الصغيرة وعدم قبول الحماية المسيحية وتطلعات الطرق الصوفية إلى مراكش في راية الشرافة الحسنية الطالبية القرشية دفعا لكي تتحرك هذه القوى من جنوب بلاد السوس حيث الاتجاه شمالا لاسقاط قوى الوطاسية التي تهاوت امام ضربات روح الجهاد السعدي وكان على بن وطاس اى يسلموا قيادة المغرب الاقصى كرها منهم للسعدين الاشراف وتلك نهاية بنى وطاس .

حكام الاسرة الوطاسية

- ١ - ابو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي
٨٧٦ - ٩١٠ هـ - ١٤٧١ - ١٥٠٤ م .
 - ٢ - ابو عبد الله محمد بن محمد الشيخ الوطاسي - البرتغالي
٩١٠ - ٩٣٢ هـ - ١٥٠٤ - ١٥٢٥ م .
 - ٣ - ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسي
٩٣٢ هـ - ١٥٢٥ م .
 - ٤ - احمد بن عبد الله محمد البرتغالي ابو العباس
٩٣٢ هـ - ٩٥٦ هـ - ١٥٢٦ - ١٥٤٩ م .
- فترة حكم الاسرة الوطاسية في فاس
٨٧٦ - ٩٥٦ = ٨٠ عام هجري .
١٤٧١ - ١٥٤٩ = ٧٨ عام ميلادي .
- ٥ - ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسي
٣ صفر ٩٦١ هـ - ٢٤ شوال ٩٦١ هـ .

الباب الثاني

الاشراف السعديون ومسرح الاحداث بالمغرب الاقصى

الشعوب المغربية وبصفة خاصة شعب المغرب الاقصى حيث البوابة الغربية للعالم الاسلامي يشتهر بحبه الشديد للنسب الهاشمي القرشي الشريف بالدوحة النبوية المطهرة وللسلالة التركية الطيبة التي تهفو اليها نفوس المغاربة حبا وبركة بوجود نسل الرسول ﷺ في ارض المغرب التي تشرفت بالهجرة المباركة من أحفاد النسب المحمدي منذ عصور مبكرة من الدعوة الاسلامية، وعلى هذا فقد ارتبط الحب الشديد للنسب الشريف يتمسك المغاربة بتعاليم الدين الاسلامي الحنيف وتنفيذ تعاليمه بدقة وبصيره، ومن ثم فقد رأت الشعوب المغربية في هؤلاء الاشراف الذين هم نتاج الشجرة الطيبة المباركة التي يتفرع منها النسل الطاهر لرسول الله ﷺ صاحب الدعوة ورسول الهدى للبشرية، أنهم أقدر وأصلح وأنسب الناس قيادة للبلاد للمحافظة على أمور الدين والدنيا وان هذا الاحساس من الشعب المغربي في النسب الشريف قد تأكد بوصول ادريس بن عبد الله العلوي الطالبى إلى المغرب وفراره من مذبحه فنج بالهجاز التي أوقعها بهم العباسيون ونجاحه في تكوين دولة الادارسة بالمغرب (١٧٢ - ٣٤٧ هـ - ٧٨٨ - ٩٥٨ م) ولقد اعتز أبناء المغرب بوجود ذوى النسب النبوى الشريف بين أحضان المغرب وتفرع سلالتهم الشريفة على أرضه .

ولقد كان وجودهم يشكل بناء أسرى اجتماعى وسياسى متميز عن بقية أنحاء الاقاليم المغربية الاخرى، وهكذا ارتبطت الشرافة القرشية بتاريخ المغرب الاقصى واسرته الحاكمة دون أى بلد اسلامى. فسلطان المغرب هو فى نفس الوقت الامام والزعيم الدينى، وعندما كان أهل المغرب يحسون بالاختار تهدد أوطانهم فانهم كانوا يلجأون إلى الاشراف لكي يجدوا لديهم القدرة بما لهم من صلة النسب الشريف فى انقاذ

البلاد، ففى اواخر عهد الدولة المرينية عندما سيطر اليهوديان هارون وشاول على تقاليد الامور فى عهد السلطان عبد الحق المرينى، فان الشعب المغربى ممثلا فى شيوخ مدينة فاس ورؤساءها رؤاد فى الشريف أبى عبد الله محمد بن ادريس الجوطى نقيب الاشراف بفاس المنقذ للبلاد. (٨٦٩ - ٨٧٦ هـ - ١٤٦٤ - ١٤٧١ م) والذى ظل يحكم البلاد حتى تغلب عليه محمد الشيخ الوطاسى .

وعلى هذا فانه يمكن القول ان الشرف العربى القرشى النبوى له نماذج عديدة فى ارض المغرب قبل ظهور السعدين على مسرح الاحداث ولقد ظهرت الشرافة العربية فى تاريخ المغرب الاقصى بصفة خاصة مرتين قبل ان تاتى الثالثة على يد الاشراف السعديين وتكون بعدها الشرافة الرابعة والاخيرة وهى الشرافة العلوية التى لاتزال تحكم المغرب الاقصى حتى تاريخ كتابة هذا البحث (١٩٩٢ م). وهكذا فى ظل الاحداث التى تتواكب على الساحة المغربية رأى القيادة الدينية الصوفية ان الواجب الاسلامى يحتم عليها الالتفاف حول الراية العربية الشريفة النبوية واحياء دورها التاريخى كما سبق ان كان لها نفس الدور أيام الدولة الادريسية .

ومن هنا كان السعديون يقع عليهم عبء قيادة البلاد مرتدين عباءة الشرافة العربية ويركبون موجة الجهاد والحركة الدينية الداعية إلى بناء مغرب جديد تضع نهاية لضعف الدولة المركزية فى مراكش وحالة التشرذم التى تعيشها دولة بنى وطاس لاسيما وان المشاعر المغربية وبصفة خاصة فى بلاد السوس تلتفت حول السعدين الذين لم يجدوا أدنى صعوبة فى تأسيس دولتهم بل انهم وجدوا الحماس من كل طبقات الشعب ورجال القبائل الكبرى ومشايخ الطرق الصوفية .

كما اننا سوف نرى فى نهاية هذا البحث كيف انه فى نفس الظروف التى تولى فيها السعديون حكم المغرب مدعويين بنفس المشاعر المغربية ازاء الشرافة العربية القرشية

النبوية استطاع الاشراف العلويون السجلماسيون او الفلالليون تكوين دولتهم على انقاض دولة الاشراف السعديين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ولا يزال هؤلاء الاشراف العلويون يحكمون بلاد المغرب الاقصى حتى الوقت الحالى كما سبق القول حيث كان جددهم الاكبر الحسن بن القاسم جد العلويين هو أول من ترك بلاد المغرب ثم اتجه جنوبا إلى سجلماسة وذلك بعد قدومه من بلاد الحجاز متمسكا بالنسب الشريف العلوى عاملا مد شرافة الشرق الحجازية فى محيطها العربى إلى الحركة الاسلامية فى بلاد المغرب .

وعلى هذا فان الذى ينظر للدور الذى ستلعبه الاسرة السعدية الشريفة فى تاريخ المغرب فى تلك الظروف حالكة السوء والمنعطف الخطير الذى يعصف بالحركة فى مواجهة تحديات عانية يدرك ان حركة التاريخ عبر سيرها الطويل فى المغرب وانحدار دول ونهايتها (المرابطين، الموحدين، المرينيين، الوطاسيين) وظهور دول غنية اخرى يدرك ان الدولة كما ذكر ابن خلدون فى مقدمته تمر باطوار عدة بين النشأة والنضج والقوة والكهولة التى تعنى فى النهاية سقوط الاسرة الحاكمة وعودة الدولة إلى دورة جديدة بدماء جديدة ممارسة لدورها باسم اسرة حاكمة جديدة تتخذ من النسب القرشى الشريف والعقيدة الاسلامية شريان حياتها الرئيسى بعد أن أودت بحياة أسرة بنى وطاس، ذلك لأنه كان للدين الاسلامى فى بلاد المغرب شأنها شأن بلاد بقية العالم الاسلامى الواسع فى ذلك الوقت أهمية بالغة فى اذكاء روح البناء الحاكم ومنطلق من منطلق دينى تتواكب تحت لوائه بل اجنحته حركة الدولة التى يكون عامل الشرافة القرشية الطالبية الحسنية الهاشمية هو المحرك الاساسى لكى تمارس نشاطها السياسى والاجتماعى والاقتصادى عبر مراحل بناء الدولة وادوار حياتها التى تمتد اكثر من قرن ونصف من الزمان .

ومن هنا كان النسب الشريف والروح الصوفية والطريقة الجزولية على الساحة المغربية ادراكا بالخطر البرتغالى والاسبانى الذى بات يتهددا دورها فى بناء الدولة السعدية لكى يعود للدين الاسلامى اطواره القوى ويستطيع ان يقف ويواجه تيار التحديات التى جاءت إلى أرض المغرب تحل دياره وتناصبه العداء التى كانت تتحدى مقدرات الشعب المغربى التى تمس فى نفس الوقت مقومات الاسلام والعروبة بحكم مواجهتها المستمرة مع حركة التاريخ الاوربى وبحكم الاطار الزمنى والظروف السياسية التى يتحرك فيها المغرب تفاعلا مع التحركات المضادة على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق التى قدمت إلى الساحل المغربى تحتل ثغوره الحساسة ومدنه الساحلية الهامة انطلاقا لخلق بقايا الجهاد الاسلامى فى اراض الاندلس .

وفى ظل هذه الظروف كانت كل الاسباب تدفع الاحداث دفعا امامها لظهور الامارة السعدية الشريفة لكى تدعم قوتها وتطورها ونزعتها العربية الشريفة لكى تلعب دورا على مسرح الاحداث السياسية فى بلاد المغرب الاقصى مستفيدة من كل الظروف السابقة والاحوال المحيطة ولكن تدرك ابعاد الصدام المرتقب الذى يرنو ببصره تطلعا لابتلاع المغرب بين القوى التركية العثمانية والاسبانية والبرتغالية لاسيما بعد ان سيطرت كل من هذه القوى الثلاث على بعض الثغور الساحلية فى بلاد المغرب الاقصى .

ومن هنا لم تكن نشأة الدولة السعدية التى نعرض لها على صفحات هذا البحث حتى سقوطها على يد الاشراف العلويين ليلعب الدور الهام الا بالنسب الشريف الذى دفع بها إلى قلب الاحداث حيث كان النسب هو المحرك القوى والفعال بل والمؤثر الحاسم فى الصراع مع بنى وطاس لكى يتم بناء دولة كانت تقيم اوج البناء اعتمادا على البعد الدينى مرتديا عباده الاشراف الحسنين القرشيين مضافا اليه البعد الاقتصادى

والاجتماعى ومن هنا جاء الينا الشريف السعدى قويا معتصما بالقوى العربية المغربية التى ساندته منذ الوهلة الاولى التى انطلق فيها مؤسسها الاول محمد القائم الشريف السعدى الذى رأى ان الوقت قد حان لكى يلعب الاشراف دورهم على الساحة المغربية ادراكا بالخطر البرتغالى والاسبانى الذى بات يتهددا الوطن لاسيما بعد تطلع اليبيرين لاحتلال الداخل وقيامهم بارسال حملات عسكرية لاحتلال مراكش العاصمة الثانية لبنى وطاس وبعد ذلك ارسال حملات لاحتلال فاس العاصمة الاولى. ومن هنا تصدت الاسرة السعدية للعدوان الصليبي قادمة من قلب الجنوب المغربى رافعة راية الجهاد الاسلامى ضد القوى الاستعمارية البرتغالية وباسم الجهاد الاسلامى واحياء الدولة الاسلامية على نمط المرابطين والموحدين تصاعدت القوة الكبرى للاسرة وللأماة السعدية وبدات وحدتها السياسية تحاول ان تجد لها طريقا بين القوى الكبرى الثلاث وهى الامبراطوريات المجاورة ومن هنا كان عليها ان تجد لنفسها طريقا لا بد ان تلعبه وتمارس فيه وجودها مرتبطا بعلاقات مع تلك الدول .

وهكذا نشأت الامارة السعدية من التنظيم الدينى الصوفى الذى ساد المغرب مع رداء العبادة الشريفة القرشية وكان فرع من الاسرة السعدية قد هاجر فى اواسط القرن الخامس عشر إلى اقليم السوس واستقر فى قرية صغيرة تسمى (تيدس) وتقع جنوب غرب مدينة «تارودانت» وعرف عن الاسرة السعدية منذ استقرارها فى تلك المنطقة بالانتماء للاشراف الحسنين العلويين من نسل محمد بن ابي القاسم من اشراف سجدلماسة من نسل محمد النفس الذكية ومن ابناء الحسن بن على .

ومحمد القائم السعدى مؤسس الاسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الاسلامى هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن على بن مخلوف بن زيدان بن احمد بن محمد بن ابي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن ابي عرفة بن الحسن بن ابي بكر

بن على بن حسن بن احمد بن اسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الذكية بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن ابي طالب رضى الله عنهم .

ويوجه اليهم بعض الاتهامات اعدائهم بانهم ينتسبون إلى قبيلة بنى سعد التى تنتمى اليها حليلة السعدية مرضعة الرسول محمد ﷺ، لكن الثابت تاريخيا ان الاسرة السعدية كأية أسرة عربية مهاجرة من الشرق ظهرت فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى فى منطقة الوادى الاوسط لهز درعه بين مدينة زاكورا ومدينة تاكمدارات، ومن هذه المنطقة هاجر الفرع الذى ينتمى اليه محمد القائم إلى بلاد السوس .

ويذكر السلاوى فى كتابة الاستقصا فى اخبار المغرب الاقصى ان الشيخ ابن المبارك رأس الطريقة الجزولية فى بلدة اقة اجتمع بالامير الشريف أبى عبد الله القائم وذلك عام ٩١٥ هـ وعهد اليه بامر قيادة حركة الجهاد، ثم عاد الشريف إلى درعه فهو الذى اتخذه لتنظيم صفوفه وجمع اعوانه ورجال القبائل من حوله ثم عاد فى العالم التالى ٩١٦ هـ حيث بعث اليه رجال الدين وفقهاء البلاد وشيوخ القبائل لكى يتولى أمرهم وتسلم الامر فيهم فلبى دعوتهم وبايعه الناس على الجهاد والصبر والطاعة والولاء فى قرية تبيدس قرب تارودانت .

ولقد استفاد الاشراف السعديون بنسبهم الشريف وقت ظهورهم على مسرح الاحداث بالمغرب وقيادة أهل السوس المتضررين من الاحتلال البرتغالى على اراضيهم. ولقد دعمت القبائل العربية المقيمة بمنطقة بلاد السوس نضال السعدين ضد الاستعمار البرتغالى وكان على رأس هذه القبائل بنو شبانة وضوى منصور الذين كانوا حلفاء اقوياء لهم منذ بداية تنظيمهم السياسى فى بلاد السوس .

وهكذا كان ظهور محمد القائم بامر الله السعدى بداية ظهور دولة الاشراف

السعديين وهى الدولة التى عرفها المؤرخون بأكثر من اسم فى المصادر الغربية والاوربية فأطلقوا عليها الدولة الزيدانية او الدرعية التاكدارية أو دولة الاشراف الحسينين وذلك الاسم الاخير لان مؤسس هذه الاسرة شريف قرشى هاشمى ينسب إلى النبی ﷺ من جهة الحسن بن على بن ابى طالب وفاطمة الزهراء وقد تسموا بامراء المؤمنين .

وهكذا كان اتفاق اشياخ الصوفية ورجال القبائل والفقهاء وعليه القوم ورجال الدين فى بلاد السوس على أبى عبد الله محمد القائم بأمر الله، انما كان اشارة للتحرك بالجهاد الاسلامى واذن من الصالحين والاولياء والعلماء له بالامامة العظمى نظرا لنسبه القرشى الشريف .

ونذكر بعض المصادر ان السعديين كانوا يعيشون بقرية تسمى (بنو ابراهيم) وهى قرية من اعمال مدينة ينبع الواقعة على ساحل البحر الاحمر بالقرب من المدينة المنورة بارض الحجاز المقدسة، ثم هاجروا إلى وادى درعه بالمغرب وكان بعض من أهل الورع المغاربة من مدينة سجدلماسة عند اداء فريضة الحج قد توقفوا فى مدينة ينبع وتصادقوا ان يتقابلوا مع شريف من الشرفاء الحسينين بن الحسن فخاطبوه فى أمر الرحيل معهم وحببوا اليه السير معهم إلى بلادهم بالمغرب ولقب هذا الشريف بالداخل، وعمل اهل درعه على استقدام شريف قرشى هاشمى طالبى مثل اهل سجدلماسة فقدم اليهم من يتبع الشريف مولاي زيدان بن احمد وهو الاسم السادس فى ترتيب اسماء محمد القائم بالله فيكون هناك خمسة اجيال عربية قرشية هاشمية طلبية حسنية قد تناسلت فى بلاد المغرب وكان زيدان هو ابن عم شقيق الحسن الداخل جد الاسرة العلوية التى تحكم المغرب حاليا) وانتشرت ذرية الحسن فى سجدلماسة، أما سلالة زدان مؤسسو الاسرة السعدية فقد انتشروا فى وادى درعه وانحدر منها امراء المؤمنين السعديين . والذين نسبوا إلى عشيرة بنى سعد بن بكر والذين عاشوا فيها مع ابناء زيدان سويا فى درعه

حيث كان ابناء سعد يشاركونهم المعيشة فى هذه البقاع الجنوبية من المغرب الاقصى ومن هنا فان اشراف سجدلماسة (العلوين) ودرعه (السعديين) ابناء عمومهم . لكن نجد اليفراني فى كتابه النزهة يذكر لنا أيا من الرجلين دخل المغرب هل هو زيدان ام أبوه احمد ومهما تكن الآراء بشأن من كان فيهم أول من دخل المغرب فان الامر لا يعدو أن يكون هجرة عربية قرشية شريفة من جزيرة العرب إلى المغرب، بل ان الحسن بن عبد الله الذى هو جد السعديين هو نفسه - الجامع لنسبهم مع الاشراف العلوين مع جد سجدلماسيون وهناك بعض الآراء يذكر ان السعديين والعلوين قد تفرعوا من الجد بعد قدومه إلى المغرب وهو الرأى الاكثر قبولا وملاءمة للواقع وللأحداث التاريخية التى دارت على ارض المغرب بعد ذلك .

اما لماذا اختار اهل الحل والعقد والطرق الصوفية والمشايخ والفقهاء هذا الشريف فان ذلك يعود إلى التيقن الكامل من النسب الشريف الذى كانت تتناقله الاجيال مشافهة جيلا من جيل وهو ان جدهم الاكبر احمد بن محمد على القاسم والد زيدان الذى يقال انه هو الذى هاجر إلى المغرب فانه قدم إلى بلاد السوس وكان يحفظ الصبيان كتاب الله الكريم وقرأه القويم ويشغل بالتعليم وهو أول من انتقل إلى اقليم السوس حيث قامت قبائل هواره فى هذه المنطقة باقامة زاوية له ثم تناسلت الاجيال منه حتى كان جد الاشراف عبد الرحمن فقيها يعلم كتاب الله للصبيان وكان له ولد ابنه محمد ومحمد هذا هو والد محمد بن القائم بأمر الله، ومن ثم فقد كان اجداد السعديين منذ ان وطئت اقدامهم ارض المغرب يشتغلون بالتعليم وتدریس القرآن والعلوم الاسلامية لابناء وصبيان هذه المنطقة وكان الفقه والعبادة والتعليم نهج حياتهم . ومن ثم تمضى الازمان والايام والاشراف السعديون لا يحدون عن الطريق الدينى والنشاط الاسلامى الذى اختطوه واختاروه لانفسهم وهم فرع الشجرة النبوية الطيبة الذكية ولم يكن يدور

بخلد وخاطرا أحد منهم ان يمارس نشاطا أو دورا سياسيا في المغرب، ومن ثم جاء الدور على ابي عبد الله محمد القائم بامر الله الذي بدأ يتطلع للسلطة والسلطان والرئاسة والقيادة الدينية والدينية وكان ان رزقه الله بولدين هما أباي العباس احمد الاعرج وأبي عبد الله محمد الشيخ وكانا يقرآن القرآن الكريم في منطقة السوس وذاع صيتهما ونبوغهما بين أهالي المنطقة وكان رؤساء العشائر والقبائل ورجال الدين والفقهاء، يتوسمون فيهما مستقبلا باهرا واياما مباركة من أجل العمل لصالح الرعية، بل ان والدهما كان يعلن أن أمر المغرب سوف يؤول اليهما مستقبلا .

ولقد كانت احداث المغرب في تلك الفترة تبشر بنجاح النشاط السعدي وقاد محمد القائم بأمر الله السعدي نشاط المجاهدين ضد البرتغاليين واعوانهم المغاربة على السواء وبلغ نشاطه محاولة دخول مدينة اسفى عام ١٥١٥م. بعد ان كان البرتغاليون قد سيطروا على موانئ وسواحل اقليم السوس نظرا لانه المدخل إلى الاراضى الخصبة المتاخمة للساحل، ومن هنا كان على الحركة السعدية واهالي المنطقة مقاومة هذا النشاط فاقاموا رباطا قريبا من مراكز احتلال البرتغاليين وكان هذا الرباط يضم المتطوعين الراغبين في الجهاد الاسلامي والذين اعتادوا الاقبال على هذا الرباط لشن الغارات المتكررة معا على اعدائهم المحتلين وسرعان ما كبر هذا الرباط وصار زاوية كبيرة اقيمت من الساحل (ساحل المحيط الاطلسي) ومدينة تارودانت ليتولى امر الجهاد ومن هذه الزاوية التي تولاهها الاشراف السعديون الحسنيون بدأ التفكير في تطهير البلاد من الاحتلال الاجنبى .

وعلى هذا فقد كان عام ٩١٦هـ / ١٥١٠م هو مولد الدولة السعدية الحقيقية اذ ان مبايعة أباي عبد الله محمد بن عبد الرحمن باقليم السوس اميرا واملها للبلاد المغربية باسم القائم بامر الله يعاونه ولداه احمد الاعرج ومحمد الشيخ مرتكزا على النسب

الشريف والدعوى الجزولية الصوفية. ثم تأيد القبائل والاهالي، ولقد كان تحمل طوائف الشعب لهذا الشيخ بالمسؤولية الجهادية يجعل هذه القيادة الجديدة ان تضع امام ثاقب نظرها ضرورة تخليص كل شبر من اقليم السوس من الاحتلال الايبيري البرتغالي الاسباني والقضاء على اعدائهم الخونة المغاربة الذين يتعاملون معهم ويمدونهم بالعون من اجل البقاء بالبلاد كغزاة ومحتلين بل انه ازاء مواجهة تحديات الصراع كان يتحتم تحصين مدينة تارودانت لصد أى هجوم يقع عليها وجعلها نقطة تجمع وانطلاق لفتح مراكش ثم السيطرة على جميع اراضى اقليم السوس والعمل على تمكين السعديين من دخول مراكش لتكون عاصمتهم الاولى ثم القضاء على حكم الوطاسين فى فاس وأيضا تصفية كل الوحدات الانفصالية الصغيرة التى تتبع رسميا لحكم بنى وطاس ثم بعد ذلك كان هدف توسيع رقعة المغرب وتكوين دولة مغربية قوية كبرى تصارع فى قوتها وتوسعها دولة المرابطين والموحدين ومن هذا المنطق كان السعديون يضعون نصب اعينهم ضرورة تحقيق هذه الاهداف العظمى والسعى حثيثا إلى الوصول إلى الهدف الاكبر وهو تحرير كل الموانئ والسواحل الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية والارتكاز على التأيد المغربى الجارف لهم كسند قوى يدفع بهم إلى تحقيق كل هذه الاهداف التى رسمها للأسرة مؤسسها الاول ابو عبد الله القائم بامر الله .

وعلى هذا فقد استطاع الامير والامام ابو عبد الله القائم يدعمه ويسانده ويشد من أزره والده احمد الاعرج ومحمد الشيخ الذى خطط لهما ملامح المستقبل السعدي فى ضوء الاحداث المحيطة والتطلعات إلى رؤية واسعة فى تثبيت دعائم هذه الاسرة الشريفة واستطاعا أن يجمعا حولهما المجاهدين والمتطوعين والراغبين فى الاستشهاد والجهاد. وان يقفوا على متطلبات حركة الجهاد الاسلامي فى اقليم السوس كله وكان المخطط الاول هو تحرير الثغور المغربية من الايبيرين والمحتلين، وبعد ان تأكد القائم بامر الله من

صدق العزيمة وقوة الارادة ونية الجهاد استفتح عمله في مجاهدة البرتغاليين وطردهم من البلاد فهاجموا مدينة نقتنت بالسوس وانتصروا على البرتغاليين وكان تحرير هذه المدينة اول نجاح حربي يحققه القائم بأمر الله السعدى ثم حرر مدينة اغادير وجعلها دار امارته ولم يحل عام ١٥١٢م / ٩١٨هـ حتى كان قد آخذ البيعة لابنه احمد الاعرج ونصبه خليفة له على البلاد من بعده وولى له وذلك لكى يضمن للحركة السعدية الجهادية صفة الاستمرارية ويضمن ولاء الانصار لابنه من بعده واخذ البيعة لمحمد الشيخ ابنه الثانى ايضا واتخذ ابو العباس احمد الاعرج لقب ملك بلاد السوس فى عهد ابيه وكان ذلك عام ٩١٨هـ ومنذ ذلك الوقت صار ابو العباس الاعرج زعيما لحركة الجهاد ضد البرتغاليين وذلك بعد ان ذاع اسمه وبلغت شهرته انحاء الجنوب بعد انتصاره على البرتغاليين فشدد القبائل ورجالها اليه الرحال تباعه ونلتف حوله وتعاهده على الموت جهادا فى تحرير التراب الوطنى المغربى المقدس. وكانت هذه المرحلة الثانية من الجهاد إلى مدينة افغال حيث رحاب رفات شيخ الجزولية حيث طلب منه شيوخ القبائل ورجالها مساعدتهم ضد البرتغاليين فنهض بهم بقواته وولده احمد إلى اغفال بلاد صاصة وترك ابنه الاصغر ابا عبد الله محمد الشيخ واليا على بلاد السوس يدير امورها فى غياب ابيه واخيه واصطدم السعديون ورجال القبائل المؤيدة بالبرتغاليين وأعوانهم الخونة من أهل المغرب حيث دارت معركة بالقرب من مدينة اسفى لم يستطع السعديون الانتصار فيها بسبب دعم البرتغاليين لرجالهم وخليفهم «يحيى بن تافوت» بعد ان حاصروهم السعديون فى حصنهم الحصين اسفى واغلقوا عليهم الابواب، لكن احمد الاعرج استطاع ان يجدد الهجوم ويجمع قواته وان يهزم البرتغاليين وحليفهم «يحيى بن تافوت» وان ينتصر عليهم ومات يحيى بن تافوت عميل البرتغاليين عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م وبموته فقد البرتغاليون حليفا قويا وبدأ مركزهم فى الضعف .

لكن الحركة السعدية فقدت آمالها وقائدها أبا عبد الله محمد القائم بأمر الله عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م بعد ان استطاع ان يضع اسس بناء الدولة السعدية وان يحدد اطار العمل لولديه أبى العباس احمد الاعرج وأبى عبد الله محمد الشيخ اللذين كان عليهما ان يواصلتا المسيرة السعدية انطلاقا للجهاد المحدد وسعيا وراء الهدف المنشود فى تحرير الثغور المحتلة وإيجاد الظروف والسبل الملائمة للقضاء على الدولة الوطاسية التى انهكتها الحروب الداخلية والحصار الاقتصادى والسيطرة الاوربية وكان على احمد الاعرج ان يحمل راية الجهاد خلفا لابييه القائم بأمر الله .

الفصل الأول

الدولة السعدية بعد مؤسسها محمد القائم بأمر الله

٢٩٤ - ٦٩٠ هـ - ١٥١٨ - ١٥٤٤ م

(أ) الأمير أبو العباس أحمد الأعرج

بايعت القبائل المغربية أبو العباس أحمد الأعرج بعد وفاة أبيه القائم بأمر الله خليفة له وإماماً للمجاهدين في بلاد السوس ومن ثم استقامت له الأمور وبدأ يمارس نشاطه في محاربة البرتغاليين وجهادهم فشن الغارات على العدو البرتغالي وضيق المنافذ على القبائل السوسية المتعاونة مع البرتغاليين واستطاع أن يوسع مناطق نفوذه .

وهو الأمير السعدى الأول وكان قد تولى إمارة السوس كما سبق القول عام ١٥١٢ م ثم إمارته على مراكش عام ١٥٢٤ م. وكان السعديون قد نجحوا في جعل مراكش إمارة سعدية لهم منذ عام ١٥٢٠ م وقبل سيطرة أحمد الأعرج على مراكش فإنه كان قد سيطر على مدينة تارودانت وناركوكو وحصن سانت كروز. وكانت الانتصارات التي أحرزها السعديون قد جعلت البرتغاليين يعيدون حساباتهم في البقاء في المغرب مما دفع ملك البرتغال جان الثالث عام ١٥١٨ م بعد أن أدرك الخطر السعدى الزاحف في تحرير المدن بأن لجأ إلى الإمبراطور شارل الخامس ملك إسبانيا يطلب منه المساعدة بعد أن خشى البرتغاليون وطأة السعديين فكان أن تركوا مدينة أزموور ورباط واسفى وأصيلا تحت شدة الهجوم الإسلامى بعد أن لاحظوا بسالة وشجاعة الجند المغربى عند سقوط مدينة سانت كروز في أيديهم وتركوا أغادير لأن خطورة السعدين في الجنوب قد لا تكون بتلك الصورة في الموانئ الشمالية مما جعلهم يركزون وجودهم في الموانئ الشمالية خوفاً من الخطر التركى العثمانى أو تحالف الأتراك مع السعدين .

وكان دخول أبي العباس أحمد الأعرج مدينة مراكش عام ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م بداية تكوين دولة السعدين المركزية والاتجاه نحو توسيع الحدود التي كان يسعى إلى تحقيقها الأعرج وأخوه محمد الشيخ حاكم السوس وكانت فكرة العودة إلى بناء الدولة الكبرى تراود أحلامه بعد أن رأى أنه في عام ١٥٣٦ م لم تكن الدولة السعدية إلا مجرد إمارة صغيرة في مراكش وسوى تتبع الولاء وتخضع للسيادة الوطاسية في فاس. ومن ثم كانت الإمارة السعدية في تلك الآونة ترى ضرورة استقرار الوضع في الجنوب ثم التطلع إلى الشمال. ولقد أدى الإسراع في السيطرة السعدية على مراكش إلى ارتفاع مكانة أحمد الأعرج في بلاد المغرب بعد أن نقل في نفس العام ١٥٢٤ م رفات الشيخ الجزولى إلى مراكش لكي يضمن الشرعية على الوجود السعدى في مراكش لكن الثورة قامت ضد الأعرج عندما عاد إلى بلاد السوس لاقتسام الخراج مع أخيه في بلاد السوس وكان ذلك من أسباب حدوث الخلاف بين الأخوين الشريفين، لكن الإشراف السعدين عادوا إلى مراكش في نفس العام وقضوا على الثورة ولم تمض إلا شهور قليلة حتى قتل السعديون محمد بن ناصر بوشنتوف حاكم مراكش بالسهم وصفا للإشراف أمر مراكش وجميع الأقاليم التابعة لها .

اذ كان أهلها قد أظهروا الولاء للبيت السعدى الشريف وبعد أن تم لهم أمر درعه والسوس ومراكش تلقب أحمد الأعرج باسم الأمير وهو اللقب الوحيد الذى حمله حتى وفاته .

وكان بعد مقتل بوشنتوف قد صار أحمد الأعرج سيد مراكش الوحيد وراعى رفات شيخ الطريقة الجزولية ومن ثم كان هو الحاكم الاوحد وتولى أخوه محمد الشيخ حكم إمارة السوس وتارودانت .

وكان أحمد الأعرج عندما دخل مدينة مراكش قد كتب إلى السلطان الوطاس

محمد البرتغالي يقول له انه ليس الا احد العمال التابعين للسلطة الوطاسية على حكم مراكش وان ما كان يدفعه اهل المدينة من خراج فانه على استعداد ان يؤديه وان يبذله مضاعفا للسلطة الوطاسية وكان ذلك نوعا من المكر والدهاء كما يذكر ذلك السلاوي .

ولقد كان احضار السعدين لرفات الشيخ الجزولي إلى مدينة مراكش ونقله من مدينة افغال هو البداية الحقيقية للحكم السعدي حيث صارت مراكش هي حاضرة الامارة السعدية الشريفة واليها يسعى رجال الطريقة الصوفية الجزولية للترحم على شيخهم محمد بن سليمان الجزولي صاحب الطريقة الجزولية .

ولقد كانت خطة الامير احمد الاعرج واخيه محمد الشيخ عدم الدخول في تلك الفترة من جهادهم سعيا لبناء الاسرة الحاكمة السعدية في صراع مع السلطان الوطاس محمد الشيخ البرتغالي والسعي إلى كسب رضاه ووده. وارسلا رسولا إلى فاس لكي يعبر السلطان الوطاسي عن ولاء التبعية وارسال الخراج المطلوب والهدايا للسلطان لكن سيطرة السعدين على مراكش لم تلق قبولا من السلطان احمد الوطاسي الذي خلف اياه في الحكم فدارت فيها معارك انتصر فيها احمد الاعرج على الوطاسين عام ١٥٣٦م. وبفضل تأثير الزوايا الصوفية ودورها في المجتمع المغربي في ذلك الوقت وتأثير الناس بما تدعو له فان ذلك قد ساعد السعديين على تقوية اواصر العلاقات الطيبة مع قبائل الاطلس. وكان الشيخ الغزوني وانصاره خير سند للسعدين في مراكش وفي تهيئة الجو العام لهم بين القبائل لترحيب الشعب المغربي بنشاطهم وتضافر القبائل من حولهم مما دفعهم إلى العمل على تحرير اغادير عام ١٥٤١م. من أيدي البرتغاليين واكسب ذلك صيتا قويا للاميرين السعدين وادى إلى انزعاج البرتغاليين فكان قرار الجلاء عن المستعمرات الجنوبية كما سبق القول .

غير ان الامور لم تسر سيرها الطبيعي في الحركة السعدية الرامية إلى توحيد المغرب تحت سيطرتها ذلك لان الامر كان يتنازع قائدان احمد الاعرج الابن الاكبر لمحمد القائم بامر الله وابو عبد الله محمد الشيخ الابن الاصغر وكانت الجفوة قد حدثت بينهما منذ عام ١٥٢٤م كانت لانزال تترك اثرها في نفوس الاثنين لكن منذ عام ١٥٤١م ظهر الصراع وادى إلى نزاع مكشوف حيث دخل الاخوين في صراعهما العلني الذي استوجب القتال وحشد القوات والاستعداد للجولة النهائية لكي يتقرر مصيريهما يحكم المغرب مستقبلا ولمن تكون الغلبة في هذا الصراع .

وعلى الرغم من ان البيعة كانت قد اخذت للأمير أبي العباس احمد الاعرج عام ١٥١٢م في حياة ابيه الذي لم يتوف الا بعد هذه البيعة بخمس سنوات لان الامير أبا العباس كان الابن الاكبر وكان اخوة ابو عبد الله محمد الشيخ الاصغر سنا منه ورغم صرامة وشهامة احمد الاعرج فان محمد الشيخ تمت ولايته وولى عهده في الجنوب الا ان الاعرج كان دائما ياخذ رايه ويستشير في القضايا الهامة واموره ويعاونه في المهمات ويستعين به في المعارك ويستضيء برأيه في الحوادث والقضايا الكبرى، ولقد كان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة يصيب الرأي حازما ومن هنا كانت كلمتهما واحدة وامرهما جميعا واحدا إلى أن دخلت الوشاية من اصحاب النفوس الضعيفة ففرقت بين الاخوين وأفسدت ما بين الاخوين من مودة وانقسمت البلاد وصار الجند والجيش جيشين واخلص كل لصاحبه وبات القتال وشيكا لاشك فيه .

لاسيما ان الطومحات الشخصية كانت تلعب دورها في هذا الصراع وكان انتصار محمد الشيخ في اغادير في بلاد السوس والتفاف القبائل حوله والسعي لتحقيق المزيد من الانتصارات وحمله لقب المهدي في حين ان أبا العباس احمد لازال يحمل لقب الامير ربما يكون قد اثار حفيظة الاخ الاكبر فغير من اسلوب تعامله مع الشيخ

وانصرف إلى تأمين امارته وربما يكون قد انصرف عن جهاد العدو الاسباني والبرتغال وربما يكون هذا هو السبب القوي من اسباب الصراع الاخوى .

واستطاع محمد الشيخ (المهدى) الانتصار على اخيه الاكبر احمد الاعرج عام ١٥٤٤م فى معركة وادى الطاهرة. واصبحت كلمة اهل السوس على محمد الشيخ وتم القبض على اخيه ابى العباس احمد وادع السجن عام ٩٥٦هـ / ١٥٤٤م بعد ان كان قد اسر فى معركة سابقة وتم اطلاق سراحه بعد اتفاق عائلى، لكن سرعان ما عاد النزاع بين الاخوين وامكن لمحمد الشيخ القبض من جديد على أخيه ابى العباس احمد الذى كان قد لجأ إلى زاوية سيدى عبد الرحمن السادس فى تنسفت وقام بنفيه واسرته إلى تاقلالت (سجلماصة) وبذلك انفرد محمد الشيخ (المهدى) بامارة السعدين فى المغرب المراكشى ودانت له مراكش عام ٩٥١هـ / ١٥٤٤م .

وكان الامير احمد الاعرج قد حكم منذ عام ١٥١٨ حتى عام ١٥٤٤م إلى أن تم عزله فى هذا العام من الامارة وتم نفيه إلى سجلماصة لكنه استطاع ان يفر من الاسر بعد خمس سنوات وذلك عام ١٥٤٩م ولجأ إلى غوارة، لكن تمت عودته إلى تافيلالت مرة اخرى عام ١٥٥٤ بعد فراره بخمس سنوات ايضا لانه قبض عليه هذه المرة بعد ان تاكد لاخيه محمد الشيخ (المهدى) انه قام بتأييد أبى حسون الوطاسى الذى عاد لحكم البلاد ودخل فاس عام ٩٦١هـ / ١٥٥٤م. بتأييد الاتراك وكان اخوه قد احتجزه منذ هذه الفترة حتى عام ٩٦٤هـ / ١٥٥٧م حيث تم قتل محمد الشيخ عن طريق الاتراك فى نفس العام ولما كان حاكم مدينة فاس قد خشى من احمد الشيخ فى ذلك الوقت ربما يقوم الاهالى باخراجه من السجن لكى يتولى الخلافة السعدية خلفا لاخيه محمد الشيخ بدلا من ابن اخيه عبد الله الغالب مما دفعه إلى قتله هو وابنائيه واحفاده السبعة فى مذبحة اليمه عام ١٥٥٧م بعد كان عمره قد ناهز السبعين

عاما وبذلك طويت صفحة احمد الاعرج الابن الاكبر لمحمد القائم بأمر الله الذى كان قد أدى فريضة الحج قبل أن يتسلم مقاليد الامور فى بلاد المغرب كما انه كان يقوم بالتدريس فى مسجد القروين بمدينة فاس وكانت له حلقة دراسية وطلاب يتلقون العلم على يديه وقد اكسبته غزارة علمه وسعة آفاقه وقدرته على الحجة ان اكسبته سمعة طيبة وعلوا فى المكانة مما دفعت به إلى التقرب إلى السلطان الوطاسى محمد البرتغالى حتى صار مؤدبا لاولاده ولقد كان احمد الاعرج مجاهدا على الهمة سار فى طريق الجهاد كما رسمه له والده على خير اداء فهو الذى حاصر مراكش واستولى عليها وهو الذى عمل على الزواج من ابنة حاكم المدينة الامير محمد بن ناصر يوشنتوف لكى يكسب الوجود السعدى فى مراكش الولاء والشرعية وهو الذى قاد القوات ضد الوطاسين وكان صلبا فى رفضه الخروج من مراكش والقتال حتى يهلك الجميع وهو الذى وسع حدود السعدين يصلحه مع الوطاسين بأن جعل سلطة السعدين تمتد من نادلا إلى بلاد السوس وهو الذى وقع هدنة مع البرتغاليين عام ١٥٣٧م من اجل التفرغ لقتال الوطاسين وبناء الجبهة الداخلية توطئه للتفرغ لقتال العدو الايبيرى .

ولقد كان ابو العباس أحمد الاعرج هو الذى وضع اسس البناء القوى لبناء الدولة السعدية المغربية كدولة وطنية ناشئة فى ذلك الجزء من العالم الاسلامى بعد ان ترسم طريق الجهاد الاسلامى عاملا على تجديد الدولة التاريخية بالمغرب الاسلامى ولقد وضع الاعرج امامه شرط الجهاد والتصدى للعدو النصرانى واستقطاب الشعور الجهادى ضد العدو المشترك والعمل على ايجاد نوع من العلاقات المحلية والقبلية توطئه لانتزاع القيادة الرمزية من بنى وطاس .

ولقد كان لقب النسب النبوى نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الذكية النبوية ذوى العصبة العلوية الشريفة هو المسار الذى سار عليه خلفا لاييه. لكن حتمية

القيادة الواحدة دفعت الاخوين لان يكون ما بينهما من اقتتال تفردا لحكم البلاد بعد ان رأى كل منها فى الآخر عائقا يحول دون تحقيق اماله الكبرى فى بناء الدولة السعدية لاسيما ان احمد الاعرج ينظر إلى اخيه محمد الشيخ كوزير له لا يجوز له التصرف فى شئون المغرب الجنوبى والانفراد بالخارج دون ان يكون للاعرج النصيب الاكبر منها. لكن محمد الشيخ رأى فى الانتصار العظيم على البرتغاليين واسترداد اغادير وترك البرتغاليين لجميع الجيوب الاستعمارية البرتغالية فى الجنوب وتلقبه بالمهدى حافظا له بأن يكون الحاكم الفعلى للبلاد ولا يحد من طلبه صغر سنه او بيعه المشايخ وعليه القوم ورجال القبائل لابی العباس احمد الاعرج ومن ثم كان ما حدث من احداث بين الاخوين وتم اسر احمد الاعرج ونفيه إلى تافايلات (سجلماسة) ووضع حد فى الثنائية الحكم فى المغرب بين الاخوين السعدين وكان على محمد الشيخ (المهدى) بعد ذلك ان يقود مسيرة الحركة الاسلامية السعدية التى رفعت لواء الجهاد الاسلامى. وطويت صفحة فى تاريخ المغرب لكى تبدأ صفحة جديدة يسعى فيها محمد الشيخ إلى تحقيق الطموحات الكبرى نحو بناء الكيان السعدى الواسع العريق الذى كان يسعى إلى تحقيقه على طراز الدولة المرابطية او الموحدية وهى الدول التى كانت ذات شأن وباع طويل فى توحيد المغرب الكبير وامتداد نفوذ المغرب الاقصى إلى المغربين الاوسط الادنى وسوف نرى فى الصفحات القادمة الدور الكبير الذى يلعبه محمد الشيخ المهدى على مسرح الاحداث السياسية فى بلاد المغرب وما هى مراحل حركاته نحو انتهاء الوجود الوطاسى نهائيا من البلاد والدخول فى صراع مع القوى الايبيرية والتوسع شرقا عبر المغرب الاوسط والدخول فى قتال مع الاتراك ومحاولة القضاء على النفوذ التركى العثمانى فى تلك الانحاء وتوسع حدود الدولة وعلاقاتها بالقوى الخارجية .

(ب) ابو عبد الله محمد الشيخ المهدى (الامير السعدى الثانى)

٩٥٠ - ٩٦٥ هـ - ١٥٤٤ - ١٥٥٧ م

ذكر السلاوى ان مولد محمد الشيخ ابى عبد الله بن محمد القائم بامر الله كان عام ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م وقد لقب بالمهدى ولقبه للبربر (اسفار) أى الشيخ باللغة البربرية وقد أسبغ على الحركة السعدية ودولتها صفة المهدية وقد قصد إلى بلاد الحجاز لتأدية فريضة الحج مع شقيقه الاكبر احمد الاعرج ثم اقام بمدينة فاس العاصمة .

وكان السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ يلقب من الالقاب السلطانية بالمهدى بلغ فى العلم درجة حتى كان يخالف القضاة فى الاحكام ويرد على فتاواهم فيجدون الصواب معه وقع ذلك منه مرارا وله حواشى على تفسير القرآن كثيره ومتعددة وكان عالما بكل معانى الكلمة فى العلوم الاسلامية الشرعية وفى التفسير وكان المهدى قد نشأ عن الصلاح والتقوى منذ صباه ومهتما بالعلم فى صغره وتعلق باهداب الدين وحفظ القرآن الكريم وصحيح البخارى وأخذ عنه جماعة من الشيوخ وكان ادبيا متقنا وكانت له اليد الطولى فى التفسير والفقه والحديث وكان له اهتمام بالعلماء والجلوس اليهم والاخذ باطراف المسائل العلمية وكان المهدى طموحا واستطاع بطموحاته وتفكيره أن يحقق كثيرا من اهدافه .

وقد برز اسم محمد الشيخ كبطل عظيم بعد انتصاره على البرتغاليين وتحريره لاغادير وكذلك انتصاره على اخيه احمد الاعرج فى معركة وادى الكاهرة ويعتبر المؤسس الحقيقى لدولة الاشراف السعدين. وقد استطاع فتح افنى عام ٩٤٨ هـ ١٥٤٢ م واسترد مدينة أصيلا والقصر الصغير عام ٩٥٥ هـ / ١٥٠٦ هـ ٥٤٩ م. ولم يبق فى يد البرتغاليين سوى طنجة وسبتة ومزغان وتقوم بالدفاع عنهما. وقد وضع محمد ختمه على المغرب الاوسط.

ولقد عرفت تلك الفترة بالكفاح في الداخل ضد الوطاسين الذين شعروا بخطر الحركة السعدية عليهم وكفاح السعدين ضد مراكز الاحتلال اليبيري وكفاحهم لتوحيد البلاد .

وقد رفض محمد الشيخ الاعتراف بالمعاهدة التي وقعها اخوه احمد الاعرج مع الوطاسين ومن هنا فقد نظم قواته واتجه بسرعه إلى مهاجمة فاس . ومن هنا استطاع عام ٩٦١هـ دخول العاصمة الوطاسية لذا يعتبر هذا العام اهم الاعوام في تاريخ الدولة السعدية فقد تم فيه القضاء على الحكم الوطاسي نهائيا والسيطرة على جميع البلاد الشمالية والشرقية بعد ان استجاب السعديون لاماني وتطلعات الشعب المغربي فظهروا كقادة متجاوبين مع المشاعر الاسلامية الجهادية وذلك بالقضاء على الامارات المحلية ورؤسائها الذين قبلوا التحالف مع اعداء الاسلام . ومن ثم فقد اتجه محمد الشيخ إلى تحقيق اهدافه الكبرى وبناء المغرب الكبير ولكن السعدين وجدوا انفسهم امام قوة كبرى في الشمال هم البرتغاليين والأسبان وفي الشرق الاتراك العثمانيين وكان محمد الشيخ المهدي قد اتخذ من مراكش عاصمة له في هذا العام ٩٦٢هـ وكان عليه محاولة تحديد علاقاته بالقوى الداخلية في البلاد وكذلك القوى الخارجية .

ولقد كان دخول محمد الشيخ إلى فاس قد وضع حدا لحكم الاسرة الوطاسية . لت الحكم في البلاد، لذا كان الرجل الذي قضى على دولة بنى وطاس يؤهله مقامه . حل شريف ينتمى إلى سلالة الرسول ﷺ ان يتفانى الناس في خدمته اذ اعتبره الجـ سيد مراكش اذ انهارت كل معارضة له بعد ان عمل على تحقيق كل اافه وبناء الدر "سعدية بالمغرب تضارع دولة المرابطين والموحدين .

وقد وضع محـ "شيخ السعدى نصب عينية ضرورة طرد الاتراك العثمانيين احتلوا المغرب الاورـ ام ١٥١٨م قاصدين تكوين الامبراطورية المغربية الكبرى

التي تخضع للنفوذ العثماني وكان محمد الشيخ قد استغل فرصة اخلاء الاسبان لمدينة تلمسان وحاول الاستيلاء عليها والتي تعتبر مدخلا إلى بلاد الجزائر وكان محمد الشيخ يرغب في ضم بلاد المغرب الاوسط إلى املاكه ثم التوسع شرقا وصولا إلى حدود المغرب الشرقية. والقضاء على النفوذ التركي لاسيما بعد ان فر اليهم ابو حسون الوطاسي ومساعدتهم له واحتلالهم فاس واعاده الوطاسي سلطانا على البلاد لذا بعد طرد الوطاسي بل قتله فان السعدين لم يسلموا بالوجود التركي العثماني على ارض المغرب وبدا الرفض السعدى فى اظهار القوة السعدية والوقوف بحزم للمحاولات العثمانية باسراع محمد الشيخ إلى تجريد حملة إلى تلمسان بعد عام واحد من دخول فاس (١٥٥٠م) منتصرا على السلطان الوطاسي عام ١٥٤٩م وفي أعقاب الانتصارات الكبرى على البرتغاليين بتحرير أصيلة والقصر الصغير من أيديهم واندفع محمد الشيخ بنفسه إلى المغرب الاوسط ودخل تلمسان دون مقاومة من أهلها بعد حصار دام تسعة أشهر وذلك عام ٢٣ جمادى الاول ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م وطرد الاتراك منها .

وكانت هذه الحملة السعدية من الحملات الكبرى التي اعدتها القيادة السعدية فى عهد محمد الشيخ اذا كانت قواتها تتألف من ثلاثين الف مقاتل مسلحة بالمدافع الثقيلة بقيادة محمد الحران وعبد الرحمن بن المهدي السعدى ودخلت تلمسان بل اكثر من ذلك فان تقدمها لم يقف عند المدينة بل اندفعت القوات شرقا وتعدتها فى زحفها إلى مدينة مسنغانم ودخلت مدينة وجدة ودبدو، وكان محمد الشيخ قد ارسل قبل ذلك إلى شرق المغرب قوة من ستة آلاف فارس احتلت كرسيف والتي تقع على نهر ملوية عند التقائه مع وادى فرع النهر. وبهذه الحملة الصغيرة ضمن ولاء قبيلة مديونة والتي كانت تقطن فى المنطقة الواقعة بين مدينة تلمسان ووهران والتي كانت قد أرسلت عددا من فرسان القبيلة يتراوح عددهم ما بين عشرة إلى خمسة عشر فارس

تقابلوا مع الشريف السعدى يطلبون تعيين قائد لهم للقيام بحصار وهران .

وكان فى منتصف شهر ابريل ١٥٤٩م قد شهد تقدم حملة الحران بن محمد الشيخ إلى وجده وانسحاب القائد التركى من المدينة إلى تلمسان وتردد الاخبار بان الاتراك سوف يتركون الجزائر وان باشا الجزائر سيسافر إلى تركيا ويحل محله الشريف السعدى ولقد كانت هذه الاخبار سببا فى ان حملة الحران لم تلق فى طريقها ادى مقاومة تذكر بل انخرط فى صفوفها رجال القبائل من بنى راشد بعد ان فقدوا الهدف من عداء العثمانيين ووجدوا هدفهم فى مناصرة السعدين ودخلت الحملة تلمسان دون صعوبة تذكر فى ٩ يونيو ١٥٥٠م ولقد كان فى مخطط السعدين أن يتقدموا شرقا للتوسع وضم المزيد من الاراضى لكن الحران بن محمد الشيخ قائد الحملة أصيب بمرض شديد منعه من مغادرة تلمسان وبدلا من أن يتجه شرقا اتجه فى طريق العودة إلى فاس فى يوليو ١٥٥٠م مصطحبا معه الجانب الاكبر من قواته عائدا إلى بلاده ثم توفى بعد ذلك بثلثين شهرين وآل مصير الحكم السعدى فى تلمسان إلى اخيه الاصغر عبد القادر مع قوة صغيرة من رجال الحملة بينما قام على قيادة جيش الحران فى فاس أخوه عبد الرحمن .

ولقد ترك استلاء السعدين على تلمسان اثرا معاكسا فى الجانب التركى العثمانى اذ بادر باشا الجزائر فى ذلك الوقت وقد أحس بالموقف الخطر الذى يواجهه من قبل السعدين فسارع إلى جمع قواته فى أنحاء البلاد وعمل على اعادة توزيعها وتنظيمها وجعلها تتمركز فى موقع حصين على الضفة اليمنى من وادى نهر شلف حيث كانت هذه القوات التركىة تحت امره أمهر قواد الاتراك فى الجزائر حسن كورسو والذى برز اسمه فى هذه المعركة بعد ان حشد خمسة آلاف جندى من حملة البنادق وثلاثين مدفعا إلى جانب فرسان من القبائل الموالية للاتراك واكتسح رجال القبائل

الموالية للسعدين، وكان خبر هذه الاستعدادات التركىة الكبيرة قد افزع الخليفة السعدى محمد الشيخ فى مراکش وخاف على قواته التى تحت امر ابنه عبد القادر فارسل اليه على وجه السرعة قوة مغربية مكونة من عشرين ألف رجل وتجر معها خمسة عشر مدفعا فى مواجهة ثلاثين مدفعا تركى .

ولقد كان القائد التركى فى انتظار وصول المدد السعدى بالمرصاد حيث كان بقيع بقواته عند مشارق تلمسان منتظرا قتال السعدين ودارت بين الطرفين معركة بالقرب من وادى متيجة فى ٤ سبتمبر وكانت هذه عبارة عن مناوشات ثم كانت المعركة الثانية فى اقليم تسالا ومنه انتقل القتال إلى سهل طروا بالقرب من مستغانم لى إلى تحرك القتال دون انتصار إلى تلمسان مرة اخرى دون ان يحسم القتال فى معركة حاسمة وبعد هذه الجولات كان محمد الشيخ لازال مصمما على السير فى خطته بالوقوف فى وجه الاتراك العثمانيين وكسر شوكتهم ثم التوسع شرقا لذا نجده يبادر للمرة الثانية بارسال نخبة سريعة من فاس يقودها ابنه مسعود على رأس قوات من ١٥٠٠ رجل من حاملى البنادق النارية يضاف اليهم ١٥٠٠ فارس واكثر من ستة آلاف من راكبي الجمال حيث انضم إلى أخيه عبد الله فى الثانى والعشرين من اكتوبر عام ١٥٥٠م .

وفى فبراير ١٥٥١م وبالقرب من موقع قبة سيدى المرسى قرب نهر بوعزوز كانت المعركة الفاصلة حول مصير تلمسان هل تبقى فى أيدي السعدين المغاربة أم سيعود اليها الاتراك العثمانيون مرة اخرى وكان العثمانيون قد ارسلوا على وجه السرعة امهر واكفاء القادة الاتراك وهو القائد صفا الذى حل محل حسن كورسو. وكانت قواته تتكون من ٣٤٠٠ رجل من حاملى الاسلحة والبنادق النارية يضاف اليهم أربعة آلاف فارس وعدد كبير من رجال القبائل الموالية للاتراك .

وعلى الجانب الآخر كانت قوات السعدين التي قدرتها المصادر التركية بسبعة عشر ألف مقاتل ضمت قوات المولى عبد الرحمن بن محمد الشيخ إلى جانب قوات اخوته عبد الله والمسعود ودارت هذه المعركة وانهزم السعديون بعد ان تلقوا هزيمة ساحقة قتل فيها المولى عبد القادر وجرح عبد الرحمن وتبع الاتراك فلول السعدين حتى نهر ملوية ووصلت خسائر السعدين إلى ما بين اربعة الف إلى عشرين الف ما بين قتل وجريح واسير وبعد هذه المعركة ترك السعديون تلمسان للاتراك .

ولقد كان من نتائج هذه الصراعات مع الاتراك وطردهم السعدين من المغرب الاوسط ان وجد محمد الشيخ نفسه ازاء قوى خارجية طامعة فى بلاده فكان عليه ان يحدد علاقاته بهذه القوى فتحالف مع الاسبان ازاء العداء الناشب مع الاتراك والعثمانيين المتحالفين مع القوى البحرية الاسلامية المجاهدة التى تعمل تحت قيادة الاتراك العثمانيين . ومن هنا كان على محمد الشيخ ان يحافظ على كيانه السعدى وأن يحفظ بلاده من خطر الانطواء تحت حكم الاتراك فاتجه إلى المسيحيين وقد حاول بعض المؤرخين ايجاد العديد من المبررات ازاء التحالف السعدى الاسبانى لكن مهما تكن المبررات التى تساق فى هذا المجال فان طلب العون والمساندة بل والتحالف مع اعداء الاسلام ضد الاتراك لم يكن له ما يبرره وهكذا تم الاتفاق مع الاسبان لمساعدته فى الصراع الجديد الذى يواجهه الدولة السعدية ضد الهيمنة العثمانية ولم يجد محمد الشيخ ازاء موقف رجال الدين الا ان يقوم بقتل كبار رجالهم والمناوئين لسياسته قبل البرتغاليين ومنهم الشيخ ابو مالك عبد الواحد بن احمد الواتشريش من علماء فاس المناصرين لبنى وطاس والذى كان احد ثلاثة تم قتلهم فى عهد محمد الشيخ السعدى وقد قال عنهم محمد الشيخ السعدى بعد قتل كبارهم وبشأن موقف فقهاء فاس ومكناسة من سياسته الان تمهد لنا الجلوس على عرش المغرب بعد قتلنا هؤلاء الثلاثة

الواتشريشى ، والزقاق بفاس وجرزور بمكناس فانهم كانوا يقطعون امعاءنا على المنابر ويوقدون علينا نار الفتنة عند الاكابر . لكن كانت هذه من الاخطاء الكبرى التى ارتكبها النظام السعدى فى عهد محمد الشيخ لاسيما ان الدعوة السعدية قد اعتمدت فى الوصول إلى الحكم على رجال الطرق الصوفية ورجال الدين الذين دفعوا بوالد محمد الشيخ محمد القائم بأمر الله ليحمل راية الجهاد ضد المحتلين اليبيرين فكيف لا يكون لهم موقف معارض لسياسة التقارب مع محتلى الارض وغاصبى العرض ومدمرى الديار الاسلامية . لكن المشاعر الاسلامية فى المغرب تجاه ماتم من تحالف بين السعدين والاسبانيين قد اخذت موقفا مضادا من محمد الشيخ السعدى لاسيما تأييد الطرق الصوفية التى قامت على اكتافها الدعوة السعدية والتى رأت فى هذا التحالف خروجاً على الخط الاسلامى المجاهد وتوقف حركة الجهاد الاسلامى فى تحريرها بقية الثغور المغربية . وكان قد تم الاتفاق بين الاسبان السعدين على ارسال اسطول مغربى يعون اسباني لكى يحتل الجزائر ثم بعد ذلك يزحف جيش مغربى إلى مدينة وجدة بالمغرب الاوسط ثم تتحرك القوات المشتركة إلى تلمسان ومن ثم تتقدم إلى الجزائر تمهيدا لطرد الاتراك العثمانيين من المغرب الاوسط وهكذا يعتبر ما قام به محمد الشيخ السعدى من تحالف مع الاسبان قد وقع فى نفس الخطا الذى وقع فيه سلاطين بنى وطاس من قبل بتحالفهم مع القوى المسيحية ضد الاتراك المسلمين ورجال الجهاد الاسلامى البحرى وذلك على حساب الهدف الاسمى الذى ارتكزت عليه الدعوة السعدية وهى محاربة المحتلين اليبيرين مفتصبى الاراضى الاسلامية فى الاندلس والمغرب .

وبعد معارك تلمسان بين الاتراك العثمانيين والسعدين فان الموقف التركى بدا يتغير بالنسبة للدولة السعدية الناشئة حيث ان فشل السعدين فى صدامهم مع العثمانيين

قد دفع بالسلطان العثماني سليمان القانوني ان يرى ضرورة بسط النفوذ العثماني على كل البلاد المغربية وانه لذلك لابد من حفظ مركز الامبراطورية العثمانية السياسي والحزبي في العلاقات المغربية التركية لذا كانت السياسة التركية ترى ضرورة ضم المغرب ولكن بصورة مرحلية سعيا لاستقطاب الشعور الاسلامي الجهادي ضد العدو المشترك الصليبي لذا حاول السلطان سليمان القانوني عقد تحالف مع محمد الشيخ ضد القوى المسيحية، لكن السلطان العثماني كان يطلب من محمد الشيخ الدعوة له على منابر بلاده المغربية والخضوع لسلطانه بعد أن تمت مراسلات من قبل العثمانيين في أول رجب ٩٥٩هـ يناير ١٥٥٢م كانت تنطوي هذه المراسلات على اعتبار الشريف محمد الشيخ السعدي كوالي من ولاية الدولة العثمانية او حاكم من حكام الولايات بل نعتته المراسلات بحاكم ولاية فاس العثمانية او حاكم من حكام الولايات بل نعتته المراسلات بحاكم ولاية فاس واعتبار حاكم الجزائر في مرتبة امير الامراء، لكن ورود هذه الرسالة على هذه الصورة كان دافعا للتحالف مع الاسبان والاستهجان بصاحب الرسالة السلطان التركي حيث كان رد محمد الشيخ السعدي قاسيا وعنيفا وشديد اللهجة حيث رد على سفير السلطان (العالم العلامة أبي عبد الله محمد بن علي الجروبي الطرابلسي) حيث قال له «سلم على امير القوارب سلطانك وقل له ان سلطان المغرب لابد ان ينازعك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه انشاء الله وياتيك إلى مصر والسلام» .

لكن الخلافة العثمانية التركية والتي كانت ترى في ضرورة استمالة السلطان السعدي قابلت هذا الرد بروح اسلامية وارسلت له رسالة اخرى عام ١٥٥٦ .. بعد ان ردوا على الرسالة الاولى بحمله صالح باشا الرايس حاكم المغرب مع السلطان الوطاسي أبي حسون عام ١٥٥٣م حيث اجبروا السعدي على ترك فاس وتسيد الاتراك على شرق

المغرب ومناطقه الوسطى عدة شهور قبل ان يعاود محمد الشيخ هجومه وتخليص فاس وهذه الاراضي من قبضة الاتراك والوطاسين .

وكانت رسالة ١٥٥٦م التركية إلى السلطان السعدي بعد فشل خطة الاتراك في الاستيلاء على وهران لقطع الصلة بين التقارب (السعدي الاسباني البرتغالي) الذي تجلّى في تبادل عدد من المراسلات بين الاطراف الثلاثة منذ يناير ١٥٥٥م حيث كان وصول وفد اسباني إلى فاس للاعداد للحملة المشتركة التي كان قد تم الاتفاق والمساعدة العثمانية في محاربة النصارى ولكن كانت هذه الشروط تضع مقابل ذلك ان يعترف محمد الشيخ السعدي بدخوله في طاعة العثمانيين الاتراك وان يضع اسم السلطان التركي على السكة (العملة) وان يخطب له على منابر الدولة .

لكن ازاء كل هذه المراسلات التي لم تجد ادنى استجابة من السلطان محمد الشيخ، فقد قرر الاتراك ورجال السلطان العثماني لما وجدوا من معارضة محمد الشيخ السعدي وعدم رغبته في الخضوع للدولة العثمانية فكان تدبير مؤامرة لاغتياله وعن طريق بعض الاتراك الذين يخدمون في الجيش السعدي وقد كانوا من بين حرسه الخاص حيث قاموا في غفلة من رجاله باغتياله عام ٩٦٤هـ في موضع يقال له اقلقال أو اكلكال بالقرب من مدينة ترودانت وحمل راسه في مخلاة إلى القسطنطينية .

وقد جاءت حادثة مقتل محمد الشيخ بالمؤامرة التركية العثمانية ما هي الا مقدمة أو محاولة من السلطات التركية للسيطرة على المغرب الاقصى. ولقد كان من بين أبناء محمد الشيخ الامير السعدي الثاني ثلاثة ابناء تولوا الخلافة وكان لهم دور بالغ في حياة الملك واولهم عبد الله الغالب. ثم أخوه عبد الملك صاحب معركة القصر الكبير ومحقق المعجزة السعدية الفريدة في تاريخ المغرب ثم ثالثهم ابنه محمد المنصور صاحب الفتوحات الكبرى ومؤسس الامبراطورية المغربية ببلاد السودان الغربي .

ولقد كانت محاولة القتل هذه توحى بفشل السياسة العثمانية في استمالة الامارة السعدية الناشئة وتطوير حاكمها لقبول فكرة الخضوع لسلطانهم العثمانية والاعتراف بالحكم باسم السلطان العثماني. ولكن نجح العثمانيون في الخلاص من حاكم عنيد في مقاومته لحكمهم وكانت سياسة اللجوء إلى الاغتيال هي أقصر طريقة يلجأ اليه العثمانيون بعد ان فشلوا في اتباع اسلوب الغزو الحربي. وقد وضعت نهاية مؤلمة للمؤسس الحقيقي للدولة السعدية .

ولقد اضمر الاتراك العثمانيون شرا بالسلطان السعدى محمد الشيخ منذ ان رد كتابه إلى السلطان العثماني مخاطبا اياه بسلطان القوارب الحوانة (الحوانة تعنى قراصنة البحر) او رجال البحر، وقد يكون هذا الانزلاق اللفظي وأسلوب الشيخ السعدى البدوى الذى عاش جو الصحراء السوسية والذى كانت لاتزال تغلب عليه سمات البداوة وهى طابع فكرة السياسى، وقد يكون المبرر المقول لخطه الاغتيال تعود إلى مخاطبة سليمان القانونى بذلك اذ انهم فشلوا فى تحقيق اهدافهم فى احتوائه واطوائه تحت رايته العثمانية فكان الخلاص منه بالاغتيال ووضع راسه فى مخللة وارسالها إلى القسطنطينية حيث ظلت معلقة على ابواب المدينة بما يزيد عدة سنوات حتى طالب ابنه عبد الملك احمد المنصور السلطان مراد برفعها واعادة دفنها فاجبها إلى طلبهما وتم لهم، ما ارادوا وبهذه الصورة طويت صفحة أمير المؤمنين محمد الشيخ السعدى .

(ج) عبد الله بن محمد الشيخ بن محمد

القائم بامر الله السعدى (الغالب بالله)

٩٦٤ - ٩٨١ هـ - ١٥٥٧ - ١٥٧٤ م

بعد ان انتهت حياة محمد الشيخ السعدى هذه النهاية الاليمة على يد الاتراك العثمانيين الذين دبوا قتله فان الامور فى الدولة السعدية قد آلت من بعده إلى ابنه عبد الله الغالب الذى ظل على رأس السلطة السعدية طوال سبعة عشر عاما هجرية بعد ان كادت صورة مقتل والده قد أدت إلى اندلاع نزاع دام طويل وحاد بين افراد البيت السعدى بعد ان تمت فيه تصفيات جسدية كثيرة هبت خلالها رياح فيها تنذر بالخطر والانقسام وتلاشى الكيان السعدى فى ظل الاقتتال حيث راح ضحية توليه حكم عبد الله الغالب عمه احمد الاعرج الذى كان قد تجاوزت سنه تسعين عاما وقتل جميع ابنائه ذكورا، واثنا كبارا وصغارا وذلك قبل ان تؤول اليه السلطة من أهل مراكش حيث شك فى ذلك عامل السعدين على مراكش على بن ابى بكر ازنك فقام بهذه المذبحة البغيضة .

وقد ولد عبد الله الغالب بن محمد الشيخ المهدي بمدينة تارودانت عام ٩٣٣ هـ / ١٥٢٧ م وكانت سنه وقت توليه الحكم خلفا لوالده اثنى وثلاثين عاما وكان عاقلا حازما جامعا للملك محافظا على انتظام ملكه وقد صار معروفا عند الجميع عزم الامير السعدى الجديد على التخلص بالعرش ممن يثق بهم من رجال البلاط السعدى وابناء البيت السعدى فرار اخوته عبد الملك، عبد المؤمن، احمد المنصور) إلى الجزائر خوفا من بطشه وقسوته، بل ان الخوف بلغ بالناس إلى حد الاحجام عن دفن ضحايا مذبحة الحاكم آنذاك من السعدين وابنائهم، لكن بعض رجال الدين قام بدفن احمد الاعرج فى مقبرة جددهم الشيخ محمد القائم بأمر الله وشيخهم الجزولى صاحب الطريقة

الجزولية ورغم قسوة عبد الله الغالب بأمر الله إلا أنه كان على علم واسع بعلوم الدين آخذاً بقسط وافر منه وكان الغالب ولي عهد أبيه محمد الشيخ على فاس وقت مقتله مما دفع بازناك بقتل اقاربه قبل قدومه إلى مراكش خوفاً أن تقوم الرعية باخراجهم من السجن وتولية كبيرهم أحمد الأعرج خليفة على البلاد .

وقد بايعه أهل فاس في ذى الحجة عام ٩٦٤هـ، وبدأ الغالب عهده بالانتقام من الأتراك قتله أبيه محمد الشيخ فحاصروهم حصاراً شديداً عنيفاً وقتلهم في حصارهم عن آخرهم وكانت تلك لطمة للأتراك العثمانيين الذين كانوا يرغبون في أن يحققوا النجاح العثماني المنشود في بسط السيادة العثمانية على بلاد المغرب الأقصى في عهد ابن محمد الشيخ عبد الله الغالب بالله بعد أن فشلوا في تحقيق ذلك الهدف في عهد أبيه وافترض الأتراك تحقيقه لهم لاسيما أنهم كانوا يرغبون في الدعوة لسلطانهم على منابر المغرب وكتابة اسمه على سكتهم (العملة) كما كان يفعل بنو وطاس لكن فترة حكم عبد الله الغالب كانت على النقيض من ذلك تماماً .

لكن تلك السياسة المعاكسة لرغبة الأتراك كلفت عبد الله الغالب كثيراً من المتاعب في فترة حكمه ولم تكن له سياسة توسعية كوالده لكنه اكتفى بتأمين الأملاك التي تحت يديه وتحصين المدن والثغور الهامة بالعدد والعدة. ولقد أدرك عبد الله الغالب خطورة التبعية للإمبراطورية العثمانية التركية الإسلامية وكذلك رفض التبعية للبرتغال والأسبان شأن الإمارات المغربية السابقة الصغيرة ومن هنا كان عليه أن يتمسك بخيوط السياسة السعدية في المحافظة على استقلال البلاد وإيجاد سياسة تكفل له السير بالمسيرة السعدية دون الخضوع لأي من الإمبراطوريات الثلاث (العثمانية البرتغالية والإسبانية) المعاصرة لفترة حكمه لكن فترة حكمه قد شهدت العديد من الثورات والحركات الانفصالية وذلك عكس أقوال بعض المؤرخين الذين ذكروا أن أيام حكمه

لم تحدث فيها فتن ولا حروب أهلية فساد البلاد الأمن والأمان وعم البلاد العدل فصرفت همه باصلاح الأحوال في البلاد وقد يكون ذلك صحيحاً في أواخر فترة حكمه. لكن الصورة كانت عكس ذلك تماماً عند تولية الحكم أثر مذبحة عمه أحمد الأعرج إذ نجد أن الثورات قد تجددت وقيام الحركات الانفصالية عن الإمارة السعدية والتي منها الثورة التي قادها المولى عثمان في بلاد السوس بجنوب المغرب في عام ١٥٥٨م وكذلك ثورة المولى عمر في شرق البلاد المغربية في مدينة (ديدو) في عام ١٥٥٨) أيضاً وثورة المولى عبد المؤمن بن محمد الشيخ في نفس العام، ثم كانت المذبحة الثانية الكبرى التي ارتكبت في عهده بعد مذبحة الأعرج والتي قتل فيها ثلاثة من أخوته والذين رفضوا البيعة لولاية العهد بعد أن حاول عبد الله الغالب بأمر الله أخذ البيعة لابنه محمد المتوكل (المسلوخ) ليكون خلفاً له من بعده وأحدثت هذه البيعة انقساماً حاداً في الأسرة راح ضحيتها ثلاثة من أخوته وفر أربعة من أخوته بعد قتل الثلاثة السابقين خوفاً من احتمالات البطش والقتل وهم المولى عمر وعبد المؤمن وعبد المالك وأحمد المنصور إلى تلمسان والجزائر حيث لاذوا بالفرار إلى الترك العثمانيين. وكذلك من الذين قتلهم عبد الله الغالب بن أخيه محمد بن عبد القادر (الذي قتلته الأتراك في معركة تلمسان سابقاً) وهو ابن أخ عبد الله الغالب وحاكم مدينة مكناس والذي سار في الناس بالعدل والحكمة وصعد نجمه بين أهالي مكناس وعلا اسمه في أنحاء البلاد فخشي عبد الله الغالب من التفاف الناس حوله وانصرافهم عن ابنه محمد المتوكل وولى عهده حاكم فاس فقام بقتله هو أيضاً ليلحق بالكثير من أفراد الأسرة السعدية الذين قتلوا (هكذا ذكر المؤرخ المجهول (تاريخ الدولة السعدية) وأخذ عنه (عبد الكريم كريم - المغرب في عهد الدولة السعدية) .

وقد صرف عبد الله الغالب كل همه في اصلاح العمارات وبناء العديد منها

ونشطت الزراعة والصناعة وحظت مراكش في عهده عدة خطوات نحو التقدم والازدهار وبنى بها جامع المواسين والمارستان الجديد وقد شهد عصره أقصى تقدم شهدته من حيث العظمة المعمارية والازدهار الفكري لاسيما انه كان يقرب اليه العلماء ورجال الطرق الصوفية والعلماء وقد ازدهرت العاصمة في عهده بالعلماء الكبار، الى عهده أرجع المؤرخون الكثير من المنشآت السعدية في العاصمة السعدية وعددوا مآثره وضافوا اليه تشيد القبة على ضريح ابيه محمد الشيخ ومجدد ابنية القصبة الموحدية والقصر والمسجد ومنازله وقد شيد في مراكش الاحياء الجديدة السكنية والتي كانت بها حدائقها الخاصة وينابيعها المائية وفنادقها وابوابها وطبقتها النبيلة وصناعها وهو صاحب جامع الاشراف المواسين) نسبه إلى أسرة الاشراف التي كانت تحمل هذا الاسم في المدينة وكانت ملحقات المسجد تشتمل على نافورة عظيمة وحمام ومدرسة وهي مدرسة سعدية، اصيلة كانت من اضخم المدارس التي شيدت بالمغرب، كذلك المارستان الذي اقامه في حي الطلعة وقد طال حكمه سبعة عشر عاما ظهر فيها السلطان الغالب عبد الله بين معاصريه بانه رجل دولة من طراز فريد محنك سياسيا بالغ المهارة وحاذق في ادارة دفة الملك حيث ظهر كاقوى ابناء الاسرة السعدية في تأمين حكم البلاد لابنه محمد المتوكل كمرشح وحيد يحكمها من بعده او بالقسوة والشدة في مواجهة الانقسامات والثورات وضرب رؤوسها بكل قوة وعنف دون تردد، كما تجلت حكمه سياسته الداخلية إلى توطيد معالم الاستقرار السياسى فى الدولة السعدية والتحقق من التمسك بسياسة الجهاد الاسلامى ضد الاسبان والبرتغال حيث سار على سياسة ابيه قبل هذه الدول وعمل على مهادنتهم وعدم الدخول فى قتال معهم. لقد كان على عبد الله الغالب بالله أن يفهم حق الفهم ان الدول المسيحية اليبيرية (اسبانيا والبرتغال) وهى التى ارتكبت خطأ تاريخيا اذ أنها هاجمت المغرب دولة وشعبا وحاولت ان تثبت اقدامها على التراب المغربى مستغلة حالة انحلال الدولة الاسلامية المغربية العظمى وان

يعمل على اعادة المغرب إلى مكانته السابقة فى عهد المرابطين والموحدين او بنى مرين، كما ان الاوربى لم يكن مكروها لدى المغاربة لكونه أوربيا، ولكن بسبب أنه معتد ومحتل لارض اسلامية مغربية. بل كان اكثر تشددا فى معاداة الاتراك قتلة ابيه والبعث عن انصارهم رجال الثغر والجهاد البحرى الاسلامى، ولقد كانت سياسة معاداة الاتراك من الاخطاء السياسية التى وقع فيها بعض حكام السعديين بحجة منع الاتراك من ممارسة اسلوب السيطرة على المغرب الاقصى، ولو ان السعديين تحالفوا مع الاتراك أو تظاهروا لهم ببعض التبعية الاسمية لتغير وجه التاريخ الاسلامى فى منطقة غرب البحر المتوسط ولاستطاع الاتراك بالتعاون او بالتمركز الكامل فى المغرب الأقصى لقلب الميزان العسكرى فى تلك المنطقة ولمد الاتراك العثمانيون ايديهم بكل صدق وقوة لاختوانهم فى العقيدة الاندلسين (المورسكين) الذين قاموا بالثورة عدة مرات ضد الحكم المسيحى بالاندلس المحتله ولتمت عادة الوجه الاسلامى مرة أخرى ولتم للاتراك التقدم شرقا فى اتجاه وسط أوربا بعد ان توقف زحفهم الاسلامى غربا أمام ابواب فينا ودفعت علاقة عبد الله الغالب مع الاسبان وتنازله عن ثغر العرائش واصيلا لهم بالاتراك العثمانيين إلى ضرورة العمل على تأدية لاسيما وان صالح رايى قائد جيش الجزائر وحاكمه أحس بالحرج الشديد ازاء هذه العلاقات الموجهة ضد الاتراك العثمانيين والتعاون السعدى الاسبانى البرتغالى فاعد حملة عسكرية للسيطرة على المغرب الاقصى لكنه مات قبل تنفيذ هذه الحملة وآل حكم الجزائر من بعده إلى حسن بن خير الدين الذى قام عام ٩٦٥هـ بتجهيز حملة عسكرية تركية مكونة من قوات كثيفة وازاء هذه التحركات التركية فقد قابلتها تحركات سعدية مضادة حيث قاد عبد الله الغالب قواته والتقى الجمعان بالقرب من وادى اللبن الذى يتبع ولاية فاس فكانت الدائرة على جيوش الاتراك فرجعوا منهزمين عن المغرب الاقصى إلى ان بلغوا مدينة بادس وكانت فى ذلك الوقت تخضع للحكم التركى ولم يقم الاتراك بادنى تدخل فى شئون المغرب

مرة أخرى طوال حكم المغالب بل التفوا باستضافة أخوته. الذين نجوا من القتل وهم عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن .

ولقد كانت سياسة الغالب السلبية ازاء الجهاد الاسلامي وتحالفه مع الايبيرين من اسباب استحكام العداء بين الاتراك العثمانيين والسعديين وتسليمه الثغور المغربية للعدو الصليبي ومنها تسليمه مدينة البريجة عام ١٥٦٢هـ للاسبان بعد ان كان قد حررها المسلمون من النصارى ورحلوا عنها وكان موقف السلطان هو الاستسلام للاسبان وعدم الرد على حملتهم التى احتلوا فيها بادس عام ١٥١٤هـ وكان السلطان الغالب قد كاتب ملك اسبانيا بشأن اخلاء مدينة بادس خوفا من سقوطها بأيدي الاتراك وسكنها النصارى بعد ان تم اجلاء كل المسلمين عنها وكان اخلاؤهم فى شهر رمضان وذلك لصالح ملك الاسبان نظير مساعدته للسلطان الغالب ضد الوجود التركى .

وكانت الاوضاع قد تغيرت فى غرب البحر المتوسط بعد ان تحالفت كل الاساطيل الاوربية تحت امرة اساطيل البابوية فى روما لقتال الاتراك منفردين وقد تم لاوريا مجتمعة الانتصار على الاتراك فى معركة ليبانتو عام ١٥٧١م بعد ان أوقعت بالاسطول التركى هزيمة فاسية اشترك فيها الاسبان وجنوة والبندقية وفلوانس وغيرها من الدول الاوربية والامارات الايطالية اضافة إلى فرنسا والمانيا والقديس يوحنا العائد من الحروب الصليبية وكانوا على اهبة الاستعداد وقد انتهت بهزيمة العثمانيين الذين حولت هذه المعركة سياستهم من الهجوم إلى الدفاع عن النفس امام القوى المعادية لامبراطوريتهم لاسيما وان أبا محمد الغالب قد تحالف مع الاسبان والبرتغاليين والذى وقع فى أخطاء تاريخية قاتلة اذ تنازل لاسبانيا عن مدينة حجر بادس وخاب ظن المغاربة فى اسرة السعديين لانهم كانوا ياملون من سلطاتهم تحرير بقية الثغور المغربية بدلا من

التنازل عن موانئ وبلاد محرة وهكذا تخاذل الغالب بالله عن اسمى قضية رفع المغاربة شعارها وهى الجهاد من اجل التحرير ونصرة الاسلام وتحالف مع الاسبان وقد تنازل الغالب عن المرسى رغبة فى تامين الدولة السعدية ضد غارات العثمانية حيث ان الدولة السعدية لم يكن بها فى ذلك الوقت اسطول قوى يستطيع ان يقف فى وجهة الاسطول التركى العثمانى ويستطيع مجابهته وكانت وجهة نظر الغالب فى تنازله عن ميناء حجر بادس هو الجبلولة دون تردد الاساطيل التركية للموانئ المغربية وخاف السلطان الغالب ان تخرج سفن الاتراك إلى تلك البلاد المغربية فكتب إلى ملك اسبانيا واتفق معه على اخلاء هذه الموانئ وباع له البلاد وتخليتها من المسلمين وتنقطع صلة الاتراك بهذه الموانئ من ناحية وتركها المسامون وسكنها النصارى برأى السلطان الفاسد فكتب أهل بادس إلى سلطانهم الغالب لعدم علمهم بالاتفاق السرى والموقف الخرى الذى اتخذه بشأن هذه البلاد واضاف صاحب تاريخ الدولة السعدية المؤرخ المجهول ان السلطان الغالب لم يكتف بذلك بان خان قضية الاندلس وشعب المورسكين المطهدين من الاندلسين بعد ان وعدهم بمساعدتهم وتقديم كل عون لهم فقاموا بالثورة تنطلق فى غرناطة عام ١٥٦٨م ويتحرك الاندلسيون منتظرين مساعدة أبى محمد عبد الله الغالب لكنه كان قد تخابر سرا مع ملك الاسبان وأعلمه بهذه الثورة ونقض تعهده لهم وتخاذل عن مساعدتهم واتفق مع الاسبان على ذلك وهكذا غش اهل الاندلس وعرضهم للهلاك فى دينهم واولادهم وممتلكاتهم وكان السبب فى انتقام الاسبان النصارى فيهم وكانت هذه الفعلة الشنيعة ابشع اعمال الغالب بعد ان وعدهم بالوقوف معهم ونصرتهم وتقديم العون العسكرى والمادى والسلاح لهم فلما ظهرت الثورة الاسلامية بغرناطة تراخى عما وعدهم به من الاعانة والنجدة وكانت بينه وبين ملك الاسبان مراسلات سرية و اشار على الاسبان ان يخرجوا المسلمين من الاندلس وان يتم ترحيلهم إلى المغرب الاقصى وان تتسم سكانهم فى المدن الساحلية لكى يتم تعميرها وخاصة الاكثار

من الاندلسيين في مراكش وفاس للانتفاع بهم والاستعانة بخبرتهم في ادارة دولته وتقديم خدماتهم للشعب المغربي لاسيما في الجيش والاسطول والصناعات الحربية ولقد حاول الغالب بالله ان يغطي سياسته المتناقضة

مع مبادئ التحرر والجهاد التي قامت عليها الدولة السعدية فحاول احتلال مدينة البريجة (مازاكان) عام ٩٦٩هـ فارسل جيشا بقيادة ولده محمد المتوكل (المسلوخ) لحصار المدينة لكن الحصار أصيب بالفشل بعد ان كتب الغالب إلى ابنه ينهيه عن احتلالها بعد ان كان النصارى قد اجلوا عنها ورحلوا عنا .

ويبدو ان قصة تنازل الغالب عن حجر بادس وتراجعها عن احتلال ومحاصرة البريجة كذلك تراجع ابنه محمد عن مساعدة مسلمي حجر بادس واغاثتهم من الاسبان والتهاون في المعاملة مع المحتلين قد اغضب رجال الطرق الصوفية الذين جاءوا بالاسرة السعدية إلى عرش المغرب فقام الغالب بالتنكيل بهم وبخاصة متصرفي الشرافة الذين أحس هو بنفسه بسخطهم الشديد على سياسته . وكان ميناء بادس الذي تنازل عنه الغالب يقع في شمال المغرب على البحر المتوسط وهو قريب من مدينة فاس بل هو منقذ المدينة إلى الشمال، كذلك فان الغالب كما سبق القول كان موقفه مخزيا بالنسبة للاندلسيين وكانت المراسلات السرية سببا في فشل الثورة وطردهم من الأراضي الاندلسية .

بل انهم لم يكتف بذلك بل عمل على اسكات كل صوت وحركة تدعو للجهاد بعد ان تكل بالصوفية وكان عليه ان يقضى على مراكز الجهاد التي كانت تقاوم الاسبان وتعمل على طردهم من المغرب وقدم للعدو الاسباني اجل خدمة بان قام بهجوم على هذه الامارات التي كانت ترفع راية الجهاد الاسلامي ومنها ولاية تفشاون في الشمال واخرج عنها اصحابها بنى راشد وذلك في صفر عام ٩٦٩هـ وذلك لسبب

واحد فقط هو انهم كانوا يجاهدون الاسبان والبرتغاليين ويحاربون السفن المسيحية التي ترفع راية الصليب وقد خشي الخليفة الغالب من نزعه القتال وروح الجهاد التي كانت تسود هذه الامارة وربما تكون اعمالهم سببا في افساد ما تم الاتفاق عليه مع الاسبان وتحالفه معهم ضد الاتراك فاخلى هذه المدينة ووزع بنى راشد في بلاد المغرب المختلفة ويتحامل ربما لاسباب خاصة المؤرخ المجهول صاحب كتاب تاريخ الدولة السعدية فيصف عهده بانه عهد الخيانة والاستسلام فقد تنازل عن ميناء حجر بادس وسلم مدينة البريجة وتخاذل عن اهل الاندلس وعدم تقديم السلاح لهم وغشهم لكي يصلح ما بينه وبين الاسبان وما يمكن القول عن عبد الله الغالب انه استطاع ان يحافظ على الكيان الذي كان تحت سيطرته كما انه قاد البلاد نحو الاستقرار رغم اختلاف المؤرخين على فترة حكمه وما حدث فيها من مواقف لاتلائم وموقف حاكم مسلم ينتمي للأسرة السعدية الشريفة لكن الدكتور عبد الكريم كريمة المغربي الجنسية والحاصل على الدكتوراة من جامعة عين شمس عن عصر المولى احمد المنصور كتب في كتابه المغرب في عهد الدولة السعدية محاولا الدفاع عن موقف الغالب بالله وتحالفه مع الاسبان والبرتغاليين محاولا ازالة ما اقترفه الغالب في حق المغرب والاسلام والمسلمين ولكن دفاعه كان ضعيفا غير مقبول لاسيما موقف الغالب من رجال الدين والعلماء والطرق الصوفية الذي ادانته جميع المصادر المغربية واسلوب التعامل مع رجال الفكر الديني وقادة حركة الجهاد الاسلامي والحماس الشعبي واقطاب الحركة الدينية والفكرية والعالمية .

حيث قام الغالب بالله كما ذكر السلاوي بقتل وصلب ابي عبد الله محمد الاندلسي وكان ذلك بامر مباشر من السلطان بسبب التفاف الشعب حوله وتنديدة بموقف السلطان من النصارى والاندلسيين، كما ان السلطان الغالب امر بقتل الشيخ

ابى العباس احمد يوسف الراشدى شيخ الشرافة وكذلك بسط سيطرته على الزوايا الاسلامية التي كانت تنادى بمجاهدة الاسبان والبرتغاليين لاسيما زاوية الشيخ المغازى والى كثرة الناس حوليه وقام بتدميرها والقبض على الشيخ ابى محمد عبد الله بن حسين المغازى وشتت رجاله .

وهكذا طبعت صورة الغالب بالعنف والميل إلى سفك الدماء ضد معارضى امارته فى الداخل لاسيما من آل البيت السعدى أخوته واعمامه وكل اقاربه وكذلك اهل الحل والعقد وعليه القوم وأشياخ القبائل وايضا كانت نكينة باقطاب الطرق الصوفية والمرابطين ورجال الجهاد الاسلامى فى الزوايا فى حين كانت سياسته الخارجية قبل القوى النصرانية المهادنة والاستسلام والتخاذل وتقديم كل عون ومساندة لهم وكأنه بهذه السياسة قد تخلص عن الخط الاسلامى نهائيا ولم يعد عنده الا كبت كل صوت معادٍ للاسبان والبرتغاليين والتعرض للمسيحيين بل اكثر من ذلك سمح للنشاط التبشيري المسيحى فى بلاده ولذا نقول انه من الصعب ان نعثر فى تاريخ تلك الفترة على بلد مسيحى رحب ببعثة اسلامية لكن البعثات التبشيرية المسيحية فى المغرب كان لها شان فى عهد عبد الله الغالب فقد ارسل ملك اسبانيا نفسه بعثة تبشيرية مسيحية استقرت فى مراكش وكان لهذه المدينة اسقف كاثوليكي لسنوات طويلة وكانت ثمة بعثات مسيحية فى اكثر المدن المغربية مثل فاس ومراكش واسفى وازمور والجديدة وكانت هذه البعثات المسيحية تقوم بعملها بموافقة وعلم السلطان الذى تسمى باسم الغالب بالله . وكانت علاقته تتصف بالتححرر بالقوى الاوربية المسيحية إلى حد طبع مواقفه منها بصمات الاتهام والشبهة فى حين تتصف بالقسوة والشدة، داخليا وكذلك بهذه الصورة مع الاتراك العثمانيين وعلى النقيض نهائيا مع الاوربيين الذين اتخذهم اصدقاء له وحلفائه على خط مستقيم .

لمن بعد المصادر المعاصرة (ابراهيم شحاتة حسن فى كتابه موقعة وادى المخازن فى تاريخ المغرب) بذكر مطلعا على بعض الوثائق الاوربية ان هناك تقاربا قد حدث بين الاتراك العثمانيين والمغاربة السعدين لاسيما بعد انتصار الاتراك على الاسطول الاسبانى فى معركة جربة عام ١٥٦٠م وان فيلب الثاني ملك اسبانيا قد توقع هذا التحسن فى العلاقات ومن ثم ارسل إلى اليزابث ملكة بريطانيا سفيرها فى فرنسا اثر هذه المعركة قائلا ان الاتراك بعد انتصارهم الكبير على الاسطول الاسبانى سوف يعدون انفسهم للقيام بحملة عسكرية للاستيلاء على اسبانيا والقضاء على قوتها وسوف يزداد تحالفهم مع السعديين ويظهر اسطولهم بصورة علنية قوية على سواحل المغرب وبالتالي سيعرضون طرق الملاحة والتجارة للخطر بل ان اسبانيا نفسها لن تنجو من هجوم تركى اضافة إلى احتمال هجوم على مالطة وصقلية وجنوب ايطاليا .

وقد دفعت الروح الاسلامية المجاهدة ازاء انتصار الاتراك على الاسبان عام ١٥٦٠م بقيام السعدين بالهجوم على الاسبان بعد ان طرا تحسن فى العلاقات التركية العثمانية السعدية عام ١٥٦٢م وقيام تعاون وتحالف بين القوتين الاسلاميتين ضد البرتغال فى طنجة (مازكان والبريجة) وضد الاسبان فى قرطاجنة مما دفع المغاربة بان يحاصروا طنجة ومازكان حصارا شديدا بل انهم اتخذوا العدة للهجوم على اسبانيا . وهكذا كانت رسائل السفير الانجليزى إلى ملكته الانجليزية اليزابث فى ١١ مايو ١٥٦٢م قائلا انهم اظهروا براعة فى قتال البر وتشددوا فى موقفهم مع الاسبان وان هناك مساعدات تركية كبيرة قد وصلت اليهم وانهم ابدوا ارتياحا كبيرا بهذه المساعدات التركية وانهم اتخذوا الاستعداد للهجوم الكبير على ساحل غرناطة وبدوا حصار قرطاجنة فاذا تمكن المغاربة من الاستيلاء على المدينة وهو امر ممكن جدا واستطاعوا الحفاظ بها فان الاتراك سوف يتدفقون إلى هذه الاماكن لكى يلعبوا دورهم

ويقدموا الدعم والمساندة للسكان الاندلسيين القدامى الذين لا يزالون يعيشون في اسبانيا (المورسكين) بل انه على طول الساحل من جبل طارق حتى طرابلس توجد اعداد كبيرة من المسلمين على اهبة الاستعداد للقفز على الساحل الاندلسي ولكنهم في حاجة إلى سلاح وقيادة .

هذه صورة كانت في اوائل فترة حكم الغالب بالله وهكذا كان الجانب المسيحي يبدى تخوفا دائما من التحالف السعدي التركي والذي كان عام ١٥٦٣م بداية تباعد التقارب السعدي التركي لصالح القوى الاسبانية المدعمة من البرتغاليين . ولكن مهما يكن الامر فقد يكون هناك تحامل شديد على الغالب او ان المؤرخ المجهول اراد ان يصور الغالب نظرا لمواقفه السياسية تجاه الاسبان والبرتغاليين بصورة لم تكن مالوفة لاية شخصية سياسية سعدي وقد يكون من رأيه ان الغالب تخطى حدود التعامل كسلطان مسلم يقود بلدا اسلاميا وتنازله عن هذين الثغرين للاسبان .

لكن على الجانب المعاكس لآراء المؤرخ المجهول من سياسة السلطان السعدي ابو محمد الغالب نجد المصادر الاوربية تذكر ان اعوام ١٥٦٥ / ١٥٦٦م شهدت استعدادات مغربية تركية اندلسية وعن ارهاصات لثورة الاندلسيين في غرناطة حيث استعداد المورسكين للثورة بل ان هناك وفدا مغربيا من قبل ملك فاس قد وصل إلى اسبانيا تحت ستار جمع الخراج منهم كدليل على تبعيتهم وولائهم للسيادة السعدية المغربية وكان ذلك في عام ١٥٦٥م . مما دفع ملك اسبانيا ان يشكل نوعا من الفرق المتطوعة لكي نقيم كل فرقة في مدينة لمواجهة احتمالات الثورة بين المورسكين الذين استقبلوا مندوب السلطان السعدي أبا محمد عبد الله الغالب، بل ان المورسكين قد تلقوا فعلا مساعدات من المغاربة والأتراك وامدوهم بالموثوق والذخائر وان السفن كانت تصل اليهم حاملة هذه الاسلحة والمعدات وانه نظرا لهذه المساعدات فان عام ١٥٦٩م قد

شهد زيادة قوة المورسكين وان نسبتهم العددية قد صارت كل عشر مسلمين يقابلهم واحد مسيحي فقط في مدينة قادس وان هناك مساعدات ضخمة من الأتراك والمغاربة تصل اليهم .

ومن هنا فانه يمكن القول استنادا إلى المصادر الاوربية لاسيما البريطانية (الانجليزية او الفرنسية منها) تستطيع القول ان عبد الله الغالب قد ادى دوره في مساعدة السكان المورسكين الاندلسيين وانه كان يقدم لهم السلاح والعتاد وانه لم يكن دائما على خط مستقيم كما ذكر المؤرخ المجهول معاديا للأتراك العثمانيين بل انه ان كانت سياسته تعتربها بعض الفتور لكنها سرعان ما تعود إلى احسن ما يكون بل ان العلاقات المغربية التركية بين اعوام ١٥٦٠ - ١٥٧١م كانت علاقات حسنة وطيبة بل ممتازة شهدت نوعا من التعاون والترابط والاتفاق بشأن قضية بقايا الاندلسيين في اسبانيا وان الأتراك العثمانيين كان لهم دور رائد في تحريك هذه العلاقات ومحاولة ايجاد تعاون اسلامي مشترك بعد ان تعاون الاسبان مع البرتغاليين في احتلال بادس عام ١٥٦٤م .

وقد تحسنت العلاقات المغربية في هذه الفترة عام ١٥٦٠ - ١٥٧١م واصبحت المواقف تكاد تكون متطابقة مع الاخذ بالحذر والحيطه من الجانب السعدي تجاه النوايا التركية الرامية إلى السيطرة على المغرب الأقصى وان كانت الاعوام السابقة التي تولى فيها الغالب الحكم منذ عام ١٥٥٧ - حتى عام ١٥٦٠م قد شهدت تقاربا مغربيا اسبانيا وبرتغاليا .

لكن هناك نقطة تظهر لماذا تخاذل السعدي عام ١٥٦٢م عن السيطرة على مازاكان (البريجة) ونجد تحليلها ان معركة دامية قد وقعت امام ابواب المدينة عند مهاجمة المغاربة لها وان فيليب الثاني ملك الاسبان قد طلب من قواده في المدن الجنوبية الاندلسية ضرورة تقديم العون للملك البرتغالي سواء من الرجال والسلاح

والعتاد ومساعدة البرتغاليين ضد الحصار الذى يضربه حولها الشريف السعدى وقدم الاسبان ما طلب منهم من المؤن والعتاد والسلاح والرجال، بعد ان كان المجلس الملكى البرتغالى قد قرر اخلاء مازاكان لولا ان القوات المغربية انسحبت وقد يكون هذا الانسحاب بناء على تعليمات سعدية واتفاق بين الاسبان والسعدين وقد يكون السعدى فى فترة تقاربه مع الاتراك (١٥٦٠ - ١٥٧١م) قد لاحظ وعلم بنوايا الاتراك فاراد ان يجد توازنا فى السياسة الخارجية دون تغير موقفه العدائى للاستعمار الايبيرى وكذلك حفظ كيانه السياسى تجاه سلطنه الاتراك وصولا إلى خلق هدف يحقق له القدرة على الامساك بزمام الامور فى بلاده .

وقد كان عبد الله الغالب حريصا على علاقات التقارب تلك مع البرتغاليين والاسبان حرصا على المحافظة على خلافة ابيه فى مراكش والى حد التشكك من السعى السلمى العثمانى لدى الشريف السعدى فى مراكش والخوف من ضغط المرابطين المتصوفين على الشريف للاستجابة لطلب التقارب مع العثمانيين باسم الوحدة الاسلامية الجهادية لانقاذ بقية الثغور المغربية المحتلة لكن سياسة الحذر والمراوغة التى سار عليها الغالب بالله قبل العثمانيين والتى لم يقبل بها العثمانيون كانت وراء نشاطهم المعادى له والوقوف ضده وهناك بعض المصادر تذكر ان المغاربة لم يرتدوا عن حصار مدينة البريجة (مازاكان) بسبب اوامر من السلطان الغالب يرفع الحصار عنها ولكن بسبب نقص التموين والمواد الحربية اللازمة للاستمرار فى الحصار وكذلك فان المغاربة قد ارتدوا عن حصارهم بسبب الخسائر الفادحة فى الارواح والعتاد. كما ان الغالب السعدى وهو سليل الشرافة القرشية لم يكن ليرتمى فى احضان القوى الاوربية مخالفا مبادئ الاسلام والشريعة الاسلامية مهما تكن الضغوط التركية شديدة عليه لمحاولة احتوائية تحت سلطانها وهو الذى حقق فى نهاية مارس ١٥٥٨م انتصارا كبيرا

على قوات الاتراك فى موقعة وادى اللبن ووقف بهذا الانتصار التوسع العثمانى التركى فى شرق الامارة السعدية بعد ان تخطى الاسبان حدود مدينة تازة وقد كان النصر المغربى فى وادى اللبن يعود اساسا إلى مهارة المغاربة ولاسيما الاندلسيين منهم فى استخدام الاسلحة النارية الحديثة من البنادق والمدافع وكان جيش باشا الجزائر قد عاد إلى تلمسان بعد هزيمته فى موقعة وادى اللبن التى سحقت فيها قواته وعاد بسرعة إلى الجزائر خوفا من انتشار الثورة ضد الاتراك فى مدينة مستغانم والجزائر وكذلك خوفا من حملة اسبانية كان يجرى الاعداد لها لاستعادة بجاية من أيدي الاتراك العثمانيين، لكن مهما يكن من نتائج غزوه وادى اللبن وما ترتب عليها من نتائج فى المجال العسكرى فانها فتت فى عضد الدولة العثمانية بالرغم من آثارها السلبية .

ولقد كانت القوات التركية قادرة على احتلال فاس بعد ان كانت على مسيرة يومين منها لاسيما وان الاتراك قد احتضنوا شقيق عبد الله الغالب مولاى عبد المؤمن ابن محمد الشيخ ونصبوه حاكما على تلمسان نكاية فى الغالب وذلك منذ عام ١٥٥٩م بل انه تزوج من بنت باشا الجزائر التركى لاسيما ان عبد المؤمن كانت قد ساندته القبائل عربية وبربرية وكان متوقعا تدخل تركيا وباشا الجزائر لصالح عبد المؤمن ابن محمد الشيخ شقيق عبد الله الغالب ولكن الامور فى تركيا العثمانية كانت قد تغيرت ومات سليمان القانونى وتولى الخلافة بدلا منه السلطان مراد الثانى. الذى لجأ اليه عبد المالك بن محمد الشيخ واخوه احمد المنصور بعد اخيهما عبد المؤمن واتصلا بالسلطان العثمانى فى اسطنبول (القسطنطينية) وكان قد طلبا من السلطان العثمانى مساعدتهما فى التغلب على عبد الله الغالب لطرده من الحكم بعد تعاونه مع الاسبان والبرتغاليين وعدم دخوله فى تحالف اسلامى تركى مغربى ضد القوى الايبيرية، لكن السلطان التركى مراد الثانى لم يستجب لهما وفضل ارسال سفارة إلى مراكش

للاطلاع على الامور الداخلية وفعلا قدمت السفارة التركية وقام الامير السعدى عبد الله الغالب باستقبال السفارة التركية احسن استقبال وتلقاه بالتبجيل والاحترام بما يليق بسفارة سلطان المسلمين الاعظم ودفع لها اموالا وافرة وذخائر من الذهب والياقوت وكانت هذه الهدايا سببا فى انصراف السلطان العثمانى من مساعدة عبد المالك واخيه احمد المنصور فى ذلك الوقت. وقد تكون هذه السفارة وقد قدمت إلى المغرب فى فترة تحسن العلاقات المغربية التركية (١٥٦٠ - ١٥٧١ م).

وحول هذه السفارة والهدية يذكر المؤرخ المجهول ان الهدية وصلت إلى السلطان مراد الثالث مع رسوله المرسل إلى السعدين وعرض على السلطان ما اتفق عليه وهو ان الامير السعدى على استعداد لدفع المال سنويا إلى الخلافة التركية ورجع مبعوث السعدى إلى مراكش ولما علم عبد الله الغالب بما ذكر من شروط فانه قبلها ورضى بكل ما جاء فيها وقد يكون ذلك من الاسباب القوية التى ادت إلى تحسن العلاقات بين الجانبين واستعدادهما للعمل سويا من اجل طرد المحتلين ومعاونة الاندلسيين المورسكيين فى الاندلس ولقد كان من أثر هذه الاتفاقية ان عبد الله الغالب قد ضمن وقتيا عدم تدخل العثمانيين فى شئون بلاده والوقوف عند حد القبول بشروط السلطان مراد الثالث ومن هنا فقد وجد فرصة الاستعداد لمقاومة التدخل الخارجى والوقوف بالمرصاد للتحركات الاسبانية والثورات الداخلية والمطامع الاخوية من جعل اخيه عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن اللذين تضافروا جميعا من اجل اسقاط عبد الله الغالب لكن التحسن فى العلاقات المغربية التركية فى تلك الفترة سبقته تنازلات مغربية لقوى اوربية جديدة بدات تأخذ بنصيب لها فى التجارة العالمية لمحاولة ايجاد راس قدم فى الثغور المغربية تلك القوى هى فرنسا التى عقدت معاهدة مع عبد الله الغالب من اجل تامين تجارتها فتنازل لها عن ميناء القصر الصغير عام ١٥٥٩م كامتياز

للفرنسيين وقد يكون ذلك فى اطار التعاون المغربى الاوربى والتعاون الاقتصادى من اجل حصول المغرب على الاسلحة الحديثة وايجاد اسواق اوربية لتصرف منبجاته من السكر وملح البارود والمواد المغربية التى تلقى اقبالا شديدا عليها من الدول الاوربية .

وهكذا شهد عصر عبد الله الغالب وخاصة الفترة ما بين ١٥٦١ - ١٥٦٥م تدخلات كثيرة فى السياسة الخارجية وعمل دؤوب من الغالب لمواجهة التحديات الخارجية والداخلية والامساك بخيوط اللعبة السياسية يتوازن شديد وقيادة فائقة للمسيرة السعدية سعيا لانقاذ البلاد من حرب اهلية لاسيما وان خطر عبد المالك بن محمد الشيخ واخويه لازال ماثلا امام الغالب وكذلك الموقف الاسبانى والبرتغالى وثورة الاندلسيين المورسكيين فى اسبانيا ورغم ما تحامل به المؤلف المجهول على الغالب واتهامه له بالخيانة والتخاذل من وجهة نظره لكن الغالب كان يعمل على السير بتوازن بين القوى العالمية فى غرب حوض البحر المتوسط لاسيما بعد انتصار الاتراك على اسبانيا عام ١٥٦٠م وهى الفترة التى شهدت تقاربا مع الاتراك وتبادل السفراء والهدايا والقبول لطلبات الاتراك وتنسيق الجهود التركية المغربية الاسلامية والتوجه للعمل من اجل الموقف الجهادى الاسلامى وعدم تراجع السلطنة المغربية عن هذه السياسة .

بل ان عام ١٥٦٤م قد شهد انصراف العثمانيين عن سياستهم الجهادية فى غرب البحر المتوسط وتركوا بادس وغمارة تسقط فى ايدى الاسبان فى ابريل عام ١٥٦٥م وتكبدوا فى سبيل الاستيلاء عليها من الاتراك خسائر فادحة .

كما ان فترة حكم الغالب التى انتهت عام ١٥٧٤م قد شهدت قبل وفاته بثلاث سنوات تحطيم الاسطول التركى العثمانى فى معركة لبياننو عام ١٥٧١م مما اضاف عاملا آخر فى موقف النشاط البحرى الاسلامى فى غرب حوض البحر المتوسط لصالح الملاحة البحرية الاوربية وسيطرتها التامة على طرق الملاحة وتحكمها فى حركة

التجارة العالمية لكن الاتراك العثمانية لم يتركوا الميدان نهائيا اذ نجح انه فى عام ١٥٧٣م وقبل موت الغالب بعام واحد حققوا انتصارا اكبر على الاسبان فى معركة حلق الوادى فى ٣ سبتمبر عام ١٥٧٣م على يدى الوزير ستان باشا فى ٦ جمادى الاول عام ٩٨١هـ .

ولقد اضطربت الدولة السعدية فى مراكش بعد موت الغالب وبدأت عوامل التفكك والانحيار تأخذ بعدها لاسيما بعد ان ظهر خطر عبد المالك واخويه احمد المنصور وعبد المؤمن ومساندة الاتراك لها وظهور الاتراك بمظهر القوة لاسيما بعد انتصارهم فى معركة حلق الوادى ضد الاسبان وهو الانتصار الحاسم على الاسبان فى تونس والذى قضى على نفوذهم نهائيا. وكانت ردا على انتصار الاسبان فى معركة لبيانتو وبهذا الانتصار فقد ضموا تونس نهائيا إلى امبراطوريتهم العثمانية .

ومهما يكن من فترة حكم الغالب وما شهدتها من احداث وانتصارات وصراع بين القوى الاسلامية التركية وانتصارها على الاسبان مرتين فى جربة عام ١٥٦٠ وحلق الوادى ١٥٧٣م وهزيمتها فى لبيانتو عام ١٥٧١م الا انها فرضت سيادتها فى الجزائر وتونس وطرابلس وما تم من مهادنة بينها وبين عبد الله الغالب (١٥٦٠-١٥٧١م) وكذلك فانه مهما يكن تجنى المؤرخ المجهول على فترة حكم الغالب فان اليفراني دافع عن فترة الغالب وقال عنها من ماجاء على لسان المؤرخ المجهول انما هو من وضع اعدائهم للحط من تدرهم واخراجهم من نسبهم الشريف ووصف دولتهم باوصاف لاتتناسب مع نسبهم الشريف بتعاونهم ومهادتهم للقوى الاستعمارية. لكن ابن القاضى اضاف قائلا ان ابا محمد عبد الله الغالب اشتغل بتامين وتاسيس ما بيده من املاك سعدية وتحصينها بالعدة ولم تطمع نفسه إلى الزيادة على ما ملك ابوه محمد الشيخ من قبله .

وهكذا انتهت فترة حكم الغالب بكل احداثها الداخلية والخارجية عام ١٥٧١م لكى تؤول قيادة البلاد إلى ولى عهده محمد المتوكل (المسلوخ) وكانت وفاة الغالب فى ٢٩ رمضان ٩٨١هـ/ ٢٢ يناير ١٥٧٤م .

(د) الامير الرابع (محمد المتوكل بن عبد الله الغالب

ابن محمد الشيخ السعدى)

٩٨١ - ٩٨٤هـ - ١٥٧٤ - ١٥٧٦م

آلت اليه مقاليد الحكم بعد وفاة ابيه وهو الامير الرابع من امراء البيت السعدى القرشى الشريف النسب لكن المتوكل كانت امه أمه (عبدة) غير انه كان من أنبغ الامراء السعدين ثقافة وعلمًا وتدينا ومن اجل توليته ولاية العهد حدث الانشقاق الذى سبقته الاشارة اليه بين افراد البيت السعدى وما آلت اليه من قتل وطرده وعزل وسجن فقد تم التخلي عن سياسة ولاية العهد لأكبر الابناء الذكور من البيت السعدى وهى القاعدة التى كانت تسير عليها الدولة السعدية فى ذلك الوقت وكان يتبعها العثمانيون ايضا .

وكان المتوكل ابو عبد الله محمد بن الغالب واليا على فاس العاصمة الثانية فى البلاد ووليا للعهد قبل وفاة أبيه الغالب وقد اجتمع أهل الحل والعقد وعليه القوم ومشايخ الطرق الصوفية واعيان البلاد وشيوخ القبائل على مبايعته خلفا لوالده وارسلوا اليه فى فاس فى اوائل شوال عام ٩٨٢هـ لكى يعود إلى مراكش ليتولى خلفا لابيه ولكن اهل فاس كانوا بايعوه ايضا وتم امره وقد جمع المتوكل بين القوة العلمية والحجة الذكية وقوة الشكيمة والدهاء .

وتقول المصادر المعادية للأسرة السعدية ان الشريف الامير الجديد محمد المتوكل قد ذاع صيته منذ عهد ابيه انه يهتم بحياة اللهو والمجون وانه كان يسرف في هذا النوع والنمط من الحياة بين اروقة القصور في فاس وهو ولى للعهد. وانه لم يكن مقبولا عن عامة الشعب وبعض رجال الحل والعقد واشياخ القبائل .

وقد حكم عامين اثنين فقط هما (١٥٧٤ - ١٥٧٦ م) لم يطرا على فترة حكمه فيها ادنى تغير بل كانت انماطاً سياسية كسابقة عهدها دون ادخال ادنى تغير عليها. فقد سار المتوكل على سياسة ابيه في مهادة المسيحيين ومعاودة الاتراك العثمانيين وكان حكم هاتين السنتين لم يتم فيها ادنى تغير فى الداخل او الخارج وكانت سياسة المتوكل التى سار عليها هو ووالده وجده ضد الاتراك لم تصرف انظارهم عن المغرب الاقصى بقصد الاستيلاء عليه والانتقام من حكامه الضالعين مع المسيحيين اعداء الاسلام والاتراك والجزائريين من رجال الجهاد الاسلامى البحرى .

ولقد كانت مؤامرة اغتيال جدة محمد الشيخ المهدي والحملة التركية بقيادة حسن بن خير الدين لكى تؤدب الغالب ثم محاولة الاستيلاء على سياسة المتوكل الرعناء قد دفعت بالاتراك العثمانيين بتجديد التدخل من الشرق فى الشؤون المغربية تايدا للقوى السعدية المعارضة وهم اعمامه (عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن ابناء محمد الشيخ المهدي) والذين كانوا سينكرون سياسة التقارب والاتصال بالايبيين (الاسبان والبرتغاليين) على حساب الصداقة التركية الجهادية الاسلامية ، ومن هنا طالبوا الاتراك بتمكينهم من العرش السعدى مع طرد المتوكل من السلطة السعدية ومن هنا فقد قام اعمامه ينافسونه وعادت مراکش إلى ما كانت عليه الاحوال ايام بنى وطاس من الفرضى من جراء منافسات امراء البيت الحاكم السعدى والتى كان من جرائها عودة النشاط إلى اصحاب الرباطات المنصوفة والاتراك العثمانيين وعودتهم إلى التدخل

المباشر فى شئون المغرب الاقصى. اضافة إلى تدخل النصارى .

وقد ساعدت الظروف كلا من عبد المالك واحمد المنصور على تحقيق اهدافهما نظرا لما طرا على علاقات عبد المالك بالعثمانيين من ايام منفاة بين رحاب ضياقهم واقامتتهما بالجزائر. ثم الاتصال بالسلطان العثمانى فى القسطنطينية كما انه من الثابت ان عبد الملك واخوته فى سنوات منفاهم مع امهم بعيدين عن الغرب ومساعدتهم لدى العثمانيين قد وجد ترحيبا فى بلاط باشا بالجزائر وبلاط السلطان بالقسطنطينية وقد أدت هذه العلاقات إلى تزوج عبد المؤمن بن محمد الشيخ المستهدى ببيت حاكم الجزائر وتعيينه قائدا على تلمسان فيها بين اعوام ١٥٥٩ - ١٥٧١ م وتمثل سنوات مسعاة مشاركة فى الجهود الحربية فى تونس وانتصار جربة عام ١٥٦٠ م ومعركة وادى الحلق عام ١٥٧٣ م ثم اقامته مع امه واخوته احمد المنصور وعبد المالك وزوجته التركية وابنه اسماعيل معا فى العاصمة التركية نحو ثلاث بتونس والتى حصل بعدها على تفويض من السلطان العثمانى بغزو مراکش وفاس واعداد العدة للتوسع بالمغرب وكيف امتدت الخلافة العثمانية عبد المالك بالقوة التركية التى دخلت فاس مع عبد المالك وقدرتها المصادر بخمسة او اربعة آلاف والتى لم تكن لها ان تتحرك لولا القدرة العسكرية الفائقة التى تمتع بها عبد المالك واخويه (احمد، عبد المؤمن) وارسالهما البشرى إلى السلطان بفتح تونس عن طريق قارب سريع لاحد رجال الجهاد الاسلامى، اثره المباشر فى احتفاء السلطان بهما وبذل المال والسلاح لهما واصدر الاوامر السلطانية إلى حاكم الجزائر بارسال هذه القوات معهما إلى المغرب واستغل عبد المالك واحمد ظروف الانتصار لكى يشفعوا لدى السلطان العثمانى فى دفن راس والدهما محمد الشيخ السعدى التى كانت لاتزال معلقة بالقسطنطينية وقدم الاخوان السعديان فرمان من السلطان العثمانى إلى حاكم الجزائر ونهض عبد المالك واخوه احمد إلى المغرب

ومعهما جند الاتراك العثماني الذي سيكون العون الاساسي في طرد محمد المتوكل من عرش المغرب واستيلاء عبد المالك على الحكم وكتب المولى عبد المالك إلى انصاره بالمغرب يعرفهم بقدمه فاخذوا الاستعدادات اللازمة لمؤازرته ونصره ساعة وصول القوات لذا فما ان دخل عبد المالك بالجيش التركي حتى انضمت اليه جموع القبائل والقواد المغاربة كما انضم اليه رئيس جند الاندلس ورجاله وذلك لان هذه القوات الاندلسية كانت تسخط على المتوكل وابيه عبد الله الغالب لسياسة المهادنة مع الايبيريين المسيحيين الذين طروهم من ديارهم وبلادهم بالاندلس ولانهم كانوا يكرهون عبد الله الغالب وابنه المتوكل لخيانته لهم في العودة إلى ديارهم .

لذا فان محمد المتوكل بن الغالب (المسلوخ) لما علم بانحياز جند الاندلس إلى قوات عمه عبد المالك ترك الميدان وفر من المعركة امام الجيش التركي المغربي بقيادة عميه عبد المالك واحمد المنصور. وكان ذلك من اسباب ضياع ملكه إلى الابد ولم يستطع مواجهة جيش عبد الملك حينما التقت القوات بالقرب من فاس وهرب إلى مراكش واستولى عبد المالك على فاس في ذى الحجة عام ٩٨٣هـ بعد هزيمة المتوكل بخندق الريحان بسلا وتقدم المولى احمد المنصور إلى مراكش لاختد البيعة باسم اخيه عبد المالك المعتصم وذلك بعد ان بويغ الاخير بالخلافة من قبل اهل فاس وبذلك خلص الحكم لعبد المالك بن محمد الشيخ ولقب بالمعتصم ثم لحق المعتصم بمراكش ودخلها في ١٩ ربيع ثاني عام ٩٨٤هـ / ١٥٧٦م .

وبينجاح دخول عبد المالك إلى العاصمة مراكش وفوزه بعرش الامارة السعدية تاكد انتصار فكرة الجهاد الاسلامي ضد القوى الايبيرية ونجاح خط التعاون التركي المغربي وطوع البلاد للشريف الجديد ضد الامير المخلوع محمد المتوكل بل ضد خطه السياسي ومعالم حكم ابيه من قبل المعادية للاتراك وزاد من التايد المغربي الجارف التي

رضى للمولى الجديد عبد المالك اظهار المواقف المغربية المعادية للاسبان والبرتغاليين. وتخوف هؤلاء من الترابط المغربي التركي العثماني في عهد عبد المالك الذي لم يطل به العمر في الحكم اكثر عامين فقط .

لكن الامير المخلوع محمد المتوكل استمر في مقاومته وطلبه العرش لذا فقد استطاع الدخول إلى مراكش والاستيلاء عليها في مارس ١٥٧٧م وان كانت هذه الهجمة على العاصمة لم تسمح له بالسيطرة عليها ذلك انه لم يستطع الا دخول حي الملاح الذي اصابه هجومه بالتخريب اما القصبية مركز المدينة فقد كان بها وقت هجومه على العاصمة ستة آلاف مقاتل بقيادة القائد ابن جارمان وذلك لحماية اخت السلطان عبد المالك الاميرة مريم بنت محمد الشيخ والتي كانت مقيمة بها آنذاك .

لكن محمد المتوكل بن الغالب تمكن من الذهاب شمالا حيث القواعد الاسبانية والبرتغالية في سبتة وطنجة ومليلة وحيث مقره الاخير في اصيلة لكي يواصل فيها المقاومة والتي كانت في ذلك الوقت تحت حكم صهره القائد عبد الكريم بن توده والذي سمح لحاكم طنجة البرتغالي بدخول المدينة (اصيلة) نظرا لاستنجد المتوكل بالبرتغاليين ولجؤه اليهم في سبتة وطنجة حيث وجه من طنجة خطابا إلى علماء ورجال الدين المغاربة يشرح لهم فيه اسباب لجؤه إلى الاسبان معللا ذلك باحقية في عرش البلاد لكن العلماء ردوا عليه بخطاب مطول استنكروا فيه تصرفه هذا وتخليه عن مدينة اصيلة للبرتغاليين. هذا وسوف نرى ان عدم استكانة محمد المتوكل ولجؤه إلى البرتغاليين طلبا للعرش سوف تؤدي إلى عواقب وخيمة للعرش البرتغالي وسوف تكونخطواته مجدا وشرقا للعرش السعدي الشريف تحت حكم عبد المالك محمد الشيخ المهدي .

وكان على محمد المتوكل ان يكتفى بهزيمته النكراء فى موقعة خندق الريحان والتى سبقت الاشارة اليها وكانت سببا فى قراره من العاصمه والتى دارت رحاها فى شهر يوليو ١٥٧٦م على مقربة من وادى الشراط بين سلا وفضالة حيث كان عبد المالك قد عبر نهر ملوية سابقا وانضم اليه اثنا عشر قائدا مغربيا بقواتهم ضد المتوكل لكن قوات المتوكل كانت تزيد عن اربع وستين الف فارس (٦٤ الف) ونحو خمسين الف (٥٠ الف) من المشاة من بينهم ثلاثة وعشرون الف حاملو بنادق نارية (٢٣ الف) فرسا ومشاة مع مائة وثلاثة وخمسين مدفعا (١٥٣ مدفعا) فى حين ان قوات عبد المالك التى احرزت هذا الانتصار كانت قوات محدودة العدد والعدة لكنها كانت حسنة التدريب وتتكون من اثنى عشر الف (١٢ الف) من حاملى البنادق النارية الراجلين، ٢٨ الف فارس من بينهم ثلاثة آلاف تركى ويجرون معهم ٤٦ مدفعا ولم يقم عبد المالك بقيادة هذه القوات المذكورة بنفسه رغم خطورة المعركة انما كان على رأس هذه القوات اخوه احمد المنصور واثان من ابناء عمومته هما مولاي عمر ومولاي الناصر القائد بن عبد الكريم والنص، وانتظر عبد المالك بفاس بعد ان كان قد دخلها حتى بلغته انباء الانتصار والهزيمة الفادحة لقوات محمد المتوكل التى راح ضحيتها خمسة عشر الف قتيل فى مقدمتهم كبار قادته ورجال دولته فضلا عن فقد جميع مدافعه ومعداته الثقيلة .

وكان حسن التنظيم والاعداد والتدريب والتخطيط واساليب التنظيم العسكرى العثمانى وراء هذه الانتصارات اذ بفضلها استطاع عبد المالك ان ينتصر ولم يفقد فى هذه المعركة سوى القليل من الرجال .

وكان قد تاكد فشل محمد المتوكل بن الغالب فى استعادة مراكش من ايدى عمه عبد المالك ومن كان تصميم الاخير على ضرورة القضاء على المتوكل ومنعه من

استقراره فى اقليم السوس والاجزاء القريبة من مراكش وقطع كل صلة بينه وبين القبائل التى كانت تمد له يد العون فى اقليم السوس حيث توجه محمد المتوكل الى تلك الارحاء ومن ثم تبعه احمد المنصور وكانت بينهما حروب كثيرة ومواقع تصادية واستطاع المنصور الانتصار فيها على ابن اخيه المتوكل وهزم كعاداته فى المعارك التى خاضها ففر إلى جبل درن ثم دخل طنجة طالبا النجدة من البرتغاليين والاسبان لكن عبد المالك اصدر اوامره بتضييق المنافذ عليه ومحاولة القضاء عليه نهائيا. وبعد ذلك فما كان من المتوكل الا ان طلب عون ملك البرتغال دون سياستيان الاول الذى زين له السيطرة على بعض الثغور واعادته إلى عرشه وهنا تبين ان الاتراك كما ساعدوا عبد المالك بن محمد الشيخ ومكنوه من استعادة عرش ابيه، فاننا نجد ان بعض القوات التركية تساعد محمد المتوكل وتعمل على اعادته إلى عرش مراكش ومن ذلك فاننا نجد بعض القوات التركية تقبل الانضمام اليه لاسيما بعض القوات الانكشارية التى وصلت إلى اقليم السوس متضامنة ومساعدة له والذين اتخذوا الاعوان والمستشارين واسدوا له النصيح والمخالصة وتفانوا فى خدمته والاستماتة دونه وكانوا من عوامل قوته فى بلاد السوس واشتركوا فى حروبه الجنوبية التى خاضتها ضد قوات احمد المنصور وكذلك فان موقف القوات الاندلسية قد تغير بعد دخول عبد المالك إلى مراكش ومن ذلك نجد سعيد الدغالى قائد هذه القوات والغز والذين كانا على صلات قوية بعبد المالك والاتراك ينقلبان على عبد المالك ويحاولان القيام بالثورة ضده والعمل تغير تاييدهم له وتأييد محمد المتوكل لاسيما وان عبد المالك بعد ان انتصر فى مراكش وتكشفت له ثرواتها العظيمة فانه اكتفى بارسال اخيه احمد المنصور فى قوة من ثلاث آلاف جندى وفارس لتعقب ابن اخيه محمد المتوكل فى الشمال ايضا بعد تعقبه سابقا فى الجنوب فى بلاد السوس ولكن هذه المرة فى جبال الاطلس الكبير مما دفع المتوكل إلى دخول طنجة والاحتماء بالبرتغاليين قبل الاتصال بملكهم دون سياستيان .

وهكذا فان صفحة المتوكل بن الغالب لم تنته بسيطرة عبد المالك على مقاليد الامور في مراكش ومطاردة محمد المنصور له في بلاد السوس جنوبا والاطلسي شمالا، ذلك لان الاحداث لم تكن لتستقر لعبد المالك فقد كان المتوكل لازال يبحث عن مساعدة له ومعين يستظل تحت لوائه في اعادته إلى عرش البلاد مهما تكن هذه المظلة ومهما يكن ما يقدمه من تنازلات من ارض الاسلام والمسلمين في مقابل شهوة شخصية واهداف ومطامع دنيوية لاتخرج عن حب الزعامة والقيادة الفاشلة بغض النظر عما يعود على العقيدة والتراث والشعب المغربي ومن هنا فسوف تكون جولة قادمة على ارض المغرب يروح ضحيتها ثلاثة ملوك من بينهم محمد المتوكل او محمد المسلوخ .

الفصل الثاني

امير المؤمنين عبد المالك بن محمد الشيخ بن القائم بامر الله السعدى
قائد اعظم انتصار فى تاريخ المغرب - معركة النصر الكبير

٩٨٤ - ٩٨٦ هـ / ١٥٧٦ - ١٥٧٨ م

هو الامير السعدى الخامس فى سلسلة سلاطين السعدين وقائد اعظم انتصار فى تاريخ المغرب من الفتح الاسلامى حتى العصر الحديث. ولد عام ٩٥١ هـ / ١٥٤١ م وكان عمره وقت وفاة ابيه ستة عشر عاما ١٥٥٧ م بينما كان اخوه عبد الله الغالب الذى آلت اليه مقاليد الامور فى سن الاربعين وقد تغلب عبد المالك قبل أن يلقب بالمعتصم بلقب الغازى فى سبيل الله وكان له اخ شقيق هو عبد المؤمن. وكان عمره خمسة وثلاثين عاما عندما استطاع ان يستولى على مقاليد الامور فى المغرب وعلى الرغم من أن فترة حكمه كانت قصيرة قضى معظمها فى مطاردة ابن اخيه محمد المتوكل الا أن أنها شهدت أهم أحداث فى تاريخ المغرب وكانت نهايته وهو يقود القوات المغربية لتسجل امجد واعظم بطولات التاريخ الاسلامى على ارض المغرب وكما سبق القول عن عبد الملك لم يكذب يستقر فى مراكش حتى أخذ فى مطاردة المتوكل الذى فشل فى استرداد عرشه فما كان عليه الا ان يتصل بالاسبان والبرتغاليين حلفاءه القدامى فرفض الاسبان مساعدته لانشغالهم فى حروبهم فى الاراضى المنخفضة (هولندا) وكذلك كشفهم الجغرافية فى العالم الجديد (الامريكيتين) فأتجه إلى البرتغال وقد أرسل المتوكل كما سبق القول رسالة إلى العلماء يبرر لهم ارتماؤه فى احضان القوى الاوربية معللا لهم ان تحالفه مع البرتغاليين انما من اجل استرداده حقه فى العرش السعدى الا ان العلماء استكبروا عليه ذلك ومن ثم كان الاتفاق مع سايستيان ملك البرتغال على أن يترك للبرتغاليين جميع الموانى الشمالية المطلة على البحر المتوسط

لكي تكون تحت سيادتهم وحكمهم في مقابل معاونته في استعادة عرش المغرب .

وعمل عبد المالك بعد استقرار الامور له في البلاد باعادة القوة التركية التي شاركته في فتح فاس ومراكش إلى الجزائر بعد مبايعة البلاد له وقبل ان يطارد ابن اخيه واعطاهم الهدايا وبذل لهم الاموال وزودهم بكل مايحتاجونه اليه وركب بنفسه لوداعهم في نهر سبو ولكن هذا الموقف لم يرض القائد التركي رمضان باشا الذي ارسل قواته للتدخل في شرق المغرب فما كان من عبد المالك الا ان طلب تدخل السلطان العثماني مراد الثالث الذي تدخل لصالح عبد الملك وقام بعزل رمضان باشا عن ولاية الجزائر. وكان عبد المؤمن بن محمد الشيخ مقيما بالعاصمة التركية قد عرض الامر على السلطان العثماني الذي قرر عزل الحاكم التركي في الحال وهم الذين ساندوا عبد المالك ضد ابن اخيه وهم الذين كانوا يسعون إلى التحكم في المغرب الاقصى بسياسة المراحل وان المرحلة الاولى قد بدأت في عهد الغالب فكان عليهم ان تكتمل الحلقات في عهد عبد المالك .

ولقد كان للدولة العثمانية خطتها في ذلك فهي التي مارست وجودها في غرب البحر المتوسط وخسرت معركة لبيانتو وامتدت عبد المالك بالقوات التي لا تقل عن خمسة آلاف مقاتل وعشرين مدفعا وعشر سفن تغامر بها في مساعدة عبد المالك فقبل عودة هذه القوات فورا من اجل طلب الدعم المادي أو العطاء المادي الذي اطلق عليه الاوربيون الهدية أو البقشيش وذلك نكاية منهم لتصوير الدور الاسلامي التركي البطولي بانه كان من اجل الاموال والهدايا والتحف وماشاكل ذلك متناسين الدور الاسلامي الجهادي الذي كان يلعبه الاتراك على الساحة العالمية في ذلك الوقت باعتبارهم حماة الخلافة الاسلامية وسدنتها فكيف لا يكون شعار الجهاد هو شعارهم والفتح الاسلامي هو غايتهم وليس الكسب المادي الذي صورته رجال السفارات والقناصل الاسبان

والبرتغاليين والانجليز المقيمين في المغرب في ذلك الوقت ان حق الاخوة الاسلامية هو الدافع الاول في التحرك التركي وربما ياتي بعده محاولة مد النفوذ التركي إلى المغرب الاقصى وان تقبل بعودة قواتها بهذه السرعة الا اذا كان ذلك متفقا عليه بين القيادة التركية وعبد المالك او يكون عبد المالك قد احس ان دورهم قد انتهى بدخول فاس ومن ثم فانه لا يقبل بالوصاية والسيطرة التركية فما كان عليه الامر برحيل القوات إلى الجزائر وربما تكون طلبات قادة القوات التركية ولاسيما رجال الاسطول منهم قد دفعت عبد المالك إلى رفع شكواه إلى الباب العالي وربما يكون عبد المالك قد استاء من موقف الاتراك وتأيدهم لابن اخيه محمد المتوكل وهزيمة اخيه احمد المنصور امام قوات المتوكل في درن واضطرار القوات إلى العودة إلى مراكش وقيام عبد المالك بمنع القوات التركية من العبث بمدينة مراكش وفاس وعدم اطلاق ايديهم خوفا من السلب والنهب وحفاظا على املاك الاهالي كسبا لتأييدهم له ودعما لموقفه من طلب العرش لاسيما وان المتوكل كان لا يزال حيا ويقاقل من اجل العودة ولقد احسن عبد المالك صنعا في ذلك اذ كسب تأييد الشعب ونادى به سلطانا على البلاد .

ولقد كان عامة الشعب في المغرب يحسون باحساس الدين الاسلامي الذي يربطهم بالاتراك ومن هنا كانت لهم محبة خاصة في قلوبهم، كما ان عبد المالك والذي عاش واخوته وامه في رحابهم في الجزائر وتركيا والذي كان يرى في الوجود التركي عوناً له ودعماً لنفوذه لاسيما وانهم امدوه بالعون من اجل استعادة الحصول على عرش ابيه ودفعوا بقواتهم فانه كان لا بد ان يظهر للجانب التركي الولاء والاخلاص للباب العالي ولا بد ان تكون علاقاته العسكرية والمالية بل وان تكون التعاون والتحالف ما يحقق الوجود التركي والعثماني دوره في عهد عبد المالك وبما يسعى اليه الاتراك من تحقيق ضم المغرب اليهم مرحليا على خطوات ولقد كان ذلك ما قام به

عبد المالك لانه ليس من المعقول ان يقوم بطرد هذه القوات فورا دون اتفاق مسبق وتقديم المبررات لدى السلطان العثماني وارسال الهدية المطلوبة والتي قدمت سفينة تركية إلى المياه المغربية لتقوم بنقل الهدية إلى العاصمة القسطنطينية كما أنه قد يكون قد عمل عبد المالك على كسب ود الاتراك العثمانيين اثناء وجود قواتهم بان يردد الدعاء للسلطان العثماني مراد الثالث على منابر المساجد في فاس وايضا في مراكش من باب الاعتراف بالعون والجميل وان ذلك كان لفترة قصيرة اثناء وجود القوات التركية في فاس فقط لان الوجود العسكري كان يكسب الاتراك نفودا سياسيا في ذلك الوقت ومن هنا كان لابد من الدعاء للخليفة التركي على منابر المساجد قبل وقوع النفور والاستياء من تصرفاتهم .

ولم يكن استيلاء عبد المالك على السلطة بدعم الاتراك يمر بسهولة من جانب العدو الايبيري من الاسبان والبرتغال اذ نجد عبد المالك يرسل السفن التركية إلى موانئ تطوان والعراش وسلا ويقوم بنفسه بتشرد القلاع الحربية في مراكش وسلا والعراش تحسبا لادنى تدخل من قبل القوات الاسبانية او البرتغالية وقام بتوزيع القوات التركية المتبقية على هذه الحصون وكان نصيب قلعة مراكش ٥٠٠ (خمسمائة جندي تركي) وظهرت مظاهرة بحرية تركية كبيرة تعلن فرحتها بانتصار عبد الملك على قوات محمد المتوكل والتي منه خمسون سفينة تمركزت في شمال انطوان وثلاث وعشرون سفينة في ميناء سلا والعراش منها ثمان سفن حربية وفدت ايضا من الجزائر وكذلك ست سفن اخرى مغربية تم الاستيلاء عليها من قوات محمد المتوكل وثلاث سفن تركية ملك محمد عبد المالك بن مراد الرئيس وست فرقاطات تركية اخرى. ومن ثم فقد تكون اسطول تركي مغربي مكون من ثمان وثمانين سفينة (٨٨ سفينة) وذكرت المصادر الغربية الاسبانية بان هذه القوات البحرية ربما تبحر إلى الاندلس وان الاوامر قد

صدرت لهذه السفن بالتحرك قبل السواحل الاندلسية لاسترداد هذه الديار وحماية اهلها المضطهدين من قبل محاكم التفتيش والقتل الجماعي للمسلمين وان هناك قائدا تركيا قد وصل من القسطنطينية إلى الجزائر لقيادة هذه القوات الاسلامية المشتركة وللقيام بعمل اسلامي يخدم قضايا مسلمي المورسكين وان هناك عشرة آلاف جندي تركي. وتوقعت المصادر الغربية الاوربية بعد سيطرة عبد المالك ان يزداد الدور التركي في المحيط الاطلسي وسواحل المغرب الشمالية والجنوبية وان هناك اكثر من ثمانين سفينة حربية معدة ومجهزة للقيام باية مهمة تطلب منها ولقد كان وجود هذه القوات بهذه الكثرة العددية والكثافة العسكرية دافعا للطرف الاوربي الايبيري ان يعد للامر عدته ويعيد حساباته على ضوء التحركات الجارية لاسيما وان محمد المتوكل كان لا يزال يدفعهم دفعا للتدخل لصالحه وانه لا زال خصما عنيدا لم يستسلم لعمه عبد المالك رغم هزائمه المتكررة وخسائره الفادحة وانصراف القبائل من حوله وكانت الدول الاوربية تدعم المتوكل لاسيما البرتغال التي افزعته القوة التركية الحربية والبحرية وان هذا الوجود التركي يشكل تهديدا مباشرا على وجوده في الثغور المغربية وكذلك تهديدا على الوجود الاسباني داخل بلاده والثغور المحتلة فعلا في الاراضي المغربية ولاسيما ان عبد المالك وتحالفه الشديد مع الاتراك قد دفع بالعلاقات مع القوى الايبيرية إلى حالة من العداء وعدم الاستقرار والتوتر لاسيما ان السفن التركية لازالت رابطة في الموانئ المغربية واخبار نقل الاسرى الاوربيين إلى القسطنطينية وارسال الهدايا إلى السلطان والتحول الحاد في السياسة المغربية قبل الاتراك وانتهاج سياسة مضادة للبرتغاليين والاسبان على عكس سلفه الغالب وابنه المتوكل اللذين كانا صديقين مخلصين لهما. لاسيما وانه ظهر للعيان خير الاستعدادات التركية في الجزائر لنجدة واغاثة الثوار المورسكين في مدنهم الاندلسية، وقد كان هذا لابد أن يحرك المشاعر الاوربية ضد الوجود التركي وضد القيادة المغربية الجديدة المتمثلة في شخصية عبد المالك بن محمد

الشيخ وساعده الايمن اخيه احمد المنصور اللذين تحكما في مصير المغرب في تلك الفترة الدقيقة من تاريخ الصراع في غرب البحر المتوسط ومحاولة ايجاد نوع من التوازن السياسى بين القوى المتصارعة .

لكن الاحداث كانت تتلاحق من حول عبد المالك الذى اراد ان يمسك بزمام الموقف تقاديا للدخول في صراعات كبرى عالمية لاسيما وان الموقف الداخلى لم يستقر بعد ولم يمض على تمكنه من السلطة الا فترة زمنية قصيرة لم يتمكن خلالها من اعادة ترتيب البيت المغربى استعدادا للانطلاق للخارج لدعم موقف المغرب قبل الصراعات العالمية التى تدور من حوله .

لقد كانت خصومة محمد المتوكل عقبة كبيرة تقف في طريق عبد المالك لتحديد رؤية سياسية ثابتة لاسيما انه كان يشكل اكبر تهديد لا من سلامة البلاد لاسيما ان عبد المالك كان يعاني ضائقة مالية من جراء الوفاء بالهدايا للاتراك وقد خطط عبد المالك لتنفيذ خطة الاستيلاء على عرش المغرب تخطيطا سليما فانه اذ قد ضمن القوات التركية لمساندته في الغزو فانه اراد يأمن جانب الاسبان لعدم وقوع رد فعل عدائى من جانبهم ضد مشروعه الخاص بغزو المغرب بمساندة القوات العثمانية وكذلك دفع القبائل المغربية للثورة ضد المتوكل وقد افادت الأنباء الواردة إلى تركيا عن انتشار الثورات ضد محمد المتوكل ومطالبة الثوار الثائرين بتولية عبد المالك بن محمد الشيخ اماما لفاس ومراكش ومن هنا فان قوات عبد المالك ورمضان باشا حاكم الجزائر لم تدخل فاس الا في مارس ١٥٧٦م. وفي المقابل تحرك البرتغاليون والاسبان لتأمين اهدافهم والثغور التى يسيطرون عليها ومحاولة تطويع القيادة الجديدة في فاس ومراكش فكان نزول ملك البرتغال إلى سبتة وطنجة لاعداد حملة للتوسع في الاراضى المغربية وفتح المزيد من الثغور المغربية وضمها إلى بلاده وكان تحرك الملك البرتغالى هو

الخوف من التحرك التركى ذلك لان الاسبان والبرتغاليين قد احسوا بان قدوم الاتراك إلى المغرب الاقصى ليس من اجل مساعدة عبد المالك فحسب والحصول على امانة اييه ولكن من اجل الحصول لانفسهم على ملكية بعض الثغور المغربية وربما الدخول في قتال ضد قوات البرتغال والاسبان لتحرير طنجة في مقابل ان يكون ميناء العرائش للقوات البحرية التركية وفي سبيل ذلك تحرك ملك البرتغال «دون سباستيان» طالبا من فيليب الثانى ملك اسبانيا مساعدته لمنع الاتراك من الحصول على ميناء العرائش. ولقد صدق حدس الاوربيين اذ تم عزل رمضان باشا والى الجزائر الذى كان يصارع السلطان السعدى عبد المالك وتم تعيين باشا جديد للجزائر هو حسن اغا «البندقى» رفيق عبد المالك وصديقه ومن ثم فقد سارت العلاقات بين الباشا الجديد وعبد المالك على احسن ما يكون وتمت مراسلات تتلخص في ضرورة التنسيق العسكرى والسياسى بين المغرب والعثمانيين من اجل دعم الوجود التركى بالمغرب وتوحيد السياسة الدفاعية قبل القوى الاوربية ولقد كان الشروع التركى ينص على استقبال عبد المالك للقوات البحرية التركية في مينائى سلا والعرائش بحيث يتمكن بمساعدة المغاربة من طرد البرتغاليين من طنجة وسبتة فضلا عن ان هزائم الاسبان سوف تقوى مركز عبد المالك وتدعم مشروع الجهاد الاسلامى .

وقد استجاب عبد المالك لطلب الاتراك العثمانيين ارتباطا بما تعهد به لهم ومساندته في العودة إلى عرش المغرب وانطلاقا من دور الحركة السعدية الشريفة في مجاهدة المحتلين ومساندة رجال البحر المسلمين المجاهدين دعما لشعار الجهاد والرافض من موقف محمد المتوكل بن الغالب المتهم من الشعب المغربى بالارتقاء في احضان سلطان الاحتلال البرتغالى والتنازل لهم عن اراضى الاسلام والمسلمين والاستعانة بهم في قتال عمه عبد المالك لكن من الناحية الاخرى فقد كان عبد المالك يريد ان يتحرر

من القيود التركية التي ربما تحدد من قدرته على اتخاذ القرار ومحاولة التقارب مع البرتغاليين والاسبان ولكن ليس بالصورة التي كان عليها أخوه الغالب وابنه محمد المتوكل حتى لا ينال عداوة الشعب المغربي الذي كان يرى في كل تقارب مع الاستعمارين خيانة للمبدأ التي قامت عليه الدولة السعدية وهو جهاد المحتلين والعمل على طردهم من الديار المغربية .

لكن عبد المالك كان يرغب في التقارب مع فيليب الثاني ملك اسبانيا لكي يحاول تقليص الوجود البرتغالي في المغرب والقضاء على كل الجيوب البرتغالية توطئة لما سوف يكون الوضع العسكري المغربي بالتعاون مع الاتراك والانقضاض مستقبلا على القواعد الاسبانية لتصفية كل الجيوب المحتلة، وكان عبد المالك قد حاول التقارب مع ملكة إنجلترا اليزابيث لكي يستغل موقف الصراع بين الاسبان والانجليز لصالح القضية المغربية .

ولقد كان الهدف المعلن لملك البرتغال هو ضرورة اجلاء عبد المالك عن السلطة وايعاد محمد المتوكل والتوسع في الاراضي المغربية ذلك هو الهدف المعلن ولقد كان هدف اسبانيا، ايضا ولكن غير معلن وكان هناك ارتباط بين ملك اسبانيا وابن اخته ملك البرتغال وكان مشروع سياستين بضرورة احتلال العديد من الموانئ المغربية على الساحل الاطلسي للمغرب والاعداد لحملة برتغالية اسبانية مشتركة بهدف امتلاك ميناء العرائش بصفة خاصة وكذلك ان ملك البرتغال لم يقتنع بمحاولات عبد المالك في التباعد بالتدريج عن اصدقائه الاتراك العثمانيين حرصا على ايجاد صيغة للتوازن في العلاقات لكن ذلك ام يجد لدى سياستين ملك البرتغال فكان تحركه وكانت معركة القصر الكبير .

الفصل الثالث

معركة القصر الكبير (وادي المخازن او الملوك الثلاث)

١٦ اغسطس ١٥٧٨م - ٣٠ جمادى الاولى ٩٨٦هـ

هذه المعركة صفحة مضيئة ابد الدهر في تاريخ المغرب بل هي قمة معارك الاسلام الكبرى سجلت المحمد والفخار للمغرب العربي ابد الدهر فقفزت بالمغرب مع نهاية القرن السادس عشر الميلادي إلى مقدمة الصفوف الكبرى في المجال العالمي ووضعت حدا ونهاية للدولة البرتغالية ومات فيها ثلاثة ملوك قبل ان ينقش غبار المعركة عن نصر كبير مؤزر لجند الاسلام لذى يقوده عبد المالك بن محمد الشيخ الشريف السعدى سليل الدوحة النبوية والشجرة الحسنية القرشية .

هي يرموك خالد بن الوليد في بلاد الشام، وقادسية سعد بن ابي وقاس في بلاد الفرس، ومعركة عين جالوت بقيادة السلطان قطز سلطان مصر على التتار والمغول، هي معركة حطين عام ١١٨٧م بقيادة صلاح الدين الايوبي وانتصاره على الصليبين هي بدر الكبرى في تاريخ المغرب الكبير هي صورة حية للدور البطولي الرائع الذي قدمه المقاتل المسلم العربي المغربي في سبيل الدفاع عن ارضه وعرضه ودياره فكانت فتحا مبيتا ونصرا مؤزرا وضع نهاية للغطسة الاوربية .

قاد قوات المغرب المؤمنة برسالة ربها الرافعة لقرآنها، الطائفة لمولاهما الشريف بن مولاي عبد المالك بن محمد الشيخ السعدى ويعاونه أخوه وساعده الايمن حاكم فاس مولاي احمد (المنصور) وكبار قواد المغرب، وعلى الجانب الآخر كان دون سياستين يعاونه خائن قضية الاسلام والمسلمين محمد المتوكل بن عبد الله الغالب ومعهما قوات جرارة من كل الدول الاوربية وقوات البابا في روما والجمهوريات الايطالية وفرنسا

والمانيا والمجلترا وغيرها من المتطوعين من كل دول اوربا .

وكان سياستيان شابا برتغاليا مغروا يعادى الاسلام والمسلمين نظرا للتربية المسيحية المتعصبة على يد رجل الجزويت وما بثه فى نفسه من تعاليم معادية للاسلام فضلا عما كان يحس به من سياسة خاله الملك الاسبانى فيليب الثانى قبل مسلمى غرناطة من المورسكين ومن هنا كانت نفسه تهفو إلى نشر التعاليم الجزويتية وتربى ايضا على سياسة ان الهجوم خير وسيلة للدفاع لذا كانت خطته مهاجمة المغاربة فى عقر دارهم والعبور إلى افريقيا وخوض الحرب المقدسة شخصا ضد المسلمين الكفار هكذا كان يتصور فى فكره الخيالى صورة المسلمين .

وكان سياستيان منذ عام ١٥٦٢م قد حاول العمل مع خاله ملك اسبانيا من اجل تنسيق وتوحيد سياستها قبل التحرك التركى الاسبانى أثر انتصارهم فى معركة جرية عام ١٥٦٠م وتخطيطهم الاسطول والوقوف بحزم ضد فكرة أحياء وحدة القوة الاسلامية التركية المغربية فى بلاد المغرب توطئه لاعادة تحرير الاندلس، ولم يكن مشروع محاربة المغاربة فى عقر دارهم ولد ابنها (المتوكل عام ١٥٧٦م و١٥٧٧م) بل ان هذا المشروع يعود فى ذهن سياستيان لبناتو امام الاسطول الاسبانى عام ١٥٧٣م لاسيما ان ملك البرتغال كان يضع فكرة الاستيلاء على ميناء العرائش فى المقام الاول لتأكيد رغبته فى السيطرة على الملاحة والتجارة المارة بالمغرب إلى بلاد السودان الغربى وكذلك الرغبة فى السيطرة الداخلية والتوسع من الموانئ البرتغالية داخل المغرب والتجوال فى الاراضى المغربية وايجاد حكومة مغربية موالية لهم كما كان فى عهد الغالب وابنه محمد المتوكل لاسيما وان فرنسا حصات على ميناء القصر الصغير لكى يكون مركزها التجارى ومحاولات المجلترا أيضا الحصول على امتياز يسمح لها بالتجارة وميناء ترسو اليه السفن الانجليزية فى طريقها عبر المحيط الاطلسى والاتجار مع المغاربة

لاسيما أن الفرنسيين والانجليز وغيرهم من رعايا الدول الاوربية قد باعوا اسلحة حربية حديثة كثيرة إلى المغاربة منقذين فى ذلك تعليم البابوية التى تحرم مبادلة الاسلحة مع المسلمين لاسيما الاسلحة الهجومية والدفاعية لاسيما الجانب الانجليزى الذى كان يجاهر بالتجارة فى الاسلحة وتصديرها إلى المغرب عن طريق ميناء العرائش ووصلت الاخبار إلى ملك البرتغال بذلك فان هناك سفنا انجليزية انزلت اسلحة نارية هجومية ودفاعية لانواع حديثة من القذائف، ولقد ساعدت الظروف الداخلية فى المغرب الملك سياستيان عام ١٥٧٤م لكن ليبدأ فى تنفيذ خطواته العملية لتنفيذ مشروع احتلال ميناء العرائش لمنع دخول الاسلحة إلى المغرب وتحرم التجارة فى هذا النوع من الصادرات الانجليزية وتفتيش السفن التى تحمل اسلحة فى الدخول والخروج من ميناء العرائش واسفى .

وقد أراد ان ينفذ مشروعه هذا عمليا فقام فى نوفمبر عام ١٥٧٤م بزيارة الثغور المغربية المحتلة وهى سبتة وطنجة ووعد بتكرار الزيارة لهذه الثغور وكاتب خاله فيليب الثانى ملك الاسبان لكى يعمل سويا من اجل كسر شوكة النفوذ التركى وعدم السماح له لممارسة نفوذه فى بلاد المغرب الاقصى وضرورة الجيلولة دون سماح عبد المالك للسفن التركية بان تتخذ موانئ المغرب قواعد لها وان سيطرة البرتغاليين والاسبان سويا على العرائش سوف يفرض الحصار نهائيا على السفن المغربية التركية .

وفجر الموقف وازداد اشتغالا بسيطرة عبد المالك بن محمد الشيخ على مقاليد الامور فى المغرب وزاد ذلك من احساس سياستيان الاول من ضرورة القضاء على هذا السلطان وهو فى مقتبل فترة حكمه وتمت مراسلات مع خلاله ملك اسبانيا بهذا الشأن يلتمس فيها تقديم عون عسكرى وقوات وذخيرة ومؤن لاسيما ان الاسبان قد راوا فى الصراع الدائر على ارض المغرب بين عبد المالك بن محمد الشيخ وابن اخيه فرصة

طيبة لتنفيذ المخطط دفعا للخطر التركي لانه لابد من احد من طرفي الصراع سوف يلجأ لطلب العون والمساندة من البرتغال والاسبان لكن محمد المتوكل كان هو الذى يدق أبواب الاسبان والبرتغال طالبا للنجدة من واقع هزائمه المتكررة ومطاردته من الجنوب إلى الشمال ومن ثم وجد الاسبان والبرتغاليون فى محمد المتوكل لقمة سائغة للتدخل المباشر بحجة طلب العون لتحقيق هدفهم البعيد من أجل السيطرة الكاملة على كل التراب المغربى وإزاحة الوجود التركى العثمانى .

وتفيد بعض المصادر الاوربية نفسها فى رسالة إلى ملك الاسبان فيليب الثانى ان محمد المتوكل رفض فى بداية الامر طلبا برتغاليا بان يقبل مساعدة من الاوربيين بحجة ان عقيدته الدينية لاتسمح له بان يتلقى العون من المسيحيين) لكنه عاد فيما بعد وقبل التعاون والمشاركة فى القتال بقواته معهم ووقع معاهدة تسمح لهم بالاستيلاء على ميناء العرائش .

وعلى الجانب الآخر كان عبد المالك صديقا عظيما للاتراك على الرغم انه لاينسى لهم انهم هم الذين قتلوا ابيه محمد الشيخ وانهم ظلوا معلقين راسه مدة عامين على ابواب القسطنطينية وكان هذا شعورا خفيا بالنسبة للاتراك ولكن كيف وهم الذين ساعدوه فى الصعود إلى عرش المغرب .

ولقد شاركت اسبانيا بصورة فعلية وكاملة فى هذه الحملة وامدتها بكل العون والدعم المطلوب بل ان الهدف العسكرى من هذه الحملة قبل ان بقودها سياستيان بنفسه، كان المقترح ان تكون بقيادة احد كبار القواد الاسبان وقد وافق الملك الاسبانى على اختيار هذا القائد الاسبانى المسمى (دى اطيانو) لكن الملك الاسبانى رأى ضرورة التقليل فى خط سير الحملة وعدم الاعلان عن الهدف الحقيقى واعلنت الحملة انها فى طريقها لمساعدة السلطان محمد المتوكل والتحالف معه وان طريقها هو ميناء اغادير وازمور .

وقدمت اسبانيا خمسين سفينة حربية وخمسة آلاف فارس وجندى وكميات هائلة من المؤن والذخائر يقدر ما تحتاج اليها الحملة وهكذا زاد اصرار الملك البرتغالى على تنفيذ الحملة وحصرها فى مجال العلاقات المحلية وحسم التنافس على العرش بين عبد المالك ومحمد المتوكل وان دور محمد المتوكل فى تحقيق هدف البرتغال ويعث الروح العسكرية للبرتغاليين من جديد وركب ملك البرتغال رأسه ورفض كل عروض السلام المقدمة له من جانب المغاربة وكذلك الدخول فى مباحثات بين السلام المزمع توقيعها بين العثمانيين والاسبان والتي تشارك فيها فرنسا وبولونيا حيث رأى فى اى توقيع هذه المعاهدة حرمانه من تنفيذ حملته على المغرب والتي اعد لها طويلا وعكف على تنفيذها والح فى الاسراع فى ارسالها وقيادتها بعد ان تلقى الدعوة بالمساعدة الكبيرة من كل الدول الاوربية التى كاتبها فى شأن هذه الحملة .

وكما وعد الملك فيليب الثانى ملك اسبانيا ابن أخته فقد قدم له خمسين سفينة حربية وخمسة آلاف مقاتل وكمية كبيرة جدا من المؤن والاسلحة والذخائر وهكذا فان فيليب الثانى قد وفى بكل ما وعد به ابن اخته من توات وسفن حربية ومؤن وبذلت حكومته كل ما فى وسعها لتوفير منتجات الاندلس ونابلى لكى توضع تحت تصرف قائد الحملة الاوربية حيث كان يحلم بالمجد والانتصار وتنفيذ مخطط اورى بابوى لضرب الوحدة الاسلامية التى باتت علائمتها فى الظهور بالتعاون المغربى التركى ومع نهاية فبراير عام ١٥٧٨م اعلن دون سياستيان الاول ملك البرتغال بان الحملة على اهبة الاستعداد للانطلاق لدك المغرب وانهاء حكم عبد المالك وانه سوف يقود هذه الحملة بنفسه وانه لم يعول على شئ دون ذلك سوى احتلال العرائش واسقاط عبد المالك حليف الاتراك .

وهكذا بدأت مطامع الملك البرتغالى الشاب فى الاستيلاء على المغرب تدخل

التنفيذ في ٢٥ يونيو غادرت القوات الاوربية البرتغالية الاسبانية ميناء لشبونة البرتغالي في طريقها لاحتلال المغرب وخوض اكبر معركة في تاريخ المغرب وهي معركة القصر الكبير او وادي المخارن او الموك الثلاث حيث كان لها نتائج خطيرة على المعسكرين الاسلامي والمسيحي . بعد ان كان سياستيان الاول يريد ان يستعيد هبة البرتغال في بلاد المغرب . وكان محمد المتوكل قد وعد ملك البرتغال بالتنازل له عن جميع ثغور وسواحل المغرب كما ان عبد الكريم بن تودة صهر محمد المتوكل قد تنازل للبرتغاليين عن ميناء اصيلا . وكان في ذلك الوقت قد ظهر الاسطول المغربي القوى والسفن الكبيرة التي قام عبد المالك في مدة وجيزة بتجهيزها وتعاون مع الاسطول التركي وخشى البرتغاليون ان يفكر عبد المالك في العبور إلى الاندلس وساعدة المورسكين وتحرير شبه جزيرة ايبيريا من القوى المسيحية لذا كان التصميم على الخروج إلى المغرب لاحتواء ثغورة وسواحله ومهاجمة عبد الملك في عقر داره وكان اغراء محمد المتوكل بالتنازل عن جميع الموانئ والسواحل المغربية بعمق يصل إلى ثلاثة عشر كيلوا متر وراء جميع المراكز البرتغالية قد زاد من غرور الملك البرتغالي .

وتذكر المصادر ان القوات التي تحركت من لشبونة كانت عشرين الف جندي اسباني، اثني عشر جندي برتغالي، الف جندي ايطالي، ثلاثة الاف جندي الماني، اربعة آلاف جندي بابوي بعث بهم بابا الفاتيكان، اضافة إلى اعداد كبيرة من متطوعي اسبانيا وانجلترا والف وخمسمائة من الخيل واثني عشر مدفعا ونحو الف سفينة حربية ونقل جنود وتعاون الجميع اضافة إلى اعداد كبيرة من متطوعي اسبانيا وانجلترا والف وخمسمائة من آلاف جندي برتغالي عند نزوله إلى طنجة .

وقد قدر حجم القوات المشاركة في هذه المعركة بما لايزيد عن خمسين الف جندي اوربي جاءوا جميعا من اجل احتلال المغرب بمصاحبة الملك سياستيان في

حملته المغربية واصدر ملك اسبانيا اوامره إلى جميع السفن الاسبانية بحماية الحملة البرتغالية وفي الثاني عشر من يوليو ١٥٧٨م نزلت الحملة إلى مدينة اصيلا على مساحة مرحلة من المدينة وتقرر ان نواصل السير إلى ميناء العرائش والقصر الكبير سوى ما يقرب من الفى جندي مما يسهل عليهما احتلال الموقعين في يسر وسهولة ومن ثم أخذت خيل البرتغاليين في الاغارة على اطراف البلاد وانضم اليه محمد المتوكل برجاله وقام الجيش البرتغالي بدخول بعض الموانئ .

وكان خليفة المغرب عبد المالك على اهبة الاستعداد لملاقاة هذه الحملة وبادر بالكتابة إلى اخيه احمد المنصور في فاس لتجهيز الجيوش استعدادا للملاقاة البرتغاليين . وفي ١٢ يوليو عام ١٥٧٨م استولت الحملة على اصيلا وبقيت فيها ستة ايام حتى يوم الاثنين ١٦ يوليو ولقد كان على الحملة ان تقضى ما بين يومين إلى ثلاثة ايام حتى تتمكن من الوصول إلى القصر الكبير فضلا عن عبور النهر قبل ان ترحف إلى داخل البلاد المغربية وان عليها عبور النهر للوصول إلى العرائش . وكان عبد المالك قد استنفر قواته للجهاد وراسل كل البلاد والقبائل المغربية وسارت كل القبائل لامداد الجيش بالرجال والعتاد والمؤن واتجهت وفود الشعب المغربي إلى القصر الكبير ولحقوا بالجيش في سلا وجاء جيش فاس بقيادة احمد المنصور للجبهة الاسلامية والجهاد الاسلامي وكراهية الاحتلال البرتغالي ولتدخله في شئون المغرب الداخلية وتزاحم الناس للعمل من اجل رفع راية الجهاد ولم يكن من السهل تحديد عدد القوات المغربية المشاركة في القتال لانها كانت تضم اعدادا كبيرة من المتطوعين ورجال الطرق الصوفية وقوات الجزائر التركية وذكر المؤرخ المجهول في كتابه تاريخ الدولة السعدية ان عدد المسلمين كان حوالي ستة وثلاثين الف جندي وعدد النصارى مثلهم مرتين او ثلاث.

واستفاد عبد المالك من تأخير وصول الحملة إلى هدفها المنشود خمسة عشر يوما حتى يتم لقاء القوات المتحاربة ووصول سياستيان إلى أهدافه لاسيما وأنه يتابع أخبارها منذ بداية تركها وزاد من استعداداته بعد أن بلغته الأخبار بأنها تضم ألف سفينة حربية وبها ٣٥ ألف من رجال الحرب المحترفين فضلا عن عشرات الآلاف من المتطوعين الأوربيين وإنها تحمل مؤنًا تكفي لأكثر من ستة شهور وإنها تطعم أكثر من ستين ألف نسمة وإنها تحمل أكثر من سبعين مدفعا وأعدادا كثيرة من الحمير والثيران لحمل وجر المدافع والذخيرة التي تكفي لقتال ستة شهور وقد ذكر اليفرنى نقلا عن ابن القاضي أن هذه الحملة كانت في جيوش جرارة بلغت مائة ألف وخمسة وعشرين ألف مقاتل (١٢٥ ألف مقاتل) قصدوا احتلال المغرب وحصر المسلمين وإدارة رحي الحرب عن الإسلام والمسلمين (أهل الدين اليقين) وذكرت المصادر الأوربية أنهم ستون ألف مقاتل .

وكان عبد المالك الخبير بشئون الحرب والقتال بعد اشتراكه في العديد من المعارك مع الأتراك في الجزائر ولاسيما معركة تحرير تونس من أيدي الأسبان عام ١٥٧٣م قد أدرك أن الحرب النفسية والمراسلات بينه وبين دون سياستيان الأول منذ أن وطئت أقدامه أرض المغرب لا بد أن تتكشف عن أبعاد جديدة في رؤية هذا الملك الشاب لمسار الحروب ولما سيكون عليه الموقف بعد أن أبدى عبد المالك نوعا من المرونة والدبلوماسية الذكية وهو الذي كان يتمتع بالحنكة والفطنة والكياسة وحسن التخطيط والأعداد المتقن لجيشه الكبير بل أنه كان ذا عقلية عليا عبقرية جبارة وكان يحفظ كل القرآن الكريم والاحاديث النبوية ملما بعلوم الدين إضافة إلى أنه كان حاكما عصريا يتكلم بالاضافة إلى العربية والبربرية اللغات التركية والإيطالية والأسبانية ويعرف الإنجليزية وكان يرتدى الزي المغربي وأحيانا كثيرة بالزي التركي، كل هذه الصفات

جعلته إنسانا ذكيا يستخدم صفاته في معرفة الآخرين لاسيما ذلك الشاب المنحصر الذي لم يصل إلى سن الثلاثين بعد فاستخدم أسلوب المراسلات حيث دارت بعض المكاتبات بين عبد المالك بن محمد الشيخ والملك البرتغالي وكان أن أرسل عبد المالك رسالتين إلى سياستيان أحدهما وهو لا يزال في أصيلا بتاريخ ٢٢ يوليو ١٥٧٨م يحذره فيها من القتال لأن القتال هلاك لسياستيان وقواته الكبيرة وهذا أمر مؤكد الحدوث لأن القوات المغربية لا تهزم وإنها تملك قوة عسكرية كبيرة وإن السلطان التركي ممدد بقوات جرارة وأنه مؤيد في مقاومة الغزو البرتغالي وأنه بإمكان السلطان أن يمدد بقوات كثيرة وإن يكرر معه ما حدث عندما ساعده على استرداد ملكه، وأنه على استعداد أن يعطي البرتغال مزايا أكثر مما وعده به محمد المتوكل ابن أخيه لأن ابن أخيه لا يستطيع أن يفي بما وعد به ملك البرتغال لأنه لا يملك شيئا من هذه الموانئ ولا الأراضي التي تحيط بالموانئ وتقدر بثلاثة عشر كيلو مترا، وإن عبد المالك على استعداد أن يتنازل لابن أخيه محمد المتوكل عن الأراضي التي يرغبها لتكون تحت حكمه فيما عدا مراكش والأراضي المحيطة بها .

ولقد كان أسلوب المراسلات من قبل عبد المالك نوعا من جس النبض لدى سياستيان لمعرفة ما يدور براسه من أفكار بشأن مواصلة القتال والتقدم للمجابهة والصدام أم أن هناك تراجع عن الدخول في قتال مباشر بين القوتين .

لكن الجيش البرتغالي الذي كان يضم جنسيات أوربية عديدة تقدم إلى داخل المغرب واتجه عبد المالك إلى القصر الكبير ثم عسكر في منطقة تسمى سوق المحتسب على بعد ست أميال جنوب وادي المخازن وكانت القوات التركية تبذل أقصى المساعدة لعبد المالك وكذلك القوات الجزائرية. وعندما كانت ترسل كتب عبد المالك إلى دون سياستيان كان يعسكر في منطقة شهد رات ولكنه تركها ونزل إلى وادي المخازن .

ووادى المخازن هذا الذى حملت المعركة اسمه مع اسم القصر الكبير والملوك الثلاث هو رافد من روافد نهر لوكوس الثلاث الذى يصب عند ميناء العرائش والرافدان الاخران وهما وادى وارور، ووادى ريسانة اى ان موقع المعركة قد حاصرت الروافد الثلاثة وكان المعسكر المغربى على الضفة اليمنى لوادى المخازن فوق سطح هضبة ومن هذه الهضبة اطلت الحملة على سهول القصر الكبير ما بين وادى لوكوس وروافده ووادى راوؤز حيث كانت تتجمع قوات عبد المالك وقد وقعت المعركة على مقربة من مدينة القصر الكبير على مساحة لاتزيد عن اثنى عشر كيلو متر من ارض الصراع الدامى. ومدينة القصر الكبير هى المدينة التى سميت المعركة باسمها فى بعض المصادر وازاء تصميم الملك البرتغالى على القتال وخوض المعركة فانه لم يستمع إلى التقارير التى كانت تصل اليه لاسيما من رجاله ورجال ملك اسبانيا من الجواسيس اليهود الذين كانوا يعملون لصالحه والذين اخبروه بان قوات عبد المالك تزيد عن سبعين الف جندي وانه قد وصل إلى سلا وان هناك نجدة تركية مكونة من مائة وخمسين سفينة حربية وان هناك قوات تركية تزيد عن خمسة الاف تركى قد وصلوا فعلا إلى القوات المغربية للمشاركة فى القتال وان الاوامر صدرت فعلا من الباب العالى إلى باشا الجزائر لامداد عبد الملك بالقوة التى يحتاج اليها، لكنه هو وقادته البرتغاليون والاوروبيون رفضوا تصديق كل هذه الاخبار وتوقعوا انها خديعة من عبد المالك وان قواته الحقيقية لاتزيد عن ثلاثة الاف فارس واثنى عشر الف رجل اى ان قوات الحاكم السعدى جميعها لا تزيد عن خمسة عشر الف مقاتل بما فيهم كل المتطوعين ورجال القبائل والطرق الصوفية ومن هنا استهان بالامر وكانت العاقبة وخيمة .

ولما تيقن عبد المالك ان ملك البرتغال ليس له هدف سوى الحرب وقام بالاستيلاء على القصر الكبير ليكمل هدفه فى الاستيلاء على العرائش، لكن عبد

المالك اراد ان يضعه فى موقف لا يتردد بعده بعد ان يذل كل السوئل لكى يشنيه عن القتال فقد راسله بخطاب شديد اللهجة حقره فيه اشد التحقير وذلك لاستدراجه نهائيا لكى لا يرجع عن غية وكتب اليه يقول انى تقدمت اليك ست عشرة مرحلة اما ترحل إلى مرحلة واحدة وقال له اذا رحلت إلى فانت نصرانى حقيقى شجاع والا فانت كلب ابن كلب لذا غضب سياستيان لما وصله الكتاب وشارور أصحابه فاشاروا عليه بالتقدم وقال له محمد المتوكل بن عبد الله الغالب نتقدم ونملك تطوان والقصر والعرائش ونجمع فيها من العدة ونتقوى بها وبما فيها من ذخائر فتقدم جيش ملك البرتغال من موضع يقال له تهدرات ونزل على وادى المخازن وكان ذلك التقدم مكيدة مديرة من عبد الملك صاحب الخطط العسكرية الباهرة .

وقامت القوات البرتغالية بعبور جسر الوادى فامر عبد المالك بهدم القنطرة وبهذا فقد نجح الخليفة السعدى فى استدراج دون سياستيان وجيشه إلى قلب البلاد المغربية وكانت مكيدة عبد المالك هى المباعدة بين الجيش البرتغالى ومراكز تموينه وكان عبد الملك قد وجه كتيبة من أربعة الاف جندي من الفرسان بقيادة اخيه احمد المنصور فهدموا القنطرة وحالوا بين العدو وبين العودة من حيث اتوا ولم يكن امامهم الا القتال. وزحف عبد المالك بجيش المسلمين إلى معركة القصر الكبير بالقرب من وادى المخازن وصار النهر على يمين القوات الاسلامية المغربية .

والتقى الجمعان ودارت معركة من أعنف المعارك التى شهدتها المغرب الاقصى فى تاريخه حيث أقبل المتطوعون من كل حذب وصوب طمعا فى الشهادة وقد بدأت المعركة ببعض طلقات المدافع التى لم يكن لها تأثير فى صفوف الجانبين، لكن المدفعية المغربية قد احدثت ارتباكا فى صفوف المشاة الاوربيين وتراجعوا إلى الوراء لكنه تقدم الصفوف واصدر اوامره لهذه القوات بالتقدم وبدا القتال وكانت بداية القتال شديدة

الوطأة على الجانبين وظهرت القوات الايطالية والاسبانية المصاحبة للحملة بسالة كبيرة في القتال مما أدى بالقوات المغربية إلى محاولة امتصاص الصدمة الاولى وما تلاها توطئه للهجوم الكبير الذى لا يبقى ولا يذر وكانت القوات الاسلامية المغربية قد انقضت على المؤخرة فى معركة تطويق بارعة تدل على مهارة المخطط وبراعة المنفذ وجسارة المقاتل ولكن هذه القوات وقد رأت انها محاصرة من كل جانب وانه لا مفر من ابادتها بدأت فى التراجع حيث صب عليها المغاربة وابلا من النيران واستخدمت السيوف فى الرقاب، لكن الجانب البرتغالى لم يكن له ان يستسلم بعد ان شاهد حمى الوطيس فدفع بقوات الاحتياط إلى المقدمة لتعويض خسائره فى القتلى والجرحى. وتركزت المعركة بشدة على هذا الجانب (المقدمة) مما جعل المغاربة يندفعون بحماس شديد لقتال فرسان الصليبيين ومن معهم من قوات محمد المتوكل وارغموهم على الفرار واندفع المغاربة يكبرون إلى القوات الالمانية التى تقهقرت ايضا وكر المغاربة على عدوهم عدة مرات حتى استطاعوا بقوة ايمانهم من فتح ثغرة فى صفوف المشاه البرتغال والقوا فى قلوبهم الرعب وزلزلوا زلزالا شديدا وتفرقت القوات. ولم يبق امام القوات الاسلامية المغربية سوى الميسرة التى كانت لم تفرز بعد من القتال حيث استطاع المغاربة احراز النصر على كل الاجنحة التى خاضوا قتالها وكانت، الميسرة بقيادة اللواء الملكى يقوده سباستيان بنفسه وكان قد تركه ليكون لقمة سائغة للقوات المغربية حيث كان فى المقدمة والتى تدور فيها اعنف المعارك وعلى نتائجها تكون نهاية المعركة. حيث كان الايطاليون والاسبان لازالوا يقاتلون فى دفع بالقوات المغربية التى تطلب بعض التعزيزات وتحقق الانتصار وهلك معظم الجيش البرتغالى رغم ضراوة القتال وما بذله النصارى من ثبات وعزم على تحقيق النصر، لكن هيهات فقد ولى المشركون الاديبار ودارت عليهم دائرة البوار وحكمت السيوف فى الرقاب وقتل الطاغية البرتغالى غريقا فى الوادى وكذلك صديقه محمد المتوكل الذى وجد غريقا أيضا .

وكان السلطان عبد المالك مريضا فى محفته وتوفى عند الصدمة الاولى ذلك لانه عندما رأى رجاله يتراجعون فى بداية المعركة ثارت حميته وغيرته الاسلامية فصاح الله اكبر وارتمى من محفته وركب فرسه واندفع بين صفوف المقاتلين. يشجعهم ويجمع صفوفهم فارتدوا يقاتلون العدو بعد ان كانوا قد تقهقروا واوقف تراجعهم وقاتل بشدة فى الوقت الذى كان فيه رجاله يتوسلون اليه بالعودة إلى محفته وحمل بعد ما كاد يسقط من فوق فرسه يتوسلون اليه بالعودة إلى محفته ووضع فى الحفة التى كانت قد حملت جثته بعد أن اسلمت الروح إلى بارئها قبل ان تنعم بيوم النصر وكان عبد المالك فطنا ذكيا اذ اشار إلى من حوله بضرورة كتمان خبر موته حتى يتجلى الموقف ويتقرر مصير المعركة، ولم يطلع على خبر موته سوى حاجبه رضوان العليج الذى كتم خبر موته .

وهكذا انتهى يوم الاثنين السادس من اغسطس عام ١٥٧٨م، الثلاثين من جمادى الاول عام ٩٨٦هـ عن انتصار اسلامى كبير ومقتل سياستيان وحليفه الامير السعدى المولى شريفه (محمد المتوكل) ابن الجارية السوداء. وموت صاحب الانتصار الكبير عبد المالك بن محمد الشيخ السعدى .

وكانت هزيمة منكرة للجيش البرتغالى الاوربى وانتصارا حاسما للمغاربة وللإسلام. وقد لعب رضوان العليج صاحب الملك السعدى دورا كبيرا فى هذا الانتصار الرائع اذ كان يتردد على خباء الخليفة عبد المالك ويعلن ان الخليفة يأمر فلانا بان يذهب إلى موقع كذا ويقاتل فيه وفلانا ان يلتزم الراية ويقاتل وقاد رضوان العليج المعركة وعلم اخوه احمد المنصور بموته وكتم الخبر حتى انتصر المسلمون على معسكر النصارى وولى البرتغاليون الاديبار وانجلت المعركة عن مصرع سباستيان ولم ينجو من القوة الاوربية سوى عدد قليل جدا ووجد المتوكل كما سبق القول غريقا فى وادى

لوكوس واخرجه الغطاسون وامر المولى احمد المنصور الذى خلف اخاه عبد المالك بسلخ جلده وحشوه تبنا وطيف به فى مراكش وغيره من البلاد المغربية. واسفرت هذه المعركة عن موت الملوك الثلاثة التى اتخذت هذه المعركة فى بعض المصادر اسم معركة الملوك الثلاثة او وادى المخازن وان كانت العديد من المصادر تشير اليها على انها معركة القصر الكبير لكنه كان المعلم الكبير القريب من ميدان المعركة والذى لايبعد عن وادى المخازن باكثر من اثني عشر كيلو متر وان كان اسم معركة وادى المخازن متعارفا عليه فى بعض المصادر .

وقيل ان عبد المالك مات مسموما وقد دس له السم غريمه المتوكل محمد بن الغالب والذى كان يهدف من ذلك إلى اعلان موته قبل بدء المعركة أو فى بدايتها. لكى يكون ذلك سببا فيفت فى عضد القوات وتسود صفوفهم الفوضى والاضطراب مما يؤدى فى النهاية إلى هزيمتهم .

وان كانت بعض المصادر قد حاولت ان تنسب موت عبد المالك بوضع السم له إلى الاتراك العثمانيين، الذين لم يكن لهم مصلحة فى سمه وهو حليفهم وقواتهم تقاتل معه وهو زوج ابنه احمد باشا وإلى الجزائر وعاش فترة من عمره فى تركيا هو واخوته وأمه وكان مقربا إلى السلطان مراد الثالث، بل ان عبد المالك اشترك بنفسه مع السلطان مراد الثالث فى قتال فى بلاد اليونان، لكن ابن القاضى يذكر ان رضوان العليج الذى قاد المعركة بعد وفاة عبد المالك وكان قائد الاتراك بعث لبعض قواده ان يلقاهاهم بكعك مسموم هدية لعبد المالك وقصد بذلك قتله، ولكن من غير المعقول اطلاقا ان يكون الاتراك وراء وضع السم له لانه ليس لهم مصلحة فى ذلك لانه كان لايزال صديقهم وقواتهم هى التى جاءت به إلى عرش المغرب وقد كان الانتصار زيادة لمكانتهم فى حين ان الهزيمة كانت ستقضى على آمالهم فى المغرب الاقصى وتضع

نهاية لوجودهم فى تونس والجزائر .

وهكذا كانت معركة القصر الكبير قد شغلت الراى العام العالمى لفترة طويلة لما لها من نتائج فهمى بالسنة للمسلمين فى المغرب وبقية العالم الاسلامى بمثابة معركة بواتية - او بلاط الشهداء فى اوربا وقد اسفرت المعركة عن العديد من النتائج التى تركت بصماتها واضحة جلية على خريطة العالم المعاصر فى ذلك الوقت فقد استمرت المعركة ست ساعات هزمت فيها البرتغال وحلفاؤها جميعا فى اخر شهر من فصول العام وهو شهر اغسطس ولم ينج من الاسر والقتل الا مائة رجل (مؤرخ مسيحي زاهر رياضى) وحدد القشتالى ان عدد القتلى والاسرى بلغ ثمانين الف رجل وانتهت معركة القصر الكبير اسطورة دولة البرتغال القوية وابرزت افلاس الحملات الصليبية على العالم الاسلامى والتى كان البرتغاليون يتقربون بها إلى البابوية فى بلاد المغرب او غيرها من بلاد العالم الاسلامى .

ومهما يكن من كتابات ابن القاضى او اليفرنى وغيرهم من الكتاب فان الاتراك لم تكن لهم يد فى قتل عبد المالك وهم الذين امدوه باكثر من ثمانية آلاف مقاتل منهم ستة آلاف فقط من حاملى البنادق النارية اضافة إلى اكثر من اثني عشر مدفعا .

وهكذا انتهت المعركة التى كانت محاطة بمشاعر اوربا الصليبية مما دفعت بملك اسبانيا ان يرسل إلى دون سباستيان الخوذة التى كان يلبسها الامبراطور شلمان اثناء حملته على تونس عام ١٥٣٥م. وقد عجلت هذه المعركة بنهاية البرتغال واندماج املاك العرش البرتغالى فى الامبراطورية الاسبانية وتسلم البرتغاليون منائر هذه الهزيمة النكراء بهذا المصير السياسى وانضمامهم للاسبان .

ولكن على الجانب المغربى فقد اكدت هذه المعركة قوة المغرب والمغاربة سياسيا واكدت استغلال المغرب كدولة محلية بعيدة عن التبعية للدول الامبراطورية المحيطة بها،

كالأتراك العثمانيين والاسبان والبرتغاليين وان هذا الانتصار العظيم قد دعم هذا الاستقلال ودفع المغرب إلى مصاف الدول الكبرى وبدأت كل دول اوربا تخطب ودها وتقدم التهاني لها بهذا الانتصار العظيم وترغب في اقامة علاقات تجارية اقتصادية وسياسية معها. كما ان النفوذ التركي لم يكن بالقدر الذى كان يتوقعه الذين جاءوا بعبد المالك إلى عرش المغرب .

وهكذا استطاعت الراية الاسلامية التى رفع لواءها السعديون والأتراك ورجال الطرق الصوفية والمتطوعون والتي تعلقت حولها قلوب وعيون المسلمين فى شتى بلاد المشرق والمغرب ترقب هذا الحدث التاريخي الهام الذى استطاع ان يحقق النصر الباهر على القوى المسيحية الكاثوليكية والتي ضمت البرتغال واسبانيا والمتطوعين من الالمان والايطالين والانجليز والنمساويين ومن امامهم تولت البابوية تدفع دفعا لهذا الصراع الذى كانت نهايته كما شاهدنا الهزيمة الساحقة لهذه القوات، ولقد كان من اثر تحقيق هذا الانتصار ان دفعت الاحداث العالمية بالمغرب بعد ان قطفت ثمار النصر الباهر فى معركة القصر الكبير ان تحول دوره من الدفاع الداخلى فى علاقات المغرب الدولية إلى دور يدفع المغرب إلى شغل موقع فعال فى العلاقات الدولية بعد ان علت هيبة السعديين فى العالم الاسلامى باعتبارهم قد دافعوا عن ترابهم المقدس وحفظوا وصانوا كيان المغرب، كما كان الدور الرائع الذى لعبه عبد المالك الذى ارسى فنون الحرب والقتال واحرز هذا الانتصار الباهر على الاسبان فى تونس من قبل وتدرّب فى اسطنبول على مستوى الاداء والخبرة والمهارة واجاد فن التخطيط القتالى وحسن التدبير والحشد والاعداد والمهارة فى ادارة المعركة بل اية معركة انها من اخطر المعارك التى خاضها جند الاسلام فى المغرب .

ولم تكن مصيبة البرتغال فى فقد ملكها ورجال بلاطها وطبقة النبلاء وجيشها

الكبير ولكن كانت المصيبة الكبرى من اثر هذه المعركة انها ادت إلى فقدان سيادتها واستقلالها وكيانها وضمت نهائيا إلى اسبانيا وظلت تابعة لحكم الملك الاسبانى فيليب الثانى واسرته اكثر من ستين عاما ١٥٨٠م إلى ١٦٤٠م وترسخت دعائم الحكم السعدى فى نفوس الرعية واركان الدولة على الرغم من ان بعض الجيوب الاستعمارية كانت لم تزل غير محررة ولم يستطع حكام المغاربة استثمار انتصارهم بالقضاء على هذه الجيوب الاستعمارية فى الثغور، لكن المعركة اظهرتهم كحكام اقوياء يمكن الاعتماد عليهم فانهم استطاعوا حفظ التوازن بين قوى الشرق والغرب مما جعل للمغرب دورا سياسيا بارزا فى السياسة العالمية كما عادت المعركة بالشهرة والثروة للسلطان احمد المنصور واستغل ذلك فى تاسيس امبراطورية فى غرب افريقية لينافس بذلك اكبر امبراطوريتين فى ذلك الوقت هما الامبراطورية التركية والامبراطورية الاسبانية .

لكن على الصعيد الداخلى والخارجى فقد كان اولى بالسلطان الجديد احمد المنصور ان يستثمر هذا الانتصار لاسيما انه كانت توحد لديه اعداد كبيرة من الاسرى الاوربيين ويكون مقابل اطلاق سراحهم هو رحيل كل القوات الاسبانية البرتغالية من جميع المدن المحتلة وخاصة سبتة وطنجة ومايلة واصيلا التى احتلت حديثا وقبل المعركة بشهر او شهرين وظلت تحت الحكم الاسبانى حتى عام ١٨٨٩م اى انها ظلت أحد عشر عاما بعد المعركة وهى خاضعة للحكم الاسبانى. وقد تكون هذه المعركة قد اضعفت اطماع الدول الاوربية فى الموانئ المغربية ومحاولة السيطرة عليها لكن الدول الاوربية كانت لاتزال ترنو ببصرها لمحاولة ايجاد مواقع ساحلية لها كما حدث فى طلب فرنسا وانجلترا وهولندا الحصول على امتيازات تجارية لها فى المغرب والحصول على موانئ تكون مراكز لها .

لكن المغرب لعبت دورها التاريخي والعالمي في الصراع العالمي بين القوى الاوربية انجلترا وفرنسا واسبانيا وورثت العرش البرتغالي وهولندا ومحاولة الدولة المغربية ان يكون لها دور في تخطيط السياسة العالمية والتماس الدول الكبرى لاسيما انجلترا التي كانت ترى في القيادة المغربية ركنا بارزا في السياسة العالمية ومحاولة الاستفادة من وضع المغرب العالمي في تأييد ولي العرش البرتغالي ضد المطامع الاسبانية لاسيما انه كان لاجئا لدى المغرب .

كما ان الاستقرار الداخلي ودعم الحكومة المركزية وادارة احمد المنصور مقاليد الامور بالحكمة والرؤية واستخدامه الدهاء والدبلوماسية في الامساك بخيوط اللعبة الدبلوماسية وازالة الخطر الاسباني والبرتغالي واستخدام الاسلوب البارع في درء الخطر العثماني التركي وكسر فكرة الغزو التركي للمغرب نهائيا وابطال مفعول هذا المخطط وعمل حاكم المغرب في السعي إلى تحقيق التوازن والمهادنة في علاقات المغرب الدولية والعمل على ان تلعب المغرب دورا تاريخيا جديدا يختلف عن الادوار السابقة امام ابيه محمد الشيخ او اخيه عبد الله الغالب او عبد المالك صاحب انتصار القصر الكبير لاسيما ان المنصور كان يطمح في الانتقال بالدولة المغربية إلى الدولة الاسلامية الكبرى والذي تسمى هو باسم الامام أمير المؤمنين خليفة المسلمين بعد ان سقطت الخلافة الحفصية في تونس وبعث في دولته نزعة الخلافة الاسلامية التي كان يحلم باخضاع بقية بلاد المغرب وبلاد العالم الاسلامي الشرقي لهذه الخلافة القرشية الفاطمية العلوية الحسنية .

الفصل الرابع

احمد المنصور الذهبي والدولة السعدية

٩٨٦هـ - ١٠١٢هـ - ١٥٧٨ - ١٦٠٨م

لقد كان من اولي نتائج معركة القصر الكبير ظهور خليفة سعي جديد يعتبر من اعظم خلفاء الدولة السعدية قاطبة حيث قاد الدولة نحو القوة والاستقرار وشهد عصره توسعا للدولة ونموا في علاقاتها مع القوى الخارجية الاوربية الاسلامية. ذلك هو أبو العباس احمد المنصور الذي تولى الحكم مباشرة بعد وفاة عبد المالك وتلقب بالمنصور تيمنا له بالنصر في هذه المعركة ويعتبر احمد المنصور رابطة عقد الدولة السعدية فقد ظل متربعا على عرش البلاد قرابة ربع قرن (سنة وعشرين عاما) شهدت فيها البلاد مظاهر التقدم والحضارة والمجد والعظمة .

وقد ولد احمد المنصور عام ٩٥٦هـ وتربى بمدينة فاس حيث اخذ يدرس العلم والادب والفقه في مدارسها ثم اقام في بلاد الجنوب حيث سجل ماساة في اقليم السوس ولما تولى أخوه عبد الله الغالب امر المغرب رحل هو واخوه عبد المالك وعبد المؤمن إلى الجزائر ثم تركيا وقد اكسبه مقامه في تركيا الاطلاع على شئون اوربا والبحر المتوسط واكتسب مهارة ودهاء ساعدته في توجيه سياسة المغرب الخارجية وكان يهتم بمشكلات بلاده ويطلع على شئونها اطلاعا واسعا وكان ولوعا بالمعارف العلمية إلى جانب انه كان عالما لصيقا بالعلماء ورجال الدين مما جعل العامة والشعب يطلقون عليه عالم الخلفاء وخليفة العلماء كما كان شاعرا من اعظم الشعراء، كما كان يقول بعضهم انه اشهر ملوك وسلاطين المغرب وكان له ديوان اسماء ديوان الشرفاء. وكان لهذا الرجل الصغير دور كبير في توطيد حكم اخيه عبد المالك بالمغرب ولذا رشحه لولاية عهده بدلا من اولاده وكان خليفته على فاس ومنها كان يرسل النجيدات ويقود

الجيوش لمحاربة اعداء الدولة وكان له دور كبير في معركة القصر الكبير (وادي المخازن) وانه كان يقود القلب الايسر (الجناح الايسر في المعركة وصاحب الهجوم الكبير والاكبر على القوات البرتغالية بعد امتصاص الصدمة الاولى وهو الامير السعدى السادس في سلسلة الحكام السعديين الذين حكموا المغرب في ظل الخلافة السعدية الشريفة .

وقد بايعه رجال البلاط وقواد الجيش بالخلافة في ارض المعركة بعد الانتصار مباشرة ولقبه رجال الحل والعقد بالمنصور تيمنا بالنصر الكبير الذي احرزه المسلمون في هذه المعركة وكانت بيعته في نهاية جمادى الاول عام ٩٨٦ هـ وهو نفس اليوم الذي حسم فيه مصير المعركة بالانتصار الباهر. واعلنت له البلاد بالطاعة وسارعت القبائل والمدن والاقاليم والولايات ورجال القبائل وشيوخها بالولاء وتدخل الاتراك في تولية العرش. ومن ذلك التدخل بان حاكم الجزائر التركي حسن اغا قد تدخل في الشؤون الداخلية للبلاد وساند حق اسماعيل بن عبد المالك صاحب انتصار معركة القصر الكبير في المطالبة بوراثه عرش الديار السعدية بعد ابيه وتدخل باسمه في نزاع مكشوف مع احمد المنصور وكان حسن اغا باشا الجزائر يرمى في خطته التطلع إلى توطيد النفوذ التركي العثماني بالمغرب استنادا إلى صلة المصاهرة ومن هنا فقد تعرض المنصور لمؤامرة منهم كاد ان يفقد فيها سلطانه بعد ان علم الاتراك بامر بيعته فاتفقوا مع كبار رجال الجيش والذين كانوا من الاتراك على تنحية المنصور واخذ البيعة لاسماعيل بن عبد المالك لتولى عرش المغرب متطلعين لشعبية عبد المالك وصدى انتصاره في معركة القصر الكبير وحق ابنه اسماعيل في ولاية العرش كما ان الاتراك عملوا على بث روح التفرقة بين افراد الجيش المغربي مما اضطر المنصور إلى الفرار إلى مراكش ولكن المغاربة رفضوا ذلك واصرروا على بيعه المنصور .

وقد استقبل المنصور وفود الملوك والرؤساء للتهنئة بالنصر الكبير وكان من بينهم الوفد البرتغالي الذي جاء بهدية قيمة وطلب تسليم جثة الملك دون سباستيان الاول والتي كان قد دفنها انتصاره ورجاله في مكان معلوم ليتم اخراجها بعد انتهاء المعركة وفك اسرى المعركة وقد استجاب لهم المنصور وكان المنصور في تلك اللحظات بتوجس خيفة من الاتراك وحقيقة موقفهم لانه لو كان يضمن مساندتهم له لطلب من رسول البرتغال رحيل القوات البرتغالية من جميع الموانئ المغربية المحتلة والاستجاب الاوربيون لكل مطالبه نظرا للافراج عن الاسرى. وكان كذلك اول ما فعله المنصور انه قام بعد استتباب الامر له بالتنكيل ببعض كبار رجال الجيش المغربي لاسيما من تعاون مع الاتراك والتخلص من الشكوك في افعالهم .

وبهذا فقد اصبح المنصور سيد البلاد والمطاع وكان السلطان رجلا قوى الارادة، لاسيما وان الانتصار قد ملأه بالفخر والاعتزاز والحماس وهو الذي جنى ثمرة كل هذا الانتصار اذ قبل من الاسرى دفع الفدية وقام السلطان احمد الغالب المنصور باطلاق سراحهم فامتلات خزائنه بالمال البرتغالي والاوربي وعاد النبلاء ورجال البلاط البرتغالي بعد ان تم اطلاق سراحهم إلى البرتغال فوجدوها قد أفقرت وساد الفقر اركان البلاد من جراء دفع الفدية الكبيرة التي دفعت لهم فلم يملكوا الا أن يرسلوا سفراءهم إلى احمد المنصور يطلبون مساعدته على هيئة قروض. ووجه السلطان اهتمامه إلى كل النواحي العامة وادار المنصور سياسة بلده بنفسه بحزم ونزاهة معتمدا على جماعة من الشورى .

ونظرا للدور الذي لعبه احمد المنصور في معركة القصر الكبير فانه كان لايزال يردد احداثها في كل جلساته ويمجد بالدور الذي لعبه شقيقه عبد المالك قائلا ان كل الظروف التي كانت تحيط بالملك دون سباستيان كان تؤهله للانتصار ولكن حسن تدبره وقيادته للميسرة جعل نكبة البرتغاليين تفوق كل احتمال ففي ست ساعات في يوم من

أيام اغسطس الحارة ابيدت هذه القوة البرتغالية ولم ينج من الموت أو الأسر إلا أقل من مائة شخص ولم يكن هذا كل شيء في نكبة البرتغال زاهر رياض المالك الإسلامية في غرب إفريقيا ص ١٧٤ .

وكما سبق القول فقد اكسبت المعركة المغاربة صيتا في العالمين الإسلامي والمسيحي فإن كل ما تمتعوا به من قبل بل لم يبلغوه من بعد وبالرغم من هذا فقد بدا المنصور عهده مثقلا بالمشاكل كانت السلطنة منقسمة كما كانت هناك جماعات على استعداد لان ينتصر المناوئون الثلاثة أو الأربعة الذين يصارعون أحمد المنصور على ولاية العرش ويدعونه لانفسهم والذين يستترون على ادعاءات أقوى من ادعاء المنصور نفسه ولذا لم تكن كل طوائف الشعب ترحب بارتقائه العرش وكانت ترى في اسماعيل بن عبد المالك صاحب الانتصار والذي توفي وهو يقود المعركة ولذا انكروا عليه الانتصار الذي يتمتع به بطل شعبي واصبح ظاهرا ان الحزم الذي قاد به عبد المالك البلاد ربما قد يفلت من يد المنصور كما ان اوربا لم يكن لها ان تسمح ان تستمر هذه الهزيمة القاسية دون انتقام وكانت الاداة المحتملة للانتقام من قبل اوربا المسيحية هو فيليب الثاني ملك اسبانيا الذي لم يكن يفصله عن المغرب إلا عدة أميال بحرية يسيرة وكان الأتراك في الجزائر اقرب من ذلك وكانوا مازالوا يحققون على المغاربة لمقاومتهم القوية للانضمام إلى الامبراطورية العثمانية وكان المنصور الذي قد خرج لتوه من معركة ليس لديه النية في الدخول في معركة أخرى مع ملك اسبانيا فيليب الثاني الذي اعلن حالة الاستعداد بين قواته عندما علم بهزيمة ابن اخته دون سباستيان ملك البرتغال وقوات اوربا من خلفه وشحن الثغور البرتغالية لانه كان يعد نفسه قائما على ممتلكات البرتغال، كما ان المنصور كان يدرك تمام الإدراك ان القوى الصليبية الأوروبية وقد هالها وازعجتها هذه الهزيمة لا يمكن ان تترك عام الهزيمة يمر

دون الانتقام وكان تدخل الاسبان واردا في فكرة أحمد المنصور .

وبالرغم من كل هذا بدأت الوفود المختلفة من الرسل تصل إلى مراكش مهتة بالانتصار حاملة معها الهدايا وكان أولها من باشا الجزائر حيث انه ما ان استقر حكم المنصور بالمغرب حتى ارسل السلطان مراد الثالث العثماني وسائر المالك الإسلامية المجاورة للمغرب تهتة بالانتصار في معركة القصر الكبير وقد استقبل الخليفة السعدي وفود التهتة من تركيا والجزائر واسبانيا والبرتغال وفرنسا وملكة إنجلترا وسفرائهم وغيرها من الدول .

وكانت اليزابيث ملكة إنجلترا توافقه لان تواصل التبادل بالسلاح مقابل ملح البارود المراكشي فقد ارسلت سفيرا لها. وكان السفير التركي أقل الجميع نصيبا من الترحيب والود اذ ظل ينتظر المقابلة وقتا طويلا ومن هنا فان الخليفة المنصور لم يحسن استقبال وفد تركيا ولم يرد على رسالة مراد الثالث مما جعل السلطان مراد لا ينسى هذه الاهانة لان رسالة السلطان كانت بشأن تبعية المغرب للامبراطورية العثمانية كما ان هذا الاهمال والتصرف من جانب المنصور قد اثار خفيظه وحنق على علوج وزير البحر التركي .

وعلى هذا فان الخليفة المنصور لا يزال حاكما قويا مكتته بعض الاجراءات ان يظهر حزما ادى إلى تقوية مركزه قبل ان تمضي فترة طويلة على توليه حكم البلاد اصبح مركزه على العرش قويا إلى حد لم يعد هناك ما يهتم به او يخشاه ولم تكن الشؤون الخارجية اقل من ذلك اثرا اذ بدت الايام دون اى هجوم أو تحرش بالمغرب من اى جهة سوى حملة فاشلة تركية استدعاهما مراد الثالث قبل ان تصل إلى هدفها في مراكش بعد ان كان على علوج قد نجح في اغياد صدر السلطان التركي وامر بارسال حملة لمنازلة المنصور. وقد بلغ الخبر الخليفة السعدي بانه اتجه إلى فاس وشحن الثغور

واستعد للحرب وارسل هدية عظيمة إلى السلطان العثماني واعتذر عما بدر منه في حق رسول السلطان ووصول رسول المنصور إلى تركيا ونجح في ازالة النفور من صدر الخليفة فقبل السلطان مراد الثالث اعتذار المنصور وتقبل هديته وصدرت أوامر السلطان بالرجوع عن حرب المنصور وقد استطاع المنصور بحنكته السياسية وحسن تدبيره ان يحافظ على استقلال بلاده. ومن ثم فان المنصور قد ادرك ان خطر الاعتداء الخارجي الاجنبى قد أصبح اقل مما كان يظنه واصبح المنصور قادرا على ان يتمتع بثمرات النصر بتحصيله الفدية عن الاسرى والتي حاول كتاب الغرب ان يضفى عليها نوعا من الثراء الفاحش الذى ظلت خزائن المنصور الشريف تفيض بالذهب الاجنبى عدة سنين (التير والذهب كان يتحصل عليه من بلاد السودان الغربى) ولقد فاض الذهب عن حاجة المغاربة وقدمت منه عطاءات وديون للملك فرنسا والدوق انطونيو المطالب بعرش البرتغال والذى اعطى كل ما كان يريده بفضل الحاح الملكة اليزابيث ملكة إنجلترا .

ولقد اولى المنصور اهتماما بالميادين التجارية فاحتكر الصناعة وخرج من صناعة السكر كل من كان يعمل بها من غير المغاربة وقاوم التهريب واستغل ارباح السكر الذى كانت اوروبا تقبل على استيراده فى اثناء البلاد وجمع الضرائب وبعث بجنوده يجمعونها بكل نشاط .

واذا كانت بعض الثورات قد واجهته من بعض اعضاء البيت السعدى او زعماء القبائل الا ان ذلك لم ينقص من سيادة السلطان وامساكه بمقاليد الامور بحزم وقوة لاسيما وانه قام بالقضاء على ثورة الناصر الذى بدعى بالعرش فى عام ١٥٩٥م فى اقليم الاطلسى اذ انتهت ثورته بهروبه إلى اسبانيا عام ١٥٩٦م .

وقد اضاف سمة حضارية على العاصمة مراکش اذ جعل منها مدينة اكثر تقدما ورفاهية وفخامة اكثر مما كانت ايام الموحدين كما فعل اخوه الغالب من قبل، فاقام

كثيرا من المنشآت التى دعا لاقامتها مهرة الصناع والمهندسين من جميع البلاد الاسلامية وكانت حفلات استقبال السفرا الاجانب تفوق حد التصور فى فخامتها فقد استقبل عام ١٥٧٩م الامير جوان مبعوث ملك اسبانيا فى موكب ضخم وفخم حيث اصطف لتحيته المئات من حملة الحراب والفرسان على رؤوسهم القبعات المزينة بالريش الطويل وكان السلطان جالسا فى البهو على جاشية من الحرير بينما زين جدران القصر بتحف ثمينة ويحف به ثمانية من القضاة. وقد استفاد المنصور من الاتراك نظامهم الحربى فكان الجيش مكونا من اعداد الاسرى الذين كان حكام الاقاليم يرسلونهم اليه سنويا على ان يقوم رجال الجيش الاخصائيون فى التدريبات العسكرية على تدريبهم وقف قواعد عسكرية ونظامية دقيقة ويلقنونهم الولاء للسلطان وللعرش السعدى والموت دون السلطان والبلاد .

وتركز اسراف السلطان احمد المنصور الشخصى فى بناء قصر كبير متسع فخم كبير فى مراکش استخدم فيه الالاف من البنابيين والعمال والمهندسين وقدمت السفن الكثيرة تحمل من الهند اثنى مواد الشرق لتزينه وامتدته ايطاليا وايرلندا بالرخام اللازم لالاف الاعمدة حيث ذكر اليفرانى ان الايرلنديين كانوا يبادلون الرخام فى مراکش بما يوازي ثقله ووزنه من السكر واحيط القصر بحداثق واسعه تتناسب مع فخامة السلطان حتى اصبح قصر البديع كما اطلق عليه والذى اكتمل بناؤه بعد ست سنوات من المعركة (القصر الكبير) فى مظهر من الروعه والابهة التى لاتضارع لكن عند التنازع على العرش قام السلطان مولاي اسماعيل عام ١٧٠٧م بتدمير قصر البديع هذا الذى بناه احمد المنصور (ومولاي اسماعيل هذا هو المظفر بالله اسماعيل بن الشريف على الملقب بالنصر وهو من الاسرة العلوية وقد حكم البلاد فى الفترة عام ١٦٨٢ حتى ١٧٢٧م) .

وبالرغم من علاقات احمد المنصور الشريف بجيرانه ظلت علاقات صداقة الا ان الاستعدادات الحربية ظلت تشكل حاجة ملحة فالأتراك كانوا لازالوا يكتنون العداء للاستعدادات الحربية التي حالت بينهم وبين ضم المغرب الأقصى لامبراطوريتهم العثمانية والقوى الأوروبية المسيحية أعداء دائمون للإسلام لا يوثق بهم مطلقا وكان فيليب الثاني ملك اسبانيا لا يكف عن الالاحاح بالمطالبة بميناء العرائش الصغير التي تطل على المحيط الاطلسي وهو الحارس الطبيعي للطريق الغربى المؤدى إلى المضيق وكذلك كانت عيون الأتراك والفرنسيين والهولنديين ترقب بحذر أى منها يفوز بهذا الميناء فقد كانوا جميعا يتمنون الاستيلاء عليه وأكثر من ذلك فان إنجلترا كانت لديها المخطط للاستيلاء على موانئ في جنوب المغرب حيث مناطق انتاج السكر الذى كانت إنجلترا فى أمس الحاجة اليه نظرا لانه مادة تجارتها مع المغاربة .

ومن هنا فانه تحت كل هذه الظروف استمرت رغبة المنصور الدائمة فى ان يكون جيشه قويا وعلى اهبة الاستعداد دائما للدفاع عن البلاد ضد أى هجوم خارجى لاسيما وانه كان يحصل على السلاح الذى يحتاجه من الزبائث ملكة إنجلترا وهى الملكة المسيحية الوحيدة التى كانت تتحدى الحظر البابوى على التجارة مع المسلمين فى المواد الحربية وكانت أوروبا فى ذلك الوقت بناء على تعليمات البابوية تعتبر مجرد تحالف او متاجرة فى السلاح من قبل ملك مسيحي مع ملك مسلم خيانة كبرى للعالم المسيحي يستحق الملك الذى يخرق هذه الاوامر القتل ولا يعفو له ابدا من البابوية التى كانت تصدر صكوك الغفران فى ذلك الوقت لكن ملكة إنجلترا والتى كانت فى أمس الحاجة إلى ملح البارود اللازم لصنع الذخيرة والذى كان لا يوجد الا فقط عند المغاربة والتى كانت الظروف تحتم عليها التجارة مع المغاربة، قد حاولت دائما اخفاء دورها فى هذه التجارة غير المشروعة مع العالم الاسلامى ولقد تحطم جيش أوروبا بقيادة

ملك البرتغال دون سياستيان فى موقعة القصر الكبير بواسطة الاسلحة الانجليزية التى كانت ترسلها ملكة إنجلترا للمغاربة وثارت حفيظة فيليب الثاني ملك اسبانيا عندما علم بذلك واعترض بشدة عندما علم برغبة البزايث ملكة إنجلترا فى تقوية العلاقات التجارية مع السلطان السعدى احمد المنصور إلى حدان الشريف السعدى اضطر إلى رفض طلبها ترضيه لملك اسبانيا ولكن عودة التجارة كانت رغبة ملحة فى الحصول على ملح البارود. ولم يمض وقت طويل حتى علمت اسبانيا والعالم المسيحي ان المغاربة يحصلون على حاجتهم من السلاح والمدافع والسفن الحربية واشترعتها وخشب السفن من إنجلترا التى توسعت فى تجارتها مع المغاربة .

ولما احس احمد المنصور بقوة نفوذه فى البلاد فقد عمل على اختيار ابنه محمد الشيخ وليا للعهد خلفا له من بعده ليكون خليفة البلاد فاثار ذلك سخط ابن اخيه الذى من ام تركية وهو داود بن عبد المؤمن الذى كان والده يحكم تلمسان من قبل الأتراك وكان له دور كبير فى عودة عبد المالك إلى عرش المغرب لاسيما ان أباه كان رفيق المنصور فى رحلته إلى الجزائر او تركيا فقام بثورة ضد عمه على الرغم من قيام ابيه وهو نفسه بخدمات لعبد المالك والمنصور لكن المنصور استطاع القضاء على ثورته عام ٩٨٨ هـ وانتهى امر ثورته، كذلك فان المنصور ارسل حملات حربية إلى عرب الخلط نظرا لخروجهم على الشرعية فى مراكش وتكل بهم وقضى على ثورة بلاد غمارة كذلك كانت اخطر الثورات ثورة ابن اخيه الناصر بن عبد الله الغالب شقيق محمد المتوكل وثورة ابنه وولى عهده محمد الشيخ حاكم مدينة فاس وكان وراء ثورة الناصر ملك اسبانيا فيليب الثاني الذى كان يؤيده ويقدم له كل عون ممكن، لكن المنصور استطاع القضاء على هذه الثورة عام ١٠٠٥ هـ .

وقد برزت في عصر المنصور اهم النظم الادارية اذ انه اعتمد في ادارة البلاد على مجلس الشورى الذى كان يتكون من اثنى عشر عضوا يتم اختيارهم من عليه القوم وكبار رجال الجيش والقصر وحكام الاقاليم ويتلخص هذا النظام فى انه جعل الحكومة السعدية الشريفة مكونة من اتحاد القبائل يديرها جهاز حكام وهى التى توزع الارض وتفرض الضرائب وتتكون من الوزراء ورجال القصر والحكام وسادت البلاد مظاهر التحضر فى مختلف مرافق الدولة ومجالاتها، كما ان المنصور قد انشأ الكثير من المدارس ومعاهد العلم والمستشفيات والقناطر والحصون والقلاع والطرق وفى عهده تم تأسيس العديد من المدن وتوسعه القديم منها وازدادت احياء جديدة اليه فى شتى انحاء الامبراطورية المغربية .

وبعد عصر المنصور من أعظم عصور الحكام السعدين لما قام به وفعله طوال مدة حكمه التى امتدت اكثر من ستة وعشرين عاما مما ساعده على ان تكون المشروعات متكاملة نظرا لطول فترة حكمه ولقد ازدهرت العلوم والفنون والثقافة والحضارة وترك مظاهر حضارية امتدت بعد فترة حكمه على مدى سنين طويلة .

لكن رغم هذه الانجازات الا ان التداخلات الخارجية فى شئون المغرب ومحاولة النيل من البلاد وحاكمها الشريف احمد المنصور لم تتوقف فالأتراك من جانبهم لا ينفكون يساعدون احد امراء البيت السعدى كلما لاحت له الفرصة فكما ساعدوا ابن اخيه اسماعيل بن عبد المالك فى المطالبة بالعرش فانهم هذه المرة يدفعون ابنه وولى عهده محمد الشيخ وربما كانت هناك جهات اخرى تساعده ولقد كانت ثورة محمد الشيخ من الخطورة ولقد قدر لهذه الثورة النجاح نظرا للمساعدة الكبيرة التى قدمها الأتراك له ومحاولة تدخلهم فى شئون المغرب لاسيما وان محمد الشيخ لم يكن محبوبا من عامة الشعب ورجال الحل والعقد نظرا لانه لم يكن يسلك السلوك

الاسلامى فقد قام بوضع السم لوزير ابيه ابراهيم السيفانى، ولم يكثرث باوامر ابيه المنصور حول ضرورة التوجه اليه فى فاس وتوجه إلى تلمسان للاستعانة بالأتراك وبلغها فعلا، لكن الابن كان يريد عرش المغرب بعد ان توسع حكمه فبلغ سجلماسة ودرعه وفاس ومعظم الاقاليم الجنوبية ولما رأى المنصور ان شوكة ابنه قد باتت تهدد العرش ونظام الحكم فى البلاد خرج اليه سرا فى قوة مكونة من اثنى عشر جنديا وقبض عليه فى فاس واودعه سجن مكناسة وانتهت ثورة محمد الشيخ المامون عام ١٠١١هـ / ١٦٠٢م وقبل وفاة المنصور بستة اعوام (توفى المنصور عام ١٦٠٨م) .

كذلك فان اسبانيا فى عهد فيليب الثانى كانت ترى خطورة كبيرة على امنها فى قوة احمد المنصور الشريف لاسيما ان الاسلحة كانت لاتزال تصل اليه من انجلترا رغم القرارات البابوية بمنع التجارة فى السلاح مع الدول الاجنبية (الاسلامية) لذا فانه عمل على شغل المنصور عن التفكير فى مساعدة المورسكين الاندلسيين او التعاون مع انجلترا بشأن ولى عهد البرتغال والصراع بين الكاثوليك والبروتستانت فاطلق سراح المنصور بن عبد الله الغالب وامدة بالسلاح والعون والرجال وشجعه على القيام بالثورة والقضاء على الحكم فى البلاد .

وقد كان هذا التدخل ردا على مساعدة المنصور للملكة انجلترا اليزابت والمطالبة بعرش البرتغال بعد ان ضم ملك اسبانيا البرتغال لملكه بعد معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وبالتحديد عام ١٥٨١م ولكن احمد المنصور استطاع اخضاع ثورة الناصر بعد ان اشتعلت فى البلاد المغربية طوال اكثر من عامين والصراع على اشد، ولكن يتنازل ملك البرتغال عن مدينة اصيللا جعلت المنصور يبتعد عن مؤازرة ملكة بريطانيا وولى عهد البرتغال المطالب بالعرش البرتغالى (دون انطونيو) وكانت سياسة المهادنة مع القوى الخارجية وبخاصة الدول المسيحية قد حققت للمنصور الكثير من الاستقرار والمكاسب

مما جعله يفكر في التوسع جنوبا في بلاد السودان واكتساب الصحراء وذلك بعد ان تعلل المنصور بضرورة الجهاد جنوبا لقطع الطريق على البرتغاليين والاسبان والقوى الاوربية الاخرى التي بدأت تتدخل في السيطرة على افريقيا وبعد ان تعذر العودة إلى الاندلس مرة اخرى ومساعدة المسلمين الاندلسيين في استعادة حقوقهم وكان المنصور على حق لمحاصرة المد المسيحي في افريقيا وليس منعلا بذلك الهدف فهو على حق كل الحق في ارسال حملاته العسكرية إلى بلاد السودان لمنع محاصرة الدول الاوربية له من الجنوب لاسيما وان الاسلام قد انتشر وتوسع في حوض نهر النيجر حيال مملكة سنغاي ومالي وبعض الامارات الاسلامية الاخرى كامارات بلاد الهوسا السبع وبرنو وكانم وغيرها من الامارات الاسلامية التي كانت ترتبط بعلاقات اقتصادية وثقافية ودبلوماسية مع بلاد المغرب فمن هنا عملت مراكز على نشر الثقافة الاسلامية منها وانتشرت مع حركة الاسلام الواسعة في هذه الانحاء معظم الحضارة العربية الاسلامية (انظر سلطنة البرنو الاسلامية رسالة ماجستير للمؤلف، ١٩٧٥) (السياسية الخارجية لسلطنة سنغاي الاسلامية، رسالة دكتوراه للمؤلف، ١٩٨٣).

كذلك فان المنصور وقد كان يرى انه القرشي كريم الدوحة النبوية الفاطمية العلوية الحسينية احق بالخلافة الاسلامية في العالم الاسلامي كله مشرقا ومغربا دون الاتراك العثمانيين العجم ومن هنا كانت انظاره تتجه إلى بلاد الشرق للدعوة بخلافته وكسر الطوق الذي تحاول الخلافة التركية العثمانية فرضه حوله لمحاولة احتوائه كبقية بلاد المغرب الاسلامي ولذلك فان المنصور احمد لم يكتف بما وصلت اليه دولته من اتساع في بلاد السودان الغربي انما اتجه نحو بلاد الشرق الاسلامي لمناوأة الاتراك والدعوة للخلافة السعدية التركية لانه كان يرى انه اولى بالخلافة الاسلامية بدلا من سلاطين الاتراك نظرا لانهم من الاعاجم وليس لهم سلالة وصلة بالنسب العربي او

القرشي او الهاشمي وارسل احمد المنصور رجاله داعين له للتبشير بخلافته إلى بلاد الشام والحجاز ومصر ولتوثيق علاقاته مع رجال الدين في هذه البلاد وعلمائها وكذلك بعض البيوتات (بيوت) المشهورة المعروفة والشخصيات البارزة في المجال السياسي والديني في الشرق الاسلامي وبصفة خاصة في الديار المغربية حيث راسل العديد من المشايخ لاسيما وان المنصور منذ فتح بلاد السودان الغربي (سنغاي) قد بدأ يفكر في وضع يده على الطرق التجارية الرئيسية في افريقيا وخاصة مع بلاد برنو والهوسا والكانم وغيرها من السلطنات لكن الاحداث الداخلية والمؤمرات التي ايدها الاتراك وفيليب الثاني ملك اسبانيا ضد الدولة السعدية جعلت المنصور يكون مشغولا عن تنفيذ افكاره بالنسبة لبلاد المشرق ويتجه لمحاربة المؤامرات التي دبرها ضده ملك اسبانيا، ومن ثم اتجه إلى اقامة تحالف وعقد معاهدات مع ملكة انجلترا اليزابث ضد اسبانيا لاسيما بعد تحطيم الاسطول الاسباني مع معركة الرمادا لغزو اسبانيا في عقر دارها وفعلا كاد ان يتم هذا التحالف بين انجلترا والمغرب الاسلامي لولا ان اليزابث ملكة انجلترا وهي الملكة المسيحية (٥٥٧هـ-١٦٠٢م) لا يمكن ان تكون السبب في تمكين حاكم مسلم مهما كانت درجة صداقته وتعاونه ومهما تكن الاسباب وتسمح له باحتلال بلاد مسيحية لان ذلك خيانة كبرى في عرف العالم الغربي المسيحي في حين كان ذلك العكس بالنسبة لبعض الملوك الذين كانوا يستعينون بحكام الغرب المسيحيين لاحتلال بلادهم بطرد حاكم ووضع حاكم آخر بدلا منه.

ومن هنا يجب ان نلاحظ سلوك حكام المسيحية وسلوك حكام المسلمين في الاستعانة بالمسيحيين على حساب الاتراك المسلمين اخوانهم في العقيدة من اجل البقاء في الحكم او الاستيلاء على مقاليد البلاد نظير التنازل عن ديار الاسلام للملوك المسيحيين في اوربا.

ولكن انجلترا بدلا من ان تساعد احمد المنصور على غزو اسبانيا والعودة بالمسلمين إلى ديارهم رأت ان توجهه وجهة اخرى بعيدا عن اسبانيا والغرب وذلك بان يقوم المنصور بغزو مستعمرات اسبانيا في العالم الجديد وافريقيا وبلاد الشرق الاقصى بدلا من غزو اسبانيا نفسها وكذلك كانت ثورة ابنه محمد الشيخ سببا في عدم تفكيره في الغزو الخارجى حيث مات بعد القضاء على ثورة ابنه .

وكانت العلاقات التركية المغربية وقد تحسنت تحسنا ملحوظا في عهد احمد المنصور واستمرت الرسائل متبادلة وازاء تحسن العلاقات فان احمد المنصور وجد الفرصة سانحة امامه للانطلاق بسياسته الخارجية واعادة علاقاته مع الاسبان للحصول على مكاسب له بعد تدخله في قضية العرش البرتغالى وكانت مسألة الاتراك وآمن خطرهم عاملا قويا في ممارسة سياسة التوسع في بلاد السودان الغربى .

لكن يقع على التوجه السياسى التركى بعد معركة القصر الكبير يقع عليها العبء الاكبر فى عدم استفادة المغرب من انتصاره الكبير اذ ان العلاقات المغربية التركية لو كانت بالصورة السوية العادية لحقق المغرب مكاسب كثيرة من جراء هذا الانتصار ومنه اولا تحرير الثغور المغربية المحتلة ولكنها لم تكن متعاونة ومتضامنة، وكانت حالة الحرب الطويلة بين الاتراك والفرس عاملا قويا فى درء خطر الاتراك عن المغرب حيث كانت هذه الحروب منهكة للقوى التركية حتى اصبح من الواضح انه لا خطر على البلاد من قيام مغامرة تركية جديدة لغزو بلاده، كذلك فان عرش اسبانيا والبرتغال لم تكن لهما الخطورة التى كان يظن فيها المنصور احمد لاسيما ان اسبانيا تواجه الثورة فى الاراضى الواطئة (المنخفضة) هولندا وكذلك واجه فيليب الثانى ملك اسبانيا الحرب مع اليزابث ملكة انجلترا. لذا لم يكن احمد المنصور يخشى اسبانيا اكثر من الاتراك .

ازاء كل هذه الاحداث لاسيما انه عقد حلفا مع اسبانيا وملك فارس (ايران) ضد تركيا فانه وجد نفسه لا بد ان يحقق حلمه فى تكوين امبراطورية مغربية واسعة ولانفاذ اخوة الاسلام جنوب الصحراء الكبرى من الوقوع فى قبضة القوى الاوربية المستعمرة التى اتخذت لها مراكز على ساحل افريقيا الغربى وصولا إلى جنوب افريقيا ولمنع حصاره من الجنوب وبناء خلافة اسلامية فكان مخططه من اجل استخدام جيشه لغزو بلاد السودان الغربى وان يستولى على هذه الديار ويقيم كيانا اسلاميا واحدا تحت رايته الشريفة القرشية حيث كان هو الوحيد الذى يحق له استخدام لقب امير المؤمنين وليس الاسكيا داود واسحق اسكيا سنغاي الذى تلقب بلقب امير المؤمنين ولم يكن وراء هذا الغزو كما حاولت كتب الغرب ان تصور الغزو من اجل جلب ثروة الذهب والوصول إلى مصادر هذا المعدن النفيس او تجارة الرقيق لكن المنصور صمم على الوصول إلى بلاد السودان وكانت مخاطرة جيش المغرب فى اختراق الطرق الصحراوية الصعبة حيث كانت فى فكر العديد من رجال الحكم والمجلس الاستشارى المغربى ان الغزو لهذه البلاد البعيدة التى لم يفكر احد من رجالات الحكم السابق فى الدولة المرابطية او الموحدية او المرينية او الفتوحات الاسلامية الوصول إلى تلك الديار حيث ارسال حملة كبيرة لم يكن الا نوعا من الجنون الذى لاطائل وراءه سوى اهلاك القوات المغربية عبر الطرق الطويلة الصعبة الاختراق وحيث المسافات البعيدة الطويلة وقلة المياه وندرتها وعدم وجود المحطات التى تتوقف عندها الحملة للراحة والتزود بالطعام والماء، لكن المنصور كان قد فكر فى المخاطرة واعد لها عدتها ووزنها وقدر كل حساباتها وتم اختيار قائد هذه القوات وتم الاعداد والتجهيز واختيار عناصر الحملة وتم حشد المؤن والعتاد واختيار الادلاء الذين خيروا الطرق الصحراوية ووصلوا إلى بلاد سنغاي من قبل وكان لهم اتصال بسكانها وسلاطينها وتجاروا من قبل معها وعرف مخاطر الطرق وكيفية التغلب عليها وملاقة الصعاب واختيار المخاطر واعد للامر عدته واتخذت

الخطوات الفعلية لانطلاق الحملة إلى غاياتها المرسومة التي لم يكن بد من المجلس الاستشاري ان يوافق على خطة احمد المنصور لغزو بلاد السودان الغربى (سنغاي) فكانت حملة احمد المنصور السعدى لغزو بلاد سنغاي الاسلامية جنوب الصحراء الكبرى وقيام كيان اسلامى كبير يشمل هذه البلاد .

الفصل الخامس

احمد المنصور الذهبى وفتح بلاد السودان الغربى
«سلطنة سنغاي الاسلامية»

انتشر الاسلام فى بلاد جنوب الصحراء الكبرى منذ القرن الاول الهجرى بل ان هناك اقوال تذكر ان عقبة بن نافع القهرى عام ٥٠ هـ قد وصل جنوبا حتى وادان، لكن الانتشار الواسع والمكثف للاسلام كان فى القرن الثالث الهجرى حيث بدأت تظهر امارات اسلامية بالقرب من نهر السنغال ونهر النيجر وكان رجال الطوارق البربرية يتقدمون جنوبا فى هذه المناطق للتجارة والرعى مما ساعد على انتشار الدين الاسلامى واعتنقه السواد الاعظم من سكان تلك المناطق وظهرت سلطنات اسلامية (اودغست، غانا، مالى، كانم، برنو، الهوسا، كيبى، سلطة برنو الاسلامية، رسالة ماجستير للمؤلف عام ١٩٧٥ جامعة القاهرة) ومن ثم بدأت هذه البلاد تتطلع إلى بلاد المغرب للاتصال بها حيث ان الطرق الصحراوية لم تكن تشكل عائقا يمنع وصول حركة التجارة والنقله والترحال والتبادل التجارى والثقافى والعلمى .

ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وبداية القرن السادس عشر ظهرت حركة الكشف الجغرافية وما قامت به البرتغال واسبانيا فى هذا المجال واحتلال العديد من الثغور المغربية على ساحل البحر المتوسط والمحيط الاطلسى تامينا للوصول لبلاد القارة الافريقية ووصولا إلى بلاد الهند ومحاربة الاسلام والبحث عن مملكة الملك يوحنا الموجودة فى قلب افريقيا (الحبشة) للاتصال بها وعقد معاهدات معها لحصار البلاد الاسلامية وكانت فكرة الاستيلاء على بلاد غرب افريقيا والتوسع للداخل ووصولا إلى مناطق الغابات بدلا من الارتكاز فى الساحل وحصار البلاد المغربية من الجنوب لاسيما بعد الانتصار الكبير الذى احرزه المغاربة فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨ م على

الجيش البرتغالي .

فكانت فكرة المنصور في كسر الحصار من حوله والدخول إلى هذه الديار قبل ان تمتد إليها يد الاوربيين رجال الاستعمار نهبا لمواردها وقطيعه لاهلها مع اخوانهم سكان المغرب وبقية بلاد العالم الاسلامي (قطع الاستعمار كل صلة مع هذه الاقطار وبلاد العالم الاسلامي عندما احتلها وسيطر عليها) .

ولقد ارتبطت اكبر هذه السلطنات واهمها في القرن السادس عشر الميلادي وهي سلطنة سنغاي (راجع رسالة الدكتوراة للمؤلف بعنوان السياسة الخارجية لسلطنة سنغاي الاسلامية ١٩٨٣) ولقد كان الاتصال مع بلاد المغرب يتم عبر الطرق الصحراوية. وقد اتصل سلاطين سنغاي (تقع على ثنيه نهر النيجر وتمتد غربا حتى المحيط الاطلسي) بسلاطين المغرب وخاصة خلفاء الدولة السعدية بعلاقات من المودة والصداقة. بل ان هذه العلاقات السودانية المغربية ترجع إلى عهد بعيد ذلك لان شعوب المغرب كانت اكثر الشعوب الاسلامية اتصالا بسنغاي وبقية بلاد السودان الغربي ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وبداية السادس عشر وقعت احداث خطيرة بين السعدين في مراكش وسلاطين سنغاي جعلت السعدين ينظرون إلى سلاطين سنغاي بعين الريبة والشك وخاصة بعد ان اتخذ الاسكيا محمد الكبير لقب امير المؤمنين فقد كان هذا مصدر ازعاج للسعدين الذين كانوا يرون ان هذا اللقب حق لهم وحدهم في المنطقة لانهم سلالة الدوحة النبوية الشريفة وليس في افريقيا والمغرب وبلاد السودان ولكن في كل العالم الاسلامي فهم احق بها من الاتراك العثمانيين لانهم عرب اشراف وان اتخاذ الاسكيا لهذا اللقب منافسة لهم في الزعامة الروحية في افريقيا وانه بذلك يتحدى مركزهم الروحي والسياسي، بل انهم كانوا يرفضون الدعاء للسلطان العثماني بالخلافة ومن ثم اعتبروا حاكم سلطنة سنغاي الاسلامية معزولا شرعيا ما لم يوافق في

الدخول في طاعتهم والاعتراف بخلافتهم القرشية .

لذا فان العلاقات بين البلدين بدأت تسوء منذ عهد السلطان السعدي الثاني احمد الاعرج والاسكيا اسحق الاول سلطان سنغاي (١٥٤٣ - ١٥٤٩م) وقد يكون هذا هو جوهر الخلاف وليس الذهب ومصادرة تكوين امبراطورية ونهب ثروات بلاد السودان التي كان دائما يروج لها كتاب الغرب المعادون لادنى تقارب اسلامي او تكوين وحدة اسلامية ويؤولون هذا التقارب بما يروق لهم. وتحقيق اهدافهم ويباعد بين بلاد الوطن الاسلامي الواحد لكن مراسلات تمت بين السلطان احمد الاعرج وبين السلطان اسحق وكان هذا اول اتصال مباشر بين سلاطين المغرب السعدين وسلاطين سنغاي في عهد اسرة الاساكى ومن هنا فقد جرى تبادل الوفود حين اختلاف المصالح مراعاة للاخوة الاسلامية والشعور الاسلامي، لكن السعدين كانوا في حقيقة الامر يسعون ايضا إلى بعض الموارد المالية لمواجهة الاخطار التي تحدد بالبلاد لاسيما ان السلطان احمد الاعرج كان لم يفرغ بعد من تصفية مشاكله مع بنى وطاس حكام المغرب والامارات المستغلة والجيوب الاستعمارية الايبيرية في المغرب وكان لايزال يحكم في بلاد الجنوب حيث مملكة السوس قبل دخول فاس لذا نجد احمد الاعرج السلطان الثاني في سلسلة سلاطين البيت السعدي يكاتب الاسكيا اسحق الاول في ان يسلم له ملاحات تغازه وكانت ملاحات تغازه هي المصدر الرئيسي للملح الذي تحتاج اليه بلاد السودان وكان في هذه المنطقة مخزن كبير للملح يحفر اليه وهو هنا ائمن من الذهب والمرمر وكان الملح يحمل على جمال إلى مدينة تمبكتو حيث يباع وزن الملح بوزنه ذهباً واحيانا اكثر من وزنه، وبالرغم من أن تغازه بعيدة عن السودان وقرية من مراكش ولم يكن يحكم فاس او مراكش يسيطرون عليها لان قبيلة مسوفة البربرية هم المسيطرون عليها وكانوا تابعين لسلطنة سنغاي الاسلامية، لكن احتلال تغازه كان بالنسبة

للمغاربة يعطيهم قدرا من التحكم في اسواق الذهب ومن هذا كان ملح تغازه السبب الثاني بعد سبب الخلافة في التدخل المغربي في بلاد السودان اضافة إلى تكوين امبراطورية اسلامية ودرءا الخطر الاوربي عن ديار الاسلام والمسلمين .

لذا فاننا نجد في عام ١٥٤٦م ٩٥٣هـ حاول محمد الشيخ والد المنصور ٩٥١- ٩٦٥هـ أن يحمل اسكيا اسحق سلطان سنغاي على ان يتنازل عن مناجم الملح لكن الاسكيا اسحق رفض الطلب للمرة الثانية بعد ان رفضه لاختيه احمد الاعراج ولكن محمد الشيخ كان قد فرغ من حروبه الداخلية واستقر له امر المغرب فانه وجه اهتمامه إلى ما يدور على حدود المغرب الجنوبية والتي كان في نظره انه يجب على الاسكيا سلطان سنغاي ان يتنازل عن ملاحات تغازه لصالح المغرب على اعتبار انها اقرب للمغرب منها إلى بلاد السودان لكن هذه المرة كان رد سلطان سنغاي التحدي لسلطان المغرب اذ تمثل في ارسال سرية من جنود الطوارق وامرهم بالاغارة على درعه حتى يصلوا إلى اسوار مراكش ان تمكنوا من ذلك وان يصلوا إلى سفوح جبال اطللس في المغرب ثم إلى سجلماسة وامرهم ان يسلبوا منها اكبر ما يستطيعون وان يصعدوا حتى ابواب مدينه مراكش اذا امكنهم ذلك. ولكن المغيرين لم يتجاوزوا درعه وبالرغم من انهم سببوا خسارة جسيمة فانهم كانوا حريصين على ان لا يقتلوا احدا ويبدو ان اسحق قد امر بهذا الامر غير العادي لانه لم يرغب في ان يثير حربا مع الشريف السعدى ونجح في ذلك .

وبعد عشر سنوات جاء انتقام مولاى محمد الشيخ قاسيا وشديدا فقد اوعز إلى قائدة الفلالى الزبيرى ومره ان يقتل حاكم تغازه فقتله مع الطوارق الذين كانوا يقدمون باستخراج الملح من تغازه ومن ثم فقد اختار سلطان سنغاي مكانا آخر غير تغازه لاستخراج الملح بدلا من تغازه يسمى تغازه الغزلان .

وبالرغم من ان المغاربة لم يكن لهم سبب للخوف على تجارتهم مع السودان من التوقت فان امتلاك تغازه كان يعطى المغاربة التحكم في مصدر الملح والحصول على كميات كبيرة من الذهب .

وعندما ارتقى احمد المنصور الشريف عرش المغرب عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م كان اسكيا اسحق لايزال حيا لكن اسكيا داود خلفه بعد ذلك بقليل وكان قدر المغاربة قد وصل إلى القمة بعد انتصارهم الباهر في معركة القصر الكبير وكان على المنصور ان يولى امر ملح تغازه اهمتاما اكبر بعد ان فرغ من قتال النصارى واخذت أوضاع المغرب الداخلية والخارجية تعرف نوعا من التحسن والاستقرار وثم الصلح مع الاتراك وذلك عن طريق السفارات والهدايا وكذلك امن جانب الاسبان وخطرهم فوجه اهتمامه إلى بلاد السودان بعد ان أصبح التوسع في البلاد المجاورة امرا بعيد المنال وفي ذاكرته، كان محمد الشيخ والدة قد سبقه اليه وهو التوسع جنوبا واحتلال مواقع استراتيجية هامة في الصحراء المغربية تشهر بواحاتها ومعادنها واهميتها في المواصلات ومن ثم يتم اتخاذ هذه القواعد نقاط ارتكاز للتوسع فيما جاورها من بلاد السودان ولتأسيس امبراطورية مغربية في هذه الانحاء وضم الديار الاسلامية في وحدة واحدة .

ورأى الخليفة المنصور ان الامر يستحق محاولة القيام ببعض الخطوات في هذا الشأن فاقترح على الاسكيا داود حاكم سنغاي ان يترك له ملاحات تغازه عام واحد ولعل الاسكيا ادرك قوة سلطان المغرب وانه قادر على احتلال تغازه فانفق معه على ذلك ووضعنا اساس علاقات صداقة بين الدولتين .

وكان الشريف المنصور عندما صعد لحكم بلاده لايزال شابا نشيطا طموحا نظم المملكة وكان من أهم انجازاته انه نظم الجيش المغربى وزوده باحدث الاسلحة وتدريبه على احدث اساليب القتال وتحت كل الظروف استمرت رغبة المنصور في المحافظة على

جيشه دائما على اهبة الحرب والاستعداد ويزوال الخطر الاجنبى كان الشريف المنصور يخطط من اجل استعمال جيشه فى عمليات عسكرية جديدة فصمم ان يغزو السودان واستخدم اولا اسلوب الدبلوماسية والمهادنة فارسل سفيرا له إلى السلطان الجديد الحاج محمد خليفة داود يحمل معه هدايا ثمينة فقبول السفير المغربى بحفاوة كبيرة ورد بهدية قيمة. ولقد اعتقد سلطان سنغاي انها مجرد استطلاع حربى والوقوف على حالة البلاد وهكذا كان التمهيد للغزو بالطرق الدبلوماسية، ولقد كان السلطان السودانى يعمل على عدم الصدام مع المغرب ويرى ضرورة مسالمة المغاربة مهما كلفه ذلك من ثمن، لكن الخليفة المنصور السعدى كان قد عقد العزم على تجهيز القوات لفتح واحات قوات وتكورارين على ان تكون محطات ينطلق منها الجيش المغربى لفتح بلاد السودان وهكذا بدا رسم خطة غزو السودان بعد احتلال هاتين الواحتين وبعد ان جرب امكانية تحرك اعداد كبيرة من القوات عبر الصحراء. وقد كانت هذه الحملة هى الغزوة الأولى لفتح السودان .

وجاءت الخطوة الثانية بعد وفاة السلطان داود صديقه فى عام ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م والذي كانت تربطه روابط حسنة بالمنصور فارسل المنصور وفدا إلى جاو عاصمة البلاد عام ٩٩١هـ / ١٥٨٣م ومعه هدية قيمة ولتقديم واجب التعازى وتهنئة السلطان الجديد ثم الاطلاع على احوال البلاد كلها، ودار الحديث حول ملاحظات تغازة لكن سلطان سنغاي اكد للوفد المغربى عدم تنازله عن ملاحظات الملح فى تغازة .

وانه لم يطل الوقت بعد عودة سفير المنصور إلى المغرب حتى وصلت الاخبار إلى عاصمة بلاد السودان عن جيش مغربى قوامه عشرين الف خرج يقصد بلاد السودان وان قائده قد امر ان يتبع طريقا دائرية عبر وادان فى جنوب شرق موريتانيا ومنها إلى بلاد السنغال ليستولى على كل المدن التى يستطيع الاستيلاء عليها ثم يهاجم تمبكتو

اكبر المدن فى سنغاي بعد ان كان المنصور قد قرر ان يحسم النزاع عسكريا لاحتلال الملاحظات المذكورة ومهد لذلك بالسيطرة على جميع المناطق الصحراوية الساحلية الممتدة من سوس إلى بلاد السودان واصبحت ظروف المنصور بعد السيطرة والتحكم فى المنفذين درعة شمالا ونهر السنغال جنوبا وقد تمكنت الحملة من المنافذ والطرق المؤدية اليها نحو بلاد السودان خبر مشجع ومساعد فى آن واحد على رسم سياسة توسعية بالسودان وخاصة ان حكام السنغاي قد رفضوا كل تفاهم حول ذلك الموضوع وهو ملاحظات تغازة التى كانت حجة المنصور الظاهرة، فى حين كان بناء وحدة اسلامية قوية هو السبب غير المعلن حتى لايتعرض لمخاطر من جانب القوى الاوربية التى تعارض كل تقارب اسلامى منذ ذلك الوقت .

لذا وجه المنصور قوة عسكرية قوامها مائتا جندي مسلحين بالعتاد النارى الحديث لاحتلال تغازة وساعدت الظروف السلطان السعدى لتحقيق هدفه بوصول احد افراد الاسرة المالكة فى سنغاي وهو الامير على بن داود الذى يطلب مساعدة المنصور فى الوصول للحكم وطلب منه مساعدته العسكرية ضد اخيه الاسكيا اسحاق وكتب لذلك طلبا يطلب فيه كتابة من أمير المؤمنين الخليفة السعدى يرغب فيه امداده بالعساكر ليعود إلى عرشه بسنغاي لانه احق من اخيه اسحاق وكان المنصور قد مهد لمشروع الغزو بعدم تدخل سلطان برنو اثناء قدوم رسول تلك السلطنة إلى المغرب عام ٩٩٠هـ - ١٥٨٢م بطلب العون من الخليفة المنصور (سلطنة برنو الاسلامية، رسالة ماجستير للمؤلف غير مطبوعة، جامعة القاهرة ١٩٧٥م) واعترف امير برنو بسلطة المنصور على الصحراء، وارسل المنصور إلى سلطان سنغاي يطالبه بالدخول فى طاعة الخلافة المغربية الشريفة اسوة بسلطان برنو واطلعه على طلب اخيه على بن داود الذى يطلب المساعدة العسكرية وفى هذه المراسلات اخذ يلوح له بامكانية مساعدة اخيه على الذى هو مستعد

لاعلان طاعة المنصور والاستجابة لمطالبه عند عودته إلى عرش سنغاي بدلا من الحاكم الحالي اسحق بن داود .

والذى يطلع على ما بذله المنصور فى الطريق السلمى وارسال صورة طلب على ابن داود بالمساعدة العسكرية يدرك تمام الادراك ان الهدف لم يكن طمعا فى ذهب او تكوين امبراطورية انما كان اعلانا بالطاعة والدخول فى ظل الخلافة السعدية الشريفة والانطواء فى وحدة اسلامية وان يكون هذا الاعتراف اسما كما فعل امير برنو الذى لم تذهب الجيوش السعدية لاحتلال بلاده، لكن هكذا يحاول مؤرخو الغرب الاساءة إلى كل عمل اسلامى من شأنه ان يقوى روح الاسلام ويعمل على تضامن المسلمين ووحدتهم وتصوير الفتح من اجل السلب والنهب والحصول على الذهب والرقيق، تلك هى فريتهم على الاسلام فى كل للعصور اذ لماذا ارسل المنصور كل هذه الرسائل ما دام يريد ذهباً ورقيقاً، انه كان يريد قيام وحدة اسلامية ومنع وقوع هذه البلاد فى قبضة المحتلين الغربين ذلك وان دخول هذه البلاد فى ايدى السعدين قد آخر استعمار الاوربي لاكثر من قرنين من الزمان حتى ضعفت السلطة السعدية فى هذه البلاد فوقعت فريسة فى ايدى القوى الاوربية الاستعمارية لاسيما الفرنسية والانجليزية ولقد تضافرت العديد من الاسباب لتساعد المنصور وتقنعه بارسال جيشة وقواته إلى هذه البلاد بعد ان فشلت جميع المحاولات لاطواء سنغاي تحت الولاية السعدية والاعتراف بدخولها فى طاعة الخليفة احمد المنصور السعدى .

ولكى يكسب حملته صفة الشرعية فانه استند إلى فتاوى العلماء المغاربة الذين اجازوا له التدخل حماية للاسلام وصونا للاراضى الاسلامية وعملا على الوحدة الاسلامية، كذلك فانه قام باستشارة عالمن كبيرين من علماء مصر هما ابو عبد الله محمد بن يحيى الشهير ببدر الدين القرافى والامام العارف بالله ابو عبد الله محمد

الشيخ ابى الحسن البكرى، من كبار علماء مصر فى هذا الوقت وقد اجازا له القيام بالحملة لفتح بلاد السودان وتوحيد البلاد الاسلامية فى ظل الخلافة السعدية الشريفة لذلك دعا الخليفة السعدى رجال دولته والوزراء والحكام وزعماء القبائل الكبيرة إلى اجتماع لكى يحصل فيه على موافقتهم على القيام بالحملة التى ينوى القيام بها فاخبرهم انه قرر ان يهاجم بلاد السودان من اجل ان يوحد قوة الاسلام تحت قائد واحد وخلافة واحدة ففتح السودان الغنى لكى يعطى القوة لجيوش الاسلام وفى ذلك رفع لروح المسلمين الحقيقية وكذلك قال لهم ان اسكيا اسحق صاحب سنغاي ليس قرشياً فليس له الحق فى ان يأخذ لقب امير المؤمنين او خليفة وقد ذكر لهم المنصور ان استغلال امكانيات وخيرات بلاد السودان سيدفع حركة الجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الله وصد اعداء الاسلام ولانقاذ الاندلس وارجاعها إلى خطيرة الاسلام والمسلمين ولكى يستطيع المنصور ان يقوى جيشه ويمده بالاسلحة الحديثة والاستكثار من بناء السفن الحرية اللازمة للاسطول لغزو العدو فى عقر داره بالاندلس ذلك لان المنصور كان يرى ان الاسلام فى بلادهم فى خطر وان الجهاد اصبح واجبا مقدسا على المسلمين وان الدور العظيم للدولة السعدية لايقف عند حد التصدى للقوى البرتغالية والاسبانية والتركية او عند حد تصفية بعض الجيوب المستعمرة فى بلاده انما يتعداها إلى تحطيم الحزام الصحراوى والوصول بنجاح إلى منحى ثنية نهر النيجر ووضع يده على سنغاي وفى اثناء عرض هذه القضايا ابدى بعض المستشارين بشكهم فى نجاح الحملة بحجة صعوبة اجتياز الصحراء وعدم تفكير اية دول من الدول المغربية السابقة فى غزو السودان، لكن فى النهاية وافق الجميع على فكرة المنصور. وقد اقنع المنصور الجميع بتفوقه العسكرى وما يتوافر لجيش المغرب من اسلحة حديثه وذلك عكس ما كانت عليه الدول المغربية السابقة ومن ثم استطاع اقناعهم بفكرة الغزو لانه كان يعمل على نشر لواء خلافته القرشية الهاشمية على العالم الاسلامى ومن ثم كان يسعى لتوحيد مسلمى

غرب افريقيا ولجمع كلمة المسلمين بهذه البلاد وتوحيد قواهم للوقوف صفا واحدا امام الهجمات الخارجية التى يمكن ان يقوم بها الاسبان بصفة خاصة او غيرهم من الاوربيين الذين كانوا يتربصون الدوائر ببلاد السودان ذات السواحل الاستراتيجية التى تتحكم فى طريق الهند البحرى .

ومن هنا فقد أخذ المنصور فى الاستعداد للغزو واهتم بنفسه شخصا بالاشراف على ما تتطلبه الحملة من وسائل ومعدات والاستعداد لهذه الحملة القوية بصفة خاصة ووضع الامكانيات الضخمة التى كان المنصور يتوفر عليها، لذا فانه قدر صعوبة الصحراء وكفاءة القوات وان القوات الصغيرة ذات الكفاءة العالية والتجهيزات الكاملة اقدر فى الوصول إلى سنغاي لاسيما وان اسلحة المغاربة افضل وخاصة فى الاسلحة النارية فهذا التفوق فى السلاح يفوق الكثرة العددية .

وقام احمد المنصور قبل ارسال حملته بمراسلة علماء ورجال الدين والقضاة فى سنغاي ومنهم القاضى عمر بن محمود بن عمر اقينت، المسموع الكلمة فى بلاد السودان ليعرض له الدخول فى طاعته وليس نهب الذهب كما صور ذلك مؤرخو الغرب والدعوة لخلافته القرشية الهاشمية وامامته على مسلمى البلاد .

ولقد صمم المنصور على ان يكون كل ما يرسله إلى بلاد سنغاي سواء اكان انسانا او حيوانا او عتادا او سلاحا من افضل ما تملكه دولة المغرب وكان قبل ذلك اختيار القائد المناسب واختار لهذا القائد جودر، كان اندلسيا من بلاد الاندلس تربى فى القصر الملكى فى مراكش ولم يكن ضد القائد له خبرة بالقيادة العسكرية لكن شبابه آمله لهذه القيادة وقيادتها لكن امانته وقدرته التنظيمية وهى صفات ضرورية فى قائد يحتاج اليها ما دام قد خرج إلى الميدان ورقى إلى رتبة الباشوية وكان تحت امرته عشرة قواد وبلغ عدد افراد القوة اربعة الاف من الاقوياء الذين اختيروا من بين افراد الفرق

لشجاعتهم وصلابتهم وحبهم للنظام ومن هؤلاء الفان من المشاة المزودين بالاسلحة النارية نصفهم من الاندلسيين الذين هاجروا إلى مراكش وكذلك خمسمائة من الخيالة حاملى الاسلحة النارية والباقي من الاتراك الذين دخلوا خدمة الجيش الشريفى السعدى، ١٥٠٠ من الخيالة الخفيفة مزودين بالحراش الطويلة ولكنهم مغاربة. وتكونت المدفعية من ستة مدافع كبيرة وعدد من المدافع الصغيرة، وبلغت دواب الحملة ثمانية آلاف جمل والى حصان .

وقد انتهى الاستعداد للحملة وجرى الاحتفال بها واستعراضها يوم الاثنين ١٦ ذى الحجة عام ٩٩٨هـ / سنة ١٥٩١م بحضور الخليفة والجمهور المغربى واخذت الحملة طريقها إلى بلاد السودان بقيادة جودر باشا وهيئة مستشاريه وكبار قواده وكانت اهم تعليمات المنصور إلى قائده جودر باشا هو احتلال جاو العاصمة وتميكتو وجنى القضاء النهائى على دولة سنغاي وضم حدودها إلى سلطنة المغرب .

وقد فكر المنصور فى الاحتمالات التى قد تحدث فى البلاد بعد ان تخرج الحملة إلى اهدافها حيث هناك خطر جيرانه الاسبان والاتراك اذ ربما يعتديان عليه بعد ان يعرفوا انه مشغول فى حملته هذه لاسيما وان قرار انسحابها نوع من الاستحالة بعد وصولها. وكان عليه لابد ان يرسل هدية سنويا إلى السلطان التركى مراد الثالث لاستمالاته وصرفه النظر عن التوسع فى المغرب الاقصى اضافة إلى تصميم المغاربة على ان يكون خليفتهم شريفا قرشيا لاعثمانيا قد سبب المرارة فى استطنبول وكانت علاقته باسبانيا باحسن ما يكون ولم يعد يخشى فيليب الثانى بعد هزيمة انجلترا لاسطوله الارمادا فغزوه بلاد السودان ربما تعطى فرصة لاحدهما لغزو المغرب وبصفة خاصة ميناء العرائش لذا فانه طلب من سفير انجلترا استئجار عدد من عمال بناء السفن والمراكب الانجليز لبناء نوع من السفن الحربية فى ميناء العرائش وقت انصراف الحملة إلى بلاد

السودان وكانت هذه خطة ذكية لصرف كلا الطرفين عن ميناء العرائش .

وسلكت الحملة طريقا خاصا نحو السودان عرف فيما بعد بطريق جودر بعد ان سار فيه نحو الجنوب عبر جبال اطلس إلى مقاطعة درعه حيث وجد كل ما يطلبه جاهزا وعلى اتم استعداد وبدات المسيرة واوغل في الصحراء بعد اختراق الحدود الجنوبية لبلاد المغرب حيث وصلت إلى بلما ثم منها إلى طريق لمتونة ومنها إلى الساقبة الحمراء حيث تكثر آبار المياه ثم منها إلى واحة تكوارين وتغازة ثم إلى كرير وبعد ذلك وصلت الحملة إلى تمبكتو في جمادى الاولى عام ٩٩٩ هـ بعد ان كانت تحركت في محرم من نفس العام فيكون قد قطعت الرحلة في شهور اربعة وكانت مرت عدة شهور لم تصل انباء عن الحملة للخليفة المنصور حتى برز فجأة احد رجال الطوارق الذي كان يرعى جماله بالقرب من اروان على بضعة ايام شمال تمبكتو وشاهد الجيش يتجه إلى تمبكتو ولقد سر المنصور بذلك سرورا عظيما وعرف ان الحملة نجحت في عبور الصحراء وبذلك قطعت المسافة التي تقدر بنحو الف كيلو تمر خلال اربعة اشهر بعد ذلك ان قامت بنحو ستين مرحلة .

وكان اهل سنغاي في اشد حالات الحيلة من نيات السلطان العدائية ولكنهم كانوا واثقين من ان الصحراء سوف تحميهم كحاجر طبيعي للدفاع عنهم ولم يخطر ببالهم امكانية عبور جيش مغربي لهذه الصحراء ولذلك كانوا بعيدين عن اى استعداد. وقد سمع الاسكيا اسحاق اخبار الحملة قبل ان يصلوا نهر النيجر بفترة. وكان الاسكيا قد اتخذ قرارا حاسما لكنه جاء متاخرا حيث ارسل الاوامر إلى زعماء القبائل الصحراوية ان يطمروا الابار التي يمكن ان يستفيد منها المغاربة ولكن الرسل وقعوا في ايدى قطاع الطرق ولم تصل الاوامر إلى زعماء القبائل مما اضاع اثنان فرصة في يد الاسكيا وهي ردم الابار وموتهم عطشا. وقام الاسكيا بجمع قوات من بلاده والبلاد

المجاورة إلى مساندته كامارات الهوسا (كبيى) ومالى والطوارق .

ورغم ان الحملة قد فقدت عددا كبيرا من قواتها اثناء الطريق بفعل الجوع والعطش والارهاق إلا ان جودر تمكن ببقية القوات ان يصل إلى تمبكتو حيث ان الحملة فقدت بعض الرجال والعتاد والعدة وبعض الحيوانات .

ولقد وصلت الحملة إلى سنغاي عن طريق غير الطريق الذى كان يتوقعه اهل سنغاي ومن هنا فقد فوجئوا بها تصل إلى تمبكتو وهم لا يعرفون كيفية مواجهه مع هذه القوات. حيث ان جيش السنغاي كان مكونا من عشرين الف من الفرسان وعشرة الاف من المشاة وان اغلبية الجيش كانت مكونة من حاملى الاقواس فيما بلغ عدد الفرسان وهم حملة الحراب عدة الاف. ورغم ان السنغاي مسلمون الا انهم كانوا يعتقدون اعتقادا كبيرا فى السحر. بل ان بعض المصادر قدرت عددهم بمائة الف جندي ولم يكونوا مدربين على اساليب القتال الحديثة التي اتبعتها المغاربة .

واستعد الاسكيا اسحاق الثانى لملاقاة القوات المغربية فى موقع يسمى ستكى بالقرب من تنديبي فى منطقة فسيحة سهلة تقع على الضفة اليمنى لنهر النيجر حيث يحدها من الشمال النهر ومن الجنوب جبال ينجان ومن الغرب توجد بعض راوفا صغرى لنهر النيجر ودارت هذه المعركة فى هذا المكان المتسع الذى لم يبعد عن العاصمة جاو باكثر من خمسة وثلاثين ميلا حيث بدا اسكيا اسحق يقيم المتاريس فى الطريق ويستعد للحرب ومن هنا فان جودر صمم على ان يقاتلهم، وقبل ان تبدأ المعركة اراد السنغاي ان يبيثوا الفوضى بين صفوف مهاجمهم بان جعلوا امامهم قطيعا كبيرا من الماشية ولكن المغربة فتحوا صفوفهم ومرت القطعان دون ان تحدث ضررا، وبدا المغاربة المعركة كعادتهم بالاحاطة بالاعداء من الجبهتين وعلى الرغم من التفوق العددي للسنغاي الا انهم كانوا ضعيفي التسليح فام يكن امامهم فرصة للانتصار امام

الاسلحة النارية والنظام الجيد الذى يتفوق فيه المغاربة .

وما ان التحم الجانبان حتى ظهرت قوة كلا الدولتين ومقوماتها وليس العدد فعدة المغاربة البنادق والمدافع وعدة السنغاي السيوف والرماح والقسي ركبهم يرمون بالرصاص مما جعل المشاة التى ارسلها الاسكيا عندما احست باصوات الرصاص وطلقات المدافع تندفع للخلف على اصحابها ولم تدم المعركة غير يوم واحد انتهت بهزيمة اهل سنغاي وانتصار المغاربة بفضل الاسلحة الحديثة وحسن التنظيم الحديث ومن مبيدان المعركة اتجهت القوات إلى جاو لاحتلالها وكان الاسكيا اسحاق قد امر باحراق العاصمة بعد ان استماتت جيوش سنغاي فى الدفاع عن بلادهم حتى أبعد معظم افرادهم .

وكان دخول جودر العاصمة جاو فى ٢٠ رجب ٩٩٩هـ / ٢٣ مايو ١٥٩١م حيث هجرها معظم سكانها ولم يبق من سكانها الا رجال الدين والعلماء والطلبة ومن لم يقدر على الخروج والهرب كالتجار، اما باقى قوات سنغاي وقوداها فقد اسرعوا بالهرب والفرار إلى قواربهم وركوب النهر ولم يستطع المغاربة مطاردتهم لانهم لم يملكوا القوارب التى تسهل لهم مطاردة اعدائهم واكتفوا باحتلال العاصمة واستقبل المغاربة فى العاصمة جاو بحماس من التجار والعلماء ورجال الدين وقد ظن المغاربة انهم سيجدون مدينة جاو العاصمة مزينة ذات مبان فخمة وان استيلاءهم عليها سيكون خيرا مكافأة لهم بعد سيرهم الشاق المضنى فى الصحراء ولكنهم وجدوا بدلا من ذلك مجموعة من الاكواخ المبنية بالطين على مثال المباني السودانية وليس هناك من اثر لثروة كانوا ينتظرونها. بل ان مسكن الملك لم يكن ليتميز كثيرا عما يحيط بالقصر من اكواخ هذا إلى ان السكان كانوا قد حملوا معهم ما ظنوه ذا قيمة للمغاربة .

ولما وصلت بشرى النصر إلى مراکش اقيمت الافراح وكتب المنصور إلى الجهات المختلفة يزف اليها النبأ العظيم ومن ذلك الرسالة التى أرسلها من مراکش يوم الجمعة

السابع من شعبان ٩٩٩هـ / ٣١ مايو ١٥٩١م وقد تضمنت اخبارا عن الحملة التى حققت النصر وكان جودر قد كتب إلى المنصور بخير الفتح فبعث اليه بهدية فيها عشرة الاف مثقال ذهباً ومائتان من خيار الرقيق .

وفتح اسكيا باب المفاوضات مع جودر وارسل وفدا سودانيا إلى العاصمة ليعرض الصلح عليه مقابل الاعتراف بطاعة المنصور والتعهد بارسال الخراج السنوى، وكان انسحاب اسحاق الاول إلى الداخل قد جعل لكل من القائدين فترة من الوقت يتمتع بها فقد عرض اسكيا الصلح والمهادنة مقابل اموال يؤديها للمنصور بعد اقتناعه بفشل المقاومة وجودر باشا وجد فى ذلك فرصة لراحة قواته واعادة تنظيمها فقبل الهدنة على ان يترك المغاربة البلاد على ان يكون للمغاربة وحدهم حق تصدير الملح والاصداف إلى بلاد السودان لانها كانت وثيقة الصلة بتجارة الذهب وكان عرض اسحاق الاول سخيا جدا وقبول المغاربة له يعطيهم سيطرة تامة على الحياة الاقتصادية للسودان الغربى وكان هم اسحق الاول ان يجنب بلاده احتلالا عسكريا ربما يكون عبثا ثقيلا لا يمكن لشعبه احتماله وقد يصبح التخلص من السيادة المغربية فى المستقبل امرا مستحيلا .

ويبدو ان الظروف قد اجبرت جودر باشا ومن معه على قبول الهدنة والمفاوضات وذلك للتعب الذى حل بالقوات المغربية من طول المسافة وخوض المعارك والامراض. وقبل الباشا جودر العرض لساعته اذ كان يملك السلطة الضرورية لذلك حيث كان المرض قد تفشى بين افراد جيشه ومات عدد كبير منهم فكانت رغبته الوحيدة ان يعودوا ادراجه باسرع مايمكن وابرام عقد الصلح على شرط قبول مولانا احمد المنصور. ثم تراجعت القوات المغربية من جاو العاصمة إلى تمبكتو وارسل عقد الهدنة إلى الخليفة السعدى. ومعها رسالة عما فيها قاساة الجيش فى عبور الصحراء .

وظلت حالة الجيش المغربى فى تدهور ففى مدى اربعة عشر يوما مات اربعمائة

ومرض الباشا نفسه وضرب المرض بسهمه في الاواب التي كانت تعتمد عليها الحملة وهي العمود الاساسي لتحركات الجيش حيث انه لا يستطيع الحركة بدونها وكانت تمبكتو افضل كثيرا من جاو وحيث الجو احسن حالا من العاصمة وكان مبعث الراحة في نفوس المغاربة وجود مسجد سانكوري الجميل الذي كان لا يزال يسمو على كل شيء آخر. وكان جو تمبكتو يدعو إلى الراحة النفسية اذ كانت العاصمة الثقافية لبلاد السودان وملجأ الطلاب من بلاد بعيدة وطلابها كتجارها افضل ما فيها حيث لم يكن لديهم ما يخشونه من المغاربة فقد بقي التجار والعلماء والطلاب في المدينة كما سبق القول ولم يهربوا إلى الصحراء، لذا وجد المغاربة الحياة التجارية الثقافية هادئة لم يصبها ادنى اضطراب ومظاهر الحياة عادية لا ينقصها ادنى متطلبات .

ولما وصل رسول جودر باشا إلى مراكش حاملا شروط الصلح نقم عليهم المنصور ولم تحدث الرسالة سرورا لدى السلطان، بل لم يرض عن الشروط التي عرضها الاسكيا اسحق وانتقد بشدة عدم ترك جودر حامية في جاو وعدم أخذه رهائن من اسحق فصمم المنصور على ان يبدله بقائد آخر اقل منه تساهلا واكثر حزما وكان ذلك القائد الجديد محمود باشا زرفون وعينه على راس القوات المحاربة وترك لجودر مهمة ادارة شئون البلاد المفتوحة، وقد وصل زراون على وجه السرعة وتسلم مهمته لكنه كان من الواضح ان فقد الرجال والعتاد في البلاد قد يستفد موارد الدولة .

وقد انقسم الراى في مراكش إلى ما حققته غزوة السودان إلى آراء مختلفة اذ راى الشعب املا في ضم هذه الديار إلى خطيرة الاسلام سيساعد على قوة الحركة الجهادية ضد اعداء البلاد والدين، وهناك فريق راى ان السيطرة على البلاد قد تضرب بالتجارة والاقتصاد والنواحي الثقافية والحضارية لاسيما ان استمرار الوجود المغربى في البلاد سوف يحتاج إلى حامية كبيرة وتحصينات مستمرة لمقاومة الخسائر التي

لا يمكن تجنبها سواء من انتشار الامراض المعدية او لمخاطر الحروب الاخرى. فقد دلت تجربة هذه الحرب على معظم الخسائر في مثل هذه الاحوال كانت من الامراض والحرب كما ان الحاجة ستكون ماسة إلى حمل السلاح الدائم لكن المنصور الذي كان يرى في فتح بلاد السودان حماية لهذه الديار من التعرض لخطر السيطرة الاوربية ومنعا للالتفاف من خلف ظهره وعملا على تدعيم الوحدة الاسلامية وبناء كيان كبير يخضع للخلافة السعدية والاستفادة من موارد البلاد وثرواتها من اعداء دولة كبرى تماثل امبراطوريات الاتراك العثمانية والاسبان، لكن التجار كانوا يعارضون استمرار الغزو خوفا على مصالحهم لانه ربما يكون تصميم الخليفة السعدى المنصور إلى الوصول إلى اهدافه قد يؤدي إلى خراب الاقتصاد في سنغاي ونضوب موارد الذهب لاسيما اذا تدخلت الدولة في شئون التجارة حيث انه من الطبيعى ان تكون التجارة هى موضع الاهتمام الاكبر للتجار. ففى الماضى كان الزنوج مستعدين دائما ان يبادلوا بذهبهم الملح ومواد التجارة التي ترد من بلاد ما وراء البحر المتوسط (البلاد الاوربية) .

وقام محمود رزقون بالدخول في قتال عنيف مع اسكيا اسحاق مما اضطره إلى الفرار من العاصمة والدخول إلى بلاد الوثنيين في الجنوب الذين قتلوه هو وحراسه وبقية اسرته وهكذا سقطت دولة الاساكي على ايدي القوات المغربية السعدية ودخلت البلاد في طاعة الخليفة المنصور السعدى ما بين البحر المتوسط حتى الغابات الاستوائية وبالسيطرة على سنغاي فقد ظهرت دولة اسلامية كبرى كان على المنصور ان يقودها بحنكة ودراية للاستفادة من هذا الفتح لكن متطلبات سنغاي وما كانت تحتاج اليه من موارد كبيرة وقوات كثيرة وطرق المواصلات الصعبة وعدم تلاحم البلدين ووجود الصحراء الواسعة التي يستغرق عبورها اربعة اشهر وما تلاقية القوافل في الطريق ووقوفها عقبة كداء في طريق التلاحم الاسلامى والبناء القوى للوحدة المغربية السودانية التي

كان يهدف إليها المنصور لكن بعد فتح بلاد السودان أصبح المنصور الخليفة الوحيد في جميع هذه البلاد مما زاد من مكانته ومركزه الديني والسياسي على السواء. ولقد كان تأثير الفتح واضحا لما وصلت إليه البلاد من الرخاء والرفاهية وقد ارتفعت عملة بلاده وتسابق التجار على التعامل بالدينار المنصوري. ورغم القضاء على السلطنة الشرعية في البلاد واحتلالها والقضاء على سلطانها الفعلي إلا أن المغاربة عجزوا عن إدارتها وضبطها. كذلك فإنهم لم يتمكنوا من اكتساب ثقة أهل البلاد طوال الفترة التي خضعت فيها البلاد للنفوذ والحكم السعدي الشريف مما أدى إلى ظهور بواذر التفكك والانحيار في بلاد السودان لاسيما وأنه كان للعلماء دور بارز في الحياة السياسية والتأثير على مجريات الأمور وكان ذلك من أسباب بطش محمود بن زرقون بابكارهم وشيوخهم حتى يتمهد الأمر للحكم المغربي .

ولقد ساعدت على بسط النفوذ المغربي بسرعة في البلاد ذات الطابع من الفوضى الذي طبع الحياة اليومية وذلك من أثر الصراع المرير من أجل العرش وقد انعكس ذلك على حالة الأمن العام وعلى النشاط الزراعي والتجاري وعلى الصيد إذ خاف المزارعون والتجار والصيادون على نشاطهم وكان الحكام طغاة يحاولون أن يجمعوا في الفترة التي يقضونها في الحكم ما يمكن جمعه وكان الوباء الذي حل بمدينة تمكيتو من أثر انتشار مرض الطاعون من أسوأ الكوارث التي حلت بالبلاد منذ عام ١٥٨٣م. ولقد قال محمود كعت التكبكتي صاحب تاريخ الغتاشي واصفا ما قال عن أثر الحملة السعدية في بلاد سنغاي جبر الله كسر بتمكينو وكثر قراءها من كوكبا إلى جنى وجمع شملها وأقامها أتم قيام وعمرها وافاض الله البركة في برها وبحرها في أوائل دولة جيش مولانا أحمد المنصور وأكثر الخير فيها حتى كاد الناس ينسون دولة سنغاي .

وهذه شهادة من مؤرخ دولة الاساكي حكام سنغاي وهو من أهل الديار واعترافه

بفضل الحملة السعدية يدحض كل الآراء الباطلة والمقولات الكاذبة التي سار عليها مؤرخو الغرب وما رموا به الحملة المغربية بأقوال فرية المقصود بها الإساءة إلى كل عمل إسلامي وعلى المحلل العلمي الدقيق أن يأخذ دائما في الاعتبار ما ترمي إليه أقوال مثل هؤلاء المؤرخين المفرضين الغربيين الذين روا في الفتح الإسلامي المغربي لبلاد السودان سدا يحول دون تحقيق أهدافهم بالاستعمار والتبشير بالدين المسيحي. لاسيما أن فتح بلاد السودان قد تبعه وصول جماعات كبيرة من العلماء المغاربة للتدريس ولاسيما في جامعة سانكري والدعوة للإسلام وإصلاح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام وبناء المدارس الإسلامية والمساجد في المدن الكبرى ولقد أرسل المنصور أثر وصول أول بشرى بالنصر مع محمود زرفون ستين عالما وفقهيا مغربيا مهمتهم الدعوة للإسلام وليس لاستيراد الذهب ونهب مصادر البلاد كما صور ذلك يوفيل وغيره من كتاب الغرب بل أن الأعمال الانشائية انطلقت في طول البلاد وعرضها ووصل المهندسون والبناءون من المغرب لبناء المباني الحديثة والمساجد وديوان الحكومة على أحدث طراز معماري في المغرب واستعان بالاندلسيين وكان نصف الحملة الأولى تنهض بتعمير سنغاي وإدخال أحدث الأساليب في الإدارة والزراعة والصناعة والتعليم وإفساح المجال أمام الخبرات المغربية للإسهام في الرقي بالمجتمع السنغائي بعد انضمامهم إلى أخوانهم بالمغرب .

ولقد حقق المنصور هدفه في السيطرة على بلاد السودان الغربي باعتبار أن واجب الخلافة الإسلامية يلقي عليه مسئولية الدفاع عن ديار الإسلام بمقتضى أن يضع يده على مقدرات المسلمين وخبرات أرضهم لغرض النهوض بمهمة الجهاد الإسلامي باعتباره خليفة لرسول الله ﷺ فواجهه أن يجاهد في سبيل الإسلام وأن يتبعه المسلمون في ذلك قادة ورعايا باعتباره القائد الأوحد الذي يفرض عليه أن يحمل المسلمين على

الوحدة باللين أو بالشدة واعتبار المنصور نفسه الخليفة الوحيد للمسلمين بالنظر لانقراده بين ملوك المسلمين وامرائهم بالنسب الهاشمي القرشي مصداقا للحديث الشريف الائمة من قريش ابرارها بسرارها وفجارها امراء فجارها وخاصة عندما برزت قوة المغرب السياسية والعسكرية والاقتصادية فالمنصور كان يرى نفسه خليفة مستمدا سلطة الخلافة من نسيبه .

وهكذا تحققت مخططات المنصور الواسعة رغبة في الجهاد والاستظهار على عدو الدين وفتح الاندلس والاقطار البعيدة لاسيما وان اجداده وآبائه اقاموا الدولة السعدية منذ نشأتها كدولة قامت على الجهاد ومن هنا فكان عليه ان يواصل مهمة الجهاد بجد ومثابرة واعطاء ذلك الاولوية المطلقة لاسيما كرد فعل على سقوط الاندلس والرغبة في العودة عن طريق الكفاح تساوى فيها ابناء الاندلس المهاجرون والمغاربة لاسيما وان حركة الجهاد الاسلامي بضم بلاد السودان قد حققت احدى الظواهر التي اختلطت فيها السياسة بالدين وبالوطنية خلال العهد السعدي لاسيما وان الدولة قامت على هذا العنصر المهم من احترام الشعب والالتفاف المتعاضم حول الشرفاء المجاهدين .

وقد استعاد ملوك السعدين الشرفاء من هذا المد العاطفي في توجيه الحملات العسكرية وخاصة منها ما وجه إلى بلاد السودان حيث قيل دائما ان هذه البلاد تعج بالوثنيين وتحتاج إلى من يرشدها إلى طريق الاسلام والدعوة الاسلامية وكان هذا هو المغزى الحقيقي وراء هذه الحملة وليس غيره من الاهداف المادية الاخرى . واستغل المنصور ما كانت تلقاه كلمة الجهاد من قبول واقبال في كسب التأييد لتحركاته الخارجية وكان فتح السودان نصرا مؤزرا ولذا كانت مداومة بلاد السودان لنشر الاسلام وتعميق مفاهيم الدعوة الاسلامية والحصول على الدعم المادي والبشري لاسيما تجنيد السودان في الحربية والاسطول وقصر جلب الاموال لتجهيز الجهاد في اسبانيا وللمرابطة

على المسلمين قبالة الساحل الاوربي ولادخال عقيدة الاسلام إلى الوثنيين الذين تضمهم دولة سنغاي والاقاليم المجاورة لذا فان حملة جودر ضمت كما سبق القول اشخاصا مؤهلين للقيام بالدعوة الاسلامية دائمة ووعاظ للجيش نفسه وهم الذين رافقوهم في رحلة اختراق الصحراء الصعبة، بل ان معظم الجنود كانوا اندلسين غيورين على الاسلام بعد ان فقدوا ديارهم واطانهم وكان حماسهم للاسلام شديدا بالقدر الذي يؤهلهم للقيام بالدعوة إلى تعاليم الدين الاسلامي الحنيف ولقد انتشر الاسلام انتشارا واسعا على ايدى رجال الحملة المغربية ومن ذلك في منطقة مسينا غرب سنغاي وامارة تاندراما حيث كان المغاربة يجدون بعض سكانها على الوثنية لذا تعمدوا ان يجعلوا مقدار الجزية كبيرا وذلك لحمل الناس على الدخول في الاسلام وقد نجحت هذه الوسيلة في دخول الناس افواجا في الدين الحنيف (المؤلف المجهول نذكره النسيان في اخبار ملوك السودان ص ٢٣) كذلك فان الدعوة الاسلامية اثرت في بلاد الموشى بعد ان بث الجيش المغربي الدعوة الاسلامية وحمل الناس على اعتناق الاسلام حيث انه كان واجب الدعوة هو العمل الحقيقي لرجال الدين الذين صاحبوا الحملة وكذلك رجال الجيش المغربي بل ان ترك الجيش إلى مثل هذه الجهات كان يأخذ شكلا دينيا ويكون ذلك عند صعود المؤذن او المتأدى على ظهر الجامع او اى بناء مرتفع وينادى فى الناس ويحدد مكان الفرقة ومكان الاجتماع وتعتقد ان هدفا دينيا ونفسيا كان يكمن وراء مثل هذه المظاهر مما يدفع الناس إلى الدخول فى الاسلام . وهكذا كان هدف نشر الاسلام فى بلاد السودان من العوامل الرئيسية التى حركت همة المنصور لقتال النظام واخضاعه (احمد المغربى، بداية الحكم المغربى فى بلاد السودان الغربى ص ١٣٢ - ١٣٣) .

كما لا يمكن ابدا انكار ان الحملة المغربية قد نجحت كل النجاح فى مقاومة

حركة التبشير المسيحي في بعض الجهات الافريقية لاسيما وقد تسرب بعض المبشرين الاوربيين المسيحيين إلى داخل الاراضى السنغالية انطلاقا من المستعمرات المسيحية الساحلية واقتنعوا بعض القبائل بالدخول في المسيحية ويبدو ان اخبار نشر المسيحية بين هذه القبائل قد وصلت إلى المنصور بدليل وجود رسالة كتبها لاحد عماله يخبره فيها بان الفتح لما انتهى في الجيوب إلى من يليهم اى قبائل سنغاي وجد ان هناك قبائل قد اعتنقت المسيحية ففاوضها المغاربة الفاتحون في امر التخلي عن ذلك وهكذا فان نشر الاسلام قد كان من بين خطط المنصور السودانية الكبرى وليس الحصول على الذهب- وان ما قام بها جنوده قد خدم هذا الهدف كذلك فان كثيرا من العادات والتقاليد والمراسم المغربية قد انتقلت إلى بلاد السودان. وخاصة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وختم القرآن الكريم وصحيح البخارى ومسلم في ليالى رمضان وذبح اضحية عيد الاضحى وترتيل الامداح النبوية ليلة القدر وقد اهتم المغاربة وباشوات السودان بهذه المظاهر الاسلامية والسلوكيات التى تتلائم مع التعاليم الاسلامية، كذلك بالنسبة لمدينة ديبى عاصمة اقليم مسينا مثلا الواقع قرب سنغاي وهو من الاقاليم التى لم تكن تخضع لحكم السنغاي قبل قدوم المغاربة وفقد تقدمت العقيدة الاسلامية بها والانتشار الاسلامى بشكل سريع بسبب دور العلماء لاسيما وان السيطرة المغربية قد ركزت مجموعات متفقة اشتغلت بالعلم والتجارة الدائمة فى المدينة وضواحيها وقد حققت تلك المجموعات شيوع التعاليم الاسلامية والعادات والمراسم الدينية على وجهها الحقيقى وتلقين دروس الدين الاسلامى وشئون الشريعة والفقه والادب العربى وانتشار اللغة العربية واللسان العربى (وجهه نظر غربية مؤلف مونتيل) ولقد حاول بعض المؤرخين الاوربيين الاساءة إلى احمد المنصور على اعتبار انه كان رجلا استعماريا يهدف إلى بناء امبراطورية بغض النظر عن اى اعتبار آخر وانه كان يفاوض الانجليز او الفرنسيين فى موضوع احتلال الهند واسبانيا، ولكن المنصور كان يضع نصب عينه

اضعاف اسبانيا واستعادتها لأنه كان مصمما على اعادة الحكم المغربى والاسلامى والمسلمين اليها .

ومما يثبت وحدة الهدف الاسلامى عند المنصور بعد فتح بلاد السودان تلك المسالة التى كتبها إلى الملكة اليزايت ملكة انجلترا يقول لها فيها ان تلك الاقاليم ازدادت فى الامبراطورية المغربية فى قوة جديدة للحلف المغربى الانجليزى وهذه الممالك السودانية ازدادت بحمد الله ملكنا ونظمها الفتح الالهى، لكن بريطانيا (انجلترا) تراجعت عن هذا التحالف لانه ربما يؤدى ذلك إلى احداث رجة فى البلاد الاسلامية الاسيوية وبعث الوحدة الاسلامية بشكل غير مرغوب فيه عند المسيحيين. ولقد كان السلطان السعدى يعتقد ان استعمار الهند المتاخمة لبلدان اسلامية كثيرة سوف يقوى مركز المغرب ويجعل هذه الدول الاسلامية تتحالف مع جيش المغاربة المسلم الذى يوجد على راسه خليفة شريف ويساعده على اعادة فتح الاندلس ومن ثم فان جيوش المسلمين قاطبة حينئذ فتسرع إلى النهوض بهذا العرض الجهادى وهو تحرير الاندلس الذى كان الشغل الشاغل للخليفة السعدى .

ولقد حققت الحملة السعدية على بلاد السودان اسمى اهدافها ايضا بالقيام بالعمل الوقائى والذى يرمى إلى منع العثمانيين من الوصول إلى بلاد وسط افريقيا وشل حركة المستعمرين القائمين فى غامبيا ومنع القوات المتواجدة من التوغل شرقا والوصول إلى مصادر الذهب والملح وبالتالي منع اى امتداد نحو المغرب فى المستقبل وهكذا نجح المنصور فى دفن الاطماع التركية الذين كانوا قد أمدوا الماى ادريس الوما سلطان برنو بالاسلحة وكانوا يمهدون للسيطرة على وسط افريقيا (راجع رسالة الماجستير للمؤلف- سلطنة البرنو الاسلامية جامعة القاهرة، ١٩٧٥) وكذلك الاطماع البرتغالية إلى الابد والتحكم فى تلك الاطماع اذ ما قدر لها ان تبعث وتنطلق من جديد ونجحت الخطة

فى منع القوتين بشكل مباشر او غير مباشر فى التحرك إلى بلاد السودان ووقف زحفهما إلى تلك البلاد .

وهكذا كان نجاح احمد المنصور بمشروع فتح بلاد السودان قد اعطاه المظهر الاسلامى بانه الخليفة المسلم الذى يقوم باحدى واجباته الدينية المقدسة، وان فكر المنصور كان بمتد إلى الوصول إلى برنو وكان وصولا إلى كل بلاد المغرب من الجزائر إلى مصر وتمركزه على امتداد الشريط الصحراوى الذى يحد تلك البلاد جنوبا ولقد كان المنصور مفكرا ومخططا ذكيا يهدف إلى غايات اوسع من السيطرة على بلاد سنغاي والاقاليم المجاورة له .

ومهما تكن النتائج التى حققها الفتح المغربى للسودان الغربى والتى وصل اليها المنصور من تحقيق الروابط الاسلامية والدينية والسياسية والتى ربما لم تعمر طويلا بعد وفاة المنصور ولم يقيم الخلف الذين سؤل اليهم مقاليد الامور على الحفاظ على هذه المكاسب التى حققها المنصور بالحمالات التى تحملت الصعاب الا انه حقق نجاحا باهرا وضع فيه حاجزا بمنع اختراق حدود سنغاي الشرقية وجعل اسم احمد المنصور خليفة الاشراف السعدين فى المغرب وما يحمله هذا الاسم سليل الدوحة النبوية من الهيبة والقوة الروحانية إلى كل اذن افريقى فى هذه الجهات وعمل ذلك على امكانية استغلال هذه الشعوب باسم الجهاد الاسلامى لمجاهدة الممالك المسيحية والتى ربما كانت فى الاقاليم المجاورة وقطع كل أمل وراء المخططات التى تريد بديار الاسلام الشر ونشر عقيدة غير اسلامية .

وهكذا تمكن المنصور فى ادخال هذه البلاد فى طاعة السعدين الاشراف وانتشار الدعوة للخلافة القرشية السعدية فى اقطار السودان كلها لانها اولى بمعرفة قدر الخلافة وشرف اثارها واحقيتها بقيادة المسلمين فى كل جهة من جهات العالم

الاسلامى ومن هنا فقد ترك الفتح المغربى القرشى العربى الاسلامى بصماته الواضحة القوية فى شتى المجالات الحياتية فى بلاد السودان وكان له مآثر عظيمة حاول كتاب الغرب التهوين من آثارها وطمس الحقائق حول الدور الباهر الذى تركه الحكم السعدى لاسيما وان فترة حكم باشوات المغرب لهذه الانحاء قد زاد عن قرن ونصف من الزمان كان له الفضل كل الفضل فى نقلة حضارية كبرى شهدتها هذه البلاد فى ظل الحكم المغربى بحيث حظيت المجالات المختلفة بالاهتمام الكبير من قبل الحكام الذين اولوا جل اهتمامهم لكل النشاطات العملية والفكرية والثقافية والعمارية والاجتماعية والصناعية والزراعية والاقتصادية وبدات معالم الحياة تاخذ بعدا آخر مغايرا لما كان عليه الحال وقت حكم الاساكي فقد عمل المغاربة على صبغ هذه الانحاء بالصبغة المغربية ولم يأل جهدا فى تنفيذ المشروعات الكبرى التى من شأنها ان تعود بالنفع على الشعب السودانى ما دام قد ارتبط مصيره بالوحدة المغربية الاسلامية واستقرت الاعاد الكبيرة من الجنود المغاربة الذين سقط مصيرهم فى هذه البلاد وكان عليهم وعلى من ياتى من جند جديد من المغرب ان يتواءم مع طبيعة الحياة الجديدة وان يذوب فى المجتمع السودانى الاسلامى حيث ان الاسلام لا يفرق بين الالوان والاجناس ومن هنا فان المغاربة الذين قدموا ذابوا فى المجتمع السودانى وتزوجوا من السودانيات وباشروا حياتهم العادية بين مواطنى هذه البلاد لاسيما لان هناك اعدادا كبيرة من الحرفين والصناع والعلماء والاطباء قد رافقوا هذه الحملة وكان يقع عليهم العبء الاكبر فى العمل على نقل البلاد نقلة حضارية كبرى والاخذ بيدها إلى مدارج الرقى والتحضر والاخذ بالاساليب الحديثة والعصرية ونقل مفاهيم الحضارة الاسلامية الراهنة والانتقال بالانسان السودانى فى ظل المتغيرات المغربية من حالة سكنى الاكواخ والبيوت المبنية بالطين والقش إلى البناء الحديث العصري والاعداد وفتح العديد من المدارس والجامعات والاهتمام ببناء الانسان السودانى ودفعه إلى مزيد من التطلع إلى فنون جديدة وتجديد

الوجه الحضارى والثقافى للسودان بعد ظهور عوامل جديدة واصبحت الطرق مطروقة والقُدوم سهلا وميسورا لابناء المغرب مما سهل عليهم التحرك باعداد كبيرة لاسيما وان الخليفة المنصور السعدى شجع جميع طوائف الشعب المغربى على الانتقال جنوبا دعما لروح الاخوة الاسلامية وعملا على ترسيخ قيم اسلامية جديدة وربط بلاد السودان بمعالم الحضارة الحديثة والاخذ بالاساليب المتطورة فى شتى نواحي الحياة، لاسيما ان صلة الربط كانت مباشرة بين بلاد السودان والمغرب وزاد الاهتمام بالبريد حيث كان البريد هو صلة الربط الوحيدة لاسيما للاطلاع على مجريات الامور بالبلاد ومتابعة كل صغيرة وكبيرة ولقد اولى المنصور اهتماما خاصا بهذه الوسيلة وقسم المسافة إلى تمكينو والى مراكش إلى عدة مراحل وجعل على خدمة البريد مجموعة من الجنود تنحصر مهمتهم فى نقل البريد من المغرب إلى بلاد السودان والعودة منه ولقد كانت الرحلة ما بين مراكش وبلاد السودان يقطعها رجال البريد فى فترة لاتزيد عن اربعين يوما للذهاب إلى مراكش والعودة إلى بلاد السودان ولقد كانت هذه فترة قياسية اذ كيف يقوم رجل البريد بقطع مسافة قطعتها قوات جودر فى اكثر من مائة وخمسة عشر يوما يقطعها رجل البريد فى عشرين يوما فقط بالاضافة إلى انه كان يقضى وقتنا فى مراكش حتى تكون المراسلات المرسلة إلى السودان جاهزة للاعداد .

وعلى اية حال فان الذين حاولوا ان يطمسوا معالم الدور العربى فى بلاد السودان وان ينقصوا من الدور الرائع الذى لعبه المغاربة انما كانوا يخدمون اهدافا استعمارية تبشيرية للاساءة للفترة التى كانت فيها البلاد فى ظل الحكم السعدى الشريف سواء الاشراف السعديين، والاشراف العلويين وذلك بشأن مؤرخى الغرب فى محاولة الانقضا على كل عمل اسلامى من شأنه ان يقوى روح الوحدة والتضامن وللعمل الاسلامى المشترك البناء لما فيه خير الاسلام والمسلمين وتصويره على انه انهيار وليس تقدما .

(ب) مآثر الدور المغربى فى بلاد السودان

١٥٩١ - ١٧٦٠

لقد اولى المغاربة اهتمامهم الاكبر فى بلاد السودان بترقية الفرد السودانى وبنائه علميا وفكريا وثقافيا وحضاريا واعطوا اهتمامهم الاكبر بالجانب العلمى وصقل مواهب ابناء الشعب السودانى، ومن هنا عملوا على ارسال العديد من العلماء ورجال الدين والفقه والشريعة والمدرسين والمساعدة على انتقالهم وانتقال الكتب والمكتبات والورق والوراقين ومن هنا توالى هجرة العلماء المغاربة فى ظل الحكم السعدى والعلوى ولاسيما ان الحياة الثقافية والفكرية قد واصلت تقدمها وتطورها. واذ كان حاكم السودان محمود زرقون قد انزل بالعلماء ورجال الدين السودانين ضربة مؤلمة بترحيلهم إلى المغرب، فان الثقافة العربية الاسلامية كانت من العمق والانتشار بحيث تابعت طريقها ومسارها الطبيعى لاسيما بعد ان استئناف المدرسون والاساتذة والعلماء دروسهم ومن هنا تركت الحركة الفكرية مآثرها الفريدة على اوجه الحياة اليومية .

ولقد ساهم العلماء المغاربة مساهمة فعالة فى الحركة العلمية واخذوا يشجعون روح البحث العلمى والفوا فى كثير من المواضيع وامتاز نشاطهم العلمى بتخرج اعداد كبيرة من الطلاب على ايديهم فاغنوا المكتبة السودانية بالجديد والطريف فى شتى الموضوعات وكانت المؤلفات المغربية فى بلاد السودان يتهافت التجار على بيعها فى مكتبات تمبكتو وجنى وجلو وغيرها من المدن الكبرى فى بلاد السودان. كما ان وفود الاعداد الكبيرة من العلماء ورجال الجيش والادارة والحكم قد ساعد على تطور اللغة العربية التى لم يدخل عليها المدرسون المغاربة الجدد الجزالة وياخذونها بالتبسيط فقط ولكنهم فوق ذلك لم يتورعوا عن ادخال بعض التعابير من اللهجة المغربية الدارجة الامر

الذى جعل هذه اللغة واسطة مهمة وفعالة فى التبليغ للدعوة الاسلامية ونشر تعاليم الاسلام فى يسر وسهولة وكذلك قام الائمة ورجال الدين فى المساجد بعد ان اجاز لهم العلماء ورجال الفتيا للمدرسين ان يتحدثوا للمسلمين باللهجات المحلية فى امور الدين والعبادات واصبح شيئا مألوفاً فى كل المساجد ان ينهى الفقية حديثة ويلقى خلاصته باحدى اللهجات المفهومة ثم يقوم المترجم بنقل ما القاه باللغة السنغائية .

ولقد حظى التعليم بنوع خاص من المغاربة بصورة لم تكن معروفة من قبل واتيح التعليم لكل فئات الشعب السودانى فلم تعد المدارس وقفا على ابناء العلماء انفسهم وعلى عدد قليل من الطلبة يتفق القاضى عليهم من الوقف، بل اصبح التعليم مفتوحا امام كل راغب فى التعليم سواء فى الكتاتيب او الجوامع او المدارس او الجامعة الكبرى جامعة سانكرى (انظر كتاب حركة المد الاسلامى فى غرب افريقيا للمؤلف . جامعة سانكرى فى قلب القارة الافريقية ص ٢١٤ - ٢٢٢) بل اصبح التعليم بجميع اطواره مفتوحا امام كل راغب وتكفلت الادارة المغربية بجميع نفقات وتكاليف مراحل التعليم المختلفة وبالطلاب الغرباء والاساتذة. وقد ذكر عبد الرحمن السعدى فى كتابه تاريخ السودان. ان مدينة تمبكتو فى بداية الحكم المغربى قد اضحت تعج بالعديد من الطلاب الذين كان بعضهم يهاجر من اقصى الغرب الذى كان محروما من التعليم ومن بلدان افريقية اخرى وتم تنظيم مراحل التعليم وهذا التقسيم لم يكن متعارفا عليه قبل قدوم المغاربة فقد اصبح التعليم تعليما ابتدائيا ومتوسطا ومتخصصا واعطيت اجازات علمية فى بداية العهد المغربى وشهدت البلاد توسعا فى حركة التأليف والوراثة اذ اننا نجد بالقرب من جامعة سانكورى او سانكرى كانت توجد حوانيت الوراقين على جانبى الطريق والتي كانت تباع بها الكتب المنسوخة والمخطوطة للطلبة ورجال العلم والدين وكانت جلها من التأليف الجديدة فى نسخ متعددة او فى هوامش جديدة وشرح لكتب

قديمة وذلك لغرض بيعها فى السوق المحلى او تصديرها لجهات بعيدة فى بلاد الهوسا او برنو، او مالى او الاقاليم المجاورة لسنغاي بعد ان شاع نور العلم والتعليم فى هذه البلاد واصبحت قبلة العلم والعلماء وكعبة لطلاب العلم من كل انحاء الديار السودانية بل انه اصبح من المشاهد المعتادة رؤية فقيه او عالم اسلامى يملى على الكتبة فصولا من كتاب ولا ينتهى من املائه الا وكان للوراق عدة نسخ من هذا الكتاب وهكذا كان العهد المغربى السعدى دافعا للحركة العلمية والتعليمية فى سنغاي شهد به ابناء الاقليم وعلى راسهم عبد الرحمن السعدى فى كتابه تاريخ السودان بل ان الفتح المغربى لبلاد السودان قد ساعد على ظهور نوع جديد من العلماء اهتم بجانب الدراسات التاريخية وتسجيل الاحداث وهو ما لم يكن موجودا قبل الغزوة المغربية فقد ظهر مؤرخون سودانيون وصفوا تاريخ المنطقة بانفسهم وكان لهم الفضل كل الفضل فى معرفة تاريخ السودان وبصفة خاصة احداث تلك الفترة ومنهم على سبيل المثال احمد فراطو عن تاريخ برنو وعبد الرحمن السعدى عن تاريخ السودان ومحمود كعت عن تاريخ الفتاش والمؤرخ المجهول عن تذكره النسيان وبرز كتاب التراجم وعلى راسهم احمد بابا التمكينى اضافة الى تنوع الاعمال الاخرى فى الاصول والتفسير وعلوم الدين والفقه وعلوم الشريعة والدين وعلوم اللغة العربية كالتحو والصرف والبلاغة والبيان والعروض وظهر الشعراء والادباء وبدات الحركة الفكرية تؤتى ثمارها المرجوة بفضل انفتاح الباب امام علماء المغرب للرحيل إلى الجنوب بصورة جماعية بعد ان كانوا افرادا قبل الفتح المغربى ورحيل علماء بلاد السودان إلى المغرب للاطلاع على مراكز العلوم والحضارة والثقافة فى مراكش وفاس واغمات وسجلماسة وغيرها من بلاد المغرب. وقد عاد هؤلاء إلى بلادهم بعد ان كانوا قد اطلعوا على فنون جديدة وعلوم لم يكن قد اخذت طريقها للمعرفة من قبل فى بلاد السودان .

ولقد تعاون السودان في تلك الحقبة الزمنية (١٥٩١ - ١٧٦٠م) بقدر واسع في اثناء حركة الفكر العربي الاسلامي ودفع الفكر الاسلامي والثقافة العربية إلى جهات اوسع وابعد في القارة الافريقية وصولا إلى وسط القارة وسواحل بنين والاكن والجوكون حيث المناطق الجنوبية التي لم يكن للحركة الاسلامية ان تصل إليها الا بفضل الوجود المغربي المكثف في بلاد السودان واسبق علماء السودان (احمد بابا، محمود كعت، عبد الرحمن السعدى، وغيرهم من علماء هذه البلاد على حركة الفكر الاسلامي والتعليمي دورا لا يقل شانا عن غيرهم من علماء الشرق الاسلامي والمغرب ذلك لان مؤلفاتهم قد اخذت طريقها للتدريس بين ايدي الطلاب في جامعات المشرق والمغرب، بل ان بعضا من هؤلاء الاساتذة السودانيين مارسوا تدريسهم في جامعات المغرب احمد بابا، عبد الرحمن السعدى في جامعات القروين وفي الجامعة المصرية الازهر في ذلك الوقت) بل ان عديدا من الاساتذة السودانيين قد تضلعوا في علوم التفسير الحديث مما جعلهم يقومون بتدريس هذه المواد في جامعة الازهر .

لكن رغم ما استجد من علوم دراسية لم تكن معروفة من قبل الا ان علوم الشريعة الاسلامية بفروعها المختلفة وعلوم اللغة العربية ظلت هي الاساس في الحركة العلمية والتعليمية في السودان خلال فترة الوجود المغربي في بلاد السودان، بل ان هذه العلوم كانت جميعها تدور حول المذهب المالكي الذي كان هو مذهب هذه البلاد والذي قدم إليها من المغرب وقد ساد المغرب والسودان معا ومن هنا حرص اهل السودان على اتباع تعاليم هذا المذهب والاخذ بها في جميع مناحي الحياة اليومية ولقد التزمت المدرسة الشرعية السودانية بقالب معين في الفكر الشرعي لم تحاول الاخذ بأسلوب العرض والتحليل والاجتهاد مما اصاب هذه المدرسة بالقصور واتهمت بالمعرفة السطحية لاغراض العلوم الشرعية .

ولقد حفلت الحياة العلمية بالعديد من العلماء السودانيين الذين ساهموا في اثناء النهضة العلمية بتلك البلاد في المجالات الشرعية والعلمية والادبية والذين ظل نشاطهم قائما حتى نهاية القرن السابع عشر وكان لهم ابداعات في ميدان التأليف والمناقشات في المسائل العلمية والشرعية والدينية واللغوية وساهم علماء سنغاي في خدمة العام ونشره بين طبقات الطلاب الدارسين والمثقفين والمتطلعين إلى المعرفة لاسيما وان العلماء قد حظوا بمكانة عالية في اعين الناس وقد استمر التقدير والاحترام للعلماء سواء تعلق الامر بالسكان او بالحكام، بل ان السوداني وصل به الحد في تقدير واحترام رجال العلم والدين إلى انه اعتبر عالم الدين والفقيه والقاضي جزءا لا يتجزأ من كيان الشرع نفسه، ومن اجل ذلك فقد نسب لبعض من هؤلاء العلماء بعض الخوارق والكرامات ووضعوا في مصاف الصالحين والاولياء وذلك لما تركوه من آثار وبما طبعوا به المدرسة السودانية في هذا المجال لاسيما انهم كانوا يعيدون عن الحكم والسياسة، وقد احترم السلطان احمد المنصور نفسه صاحب فكرة الغزو وخليفة المسلمين في المغرب والسودان رجال الدين والعلماء السودانيين وقدرهم حق التقدير والاحترام ومن ذلك فان العالم السوداني احمد بابا عندما قدم للسلام على المنصور جعل موظفو القصر حجابا بينهما فرفض احمد بابا ان يتحدث مع المنصور الا اذا رفع الحجاب وقد لبي طلبه وتكلما وجها لوجه في امور السودان وما لحق بالعلماء من جراء تعسف الحاكم محمود زرقون .

هكذا حظيت فترة الحكم المغربي باهتمام وعناية كبيرة بالتعليم من جانب السلطة والشعب نظرا لارتباط التعليم بالمقومات الدينية التي كان يهدف المنصور ورجالها حكمه إلى ترسيخها والدعوة إليها بين الاهالي ونشر الدعوة الاسلامية بين الوثنيين . وقد حظيت هذه النهضة بسمعة مدوية في العالم الاسلامي من ازدياد حركة

النقله والترحال لاسيما جامعة تمبكتو وكانت سمعتها تضارع جامعة فاس والقاهرة وتونس وغيرها من الجامعات الاسلامية في ذلك الوقت، بل ان هناك آراء تذكر ان محمود زرقون الذى خلفه جودر في حكم بلاد السودان ارسل العلماء السودانين ليس مبعدين او مضطهدين كما قيل بل للاطلاع على جامعات ومعاهد العلم وامهات الكتب ودراسة طرق العلم والتدريس في بلاد المغرب والا لماذا سمح لهم بالعودة من المغرب إلى السودان بعد قضائهم فترة من البحث والتدريس والاطلاع والتأليف، بل العديد منهم قد ألف كتباً في بلاد المغرب والذين منهم احمد بابا الذى ألف جزءاً من كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج في السودان واتم الجزء الباقي في مراكش مما يعطى الدلالة بانهم كانوا في رحلة علمية وليس للنفي والا لاختار لهم محمود زرقون باشا السودان مكاناً بعيداً إلى الجنوب حيث الوثنيين والذى كان يقوم فيه حكام سنغاي السابقين من الاساكي بارسال المنفيين او المسجونين إلى هذه البقاع، كما انه قد سمح للعلماء السودانين بان يصحبوا مكتباتهم معهم في رحلتهم إلى المغرب. وان يقابلوا الخليفة المنصور السعدى نفسه ويتحدثوا معه في شئون بلادهم .

وهناك العديد من الطلاب صحبوا هؤلاء العلماء في رحلتهم إلى المغرب حيث درسوا امهات الكتب على الاساتذة السودانين والمغاربة وحيث كانوا يحضرون بمجالس العلم بفان ومراكش او يتجهون إلى مصر والحجاز لاداء فريضة الحج .

ومن المؤكد ان المدن السودانية التى كانت تضم المراكز الثقافية والحضارية السودانية قد تحولت اثناء الحكم المغربى من مراكز للاشعاع الدينى إلى مراكز للاشعاع الثقافى والحضارى واصبحت من المدن المشهورة فى العالم العربى والاسلامى كبقية المدن التى ترقد فيها معالم العلم والثقافة وتعج بالاساتذة والطلاب والمؤلفات الكثيرة. ولكن تطلع العالم الاسلامى باثرة والعالم الاوربى المعاصر فى ذلك الوقت بمعرفة

الكثير عن المراكز الحضارية الاسلامية جنوب الصحراء الكبرى ويدات محاولات العديد من الاوربيين لمحاولة معرفة الكثير عن جامعة سانكرى فى تمكيتو التى اصبحت مركز الحضارة والثقافة العربية الاسلامية فى ذلك الجزء المجهول من العالم الاسلامى واصبحت تشكل مدرسة جامعة إلى جانب المدارس والجامعات العربية الاسلامية فى البلاد الاخرى ولقد تركت فترة الحكم المغربى بصماتها المتعددة فى مختلف المجالات الحضارية وشهدت الحياة الاجتماعية والمجتمع السودانى تطوراً واسعاً فى القرن السابع عشر الميلادى وتغيرت اساليب وانماط الحياة والمعاملات والسلوكيات اليومية والحياة القبلية والطبقات الاجتماعية وعادات الملبس والمأكول والطعام والاحتفالات والزواج والفنون (انظر حركة الفنون والعمارة فى غرب افريقيا، للمؤلف، مجلة الفيصل السعودية العدد ١٠٧، فبراير ١٩٨٦) .

وهكذا ساهمت حركة النشاط المغربى اثر الفتح فى التطور السياسى والاقتصادى والثقافى فى جميع المجالات المختلفة فى المجتمع السودانى (انظر رسالة الدكتوراة، للمؤلف، السياسة الخارجية لسلطنة سنغاي الاسلامية جامعة اسبوط، ١٩٨٣) .

محمد الغربى، بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى، بغداد، ١٩٨٢
للاستزادة عن اثر الفتح المغربى لبلاد السودان الغربى حيث ان المجال هنا لايتسع للحديث عن مآثر تلك الغزوة بهذه الصورة التى يراد منها اختصار العناصر بصورة تتناسب مع دراسة الموضوع عن الدولة السعدية وليس عن فتح السودان، ذلك لان هذا الموضوع قد اعدت فيه العديد من الدراسات الاكاديمية والتى فيها كانت الدراسات لدرجة الدكتوراه) ونكتفى بهذا القدر عن غزوة بلاد السودان فى عهد المنصور وعلى الذى يريد الاطلاع والتوسع فى هذا الموضوع ان يعود إلى هاتين الدراستين ويضاف اليها دراسة الدكتور عبد الكريم كريم. عصر المولى احمد المنصور الذهبى دكتوراة،

آداب عين شمس ١٩٦٩) وبهذا يتاح للباحث المتعمق الاطلاع على هذه الرسائل الثلاث حول الموضوع. ليدرك ان ما اشيع حول الغزوة والاضرار ببلاد السودان وانها آخرت تقدم السودان والسودانيين لم تكن غير قرية اوربية باطلة يراد من ورائها الاساءة والتقليل حول كل عمل عربى اسلامى من شأنه ان يعود بالفائدة والخير على بلاد الاسلام ان الذين يطالعون هذه الرسائل الثلاث يدركون البعد المغربى فى تغير وجه الحياة السودانية بصورة تامة وفقا لما كان يسود عالم المغرب العربى فى ذلك الوقت من القرن السابع عشر الميلادى .

الفصل السادس

الدولة السعدية بعد احمد المنصور الذهبى

تعرضت المغرب بعد وفاة المنصور الذهبى لكثير من المحن والشدائد، بل ان الاخطار قد زادت على البلاد واشتدت وطأة التدخل الاجنبى الخارجى والاحتلال الاوربى والتركى، فقد استفاد فيليب الثالث ملك اسبانيا من هذه الظروف لتصفية قضية المسلمين الاندلسيين (المورسكين) نهائيا واستغل طلب ابناء المنصور لمساعدته فى مقابل تنازلات اقتصادية وسياسية واستراتيجية ولم يلبث فيليب الثالث ان امر فى عام ١٦٠٩م بطرد جميع المسلمين الاندلسيين (المورسكين) من جميع المدن والقرى الاسبانية. وقد تم تنفيذ هذا القرار بالفعل ونجحت اسبانيا فى تصفية بقايا الاندلسيين ويبلغ عدد الذين طردوا على هذه الصورة نصف مليون مسلم من ديارهم فنزلوا سواحل تونس وطرابلس والجزائر والمغرب الاقصى ويقدر بعض المؤرخين (فيليب حتى، تاريخ المغرب) ان عدد المسلمين الذين طردوا من الاندلس منذ سقوط غرناطة حتى النصف الاول من القرن السابع عشر الميلادى بنحو ثلاثة ملايين مسلم هاموا على وجوههم فى شتى انحاء البلاد الاسلامية لكن وفاة احمد المنصور الذهبى كانت دافعا لفيليب الثالث لتصفية جذور المشكلة ومن هنا فقد استطاع ان يضع نهائيا حلا لمشكلة التواجد الاسلامى فى اسبانيا .

ولقد اهتزت صورة المغرب بعد وفاة المنصور ذلك لان المغرب الذى كان ينعم بالقوة والسيادة والاستقرار والياس والشدة فى مواجهة الاخطار والاحداث فى عهد الخلفاء السعدين الاوائل حتى وفاة المنصور، ذلك لان هؤلاء الخلفاء كانوا يضعون فى خططهم الاهتمام ببناء الكيان المغربى القوى ورفع شان هذه الديار امام القوى الخارجية التى تترىص به الدوائر والمحافظة على الاستقلال الوطنى والامساك بلعبة التوازن

فى العلاقات بين القوى الكبرى فى ذلك العصر .

لكن المغرب بعد وفاة المنصور مباشرة بدا يعانى من عوامل الانحلال والانقسام والصراع والتفكك والتقهقر والانطواء داخل حدوده والتشردم وقيام كيانات صغيرة على ارضه لاسيما فى عهد الخلفاء المتأخرين الذين تدافعوا على كرسى الحكم الذى كانوا يتقاتلون عليه من اجل الفوز به وعلى حساب الكرامة المغربية او القتل والتدمير وقد ادى ذلك إلى الضعف امام اعداء المغرب فى الداخل والخارج . وفقد الشعب ثقته فى حكام السعدين بعد ما كان يرى ويستمتع ويشاهد الاحداث والصراعات الدامية على ارضه من اجل المنصب لا من اجل المصلحة العليا للقيادة الاسلامية الشريفة، فبدأ الشعب يتطلع إلى قيادة اسلامية جديدة شابة تستطيع ان تمسك زمام الامور وتاخذ بيد الشعب إلى طريق الوحدة بعد ان تهالكت القيادة السعدية وبدات النهاية تقترب والكهولة تعنى النهاية وبات الامر مجرد سنوات قصيرة حتى تكون النهاية قد حلت وبدات اوضاع سياسية جديدة بقيادة اسرة شريفة جديدة تقود المسيرة إلى ما يحقق اهداف الشعب العربى المسلم .

ولقد كان هناك الكثير من الاسباب والعوامل التى عجلت بوضع نهاية للأسرة السعدية بمجرد وفاة الخليفة احمد المنصور الذهبى لاسيما ان نظام ولاية العهد الذى كانت تسير الدولة على اساسه فى تولية الحكم قد دفع البلاد إلى كوارث ومتاعب كثيرة لأنه لم يكن يلتزم بان يكون اكبر ابناء الخليفة هو ولى العرش ولكن كانت هناك اعتبارات اخرى فى اختيار ولى العهد مما كان يترتب عليه حدوث التنافس والتطاحن والقتال بين ابناء الخليفة او احد ابناء البيت السعدى بالقوة اكثر من غيره او انه يستطيع ان يجد الانتصار الذين يؤيدونه فى تولي الحكم فانه كان يتحدى ولى العهد الشرعى وينقض على مقاليد الحكم ويعمل على الاستيلاء على السلطة الشرعية

عن طريق القوة وكانت هذه الافعال التى تدور حول العرش تدفع بالاهالى إلى التمرد وعدم الثقة فى الخلفاء وزوال هيبة الدولة وانقسام ابناء البيت السعدى بين مؤيد ومعارض لولى العهد او الحاكم الشرعى وبين من استخدم القوة والتفوذ فى الاستيلاء على السلطة ولقد حدث الصراع على اشدة بين ابناء المنصور الثلاثة بعد وفاته مباشرة وكان قرار المنصور السعدى بتعيين اولاده حكاما على الولايات والاقاليم ايدانا بتفكك الدولة وبداية انهيارها بعد وفاته وكان الصراع قد بدا اولاً فى ولاية زيدان والمأمون وأبى فارس وكان تقسيم احمد المنصور الذهبى حكم الخلافة على اولاده الخمسة فى تجربة مكررة للحكم اللامركزى والذى كان قد جر الويال على البلاد باستمرار وعلى السلطة الاقليمية الحقيقية التى كان يتولاها ابناء الخليفة السلطان .

(أ) الخليفة زيدان بن احمد المنصور

١٠١٢ - ١٠٣٧ هـ

تمت بيعة زيدان بعد وفاة ابيه في ربيع اول عام ١٠١٢ هـ وكان زيدان يتولى حكم مدينة فاس شانه شان كل اولياء العهد الذين يتولون حكم هذه المدينة باعتبارها المدينة الثانية في البلاد بعد مراكش ومن يتولاها لابد ان يكون خليفة البلاد بعد كوت الخليفة وذلك لكي يكسب خيرة الحكم وادارة شئون البلاد، لكن كان مقر الخلافة في مراكش لذا نجد ان اهل الحل والعقد والاعيان وعليه القوم والشعب قد بايعوا اخاه في مراكش، لكن زيدان كانت قد تمت مبايعته من اهل فاس وابا فارس تمت بيعته من اهل مراكش ولم يعترف اهل مراكش ببيعة اهل فاس لزيدان. لذا كان في البلاد حاكمان احدهما وهو الشرعى في فاس والثانى في مراكش ومن تلك اللحظة بدأت الاخطار تدق ناقوسها في البلاد ايدانا بدخول البلاد فترة صراع جديد، بعد ان استتب الامور خلال اكثر من ربع قرن في عهد المنصور الذهبي ومن ثم تم انقسام البلاد بين الاخوة وظهر الصراع والتنافس على اشددة وانقسمت القوات والقبائل والبيت السعدى نفسه بين مؤيد لزيدان ومعارض لابي فارس وبالعكس وبدأت الحرب الاهلية والصراع الدموى والقتال الضارى يشتد بين الاخوين زيدان في فاس وابو فارس في مراكش وبدأ كل منهما يجهز قواته ويستعد للقتال وبات الشعب مهددا في آمنه داخلها وبالاحتلال من الخارج ونسى كل من ابناء المنصور قضية البلاد الكبرى وهى المحافظة على الاستقلال ودولة المنصور في السودان والانتهاء من الجيوب الاستعمارية في البلاد وتلاقت قوات الاخوين في مكان بالقرب من ام الربيع يقال له (اخواته) لكن قوات الحاكم الشرعى زيدان انهزمت امام قوات ابي فارس والتي كان يقودها اخ ثالث لهما بدلا من ابي فارس هو المامون وتراجع زيدان بمن بقى معه من قواته إلى فاس، لكن

الشقيق الثالث وقد استبدت به شهوة الحكم بعد ان حقق انتصار ام الربيع على زيدان ساورته نفسه فى الحكم ومن ثم طمع فى الاستيلاء على فاس وان ينصب نفسه ملكا عليها بدلا من زيدان ويستقيل عن اخيه ابي فارس فى مراكش ما دام هو صاحب الانتصار فلا بد له ان يحكمها بدلا من اخيه فى مراكش .

ولما كانت قوات زيدان قد انقضت من حوله ولم يعد له طاقة فى قتال المامون فقد ترك فاس وفر إلى الأتراك فى تلمسان بطلب عونهم ومساندتهم فى العون إلى حقه الشرعى فى الحكم ودخل المامون فاس واستقر الحكم له ونصب نفسه سلطان وخليفة للبلاد، ثلاثة خلفاء زيدان وابو فارس والمامون) بل اكثر من ذلك فان المامون بعد ان كسب التأييد وشعر بالقوة عزم على القضاء على اخيه ابي فارس والاستيلاء على مراكش ليكون الحاكم الاوحد فى البلاد بعد ان فر زيدان إلى تلمسان وكان عليه ان يجهز قوات كثيرة العدد والعدة وان ينفق الاموال الطائلة على تجنيد القبائل وحشد القوات المرتزقة من العبيد والاوربين وعهد بقيادة هذه القوات إلى ابنه (عبد الله بن المامون) الذى استطاع ان يهزم قوات عمه ابي فارس وان ينجح فى دخول مراكش وبهذا الانتصار استطاع المامون ان يوحد البلاد تحت حكمه منذ وفاة ابيه المنصور ودانت له فاس ومراكش فى شعبان عام ١٠١٥ هـ .

لكن هل استقرت الامور على هذا المنوال طبعاً لا فقد كان زيدان الحاكم الشرعى للبلاد يقف لهم بالمرصاد بعد ان امده الاتراك فى تلمسان بالاسلحة والذخيرة والرجال فتقدم من وجدة إلى سجلماسة واستولى عليها ثم دخل درعه وبلاد السوس فى الجنوب حيث المركز الاول للدعوة السعدية ومن الجنوب استطاع ان يحشد قواته ويعد عدته متطلعا إلى مراكش التى استطاع ان يدخلها وان يهزم قوات عبد الله بن المامون وفر عبد الله إلى ابيه فى فاس ولكن زيدان استطاع ان يتبع قلوله المنهزمة وان

يقضى على قوة فاس، لكن الحرب سجال فقد حشد عبد الله بمعاونة ابيه المامون قواتهما وتحالف سويا من اجل طرد زيدان من مراكش وفعلا نجحا للمرة الثانية فى طرده منها بعد ان استقر لهم المقام فى فاس ومراكش للمرة الثانية .

لكن ازاء هذه الاحداث الدامية فقد استقر راي اهل مدينة مراكش على مبايعة احد افراد البيت السعدى من غير ابناء احمد المنصور هو الامير السعدى محمد بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ المهدي وهو ابن عم زيدان وابي فارس والمامون ومن هنا فقد دخلت شخصية رابعة من خارج ابناء المنصور فى الصراع على العرش وذلك بتأييد شرعى من اهل الحل والعقد واعيان مراكش وحشد الامير السعدى محمد ابن عبد المؤمن بن محمد الشيخ قواته بيدعته سكان مراكش، وقتلوا عبد الله بن المامون بن احمد المنصور وتم طرده من مراكش ونصب ابن عبد المؤمن حاكما على مراكش وكان ذلك فى شوال فى عام ١٠١٦ هـ ولم يستطيع عبد الله بن المامون ان يعود ادراجه مرة اخرى إلى مراكش بعد ان فر إلى فاس، لكن الحاكم الجديد لمراكش محمد بن عبد المؤمن وقع فى اخطاء كثيرة من جراء شهور حكمه القصير حيث لم يجد الاجراءات التى اتخذها قبولا لدى سكان العاصمة مما دفعهم بان يتحالفوا ضده ويضمروا شرابه فقاموا بالكتابة إلى الحاكم الشرعى او خليفة البلاد الذى خلف اياه احمد المنصور السعدى الامير زيدان الذى استطاع ان يدخل مراكش للمرة الثالثة وان يهزم قائد جند محمد بن عبد المؤمن وازاء هذه الاحداث المتلاحقة ادرك زيدان انه لا بد من القضاء نهائيا على قوة المامون اخيه وابنه عبد الله وتحطيم قواتها نهائيا حتى يتفرغ لحكم البلاد منفردا بعد ان طرد محمد بن عبد المؤمن نهائيا من مراكش وتحرك إلى فاس وطرد المامون وابنه عبد الله منها وهزمهم هزيمة نكراء وضع بها نهاية لكل ما كان يدور من احداث على ارض المغرب وانضم اثر انتصارات كل مؤيدى المامون من قوات

فاس إلى زيدان واستطاع زيدان ان يقضى على قوات التحالف بين المامون وابي فارس ومحمد الشيخ وان تستتب له الامور فى البلاد بعد صراع طويل انتهى مؤقتا عام ١٠١٨ هـ بعد صراع بين الاخوة المتصارعين وابن عمهم لفترة زادت عن ست سنوات (١٠١٢ - ١٠١٨ هـ) شهدت فيها الوانا من العذاب والانهيار والاهمال والفوضى والصراع الدامى. وانقسمت البلاد وقل الانتاج وانهك الاقتصاد واضمحلت الصناعة وخربت الزراعة وهجرت المدن من سكانها وسادت البلاد حالة من الكساد والفقر والتفكك الاجتماعى والتدهور الاقتصادى وظهرت على السطح امارات محلية واستقل حكام المدن كل بمدينة وكان التاريخ يعيد نفسه هذه المرة على ارض المغرب ارض الاندلس ملوك طوائف بصورة اخرى تهدد البلاد بالانقسام وطمع الاعداء وكثرت المحليات الصغيرة التى خرجت عن طاعة فاس ومراكش فى ظل الصراع الطويل بين ابناء البيت السعدى من اجل الشهوة والسلطة وكثرت الثورات فى مختلف نواحي البلاد وكثر الخارجون على الشريعة الرافعون لراية العصيان وكثرت المنازعات وساد شعور عام بين الطوائف بان العرش اصبح مطمعا شخصيا وسادت النظرة الفردية دون مصالح الامة والعقيدة والمستقبل والارض المحتلة والبلاد السودانية المترامية فى الجنوب والذى بذل لها المنصور السعدى كل غالٍ ونفيس وكل جهد وعرق من اجل بناء وحدة اسلامية كبرى وشهدت هذه السنوات الست مقدمات الانهيار الاكبر للدولة وبدات اطراف الدول تتعرض للغزو وللانقطاع نظرا لعدم وجود الحاكم الشرعى الذى يحمى الديار من التدخل الاوروبى الاسبانى والانجليزى والفرنسى والمطامع الاوربية المتزايدة من قبل القوى الجديدة كهولندا وفرنسا وانجلترا وغلبت شهوة الحكم واعتلاء كرسى العرش على عقول الحكام، مما دفعت المامون بن احمد المنصور من اجل المصالح الفردية ان يرتضى فى احضان الاسبان طالبا المساعدة فى تولى العرش متنازلا عن ديار الاسلام والمسلمين وارض الاجداد ولاسيما حيث قبل ان يتنازل للملك فيليب الثالث

ملك اسبانيا وان يحقق حلم الاسبان للتقديم وهو ميناء العرائش وكان هذا هو الشرط الذى اشترطه فيليب الثالث ان يسلم ميناء العرائش ليدخل إلى فاس والميناء الغربى الهام الذى كانت تتصارع عليه القوى الثلاث الكبرى تركيا والبرتغال واسبانيا قبل معركة القصر الكبير ١٥٧٨م سلم بسهولة نظير نزوة الحكم وشهوة السلطان وكان ان قبل المامون ان يبيع بلاد الاسلام والمسلمين وخان قضية البلاد والعقيدة فبدلا من ان يقود المامون قواته لتحرير البلاد والثغور المحتلة من اهله فى ايام رمضان عام ١٠١٩هـ وسلمه للاسبان وللأسف الشديد يتحرك شمال البلاد (بلاد الريف) بمساعدة القوات الاسبانية ويقدم العون والدعم والمساندة للاسبان ويتم الاستيلاء على ميناء العرائش بعد ان افرغه من اهله فى ايام رمضان عام ١٠١٩هـ وسلمه للاسبان وللأسف الشديد تم ذلك فى الشهر الحرام شهر الصيام ونزول القرآن بل ان ذلك كان فى الربيع الاخير من الشهر وسكان الثغر المسلمين يغادرون ديارهم ووطنهم من اجل مطامع شخصية (هذا هو حال المسلمين) فهل وجد فى تاريخ اوربا المسيحية من يتنازل عن الديار من اجل المصالح الشخصية ومطامع الحكم وهكذا تكررت الاحداث وقضية عبد الله الغالب وابنه محمد المتوكل فى التنازل عن ديار الاسلام والمسلمين وتواطؤوا مع الصليبين المحتلين طلبا للمساعدة العسكرية والمساندة التى ترفع الصليب بدلا من نداء الله اكبر وخيانة للعقيدة ولمصالح الشعب المغربى العليا وتسليم بلد من بلاد الاسلام للفرجة. لكن الشعب المغربى الابى المتدين العريق العميق العقيدة الراسخ الايمان ثار لحماية الاسلام وتواطىء السلطان مع اعداء الدين والبلاد وقاد الشيخ ابو العباس احمد المقرئ صاحب كتاب نفح الطيب الثورة فى الشمال ضد المامون وتزعم ثورة العامة الذين استطاعوا قتله لما قام به من افك فى حق الاسلام والمسلمين وكان قتله عام ١٠٢٢هـ وبهذا يكون الصراع قد استمر عشر سنوات (١٠١٢ - ١٠٢٢هـ) منذ تولى الحكم الامير زيدان مقاليد الامور فى البلاد اسميا وبهذا وضعت نهاية محزنة لمن خان شرف

الشرافة السعدية وقدسسية الارض والتراب الوطنى وخرج عن شرع الاسلام ولقى اخوه ابو فارس مصرعه مثل المامون وذلك بقتله خنقا نظرا لاستهانتة بحق الدولة والدين والعقيدة وكان ذلك قبل موت المامون بربع سنوات اذ كان ذلك عام ١٠١٨هـ ولكن زيدان الذى استمر يقود سفينة الحياة للبلاد باذلا كل جهد لمقاومة الثورات والمؤمرات على حكمه ومواجهة تحديات الخطر الخارجى وفقد المغرب قوته ووحدته من جراء هذا الصراع الطويل الذى استمر مع ابى فارس ست سنوات ومع المامون عشر سنوات نتج عنها توزيع حكم البلاد إلى ولايات واقاليم ولم يكن زيدان الحاكم الشرعى للبلاد يحكم سوى مراکش وام الربيع وابن عبد الله بن المامون الذى كان يتولى حكم فاس والتى تولاه من بعده اخوته ابناء المامون إلى جانب حكم زعماء العشائر ورؤساء القبائل وبعض الثورات فى بلاد السوس ولقد كان زيدان بن المنصور الخليفة الشرعى للبلاد نظرا لقوة صبره وقدرته على مواجهة الصعاب والتحديات وانه فى النهاية استطاع ان ينفرد بالحكم وعلى كل الذين يقاتلونه ويقومون بالثورة عليه وكما ذكرت بعض المصادر الاوربية يوفل. ان مولاى زيدان بن احمد المنصور وخليفة ابيه قد شعر بالخيبة حين رأى قلة ما تركه له ابوه صاحب السمعة المدوية والمشهور بالذهبي ان الخزائن تكاد تكون خاوية وان غزو السودان قد استنفد مواد وطاقت هائلة وتكاليف باهظة وان هذه الغزوة قد قضت على ثلاثة وعشرين الف جندي وان كل من عاد من بلاد السودان عند استبدال القوات والاحلال قد مات من جراء الامراض التى كانوا يحملونها معهم وظهرت الخزائن خاوية فارفة وان ما تحملت البلاد خلال الغزو وما استنفد من الرجال والمعدات وذهب كله عبثا (اقوال مضادة للاسلام والمسلمين) لكن اليفرنى يذكر بعد خمسين عاما من عودة الحملة الاولى ونجاح المهام الموكلة اليها ان المغاربة كانوا وما زالوا بعد موت المنصور بفترة طويلة يذكرون بالفخر النتائج التى تحققت لاسيما بتدعيم اواصر الاخوة الاسلامية وتوسع ديار الاسلام وانتشار الدعوة

الاسلامية واقبال السودانين على البلاد المغربية حيث لازالت الاثار المغربية والاثار الحضارى ظاهرا فى كل اوجه الحياة وعلى الرغم من الثروة التى حصل عليها المنصور من الذهب فان فضل الدعوة الاسلامية والدخول فى الاسلام باعداد كبيرة من القبائل الوثنية يعوض كل اثر اخر .

ولقد شهد سنوات حكم زيدان بن المنصور الغزو الاوربى لالتهم القارة الافريقية كما حدث فى ايام الامير هزى الملاح منذ قرابة قرنين ذلك لان وجود احمد المنصور فى السلطة فى الغرب كان يشكل حاجزا قويا ضد الاطماع الاوربية عامة فى بلاد السودان ولقد كانت السنوات التى امضاها زيدان منفردا بالحكم منذ عام ١٠٢٢هـ حتى عام ١٠٣٧هـ خمسة عشر عاما اعواما قاسية فى ادارة البلاد، ذلك لان الاوضاع التى كانت تسود فى عهد المنصور قد ولت ولن تعود القوة والثروة والمكانة الدولية التى حققها المنصور والعلاقات الدولية فى كبريات الدول فى العالم المعاصر والتهافت على اقامة علاقات مع المغرب، كل ذلك لم يكن الا اهدافا وخواطر تروى عن عهد قريب وتبدل الحال غير الحال فلم تعد قوة الدولة مرهوبة داخليا ولا خارجيا ولم يعد السلطان الحاكم من القوة والنفوذ حيث يحسب له حساب من رعيته او فى المجال الخارجى .

لكن رغم الثورات الداخلية والصراعات الاسرية فان الحكم المغربى كان قد وطد نفوذه فى البلاد السودانية وكان الحكام الباشوات لازالوا يحكمون البلاد باسم الخليفة السلطان السعدى والقوات المغربية تتحرك إلى الجنوب طلبا لما يحتاج اليه الباشا الجديد والاتصالات مستمرة والاحوال العامة فى تقدم والمغاربة يبذلون جهدهم فى ان يجعلوا صلة الربط بينهم وبين السودانين قوية لاسيما انهم قبلوا العيش فى ظل حكم واحد وادارة مغربية لمس الافريقى بها مباحج الحضارة المغربية فاندفع ياخذ منهم ما يتلائم مع

قيمه وعاداته وتقاليده وكذلك فان المغاربة الذين استقر بهم القيام وطابت لهم المعيشة تزوجوا من بنات السودان وامتلكوا الدور والزروع واستعدوا للاقامة الدائمة فى هذه الاوطان وهذا دليل قوة العقيدة الاسلامية والبناء الاسلامى الواحد ذلك لان المجتمع السودانى قد قبل عن طيب خاطر ورضى الوجود المغربى الذى استقر وتعايش الجميع تحت الحكم السعدى باعتبار ان السعدين مسلمون وافارقة وانهم كانوا يعيشون على مقربة منهم فى الصحراء جنوب بلاد السوس قبل الانطلاق لتكون الدولة السعدية وانهم كانوا يجاهدون البرتغاليين ويصدونهم عن التوغل للداخل وكان السودانى يرى فى ذلك دفاعا عن وطنه وترايه وعقيدته ولم ينظر فى يوم من الايام إلى ان المغربى جاء محتلا او صاحب سيادة بل عاش الجميع فى ظل راية الاسلام اخوة، كما ان زيدان بعد ان فرغ من صراعه ابدى اهتماما بالاحداث الجارية فى بلاد السودان وواصل سياسة أبيه فى النهوض بهذه الاقاليم الاسلامية .

ب - الدولة السعدية بعد زيدان بن المنصور

عبد المالك بن زيدان

ب وفاة الخليفة زيدان بن احمد المنصور الذهبي عام ١٠٣٧ هـ بعد ان ظل يحكم البلاد فترة ما يقرب من ربع قرن من الزمان قضاها في محاربة اخوته واخماد الثورات والتقرب إلى الاطراف الدولية المعاصرة والاستعانة بالاتراك لاجل الاستمرار في السلطة لكنه قبل وفاته كان قد اخذ البيعة لابنه عبد المالك لكي يتولى الحكم خلفا له وتم تنصيب عبد المالك بعد وفاة ابيه مباشرة وبايعة اهل الحل والعقد وعليه القوم وكبار رجال الدولة والجيش في مراكش لكن هذه البيعة لقيت معارضة شديدة من جانب اخوته الوليد بن زيدان واحمد بن زيدان وتمردا عليه وقاد قواتهما لاسقاطه عن العرش في مراكش ونشبت بينهما معارك كثيرة استغلها احمد في الفرار من داخل مراكش واللجوء إلى العاصمة فاس حيث استطاع الدخول اليها والانفراد بالحكم بها عام ١٠٣٧ هـ نفس عام تولية عبد المالك ومن هنا انقسمت البلاد على نفسها بين الولاء لعبد المالك واخيه احمد كل منهما سلطانا على الاجزاء التي يحكمها من المغرب لكن احمد بدأ ياخذ اهمية الملك السلطان ف ضرب السكة باسمه في فاس واستقبل السفراء وراسل الملوك السلاطين في الخارج باسم حاكم فاس وخليفة السعدين ولما كانت افعاله قد خرجت عن المألوف والمتعارف عليه بين ابناء الاسرة السعدية ومن طوائف الشعب المختلفة فان الشعب بتحريض من عبد المالك وتاليب القواد العسكريين عليه فقد تم اعتقاله وسجنه فترة طويلة من الزمن لكنه استطاع بمعاونة رجال السجن ان يقر من سجنه لكن قوات عبد المالك تتبعته حتى تم قتله عام ١٠٥١ هـ .

ولقد احس الشعب المغربي من طول المعاناة والصراع بين افراد البيت السعدى طوال فترة تقرب من نصف قرن منذ وفاة احمد المنصور وقد ادى قتله إلى عدم

الاكتراث بالخلفاء ورجال السلطة والحكام والسخرية من افراد الاسرة الحاكمة نظرا للافعال التي كانوا يقومون بها وتعاونهم مع المحتل الغاصب بدلا من طرده من الديار الاسلامية يسلمون له البلاد بعد ان يتم طرد المسلمين وتسليمها خالية من السكان إلى العدو الاسباني، كما ان شهوة الحكم والمطامع الشخصية والتامر على البلاد والعباد وبيعها للفرجة لكن ازاء كل هذه الاحداث والمصائب التي حلت بالبلاد لم يكن مقتل احمد بن زيدان كافيا لكي يجنب البلاد ويلات الفرقة والصراع فقد قام الوليد ابن زيدان بالاعتداء وقتل الخليفة الشرعى للبلاد عبد المالك اخيه وذلك سنة ١٠٤٠ هـ بعد ثلاثه اعوام فقط من توليه السلطة، ولما لم يكن امام اهل الحل والعقد والشعب المغربى بد من ذلك هو مبايعة القاتل الذى كان يرى فى القتل وسيلة للوصول إلى الحكم بغض النظر عن مصير البلاد والعباد وضرورة ان يكون الوالى . والحاكم واضعا نصب عينيه المصالح العليا للبلاد قبل الوصول إلى الحكم لا ان يكون الحكم فترة للملذات واشباع الشهوات ولم تكن الاهداف العليا التي قامت على اساسها الدول فى البداية تعنى الحاكم من قريب او من بعيد بغض للنظر عن أن البلاد قد تمزقت وصارت كيانات صغيرة والعدو بترىص بها ورجال الصوفية والقبائل يسيطرون على البقية الباقية من البلاد ولم يعد للحاكم السعدى سوى العاصمة مراكش وبعض المناطق المجاورة لها وكما هى الحالة فى عهد ابيه زيدان لم يعد الوليد الذى قتل اخاه عبد المالك يحكم من المغرب الاقصى الواسع العريض سوى مراكش وبعض الاحواز القريبة منها بل انه لم يتوسع قليلا عما كان عليه الحال أيام اخيه عبد المالك .

ولكن الوليد بن زيدان لم ينعم بالحكم طويلا ولم يسرفى البلاد والعباد والاسرة السعدية الحاكمة كما أمر الله بل اننا نجد انه قام بالانتقام بالقتل والطرده والسجن فى كل من كان يشك فى نواياه او عدم الولاء له من افراد الاسرة السعدية وكذلك فى

كبار القواد العسكريين الذين غدر بهم وكان يرسلهم في حملات تغريبية إلى بلاد السودان أو قتلهم في ثورات كان يديرها بمعرفة رجال القصر، لكن كبار رجال القصر والحرس الخاص وقد رأوا بشاعة الأعمال التي كانت تتم وظنوا أن الدور عليهم لامحالة بعد أن توعد كبارهم بالقتل فإنهم دبروا قتله داخل القصر وهو ما تم حيث استطاعوا الانقضاض على رجال الحراسة وقتله عام ١٠٤٥ هـ بعد أن مكث خمس سنوات لم يقوم فيها بأدنى عمل يذكر سواء في النواحي الداخلية أو الخارجية اللهم إلا الفتك والقتل وسوء الظن والانغماس في الملذات وتلبية الأهواء الشخصية صارت البلاد في نظر الدول الأوروبية المعاصرة عبارة عن دويلات صغيرة وفقدت كيانها الواحد مما دفع دولة كإنجلترا أن تقيم علاقتها مع الوحدات المستقلة الصغيرة لاسيما إمارة سلا التي كان يحكمها المجاهد الإسلامي أبو عبد الله العياشي ولاسيما أن كل هذه الدول الأوروبية وبخاصة إنجلترا كانت تطمح في خيرات المغرب وثرواته الطبيعية بعد أن ظهرت هذه النوايا في عهد زيدان بن المنصور الذي سمح للهولنديين والفرنسيين والإنجليز بإقامة قواعد وحصون لهم بالساحل وتحالف معهم ضد قوات الجهاد الإسلامي البحري الذين كانوا يتخذون من موانئ المغرب مقرا لهم للتصدي للسفن الأوروبية .

وفي عام ١٠٤٥ هـ بعد مقتل الوليد لم يجد عليه القوم ورجال البلاط شخصا يتولى مقاليد الأمور في البلاد بعد أن عزف عنها أفراد الأسرة السعدية إلا طفلا صغيرا من أبناء زيدان وهو الأخ الأصغر للوليد هو محمد الشيخ بن زيدان حيث كان في مقدمة المرشحين للخلافة فتم إخراجهم من السجن الذي كان أودعه فيه الوليد وتمت مبايعته بالخلافة في مراكش وظل محمد الشيخ الصغير حاكما على مراكش وما حولها لكن السلطة الحقيقية والفعالية كانت بأيدي رجل القصر والبلاط وكبار رجال القوات العسكرية، لكنه ظل يحكم البلاد فترة طويلة وصلت إلى عشرين عاما حيث مات عام

١٠٦٥ هـ إذ سادت فترة حكمه الفوضى والضعف والانهيار السياسي والاقتصادي والفساد الاجتماعي وازداد نفوذ الحركات الانفصالية في البلاد وانقسمت البلاد إلى أكثر من عشر ولايات كل منها تمارس شؤون الحكم بمفردها بل كل منها تتصارع مع الولاية الأخرى من أجل بسط النفوذ والسيطرة وتوسيع نطاق الولايات على حساب الأخرى وكانت الفتن الدامية والدسائس تأخذ المقام الأول في المهام التي يوكل بها الخليفة للتخلص من مناوئيه أو الذين يخشى خطرهم من رجال القصر ومن رجال الإدارة أو حكام الأقاليم والامارات التي كان بعضها يقاتل البعض الآخر، بل أن كثيرا من هذه الولايات كان يرفع لواء الجهاد الإسلامي ويدخل في قتال مع الجيوش الاستعمارية الأسبانية أحكام سلا وعبد الله العياشي الذين كانوا يحققون انتصارات بمساعدة رجال الجهاد البحري .

لكن كل هذه الأمور كانت تعمل بأن تضع نهاية للدولة التي كانت بوادر نهايتها قد بدأت بموت الخليفة القوى أحمد المنصور الذهبي على الرغم من أنه قد مضى أكثر من ستين عاما على وفاته لم تشهد فيها البلاد أدنى عمل يذكر لاي من الحكام الذين تولوا حكم البلاد فإذا كان زيدان بن المنصور قد ظل يحكم البلاد منذ عام ١٠١٧ - ١٠٣٧ هـ عشرين عاما هجريا ١٦٠٨ - ١٦٢٧ وكذلك ابنه عبد المالك الذي ظل يحكم ثلاث سنوات من ١٠٣٧ - ١٠٤٠ هـ (١٦٢٧ - ١٦٣١ م) فإن محمد الشيخ ابن زيدان الذي لقب أبو عبد الله ظل يحكم أيضا من ١٠٤٥ - ١٠٦٣ هـ (١٦٣٦ - ١٦٥٢ م) فإن هذه السنوات الطوال لم تكن صورة البلاد داخليا إلا كراهية الشعب للأسرة السعدية وتطلعهم ليوم جديد لم تكن فيه هذه الأسرة قابضة على مقاليد الأمور كذلك فإن الصورة الخارجية للمغرب لم تكن إلا بعض الدويلات التي تقاتل بعضها البعض من أجل تحقيق المكاسب الشخصية والعدو الخارجي يتطلع

إلى اضعاف هذه القوى الاسلامية ومساعدة بعضها الآخر بالاسلحة والجنود وكل ذلك كى يحول دون توحيد هذه البلاد مرة اخرى حتى لايتفرغ الجميع إلى العدو الخارجى وطرده من ديارهم .

لكن تولية محمد الشيخ بعد مقتل المامون بن زيدان لم تكن لتحل مشكلة العرش السعدى ليكون الحكم فى مراكش وفاس تابعا لخليفة واحد لكن كما كانت سنة السالفين منذ عهد زيدان فان ابناء المامون فى فاس استقلوا بحكمها بعيدا عن عمهم محمد الشيخ . ولكن رغم الاستقلال بحكم فاس الا ان ذلك الحكم البعيد عن العاصمة مراكش لم يكن فى مامن من الثورات والفتن والصراعات لذا نجد ابناء المامون يدخلون فى صراع فيما بينهم وكيف لا يحدث ذلك وقد اصبح الصراع بين ابناء الاسرة الحاكمة سمة من سمات الحكم ومظهر من مظاهر الحكم السعدى .

وقد رأى عبد الله بن المامون مقتل ابيه فعمل على الاستقلال بحكم فاس لكن الثورات انتشرت فى انحاء البلاد ولم تعد له القدرة الكافية على الاستقرار بحكم فاس مما دفعه إلى الاستعانة بجماعة من القواد العسكريين اطلق عليهم اسم الشراقة وهم الذين كانوا يقدمون من الجزائر واغلبهم من القبائل العربية والأتراك للعمل فى الخدمة فى القوات العسكرية وقد استعان بهم عبد الله بن المامون بن زايد لكى يشكلوا الغالبية العظمى من جنده، لكن نظرا للأعمال البشعة والتصرفات غير الاسلامية والاعتداء على الشعب وتجاوز حدود الشرع فان ذلك دفع رجال الدين والعلماء للتصدى لهؤلاء الجنود كما كان يحدث منهم من تجاوزات مع العامة واستيلاء المحرمات والخروج عن أمور الدين فقد استطاع احد رجال الدين المدعو بالشيخ (الربوع) طرد جيش عبد الله بن المامون ومعه الشراقة من فاس، لكن ذلك أدى إلى الثورة وعدم وجود حاكم شرعى قوى يستطيع ان يحكم البلاد ويحفظ الامن ويوفر الامان للشعب فاصبحت فاس مجالا

سهلا ومطية جاهزة لكل من يريد السلطة من رجال الدين وزعماء القبائل، لكن عبد الله استطاع ان يجمع قواته ويعود إلى فاس واعلن الناس بيعتهم للامير عبد الله بن المامون بن زيدان بن احمد المنصور حاكما على مدينة فاس فى الوقت الذى كان فيه عمه محمد الشيخ بن زيدان يحكم مراكش .

الفصل السابع

احوال المغرب فى عهد الاشراف السعديين

شهد المغرب الاقصى فى عهد الاشراف السعديين نوعا من التقدم والازدهار الحضارى والثقافى والتقدم العلمى والصناعى والزراعى بل ان هناك تغيرات كثيرة قد شهدتها الساحة المغربية وانعكست على اساليب الحياة اليومية وما تلاها من تغير اجتماعى وانفتاح على ابواب اوربا وعلاقات مع الاقاليم المجاورة مما ادى إلى الانتعاش فى جميع النواحي لاسيما ان الدولة السعدية قد انتشلت البلاد من التردى التى كانت تعيش فيها فى العصر الوطاسى السابق وشهدت البلاد حالة من الاستقرار السياسى لم تشهده من قبل وان كانت السيطرة الاجنبية الايبيرية على بعض للشغور المغربية لا يقلل من انطلاق الدولة نحو التقدم والرقى والازدهار بحيث صارت محطة للانطلاق منها إلى افريقيا ومركزا تجاريا هاما سعت الدول الاوربية إلى اقامة العلاقات الاقتصادية والتجارية والسياسية معها بعد ان استطاعت ان تحفظ كيائها السياسى من الانطواء تحت السيادة التركية العثمانية ووقفت سدا منيعا ضد السيطرة البرتغالية وكسرت شوكتها فى معركة القصر الكبير ولم تحرك اسبانيا ادنى مطمع فى الاراضى المغربية .

ولقد كان عهد المنصور الذهبى هو ازهى عصور الدولة لاسيما ان احمد المنصور السعدى كان يمثل خليفة رسول الله ﷺ بحكم نسبه القرشى وبيعة المسلمين له واعتبار نفسه خليفة على كل المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها، بل انه كان يرى انه لا يصح لاي حاكم آخر ان يكون له حق استخدام لقب الخليفة وذلك باعتبار ان السعديين كانوا يرون أنفسهم انهم المنوطون بالخلافة القرشية وانهم بعث جديد فى المغرب للخلافة الهاشمية التى كانت فى السابق ممثلة فى دول الادراسة ومن هنا كان تلقيهم بلقب الخلفاء الهاشميين او لقب امير المؤمنين وانهم كانوا يرون فى كونهم من

ذرية رسول الله ﷺ تجب طاعتهم والخضوع لسلطانهم ومن هنا كانت الكلمة الاولى والاخيرة لسلطين السعديين سواء فيما يتعلق بامور الرعية والسياسة الخارجية او شئون القضاء او خطط الجيش .

وقد كون المنصور السعدى مجلسا للشورى وهو مجلس لملا المسلمين وكانت فكرة الشورى هى اساس الحكم فى المغرب على الرغم من محاولات الكتاب الغربيين لوصف المنصور والسعديين عامة بان حكمهم كان حكما مطلقا استبداديا وهذا يتناقض مع مبدا الشورى فى الاسلام الذى كان يسير عليه حكام السعديين . وكان مجلس الشورى يتكون من الاعيان والرؤساء والفقهاء وكبار رجال الدولة واهل الحل والعقد للتشاور فى امور الدولة وتقديم النصائح فى اخطر الشئون التى تمس مصالح البلاد والعباد وابداء الراى فيها . وكان هذا المجلس الاستشارى شبيها ببعض المجالس فى اوربا . ولقد كان نظام الشورى الذى سار عليه خلفاء السعديين نقطة تحول كبرى فى تاريخ المغرب فقد انتقلت فيه البلاد إلى حكم الشرع والدين وتطبيق الشريعة الاسلامية - كما ان الدولة انتقلت فى العصر السعدى إلى دولة قوية بدات تاخذ باساليب الدولة المدينة المستقرة وهو امر لم تكن المغرب قد عهده من قبل حيث ادى ذلك إلى عودة التضامن الشعبى وانطواء البلاد تحت الراية السعدية بداء من ظهور محمد القائم فى الدولة وابنائهم احمد الاعرج ومحمد الشيخ حتى عصر احمد المنصور الذهبى حيث تجددت فاعلية الحركة المغربية المشهود لها بالعمل والجد لتاخذ باساليب اليقظة الاسلامية القادرة على مواجهة التحديات والمخاطر التى كانت وراء الفتح المغربى لبلاد السودان وتكوين دولة مغربية سودانية واسعة الارجاء وقيام كيان حكم ادارى قوى ياخذ باسلوب الحكم اللامركزى فى الاقاليم والولايات والمدن الكبرى .

حيث مارس حكام الاقاليم والمدن صلاحيات حكمهم فى ظل سلطان الخلافة

التي اتخذت شعار الخلافة ومظاهرها مثل ذكر اسمائهم في خطبة الجمعة بالمساجد والاعیاد والدعاء للخلفاء السعديين وضرب اسماء الخلفاء على السكة المغربية. ولقد كان للخلفاء الاشراف الحق الكامل في تعيين الوزراء والقادة والكتاب والقضاة والفقهاء والحكام وولاة الاقاليم في انحاء الدولة وكانت الحكومة هي قمة الجهاز التنفيذي والتي ضمت شخصيات سياسية ودينية وقبلية وعسكرية وانتقى الحلفاء السعديون وزراءهم من بين من تتوافر فيهم الكفاءة الواسعة والقدرة على العمل والعطاء وسرعة تنفيذ المهام الموكلة لهم وهكذا انطلقت البلاد نحو الاعمال الانشائية في شتى البلاد والمدن حيث كانت الثروة الاقتصادية تدعم هذه المشاريع .

وشهدت البلاد نشاطا اقتصاديا واتسع مجال الانتاج الزراعي والصناعي والتجاري لاسيما ان فترة الحكم السعدي قد شهدت تغيرا عميقا في مقومات البلاد الاقتصادية وبدات الدولة تنتعش اقتصاديا (الزراعة والصناعة والتجارة) فقد توافدت على المغرب اعداد كبيرة من ابناء الاندلس المطرودين من ديارهم والذين كانوا يجدون في بلاد المغرب وطنا لهم وملادا من محاكم التفتيش والاضطهاد وهروبا من المضايقات، وحمل كل هؤلاء خبرتهم الواسعة في ميادين الزراعة والتجارة والصناعة وساهموا مع اخوانهم المغاربة في هذه النشاطات الكبرى واستخدموا سفنهم واساطيلهم في النقل البحري من المغرب واليه مع دول العالم المعاصرة .

ولقد هيا جو الاستقرار السياسي الذي كانت تنعم به البلاد طوال فترة قرن ونصف من الزمان ازدهار المناطق الزراعية المغربية حيث شهد كتاب الغرب بان المغرب لم يعد فيها شبر واحد غير مزروع او مغروس وازدهرت زراعة قصب السكر الذي كان الانتاج منه يشكل المادة الرئيسية الاولى للتصدير إلى اوربا والذي تكالبت عليه الدول الاوربية التي كانت ترى في تجارة السكر ما يحقق لها ارباحا كثيرة ولاسيما ان زراعته

كانت تنتشر حول مراكش .

ولقد قام في العهد السعدي وبصفة خاصة في عهد السلطان احمد المنصور السعدي اربعة عشر مصنعا لانتاج السكر لا زالت آثار بعض منها باقية إلى الآن شاهدة على التقدم الصناعي في المغرب والتي كانت هي اول دولة في العالم تقوم بتصدير مادة السكر إلى اوربا وكانت مدينة شيشاوة على بعد ثمانية كيلو مترات جنوب مراكش من اشهر المدن في انتاج وتصدير السكر .

وكانت مناطق فاس ونواحي مراكش وحوض نهر سبو الاوسط وناظور وغيرها من المناطق الزراعية في المغرب خصبة وتجد بعطائها المحصولي الوفير حيث تنوعت المحاصيل الزراعية وكثرت المنتجات التي كانت تصدر إلى اوربا والسودان وكثرت تربية المواشي والحيوانات الاخرى والابل وتربية الخيول وتركزت في زراعة الفواكه والكروم والزيتون في كل الاقاليم الجنوبية لاسيما مدينة تارودانت .

وتطورت الصناعة تطورا هاما واخذت بعدا جديدا لم تشهد البلاد من قبل وابدى سلاطين السعديين اهتماما كبيرا بهذا الجانب من جوانب الحياة المغربية لاسيما الجانب الدفاعي الحربي والعسكري الذي كان يشكل في نظرهم البعد الحقيقي لقوة الدولة وكيانها في ظل المخاطر الخارجية فكان ان اندفع المنصور الذهبي وراء استيراد المصانع الحربية التي تصنع الاسلحة المغربية المتطورة في ذلك العصر وكانت مصانع السلاح والذخيرة تلقى الاهتمام الاكبر من جانب المنصور الذهبي حيث رغب في اقامة جيش قوى متطور بعد معركة القصر الكبير وانتجت مصانع الاسلحة في مراكش المدافع الصغيرة والكبيرة لاسيما ان الاندلسيين (المورسكين) كانوا قد نزحوا إلى ديارهم الثانية في المغرب وكان من بينهم العديد من المتخصصين في الصناعات الحربية ومنهم على سبيل المثال مصمم الاسلحة الثقيلة المشهور في ذلك الوقت المسلم الاندلسي

(أحمد الحجري) المشهور باسم (أفوكاي) وكان قد فر من الاندلس اثر الاضطهاد واستطاع ان يدفع بالانتاج الحربى فى مصانع مراكش للسلاح وأبدى كثيرا من الاهتمام والاختراع والتصميم فى هذه المصانع بعد ان تم وضع الامكانيات اللازمة له وقام بصنع العديد من مدافع الميدان المتوسطة والكبيرة ولكن هذه الصناعات الحربية والعسكرية لم تكن لتكفى متطلبات الجيش المغربى ليتوسع فى زيادة قواته وما تطلبه من اسلحة فقد كان ذلك يتم عن طريق استيراد الاسلحة ولاسيما من انجلترا التى كانت تقدم السلاح للمغرب مقابل استيراد ملح البارود الذى كان يدخل فى الصناعات الحربية، كما ان صناعة السفن الحربية التى عولت عليها حكومة السعدين التى كانت تستورد لها الاخشاب من انجلترا كانت كمثلهما فى صناعة الاسلحة حيث كان يتم شراء السفن الحربية لكى تلبى احتياج البلاد وما تقتضيه من توسع وطموحات كبرى لا سيما بعد فتح بلاد السودان .

كما ان جميع الصناعات الاخرى التقليدية كصناعة الملابس والمنسوجات والسجاد والصوف والخشب والزجاج والورق والحلى والمصوغات والنحاس والجلود والحديد وغيرها من الصناعات الاخرى التى كانت تلبى الاحتياج الحياتى للشعب المغربى فقد شهدت تطورا دائما وعظيما على مختلف الجوانب والتى استفادت من التطور الصناعى الذى كانت تشهده دول اوربا فى ذلك الوقت مما دفع بهذه الصناعات ان تحاول منافسة الصناعات الواردة إلى البلاد حيث كانت الواردات الاوربية إلى المغرب بصفة رئيسية هى المواد الصناعية والقصدير والنسيج اضافة إلى الصناعات الحربية والسفن التى كان يقوم بالسيطرة على السوق التجارية واحتكار اساليب التجارة هم الاندلسيون المورسكين وبعض الشركات الاوربية التى وجدت لها اسواقا فى المغرب لتمارس نشاطها اضافة إلى بعض اليهود الذين تم طردهم من اسبانيا ووجدوا فى حسن

استقبال المغاربة ووصية الدين الاسلامى باهل الذمة مجالا لكى يمارسوا نشاطهم التجارى فى ظل حرية العقيدة وسماحة تعاليم الدين الاسلامى بعكس الصورة على الشاطئ الاوربى الآخر المقابل ولكن ذلك لا يمنع من ان العديد من المغاربة لا سيما فى طنجة وسلا وتطوان قد مارست انواع النشاطات التجارية لا سيما فى حركة التصدير التى كانت اسهل من الاستيراد ولاسيما ان المغاربة كانوا يصدرون المواشى والاغنام الميرنى والسكر والنحاس وملح البارود والذهب والتمور وغيرها من المنتجات الزراعية الفائضة عن الاستهلاك المحلى كالجوز واللوز والتين. ونظرا لكثرة الموانى المغربية على الساحل الاطلسي وساحل البحر المتوسط فقد ساهمت كل هذه الموانى والثغور فى حركة النشاط التجارى لكن كانت هناك العديد من هذه الموانى تلعب دورا هاما اكثر من غيرها ومنها على سبيل المثال لا الحصر ميناء العرائش وسلا وتطوان واسفى واغادير وسبتة وغيرها العديد من المدن والموانى الكبيرة التى كانت توجد بها الفنادق ومخازن التجار والوكالات التجارية ومراكز للجمارك والتى كانت تشبه المناطق الحرة فى عصرنا الحالى وكانت الحركة التجارية تسير فى يسر وسهولة .

وهكذا شهدت المغرب فى العصر السعدى الاول حتى وفاة المنصور حركة اقتصادية لم تشهدها من قبل وسكت العملة الذهبية والتى كانت تحمل الاحمال الكبيرة من التبر الذى كان يصل من بلاد السودان والذى كانت تضرب منه النقود الذهبية وكان يستعمل منه اكثر من ١٤٠٠ وزنة كل يوم وقد ذكر احد تجار الانجليز انه شاهد وصول ثلاثين جملا إلى مراكش محملة بالذهب وقد تسرب كل هذا الذهب إلى جيوب التجار الانجليز الذين اشترى منهم المنصور السعدى السلاح. ولقد كانت تجارة الذهب عبر صحراء بلاد السودان بمثابة دم الحياة لعدد كبير من هذه الموانى المغربية ومصدر ثروة لآلاف من تجار اوربا الذين استفدوا طاقة المغاربة من كل ما كان

لديهم من الذهب وانهم سلبوا المغاربة من كل ما لديهم من الذهب .

ولقد شهدت جوانب الحياة المغربية نوعا من الترف والرخاء تجلّى في اعظم صوره في اساليب المعيشة والحياة الاجتماعية وماتج عن ذلك من منافسة الاوربيين لمحاولة الحصول على عقود تجارية او اقامة وكالات تجارية او شركات لهم مستفيدين من هذه الحالة الاقتصادية التي لم تشهدها المغرب من قبل حيث شهدت حركة التصدير والاستيراد نموا كبيرا في مختلف السلع والمنتجات بعد ان انفتح المجال امام هذه الشركات لاسيما الانجليزية التي اقام الانجليز لهم شركة تجارية كانت لها اهتمامات صناعية هي الشركة الانجليزية البربرية، وكما اقام الانجليز لهم شركات سعت حكومات فرنسا وهولندا إلى الحصول على موانئ لهم لكي تكون مراكز تجارية يمارسون فيها نشاطهم التجاري والتي كانت سفنهم تقوم بقفل المنتجات والبضائع من المغرب إلى أوروبا إلى المغرب .

وهكذا فان المغرب في العصر السعدي كان هو مركز الاهتمام الاوربي نظرا لحالة الرخاء والثروة الاقتصادية والتبادل التجاري والعلاقات السياسية التي اقامها المنصور مع مختلف الدول الاوربية والمركز التجاري المرموق الذي بلغته البلاد بعد معركة القصر الكبير وتودد دول أوروبا إلى عقد معاهدات صداقة مع المغرب لاسيما انه البلد الاسلامي الوحيد الذي لم يخضع للسيطرة التركية العثمانية والذي كان مجالا مفتوحا لكي يمارس فيه الاوربيون اساليبهم في النهب والغش حيث كان يتم مبادلة ملح البارود الذي تحتاج اليه المصانع المغربية والاسلحة بمثله ذهبيا وهكذا ذكر بوفل ان التجار الانجليز هم الذين استحوذوا على ذهب المغرب وغيرهم من التجار الاوربيين والامريكيين الذين دخلوا المجال مؤخرا .

ولقد ابدت الدولة السعدية اهتماما كبيرا بنظام ولاية العهد وذلك منذ العهد

الاول لظهور هذه الاسرة ومن ذلك اننا نجد ان القائم بامر الله مؤسس هذه الاسرة يقوم باخذ البيعة لابنه احمد الاعرج ليكون وليا للعهد من بعده وذلك في عام ٩١٧ هـ ولقد حرص على مبايعة القبائل له ولقد حرص الحكام السعديون كل الحرص على نظام ولاية العهد لما فيه استمرارية للحكم ومنعا لما يحدث من خلافات بين افراد البيت السعدي بعد وفاة الخليفة الحاكم. وكان ولي العهد يكون من ابناء الخليفة وليس شرطاً ان يكون اكبرهم سناً ولكن قد يكون اختياره لمجموعة صفات لا تتوافر في غيره من ابناء الخليفة وعندما كان يتم اختياره فانه كان يعهد اليه بحكم مدينة فاس المدينة الثانية في البلاد بعد مراكش وذلك لكي يمارس فيها شئون الحكم ويتدرب على مقاليد الحكم وادارة البلاد من قبل جهاز حاكم لا يقل عن جهاز الحكم في العاصمة مراكش، وان كان اصغر نسبيا في الاختصاصات وكان النظام المتبع في العاصمة هو صورة في كل مدينة او ولاية من المدن او الولايات الكبرى، ومن ذلك بان يكون له مساعدون من الوزراء ورجال الديوان والكتاب والقضاة، كما انه كان له جيش مكون من عدة فرق. ولقد قام جيش فاس على سبيل المثال بالكثير من المهمات التي كانت تتطلب منه وبصفة خاصة جيش فاس بقيادة الامير احمد المنصور في تعقب الثوار والقضاء على قواتهم والمشاركة الفعلية في حرب القصر الكبير عام ١٥٧٨ م فقد ساعد جيش فاس بقيادة المنصور اخاه الخليفة عبد المالك بن محمد الشيخ في كل المهمات .

بل اكثر من ذلك فان اسم ولي العهد كان يذكر بجوار اسم الخليفة عند الدعاء له على منابر المساجد في صلاة الجمعة كل اسبوع وفي كل الاقاليم .

وكانت البيعة تاخذ صفة رسمية وشرعية ذلك لان الخلفاء كانوا حريصين على ان يشهد هذه البيعة كبار رجال الدين والعلماء والفقهاء وعليه القوم وكبار رجال

الجيش واهل الحل والعقد في البلاد وكانت تصدر المراسيم بهذا التعيين لتعمم وتوزع في جميع انحاء البلاد .

كذلك ابدى رجال البيت السعدى من الخلفاء السعديين باعتبارهم سلالة الدوحة النبوية الزكية اهتماما كبيرا بالقضاء ورجاله اقامة للعدل وحكما للشرع في البلاد وظهر القضاء في العصر السعدى كسلطة مستقلة عن جهاز الحكم تمارس سلطاتها الذى ليس عليها سلطان الا حكم الشرع والدين وكان يتم تعيين قاضى الجماعة (قاضى القضاة فى الشرق) من قبل الخليفة وهو الذى يعين القضاة فى المدن الكبرى كفاس وسلا واغادير وسجلماسه ورباط الفتح والعرائش وغيرها من المدن الكبرى وكان يتم تعيين قاضى فى كل مدينة او قرية كبرى وان تعتبر الاحكام والحكم بين المواطنين يتم على وجه السرعة حتى يحقق العدل بين افراد المجتمع المغربى .

وكان هناك ديوان للمظالم او مجلس المظالم وهو اعلى سلطة قضائية وكان هذا المجلس يرأسه الخليفة عندما يتم عرض المسائل الشائكة التى لم يستطع قاضى الجماعة الحكم فيها، وكان يتم اختيار القاضى لسعة علمه ونزاهته وجدأته فى الحق وعدله بين الناس وعدم خضوعه لادنى سلطة من سلطات الحكم او رغبات الحكام او ولاية الاقاليم ولم يكونوا يخضعون لاهواء شخصية او نزوات فردية او مطامع مصلحة، بل ان الادارة السلطانية السعدية التى عينت القاضى كانت ترى فيه التزاما بتنفيذ الشرع وتقيدا بالنصوص القرآنية والاحاديث النبوية ومذهب الامام مالك ثم بعد ذلك يطرح موضوع النزاع اذا لم يجد له حلا على مجلس المظالم الذى يرأسه الخليفة بنفسه .

وكان هناك نظام الجباية والوقف الذى كان لكل منهما جهاز خاص ومستقل عن جهاز القضاء يمارس فيها اختصاصاته وفق تعاليم الشرع .

وقد سارت نظم الحكم والادارة بدءا من رجال البلاط الخليفى فى العاصمة

مراكش إلى صغار الموظفين فى البوادي والقرى الصغيرة وفق نظام دقيق ومنظم ومتعارف عليه .

وفى عهد المنصور احمد الذهبى فانه قسم مملكته على أولاده الخمسة فى تجربة مكررة للحكم اللامركزى وقد جرت هذه النظم الوبال على البلاد لما فيها من انقسام وصراع بين ابناء المنصور وسبق الحديث عن الصراع بينهم من اجل السلطة، لكن السلطة الحقيقية الاقليمية كان يتولاها عاهل او قائد يتم تعيينه من قبل ولى العهد او الامير خليفة السلطان وهو الذى كان يصدر التوجيهات لحكام هذه الولايات او الاقاليم .

كذلك فى العهد المنصورى قد ابدى الخليفة السعدى اهتماما كبيرا بدوام الصلة والربط بين العاصمة مراكش وحكام الاقاليم للاطلاع على سير الحكم بهذه البلاد البعيدة عن العاصمة ومن هنا فقد اهتم كثيرا بالبريد وتعبيد الطرق وتوفير وسائل المواصلات اللازمة فى كل مرحلة من مراحل الطريق حيث كان المنصور على علم تام بما يجرى فى انحاء بلاده فانه كثيرا ما كان يوجه الرسائل والمراسيم والقرارات مختومة بختمه السلطاني الخليفى لكى تقرأ فى المساجد فى جميع انحاء المملكة وذلك كلما كانت هناك ضرورة تستدعى اعلام الشعب بما يجرى من احداث على ارض المغرب كما حدث بعد فتح بلاد السودان وضمها للديار المغربية وتحقيق الانتصار على قوات سنغاي وكذلك بعد الانتصار الكبير على قوات البرتغال واوريا فى معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وكذلك المرسيم التى كانت تصدر بشأن تعيين قاضى الجماعة او تولية ولى العهد وكل ما كان يستجد من أمور لها علاقة بمصالح الشعب المغربى وقد كانت هذه الرسائل او المرسيم لها صفة الاعلان والاعلام فى العصر الحديث حيث كانت هى الوسيلة الوحيدة التى يلجأ اليها رجال الحكم لاعلام الشعب بما يجرى من احداث فى

البلاد .

كما ان السلطان كان قابضا بيديه على السلطة التنفيذية والحاكمة فى كل انحاء البلاد ومن ذلك فان جميع حكام الولايات والمدن الكبرى والاقاليم يحاسبون امامه على ما يرتكبون من اخطاء او تقصير فى اداء الواجب الحكومى او عدم تنفيذ الاوامر السلطانية بل انهم كانوا يرجعون إلى العاصمة فى جميع النواحي المدينة والعسكرية والاقتصادية التى لا يستطيعون ايجاد حلول لها لانهم كانوا يطلبون رأى السلطان والديوان فى مراكش وان الرد يكون عليهم سريعا حيث كانوا يجدون مخرجا لكل مشكلة تواجههم سواء كانت صغيرة او كبيرة ولا يتاخر الرد عليه طويلا، كما انه كان يلحق العقاب المناسب بالذين يخرجون عن المهام الموكلة لهم والمجاوزين لصلاحياتهم او الذين يتهمون بهوى فى قضاء مصالح اقربائهم وكان الحكم السعدى يختار القيادات الصالحة المؤهلة والتى لا تخوم حولها شبهات فى اداء اعمالها بغض النظر عن كونها من البيت السعدى او من اصل مغربى ومن ذلك نجد ان الخليفة المنصور السعدى لا يتورع فى اسناد بعض المناصب الهامة والحساسة فى البلاد كمنصب وزير المالية لغير المغاربة وهو محمد بن زرقوى والذي كان من اصل اندلسى لكى يتولى منصب وزير المالية قبل ارساله فى حملته إلى بلاد السودان خلفا لجودر باشا قائد الحملة الاول .

وقد شهدت البلاد تقدما عمرانيا كبيرا لا نظير له فى جميع العصور اثناء فترة الحكم السعدى حيث تفنن المنصور السعدى فى بناء القصور التى كانت اية فى فن المعمار الاسلامى والزخرفة والزينة وخاصة قصر البديع الذى قام بينائه فى مراكش والذي ظهر فى بنائه اقصى انواع التبذير والترف والذي جلب له عددا كبيرا من كبار الصناع من اصحاب المهارات الفائقة.. وكان الذهب لا يزال ينصب دون قيد على

المغرب لاسيما ان المنصور استطاع ان يتمتع بثمار النصر فى السودان والقصر الكبير حيث در عليه فتح السودان كثيرا من الذهب وايضا القدية من الاسرى الاوربيين ساهمت فى ثراء المغرب، ومن هنا فقد تركز اسراف المنصور الشخصى اكثر ما يكون على بناء القصر الكبير المتسع الضخم فى مراكش حيث استخدم فى بنائه آلاف من العمال وقدمت السفن الكبيرة تحمل من الهند اثنى مائة الف طن من مواد الشرق لتزيينه وامتدته ايطاليا وايرلندا بالرخام اللازم لآلاف الاعمدة واحيط القصر بحدائق ضخمة تتناسب مع فخامة القصر حتى اصبح قصر البديع كما اطلق عليه بعد ست سنوات من البناء صورة من العظمة لا تضارع .

ولقد كان قصر البديع وغيره من الوان العمارة من المآثر والاضرحة يحمل الطابع الاندلسى مع تأثيرات شرقية اسلامية وربما فارسية وهندية. واحتفظ المنصور بالابراج والقلاع القديمة من عهود سابقة والتى استولى عليها من البرتغاليين والاسبان وجهازها بما يلزم من حشود عسكرية ومعدات ومدافع لحماية الثغور والسواحل، بل انه اضاف العديد من هذه القلاع والابراج فى جميع المدن والمواقع الهامة .

كما ان المدن شهدت حركة واسعة من الاتساع وازدحام الاحياء الجديدة والمدن الجديدة نظرا لوفود ما يقرب من مليونى مهاجر اندلسى إلى المغرب ويترتب على هذه الاعداد الوافدة من بناء المساكن والمدن الجديدة والاحياء الجديدة فازدهرت المدن وعمها الرخاء والامن وعادت بعضها لتحتل مكانة كانت فقدتها مثل اغادير وتارودت وعمت مدن الجنوب مصدر الدعوة السعدية حالة من العمران والتعمير لم تشهدا من قبل .

(أ) الجيش والاسطول والشرطة

منذ ان ظهرت الدولة السعدية على مسرح العمل السياسى فى جنوب المغرب وهى ترفع لواء تحرير الارض المغربية المحتلة والقضاء على شرادم الدويلات الصغيرة داخل المغرب والقضاء على الجيوب المحتلة من قبل القوى الاستعمارية البرتغالية والاسبانية التى اتخذت لها موطئ قدم على الساحل محاولة منه التوغل فى الداخل للقضاء على الكيان المغربى ومن هنا كان على قادة الدولة السعدية ان يعمدوا على القضاء على هذه المخاطر حفاظا للكيان المغربى من الانهيار ودعمًا للقوى الوطنية التى جاءت بالسعديين إلى عرش البلاد بعد ان عملوا على الاطاحة ببقايا بنى وطاس الذين تعاونوا مع القوى المحتلة، كذلك فان السعديين عملوا من جانبهم بكل الطرق والوسائل على الوقوف بحزم وقوة وعناد امام المطامع التركية العثمانية التى كانت تبغى السيطرة على البلاد اسوة بما هو قائم فى الجزائر وتونس وطرابلس وتوحيد كل بلاد المغرب تحت لواء الدولة العثمانية .

ومن هنا فانه ازاء هذه الاخطار فان الدولة السعدية استشعرت منذ الوهلة الاولى لظهورها ضرورة الاعتماد على القوة العسكرية وبناء هذه القدرات الحربية دعما لنفوذها وحماية لترابها ودفعًا للاخطار المحدقة بها من كل جانب. فكان الاهتمام الاول بل العناية الاولى لقادة الامور هو بناء جيش قوى وحشد عسكري كبير من افراد القبائل ومن ابناء البلاد اضافة إلى الاستعانة بالخبرات العسكرية الاخرى سواء كانت اندلسية او جزائرية او تركية وتكوين فرق من خيرة القوات تكون قادرة على صد كل عدوان خارجى ومحقة للقوة اللازمة حفاظا على استقلال البلاد .

ولما كان السعديون يدركون عمق الاخطار وشدة الازمات فانهم وضعوا كل اهتمامهم فى بناء جيش قوى، ذلك لان الجيش هو عماد قوة الدولة واساس سطوتها

واستقرارها وتوسعها فى الاراضى المجاورة وتحرير الثغور المحتلة ومهابة للاعتداء والطامعين فى حدود البلاد وهو امل البلاد فى التوسع جنوبا حيث بناء الدولة السعدية الواسعة . وكذلك الاستعانة به فى المهمات الخارجية والتعاون فى القتال مع القوى المتحالفة مع المغرب، بل هو السند القوى للخليفة فى صراعه الداخلى مع الذين يناوئونه فى الحكم واستخدامه للقضاء على الثورات الداخلية التى كانت تحدث بين ابناء البيت السعدى فى سبيل الوصول إلى الخلافة. وذلك لان من كان يملك القوة العسكرية الغالبة هو الذى كان يتقرر له مصير الحكم لانه لم يكن هناك عهد من عهود حكام الدولة السعدية يخلو من الفتن والثورات والتدخلات الاجنبية والمطامع الاوربية الاسبانية او البرتغالية او المطامع التركية العثمانية وكان الجيش المغربى هو القادر وحده على الوقوف فى وجه هذه المطامع الخارجية .

وقد استعان الجيش المغربى فى صفوفه بالخبرات القتالية الخارجية حيث ضم بين صفوفه العديد من المقاتلين من الاتراك العثمانيين والجزائريين والاندلسيين الذين كانوا يشكلون الفئة الغالبة بين صفوف الجيش المغربى كما ان الجيش ضم العديد من المرتزقة الذين كان جلهم من الاوربيين الذين يعتنقون الدين الاسلامى وينضمون للخدمة نظير رواتب سخية كانت تبذلها لهم السلطات السعدية .

ولقد استفاد الجيش المغربى بالخبرة القتالية التركية فى فن القتال والتدريب والاعداد والتجهيز للمعركة حيث ان ابناء محمد الشيخ الخليفة السعدى الثالث وهم عبد المالك وعبد المؤمن واحمد المنصور قد تلقوا تدريبات عسكرية فى الجزائر على الاساليب التركية فى القتال وكذلك فى اسطنبول وشاركوا فى حرب تحرير تونس واستفادوا من خبرات الاتراك وادخلوا هذه الاساليب فى جيش المغرب مما جعله بعد من اقوى الجيوش العالمية فى ذلك الحين بعد ان حقق النصر الكبير على قوات البرتغال

بمشاركة قوات اوربا فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨ م .

ولقد حرصت الدولة السعدية دائما على ان يكون الجيش المغربى دائما على اهبة الاستعداد والحرب دفعا للظروف المحيطة حيث كان السعديون يحصلون على السلاح اللازم لجيشهم وسفنهم الحربية واساطيلهم العسكرية من انجلترا ولقد كانت الاسلحة المستخدمة فى معركة القصر الكبير معظمها سلاح انجليزى كانت تقوم بتصديره الملكة اليزابيث ملكة انجلترا للمغرب نظير حاجة بلادها إلى ملح البارود اللازم للمصانع الانجليزية لصنع الذخيرة والذى كانت تحصل عليه رغم اوامر البابا بعدم التعاون والتجارة فى السلاح مع الدول الاسلامية . وكانت رغبة المغاربة فى تزويد جيشهم بالسلاح اللازم وخشب السفن الحربية وكمرات المدافع واشرة السفن وكل اللوازم الحربية للقتال ، وكذلك كانت رغبة المغاربة فى نفس الوقت للحصول على هذه الموارد الحربية من اجل الدفاع عن مراكش والعرش المغربى ضد الثورات الداخلية وذلك دعما لاستقرار العرش .

وفى عهد احمد المنصورى السعدى كان هناك جيشان فى البلاد احدهما جيش نظامى مكون من عدة فرق تضم اكثر من اربعين الف مقاتل جاهزة للتحرك والاشتراك فى القتال فى اية لحظة وهى دائما على اهبة الاستعداد ، وكانت هذه القوات تضم فى صفوفها اعدادا كبيرة من الاندلسيين والجزائريين والمرزقة وهى تحت السلاح باستمرار ولها معسكرات وتتوالى التدريب يوميا على احدث الاسلحة والاساليب القتالية - وكان هناك عدد كبير من الضباط الاتراك والاوربيين فى الجيش المغربى وكانوا يتولون تدريب الجيش على اساليب القتال المتطورة والالات الحربية الحديثة لان المنصور كان حريصا على تزويد جيشه باحدث ما تنتجه المصانع الحربية الانجليزية وكان يقيم للجيش حصونا ومعسكرات موزعة فى انحاء البلاد والمدن الهامة والثغور الحساسة التى يخشى عليها

من هجوم مباغت وكانت هناك معسكرات لهذه القوات داخل المدن الكبرى كمراكش وفاس وسلا والعرائش واغادير وتطوان ورباط الفخ وغيرها من الامارات الكبيرة والمهمة . كذلك كان يقابل هذا الجيش النظامى الثابت الذى يعتبر قوة الدولة وعمودها الفقرى قوات اخرى احتياطية تضم ما لا يقل عن مائتى الف جندى ومقاتل يتم استدعاؤهم فى حالة تعرض البلاد للخطر وهم احتياط الجيش الثابت وهم من المتطوعين والمحالىين على العمل المدنى بعد ادائهم الخدمة العسكرية . وقد كان الجيش المغربى فى عهد المنصور الذهبى مفخرة الجيوش المعاصرة لاسيما بعد ان حقق هذا الجيش انتصاره الساحق على قوات اوربا فى معركة القصر الكبير وايضا قدرة هذا الجيش الفائقة على اجتياز الصعاب وتخطى الاخطار وعمل المستحيل فى اجتياز الصحراء الكبرى الفاصلة بين المغرب وسنغاي ووصوله إلى بلاد سنغاي فى فترة وجيزة لاتزيد عن اربعة شهور قطع فيها اكثر من اربعين مرحلة وهى قوات حربية كثيفة تحمل العدد والعدة والزاد والزواد وكل ما تحتاج اليه وصولا إلى سنغاي واستطاعت ان تحقق انتصارا باهرا فى فترة زمنية وجيزة مما جعل فترة حكم المنصور تشهد ايضا النصر الكبير وانتصار حرب سنغاي وكان الفضل فى ذلك يعود لحسن التدريب والاعداد والتنظيم والخطط العسكرية والاسلحة الحديثة التى كانت لاتقل عن اسلحة اقوى الجيوش المعاصرة .

وكان الجيش المغربى مقسما إلى وحدات متخصصة وفرق كل منها يؤدى مهام محددة واسلحة مختلفة كسلاح المدفعية والمشاة والفرسان والدروع وغيرها من الفرق المختلفة التى كانت توجد لها فرق عسكرية تدعم هذه التشكيلات والتى منها سلاح الخدمات الطبية (التمريض) وسلاح المهندسين والامداد والتموين وسلاح الاستطلاع والبريد والمؤن والتغذية واعمال الصيانة والحدادة والارشاد الدينى وكذلك سلاح

الحياكة وكل هذه الفرق المعاونة كانت تعمل فى ظل قيادة واحدة منظمة تنظيما دقيقا مما سهل لها اداء المهام الملقاة على عاتقها عملا لخدمة اهداف الدولة وتنفيذ اوامر وقرارات السلطان الصادرة بشأن القتال والتدريب والدفاع والهجوم فى اللحظات التى يستدعى فيها استدعاء القوات للمشاركة فى دفع خطر عن البلاد وقد كان هناك تسلسل فى القيادة والرتب والتنظيم القيادى وكل هذه الرتب كانت تسلسل فى القيادة وصولا إلى الخليفة او السلطان باعتباره هو القائد الاول للقوات حيث كان الخلفاء والسلاطين يحرصون على قيادة قواتهم بانفسهم واشتراكهم فى المعارك الحربية وادارتها من مسرح العمليات حفزا للقتال وتشجيعا للجنود حيث ان وجود الخليفة بين صفوف قواته كان يدفع القوات للتفانى فى القتال وانجاز المهام الملقاة على عاتق الجنود وكان الجيش المغربى مقسما إلى ست فرق مختلفة كانت الرتب ومراتب القواد والجنود منسجمة مع تباين مهام هذه الفرق فى ذلك الجيش وكان كل ذلك يسير وفق نظام دقيق منضبط مع الاساليب العسكرية والوحدات والاسلحة وطرق استدعاء القوات .

ولقد كانت الاسلحة النارية والمدافع هى السلاح ذا الاثر الفعال فى القتال . ولقد عمل المغاربة دائما من اجل احراز النصر دون غيره من اجل دفع الكفاءة القتالية وتجهيز القوات بغض النظر عن التفوق العددي الهائل الذى كانت تعتمد عليه معظم الجيوش فى ذلك الوقت وقد ترك المغاربة نظام استخدام الاعداد الهائلة وترك اسلوب التفوق العددي والعمل على استخدام قوات ذات كفاءة عالية وتجهيزات كاملة وثقل متوفر وهذا سبب نجاحهم فى موقعة القصر الكبير . وكان فضل التدريب والاسلحة النارية قد صحح التوازن العسكرى واحرز الانتصارات لاسيما ان الجيش المغربى كان يضم صفوفه من القواد غير المغاربة من الاتراك العثمانيين والمرزقة ومن الاندلسيين وربما من الانجليز فيما بعد . وقد استفاد المغاربة من الاستعانة بهذه الاعداد فى تطوير

الاساليب القتالية والنظم الادارية والتنظيمية .

ومن هنا صار الجيش المغربى قوة لا يستهان بها ، بل ان خبرة القوات كانت تشارك فى مهام قتالية خارج حدود المغرب تحالفا مع انجلترا ومساعدة لها ضد الاسبان واستعدادا للغزو فى الاندلس وقطع طرق المواصلات على الاسطول الاسبانى واشتراك قوات اجنبية تقاتل مع الانجليز ضد الاسبان وارسال المؤن المغربية الى الاسطول الانجليزى .

وهكذا كان الجيش المغربى فى العصر السعدى يشكل قوة حربية كبيرة . لكن القوى الاوربية لم تمكن لهذه القوات بالتحرك شمالا واجتياز مضيق جبل طارق سعيا مرة ثانية لعودة السيادة الاسلامية على الاندلس من جديد حيث ان تحالفات المنصور السعدى مع الملكة اليزابيث ملكة انجلترا لم تقدم ادنى خطوة ايجابية نحو تحقيق الهدف الذى كان يوليه . فكان عليه العمل للاستفادة من هذه القوات وتوجيهها وجهة اخرى نحو فتح بلاد السودان لاسيما ان المنصور كان دائما يذكر ان طريق الاندلس اصبح مغلقا امام المغاربة لان البرتغاليين والاسبان قد استولوا على اجزاء البلاد الاندلسية كذلك فان الاتراك العثمانيين قد سيطروا على تلمسان وبقية الجزائر ومن هنا لم يكن امامه الا توجيه طاقة الجيش المغربى لعمل عسكرى يكسب المنصور سمعة عالية ويضم بلاد السودان إلى الدولة السعدية الشريفة لان هذه القوات لا بد ان تؤدى واجبها من أجل سمعة الخليفة القرشى بدلا من قتال الاتراك العثمانيين فى الجزائر لان محاولة اخراجهم منها قد يحتاج إلى مجهود كبير دون عائد . فى حين انه بغزو السودان تتحقق وحدة اسلامية كبيرة بها الخير للاسلام والمسلمين .

كذلك فان السعديين عملوا من جانبهم على بناء اسطول بحرى قوى لاسيما ان معظم المدن الساحلية والثغور كانت تقع فى قبضة القوى المستمرة من البرتغاليين

والاسبان. ومن هنا كان الواجب الاسلامي والجهاد الشرعي يقتضى انتزاع هذه المدن من ايديهم ولكن البلاد التي ورثوا حكمها من الوطنيين لم يكن بها ما يسمى بالاسطول القوي الذي كان في عهد المرابطين او الموحيدين او بنى مرين حيث انحدرت سمعة الاسطول المغربي في ظل احتلال موازين القوى البحرية وسيطرة الاساطيل الاوروبية على غرب البحر المتوسط وسواحلها وعلى المحيط الاطلسي واختفى الاسطول المغربي الذي كان يحقق الانتصارات على الاعداء في حوض البحر المتوسط .

لكن السعديين عندما امسكوا بزمام الامور كانت لاتزال هناك بقايا صناعة للترسانة الحربية من بقايا عهد الموحيدين وبنى مرين في العرائش والرباط وهي ترسانات قديمة لم يكن فن صناعة السفن بها يتلاءم مع اساليب العصر لاسيما وان السفن الاوروبية قد احرزت تقدما فائقا في المجال الملاحي والتسليح وفن القتال البحري الحديث وان هذه الترسانة البحرية القديمة لا تزال تصنع السفن باساليب بالية لا تتلاءم ومفاهيم القتال الحديثة مما اضطر المنصور احمد إلى القيام بالاستعانة بالخبرة الانجليزية لاسيما بعد معركة الارمادا وانتصار الاسطول الانجليزي على الاسطول الاسباني بان يطلب من سفير المغرب في لندن بان تقوم الحكومة بامداد بلاده بالاختشاب اللازمة وعدد كبير من خيرة المهرة والمهندسين وبنائي السفن الانجليزية للاستعانة بهم في بناء انواع حديثة من السفن الحربية عملا لدفع الخطر عن البلاد وان يكون عملهم في ترسانة العرائش لتجديدها وعملا على ان تكون السفن الحربية المغربية لاتقل عن نظائرها من السفن الاوروبية تجهيزا وتسليحا وبناء ومن هنا فقد بذل المنصور منذ عام ١٥٨٩م جهودا فائقة في تجديد وتحديث الترسانة الحربية البحرية في الرباط والعرائش وسلا والاستعانة برجال الجهاد البحري الاسلامي في بعض الثغور والذين قبلوا الانضمام تحت القيادة البحرية السعدية التي كانت تتألف من اكثر من اربعة الاف مقاتل بحري .

ولكن دور صناعة السفن المغربية في العرائش والرباط لم تكن نفى بما تحتاج اليه البلاد من سفن عديدة لاسيما وان للمغرب موانئ عديدة وسواحل طويلة على ساحل البحر المتوسط والمحيط الاطلسي مما دفع بالخليفة المنصور السعدي لتلبية احتياج القوات البحرية بالقيام بشراء العديد من القطع البحرية المجهزة تجهيزا حديثا من اوربا لاسيما من انجلترا وهولندا وفرنسا دعما للاسطول المغربي الذي كان عليه ان يقوم بدوريات حراسة على الموانئ المغربية وقد اوكلت قيادة هذه السفن إلى ربابنة اندلسيين او مرتزقة اوربيين او اترك عثمانيين وقد احرز الاسطول المغربي بعض الانتصارات على البحرية البرتغالية ومنعها من دخول الموانئ المغربية .

كذلك فان الاسطول السعدي كان من القوة بحيث انه كانت هناك خطط لتحالف مغربي تركي عثماني للقيام بغزو مشترك لتحديد الاندلس من ايدي مقتصبيها حيث كانت القوات المشتركة في هذا التحالف عام ١٥٧٦م في عهد الخليفة عبد الملك بن محمد الشيخ مكونة من سبع وعشرين سفينة منها ثمانى سفن حربية وثلاث وعشرين سفينة نقل وست فرقاطات مما يعطى الدليل القوي بان السعديين كانوا قد عملوا على استعادة قوتهم ونفوذهم البحري بمجرد وصولهم للحكم حيث كانوا يسعون إلى بناء قوة عسكرية بحرية تستطيع ان تحفظ لهم حماية سواحلهم الطويلة وقد ضم الاسطول المغربي اعدادا كبيرة من المغاربة واخوانهم الاندلسيين والاجانب وقد تجاوز عدد قوات الاسطول اكثر من اربعة الاف جندي كان جلهم من الاندلسيين الذين كان من بينهم اكثر من ثلاثمائة من البحارة والفنيين الاندلسيين الذين كانوا يعملون في الترسانة البحرية في الرباط .

ومن هنا استطاع السعديون ان ينشئوا اسطولا حريبا في فترة زمنية وجيزة وان الاساطيل المغربية قد شهدت عهدا جديدا مغايرا لما كان عليه الاسطول في العهد

الوطاسي، بل ان شوكة هذا الاسطول قد زادت بعد انتصار المغاربة في معركة القصر الكبير حيث وقعت الهزيمة بالبرتغاليين ومن معهم من اوربا وكسرت شوكة نصارى البرتغال واهلكت نفوسهم وكشحت اموالهم ولم يفكر الاوروبيون في قتال المغاربة في ديارهم بعد هذه المعركة بعد ان هناك ملك البرتغال ومن معه من النبلاء البرتغاليين .

لكن هذه المشروعات البحرية لم تلبث ان توقفت فجأة بعد وفاة السلطان احمد المنصور الذهبي وما ساد المغرب الاقصى من حرب اهلية بين اولاد السلطان المتوفى طمعا في العرش مما جعل ابناء المنصور السعدى الذين تنازعوا حكم البلاد لم يولوا ادنى اهتمام بالاسطول حيث كان من الطبيعى ان لا تلقى دار صناعة السفن اية عناية من قبل هؤلاء الامراء المتنازعين بعد ان سمح بعض من هؤلاء الامراء تسليم بعض القواعد البحرية للاسبان لكي تستخدمها الاساطيل الاسبانية لتموين اساطيلها المتجهة إلى المحيط الاطلسى جنوبا من أجل التربع على عرش المغرب مما اضاع هبة الاسطول وانحدر الانتاج الحربى البحرى إلى حد ادنى واغلقت دار الصناعة ولم تعد هناك حاجة إلى رجال البحرية الانجليز الذين كانوا يعملون فى الترسانة البحرية فتمت اعادتهم إلى بلادهم حيث لم تكن تتوافر لهم امكانيات الاقامة والاعاشة بعد ان ظهر العديد من الامارات والمدن المستقلة التى استقلت عن الخلافة السعدية ولم يعد لابناء السلطان احمد المنصور السعدى من حكم سوى مراكش وبعض الاجزاء المحيطة بها وخرج ميناء العرائش الذى كانت به دار صناعة السفن من حوزة المغاربة وسلمه المامون بن احمد المنصور للاسبان ولم يعد يخضع لملك المغاربة بل ان ملك اسبانيا هدد بالحرب والاستيلاء على جميع القواعد المغربية والثغور الاخرى التى تخرج منها سفن المجاهدين البحريين المسلمين لاعتراض السفن الاسبانية فى عرض المحيط او البحر مما دفع الامراء السعديين المتأخرين للعمل على طرد رجال الجهاد الاسلامى البحريين من

ميناء الرباط وسلا والتعاون مع القوى الاوربية من اجل القضاء على هذا النشاط الذى كان يجلب الكثير من المضار على حكام المغرب . وبذلك انهارت القوى البحرية كما انقسمت القوات البحرية من اثر الصراع بين ابناء الخليفة وكل مهمتهم كانت ضم قوات لتجارب القوات الاخرى وانشغل الامراء المتأخرون بالحرب الاهلية والصراع الداخلى ولم تعد هناك قوة بحرية نهائيا وتمزقت القوات البرية بين مؤيد لهذا الامير ومعارض لذلك الامير ودار القتال بين ابناء الشعب الواحد من اجل طلب العرش .

واهتم السعديون بالامن الداخلى عملا على الاستقرار ونشر الامن والامان والتقدم الاقتصادى والازدهار الحضارى ومن ثم كان العمل على تدعيم جهاز الشرطة وتخصيص الرجال له والاستعانة بهم فى اقرار الامن فى المدن الكبرى وحماية الاسواق ومصالح الشعب والسهر على حماية القلاع والحصون والمدن الكبرى وحماية ابواب المدن والضرب على الخارجين على القانون بشدة وحزم وحماية طرق القوافل الصحراوية وتأمين وصول البريد والاقامة فى اماكن ومحطات مخصصة لهم ومراقبة سير القوافل والسهر على تطبيق الاحكام الادارية والقضائية والقيام بما تتطلبه وظائفهم فى القبض على اللصوص والمجرمين وتقديمهم للمحاكمة وحماية السجون والسهر على تنفيذ الاوامر وكان منصب رئيس الشرطة من المراكز الهامة فى الدولة وكان رئيس الشرطة من الرجال المقربين لدى السلطان وكانت توكل اليه العديد من المهام وكان رايه يؤخذ به فى كثير من المسائل التى تهم مصالح البلاد، بل ان رئيس الشرطة لم تكن وظيفته تقل عن وظيفة قائد الجيش وكان لرؤساء الشرطة فى المدن الكبرى والولايات مكانة خاصة وكان افراد الشرطة يقومون بمعاونة رجال الحكم والادارة وديوان المظالم والقاضى وكان يعتمد عليهم فى حماية مصادر الثروة ومراكز اقامة الاجانب فى الفنادق والوكالات التجارية وكذلك فى مراكز الجمارك والتأكد من سلامة ابواب المدينة العاصمة وبوابات

المدن الكبرى وتأمينها خوفا من سطو اللصوص او الاعراب وقد ادى رجال الامن والشرطة الواجبات المنوطة بهم ومن اجل ذلك عهد المنصور السعدى إلى رئيس الشرطة فى فاس بان يقوم بقيادة اول حملة عسكرية إلى بلاد السنغال كشافا للطرق ومصادر المياه واماكن اقامة قوات الحراسة وذلك قبل ان يتوجه جودر باشا بحملته الكبيرة إلى بلاد السودان. حيث كان جيش مدينة فاس بقيادة محمد بن سالم رئيس الشرطة الخليفة بفاس وكان جيشه مكونا من الاندلسيين والشرافه وقد ادى قائد الشرطة محمد ابن سالم المهام الموكلة اليه على خير اداء ومهد الصحراء الساحلية ووصل إلى بلاد السنغال واجتاز الصحراء الغربية .

وقد كان ديوان الشرطة مرتبا ومنظما وفق الاساليب العصرية السائدة فى ذلك الوقت وفقا للقيام بالمهام الموكلة إلى هذا الجهاز حيث ان الاستقرار من جراء استتباب الامن دفع البلاد نحو التقدم الزراعى والصناعى والتجارى وساعد على حركة النقل والانتقال وانتقال الناس بالتجارة وذهاب القوافل الكبيرة إلى بلاد السودان بعد ان تم تأمين الطرق الصحراوية ووضع نقط حراسة على مسافات معينة ونشط البريد فى ظل قيام رجال الشرطة بالمهام المكلفين بها والتي منها تحصيل الضرائب .

وكان جهاز الشرطة عنصرا فعالا فى تأمين السيادة السعدية على البلاد وتأمين النظام فى الكثير من القلاع والحصون ووضع اساس نظام ثابت للحراسة وذلك على اسس سليمة لاقرار السكينة فى ربوع البلاد حيث كانت هذه الحصون والقلاع تخضع لنظام حراسة دقيق ووضع نقط مراقبة امامية من رجال الشرطة ترقب ادنى التحركات التى تتجه صوب المدن الكبرى للقيام بعمليات اغارة او سلب او نهب .

ولقد كان لهذه الاجراءات الامنية سبب فى ازدهار التجارة الداخلية والخارجية وانتعاش حركة الاسواق والقيام بحرب ضد اعمال القرصنة والسطو وتأمين الطرق

والسهر على حراستها فقصده المغرب الكثير من التجار من الشرق والغرب ولاسيما الدول الاوربية وبرزت المدن الجنوبية الواقعة على اطراف الصحراء بعد فتح السودان كمدن تجارية هامة كمدينة تارودنت وسجلماسة واضحت البلاد سوقا تجارية عظيمة تمد المغرب بكثير من السلع الهامة وكانت وفرة التبر الذى تجلبه القوافل من بلاد السودان يستدعى حراسة مشددة وتأمين رجال الشرطة لقوافل الدولة المتجهة إلى السودان ومنها إلى المغرب محملة بانتاج هذه البلاد وحاملة منتجات المغرب إلى الاسواق السودانية فاصبحت القوافل تامن على نفسها وتسلك الطرق المؤدية إلى بلاد السودان وتركزت التجارة فى بلاد المغرب الاقصى من جراء قيام الشرطة بواجبها على احسن وخير اداء فى العصر السعدى حتى نهاية عصر احمد المنصور للذهبي .

(ب) المآثر الحضارية والثقافية

دافع الاشراف السعديون في بلادهم المغرب الاقصى عن الميراث الحضارى الاسلامى الذى اصبح يتركز فى بلادهم بعد سقوط غرناطة آخر المعاقل الاسلامية فى الاندلس ١٤٩٢م وسقوط بلاد المغرب الاوسط والادنى تحت النفوذ العثمانى التركى واستطاعوا بعد جهود متلاحقة ومتواصلة من العمل ان يزيحوا من طريقهم العوامل التى تحاول ان تحدد من انطلاق الحركة الفكرية الثقافية والعلمية فى المغرب وان يطردوا البرتغاليين من المدن الساحلية التى استولوا عليها، كما ان زعامة المغرب الاقصى قد بلغت ذروتها بعد انتصار القصر الكبير واصبحت مراكز عاصمة لدولة اسلامية كبرى تشمل المغرب الاقصى وبلاد السودان وزادت هذه الانتصارات السياسية من نهضة المغرب الثقافية والحضارية والعلمية فقد اصبح قلب الحياة الاسلامية المغربية. وقد حافظ الاشراف السعديون على هذه الزعامة الثقافية التى توارثتها دول المغرب الاقصى منذ ايام المرابطين واستطاع هؤلاء الاشراف ان يجنبوا بلادهم الخطر الذى اصاب بلاد المغرب الاخرى فى القرن السادس عشر وهو خطر النفوذ التركى الذى أخضع الجزائر ثم امتد إلى تونس .

وشهدت سنوات الحكم السعدى تمركز ثقافة الاسلام وحضارته وتراثه فى بلاد المغرب الاقصى لاسيما ثقافة الاندلس العربية الاسلامية ذات المآثر الكثيرة بعد ان طردت من الاندلس ونزحت الثقافة العربية غربا إلى الغرب بعد ان وفدت إلى المغرب الاوسط والادنى المؤثرات الحضارية التركية ودور الانكشارية والجند وظهر الاثر التركى العثمانى فى التنظيمات الادارية والعسكرية واصبحت اللغة التركية لغة الدواوين ولغة الجهاز الحاكم واصبح النفوذ العثمانى ممتدا غربا حتى الجزائر ووقف وكذلك فى مراكز الجمارك والتأكد من سلامة ابواب المدينة العاصمة وسجلماسه ورباط الفخ والعراش

وغيرها من المدن الكبرى وكان يتم تعيين على اعتاب المغرب الاقصى حيث مارست مراكز الحضارة الاسلامية فى المغرب الاقصى دورها فى الحفاظ على الوجود الثقافى الحضارى العربى الاسلامى .

ولقد وضع السعديون بانتصارهم الكبير حدا لتهديد الاساطيل المسيحية للشغور والمدن المغربية واستطاعت ان تتخلص من النفوذ الصليبي ومن ثم بدا التفرغ للعمل والبناء الحضارى والثقافى والعمل فى البلاد فى مختلف الاصعدة سواء فى المجال الزراعى والصناعى والتجارى البلاد فى ظل حالة الرخاء والثروة والانتعاش الاقتصادى الذى شهدته مما انعش الروح العلمية والثقافية وساعد على التقدم فى الميادين المختلفة لاسيما ان المغرب قد استفاد فائده علمية وثقافية وحضارية وفقهية ولغوية باستقبالها وفتح ذراعيها للوفود الاندلسية التى وجدت فى المغرب الاقصى وبلاده ومدنه المختلفة محطة نهائية للاستقرار فعملوا على العطاء وبذل الجهد وتطوير البلاد المغربية فى شتى المجالات .

كما ان العهد السعدى قد شهد نزوح العديد من اهل الاندلس المشتغلين بالعلم إلى المغرب الاقصى واصبحت مدن المغرب مراكز ثقافية وحضارية تستمد مصادرها من الاستقرار والطمانينة السياسية والاقتصادية ثم من حالة الرخاء والترف وثناء الامراء وعليه القوم واغدقهم على اهل العلم والادب والدين والثقافة وتشجيعهم على المضى فى طريقهم المرسوم، كما ان سقوط غرناطة وتفرق الاندلسيين ورحيل اغلبية الشعب الاندلسى إلى المغرب الاقصى قد اوجد معلما من معالم النهضة الحضارية التى لم تشهدها البلاد وشهد حالة من التطور الفكرى والثقافى والعلمى وذيوخ القيم الاسلامية المتعمقة التى ساعد آل البيت السعدى الشريف على ترسيخها فى مفهوم الشعب ومن هنا تدفقت ثقافة الاندلس إلى المغرب طليقة من كل قيد بعد ان ترك الاندلسيون البلاد

نهائيا، بل ان هذه المؤثرات الاندلسية المغربية لم تكتف بما احرزته من تقدم وتطور في بلاد المغرب بل تخطت حواجز الصحراء جنوبا لتنطلق إلى بلاد السودان الغربى بصورة اكثر كثافة وفى ظل الحملة المنصورية او بعد فتح سنغاي وما تم بعد ذلك من نزوح العلماء والفقهاء والادباء والشعراء لحضور مجالس العلم والدرس والتدريس هناك او لنشر معالم العمارة وفق البناء فى تلك البقاع الافريقية .

وقد اظلت بلاد المغرب فى ذلك العصر نهضة علمية شاملة ظهرت نتائجها ومآثرها بارزة فى الادب واللغة والفقه وعلوم الشريعة والحديث ومن هنا فقد انصهرت فى المغرب المؤثرات التركية مع المغربية مع الافريقية الوافدة من المغرب الاوسط والادنى بعد الخضوع للحكم التركى العثمانى ومن هنا سار السبق العلمى فى تلك البقعة من بلاد المغرب التى حافظت على استقلالها بعد ان كانت دعائم النهضة العلمية قد توطدت وظهرت بوضوح فى عهد الموحدين فجاء السعديون لكى يجنوا ثمار هذا التطور بعد ان خبت قليلا شعلة العلم والمعرفة والثقافة طوال عهد الوطاسيين ومن هنا لم يكن السعديون اقل حماسة ممن مضوا قبلهم فى طريق النهضة العلمية والثقافية والحضارية إلى غايتها لاسيما وان الخلفاء السعديين الذين تربوا تربية اسلامية سليمة وكان لهم تاريخ طويل فى مجال العلم والبحث والتدريس والتأليف قد ظهرت مؤثراتهم العلمية والثقافية طوال قيامهم بالتدريس فى جامع القرويين ولابناء سلاطين الوطاسيين فسرعان ما كانوا حجة فى الامور الفلسفية والمسائل الشرعية وعلوم الدين والذين عملوا على اقتناء الكتب والمخطوطات وانشاء المكتبات واحاطوا انفسهم بالعلماء ورجال الدين والفقه والحديث والتفسير ومن ذلك مثلا ما ذكره السلاوى فى كتابه الاستقصا عن السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ والد احمد منصور الذهبى والذى تلقب بالمهدى بانه بلغ فى العلم درجة الرسوخ حتى انه كان يخالف القضاء فى الاحكام التى يرون انها

يجب ان تكون ثم يرد عليهم فيما افتوا فيه فيجدون الصواب معه وقد وقع ذلك مرارا وكانت له حواشى على التفسير وبعدها فقد شهدت البلاد نهضة علمية اسلامية فى العصر السعدى لا تقل عن عهد المرابطيين والموحدين وبنى مرين ان لم تكن تتفوق عليها فى العديد من المجالات .

كما ان الخليفة احمد الاعرج بن محمد القائم بامر الله ثانى الخلفاء السعديين بعد أن ادى فريضة الحج وعاد من الاراضى المقدسة بالحجاز ووصل إلى المغرب فانه استقر بمدينة فاس حيث اتخذ موقعا له فى مجلس القرويين للقيام بالتدريس والتعليم واكتسب لذلك سمعة طيبة وتقربا من ذوى السلطان حتى صار مؤدبا ومعلما لابناء السلطان احمد الوطاسى وكان كذلك يقوم باعمال التدريس والوعظ والتأليف حتى القتال والتحرير جنوب البلاد ومن هنا كانت الاسرة السعدية تقوم على الشرف والشرافة السعدية القرشية وعلى العلم والاهتمام بعلوم الشرع والدين والفقه والحديث والاهتمام بعلوم اللغة العربية وادابها وذلك عملا على العودة إلى ان يصبح المغرب الاقصى قلعة الاسلام والعلم والثقافة، بل انه فى ظل الاستقلال وعدم التبعية التى نعمت بها بلاد المغرب ظلت تستلهم طريق التقدم الاسلامى واساليب الحياة والعلم متأثرة بالقيم المغربية والمؤثرات الحضارية العربية الشرقية وهكذا تزعم المغرب الاقصى فى العهد السعدى الحياة الثقافية والعلمية والفكرية فى بلاد المغرب كلها وكان لهذه الاحداث كلها اثرها الفكرى فى تأكيد الزعامة الثقافية التى وضحت وتجلت فى مدارس المغرب الاقصى المختلفة التى مارست نشاطها فى اثناء الحركة الثقافية والعلمية وبرزت مدارس مراكش وفاس وسلجماسه وثارودانت واغمات وسلا والعرائش واغادير وغيرها من المدارس العلمية والثقافية التى توثقت فيما بينها بالروابط العلمية والفقهية والذى تمثل فى انتقال العلماء ورجال الدين وحطهم الرحال فى كل من هذه المدن لفترة وسرعان

ما ينتقلون إلى مدن أخرى لكي يسهموا في إثراء الحركة الفقهية والدينية وما تمثل أيضا في انتقال الطلاب إلى جامع القرويين بفاس طلبا للعلم واستزادة من مناهله الفياضة وتلقى دروس الفقه والحديث وعلوم الرياضه والفلك والكيمياء وغيرها من علوم العصر على أيدي جهازة العلم المغاربة في ذلك الوقت والذين اشركوا معهم اخوانهم الاندلسيين الذين ضربوا بباع طويل في مختلف العلوم والفنون وكان لهم دورهم البارز على مختلف الاصعدة العلمية .

كما ان العصر السعدي شهد ازدياد دور الطرق الصوفية كالشاذلية والقادرية والجزولية والجيلانية وغيرها من الطرق الصوفية الفرعية التي استقطبت حولها العديد من ابناء الشعب المغربي والتي كان لها دور في الجهاد والعمل والعبادة وكانت لها مؤلفاتها التي يتلقفها انصارها بالدراسة والتدريس والتي ساعدت على نمو الروح الاسلامية المجاهدة ضد العدو المحتل وكيف انها كانت تلقى بمؤثراتها على ابناء الشعب المغربي في المنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط وساحل المحيط الاطلسي في الداخل وصولا إلى البوادي والقرى وكيف ان الدعوة السعدية نفسها قامت على اكتاف رجال الطريقة الصوفية الجزولية وكيف ان الطرق الصوفية فتحت ميدانا جديدا للدعوة الاسلامية بعد ان تضافرت جهود رجال الطرق واقطابها ضد القوى المتحكمة في مصير المغرب فقد اسقطت الاسرة المرينية وكذلك ساعدت في اسقاط اسرة بنى وطاسي وكيف ساعدت هذه الطرق في ظهور نزعة التحرر الوطني والجهاد ضد القوى الاوربية والتفتح على الحياة الثقافية وكيف ان الصبغة الدينية وفق تعاليم المذهب المالكي وهي التي كانت تسود في البلاد وكيف ان المذهب المالكي كان راسخا كل الرسوخ بين ابناء الشعب المغربي والذين كانوا يكونون حبا خالصا للدوحة النبوية الشريفة والشجرة الذكية الهاشمية ومن هنا بسط المذهب المالكي لواءه على كل المذاهب الصغرى

الاخرى التي اختنقت من الحياة الدينية المغربية وكيف ان الحركة الفكرية العلمية المغربية عقدت اواصر التحالف مع السعديين من اجل استمرار الارتباط باسم الوحدة الجهادية الاسلامية سعيا للوصول إلى صبغ ثقافية مقبولة من لدن المجتمع الغربي بعد ان دخلت بعض الانحرافات والشعوذة والمفاهيم الخاطئة في الطرق الصوفية وكان على السعديين تصحيح مسار هذه الطرق وربطها بحركة المراقبة للجهاد الاسلامي لتكون الصلة بينها وبين التعاليم الدينية الاسلامية الصحيحة قوية وكذلك عملا على تعميق المناخ الحضاري الثقافي البدوي الذي عايشته الاسرة السعدية في السوس جنوب مراكش خاليا من البدع والخزعبلات والذي كان ميراث الاسرة السعدية الشريفة في مرحلتها الاولى ينطلق من اساس ان قادة السعديين الثلاثة (محمد القائم بأمر الله واولاده احمد الاعرج ومحمد الشيخ) كانوا من رجال الدعوة الاسلامية والذين كانت لهم اهمية كبرى في دفع حركة تنقية المسيرة الصوفية من كل ما شابها من اضرار لحقت بها وغياب الوعي العلمي الاسلامي القرآني من اثر اختلاط العوام والاطراف الاخرى المعادية لنوع الاسلام الصافي المتمثل في كتاب الله الكريم وسنة خير المرسلين

وكيف ان القبائل العربية المنتشرة في ارجاء المغرب أسهمت في إثراء الحركة اللغوية العربية ونشر العلوم الفقهية وظهور العديد من رجال الدين والفقه والحديث والتفسير من ابناء هذه القبائل مما ساعد على تدعيم العمل العلمي الاسلامي وكيف ان المؤثرات الحضارية الاسلامية أسهمت في التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمجتمع المغربي الذي كان قد اصابه التمزق والتشرد من جراء الثورات الداخلية والانقسامات الاقليمية وظهور كيانات صغيرة والجيوب الاستعمارية فجاءت الاسرة السعدية لتصبح فكرة الوطن الواحد والقيم الاسلامية التي قادها الدعاة والمعلمون في

دروب المغرب المختلفة مما ساعد على بروز الاشعاع الحضارى الاسلامى بنفس القدر والقوة التى كانت تسود عصور المرابطين والموحدين بعد ان كان مجئ الاسرة السعدية قد واكب تقلص المظاهر الحضارية والثقافية الاسلامية فى العصر الوطاسى، لكن السعديين وقد قدموا من جنوب البلاد جاء معهم دفع حضارى قوى وعميق قلب وجهة الحياة الفكرية والثقافية الاسلامية راسا على عقب واحس الناس بتاثير تعاليم الطريقة الصوفية الجزولية التى رفع شعارها السعديون لاسيما ان هذه الطريقة الصوفية الصافية عملت على نشر العقيدة الصحيحة وتوحيد المغاربة للوقوف صفا واحدا وسدا منيعا فى وجه المد الاستعمارى وقد تسلمح المريدون حينئذ بالقرآن والشريعة والسلاح لمحاربة المستعمرين الاوربيين وكذلك العمل على مقاومة النفس والرجوع إلى جادة الطريق. وهكذا حملت الطرق الصوفية مشعل الثقافة العربية الاسلامية وكان لارباب الزوايا والمريدين دور كبير فى نشر التعاليم الاسلامية ولعبوا دورا ثقافيا وادبيا .

وقد شهدت المغرب فى نهاية القرن السادس عشر ازدياد نفوذ العلماء وعملهم على نصح الرعية والدولة وزيادة الاهتمام بالدين لاسيما قبيلة جزولية التى كانت منتشرة فى الصحراء والسوس ونهضت بالجهاد ضد الامراء المتأخرين فى الاسرة السعدية لحملهم بالسيف على تغيير المنكر لاسيما بعد ان انتشر الخلل والفساد والرذيلة فى المجتمع .

ولقد زادت سمعة جامعة القرويين بفاس فى عهد السعديين واشتهرت فى الأصقاع السودانية واصبح التعليم العالى والاجازة التى كانت تمنحها تلك الجامعة مطلبا للطلاب بعد ان يكونوا قد تضلّعوا فى علوم الدين والعلم واللغة لعدة سنوات وبعد ان اكتظت بالطلاب والدارسين الذين دابوا على اختيار الاستاذ وحضور حلقات الدرس المناسبة حيث كان كل استاذ يدرس اكثر من مادة واحدة وقد يلقي درسا من كتاب

يدرس منه استاذ آخر فى ذات الوقت وقد اعتبرت المساجد فى مختلف المدن المغربية اماكن للدرس والتدريس والتحصيل وتهافت الطلاب على حضور حلقات العلم فى المساجد التى كانت تشهد توسعا لان الجامع كان يعتبر بمثابة مدرسة تلقى فيها علوم الدين وقد كان التعليم بجميع اطواره يجرى فى المساجد او الجوامع لاسيما ان الفقهاء كانوا ياتون بالصبية والاطفال إلى المساحات الخارجية من المساجد لتحفيظهم القرآن الكريم وتدريسهم علوم الدين واللغة وقد اشتهرت مدارس الصبيان او الكتاتيب فى العهد السعدى فى جميع انحاء البلاد والقرى والبادى والسهول والسهول وفى كل تجمع سكانى حيث حرص سلاطين السعديين على الوصول بالقرآن وعلومه إلى كل بقاع المغرب الاقصى لاسيما بعد ان امتد نفوذهم إلى بلاد السودان .

ومن الامر المؤكد ان مراكز الثقافة والحضارة الاسلامية تحولت فى العهد السعدى من الاشعاع الدينى إلى الاشعاع الحضارى الثقافى واصبحت هذه المراكز من الشهرة فى العالم العربى والاسلامى وتزخر بالعلم والثقافة الاسلامية وبمؤلفات الاساتذة وقد تطلع العالم الاسلامى والاوروبى إلى هذه المراكز الثقافية، وانه فى ذلك العصر لم يعد التعليم مقتصرًا على المساجد والجوامع بل انه قد ظهرت انواع من التعليم الذى له صلة بالعلوم العصرية والمواد التى تدرس لاجل اكتساب المهارات والصنائع وزاد الاهتمام بالعلوم الحديثة واقبل الطلاب على دراسة هذا النوع من العلوم عملا على النبوغ فى قطاع من هذه القطاعات وقد كان الطلاب يتوافدون من البلاد البعيدة إلى مراكز او فاس للحصول على اجازات علمية تفتح لهم ابواب التدريس والتوظيف فى بلادهم وكان اولئك الطلاب يدرسون امهات الكتب على الاساتذة والذين كان من بينهم الاندلسيون الذين ادخلوا العديد من العلوم الحديثة للتدريس كعلوم الرياضيات والكيمياء والفلسفة والطبيعة وعلوم الفلك والفيزياء وغيرها من العلوم التى كانت

منتشرة في غرناطة قبل سقوطها عام ١٤٩٢م فنقلوا طرق تدريسهم وتعليمهم إلى المغرب بعيدا عن جو الارهاب ومحاكم التفتيش والاضطهاد والقتل والحرق وهي الاساليب التي كان يستخدمها الاسبان معهم من اجل اجبارهم على التنصير وترك الاسلام والدخول في المسيحية .

لكنه رغم كل هذا التقدم الذي ادركه العصر السعدي في مختلف العلوم الا ان العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية ظلت محور الحركة الثقافية والعلمية والفكرية طوال العصر السعدي وظلت امهات الكتب الاسلامية وما ظهر حولها من حواشي وشروح من المواضيع التي تدرس سواء في التفسير وعلوم الحديث وكل ذلك كان يدور حول المذهب المالكي الذي كان هو مذهب اهل المغرب والسودان بعد ضمة للدولة المغربية السعدية، بل اكثر من ذلك فان مؤلفات الاساتذة والعلماء المغاربة كانت تدرس في جامعات المغرب والمشرق وبلاد السودان، بل ان هناك اساتذة مغاربة كثيرين كانوا يدرسون في جامعة الازهر وجامعة الزيتون بتونس وكان منهم العديد من المجاورين في بيت الله الحرام في مكة المكرمة والمدينة المنورة ويقومون بالقاء الدروس في حلقات دراسية داخل المسجد المكي او النبوي. ولقد اصبح المغرب الاقصى بحق يساهم بقدر كبير ودور لا ينكر في اثناء حركة الفكر العربي الاسلامي ودفع الثقافة العربية الاسلامية قدما في شتى الاقطار المغربية بل في كل القارة الافريقية وصولا إلى بلاد السودان الغربي والافريقي من منطلق الدور الذي لعبه الخليفة المنصور السعدي بعد فتح السودان وضمه للديار المغربية في وحدة اسلامية شملت بلاد المغرب والسودان .

وذلك لان الحركة الثقافية والفكرية والعلمية في المغرب قد اخذت مناخا وأغراضا فكرية متنوعة بعد ان كان العمل العلمي في العصور السابقة ينحصر في النواحي الدينية واللغوية والمنطق فتخطاها إلى دراسة كل العلوم الاوربية لاسيما وان

المغاربة قد احسوا بما وصل اليه الاوروبيون من تقدم وتطور عملي في ظل دراسة هذه العلوم والفنون الجديدة التي زاد اطلاق المغاربة عليها بعد ان زادت صلتهم ببلاد انجلترا وفرنسا وهولندا واسبانيا وصقلت مواهبهم بالاطلاع على المؤلفات التي قدموا بها إلى مراكز وتهافت الطلاب على دراستها وعمل العلماء على شرائها ونسخها لكي ياخذ المدرسون بتبسيطها وادخالها في المدارس المغربية بعد ان حظى التعليم بنوع من التنظيم والعناية لم يكن يعرفها من قبل ولم تعد المدارس وقفا على ابناء السلاطين والامراء وعليه القوم وقادة الجند والشرطة والقضاة وابناء العلماء انفسهم بل تعدتها إلى كل طوائف الشعب بعد ان عمل المنصور الذهبي على ادخال العلوم الحديثة لاثراء المكتبة المغربية بكل جديد وطريف في هذا الميدان العلمي بعد ان حدث تطور علمي لاسيما وان المنصور فتح ابواب العلم والبحث امام العلماء وقد راينا كيف انه قدم إلى المغرب احد كبار مصممي الاسلحة الثقيلة المخترع الاندلسي احمد الحجري المشهور بافوكان بعد ان هرب من اسبانيا ووضع المنصور كل الامكانيات امامه للاختراع فافرج اختراعاته وتصميماته معمل السلاح بمراكش الذي بدا يصنع انواعا خاصة من مدافع الميدان .

ولقد توافد على جامعات المغرب العشرات من علماء وخبراء الاندلس والمغرب الاوسط وبلاد المشرق الاسلامي واستقبلت جامعة القرويين العشرات ايضا ممن لمع اسمهم في تاريخ العلم والفكر والتقدم وبارك السعديون الحركة العلمية والثقافية والفكرية العربية الاسلامية وشجعوها واحترموا العلماء والفقهاء والمخترعين وقربوهم اليهم واسقطوا عنهم وظائف السلطنة ومنعوا عنهم ظلم الحكام، وكان للعلماء وضع خاص بحيث انه كان لا يجوز لغير السلطان النظر في اية شكوى ضد اى عالم او فقيه .

ومن هنا فقد ادى الامر بعد اعوام قصيرة من تولى احمد المنصور الذهبي الحكم ان ظهرت نهضة علمية حقيقية تقوم على الدراسة المنهجية والتطبيقية واتضح فيها

معالم الفن المغربي الاندلسي الاصيل وظهر الالتحام المغربي الاندلسي فى كل المجالات لاسيما انه قد توجهت بعثات طلابية من مراكش وفارس إلى إنجلترا وفرنسا وندب المنصور السعدى بعضا من الطلاب للعمل فى المجالات الصناعية ليكتسبوا الخبرات من العلماء الاجانب وسمحوا لبعض الطلاب بالتوجه إلى اوربا للاطلاع على الابحاث والمخترعات والوقوف على احوال هذه البلاد ومعالم التقدم العلمى بها .

وكذلك زاد عدد المثقفين بالعربية واللغات الاوربية لدرجة اننا نجد بعض المغاربة كان يجيد اللغة التركية والاسبانية والانجليزية وغيرها من اللغات الاوربية وكان يطلع على المؤلفات الاوربية بلغات اهلها وقد كان هذا نموذجا مغربيا رغم التمسك بالقرآن الكريم ودراسة علوم الشرع والدين والمحافظة على القيم والعادات والتقاليد المغربية .

وهكذا فانه يمكن القول بان المراكز الثقافية الاسلامية فى ذلك العصر كانت قد حققت نجاحا بارزا فى ربط الفكر الدينى العربى الإسلامى بالحضارات الاوربية فى المجال التطبيقى والعلمى وسار ذلك النهج فى نطاقه التأثيرى المتبادل بحيث لم يكن يتخطى الآخذ بعلم الغرب بعد امتداد للثقافة الاوربية، انما ياخذ منها ما يستفيد منه الراغبون فى العلم والاستزادة من العلوم الاوربية خروجا على المجال القديم الذى كان يدرس الفلسفة والمنطق والتاريخ وآداب الرحلات والشعر وعلوم اللغة العربية والادب والانشاء وعلوم الدين من فقه وحديث وشهدت البلاد تقدما فى العلوم الصناعية والهندسة المعمارية ودراسة علوم الكيمياء والرياضيات وعلوم صناعة الاسلحة وانتقل بعض الاندلسيين إلى المغرب بما كان لديهم من علم اعطوه خبرة لابناء المغرب .

وقد انتشرت المؤثرات الاندلسية بصفة خاصة فى مدن واقاليم الساحل نظرا لقربها من الاندلس وصارت مراكش وفاس حواضر عالمية ذات تاريخ مجيد فى الحضارة والثقافة العربية الاسلامية لاسيما ان سلاطين السعديين فى مراكش وفاس كانوا

يستقدمون اعلام الفقهاء والعلماء لتهديب اولادهم وحضور مجالس مشورتهم بل ان مجلس الشورى الذى شكله المنصور السعدى كان يضم بين صفوفه بعضا من الفقهاء البارزين، بل ان الخلفاء السعديين كانوا يشجعون الاطباء والفلاسفة وكانوا يتخذون مجالس لهم تضم العديد من الشعراء والادباء وقربوا الفقهاء واغدقوا عليهم وشجعوهم بكل وسيلة وعملوا على استخدام النخبة العلمية الاندلسية والعمل بكل الوسائل على تهريبهم من الاندلس للاستفادة بهم بعد ان كان ملوك اسبانيا يحرمون على الصناع والعلماء المسلمين الاندلسيين الهجرة إلى المغرب استفادة منهم وتسخيرهم للعمل فى المجالات الصناعية والعلمية وذلك لما اشتهر به علماء المسلمين المتخصصين فى مختلف المجالات كالطب والصيدلة والبيطرة والهندسة والصناعات الحربية .

وكما سبق القول فان المنصور السعدى قد جدد المدارس القديمة وانشأ العديد من المدارس فى ذلك العصر وقد اكد المؤرخون كالقشنى واليفرانى وغيرهم من المعاصرين للسعديين ان المدارس القديمة والحديثة قد تفوقت فى هذا العصر تفوقا ظاهرا وبدأ التفوق فى الطب والهندسة والكيمياء والصناعات الحربية وفى العلوم الشرعية وغيرها من العلوم الاخرى حتى اذا تمكن المغرب من هضم العلوم العصرية بعد ان زخرت بها المدارس بدا المغرب يخرج تفوقا فى هذه العلوم بعد ان عاد الاندلسيون إلى المغرب بذخيرة علمية عظيمة ينفعون بها الناس .

وهكذا يمكن القول من خلال هذا العرض لجوانب الحياة الفكرية والثقافية والعلمية فى المغرب ان هذه البلاد قد شهدت فى عهد الخليفة المنصور السعدى الذهبى امنا وطمانينة واستقرارا لم تشهده فى اى عصر سابق من قبله سواء فى عصر اخيه عبد المالك بن محمد الشيخ او اخيه عبد الله الغالب او فى العصور السابقة مما أدى إلى انتشار الآثار الفنية والعلمية فى مدن المغرب الاقصى لكن الحاضرة مراكش وفاس كانتا

أكثر تالفا في سماء العلم والفن والثقافة العربية الإسلامية بسبب وجود بلاط السلطان السعدي وبلاد ولي العهد في فاس وما يحيط بهما من ابهة ومظاهر السلطنة وبسبب تنافس الأمراء وكبار رجال الدولة وعلية القوم فشهدت البلاد نهضة في المدارس والمكتبات وخزانات الكتب ودكاكين الوراقين كما أصبحت مدينة مراكش وفاس من أهم مراكز الفن والحضارة والثقافة في عهد السعديين .

كذلك لعب الثراء الواسع وورود الذهب بكميات كبيرة وزيادة انتاجه إلى رواج التجارة والصناعة بسبب توافر الذهب بكثرة ووفرة كما أدى الرخاء إلى زيادة دخل الدولة وثراء السلاطين لاسيما المنصور السعدي وقد زاد ثراء السعديين وعظم جاهلهم بعد أن جمعوا كميات كبيرة من الذهب السوداني وفدية أسرى معركة القصر الكبير وأصبح من الميسور أن ينفق السلاطين أموالا كبيرة في إقامة المصانع (السكر والأسلحة والمنسوجات) وإقامة القصور (قصر البديع في مراكش) وإقامة المساجد والجوامع وإصلاح جامع القرويين بفاس، كما كان وفود أهل الفن والصناعة الأندلسيون مما دفعهم إلى الانفاق لذلك تجلت في المباني السعدية الروعة والثروة وروعة الفن وضخامة المباني إضافة إلى قيام السعديين بأحياء تقاليد الإسلام ورفع لواء السنة واتسام الأمراء والولاة منذ مؤسس الأسرة محمد القائم بأمر الله بالتقوى والصلاح مروراً بأولاده أحمد الأعرج ومحمد الشيخ أقبالا على العبادة وذكر الله، فقلت المباني المدنية بجانب انتشار المساجد والجوامع فيما عدا قصر البديع الذي استمر بناؤه ست سنوات في عهد المنصور بالإضافة إلى أن المنصور أمر ببناء العديد من المساجد في المدن الكبرى وإنشاء الزوايا والأربطة وبناء المسجد الجامع الكبير في مراكش لاسيما وأن الناس قد أقبلوا على المساجد أقبالا منقطع النظير مما اضطر الدولة إلى الاكتثار من بناء هذه المساجد، نعم أقبل أمراء السعديين على بناء القصور وتنافسوا في بنائها وزخرفتها بينما توجه

السعديون بعنايتهم إلى المساجد، وقد بذل المنصور أموالا كثيرة في تجديد وتوسيع جامع القرويين بفاس واستجلب له خيرة الصنائع الماهرة والمهندسين حتى جاء أروع آية في فن البناء وابهته وهكذا حرص السعديون على تثبيت سيادتهم على تراب المغرب الأقصى بالكامل عملا على إسقاط الوطاسيين وكذلك القضاء على الإمارات المستقلة والمدن التي أعلنت استقلالها عن العاصمة مراكش وكذلك الجيوب البرتغالية لاسيما بعد معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وكذلك فإن السعديين لم يهملوا جانب بناء القناطر والجسور فقد اهتم المنصور ببناء القناطر الضخمة على الأنهار لربط طرق الإمبراطورية وأجرى القنوات الكبرى للري والشرب واستخراج المعادن على اختلافها وبصفة عامة فإن المنصور كان ينمي مرافق البلاد ويضاعف قدراتها المالية وقد نجح السعديون في سياستهم هذه نجاحا بعيد المدى .

وهكذا نرى كيف أن المغرب حقق خطوات واسعة وبارزة في المجالات الثقافية والفكرية والعلمية من جراء حالة الاستقرار الأمني والرخاء الاقتصادي وتوسع الدولة جنوب الصحراء الكبرى واستقدام العلماء والخبراء من الأندلس والدول الأوروبية التي ساعدت على أن تقفز المغرب قفزة جبارة في مختلف المجالات والأصعدة العلمية .

وهكذا خططت الدولة السعدية بعدا مغائرا للعصور والأسرات الحاكمة قبلها في الاهتمام بالعلوم العصرية الحديثة وإدخالها في مدارسها وتدريبها وتدريب المغاربة على استخدام المواد الصناعية في الصناعات المختلفة مما دفع بالمغرب لأن تخطو خطوات واسعة مغايرة لبقية البلاد المغربية التي كانت تخضع للحكم العثماني التركي مما دفع بالمغرب أن يلعب دورا بارزا ومتميزا على الساحة العالمية ودخوله في علاقات قوية مع الدول الأوروبية كفرنسا وإنجلترا وهولندا وأسبانيا وبلاد الخلافة التركية العثمانية .

الفصل الثامن

السعديون وعلاقاتهم مع القوى المعاصرة

تبوات المغرب في العهد السعدي مكانة مرموقة بين القوى الدولية المعاصرة لها لاسيما بعد احراز نصر القصر الكبير عام ١٥٧٨م على القوات البرتغالية ومن تحالف معها من القوات الاوربية .

كذلك زادت هذه المكانة تالقا بعد اتمام فتح بلاد السودان (سنغاي) وضمها للديار المغربية وتكوين المنصور السعدي لامبراطورية اسلامية كبرى تقف على صف المساواة مع الدولة التركية العثمانية والامبراطورية الاسبانية فيما وراء البحار. وقد ساعد هذان الانتصاران على ان تخطب الدول المعاصرة للمغرب (الامبراطورية التركية العثمانية - اسبانيا - إنجلترا - فرنسا - هولندا) ود المغرب وتسعى لاقامة علاقات طيبة معها تتسم بروح المساواة وتبادل المصالح المشتركة سواء ما كان منها تجاريا اقتصاديا او سياسيا الهدف من ورائه تحقيق المصلحة العليا للمغرب كدولة وشعبها كرعية بحيث يؤدي ذلك في النهاية إلى المحافظة على كيانه القومي الاقليمي وعدم السماح بالتنازل عن شبر من هذا التراب وذلك في حالة وجود سلاطين اقوياء يفضلون مصلحة الشعب على المصالح الشخصية التي كانت تتبعها تنازلات عن بعض الثغور أو الموانئ المغربية لبعض القوى الخارجية .

ومما لاشك فيه ان القرن السادس عشر الميلادي عصر الدولة السعدية قد شهد تطورات سياسية بين القوى الاوربية والدولة المغربية لاسيما بعد أن تصاعدت القوى المسيحية الاوربية وانتشرت عبر المحيطات محاولة حصار الوجود العربي الاسلامي لاسيما ان العهد الوطاسي السابق للأسرة السعدية كان قد اغلق حدوده عليه وافلت شمس الدولة المغربية الكبرى في عهد الموحدين ومع هذا فان المغرب في العهد الوطاسي وهو

أضعف حلقات الحكم في المغرب بحيث أصبح المغرب عاجزا عن صد الغارات الاوربية منقسما داخليا على نفسه بين امارات ودويلات صغيرة فكان في تلك الآونة (١٤٢٠ - ١٥١٠م الاسرة الوطاسية) يمثل حلقة ضعيفة مغلوبة بين قوتين اوربيتين صاعدتين هما البرتغال واسبانيا ثم بعد ذلك إنجلترا واسبانيا وفرنسا وهولندا (الارض المنخفضة) وجاء الدور على الكيان الاسلامي الذي يلبس ثوب الخلافة الاسلامية متمثلا في الدولة التركية العثمانية الصاعدة التي بسطت لواءها على شرق البحر المتوسط والبلاد العربية واوروبا الشرقية .

وكان المغرب في ظل هذه الصراعات مع بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر يمثل بالنسبة للدول الاوربية السابق الاشارة لها الجسر الاول للعبور إلى افريقية والهند والعالم الجديد عن طريق سواحل الطويلة الممتدة على ساحل المحيط الاطلسي، وبفضل ثغوره المتعددة على ساحل البحر المتوسط كان العثمانيون الاتراك ينظرون إلى المنطقة الغنية المغربية التي استعصت على جيوشهم محاولة النيل منها أو اخضاعها مثلما تم اخضاع تونس والجزائر حيث انه كان البلد العربي الوحيد في ذلك الوقت الذي يعيش وحيدا خارج نطاق الخلافة العثمانية .

ومع ظهور حركة الجهاد الاسلامي ودور الطريقة الجزولية في ترشيح الاسرة السعدية الشريفة لكي تتحرك تحت راية الجهاد الاسلامي مرتدية عباءة الشرافة القرشية الهاشمية النبوية الزكية كانت كل الموانئ الهامة الكبرى في المغرب قد تحولت إلى قواعد برتغالية واسبانية فكان لابد من مقاومة هذا الخطر بعد ان بدا التفكير من القوى الاوربية في التوغل في الداخل حيث مراکش العاصمة وفاس .

كما أن العقد الثاني من القرن السادس عشر قد شهد بداية دخول الاتراك العثمانيين إلى بلاد المغرب وذلك في نفس الوقت الذي شهد قيام الدولة السعدية

بالمغرب الأقصى ولقد كان دخول الأتراك إلى ميدان المغرب العربي إنما يهدف في المقام الأول إلى إحياء حركة الجهاد الإسلامي البحري التي يقودها قوات المجاهدين المسلمين (جهاد إسلامي وليس قرصنة بحرية كما صور ذلك المؤرخون الغربيون الأوروبيون فذلك من أجل تخليص هذه البلاد من قوى الاحتلال المسيحي والقضاء على نفوذ القوى الفرنجية) ثم ضم هذه البلاد إلى الخلافة العثمانية فكان من المتوقع أن يكون هناك تقاربا بين القوتين الإسلاميتين العثمانيين الأتراك (والشراف السعديين للعمل سويا على طرد القوى الأوروبية ومواجهتها والعمل على حصرها من بلاد المغرب وتحرير الثغور المغربية من إردانهم النجسة ولاسيما أن نفوذهم قد امتد من باب مضيق جبل طارق حتى طرابلس مارا بالجزائر التي سيطروا على بعض بلادها هي وتونس ولاسيما أن معظم ثغور المغرب الأقصى في العصر الوطاسي كانت واقعة تحت الاحتلال البرتغالي والاسباني وكان الشعب المغربي قد تعلق كل آماله وطموحاته في الاستقلال وطرد الغزاه بالأسرة الحاكمة السعدية الشريفة التي قدمت من جنوب بلاد السوس لكي تعمل على توحيد القوى الوطنية السياسية تحت الراية السعدية ولاسيما أن هذه الأسرة قد استطاعت قبل أن تنهى الوجود الوطاسي من فاس عام ١٥٤٩م أن تحرر كل الموانئ المغربية الممتدة من سانت كروز (في إقليم العيون الصحراوي) إلى أزمور قد عادت عن طريق الجهاد الإسلامي للسيادة السعدية الشريفة .

(أ) إبعاد العلاقة السعدية التركية العثمانية

لقد عمل الأتراك العثمانيون منذ الوهلة الأولى التي دخلت فيها قواتهم إلى الموانئ والديار المغربية في الجزائر وتونس وطرابلس على العمل على كسر شوكة القوى الأوروبية المسيحية ومنعها من تنفيذ خططها لاحتواء الأراضي المغربية ولاسيما في المغرب الأقصى الذي أراد له لهم ضما لبقية الأراضي المغربية في المغرب الأوسط والأدنى ومن ثم كان إرسالهم شحنات السلاح التركية الوفيرة للمغاربة وحركة الجهاد الإسلامي المغربي لكي تكون في أيدي المجاهدين لتحرير السيادة الوطنية وكانت الأسلحة الوفيرة التي ضمت أسلحة متقدمة منها آلات للحصار ومدافع عاملا حاسما في تحرير الموانئ المغربية من أيدي البرتغاليين والاسبانيين ولاسيما أن الأتراك قد انتهزوا دعوة السعديين القائمة على القضاء على مراكز الاحتلال الأجنبي لبلاد المغرب الأقصى وإن هذا الشعور الوطني المغربي السعدي قد لقي قبولا وحماسا من الجانب التركي العثماني الذي كان يهدف في المقام الأول من تحركه في غرب البحر المتوسط إلى إعادة البلاد المغربية إلى سيادتها ثم التفكير مستقبلا في دفع حركة الجهاد الإسلامي لكي يندفع وراء مضيق جبل طارق لتحرير الأندلس التي كانت لاتزال توجد بها قوة من الأندلسيين الموركسين التي تقدر بأكثر من مليون ونصف المليون مواطن مسلم، والذين كانت لاتزال تراودهم أحلامهم بالعمل على أن تعود لهم السيادة والكيان الإسلامي تطلعا إلى الدول الإسلامية العربية للعمل في تقديم الوان العون العسكري والمادى والمعنوى باوسع نطاق له لتحطيم الحكم المسيحي والعمل على دفعه شمالا من جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية وحضارة خلف جبال البرانس .

ولقد عملت المغرب على الاستفادة من وصول الأندلسيين الموركسين من اسبانيا واستقرارهم في الديار المغربية خلال الفترات التي كانوا يتعرضون فيها لأقصى

انواع التعامل البشرى ولا سيما ان السعديين عملوا على ان تكون لهم قوات حربية وعسكرية منتظمة وفق احدث الاساليب العصرية فكانت الاستعانة بنواة الجيش السعدى بهذه الاعداد الاندلسية المنظمة والمدرية احسن تدريب والتي تملك زمام استخدام الاسلحة الحديثة، وهكذا كان تكوين جيش مغربى حديث بمساعدة الاندلسيين يدفع بالمغرب بالمقدمة لكى تكون دولة قوية لاسيما ان الاستعانة بهم قد تمت فى العديد من المؤسسات المغربية والتي كانت غالبيتها مؤسسات ومصانع حربية وعسكرية .

ولكن ازاء تطور القوة العسكرية المغربية فان خلافا قد حدث بين اتجاه حكام المغرب الاقصى من السعديين الجدد وبين سلاطين آل عثمان الاتراك وبجانبيهم رجال الجهاد الاسلامى البحرى، ذلك لان السعديين والذين كانوا يعتزون بنسبهم القرشى باعتبارهم خلفاء اشراف من الدوحة الزكية النبوية ويطمعون إلى فرض خلافتهم على جميع البلاد الاسلامية وخاصة بلا المغرب العربى (انظر حملة محمد الشيخ السعدى إلى تلمسان) هذا إلى جانب اعتزازهم بوطنهم المغرب ومحافظةهم على استقلاله والعمل على دعم هذا الاستقلال وعدم قبولهم لادنى تدخل يحد من استقلال وكرامة وطنهم وعدم قبولهم لاية سلطة خارجية حتى ولو كانت سلطة اسلامية من دولة كبرى كالامبراطورية العثمانية، والذى كان الاشراف السعديون يرفضون الاعتراف بخلافتهم على العالم العربى والاسلامى باعتبار ان سلاطين الاتراك العثمانية ينتمون إلى عنصر الاعاجم وليس العنصر العربى الشريف القرشى فى حين ان الاتراك العثمانيين كانوا يسعون إلى بسط لواء سيطرتهم على المغرب الاقصى وتوحيد بلاد المغرب الكبير وذلك لتأمين الجانب الغربى لامبراطوريتهم وخاصة حوض البحر المتوسط الغربى وسواحل المحيط الاطلسى، وذلك لمواجهة الخطر الصليبي بقوى اسلامية كبيرة وموحدة، ولقد

كان على الاتراك نظرا لاعتبارات استراتيجية وسياسية وعسكرية ان ينهضوا بالمهمة الدقيقة وكان الاتراك ينظرون من زاوية السيطرة المرحلية على بلاد المغرب الاقصى وكانوا يرون فى تزويد السعديين وحركة الجهاد الاسلامى بالاسلحة النارية والمدافع الحديثة ما يكسبهم التأييد الشعبى والالتفاف حول الخلافة العثمانية ويدفع الشعب المغربى وعليه القوم وذوى النفوذ ورجال الدين إلى حسن النية بالنسبة للاتراك .

لكن خلافا قد نشب فى أوائل عهد الاسرة السعدية عندما تقدمت قوات محمد الشيخ السعدى للسيطرة على المغرب الاوسط حماية لظهر المغرب الاقصى من الشرق وتطور ذلك إلى صراع مسلح بينهما وخاصة بعد وصول النفوذ العثمانى إلى المغرب الاوسط الذى يشترك مع السعديين فى الحدود السياسية، والاحداث التاريخية منذ ظهور العثمانيين على مسرح الاحداث السياسية ذلك لانه لا توجد دولة وقفت امام تيار الزحف التركى مثلما صمدت الدولة السعدية وحافظت على استقلالها وخاصة بعد ان بدأت احتكاكاتها واتصالاتها بالاتراك العثمانيين فى عهد اقوى سلطانين فى تاريخ الاتراك وهما سليم الاول وسليمان القانونى، ولقد كان السعديون يعملون على اخذ الحيطة واليقظة والحذر فى تعاملهم مع الاتراك نظرا لمعرفتهم لتوايا سلاطين آل عثمان والتي كانت اخبارهم تصل إلى مسامع السعديين والتي ربما كانت على جانب من الصحة. وان كان الذى يقوم بنقلها الاسبان والفرنسيون عملا على عدم تكوين جبهة اسلامية قوية تقف ضد الوجود الاوربى على سواحل البحر المتوسط والمحيط الاطلسى .

ولقد عاون الاتراك العثمانية السعديين فى السيطرة على فاس عام ١٥٤٩م وانهاء الاسرة الوطاسية وراجت اشاعات نقلها قناصل اسبانيا وفرنسا ان السعديين يفكرون فى بناء اسطول بحرى ضخم عملا على استعادة الاندلس من أيدي الاسبان بمعاونة القوات التركية العثمانية، لكن لم يمض زمن طويل على اكتساح السعديين

لفاس الا وكانت قواتهم تنزل شرقا فى اتجاه المغرب الاوسط حيث السيطرة على تلمسان بعد ان اخضعوا فى طريقهم اليها مدينة وجدة بالقرب من الجزائر ولم يمض يونيو ١٥٥٠م الا وكانت تلمسان تخضع لنفوذ محمد الشيخ السعدى بعد أن أمن الشيخ السعدى عدم تحرش القوات الاسبانية بقواته وربما تكون قد عقدت معاهدة بين الطرفين من اجل طرد واضعاف قوة الاتراك العثمانيين فى الجزائر ويبدو ان المساعدات العسكرية الاسبانية قد مكنت محمد الشيخ من احراز انتصاراته فى المغرب الاوسط على الاتراك العثمانيين والتغلب عليهم لكن ازاء ذلك القتال فى المغرب الاوسط فان الاتراك انتهزوا فرصة طلب أبى حسون الوطاسى المساعدة لاستعادة ملكة من أيدي السعديين بالمغرب الاقصى واستعداده لضم المغرب تحت السيادة التركية وقامت حملة تركية عثمانية بقيادة صالح رايس والى الجزائر بالاستيلاء على فاس وطرد محمد الشيخ من عاصمة الوطاسيين وقد بدا ظاهرا أن المغرب اصبح تحت النفوذ العثمانى .

وكانت الدولة العلية العثمانية قد راجعت حساباتها بعد ان اصبح المغرب ليس عدوا للاسبان ولكنه حليف قوى لهم مما جعل هذا التحالف يقلب الموازين راسا على عقب فكانت الحملة التركية لاكتساح المغرب واعلان الباب العالى ضم المغرب إلى الخلافة العثمانية بعد أن خطب امام مسجد القرويين بفاس فى عهد أبى حسون الوطاسى للخليفة العثمانى لاول مرة ولاحر مرة فى تاريخ المغرب حيث أن ذلك لم يدم طويلا اذ أن الثورة الشعبية العارمة قامت لتخلع السلطان الوطاسى وتطرد الاتراك .

وتعد استعادة فاس نقطة تحول فى تاريخ العلاقات التركية بالدولة السعدية فقد ظهرت عداوة محمد الشيخ المهدي لتركيا بان ابن محمد الشيخ صرح اكثر من مرة بانه عازم على دخول الجزائر ومنازلتهم بها. وازاء هذا الوضع بالغ الخطورة تحرك العثمانيون بسرعة وارسلوا وقد إلى محمد الشيخ للتفاوض وعندما وصلت سفارة

السلطان التركى، تأخر الخليفة المغربى فى استقبالها ثم اذن لها بالمشول بين يديه وابقاهم واقفين على ارجلهم وكان مما قاله لهم تحقيرا لسلطانهم وتحديا له. سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له ان سلطان المغرب لا بد ان ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه وان شاء الله باتيك إلى مصر والسلام» بل ان السلطان السعدى كان يطلق لسانه فى السلطان العثمانى ويسميه سلطان القوارب .

ولا شك ان التاريخ العثمانى السعدى على المغرب كان فى صالح الاسبان والبرتغاليين ولهذا فقد حدث التقارب السعدى البرتغالى ولقد ادرك السلطان سليمان القانونى مدى تقارب محمد الشيخ مع المسيحيين وتطور هذا التعاون إلى مشروع للتحالف ضد العثمانيين ومع ذلك فقد كانت سياسة الخليفة العثمانى اخذ المغرب بالهداوة، لكن الرد القاسى الذى ابلغته الحاشية التركية للسلطان كان من اثره أن العثمانيين جربوا لاول مرة اثارة الفرقة التركية العسكرية العاملة فى المغرب ضد السلطان المغربى ونظام حكمه وقد جر ذلك إلى الكثير من المتاعب وتعرض محمد الشيخ للاغتيال والقتل .

وقد ادى حادث اغتيال محمد الشيخ والغدر به بهذه الطريقة البشعة بعد قطع راسه ووضعها فى مخلاة وارسالها إلى القسطنطينية وتعليقها على احد ابواب العاصمة التركية قد أدت إلى زيادة العداوة بين الاتراك وأبى عبد الله الغالب بن محمد الشيخ الذى تولى الحكم خلفا لابييه مما دفع الغالب إلى الاندفاع فى سياسة المهادنة مع الاوربيين فاضطر الغالب المتلهف إلى السلاح والقوات العسكرية أن يتنازل لفرنسا فى عام ١٥٥٩م عن مدينة القصر الصغير الواقعة بين سبتة وطنجة مقابل الحصول على اسلحة فرنسية تقوى وضعه امام خطر الاتراك الراغبة فى ضم المغرب باية طريقة وبأى ثمن. وكان الاتراك قد ربطوا جسورهم وتعاونوا مع القوات التى اغتالت محمد الشيخ

فى المغرب ونزلوا بجزيرة باديس وتوغلوا فى المغرب من جديد حتى اشرفوا على مدينة فاس، الا أن عبد الله الغالب سلم الجزيرة لاسبان أملا فى دخول اسبانيا الحرب ضد الاتراك العثمانيين واشراكها فى الحرب لمنع الاسطول العثمانى من انزال قوات برية فى سواحل المغرب وكان يقابل ذلك عند المغاربة الصمود والتضحية بكل شئ والتحالف حتى مع الشيطان للحفاظ على استقلال بلادهم لاسيما ان الاتراك العثمانيين استخدموا عدة وسائل لتنفيذ هدفهم فى ضم المغرب والمطالبة على الدوام باية وسيلة بقبول الخلافة العثمانية لاسيما بعد احتضانها للامراء السعديين عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن أبناء محمد الشيخ نكايه فى أخيههم عبد الله الغالب وكذلك العمل على توزيع الاسلحة على بعض القبائل المغربية دفعا لانماء روح الوحدة الاسلامية والعمل على بث تلك الدعوة فى الاوساط الدينية والقبائل الكبرى .

وكذلك عملت تركيا على الابقاء على للقوات التركية المحترفة العاملة مع الجيش المغربى ولاسيما الحاشية التركية التى كانت مقربة لدى الخليفة السابق، واذا كان الغالب قد تنازل لفرنسا عن القصر الصغير ولاسبانيا عن حجر بادس فانه تنازل ايضا للبرتغال عن ميناء مازاكان بعد ان كان المغاربة قد قاربوا تخليصه من أيديهم .

وكان الاتراك قد ارسلوا حملة بقيادة حسن بن خير الدين باشا حاكم الجزائر لكن القوات المغربية قضت على طموحات هذه الحملة وتمت هزيمتها ولم يشهد عصر الغالب أية محاولات تركية اخرى بعد حملة حسن خير الدين باشا .

وقد حدث تطور هام فى عام ١٥٧١م عندما انكسر الاسطول العثمانى بشكل تام امام اساطيل اسبانيا واوروبا فى معركة ليبانثو ومنذ ذلك لم يعد العثمانيون يفكرون فى اضافة حلقة اخرى فى سلسلة امبراطوريتهم، بل اصبح المغرب بالنسبة لهم يشكل سدا قويا يقف فى مواجهة القوى المسيحية القوية والمتفوقة .

لكن الاتراك استضافوا اعداء الغالب من البيت السعدى أمثال عبد المالك وعبد المؤمن واحمد المنصور عندما التجأ هؤلاء الامراء السعديون إلى الباب العالى طالبين العون لاسترجاع العرش السعدى لهم بعد تعاون الغالب مع الدول المسيحية مما دفع الاتراك بامدادهم باسلحة ومدافع وجيش كامل قوامه خمسة آلاف جندى مسلحين احسن تسليح وفق اساليب العصر وذلك بعد ان نجح عبد المالك واخوته فى اقناع السلطان سليم الثانى فى اغراء الاتراك بمساعدتهم بهذه القوات لاسيما وان عبد المالك وأخاه المنصور قاما بدور كبير فى حملة تونس وبلغت اخبار انتصاراتهما إلى مسامع السلطان العثمانى وقد خصص السلطان العثمانى لمولاي عبد المالك واخويه عبد المالك واحمد المنصور بتلمسان مبالغ مالية كبيرة للمساعدة وكذلك عشرين مدفعا حديثا وعشرين سفينة نقل للقوات وكان انتصار العثمانيين فى تونس قد شجعهم على مساعدة الامراء السعديين لبيسط نفوذهم بعد ذلك على المغرب الاقصى لان استيلاء الاتراك على المغرب الاقصى يؤكد سيطرتهم على جميع البلاد ويؤمن حدودهم الغربية زيادة على ان ضم المغرب إلى الامبراطورية يجعل الاسبان والبرتغاليين فى نزاع دائم وقد يكون ذلك عاملا قويا ومساعددا على العمل لاعادة فتح الاندلس مرة اخرى ومساعدة المسلمين وعودتهم إلى ديارهم ودخل الجيش التركى لمساعدة عبد المالك فى فاس عام ١٥٧٥م وبعد استتباب الامر للسلطان المولى عبد المالك عادت القوات التركية ادراجها إلى الجزائر مرة ثانية وازاء اشتداد الصراع بين عبد المالك وابن أخيه محمد المتوكل (المسلوخ) ابن الغالب فان العثمانيين ساهموا مساهمة فعالة فى ارسال اسلحة حديثة ومتنوعة وكذلك قوات وخبراء عسكريين ومدربين وأشفعوا ذلك بارسال فيلق عسكرى تركى للمساندة عام ١٥٧٨م فى الصراع الدائر على أرض المغرب .

وقد أرك الاتراك بعد عودة القوات إلى الجزائر خطورة سياسة عبد المالك واتحاهه

بل نزوعه إلى الاستقلال حيث كانت هذه سياسة اسلافه السابقين من البيت السعدى وكذلك مسألة المسيحيين وتوطيد العلاقات معهم ولم تمض سنوات قليلة حتى غدروا به كما غدروا سابقا بوالده محمد الشيخ ووضعوا له السم فى كعك اهدى ومات عبد المالك قبل انتهاء معركة القصر الكبير عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م أقوال معادية للوحدة الاسلامية) والذى دس السم لعنه عبد المالك هو الامير محمد المتوكل (المسلوخ) لاحداث بلبلة بين قوات عبد المالك وتحقيق النصر للبرتغاليين بقيادة دوق سباستيان فى القصر الكبير وليس الاتراك هم الذين وضعوا السم لان ذلك غير مؤكد .

وفى عهد احمد المنصور السعدى الذى خلف اخاه عبد المالك فى تولى أمور المغرب بعد انتصار القصر الكبير فان العلاقات بدات متوترة نظرا لتدخلهم السافر فى تولية اسماعيل بن عبد المالك بدلا من المنصور بعد انتهاء المعركة وبعد فشل الانقلاب الذى جرى ضده من قبل الاندلسيين خاصة وانه كان هناك اتفاق بين الاندلسيين المورسكين الضباط العاملين فى جيش المغرب للعمل بمساعدة الاتراك لقلب نظام الحكم والاطاحة بالبيت السعدى وتأسيس دولة اندلسية تحت الحماية التركية برئاسة الامير السعدى دواد بن عبد المؤمن. ويخبرنا القشتالى فى كتاب مناهل الصفا فى اخبار موالينا الشرفا وكان قريبا من الاحداث بان محمد بن زرقون الاندلسى جمع كلمة الجنود الاندلسيين كافة على الثورة والفتنة ومن هنا فقد تحقق أمير المؤمنين أحمد المنصور من ذلك وما انطوى عليه دور الاندلسيين فى العداوة والبغضاء لسلطان السعديين نظرا لعملهم على هدم الاسرة السعدية وتفريق امر الجماعة فما كان من أحمد المنصور الا أن أعدم غالبية الضباط الاندلسيين الموالين للاتراك وتطهير جيشه من صفوفهم وكان احتضان الاتراك لاسماعيل بن المالك ابن صاحب انتصار القصر الكبير تمهيدا لاستغلاله ضد المنصور ومحاولة اخضاعه للخلافة التركية .

والثابت أن هذه المؤامرة لم تثر اهتمام الاتراك العثمانيين والباب العالى بالقدر الذى كان يحدث من قبل ويظهر ان طلب حاكم الجزائر الرئيس علوج باشا أسلحة وسفن وقوات من السلطان فى ذلك الوقت بالذات وهو العام الاول من تولى المنصور لم يلق تجاوبا يذكر فقد اسدل الستار على المشاكل بعد وصول سفراء كل بلد إلى البلد الآخر .

وكان السلطان مراد الثالث التركى قد افتتح علاقاته مع المنصور بارسال سفاره تهنئة إلى خليفة مراكش للانتصار الكبير على الاوربيين فى معركة القصر الكبير مع هدية وكانت رسالة الخليفة العثمانى تدعو المنصور إلى أن يكون على أهبة الاستعداد لتحرير وهران والمشاركة فى حرب الاسبان، بل اكثر من هذا فقد رغب السلطان مراد الثالث فى عقد حلف مع المغرب يهدف فى الدرجة الاولى إلى غزو اسبانيا واستعادة الاندلس لانه عدو عنيد للحركة الاسلامية بل ان السلطان التركى طلب ان تعلق الاتفاقية والعهد بالكعبة المشرفة والروضة المعظمة وطلب من المنصور أن يرسل اليه جيشا جارا وقوات كبيرة للعمل على فتح الاندلس ان شاء الله ولعل السلطان العثمانى كان صادقا فى تحليله وعرضه فاسبانيا بعد هزيمتها المنكرة فى معركة الارمادا فى ٣٠ يونيو ١٥٨٨م امام القوات الانجليزية هبطت إلى الدرجة الثانية بالنسبة للقوات الكبرى المعروفة فى ذلك الوقت، ومن هنا فانه لم يكن من الصعب القيام بعمل تركى مغربى ضدها لاسيما بحجم القوات التى عرض السلطان مراد الثالث ارسالها لمشاركة القوات المغربية، لاسيما ان سلطان بنى عثمان كان يعلم مدى عمق العلاقات والصداقة القوية التى تربط الملكة اليزابيث ملكة انجلترا بالسلطان المنصور السعدى ومدى اتصالاتهما بشأن ولى عهد البرتغال والمشكلة الاسبانية، لكن انجلترا لم تكن هى أو غيرها من ملوك اوربا وامراتها فى ذلك الوقت تسمح باعتداء اسلامى على دولة مسيحية او الاشتراك فى

التعاون من اجل السيطرة على اسبانيا وقد يكون ذلك مبدا عاما لازالت تسير عليه السياسة الغربية الاوربية الامريكية حتى وقتنا الحاضر .

ولكن المنصور السعدى كان حذرا من الاتراك بعد أن غدروا بأبيه محمد الشيخ وأخيه عبد المالك ومن ثم اتخذ موقفا سلبيا من قبل السفارات التى كان يتم ارسالها إلى بلاده وموقف اللامبالاة وعدم إرسال هدايا مماثلة إلى السلطان مراد الثالث لكن هناك آراء تذكر عكس ذلك لان المنصور كان يرى فى هذه المراسلات ما هى الا سباق بين الاتراك والانجليز لكسب ود المنصور وكان المنصور يردد دائما اذاء هذه المراسلات التركية بالقول لعل ذلك اجتماع لكلمة الاسلام ان شاء الله بهذا الصلح الذى آن أن يتعقد بين الدولتين ويبرم حكمه بين المملكتين عوننا على صرف العناية بحول الله لمجاهدة عدو الدين .

وتردد السفراء بين الاستانة (القسطنطينية) وبين مراکش فتوجهت سفارات احمد ابن ودة والشاذلى والشيظمى وابن الحسن على بن محمد التمكنونى بين أعوام ١٥٨٨ و ١٥٩٠م واستقبل احمد المنصور سفيرا تركيا فى يناير ١٥٨٩م، ولكن اقتراح السلطان العثمانى لم يتحقق لاسباب مجهولة وقد يكون من بينها القيام بالثورة ضد الوجود التركى فى طرابلس الغرب وكذلك ثورات مدمرة فى تونس أغفلت السلطات العثمانية فى ذلك الوقت عن التفكير فى مشروع تحرير الاندلس نظرا لان هذه الثورات استنفذت بعضا من جهد الدولة وهددت قوتها، كما أن الاحوال فى بلاد الشام واليمن فى ذلك الوقت لم تكن هادئة، كذلك فان ثورات رجال القبائل فى الجزائر جعلت القوات التركية فى الجزائر منصرفة لاصحاح ثورات رجال الجبال، كذلك فان مراد الثالث واجه ثورات عنيفة فى الاقاليم الاوربية الغربية القريبة من بحر البلطيق ودول الصرب والبلغان مما جعل الاتراك ينصرفون عن مشروعهم فى غزو اسبانيا بالتعاون

مع المغاربة، كذلك فان حروب السلطان مراد الثالث فى الشرق مع ايران (فارس) قد أخذت جهدا كبيرا من نشاط الدولة وازاء هذه المواقف اخذت العلاقات بين الاتراك والسعديين تعود إلى حالة من الهدوء والود بعد أن انصفت بالحذر والحيطة من جانب المغاربة وكانت الظروف الدولية تساعد على ذلك، ولكن الخلاف التركى المغربى لم يجعل المغاربة يستثمرون انتصاراتهم فى معركة القصر الكبير ذلك لانه لو قدر لهذه العلاقات أن تكون متعاونة ومتضافرة لثم تحرير قواعد الاحتلال فى المغرب الاقصى .

لكن ازاء تحسن العلاقات وجد المنصور فرصة للانطلاق بالسياسة الخارجية وكانت مسألة الاتراك عاملا قويا فى ممارسة سياسة التوسع فى السودان الغربى (ستغاي) ومن ذلك فانه عندما كان المنصور السعدى يستعرض قواته العسكرية المتجهة إلى بلاد السودان الغربى كان السفير المغربى لدى الخلافة التركية العثمانية السفير أبو الحسن على بن محمد التمكنونى يلقى خطبة اسلامية لدى يدى السلطان العثمانى يحض فيها على اتحاد كلمة المسلمين وتوحيد جيوشهم لمحاربة الكفار والوثنيين واعادة المسلمين إلى سابق عزهم ومجدهم التليد ومن هنا بات واضحا ازاء هذه الخطبة أن العثمانيين الاتراك لن يتحركوا ضد المغرب من جديد بازاء طموحاته فى التوسع فى بلاد السودان وهكذا شهد عصر المنصور انتهاء الاطماع العثمانية التركية فى المغرب وتسليم الباب العالى بالامر الواقع .

وبعد أن فتح المنصور بلاد السودان الغربى فقد أخذ يرنو ببصره إلى بلاد الشرق الاسلامى لبيسط نفوذه عليها واعلان خلافته على مصر والشام وبلاد الحجاز والعراق وغيرها من البلاد العربية التى تخضع للحكم التركى، ومن ثم فقد أخذ يرسل زعماء هذه البلاد وعلية القوم وكبار رجال الدين وقادة البلاد وكبار الاسر والاعيان عاملا على بث الدعوة للخلافة السعدية القرشية الشريفة وأرسل إلى علماء مصر خاصة نظرا لدور

مصر الكبير في المنطقة باعتبارها مدخلا إلى بلاد الشرق الاسلامي وعملا على تكوين قاعدة مشايعة للدوة السعدية في بلاد كمصر وغيرها من البلاد واخذ العلماء والفقهاء ورجال الدين في الازهر الشريف وفي الحجاز ودمشق وحمص وحماء وبغداد يتطلعون إلى حكم الشريف السعدى والتحرر من جيروت وظلم نظام الحكم العثماني التركي وقد ظهر ذلك في رد العلماء المصريين في رسائلهم إلى المنصور السعدى بل ان المنصور اتخذ خطوات فعلية في هذا السبيل فقد راسل عالمين كبيرين من علماء مصر في ذلك الوقت هما ابو عبد الله محمد بن يحيى الشهير ببدر الدين القرافي، والامام العارف بالله أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي الحسن البكرى وقد كتبوا اليه ردهما في شأن ما كان يطلبه المنصور .

وكذلك عمل على وصول دعوته إلى بلاد الشام والى عقر دار الخلافة التركية في القسطنطينية ومن ذلك فانه أرسل سفارة إلى إنجلترا ليخاطب الملكة اليزابث في طلب مساعدة إنجلترا عن طريق اسطولها في نقل وفد مغربى إلى حلب على الحدود القريبة من تركيا لعرض الدعوة السعدية الشريفة ومد نفوذها إلى هذه البلاد مؤكداً للملكة إنجلترا بأن المسلمين في بلاد الشرق الاسلامى سوف ينضمون إلى لوائه والدعوة له والترحيب بالخلافة القرشية العربية بدلا من خلافة العثمانيين الاتراك الاعاجم اذا وصلت هذه الوفود إلى بلاد الشام، لكن ملكة إنجلترا اعتذرت عن القيام بمثل هذا العمل بعد أن اتضح لها أن المنصور السعدى يهدف إلى فتح الاندلس واعادة المسلمين إلى ديارهم والى طرد النصارى من الاقاليم الجنوبية للاندلس واقامة كيان اسلامى بتشجيع من تركيا. وقد تنبّهت السلطات العثمانية في هذه البلاد إلى نوايا احمد المنصور وحالت بينه وبين الاتصال بمن كانت هذه الوفود المغربية تريد الاتصال بهم لتحقيق اهدافها .

وفى مقابل ذلك فان السلطان التركى وحاكم طرابلس العثماني مد المساعدة للسلطان ادريس الوماس سلطان برنو الاسلامية فى السودان الاوسط وأمدّه بالسلاح النارى والاسلحة الحديثة نكايه فى مخطط المنصور من أجل زعزعه الاستقرار فى البلاد التى تخضع للحكم العثمانى (عبد الفتاح مقلد الغنيمى، سلطنة برنو الاسلامية رسالة ماجستير غير مطبوعة جامعة القاهرة ١٩٧٥ م) .

وفى عهد السلطان التركى محمد الثالث وصلت سفارة تركية إلى المغرب تطلب من المنصور السعدى اخلاء مدينة أغادير الميناء الرئيسى للبلاد لاعداده قاعدة للاسطول الانجليزى وبأن لايتعرض رجال الجهاد الاسلامى فى البحر للسفن الفرنسية وقد أدرك المنصور ازاء رسالة محمد الثالث مدى تقارب إنجلترا مع تركيا، ولكن المنصور الذى كان مشهودا له بحسن التخطيط والحنكة السياسية أدار ظهره للانجليز واتجه للأسباب بعد تحول السياسة الانجليزية عن المغاربة وكان هذا الاتجاه هو السياسة التقليدية للسياسة المغربية ووصل التفاهم مع الملك الاسبانى فيليب الثالث إلى حد دفع المنصور إلى التعاون والتحالف التام وأن يدخل فى حلف ثلاثى مكون من المغرب وفارس (ايران) واسبانيا عام ١٦٠٢ ضد الاتراك على أمل الاستفادة من التحالف الثلاثى وتقسيم الخلافة التركية وبسط نفوذ الخلافة السعدية القرشية على بلاد الشرق الاسلامى وهكذا كان المنصور السعدى شخصية قوية ماهرة ذكية حنكة الايام فخطط للمغرب وجهه القوى وكيانه المستقل .

(ب) السعديون وعلاقاتهم مع إنجلترا

كان الموقع الجغرافي المتميز للمغرب الأقصى بامتداد سواحله الطويلة على شواطئ البحر المتوسط والمحيط الاطلسي واعتباره مفتاح الطريق إلى افريقية وملاصقته لجنوب أوروبا بحيث لا يفصلها الا ذلك المضيق المعروف بمضيق جبل طارق وكثرة المنحنيات المغربية الطبيعية والزراعية وما تجود به ارضها من خيرات وتقدمها في صناعات لم تكن أوروبا تعرفها وكانت في أمس الحاجة اليها كانتاج السكر الذي تخصصت فيه المغرب وتهافت الاوربيون جميعا على استيراده وكانت المبادلات التجارية لما يحقق مصالح الطرفين قد دفعت بإنجلترا بأن تدخل ميدان العلاقات والصلات مع المغرب السعدي لاسيما بعد الانتصار الساحق الذي أحرزه المغرب على البرتغال ودول أوروبا التي تسانده في معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨ م .

ومن هنا فقد أخذت العلاقات بين الطرفين شكلا تجاريا خالصا في بداية الامر بل ان أول صلات وعلاقات بين المملكتين كانت تجارية ومنذ بداية العهد السعدي بدأ التنظيم والتوسع في تجارة البلدين لاسيما وأن إنجلترا قد بدأت تجارتها مع السعديين وهم لا يزالون حركة اسلامية مجاهدة في اقليم السوس بالجنوب، ذلك لان التجارة الانجليزية كانوا يترددون على المناطق المغربية جنوب مراكش لشراء منتجات هذا الاقليم من السكر وملح البارود اضافة إلى منتحات بلاد السودان الغربي التي كانت تصل إلى سجلماسة وتارودانت والاقاليم الجنوبية من المغرب. ولتقدم القبطان توماس وتيد هام الانجليزي بباخرته المحملة بالاسلحة النارية الحديثة الثقيلة والتي كان من بينها المدافع إلى ميناء أغادير وأسفى في الجنوب عام ١٥٥١ ودفع بهذه الاسلحة التي كان المغاربة في اشد الشوق اليها لاستخدامها في تقوية صفوفهم وطرد البرتغاليين من هذه النواحي حيث تم طرد البرتغاليين بحد السيف وقوة السلاح من أغادير وأسفى قبيل قدوم هذه

الاسلحة ومن ثم عادت هذه السفينة محملة بمنتجات المغرب ومنها السكر واللوز والذهب .

وباع التجار الانجليز الاسلحة إلى المغاربة خرقا لاوامر البابا التي كانت تنص على عدم بيع الاسلحة للمسلمين فكان يتم تبادل السكر وتبر الذهب بالاسلحة ولما تولى محمد الشيخ مقاليد الامور في المغرب عمل على توسيع نطاق التجارة مع الانجليز وقد حصل قبل قدوم توماس بعدة سنوات وفي عام ١٥٤١ م على أسلحة انجليزية استطاع بهذه الاسلحة احراز الانتصار على البرتغاليين وتم له طرد البرتغاليين من جميع الموانئ المغربية فيما عدا طنجة وسبته ومازكان .

وقد اعتبرت البرتغال آنذاك أن نمو التبادل النوعي وزيادة قدرة المغرب العسكرية موجهتان ضد مصالحها مباشرة واعتبرت أن استخدام الانجليز لميناء اغادير وأسفى معا لانزال السلاح اساءة بالغة لكل المسيحيين وخروج على أوامر بابا روما .

ولقد سار أبو عبد الله الغالب بن محمد الشيخ على سياسة أبيه في تطوير علاقة السعديين مع إنجلترا لذا فاننا نجده يقوم في جمادى الاولى عام ٩٧٧ هـ اكتوبر ١٥٦٩ م بارسال رسالة إلى اليزابيث ملكة إنجلترا طالب فيها دوام العلاقات التجارية واستعداد المغرب لفتح ثغوره أمام السفن الانجليزية وامداد إنجلترا بالسلع المغربية التي تحتاج اليها السوق الانجليزية والمصانع الانجليزية في مقابل امداد المغاربة بالاسلحة والذخيرة والمدفع .

ولقد فعل محمد المتوكل (المسلوخ) ابن الغالب نفس الشئ مع إنجلترا اذ أرسل إلى إنجلترا طالبا السلاح لصد الخطر العثماني ومقاومة عمه عبد المالك بن محمد الشيخ المطالب بالعرش واستطاع عبد المالك الحصول على الخشب الانجليزي لبناء سفن للاسطول المغربي وكذلك السلاح اللازم لقواته من إنجلترا وكانت إنجلترا في

أمس الحاجة إلى ملح البرود لصناعة الأسلحة في بلادها وقبل أشهر قليلة من معركة القصر الكبير ١٥٧٨ م وصل سفير الإنجليزي إلى مراكش هو ادمون هوجان Hogan على ظهر سفينة حربية إنجليزية محملة بالمدافع الثقيلة الكبيرة وأنواع متعددة من البنادق والذخائر وعادت إلى بلادها بالذهب وملح البارود والسكر، كذلك مارست شركة الإنجليزية نشاطها التجاري في المغرب باسم الشركة البربرية منذ عام ١٥٨٥ م، ولقد كانت هذه الشركة هي صلة الربط التجاري حيث كانت تضم العديد من التجار الانجليز من إنجلترا والمغرب وكانت تمارس نشاطها التجاري بل والصناعي بموافقة السلطات المغربية .

بل ان الملكة اليزابيث بعد ارسالها الأسلحة لعبد المالك بن محمد الشيخ حاولت عقد اتفاقية تحالف مع الحكام السعديين وطلبت منهم فك الاسرى الذين سقطوا في أيديهم في معركة القصر الكبير، اضافة إلى جعل المغرب سوقا للتجارة الإنجليزية وقد سمح عبد المالك في فترة حكمه القصيرة بتصدير ملح البارود اللازم لمدافعهم ومصانع الحربية الإنجليزية وكذلك السكر والنحاس وغيرها من المنتجات المغربية الوفيرة وذلك في مقابل أن ترسل إنجلترا للمغرب الأسلحة ومواد البناء للسفن ولقد كانت الأسلحة الإنجليزية والعلاقات المغربية الإنجليزية وراء انتصار المغاربة في معركة القصر الكبير مما دفع فيليب الثاني ملك اسبانيا إلى التقدم باعتراض إلى المغرب للنمو الخطير في العلاقات المغربية الإنجليزية لكن اليزابيث ملكة إنجلترا كانت تواقه لان تواصل التبادل غير المشروع في نظر البابوية وأوربا في السلاح مقابل ملح البارود المراكشي اللازم لصنع الذخيرة والذي لم يكن متوافرا الا عند المغاربة فقط ورغم ما فعلته في اخفاء هذه التجارة غير المشروعة فقد عرف بها فيليب الثاني ملك اسبانيا وملات المرارة قلبه حين تحطم الجيش المسيحي الاوربي في موقعة القصر الكبير بواسطة اسلحة مستوردة من

إنجلترا لذا اعترض بشدة عندما علم برغبة اليزابيث في اعادة العلاقات التجارية فيما بعد مع أحمد المنصور الذهبي إلى حد أن أضطر الشريف السعدي إلى رفض طلبها الا انه عاد فقبل التبادل لان عودة التجارة كانت رغبة ملحة لدى المنصور من أجل تزويد جيشه بالسلاح وكانت تعادل رغبة اليزابيث في الحصول على ملح البارود. ولم تمض فترة طويلة حتى علم العالم المسيحي كلة وكذلك اسبانيا ان المغاربة يحصلون على حاجتهم من السلاح والذخيرة والمدافع وخشب السفن والاسطول من إنجلترا وكذلك طلقات المدافع واسلحة الاسطول وكل ما يحتاج المغاربة كان يتم الحصول عليه من إنجلترا وقد استقبل المنصور سفير ملكة إنجلترا للتهنئة بانتصارات القصر الكبير ولكن مما يدعو إلى الدهشة انه لم يكن يحمل من الهدايا ماهو جدير بالتسجيل. وقد زادت فرصة التجارة مع إنجلترا بعد وصول هذا السفير فقد تم في عام ١٥٨٠ م تكوين أول اتحاد للتجار الانجليز في المغرب . وعملت إنجلترا على زيادة نفوذها التجاري وزاد الاهتمام الذي أولاه اتحاد التجار الانجليز بهذه الشركة وأرسل المنصور رسالة إلى إنجلترا مفادها أن المنصور سيعامل التجار الانجليز بجميل العدل وحسن الانصاف في سائر أحوالهم وعامة شئونهم وهكذا كانت هذه الرسالة فاتحة عهد جديد في العلاقات المغربية الإنجليزية في عهد المنصور لما فيه مصلحة البلدين حيث أن المنصور كان يعقد على التعاون المغربي الإنجليزي أعظم الآمال ويتطلع إلى القيام معهم بعمل عسكري مشترك ضد المصالح الاسبانية وضرب مصالحها في مختلف جهات العالم ويبدو أن الانجليز كانوا معجبين بالطموح المغربي ومدركين أهمية دوره في محاربة الاسبان والنزول بسواحلهم ولكنهم لم ينظروا بجدية لهذا الموضوع على نفس قدر حكمهم على مخططاته الاستعمارية .

ولقد كان الدور الإنجليزي منصرفا إلى منع الاسبان من الحصول على أية

مكاسب في المغرب ومحاولة تضيق الخناق عليهم لذا كانت تقف مع المنصور في منعه من التنازل عن مينا العرائش أو مقياضته بميناء الجديدة ومنع الاسبان أن يستغلوا عنصر الحذر المغربي من العثمانيين الاتراك ليصلوا إلى مكسب في الاراضى المغربية. ولكن أهم انجاز عملي كان متصلا بالجانب التجارى فاصبحت المعادن على اختلافها وخاصة النحاس وملح البارود والسكر تأخذ طريقها إلى بحر الشمال ويقابلها في الاتجاه المعاكس السلاح والسفن .

وجاءت قضية الدوناطونيو المطالب بالعرش البرتغالي ضد الاسبان الذين ضموا البرتغال إلى املاكهم والجهود المبذولة لاعادة إلى عرشه على النطاقيين العسكري والمالى لتدخل العلاقات بين البلدين مرحلة أكثر نشاطا وحيوية وكانت الملكة اليزابيث تلح على المنصور في دفع الاموال للامير البرتغالي والتريث في موضوع ارسال الجنود المغاربة إلى لشبونة وكان ذلك الدور المغربي دليلا على المكانة العالية التي وصلت اليها المغرب في مجال السياسة الاوربية الخارجية في عهد المنصور، وفي عام ١٥٨٨م تم هزيمة الارمادا الاسبانية هزيمة ساحقة ومن ثم ظهرت انجلترا كاقوى دولة بحرية وتحكمت في بحار العالم وساعدت الهولنديين في الحصول على استقلالهم عن أسبانيا .

ولقد استفاد المنصور من هذه الظروف الدولية اذ اصدر في ١١ يناير ١٥٨٨م أوامره لحاكم تطوان أحمد النفيسى بالهجوم على مدينة سبتة التي كانت تحتلها اسبانيا وذلك لتكون مركزا للاسطول المغربي وكانت تلك أول مرة كشف فيها المنصور أوراقه أمام الاسبان وأن هذا الهجوم كان بالاتفاق مع انجلترا والمطالب بالعرش البرتغالي ويدل على ذلك بكل وضوح ما جاء في رسالة المنصور فتضمنت خطة مغربية بمنتهى الذكاء وهي أن يجيء الاسطول الانجليزي في وقت الهجوم المغربي إلى السواحل المغربية

الشمالية ويقوم المغاربة بالاغارة على مدينة سبتة برا وبحرا وذلك لدفع بقايا الاسطول الاسباني لترك هذه القاعدة والتقوقع بالموانئ الاسبانية الجنوبية الشرقية وافساح المجال أمام الاسطول المغربي للقيام بعملية غزو سبتة على أوسع نطاق استفادة من تخطيط الاسطول الاسباني وعدم قدرته على الدفاع عن المدينة لان أسطوله كان في حالة سيئة بعد هزيمته أمام الاسطول الانجليزي .

وقد احتفل أحمد المنصور الذهبي بانتصار انجلترا على أسبانيا نكاية في اسبانيا بهذا الانتصار العظيم وأرسل عام ١٥٨٨م اقتراحا بهجوم انجليزي مغربي على اسبانيا ولقد كان الامير دون أنطونيو المطالب بالعرش البرتغالي رهينة لدى البلاط المغربي فحاولت انجلترا لدى السلطان العثماني لكي يضغط على الخليفة السعدى لمحاربة الاسبان وان تقوم انجلترا باعداد الاسطول على حساب المنصور. بعد أن تعهد الانجليز من جانبهم باقناع حاكم مدينة سبتة الاسباني بتسليم المدينة المغربية للمغرب اعتمادا على اتصالات كانت تجرى معه في هذا الصدد .

كما أن المغرب كانت على أتم استعداد للقيام بالعمل على عودة المطالب بالعرش البرتغالي واحتلال اسبانيا ومن ذلك فقد أرسل المنصور سفيره إلى لندن في ١٢ يناير ١٥٨٩م وكان يحمل معه عدة مقترحات منها أن يقود أحمد المنصور بنفسه الجيوش المغربية الانجليزية لاحتلال غرب اسبانيا وأن تقوم انجلترا بارسال ما تحتاج اليه المغرب من أسلحة ومدافع وقطع بحرية لكن انجلترا أرسلت عدة ضباط لقيادة هذه الحملة ولم تأخذ بالعرض المغربي لقيام المنصور بقيادة هذه القوات وعندما كانت انجلترا ترسل قواتها متجهة إلى سواحل البرتغال لاعادة الامير دون انطونيو كان المنصور السعدى لم يقرر الاشتراك بعد لان مطالبه لم تلب في لندن وقام الخليفة المنصور بأن وجه رسالة إلى الضباط الانجليز أن انجلترا لم تجب مطالبه وفضلت دور المغرب بعدم

الاشتراك العسكرى والاكتفاء بتقديم المؤن والزراد والبارود والاموال اللازمة كما أن المنصور لم يوضع فى الصورة المناسبة وخطارة بتوقيت تحرك الحملة الانجليزية وتعارض أهداف الحملة نظرا لان المنصور كان يريد التحرك إلى جنوب اسبانيا لا الاندفاع شمالا فى البرتغال .

وازاء هذه المواقف الانجليزية فان أحمد المنصور عاد إلى سابق عهده وسابق علاقاته الودية مع الاسبان، وازاء هذا التصرف خاب سعى انجلترا لدى المنصور وحدث نوع من النفور بين الطرفين استمر لعدة سنوات بسبب انشغال كل طرف منهما بمواجهة مشاكله الداخلية لاسيما أن المنصور كان يعد عدته لفتح بلاد السودان الغربى، ومن هنا فان المنصور أبقى على السفير المغربى مرزوق سيد سفيرا له لدى البلاط الانجليزى حتى انتهى من اعداد حملته المتجهة إلى السودان الغربى وقد تحسنت العلاقات المغربية التركية العثمانية ازاء عدم التفات انجلترا إلى المطالب المغربية وتجاهلها لمطالب المنصور وبعد أن رفضت انجلترا ايضا نقل وفد مغربى إلى حلب ببلاد الشام للدعوة للخلافة السعدية العربية القرشية وقد باء التحالف الانجليزى المغربى ضد أسبانيا بالفشل نظرا لان انجلترا لا يمكن لها أن تمكن سلطانا مسلما من احتلال أو السيطرة على اراضى دولة مسيحية مهما يكن نوع العداء أو القتال فيما بينهما ومهما تكن الخلافات المذهبية المسيحية سواء كاثوليك أو بروتستانت ومن هنا اعتذرت للمنصور عن استعدادها للقيام بحملات مشتركة ضد اسبانيا وبعد طول مباحثات احس المنصور أن كل جهده لم يعد بفائدة ثمرة عليه فقطع علاقاته مع انجلترا .

وبعد وفاة المنصور وتوزع الحكم بين ابنائه فان انجلترا اتجهت إلى اقامة علاقات مع الوحدات المستقلة التى انفصلت عن مراكش العاصمة لاسيما امارة سلا التى كان يحكمها أبو عبد الله العباسى ولاسيما ان انجلترا كانت لاتزال تطمع فى خبرات المغرب

وفى عام ١٦٠٠م وصل سرا إلى لندن موظف كبير فى مقر السلطان واسكنته الملكة الانجليزية هو وحاشيته المكونة من تاجرين ومترجم واثنى عشر خادما وحين شرفوا بمقابلة الملكة اليزابيث، ادهش السفير الملكة حين ذكر انه قدم ليقتراح أن تقوم هى والسلطان المنصور بهجوم مشترك على اسبانيا ويستوليا على أملاك فيليب الثانى فى الدنيا الجديدة والقديمة ويقتسماها ولما كانت الملكة تشك فى قدرة الجيش المغربى على أن يقوم بدوره فى مثل هذه الغزوة فقد ذكرها بغزو المنصور لبلاد السودان ونجاحه فى ذلك نجاحا باهرا ولما كانت الملكة لا تريد أن تفقد كميات الذهب وملح البارود والسكر والمواد الاخرى التى تحصل عليها من المغرب فانها أجابت اجابة دبلوماسية أدت بالمغاربة أن يعتقدوا أن مطالبهم قد اجيبت .

وكانت وفاة المنصور فاتحة عهد جديد للاوربيين إلى افريقيا والمغرب حيث كان منظر الذهب الذى ينصب إلى مراكش قد ادار عقولهم نحو امكانية الاستيلاء على معادن هذه الثروة عن طريق البحر وقد عرف الانجليز اكثر من غيرهم بسبب مركزهم الممتاز فى تجارة مراكش الخارجية كمية الذهب الهائلة التى تاتى إلى الدولة حيث كان وضعهم أفضل من أية دولة اخرى حيث كانوا يجمعون كميات كبيرة من ذهب المغرب .

ولقد استفادت انجلترا بعلاقتها مع المغرب السعدى اكثر مما استفاد المغاربة، ذلك لان الانجليز كانوا يضعون مصالحهم الاقتصادية فوق كل اعتبار اضافة إلى أن عقائدهم المسيحية لاتسمح لهم بمساعدة سلطان مسلم على حساب ملك مسيحى مهما تكن درجة العداوة وعمق الصراع وعنف الهجمات بين الطرفين ذلك لانهما فى النهاية ملكين مسيحيين (اسبانيا وانجلترا) .

كما أن انجلترا كانت من أولى الدول التى استنزفت ذهب المغرب وبلاد السودان

الغربي ومن ذلك فأننا نجد أحد التجار الانجليز كتب في عام ١٦٣٥ / ١٦٣٦ م يقول عن تجارة الذهب وكيف حقق الانجليز منها اهدافهم في الحصول على كل الذهب حيث ذكر أن أهل السوس في جنوب المغرب لهم تجارة كبيرة في البضائع الانجليزية المرسلة إلى تمبكتو وجنى وللأجزاء الأخرى من السودان الغربي ومن هناك يحضرون قدرا كبيرا من الذهب بينما نحن الانجليز نتسلم جزء كبيرا من هذا الذهب من بيع بضائعنا وحتى عام ١٦٣٨ م كان الذهب يشحن إلى انجلترا، كما ذكر جورج كارتريت قد يعتبر هذا الذهب كنزا أكثر منه سلعة لان الكميات القديمة التي كانت تحملها القوافل من بلاد السودان الغربي أيام مولاى أحمد الأعرج عم السلطان أحمد المنصور قد ضاعت من جراء الاضطرابات التي سادت الدولة وقبل نهاية العام كان احتياطي الذهب في مراكش يتسرب إلى انجلترا ولان تجارة السودان الغربي من الذهب قد توقفت .

ولقد كانت تجارة تجارة الذهب بمثابة الدم ومصدر الثروة لآلاف من التجار الانجليز الذين استقروا في مراكش ومن ذلك أنه في ١٦٠٠ م كتب مراسل في مراكش إلى تجار لندن يعلمهم أن زيارة سفير مراكش للندن سوف تكون فرصة للربح من جراء قيام التجار المغاربة بشراء الآلات والأسلحة الانجليزية .

ومن هذا العرض يتبين لنا أن العلاقات المغربية الانجليزية والتي كان المغاربة بحسن نيتهم يتطلعون إليها على اعتبار استثمار العداء بين الانجليز والاسبانيين لصالحهم لتحقيق أهدافهم في ابعاد النفوذ الاسباني عن الاراضى المغربية والقيام بعمل مشترك من أجل إعادة الوضع الاسلامي إلى الاندلس كما كان في السابق والعمل على تقديم العون لآخوة الاسلام في الاندلس الذين لا زالوا يعيشون في ظل الاستعباد والاضطهاد المسيحي الاسباني، لكن ذلك الهدف لم يكن له أدنى صدى لدى الساسة

الانجليز لاسيما أن الملكة اليزابيث كانت تنظر إلى الدور المغربي على أساس أن أحمد المنصور السعدي يوجد عنده ولى عهد البرتغال كرهينة ومن ثم لابد من مجاراته في مشاريعه حتى تتمكن الملكة من تحقيق أهدافها في كسب معركة الاسبان وقد استفادت انجلترا باستخدامها صداقة المغاربة في تحقيق أهدافها لكن المغرب لم يحقق أدنى هدف من أهدافه في علاقته مع انجلترا فهو لم يستطع أن يحرر الموانئ المغربية المحتلة من قبل الاسبان ولا استطاع أن يحقق الهدف الاسمي الذي كان يمثل صلب السياسة السعدية في إعادة المورسكين إلى بلادهم وطرد القوى الاسبانية شمالا من الاندلس كذلك من الناحية الاقتصادية فقد حققت انجلترا كل ما كانت تسعى اليه من أجل الحصول على كل المكاسب التي كانت تسعى إليها وهي استنزاف المغرب من كل ثروته الذهبية حيث أن أوروبا لم تكن لها موارد من الذهب سوى الذهب الذي تحصل عليه من المغرب وبلاد السودان وكانت انجلترا تهتم بمبادلة الأسلحة الانجليزية والآلات والمصانع بالحصول على الذهب والسكر وملح البارود ومن هنا فقد أقام اتحاد رجال الاعمال الانجليزي مراكز تجارية له في المغرب واستطاع أن يحقق كل المكاسب التي كان يسعى إليها في حين اننا نجد ان الطرف المغربي الذي كان في أمس الحاجة إلى السلاح والذخيرة والمدافع لانه كان يشعر بالحاجة إلى هذه الأسلحة للدفاع عن اراضيه وتحقيق أهدافه في التوسع جنوبا في بلاد السودان وكانت انجلترا تشعر بحاجة المغاربة إلى هذا السلاح ومن ثم تقوم ببيعه بأسعار خيالية وتحصل كل ما تبيعه ذهباً أو ملحاً للبارود تعيد تصديره مرة أخرى للحصول على الذهب .

وعلى هذا كانت العلاقات السياسية والتجارية المغربية الانجليزية تحقيقا للمصالح الانجليزية في الدرجة الاولى بغض النظر عما يعود على المغرب من مكاسب وتلك هي السياسة الاوربية في كل الازمنة والافاق تحقيق المصالح الشخصية على حساب

العلاقات مهما تكن نتائجها وبذلك كانت انجلترا هي الرابحة على طول الخط .

(ج) السعديون والعلاقات البرتغالية

استولى السعديون على مقاليد الامور في جنوب المغرب وهم يضعون نصب أعينهم ضرورة القضاء على الجيوب الاستعمارية البرتغالية وضرورة طردهم من كل اراضي المغرب وقد نجح المغاربة في طرد البرتغاليين بقوة السلاح من الموانئ الجنوبية كأغادير وأسفى جنوبا وحين تم للسعديين القضاء على الحكم الوطاسي واسقاطه من فاس فانه كان يتحتم عليهم ضرورة استمرار النضال من أجل القضاء على كل الجيوب الاستعمارية البرتغالية في الشمال والغرب لاسيما أنه كانت للبرتغال مستعمرة جنوب الدار البيضاء وكانت تدعى البريجه .

وكانت البرتغال قد استطاعت في أقل من قرن من الزمان احتلال معظم الموانئ المغربية الشمالية والغربية والجنوبية وبعض سواحلها ولقد كان هذا الاحتلال من الاسباب القوية التي أدت إلى ظهور الكيان السعدي كقوة مجاهدة في بلاد السوس والقضاء على هذه الجيوب واسقاط الدولة الوطاسية وقد نجح الامير السعدي محمد القائم بأمر الله واولاده أحمد الاعرج ومحمد الشيخ في تحرير الغالبية العظمى من الموانئ البرتغالية بحيث لم يبق في نهاية الامر من هذه المدن والموانئ سوى ثلاث موانئ فقط هي سبتة وطنجة مازكان، وحاول جان الثالث ملك البرتغال في ذلك الوقت طلب المساعدة من الامبراطور شارل الخامس ملك اسبانيا في صد هجوم السعديين ولكن ملك اسبانيا لم يبد أدنى اهتمام بمطالب البرتغال نظرا لانشغاله بحركة الكشوف الجغرافية في العالم الجديد اضافة إلى مشاكله في هولندا (الاراضي المنخفضة) وصراعه مع انجلترا .

وللحقيقة التاريخية التي لا يمكن الجدال فيها أن المخاطر التركية العثمانية وأطماعهم السياسية في المغرب الأقصى ومحاولتهم ادخال المغرب الأقصى تحت سيادتهم كان عاملا مباشرا في تأخير حركة الجهاد الاسلامي والحد من قدرتها الانطلاقية في القضاء على كل الجيوب الاستعمارية البرتغالية والاسبانية قضاء نهائيا، اذ أن ظهور الاتراك العثمانيين في الجزائر وتونس ومخططاتهم في ضم المغرب وقفت سدا أمام انطلاق السعديين ودفعت بهم إلى التحالف مع الاسبان من أجل الحفاظ على استقلالهم الوطني ومن ثم فان كل الموانئ المغربية الخاضعة لسيطرة الاسبان لم يستطع المغاربة تحريرها، حيث أن محمد الشيخ كان يضع في مخططة ضرورة تصفية كل القواعد المحتلة انطلاقا من المبادئ التي قامت عليها الدولة السعدية حيث أن القضاء على القواعد البرتغالية لا بد أن يتبعه القضاء على القواعد الاسبانية انطلاقا لفرض السيادة المغربية السعدية فوق كل التراب المغربي ثم انطلاقا لتكوين دولة المغرب الكبرى بالسيطرة على المغرب الاوسط والادنى .

ولقد كانت المصالح المشتركة بين المغاربة والبرتغاليين تلتقى مع السعديين ازاء الاخطار التركية العثمانية التي كانت تحيق بالمغرب وتفترق عندما يطرأ ما يشغل العدو المشترك العثماني عن الانقضاض على فريسته، ورغم كل ذلك فقد كانت العلاقات السياسية بين المغرب ودولتي شبه جزيرة أيبيريا تحكمها عدم الثقة باستمرار وبانقضاء حكم محمد الشيخ وتولى ابنه أبو عبد الله الغالب الحكم فان هذا الاخير ازاء مواقف الاتراك العثمانيين قد تقارب أكثر من أبيه مع الاوربيين اذ نجد انه هادن القوى الابييرية المحتلة وتنازل لهم عن ميناء البريجه الذي كان قد تم تحريره، لكن الغالب تنازل عنه نظير فدية عظيمة وأموال طائلة وقد باع هذا الميناء للبرتغاليين ولقد كانت صداقة البرتغاليين على حساب معاداته للاتراك العثمانية وقد تنازل الغالب عن البريجه

للبرتغاليين كما تنازل عن باديس للاسبان، كما أنه تخلى عن مساعدة الثوار الاندلسيين في الاندلس (المورسكين) ابان ثورتهم على الاسبان، بل أكثر من ذلك كما ذكر المؤرخ المجهول الذى تحدث عن الدولة السعدية حيث صب جام غضبه على هذا الخليفة السعدى نظرا لوشايته بالاندلسيين عند فيليب الثانى ملك اسبانيا وكان ذلك الموقف المتخاذل للغالب خيانة للقضية الاسلامية وطعنا لظهر المسلمين (المؤرخ المجهول) اذا كان ذلك الموقف قد حدث وربما يكون تحاملا من المؤرخ المجهول الذى لا شك كان عدوا للدولة السعدية حيث اتنا نجد اليفرانى يذكر ان ذلك ربما يكون تعرض للاساءة للأسرة السعدية الشريفة، لكن ربما يكون ذلك قد حدث فى فترة الصراع على السلطة بين الحكام السعديين .

ولقد زادت المطامع البرتغالية فى المغرب فى عهد عبد المالك بن محمد الشيخ بعد اقضاء محمد المتوكل بن الغالب ولجوء إلى البرتغال طالبا من ملكها الشاب دون سباستيان مساعدته فى الوصول إلى العرش الذى اغتصبه منه عمه عبد المالك وقد صادف هذا المطلب هوى فى نفس ملك البرتغال الشاب الذى كان يطمع فى الاستيلاء على جميع اراضى المغرب بعد ان كان قد طرد المغاربة البرتغاليين من كل المناطق المحتلة فيما عدا سبتة وطنجة ومازاكان ومن ثم كانت أحداث اكبر حركة فى تاريخ المغرب معركة القصر الكبير (انظر الفصل الخاص بما جرى فى معركة القصر الكبير فى باب أعمال الامير السعدى عبد المالك بن محمد الشيخ وكيف انتصر المسلمون على المعسكر الصليبي ولم ينج من القوة النصرانية سوى عدد قليل وادت هذه المعركة إلى تدهور البرتغال ومكانتها ولم يعد لها شأن دولي وعلت هيبة السعديين فى العالم الاسلامى لانهم دافعوا عن ديارهم المقدسة وحافظوا على كيان المغرب . ولم تكن الكارثة بالنسبة للبرتغال فى فقد ملكها وقواتها العسكرية ومعها قوات اوربا ولكنها

فقدت كيانها السياسى واستقلالها وضمت إلى اسبانيا وظهرت الاسرة السعدية على مسرح الاحداث السياسية والعسكرية فى نفوس المغاربة وظهرتهم هذه المعركة كحكام اقوياء يمكن الاعتماد عليهم فقد استطاعوا حفظ التوازن بين قوى الشرق والغرب، مما جعل للمغرب دورا فى السياسة العالمية، كما عادت المعركة بالشهرة والثروة للسلطان أحمد المنصور ومن ثم مهدت الطريق لفتح السودان الغربى .

وكانت المغرب فى ظل الانتصار الكبير تتوجس خيفة من الاتراك نظرا للتدخل السافر الذى كان بيديه الاتراك فى شئون المغرب ومن هنا لم تستطع القيادة المغربية أن تستثمر انتصارها فى الطلب من البرتغاليين اخلاء المراكز المغربية الثلاث المحتلة (سبتة، طنجة، مازاكان) فى مقابل الافراج عن الاسرى. لكن قد تكون اسباب مغربية تمنع المغرب من طلب الجلاء عن الجيوب البرتغالية فى المغرب لاسيما أن هذه الجيوب قد تم الاستيلاء عليها من قبل الاسبان بعد المعركة مباشرة، ولم يكن المنصور وقد خرج لتوه من معركة مع البرتغال يرغب فى الدخول فى معركة اخرى مع ملك اسبانيا فيليب الثانى الذى كان قد أعلن حالة الاستعداد بين قواته عندما علم بهزيمة البرتغاليين وشحن الثغور البرتغالية لانه كان يعد نفسه قائما على ممتلكات البرتغال، وكان المنصور يدرك أن كل القوى الاوربية الصليبية قدهالتها الهزيمة وأزعجتها هذه الهزيمة الكبيرة التى لم ينج منها الا اقل من مائة جندي حيث كانت أعظم النكبات التى فاقت كل احتمال اذ انه فى ست ساعات فى يوم من أيام اغسطس الحارة عام ١٥٧٨م أبيدى قوى برتغالية بلغت ستة وعشرين الف رجل يضاف اليهم قوات أوربية ليصل عدد الذين سحقوا فى هذه المعركة اكثر من أربعين ألف .

فقد غيرت هذه المعركة (معركة القصر الكبير) مجرى التاريخ فى كل أوربا، بل فى كل العالم المعاصر وانتشرت نتائجها إلى افريقيا وامتدت إلى الصحراء حيث وقف

المنصور كالتطود الشامخ ضد الاطماع الاوربية فى غرب افريقيا ووصلت قواته إلى هذه المناطق لتحول دون امتداد الايدى الاوربية المملوطة بدماء المسلمين فى الاندلس والمصاصة للدماء الافريقية من أجل الرقيق والذهب فالتاريخ لم يتغير والمواقف الاوربية المعادية للاسلام والمسلمين لم تخفت أو تنطفئ بل زادت حدتها على مر التاريخ محاصرة للاسلام وضربا لاهله. واكتسب المغاربة صيتا وسمعة عالية فى العالمين الاسلامى والمسيحى فاق كل ما تمتعوا به من قبل، بل لم يبلغوه من بعد .

وهكذا حفظ المغاربة للاسلام والعروبة وللدین الخالد صورته الزاهرة المشرقة أمام العالم أثر هذا الانتصار الباهر فى هذه المعركة ولو كان هناك تعاون قوى بين القوى المغربية والتركية العثمانية لتحقيق الامل الاسلامى الكبير فى تلك اللحظة وانتهزت هذه القوى الاسلامية حالة الفوضى والارتباك التى تعيشها أوروبا وعبرت القوات الاسلامية مضيق جبل طارق وسيطرت على الاقاليم الجنوبية على الاقل من أسبانيا وكان الواجب الاسلامى يحتم على القيادة التركية فى هذه الحالة أن تكون على أهبة الاستعداد لحشد قواتها قريبا من ميدان المعركة للتدخل فى المرحلة الحاسمة للاستفادة من هذا الانتصار لاسيما أن معركة القصر الكبير (وادي المخازن) كانت فى الجزء الشمالى الغربى من بلاد المغرب وهى على مسافة قريبة من المناطق الملاصقة للمضيق، لكن رغبة الاتراك الجامحة فى ابتلاع المغرب وبسط النفوذ التركى على أراضيه حالت دون استثمار النتائج الباهرة عن هذا الانتصار المغربى على القوى البرتغالية وهكذا سقطت المغرب قوى البرتغال المعتدية ومعها قوات أوروبا التى جاءت ترفع راية الصليب على أرض عربية اسلامية .

أن العداء للاسلام والروح الصليبية لم تتغير فالذين يطالعون كتاب محمد حسنين هيكل الذى نشره الاهرام ابريل ١٩٩٢ عن حرب الخليج بين القوى الغربية

بقيادة أمريكا وبريطانيا وفرنسا والتحالف العربى ضد العراق المسلم يدرك أن عملية عاصفة الصحراء التى قادها الامريكان اطلق عليها «امجاد العذراء مريم» وأن الجنود كانوا يكتبون فوق دباباتهم «المجد للمسيح، ويا ايها المسلمون نادوا ربكم فاذا لم يرد عليهم فنادوا المسيح» (محمد حسنين هيكل حرب الخليج القاهرة ابريل ١٩٩٢) .

وعودة إلى معركة القصر الكبير أدرك أحمد المنصور أن أوروبا لا يمكن أن تترك عار الهزيمة يمر بدون عقاب (أمريكا تعاقب حاليا العراق وليبيا وربما غدا أقطار عربية أخرى) ومن هنا كان تدخل الاسبان وارد فى فكر المنصور فاكتفى بما أحرزه المغرب من انتصار على البرتغاليين والقوى الاوربية .

لكن المغاربة كانوا عازمين فى مراحل لاحقة على استرداد الاندلس لكن ذلك ربما يكون فى نطاق المراحل الامنية البعيدة التحقيق فى ظل بروز قوى أوربية اخرى (انجلترا، فرنسا، هولندا) وغيرها من القوى الاوربية التى لاتسمح بان يحقق المغرب اهدافه فى العودة للاندلس، كما وان كانت الرغبة الابييرية فى احتلال الاراضى المغربية السعدية وكان هذا هو الهدف الاول فى المخططات التوسعية للبرتغال (حملة سياستيان) وكانت البابوية فى روما الكرسي البابوى يدفع بتأييده الحاسم لهذا العمل من أجل السيطرة على كل الاراضى الاسلامية وحين عزم السعديون ومصمموا بالعزم بدافع وشعور دينى جارف وتأييد شعبى لحركة الجهاد الاسلامى للاسترداد والاجلاء عن الموانئ المغربية والاراضى الاندلسية كان هناك تهاون من بعض القوى المغربية التى أعقبت المنصور فى الحكم من أبناء المنصور نفسه وأبناء زيدان بن المنصور. لكن القوى الاسلامية المغربية المجاهدة من الامراء المستقلين والذين كان ابرزهم الامير أبو عبد الله العياشى الذى حارب البرتغاليين فى المغرب وانتصر عليهم فى أكثر من معركة وعمل على تحرير الموانئ المغربية وقد سار على منواله فى جهاد البرتغاليين وريث العياشى فى

مكناسه (الخضر عيلان) الذى دخل فى حروب عديدة مع البرتغاليين ومع المحتلين الانجليز الذين كانوا يحتلون طنجة وكانت طنجة قد استسلمت للانجليز فى ٢١ مايو ١٦٦٢م وقد بقيت طنجة فى يد الانجليز إلى أن حررها الاشراف العلويين (اجداد الملك الحسن الثانى ملك المغرب الحالى) عام ١٦٨٤م فى عهد المولى اسماعيل بن الشريف (١٦٨٢ - ١٧٢٧م) .

وهكذا نرى أن العلاقات المغربية البرتغالية مرت بعدة أطوار منذ بزوغ فجر الاسرة السعدية على مسرح الاحداث فى المغرب فقد كان هدفها تحرير الاراضى المغربية من السيطرة الغربية وحققت حركة الجهاد الاسلامى كل ما كانت تصبو اليه من نجاح وطموحات فى انهاء الوجود البرتغالى وحصره فى اضيق نطاق وجاءت معركة القصر الكبير لتضع نهاية ما ساوية لكل الاحلام التى كان يحلم بها البرتغاليون فى السيطرة الكاملة على كل الاراضى المغربية وليعاد النظر فى العلاقات المغربية الاوربية برمتها فى عصر احمد المنصور الذهبى. وكيف أن المنصور كان يعمل من جانبه فى الوصول إلى الهدف البعيد وهو الاشتراك مع انجلترا فى احتلال البرتغال واسبانيا وان تتحرك قوات يكون هو على راس القيادة فيها لكن انجلترا خدعت المنصور فى ذلك .

كما أن الشعور الوطنى المغربى الجارف قد اكتسح كل أثر للقوى الاستعمارية الغربية سواء كانت برتغالية أو أسبانية أو انجليزية فى عهد السلطان المظفر مولاى اسماعيل الشريف الذى استطاع أن يحرر كل الاراضى المغربية من قبضة الانجليز وبقايا الجيوب الاسبانية والبرتغالية .

لكن يبقى أمر محير حتى كتابة هذا البحث وهو لماذا تظل مدينتا سبتة ومليلة وهى أراضى مغربية عربية اسلامية حتى الآن فى قبضة الاسبان وقد تم اجلاء الاسبان عن منطقة شمال المغرب أو ما كان يسمى بالريف المغربى وتم تحرير كل الاراضى

التى كانت مستعمرة ولم يبق الا هاتان المدينتان .
ان عدم تحرير سبتة ومليلة حتى وقتنا الحاضر يعود إلى استمرار الظاهرة الاستعمارية التاريخية التى بدأت مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، ان استمرار احتلال هاتين المدينتين والمينائين دون بقية الاراضى المغربية يعنى ان عقدة احتلالهما لا زالت تدخل تحت طور العداء التاريخى وعقدة المد الاسلامى الجارف فهل توضع نهاية لهذا الاحتلال ؟ .

(د) السعديون وعلاقاتهم مع الاسبان

عندما تحركت حركة الجهاد الاسلامى بقيادة الامير السعدى محمد القائم بأمر الله وولديه الاعرج ومحمد الشيخ لطرده البرتغاليين الذين كانوا يحتلون اقليم السوس جنوب المغرب ومظم الثغور المغربية المطلة على المحيط الاطلسى وحققوا أهدافهم فيما كانوا ييغون من طرده البرتغاليين من ديارهم قبل الدخول فى الصراع النهائى مع الوطاسيين حكام المغرب. فقد كان الاسبان يحتلون السواحل الشمالية المطلة على البحر المتوسط مثل مسلييه وباديس وعضاضه ولم تكن أيدي السعديين قد وصلت إلى تلك المناطق الواقعة تحت السيادة الوطاسية وبعد سقوط العاصمة فاس فى أيدي السعديين فانهم اتجهوا إلى تحرير الموانئ الواقعة فى قبضة الاسبان، لكن هناك ظروفًا داخلية مغربية دفعت محمد الشيخ أن يصرف النظر عن تحرير الموانئ الشمالية الواقعة تحت أيدي الاسبان وبقيت هذه الموانئ بأيدي الاسبان دون تحرير، وقد كانت نظرة محمد الشيخ إلى هذا الاتجاه محاولة ايجاد توازن فى العلاقات الدولية لقطع الطريق على الاتراك للسيطرة على المغرب بعد معارك تلمسان ووصول الاتراك إلى فاس مدعمين أبى حسون الوطاسى ضد محمد الشيخ وجاء بعده ابنه أبو عبد الله الغالب

ليوطد علاقاته مع الاسبان وتنازل لهم عن ميناء حجر باديس ليحول دون وصول الاتراك إلى الاراضى المغربية وكان ميناء حجر باديس قد احتله الاسبان فى السابق لكن الاتراك طردوهم منها عام ١٥٢٢م فى أوائل العهد السعدى بمساعدة رجال البحر المجاهدين فى حركة التحرر الاسلامى .

واستمرت العلاقات السعدية تسير فى طريقها المعتاد والمتوافق طوال حكم الغالب . وبعد وفاة الغالب فان ابنه محمد المتوكل (المسلوخ) صار على نفس النهج قبل مهادنة الاسبان كما كان يسير على نفس النهج جده محمد الشيخ وأبوه أبو عبد الله الغالب .

وأثناء الصراع بين محمد المتوكل وعمه عبد المالك بن محمد الشيخ حول احقية أيهما بالعرش المغربى فان الاسبان خذلوا عبد المالك لانهم ساندوا الحاكم الشرعى محمد المتوكل من وجهة نظرهم، لكن عبد المالك وقد أدرك مطامع الاتراك فى بلاده والذين مكنوه من العودة إلى عرش المغرب، فانه عمل على انتهاج سياسة مهادنة وحسن جوار مع الاسبان، وقد راسل عبد المالك الملك الاسبانى فيليب الثانى بشأن مساندته فى طرد البرتغاليين من بقية الموانئ التى لازالوا يحتلونها، لكن ملك أسبانيا وضع الثغور المغربية البرتغالية المحتلة تحت سيادته أثر انهزام البرتغال فى معركة القصر الكبير للحيلولة دون انتهاز المنصور الانتصار الكبير فى معركة تحرير الموانئ المغربية، ومن ثم عمل الاسبان على تجديد المعاهدة المغربية الاسبانية التى وقعت فى عهد الامير مولاى عبد المالك والتى كانت قد تمت فى أبريل عام ١٥٧٧م وأدرك المنصور خطورة الاسبان ومن ثم عمل على احياء هذه المعاهدة. وقد انتهز المنصور توقيع هذه المعاهدة وارسل إلى اسبانيا فى عام ١٥٨١م يطلب مساعدة عسكرية من الملك فليبي الثانى عندما علم بتحريك الاسطول التركى إلى المغرب فى قوات بحرية كبيرة تزيد عن ستين سفينة حربية ووقعت المعاهدة بين المنصور والاسبان والتى تنص على

حسن الجوار لمدة عشرين عاما مقابل أن يتخلى المنصور عن أهم الثغور المغربية وهو ثغر العرائش مقابل مساعدتهم له عسكريا ولذلك اضطر السلطان التركى مراد الثانى إلى سحب حملته العسكرية على بلاد المغرب أثر التحالف المغربى الاسبانى .

وبعد توحيد البرتغال واسبانيا زاد الخطر الصليبي على المغرب ومن هنا كان على المنصور أن يعمل على حفظ التوازن فى العلاقات بين القوى العالمية المعاصرة على الرغم من أنه كان يعمل ما وسعه العمل على تحرير الموانئ المغربية وارسال حملة مغربية لتحرير الاندلس اما بالاشتراك مع الاتراك العثمانيين أو الاشتراك مع الانجليز البروتستانت المعادين للاسبان ولاسيما بعد معركة الارمادا التى تم فيها تدمير الاسطول الاسبانى كاملا فى ١٠ أغسطس ١٥٥٨م وكانت اسبانيا قد ارسلت اعتذارا رسميا عن طريق سفيرها فى المغرب بعد أن اعلن البلاط الاسبانى على لسان الوفد الذى وصل إلى فاس حاملا التهانى والهدايا القيمة أثر انتصار معركة القصر الكبير بان القوات الاسبانية التى اشتركت فى هذه الحملة لم تكن قوات نظامية، وانما كانوا متطوعين شعبيين من أسبانيا ومن هنا كان هذا اعتذارا كافيا من قبل اسبانيا ولم يتردد فى الصلات التى كانت لعبد المالك مع البلاط الاسبانى .

ولقد أتخذ المنصور موقفا لم يكن ليحسب عليه وهو وقوفه ضد تحرك القوات الظافرة فى معركة القصر الكبير والتى كانت القوات المغربية قد شمرت عن ساعدها فى انتفاضة عسكرية عارمة وانتفاضة عسكرية لم يشهدها الجيش المغربى من قبل وهو العمل مباشرة على اجتياز مضيق جبل طارق للعودة بالمسلمين إلى ديارهم فى الاندلس الذى قسم بين اسبانيا والبرتغال تحت علم حكومة اندلسية تركية، لكن المنصور والذى كان قد خرج لتوه من امتحان صعب بعد وفاة اخيه عبد المالك فى المعركة وتأيد الاتراك لابنه اسماعيل لتولى حكم المغرب كان فى حاجة ماسة إلى وقت كافٍ لكى

يعيد دراسة أوراقه ويعد نفسه للمستقبل عن دراسة للواقع السياسى المعاصر واعداد خطط مستقبلية وإيجاد الفرص المناسبة لتنفيذ هذه الخطط. ولكن الذى دفع المنصور إلى ذلك وعدم مساندة حركة الجيش ربما الخوف من النفوذ التركى، لكن المنصور وقد أدرك أبعاد اللعبة الدولية وظهور القوى الاوربية القوية (انجلترا وفرنسا وهولندا وغيرها من القوى الاخرى) والخطر التركى على استقلال بلاده فقد عمل على انتهاج سياسة متوازنة مع كل القوى والعمل على النهوض بالمغرب وادخاله عصر التطور والتقدم العلمى وانهاء التخلف والعزلة ومحاولة ان يكون للمغرب دور بارز ونشط فى الصراعات الدولية.

ولهذا فقد شهدت العلاقات المغربية الاندلسية بعدا جديدا مغايرا للعهود السابقة فى الربع الاخير من القرن السادس عشر استطاع المنصور أن يضغط على اسبانيا للحصول على مكتسبات مغربية منتهزا فرصة الصراع الانجليزى الاسبانى حول مساندة ولى عرش البرتغال.

وقد استفادت اسبانيا من توقيع اتفاقيا ١٥٨١م استفادة كاملة فى حين أن المغاربة لم يكن لهم الا استخدامها ورقة يلوحون بها ضد العثمانيين الاتراك عندما تتحرك شهوتهم ومطامعهم التوسعية لمحاولة ابتلاع المغرب وكان أن عملت اسبانيا فى ظل توقيع هذه المعاهدة على ضرب القوى الاسلامية الاندلسية بشدة بعدما علمت بأن هناك تعاونا تركيا اندلسيا للقيام بالثورة وتدخل الاتراك للمساندة، كذلك حصلت على ميناء العرائش الهام المطل على المحيط الاطلسى وتخصيصه للاسطول الاسبانى وساعدت فى اطلاق أسرى حرب القصر الكبير وربطت التجارة المغربية (عامل اقتصادى هام) بالتجارة الاسبانية ووضع العراقيل أمام تجار الدول الاوربية ومنعهم من استخدام الموانئ المغربية وخاصة التجار الانجليز اعداء الاسبان.

لكن المنصور ماطل فى تنفيذ هذه الشروط ووضع شروطا اخرى مثل اقتراحه مبادلة ميناء العرائش بميناء الجديدة (لاحظ مبادلة أرض مغربية بأرض مغربية اخرى شرط استسلامى) والتهرب من موضوع غلق الموانئ المغربية أمام تجارة أوروبا وبصفة خاصة الانجليز وقد ظل هذا الموضوع معلقا.

أما من ناحية الاسرى فقد عمل المنصور من جانبه على ترحيل من لا يمكن الاستفادة منه والذين قبلوا الإقامة طوعا لا كرها فى المغرب فانه سمح لهم بالبقاء خوفا من بطش حكوماتهم لهم أو احراقهم وقتلهم عند العودة ففضلوا البقاء مع اعتناق الاسلام والتزاوج من بنات المغرب والانصهار فى المجتمع الاسلامى لاسيما أن الذين أطلق سراحهم قد لقوا مصيرهم المحتوم حيث قوبلوا بالازدراء والسخرية والتهكم ثم كان مصير العدد الاكبر منهم القتل بعد التحقيق معهم فى اسباب الهزيمة ولم ينج من القتل الا النبلاء وأفراد الاسرة المالكة (زاهر رياض). الممالك الاسلامية فى غرب أفريقيا ص (١٧٧).

وهكذا فان هذه الاتصالات المغربية الاندلسية (الاسبانية) سرعان ما تغيرت ولم تعد عنصرا هاما فى وقت ظهرت فيه قوة جديدة وعوامل جديدة اقتضت التراجع عن الموضوع كله وتحول المنصور إلى صف المناوئين للاسبان وتحالف مع البرتغاليين (ولى العهد دون انطونيو) والملكة اليزابيث ملكة انجلترا، وذلك بعد أن سلم الباب العالى باستقلال المغرب وانهاء عصر الاطماع وتخطيم الاسطول الاسبانى ووصول دون انطونيو المطالب بالعرش إلى فاس وازدياد قوة المسلمين بأسبانيا وفشل فيليب الثانى فى القضاء على روح المقاومة الاسلامية فى البلاد وغرق القوات الاسبانية فى احوال هولندا حيث الارض المنخفضة ومتاعبهم ولاسيما بعد ان بدأ فى الافق القريب أن هناك قوى اوربية جديدة تحاول أن تدخل ميدان السياسة الدولية لتحد من قوة اسبانيا وتعمل على كسر

شوكتها وكان ذلك ممثلا في هولندا وقد استغل المنصور قضية المطالب بالعرش البرتغالي أحسن استغلال فقد وجه من اقنعه بالحضور من لندن إلى المغرب واقنع ملكة إنجلترا بالموافقة على حضوره للمغرب ليكون قريبا من مسرح الاحداث والاطلاع على ما يجرى في بلاده .

وقد استغل المنصور حضور المطالب بالعرش البرتغالي إلى المغرب لكي يحقق العديد من أهدافه والتي منها تحرير الموانئ المغربية المحتلة وكذلك الضغط على اسبانيا ليحقق استقلال الموانئ المغربية المحتلة لاسيما ان اسبانيا لم يأت عليها عام ١٥٨٨م الا وكانت قد ادركت ان العاهل السعدي مصمم على القيام بخطوة ضدها ومن ثم اجرت معه اتصالات بهدف التروى في موضوع الامير البرتغالي المطالب بالعرش على الرغم انها كانت تتوجس خيفة من أعمال المنصور السعدي لاسيما وان اسبانيا قد تاكدت فعلا من وصول كميات كبيرة من الاسلحة والمدافع والذخائر من إنجلترا وهولندا إلى المغرب كما أن وسائل المخابرات الاسبانية تاكد لديها ان المغاربة على اتصال بالثورة الاسلامية في اسبانيا وانها ارسلت لهم السلاح والعتاد والمؤن ودفعت بهم للثورة تحقيقا لمطالبهم واضعافا لاسبانيا، بل اكثر من ذلك فان المغرب قام بحركة تعبئة عامة بين صفوف قواته العسكرية في موانئ الشمال المغربية .

وقد استطاع المنصور ان يحقق بعد الانجاز الباهر الذي تشهده الدبلوماسية المغربية الهادئة، وان اسبانيا قد قبلت على الفور تسليم مدية أصيلا المغربية على الساحل المغربي والتي كانت احدى المستعمرات الاسبانية القوية التحصين وذات الموقع الممتاز وسلمت المدينة للقيادة المغربية بعد انسحاب الاسبان منها في ١٣ سبتمبر ١٥٨٩م. وقد عبر القشتالي في كتابه مناهل الصفا الذي نشره الدكتور عبد الكريم كريم المغربي الجنسية أن عام ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م قد شهد استعداد المنصور وكان على أهبة الاستعداد وجعل

قصده وهمه مجاهدة المشركين وتحرير ديارهم بعساكره الامامية وارسال السرايا والجند حتى ينجز الله وعده الكريم في اعلاء كلمة الحق .

لكن الاسبان عند تسليمهم مدينة أصيلا كانوا قد عرضوا على المنصور السعدي الوقوف على الحياد في موضوع الخلاف الانجليزي الاسباني بشأن المطالب بالعرش البرتغالي وعدم تقديم ادنى عون أو مساندة للثورة الاسلامية العارمة (المورسكين) في الاندلس. لكن المنصور كان قد خطا خطوات واسعة في تاييده للمعسكر البروتستانتي الانجليزي ومده بالنحاس وملح البارود لصنع المدافع والاستفادة من الخبرة الانجليزية على حساب الضعيف الاسباني الذي انهارت قوته بعد معركة الارمادا لاسيما وأن الاسبان كانوا يخافون حدوث ادنى اتصال بين المغاربة والمورسكين الذين كانوا على اهبة الاستعداد للثورة وحمل السلاح دفعا للروح الصليبية والعذاب الواقع عليهم لذا عمل فيليب الثاني ملك اسبانيا على ان يكون المنصور على الحياد في الصراع بين القوى الاوربية كما أن ملك اسبانيا كان دائما يلعب على الوتر الحساس بالنسبة للمغرب وهو التدخل التركي في المغرب وهذا ما كان يخشاه المغاربة وكانوا يحسبون له ألف حساب واستغل الاسبان حاجة المغاربة إلى مساعدتهم لاسيما من الموانئ الشمالية .

لكن المنصور وقد كان دارسا لتاريخ الصراع المغربي الاسباني ويحس بما يعاني منه مسلمو الاندلس المضطهدون قام عام ١٥٩٦م، بارسال ثلاث سفن حربية كبيرة لمساعدة الاسطول الانجليزي والهولندي للمساعدة في معركة قادس كما ارسل المنصور سفارة لاميير البرتغال يعلن له فيهما استعداد المغرب لمده بالقوات المسلحة وتايده في المطالبة بالعرش البرتغالي ضد ملك اسبانيا .

لكن الاسبان ازاء تدخل المنصور في مساعدة ولي العهد البرتغالي ومساعدة الانجليز ضدهم فانهم عملوا على التدخل المباشر في شئون المغرب الداخلية واذكاء نار

الثورة ضد المنصور والمساعدة في اشعال حرب داخلية بينه وبين ابنه وولى عهده المأمون ونائب الخليفة على فاس وشمال المغرب مما جعل المنصور ينشغل عن القضايا الاوربية والخارجية بمعالجة مشاكله الداخلية والقضاء على الثورة ولكن المنصور كان دائما يقظا ولم يغفل عن دسائس الاسبان ضده، لكن العلاقات المغربية الاندلسية (الاسبانية) شهدت نوعا من التحسن في آخر عهد المنصور السعدى لاسيما بعد قيام الحلف الثلاثي بين المغرب وايران (فارس) واسبانيا ضد العدو المشترك للثلاثة العثمانيين الاتراك وقد قبل المغرب بالتعاون مع اسبانيا استغلال خبرات السودان الغربى وقد توفى المنصور عام ١٦٠٣ م .

ولقد كان الملك الاسبانى يهدف بانضمامه للحلف المغربى الفارسى هو دفع المغرب وفارس لقتال الاتراك وضرب القوى الاسلامية بعضها ببعض ليخفف عبء القتال والمشاكل عن جبهته وان يحارب الاتراك فى جبهة شرسة ضد فارس وجبهة عربية ضد المغرب وبذلك يخف العبء والزحف التركى العثمانى على الجبهة المسيحية فى اوربا الشرقية، ومن هنا كان الاسبان شانهم شان الانجليز والبرتغاليين يضعون نصب أعينهم مصالح العالم المسيحى مهما تكن درجة تحالفهم مع المسلمين الذين كانوا يتصرفون عكس الرؤية المسيحية فلم نجد ملكا أو اميرا مسيحيا تحالف مع مسلم ضد اهداف المسيحية الكبرى .

وقد شهدت البلاد المغربية أحداثا جساما بعد وفاة احمد المنصور وزادت الاخطار فى التدخل الخارجى والاحتلال الاوربى والتركى وقد استفاد فيليب الثالث ملك اسبانيا من هذه الظروف العصبية فى المغرب لتصفية المورسكين الذين قدر عددهم باكثر من مليون ونصف مسلم واستغل ملك اسبانيا النزاع بين ابناء المنصور حول العرش المغربى وطلب احدى الاطراف مساعدة اسبانيا نظير امتيازات اقتصادية وسياسية

واستراتيجية وتم طرد المورسكين من اسبانيا نهائيا وكان محمد الشيخ بن احمد المنصور وراء هذا الطرد وكشف لفيليب الثالث ملك اسبانيا خططا كان المورسكين قد اعدوها للثورة على الاسبان واعادة الحكم الاسلامى بالتعاون مع الجزائر والاتراك. وقد تم نزول المسلمين فى المغرب الاقصى وتونس وطرابلس والجزائر ويقدر فيليب حتى فى كتابه تاريخ المغرب أن عدد المسلمين الذين طردوا من الاندلس بعد سقوط غرناطة فى النصف الاول من القرن السادس عشر نحو ثلاثة ملايين مسلم وبهذا القرار الذى اتخذه فيليب الثالث ملك اسبانيا بطرد المسلمين من ديارهم فقد حل نهائيا مشكلة التواجد الاسلامى فى اسبانيا بصفة نهائية .

ولقد ظل الاسبان يتحينون الفرص الملائمة لتحقيق اهدافهم فى ابتلاع الموانى المغربية والاستيلاء على ميناء العرائش الهام حتى حانت لهم الفرصة عند التنازع بين فاس ومراكش وتمكن زيدان بن المنصور من طرد اخيه المأمون (محمد الشيخ) من فاس فطلب الاخير مساعدة ملك اسبانيا الذى اشترط عليه تسليم ميناء العرائش بعد ان يقوم باخلائه تماما من جميع سكانه المغاربة المسلمين فى سبيل قيام اسبانيا بنصرته على اخيه زيدان خليفة مراكش وتم تسليم المدينة للاسبان فى شهر رمضان عام ١٠١٩ هـ (لاحظ أن المطامع الشخصية لم تراعى حرمة الاسلام والمسلمين والشهر الكريم فى رمضان ١٠١٩ هـ) وهكذا كانت الخيانة وراء تسليم الارض والعرض والدار والدوار من قبل أحد أمراء الاسرة السعدية الذى كلفته هذه الفعلة البشعة إلى جانب افشاء اسرار الاندلسيين فتم قتله بايدى المجاهدين المسلمين عام ١٠٢٢ هـ هو وقائده حيث قتلوا بمدينة تطوان ولم يكتف فيليب الثالث بالاستيلاء على ميناء العرائش بل ابتلع مدن المعمورة والمهدية لانها أقرب الموانئ إلى العرائش وجهاز ستين سفينة استولى بها على المهدية التى فر منها السكان المغاربة المسلمون دون قتال عام ١٠٢٣ هـ وان دل هذا

المخطط فانما يدل على أن الفرنجة لا يكلون عن انتهاز الفرص للقضاء على الوجود الاسلامي وهذه هي أفعال بعض السلاطين المسلمين والذين تكون الشعوب الاسلامية دائما هي الضحية في كل العصور والدهور الا فيما ندر من الحكام الاوفياء لبلادهم وعقيدتهم الاسلامية وشعوبهم والذين يعملون باخلاص لتحدى القوى الاوربية التي تكن العداء الدائم للاسلام وأهله .

ويقال ان اهل مدينة سلا بقيادة المجاهد المغربي أبى عبد الله العباسي الذي لعب دورا بارزا في تاريخ المغرب نظرا لدوره البطولي في محاربة الاسبان والبرتغاليين من اجل تحرير البلاد المغربية من رجس الاوربيين قد ارسل للسلطان زيدان بن المنصور فورا احتلان الاسبان لمدينة المهدية لمساعدته بل استطاع ورجاله المجاهدون أن يقتل اكثر من اربعمائة شخص من القوة الاسبانية لكنه لم يستطع ان ينجح في دخول مدينة المهدية مرة اخرى ولم تزل اطماع ملك اسبانيا قائمة في السيطرة على مزيد من الاراضى المغربية نظرا لانه كان يحس الضعف والتمزق والاقتتال بين الحكام السعديين وعدم قدرتهم العسكرية على قتال الاسبان نظرا لانصرافهم لقتال بعضهم البعض .

ولكن اذا كان الحكام السعديون في اواخر عصر الاسرة السعدية انصرفوا عن أمر الجهاد والمحافظة على الديار وتركها نهبا للاسبان والانصراف للمصالح الشخصية الا ان بعض امراء الوحدات المستقلة التي ظهرت اثر تفكك الدولة السعدية كان لهم دور كبير في مكافحة اطماع الاسبان وايقاف اخطارهم إلى أن سقطت الدولة السعدية وظهرت الدولة العلوية الفتية على انقاض الدولة السعدية مسلحة بالايمان والعقيدة والنسب القرشي الشريف لتعيد للمغرب وحدته وقوته وعزته وتماسكه من جديد امام اعدائه المتربصين ولتدخل العلاقات المغربية الاسبانية طورا جديدا في العلاقات .

وهكذا نرى كيف أن الاطماع الاسبانية لم تنقطع عن طلب المزيد من الاراضى المغربية والتوسع على حساب القوى الاسلامية حيث أن عقدة التوسع الاسلامي لاتزال

ترسخ في عقول الاوربيين ومن ثم لا زالوا يضمرون العداء التاريخي رافعين راية الحروب الصليبية حتى وقتنا الحالي .

(هـ) ابعاد العلاقة السعدية الفرنسية الهولندية

دخلت فرنسا مجال العلاقات الدولية مع المغرب منذ عهد حكم الاسرة الوطاسية وكانت بداية العلاقة مصالح تجارية نظرا لانها كانت بعيدة عن بؤر الصراع الساخنة في المغرب والبحر المتوسط حيث الصراع المغربي البرتغالي والاسباني ولم تكن لفرنسا في ذلك الوقت مصالح عسكرية أو العمل على اغتصاب املاك الامارة الوطاسية ولكن كانت تريد ان يكون لها دور في نسيج العلاقات الدولية الكبرى بالمغرب وان تستبدل احد الاقطاب الايبيري ويكون لها دور مشارك من منطلق المصالح الاقتصادية والتبادل التجارى ودخول ميدان امداد المغرب بالاسلحة وتوثيق علاقاتها بالدولة العثمانية التركية لكي تكون منفذا لها في بلاد المغرب الاوسط من واقع السيطرة العثمانية على هذه الاقطار وضرورة أن يكون لها دور تلعبه في بلاد الشمال الافريقي حيث أن هذا التواجد الفرنسي في نهاية القرن السادس عشر سوف يكون مقدمة للنشاط الفرنسي فيما بعد لاسيما ان فرنسا كانت تخطط إلى ايجاد دور لها في الاستعمار والاستيلاء على احدى القواعد على الساحل المغربي سواء على البحر المتوسط أو المحيط الاطلسي امتدادا لها إلى بلاد السودان الغربى وممارسة دورها كدولة قوية صاعدة لاسيما انه كان لها دور في حركة الحروب الصليبية (حملة لويس التاسع على تونس في العهد الحفصى) فضلا عن ضرورة التواجد السلمى والاستمرار في هذا التواجد على حساب القوى التي بدأت تصعد مثل البرتغال واسبانيا ولحققت بالحركة الاستعمارية الاوربية .

وهكذا كانت العلاقات الفرنسية المغربية عملا على اطلاق حرية التجارة وكانت

فرنسا قد استغلت علاقاتها مع الاتراك العثمانيين للتدخل في السياسة الجزائرية حيث كانت فرنسا وراء ابعاد حسن بن خير الدين باشا عن ولاية الجزائر ونظرا لانه كان يقف ضد السياسة الفرنسية ومصالحها في البلاد وعينت بدلا منه صالح ريش الذي قاد حملة عودة الاسرة الوطاسية ممثلا في أبي حسون للعودة للحكم بدلا من السعديين .

لكن العهد السعدي وبصفة خاصة منذ حكم أبي عبد الله الغالب بن محمد الشيخ الذي كان يسير في خطه السياسي بالتهاون والمسالمة مع جميع الدول الاوربية فان فرنسا وجدت في هذا الجو الملائم فرصة للحصول على مكاسب اقليمية لها في المغرب حيث ان الغالب ارسل سفارة إلى فرنسا عام ١٥٧٦م وانتهزت فرنسا هذه السفرات وطلبت من الغالب التنازل لهما عن ميناء يكون مرسى للسفن والبضائع الفرنسية وتنازل عن ميناء القصر الصغير نظير امداد المغرب بالسلاح وفي عهد محمد المتوكل بن الغالب ارسل المتوكل سفارة عام ٩٦٨هـ يعرض على فرنسا احتكارها لتجارة السكر شرط دفع ثمنه بالسعر الذي يطلبه المغرب وتصدير النحاس نظير وصول الاسلحة الفرنسية والعتاد الحربي .

كذلك راسل عبد المالك بن محمد الشيخ فرنسا لمساعدته في الوصول إلى العرش لكنه لم يجد استجابة لمطالبه نظرا لانشغال شارل التاسع ملك فرنسا بحروبه مع الاسبان، كذلك راسل عبد المالك الملك الفرنسي هنري الثالث وابلغه بتولية العرش وقد كانت العلاقات حسنة بين المغرب وفرنسا في عهد عبد المالك بن محمد الشيخ .

وفي عهد احمد المنصور كان السفير الفرنسي من الوفود التي وفدت إلى المغرب للتهنئة بانتصار المغرب في القصر الكبير وقد حمل السفير الفرنسي هدية ضخمة وهو يأمل عقد معاهدة صداقة مع المغرب وكانت هديته حجرا من الزمرد في حجم اليد وزمرده في حجم التفاحة وكمية كبيرة من اللؤلؤ وجدها المنصور مرضية ومؤكدة لهذه

الصداقة وقد سعت فرنسا لكي تقوم الحكومة المغربية بجعل الموانئ المغربية مفتوحة امام التجارة الفرنسية وكذلك قيام الجهات المغربية باطلاق الاسرى الفرنسيين الذين كانوا يشاركون ملك البرتغال في حملته على المغرب وهزيمته في معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وكذلك طلب السفير الفرنسي أن تقوم المغرب بتصدير ملح البارود والنحاس والذهب والسكر إلى الاسواق الفرنسية .

وفي عام ١٥٩٦م وصلت إلى المغرب سفارة فرنسية لمقابلة الخليفة المنصور السعدي في مراكش ومحاولة عقد اتفاقية وتعاون عسكري ضد اسبانيا العدو الاول للمغرب والتي كانت تدخل في صراع مع فرنسا في ذلك الوقت .

وبعد وفاة احمد المنصور السعدي فان السياسة الفرنسية لم تتغير قبل التعاون مع الحاكم الشرعي المغربي زيدان بن المنصور حيث عملت على التفاهم مع الشرعية السعدية وعدم الدخول في علاقات او تعاون مع الوحدات المنفصلة المستقلة عكس السياسة الانجليزية التي كانت تتعامل مع الوحدات الصغيرة المستقلة عن مراكش .

ولم يحدث ما يعكر صفو العلاقات المغربية الفرنسية بعد ذلك في عهد السلاطين السعديين المتأخرين الذين استمروا في تنفيذ المعاهدات السابقة مع فرنسا بقدر ما أتيح لهم من سلطان في البلاد المغربية إلى ان سقطت الدولة السعدية وخطت العلاقات المغربية الفرنسية خطوات واسعة في عهد الاسرة العلوية الشريفة .

وكذلك فان هولندا التي كانت قد خرجت لتوها من السيطرة الاسبانية وحصلت على استقلالها فانها عملت على اقامة علاقات مع المغرب وكانت طبيعة هذه العلاقات في بداية الامر شأنها شأن كل العلاقات الاوربية تبدا بداية تجارية ثم تتطور إلى عقد معاهدات سياسية وارسلت هولندا إلى المغرب عام ١٥٩٦م وفدا هولنديا إلى المغرب في عهد المنصور احمد لعقد معاهدة تجارية اقتصادية تفتح بموجبه المغرب

الموانئ المغربية امام التجارة الهولندية وقد لاقى الوفد الهولندى قبولا من السلطان احمد المنصور لاسيما ان الهولنديين كانوا اشد اعداء اسبانيا، كما ان الهولنديين ابدوا استعدادهم القوى والفورى فى امداد المنصور بكل ما يحتاج اليه من اسلحة وذخائر وسفن حربية وكانت هولندا تهدف فى المقام الاول إلى تعميق العلاقات المغربية الهولندية إلى أن تجعل المغرب جميع موانئها مفتوحة امام السفن الهولندية باعتبار انها ستكون نقط ارتكاز تتمركز بها السفن الهولندية لمهاجمة السفن الاسبانية العائدة من الشرق الاقصى إلى اسبانيا لاسيما الموانئ المغربية الجنوبية القريبة من السنغال مثل اركان والجديده .

وقد ازدهرت العلاقات المغربية الهولندية فى عهد المولى زيدان بن المنصور الذى تولى عرش المغرب عقب وفاة والده المنصور وسمح مولاي زيدان للهولنديين بطرد مجاهدى البحر الاسلاميين من موانئ المغرب وخاصة ميناء المهدية واقام الهولنديون حصنا لهم بالساحل وكان الهولنديون يهتمون بتوطيد علاقاتهم مع الحكام الشرعيين ولم تقم ادنى علاقات بين الهولنديين والانفصاليين بالمغرب .

وهكذا كانت العلاقات المغربية والفرنسية والهولندية شأنها شأن العلاقات الاوربية تهدف فيها هذه الدول إلى تحقيق مكاسب اقليمية لها مثل الحصول على موانئ لها لتكون نقط امداد وتموين لسفنها وملاذا لتجارها وتجارتها ومقرا لسفرائها ومخازن للسلع التجارية الفرنسية والهولندية، اضافة إلى ان الاوروبيين الفرنسيين والهولنديين كانوا يرون فى رغبة المغاربة الجارفة للحصول على الاسلحة الحديثة لكى يحققوا لهم مكاسب تجارية ،والسيطرة على بعض الموانئ كالقصر الصغير لفرنسا وفتح الموانئ مثل ميناء سلا أمام السفن الهولندية، لكن تسمح فى المقابل عن قيام شركات مغربية فى أى من هذين البلدين أو حصول المغرب على موانئ فرنسية او هولندية لكى تكون مقرا للتجار

المغاربة أو اماكن لاقامة الفنادق او التوكيلات التجارية .

وفى كل الاحوال كان الجانب الغربى الاوربى هو الطرف القوى والمستفيد فى كل الاحوال سواء السماح له باحتلال الموانئ او اماكن لرسو السفن الحربية والتجارية او احتكار التجارة فى انواع معينة كملح البارود والنحاس والسكر والذهب واستفادت أوروبا فى استنزاف ثروات المغرب تحقيقا لمصالحها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية وفى كل هذه الظروف لم يكن المغرب ليحقق أدنى مصلحة له سوى امداده بالسلاح وبعض المصانع الصغيرة .

وتلك هى نبذة قصيرة ومختصرة عن دور المغاربة السعديين فى العلاقات مع الاتراك العثمانيين والانجليز والبرتغاليين والاسبان والفرنسيين والهولنديين ومدى ابعاد هذه العلاقات وانعكاساتها على الساحة المغربية ومدى تأثير هذه العلاقة على الشعب المغربى وما هى الفوائد المباشرة التى تحققت من كل هذه العلاقات والتى لاشك فى أن المغرب كان الجانب غير الكاسب فى هذه العلاقات على المدى البعيد وكان الجانب الرابع هو الطرف الاوربى فى كل الاحوال .

الفصل التاسع

انهيار الدولة السعدية وسقوطها

ذكر ابن خلدون في المقدمة الفصل الرابع عشر ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص واعمار الدول تختلف ذلك لان الدولة في الغالب لاتعدو اعمار ثلاثة اجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون اربعين عاما هو انتهاء النمو والنشوء إلى غاية وإذا قلنا ان عمر الدولة ثلاثة اجيال لأن الجيل الاول لم يزلوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة ولاتزال سورة العصبية محفوظة فيهم والدولة السعدية في اقليم الجنوب ببلاد السوس قبل ان تنهيا للتوسع شمالا والتوغل في الاراضي المغربية والصراع مع القوى البرتغالية التي كانت تحتل الثغور الجنوبية الواقعة على شاطئ المحيط الاطلسي وظهور حركة الجهاد الاسلامي صورة لما قاله وصول ابناء محمد القائم بأمر الله (احمد الاعرج ومحمد الشيخ) للسيطرة على مراكش وفاس .

والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفة والحضارة وينطبق ذلك على حالتنا هذه وحتى فترة تولى محمد الشيخ وابنة أبي عبد الله الغالب وكذلك عبد المالك بن محمد الشيخ ونهاية المرحلة الثانية تقف عند المجد والحضارة والترف الذي بلغت دولة السعديين في عصر احمد المنصور الذهبي .

والجيل الثالث يبدأ من النزاع بين أبناء احمد المنصور والنزاع بين ابناء زيدان بن المنصور حتى نهاية الدولة وهم الذين فقدوا حلاوة العز والعصبية وبلغ فيهم الفساد والترف غاية وصاروا عيالا على الدولة والتي تشهد صاحب الدولة يستعين بغير اهله وقومة ويستكثر بالمولى ويصطنع من خارج دولة من رجال فنذهب الدولة ويكون هرم الدولة وتخلفها فيكون الهرم حاصلًا مسئوليا .

وكانت الدولة السعدية التي تبوأ مكانة عالية في عهودها السابقة حتى نهاية حكم أحمد المنصور قد دخلت مرحلة انكسار والشيخوخة بدأ من زيدان بن المنصور وبدأت ارهاصات المنذرة بسقوطها من واقع خيوط حركة التاريخ لاسيما أن كل الشواهد والادلة كانت توحى بالشواهد أن النزاع بين ابناء احمد المنصور من اجل العرش انما كانت هي حلقات تمر بمرحلة كهولتها استعداداً لسقوط الدولة السعدية البالية وعودة الحياة المغربية إلى تجديد نشاتها وهذه المرة تكون في اسرة شريفة علوية لكي تحمل راية الجهاد ومسئولية الحكم ولازالت تمارس حتى وقتنا الحاضر ممثلا في جلالة الملك الحسن الثاني الذي يحكم المغرب منذ عام ١٩٦١ حتى ١٩٩٢ م تاريخ كتابة هذا البحث .

وكان المغرب السعدي قد تمتع بنوع من الاستقرار والقوة والنفوذ والسيادة والمهابة في عهد الخلفاء الأوائل من الاشراف السعديين الذين أولوا المغرب والقوى جل اهتمامهم ورفع شأنه بين الامم القوية الخارجية لكن بعد وفاة المنصور الذهبي خضعت جميع المدن والولايات للانفصال والثوار وذلك فيما عدا العاصمة مراكش وبعض احوازها بسبب الصراع بين افراد الاسرة السعدية وعانى المغرب من التفرقة والانقسام في عهد الخلفاء المتأخرين الذين كان ضعفهم امام اعداء المغرب الخارجي والداخلي قد جعل الاهالي لا يثقون في القيادة الحاكمة ومن هنا بدأ الشعب يتطلع إلى قيادة جديدة بعد تهالك القيادة السعدية الضعيفة حيث كانت شوكة هذه القيادة في محاربة الخارجيين عن الدولة والامراء الانتصاليين بل أن بعض الأمراء السعديين قد هزموا على ايدي الثوار وقد أدى ذلك إلى استسلام خلفاء مراكش للمواقع السياسي الجديد .

وكما سبق القول والصراع بين افراد البيت السعدي كان من الأسباب القوية

التي عجلت بنهاية الأسرة سريعا وانهارها بل انه كان العامل الاول من اسباب قيام الثورات والحركات الانفصالية والامارات المستقلة عن الحكومة المركزية في المغرب الأقصى وانشغال الامراء السعديين بالصراع فيما بينهم عن احوال الرعية والعدو الخارجي وعن تفكك الدولة وظهور الامارات الانفصالية وقيام بعض الزعماء وكبار رجال القبائل والاقاليم والمدن الكبرى باعلان الاستقلال عن الدولة الام في مراكش بل الادهي من ذلك أن هذه الولايات والامارات دخلت في نزاع عسكري فيما بينها من اجل الحدود والتوسع كل امارة على حساب الاخرى ولم تكن هذه الامارات في وئام فيما بينها وبين القيادة الاسرة العلوية الشريفة التي قدر لها أن تكون امارة مستقلة في أواخر عهد السعديين البالي والمتهالك .

وفي الواقع التاريخي أن بعض هذه الامارات قد ادت بعض الخدمات إلى المغرب الأقصى في محاربة المحتلين الفرنجة سواء اكانوا من البرتغاليين او الاسبان ودخلوا في صراع عسكري معهم وحققوا بعض الانتصارات ولستطاعوا طردهم من بعض المدن كما فعل المجاهد ابو عبد الله العياش في سلا .

وقد كانت حالة الفوضى من اسباب قيام هذه الحركات الانفصالية التي انتشرت في البلاد وكانت مراكش عبارة عن امارة من الامارات شأنها شأن الامارات الاخرى الا انها كانت الواجهة الشرعية الرسمية للدولة والتي تتعاون معها الدول الخارجية ولقد كان العامل الديني من الاسباب القوية لقيادة هذه الزعامات السياسية وخاصة الأسرة العلوية الشريفة .

ولقد شهد المغرب الأقصى ظهور العديد من الامارات المستقلة التي مارست سياستها في داخل الاقليم الذي تسيطر عليه كانهما دولة ذات سيادة وذات حدود سياسية معترف بها بل أنها كانت تحاول التوسع على حساب الامارات المستقلة الاخرى

ومن هذه الامارات امارة النفيس بتطوان، وكذلك امارة الشيخ أبي عبد الله محمد العياشي في سلا ثم فاس وتادلا ، وكذلك امارة أبي حسون السحلالي في السوس .
ورمارة ابن ابي مجلى في سجلماسة وغيرها من الامارات الصغيرة الاخرى والذي يلقي نظرة على هذه الامارات المستقلة التي زاد عددها في عهد الاسرة السعدية لاسيما منذ عهد زيدان بن المنصور حتى سقوط الدولة يدرك للوهلة الاولى ان المغرب قد اصبح حالة كما كان حال الاندلس في السابق مقسما إلى ملوك وطوائف كل منهم يحكم ويستقل بطائفة من القوم وقطعة من الأرض يقيم بها سطانا يمارس في داخله نفوذه وسيادته بل يمارس علاقات خارجية مع الدول الكبرى ويدخل الميدان الدولي ويقيم علاقات كما نعلت انجلترا في اقامة علاقات تجارية وسياسية وعسكرية مع بعض من هذه الامارات المستقلة ، بل هولندا دخلت في صراع عسكري مع امارة سلا من أجل طرد المجاهدين الاسلاميين البحريين .

وكان ان توفي محمد الشيخ الاصغر بن زيدان بن احمد المنصور عام ١٠٥٤هـ وتولى الخلافة في مراكش وبعض المناطق القريبة منها ابنة ابو العباس احمد وكانت الدولة في عهده قد وصلت إلى حالة من التردى والضعف والانهيار حيث انة كان لايزال طفلا صغيرا وفي ذلك الوقت كان اخوالة من عرب الشبانات والذين احاطوا به بعد ان قويت شوكتهم وزاد سلطانهم وحاصروا مراكش العاصمة عدة شهور واستبدوا بمقاييد الامور وكانت والدته أبي العباس احمد تمد الطريق لاسرتها لان تستولي على الحكم بعد ان كانوا هم اصحاب الكلمة العليا في مراكش ، ومن ثم انتهى الامر بان قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدى اخر سلاطين السعديين عام ١٠٦٩هـ وازالوا نهائيا معالم الاسرة السعدية بمقتل أبي العباس واستيلاء عرب الشبانات على مقاييد الامور في البلاد وبايعوا ابراهيم عبد الكريم زعيم قبيلة الشبانات وعقيل عقب

قتل السلطان السعدى الصغير وسقطت الدولة السعدية نهائيا .

ويسقوط دولة الإشراف السعديين من مسرح الاحداث السياسية بالمغرب الأقصى تكون قد طويت صفحة من صفحات التاريخ الاسلامى والاسرى كما طويت قبلها صفحات لاسرات المرابطين والوحدين وبنى مرين وغيرهم من الاسر الحاكمة ان مارست كل منها دورا فى حياة المغرب وفى حقيقة الامر ان كل اسرة حاكمة لا بد تكون فيها فترة خالدة باهرة ساطعة بالاعمال وقد كانت معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨م مفخرة الاسرة السعدية بل مفخرة المغرب ابد الدهر . وقد عاشت الاسرة السعدية مايزيد عن قرن ونصف من الزمان . لكن الاسرة العربية من الشبانات لم يكن ليقدر لها ان تمارس دورها على مسرح الاحداث سوى سنوات حيث أنها لم تكن مؤهلة لان تقود مسيرة المغرب لانها كانت حبيسة مراكش ولم تكن من القوة القيادية بحيث تنصدر العمل السياسى فى هذه المرحلة الحاسمة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية المغربية والصراعات العالمية على أرض المغرب .

ولكن الله حارس تلك الديار وحامى أرضه المسلمة قيض لها قيادة مجاهدة شريفة علوية سلالة قرشية من الدوحة الزكية لكى تسقط حكم الشبانات من مراكش عام ١٥٧٥هـ لتبدا أسرة الاشراف العلويين فى حكم البلاد (١٥٧٥-١٤١٢هـ- ١٦٦٤-١٩٩٢م) ولا زالت تحكم البلاد حتى الآن .

الاسرة السعدية

- ١- محمد القائم بامر الله ابو عبد الله
٩١٥-٩١٨هـ - ١٥١٥-١٥١٨م .
- ٢- احمد ابو العباس بن محمد القائم بامر الله - الاعرج .
٩١٨-٩٥١هـ - ١٥١٨-١٥٤٤م .
- ٣- ابو عبد الله محمد الشيخ - المهدي - بن محمد القائم بامر الله .
٩٥١-٩٦٥هـ - ١٥٤٤-١٥٥٧م .
- ٤- عبد الله بن محمد الشيخ ابو محمد (الغالب بالله) .
٩٦٥-٩٨١هـ - ١٥٥٧-١٥٧٤م .
- ٥- محمد المتوكل على الله الغالب .
٩٨١-٩٨٣هـ - ١٥٧٤-١٥٧٦م .
- ٦- عبد المالك بن محمد الشيخ - صاحب معركة القصر الكبير .
٩٨٣-٩٨٦هـ - ١٥٧٦-١٥٧٨م .
- ٧- احمد المنصور بالله السعدى - الذهبى - ابو العباس .
٩٨٦-١٠١٢هـ - ١٥٧٨-١٦٠٣م .
- ٨- زيدان بن احمد المنصور - المامون بن احمد المنصور - ابو فارس بن احمد المنصور .
١٠١٢-١٠٣٧هـ - ١٦٠٣-١٦٢٧م .

٩- الوليد بن زيدان.

١٠٤٠ - ١٠٤٥ هـ - ١٦٣٦ م .

١٠- محمد بن الشيخ بن زيدان (أبو العباس).

١٠٤٥ - ١٠٦٣ هـ - ١٦٣٦ - ١٦٥٢ م .

١١- احمد بن محمد الشيخ بن زيدان (أبو العباس) .

١٠٦٣ - ١٠٦٩ هـ - ١٦٥٢ - ١٦٥٨ م .

الباب الثالث

الأشراف العلويون حكام المغرب حتى الآن

(١٠٧٥ - ١٤١٢ هـ - ١٦٦٤ - ١٩٩٢ م)

(محمد بن محمد بن الشريف بن علي - الحسن الثاني

بن محمد الخامس بن يوسف بن الحسن)

ظهرت الاسرة العلوية الكريمة ذات الحسب النبوي الشريف، نسل سلالة الأسرة الهاشمية فرع الشجرة الذكية النبوية والأسرة العلوية العلية الشريفة بعد عام ١٦٦٠ باربعة اعوام بعد القضاء على حكم الاسرة السعدية التي كانت قد أسلمت قيادة المغرب إلى الاسرة الشبانائية التي لم تدم في سلطة مراكش سوى ست سنوات، لكن الاسرة العلوية فيض الله لها حكم المغرب وهي لا تزال تقوم على العرش العلوي الشريف، وقد بدأ العلويون (او الفلالليون) وهم سلاطين اشراف في الوقت نفسه على انهم اصحاب حركة اصلاحية دينية لا تقل عن اية حركة اصلاحية ظهرت في العالم الاسلامي بل انها تزيد عنها بنسبها النبوي الشريف ولعل التفاعل بين الدين ونسب الساسرة وتاريخها الجهادي الاسلامي قد اوجد لها تربة صالحة وصلابة قوية فلما توجد في أى بلد اسلامي آخر فيما عدا المغرب .

وينتسب الاشراف العلويون إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وارضاهم، فهم سلالة شريفة قرشية نبوية وفي ذلك يقول دائما جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب الحالي عند رواية الاحاديث النبوية مبدأ قوله: قال جدى رسول الله ﷺ كذا فالنسب شريف وايضا فهم بنو عم الاشراف السعديين حكام الاسرة السابقة ويلتقو معهم من حيث تسلسل الاسم القرشي في اسم محمد بن القاسم وهم ايضا بنو

عم الادارة (١٧٢ - ٤٧هـ - ٧٨٨ - ٩٥٨م) (انظر الجزء الثاني من هذه الموسوعة: المغرب بين الاغاليه والادارة وبنى رستم) ويلتقى العلويين مع الادارة فى اسم عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على ابن أبى طالب .

وأول من دخل بلاد المغرب من الاسرة العلوية الحاكمة هو جدهم الاكبر الذى يمكن ان تطلق عليه الحسن الداخل المغربى وذلك عام ٦٧٤هـ وهو الحسن بن القاسم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن عبد الله بن أبى محمد بن عرفه والذى يمتد نسبه إلى محمد النفس الذكية (انظر ملحق هذا الفصل بالنسب القرشى بدأ من على بن أبى طالب ونهاية إلى الحسن الثانى ملك المغرب الحالى مسلسلا فى شجرة طيبة .

والشعب المغربى الطيب المحب لرسول الله ﷺ كان يرى فى وجود الاشراف الذين هم نتاج الشجرة الطيبة المباركة التى يتفرع منها النسل الطاهر لرسول الله ﷺ صاحب الدعوة الخالدة الباقية ابدا الدهر إلى أن يرث الله الارض ومن عليها والهادى للبشرية ان وجود أفراد من هذه الاسرة بركة وفخرا للقبيلة والاقليم الذى يقيم فيه هذا الشريف ولاسيما وان مشاعر المغاربة تلتف حول هؤلاء الاشراف ويحيطونهم بنوع من التكريم والتقدير والحب والطاعة ومن هنا استطاع الاشراف العلويون السجلماسيون او الفلالليون تكوين دولتهم على انقاض دولة السعديين .

وكما سبق القول كان جدهم الاكبر الحسن بن القاسم جد العلويين هو أول من نزل بلاد المغرب ثم اتجه جنوبا إلى سجلماسة بعد قدومه من بلاد الحجاز متمسكا بالنسب الشريف العلوى عاملا بالشرافة الحجازية القرشية فى محيطها العربى المغربى وقد كان وجوده فى الاقاليم الجنوبية يشكل بناء اسرى واجتمعى ودينى وسياسى متميز عن بقية الاقاليم المغربية الاخرى حيث البعد الدينى عاملا قويا لظهور الحركة

الاصلاحية العلوية مرتدية عباءة الشرافة القرشية باسم احياء الدولة الاسلامية المغربية الكبرى .

ونذكر بعض المصادر ان بعضا من اهل الورع والتقوى والصلاح قد قاموا بأداء فريضة الحج وكانوا جميعا من مدينة سجلماسه المغربية قد توقفوا وهم فى طريقهم إلى المدينة المنورة لزيارة رسول الله ﷺ فى قرية بنى ابراهيم وهى قرية من ميناء ينبع الواقع على البحر الاحمر وتصادفوا ان تقابلوا مع شريف من الاشراف الحسنين فخاطبوه فى أمر الرحيل معهم واصطحبهم فى قافلتهم حتى المدينة المنورة ثم العودة معهم إلى بلادهم المغربية المحبة للنسل النبوى الشريف وحببوا اليه الانتقال معهم إلى بلادهم ولقب هذا الشريف بالداخل (الحسن) وانتشرت اسرة الحسن الداخل فى سجلماسه ومن هنا فان الاشراف العلويين اشراف سجلماسه السعديين اشراف درعه ابناء عمومة. ومن هنا فان الاسرة العلوية المغربية تناسلت وانتشر نسلها وابناءها واخفادها فى هذه المنطقة الجنوبية باقليم سجلماسه من المغرب الاقصى زمنا طويلا .

ولما كان الضعف والتفكك والانقسام والفوضى قد بدأت تضرب باطنابها فى الدولة السعدية فان اهالى الاقاليم الجنوبية فى سجلماسه بايعوا المولى محمد الشريف بن على بن محمد بن على بن يوسف بن على ابن الحسن بن محمد بن الحسن الداخل اماما وقائدا على الاقليم توطئة لكى يتولى حكم الدولة المغربية المنقسمة على نفسها ولكن هذه المبايعة لم تجد اجماعا تاما وتلك طبيعة النفس البشرية حيث اننا نجد بعض الاجزاء لم ترضى هذه المبايعة واخذوا يكيدون له ويقفون كاشوكة الضعيفة امام الزحف الشريف الكاسح وهم اهل حصن (تيو عاصت) لكن الشريف القرشى الذى كان يكره القتال والدماء والفتن لاسيما بين ابناء الاقليم الواحد والدين الواحد عرض فى تلك الحالة وقد رأى بعض الانقسام على أبى حسون السحلالى بالسوس ودرعه أن

يتنازل عن سجلماسه وكان أبو حسون يتخذ من مدينة بليغ عاصمة لامارطة ثم حولها إلى مدينة تارودانت واخذ نجم أبي حسون يلمع في سماء المغرب واستولى على درعه لذا وجد المولى محمد بن الشريف العلوى الذى كان قد يبيع بالامارة فى سجلماسه أن يدعو السحلالى للدخول إلى سجلماسه وصارت سجلماسه من أملاك أبي حسون صاحب السوس، ثم حدث خلاف بين أبي حسون وبين الشريف محمد بن محمد نظرا لسوء العلاقات والخلافات دفعت محمد بن محمد الشريف إلى اعلان الثورة على صاحب السوس لسوء معاملته لوالده الذى كان أبو حسون قد قبض عليه وسجنه فى قلعة ببلاد السوس، لكن ابنه محمد استولى على سجلماسه وطرده عامل أبي حسون منها واستطاع ان يفك اسر والده ثم قاتل السملالين وطردهم من درعة وصارت تلك الأقاليم كلها تحت طاعة الشريف العلوى كما خضعت له العديد من الحصون والقرى والبلاد والقلاع المجاورة وبايع اهل سجلماسه محمد بن محمد الشريف بالامارة عام ١٠٥٠هـ ووافق أبوه على ذلك .

وقد وضع الأمير العلوى الجديد نصب عينه وأهدافه المستقبلية ضرورة الاستيلاء على المغرب كله وانتهاء عهد الفرقة والانقسام ولا بد من العمل بعون الله على توحيد كل هذه الديار تحت الراية العلوية دفاعا عن التراب المقدس وتحرير كل الجيوب الباقية سواء كانت فى قبضة الانجليز أو الفرنسيين أو الاسبان أو غيرهم من الأوربيين وتكوين دولة علوية كبرى وتقدم بجيوشه وقواته لكى يحتل مراكش وفاس وما يقع بينهما من مدن وأقاليم وقلاع وحصون وقبائل ولكن واجهته عدة عقبات حالت دون تنفيذ هذه الخطوة الجريئة المندفعة بقوة الأيمان، وكيف لا وانه كان يقع عليه ان يقاتل حكام الإمارات الصغيرة المنقسمة على نفسها والتي قسمت المغرب إلى عدة أقاليم وولايات .

وكان بداية صراعه مع الامير محمد اولاتى حاكم تدلا وفاس . وكانت مواقعه تقع بزاوية الدلاء بمنطقة مراكش الوسطى وكانت الزاوية مركز للطريقة الدلائية وكان محمد الحاج الدلائى قد استولى على فاس عام ١٠٥١هـ ودخل أهلها فى طاعته وأصبح الامير الدلائى من اقوى أمراء المغرب بعد مقتل أبي عبد الله العياشى صاحب مدينة سلا، لكن فى عام ١٠٦٠هـ استنجد اهل فاس بالمولى محمد بن الشريف العلوى لينقذهم من حكم الدلائى فقبل الشريف العلوى دعوتهم وافتتح فاس لكنه اضطر إلى العودة إلى سجلماسه وحدثت معاهدة صلح بين الطرفين وقد حاول محمد الشريف الاستيلاء على فاس لكنه فشل اكثر من مرة ومن ثم بدأ يعيد تفكيره فى ضرورة ايجاد ارض صالحة لدعوته لكى يكون دولته المغربية الكبرى فرأى بتاقب نظره أن العقبات التى تحول بين تحقيق احلامه بالمغرب الأقصى كثيرة فكان عليه ان يولى وجهه شطر المغرب الاوسط لعله يحقق آماله واحلامه ويستطيع ان يصل إلى هدفه السامى وتحرك إلى الجزائر تحيط به جموع كثيرة من القبائل التى بايعته وانطوت تحت لواء دعوته وحاول ان يطرد الاتراك من هناك وان يكون دولته الشريفة هناك ثم يزحف بعد ذلك إلى المغرب الاقصى لتكون الدولة القرشية العلوية الشريفة شأنها شأن الدول الكبرى كالمرابطين والموحدين حيث ان زحفه من المغرب الاوسط سوف يسهل له القضاء على الإمارات المستقلة والولايات الصغيرة بالمغرب الاقصى ويضم هذه الإمارات إلى دولته المرتقبة .

واتجه الشريف العلوى إلى استخدام نفوذه فى الصحراء الشرقية لربط الصلة شرقا مع سجلماسه فاتجه إلى مكان يسمى بسط (انكادا) حيث بايعته القبائل والاحلاف وبعض سكان هذه المدن والقلاع وبذلك استطاع ان يكون جيشا كبيرا استطاع به ان يتزعم حركة تحرير اقليم الجزائر من الأتراك، لكن الشريف مولاي محمد اضطر إلى

العودة مرة أخرى إلى سجلماسة أزاء رد فعل الأتراك العثمانيين الذين احسوا بالخطر من ناحية الشريف العلوى فتحركوا إلى تلمسان لتطويق قوات الأمير العلوى وقد أحس الشريف العلوى بخطورة الموقف لاسيما وان مولاي محمد الشريف قد خشى التصادم مع الأتراك لاسيما وأنه لم ينفذ أدنى هدف من خططه البعيدة الرامية إلى انشاء دولة مغربية كبرى فعاد إلى مواقعه الأولى في سجلماسة لجمع قواته ودعم كيانه وذلك بعد أن حقق الهدف الأول من أهدافه وهو جمع وحدة القبائل المغربية حوله ضد الدخلاء الأجانب إلى جانب انضمامهم لصفه في مواجهة الأتراك ومن هنا احسست هذه القبائل أن السلطة لا محالة منتهية إلى الأسرة العلوية وأن المغرب سيصبح من القوة ووحدة الهدف ما يمكنه من طرد العناصر المتغطرة وغير المرغوب فيها من الأجانب .

وبدا الأتراك في الجزائر لأول مرة يشعرون بالخطر من الشريف العلوى وأن سلطانهم بات مهددا في المغرب الأوسط من جراء القوة العلوية الصاعدة، لذا فقد وجه إليه عثمان باشا والي الجزائر وفدا إلى سجلماسة لمناشدة الشريف العلوى بحق الروابط والاخوة الإسلامية وصلة القربى والنسب القرشى الشريف والانتساب إلى رسول الله ﷺ أن يكف عن مهاجمتهم وأن يمنع القبائل المغربية من الهجوم على الأتراك المسلمين فتأثر الشريف العلوى بما قاله له الوفد التركى وتعهد بعدم تجاوزه الحدود التركية في المغرب الاوسط. هذا عن الموقف التركى الذى كان مهددا من القوة العلوية الصاعدة .

أما الجانب السعدى الحاكم في مراكش فقد ادرك بعد الخطر القادم إليه والواقع لا محالة ولكن مركزه الضعيف لم يكن يسمح له بان يتحرك ويقف في وجه الشريف العلوى أو محاولة التحرش به والصدام معه. ذلك لان الخليفة السعدى محمد الشيخ بن زيدان بن أحمد المنصور أحس بخطر الحركة العلوية في سجلماسة لكنه لم يجد القوة الكافية لمحاربة العلويين فأثر ان يصرف النظر عن ذلك وعمل على مراسلتهم وقد رد

عليه المولى محمد الشريف العلوى مراسلاته .

ولما أحس محمد الشريف بأن وضعه العسكرى والسياسى أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يبدأ فى تنفيذ ما كان يفكر فيه فانه لم يترك فرصة إلا وانتهازها للتوسع وكانت له طريقة مبتكرة فى محاربة المناوئين له من حكام الأقاليم اذ انه كان يفرض ضريبة ضد الأمراء والمجاورين ثم يجاريهم ولم يلبث ان يعود إلى موقعه الأصيلى سجلماسة بعد أن يكون قد أثار الفزع فى اعدائه وهكذا كان اسلوبه فى محاربة الأمراء الولاة ومع السملالين ونظرا لما ابداه من شجاعة وحزم وقوة والتفاف القبائل حوله فان وفاة والده محمد الشريف كانت فرصة له لكى يجدد القوم والجيش والقبائل البيعة من جديد له عام ١٠٦٩هـ. لكن أخاه الرشيد الذى كان ذا مطامع سياسية كبرى لم ترضيه مبايعة القوم له فخرج الرشيد يعلوى ارجاء المغرب ساعيا لكسب تأييد القبائل له وجمع قوات حربية عديدة يستطيع ان يقف فى وجه اخيه محمد بن محمد الشريف العلوى أخاه الأكبر وأن يصل إلى الخلافة ونجح الرشيد فى أن يكون جيشا كبيرا محاولا محاربة أخاه فتصدى له المولى محمد ووقعت بين الأخوين معركة بمنطقة سهول انكادا وكان من حظ الرشيد أن أول رصاصة انطلقت قتلت أخاه محمد عام ١٠٧٥هـ ١٦٦٤م. وانفرد الرشيد بن محمد الشريف العلوى بالحكم وظل يحكم البلاد طوال ثمانية عشر عاما (١٠٧٥ - ١٠٨٢هـ ١٦٦٤ - ١٦٨٣م) ومن ثم وضع همه الأول إلى تكوين الدولة العلوية الكبرى وفى عدم تشتيت قواته العسكرية فى قتال جزئى مع الأمراء المحليين لا يعود عليه بما يخطط له ومن ثم عزز جيشه بالعناصر الفلالية التى كانت منذ اللحظة الاولى القوة المساندة للأسرة العلوية وعمل على القضاء على القوة الصغيرة التى كانت فى يد ابن اخيه المولى محمد بن محمد الشريف، ثم عاد إلى كازا التى اتخذها عاصمة ملكة الجديدة. وقد تهيأت الظروف

لهذا العلوي المخنك المثابر ان يؤسس دولة قوية بالمغرب على أنقاض السعديين بعد أن نجح في القضاء على جميع الإمارات المستقلة التي كانت تمزق المغرب إلى وحدات صغيرة ومن ثم أنقض على أماره الشبانات في مراكش والذين كانوا قد استولوا عليها من السعديين عام ١٠٦٩هـ .

وهكذا كان دخول الرشيد بن الشريف على إلى مراكش عاصمة الأسرة السعدية وقضائه على حكم الشبانات بداية ظهور الأسرة العلوية الشريفة التي حكمت البلاد منذ عام ١٠٧٥هـ حتى عصرنا الحاضر ١٤١٢هـ وبذلك تكون المغرب قد دخلت طوراً جديداً من اطوار الحكم وبدأت مرحلة ظهر فيها الخليفة المظفر بالله اسماعيل شقيق الرشيد بن الشريف بن علي ليكون أقوى سلاطين المغرب ويعيد للذاكرة ذكرى يوسف بن تاشين وعبد المؤمن بن علي وعبد المالك بن محمد الشيخ السعدي وغيره الكثيرين من رجالات المغرب الذين لعبوا ادواراً خالدة خلدت اسماءهم في سجل ابطال التاريخ الاسلامي الذين ضربوا بسهم وافر في تحقيق الانتصارات لشعوبهم .

وفي ذلك يقول ليفي بروفشال وهو من اساتذة السوربون والذي كتب عام ١٩٥٣م يقول أن المغرب كان طوال خمسة قرون خلت الدولة الإسلامية الوحيدة التي دعمت نفسها على أنها أمة وأن المغرب كان امبراطورية مستقلة ذات تاريخ طويل شديد الغيرة على استقلاله وعلى اتم استعداد لمقاومة أى شكل محاولة المساس بأرضه ووحدته وهكذا قام الجد المظفر مولاي اسماعيل بالعمل على توطيد أركان الدولة داخليا وخارجيا وتمكن من اقتلاع كل ما كان يقف في بناء الامبراطورية العلوية الشريفة، ذلك لأن المغرب له ثمة تقاليد مورثة راسه الجذور تجعل منه قوة فعالة وذلك بعد أن قرن تاريخ المغرب في القرن السابع عشر الميلادي بظهور الأسرة العلوية المنحدرة من سبط الرسول ﷺ لكي تكون الاسرة الحاكمة العاملة على عودة المغرب لعظمته العقيدة

وهي الأسرة التي حافظت على استقلال المغرب فبينما خضعت كل اجزاء المغرب العربي والعالم العربي بأسره للقوة الاستعمارية التركية والأوربية وهكذا تمكنت الاسرة العلوية من اعادة المغرب إلى مكنته السابقة .

ويقول روم لاندو في كتابه المغرب لقد كان السلطان هو رأس الأمة بل أنه كان الأمة بل أنه كان الأمام الذي يكن الشعب له كل الاحترام وقد أطلق الشعب على السلاطين لقب أمير المؤمنين وهو لقب يطلق منذ عصر المرابطين ويوصف السلطان بانه الأمام الأعظم فقد كان من حقه أن يؤم الأمة بكاملها في الصلاة على أن الذي يميزه عن غيره أن سيادته لا تطل لكونه شريفا قرشيا وبذلك يكون قد ورث البركة عن اسلافه ولقد ضربت هذه المشاعر الدينية جذورها في المغرب وترك تأثيرها الواضح والجلي في اعماق النفس المغربية ومن هنا سادت الأسرة العلوية على سلطان المغرب بدفها إلى ذلك النسب القرشي النبوي الشريف والجهاد الاسلامي ضد القوى التي تحاول ان تنال من سيادة المغرب وحب الشعب المغربي لآل الرسول والتفافهم حول سلطانهم وأمير المؤمنين سليل الشرف القرشي الحسيب النسيب وهكذا كانت المغرب علوية حتى عصرنا الحاضر .

ونكتفى بهذا القدر من الدراسة في تاريخ المغرب حتى لا ندخل في المحظور وتتجاوز مرحلة العصر الوسطي - العصور الإسلامية - وندخل المرحلة التاريخ الحديث ونتوقف عند القرن السابع عشر ولا ندخل قرناً جديداً يدفع بنا إلى دراسة واسعة ومستفيضة عن الأسرة العلوية الشريفة وهذا لا يدخل في نطاق البحث الذي قسمناه إلى ستة اجزاء كل جزء يعالج أسرة حاكمة معينة ولم يكن في خطتنا الدراسية الدخول إلى الأسرة العلوية ولكن لما كانت الأسرة العلوية هي التي اسقطت الاسرة السعدية واقامت كيان المغرب العربي الموحد فلا بد من الإشارة إلى هذه الأسرة على

عجالة وفي هذه الصفحات القلائل وأن كان ذلك لا يمنعنا أن نضيف قائمة باسماء سلاطين الأسرة العلوية الشريفة بدا من الأمام على بن أبي طالب رضى الله عنه وصولا إلى الملك الحسن الثانى ملك المغرب الحالى وبذلك نكون قد ختمنا تلك الدراسة بخاتمة تجلت فى النسب النبوى الشريف سليل الحسن بن على بن أبى طالب سبط رسول الله ﷺ .

الحسب النسبى لجلالة الملك الحسن الثانى
نسل السلالة القرشية الهاشمية فرع الشجرة
الذكية والدوحة النبوية العلوية

- ١ - الأمام على بن أبى طالب بن عبد المطلب .
- ٢ - الحسن بن على بن أبى طالب .
- ٣ - الحسن (المثنى) ابن الحسن بن على .
- ٤ - عبد الله (الكامل) ابن الحسن (المثنى) ابن الحسن .
- ٥ - محمد (النفى الذكية) ابن عبد الله (الكامل) ابن الحسن (المثنى) .
- ٦ - القاسم بن محمد (النفى الذكية) بن عبد الله (الكامل) .
- ٧ - اسماعيل بن القاسم بن محمد (النفى الذكية) .
- ٨ - أحمد بن اسماعيل بن القاسم .
- ٩ - الحسن بن أحمد بن اسماعيل .
- ١٠ - على بن الحسن بن أحمد .
- ١١ - أبو بكر بن على بن الحسن .
- ١٢ - الحسن بن أبى بكر بن على .
- ١٣ - عرفه بن الحسن بن أبى بكر .
- ١٤ - أبو محمد بن عرفه بن الحسن .

- ١٥ - عبد الله بن أبي محمد بن عرفه .
- ١٦ - الحسن بن عبد الله بن أبي محمد .
- ١٧ - القاسم بن الحسن بن عبد الله .
- ١٨ - محمد بن القاسم بن الحسن .
- ١٩ - محمد بن محمد بن القاسم .
- ٢٠ - القاسم بن محمد بن محمد .
- ٢١ - الحسن بن القاسم بن محمد (أول من دخل المغرب عام ٦٧٤هـ) .
- ٢٢ - محمد بن الحسن بن القاسم .
- ٢٣ - الحسن بن محمد بن الحسن .
- ٢٤ - علي بن الحسن بن محمد .
- ٢٥ - يوسف بن علي بن الحسن .
- ٢٦ - علي بن يوسف بن علي .
- ٢٧ - محمد بن علي بن يوسف .
- ٢٨ - علي بن محمد بن علي .
- ٢٩ - محمد بن علي بن محمد الشريف (مؤسس الأسرة العلوية الحاكمة وأول من تولى الحكم ١٠٥٧هـ / ١٦٤٦م) .
- ٣٠ - محمد بن محمد بن الشريف بن علي .
- ٣١ - علي بن محمد بن محمد الشريف .

- ٣٢ - اسماعيل بن علي بن محمد .
- ٣٣ - عبد الله بن اسماعيل بن علي .
- ٣٤ - محمد بن عبد الله بن اسماعيل .
- ٣٥ - هشام بن محمد بن عبد الله .
- ٣٦ - عبد الرحمن بن هشام بن محمد .
- ٣٧ - محمد بن عبد الرحمن بن هشام .
- ٣٨ - الحسن بن محمد بن عبد الرحمن .
- ٣٩ - يوسف بن الحسن بن محمد .
- ٤٠ - محمد (الخامس) بن يوسف بن الحسن .
- ٤١ - الحسن (الثاني) بن محمد (الخامس) بن يوسف - يحكم من عام ١٩٦٢م .

الأسرة العلوية الحاكمة بالمغرب

- ١ - محمد بن علي الشريف - ١٠٥٧ - ١٦٤٦ م .
- ٢ - محمد بن محمد بن علي الشريف .
- ٣ - الرشيد بن علي الشريف .
- ٤ - اسماعيل بن علي الشريف (المظفر بالله أبو النصر) .
- ٥ - أحمد بن اسماعيل (الذهبي) .
- ٦ - عبد الملك بن اسماعيل بن علي الشريف (أبو مروان) .
- ٧ - عبد الله بن اسماعيل بن علي الشريف .
- ٨ - علي بن اسماعيل بن علي الشريف .
- ٩ - محمد بن اسماعيل بن علي الشريف .
- ١٠ - المستضيء بن اسماعيل بن علي الشريف .
- ١١ - زيدان بن اسماعيل بن علي الشريف .
- ١٢ - محمد بن عبد الله بن اسماعيل بن علي .
- ١٣ - يزيد بن محمد بن عبد الله .
- ١٤ - هشام بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل .
- ١٥ - سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل .
- ١٦ - عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله .

- ١٧ - محمد بن عبد الرحمن بن هشام .
- ١٨ - الحسن بن محمد بن عبد الرحمن .
- ١٩ - عبد العزيز بن الحسن بن محمد .
- ٢٠ - عبد الحفيظ بن الحسن بن محمد .
- ٢١ - يوسف بن الحسن بن محمد .
- ٢٢ - محمد (الخامس) بن يوسف بن الحسن .
- ٢٣ - الحسن (الثاني) بن محمد (الخامس) بن يوسف .

الخاتمة

أنه يتضح من خلال منهج البحث وعناصره التي شكلت هذه الدراسة بأبوابها الثلاث وفصولها المتعددة وإسهاماتها في رسم حركة الأحداث بالمغرب خلال الحقبة الوطاسية والسعدية وظهور الاشراف العلويين، ان فكرة الدولة المغربية الاسلامية قد تعرضت للعديد من الاعتداءات والتدخلات وكيف أن فترة الاسرة الوطاسية وإن كانت قد سبقتها مقدمات في أواخر العهد المريني كانت أضعف حلقات التاريخ المغربي وكيف ان العامل القبلي والاقليمي شكل بعدا خطيرا في تفكك الوحدة المغربية وما أحدثه من عوامل التفرقة القبلية وخضوع البلاد في دوامة الصراعات الداخلية والتدخلات الخارجية من الايبيرين (البرتغال والاسبان) وكيف انتقل الصراع على الجانب المغربي واحتلال موازين القوى وضعف الجانب الاسلامي وظهور التفوق الغربي البحري والبري وظهور التنافس الاستعماري بين هذه القوى ونشاطهم في حركتهم التوسعية وكيف ظهر على الجانب المعاكس رد فعل اسلامي عاملا من اجل توحيد البلاد الاسلامية في ظل الخلافة التركية العثمانية وكيف قاد الاتراك حركة توحيد العالم الاسلامي والاندفاع بالراية الاسلامية في اوربا الشرقية وكيف أن القوى الايبيرية كانت تضرب على الوتر الحساس لاثارة النعرة الاقليمية الضيقة والجانب القبلي، لكسر قوة الوحدة الاسلامية وكيف استجاب الجانب المغربي من اجل المحافظة على كيانه الاقليمي في وجه الانطواء التركي العثماني .

وكيف أن بنى وطاس استطاعوا ازالة الاسرة الشريفة التي كانت تحكم في فاس بعد انتهاء الحكم المريني ومقتل آخر سلاطين بنى مرين السلطان عبد الحق بن أبي سعيد بن العباس وكيف كانت الدولة الوطاسية قصيرة العمر الزمني بحيث أن فترة البقاء في الحكم لم تتجاوز الثمانين عاما هجرية وكيف تقلص نفوذ هؤلاء الحكام

بحيث لم يعد لهم نفوذ ولا سيادة الا على العاصمة وبعض النواحي المحيطة وكيف أن البلاد وقعت بين فكي كماشة شرقية تجلت في الوجود التركي العثماني ورجال الجهاد الاسلامي الذين بسطوا نفوذهم في الجزائر وغربا بالسيطرة البرتغالية الاسبانية على الثغور المغربية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الاطلسي وكيف أن هذه القوى الاستعمارية ارادت السيطرة الكاملة على كل التراب المغربي وارسالها الحملات العسكرية إلى العواصم فاس ومراكش وكيف أن هذه الحملات لم تحقق أهدافها في السيطرة على الداخل المغربي فاكتفت بالسيطرة على القلاع والحصون إلى اقامتها على الساحل بعد أن ثبت فشلها في التوغل للداخل .

وكيف أن ذلك الانهيار العسكري وضعف القوة الحربية الوطاسية وما تجلّى من انحياز بعض افراد الاسرة الوطاسية وتعاونهم مع القوى الاستعمارية كان الدافع القوى والحرك الاساسي لكي تلعب الطرق الصوفية دورها في قيادة حركة الجهاد الاسلامي ومحاولة الوقوف بالقوة والحزم والجهاد في وجه المعتدين الذين دنسوا تراب الوطن المغربي الطاهر وكيف ان زعماء هذه الطرق الصوفية لاسيما الطريقة الجزولية الشاذلية استطاعت ان تعبئ الجماهير والشعب المغربي حول الهدف الاسمي المستمد من كتاب الله الكريم وسنة خير المرسلين في ضرورة رفع - راية الجهاد الاسلامي فوق رأس الجموع المحتشدة في الزوايا والاربطة والقبائل لتكوين وحدة مغربية تستطيع ان تحقق الهدف الاسمي من وراء هذه الحشود المؤمنة بحققها في تحرير بلادها فكان ان رفعت راية الجهاد الاسلامي إلى أسرة عريقة عرفت بالانتساب إلى السلالة النبوية الشريفة وانتماؤها إلى الدوحة الزكية المعطرة واهلها هذه الشرافة لكي تقود هذه الجموع من أجل تحرير الثغور الاسلامية التي كانت ترفع عليها راية الصليب وما يمثله ذلك من تحدٍ صارخ لمشارع المسلمين الذين كانوا ربما ينظرون للتعامل التجاري مع هذه المراكز

الاستعمارية الساحلية فكان أن تعلق الآمال في إقليم السوس الجنوبي بالمغرب من نارودانت ودرعه على من أهله جميع المواصفات لكي يرفع يديه الشريفتين راية الجهاد وعقدت الآمال على سليل الأسرة السعدية الشريفة التي ترتدى عباءة الشرافة الشرقية وقبلت أن تقود البلاد إلى حركة التحرير والتطهير من كل رجس ودنس صليبي فكان محمد القائم بأمر الله السعدى هو حامل راية الجهاد .

وهكذا القيت مسؤولية تحرير الاراضى المغربية المحتلة ورفع راية الجهاد الاسلامى على الامير السعدى محمد القائم بأمر الله يعاونه ولده أحمد الاعرج ومحمد الشيخ حتى استطاعا بما لديهما من قوات عسكرية وحشود قبائلية أن يحررا جميع الثغور المغربية الواقعة فى قبضة البرتغاليين فيما عدا سبتة وطنجة ومازاكان بعد أن تم طرد البرتغاليين بحد السيف من أغادير وأسفى من جراء الثورة العارمة التى قادها الامير السعدى محمد القائم بأمر الله وابناؤه أحمد الاعرج ومحمد الشيخ وهكذا قدر للأسرة السعدية ان يعلو نجمها فى سماء المغرب وان يلتف الاهالى حول القيادة الجديدة التى رأوا فيها خلاصهم من نير الاستعمار الايبيرى ومن تهاون حكام بنى وطاس الذين عجزوا عن مقاتلة الاجانب الفرنجة بل انهم صالحوهم وعقدوا معاهدات صلح معهم ومن ثم اشتد الضغط السعدى على العواصم الكبرى فكان أن تم للامير أحمد الاعرج دخول مراكش العاصمة الثانية فى البلاد من قبل الوطاسيين ونجح فى الاستيلاء عليها وطرد الوالى الوطاسى لكن الامين احمد الوطاسى دخل فى قتال وصراع عنيف مع السعديين انتهى به الامر إلى أن تم طرده بل قتله هو وأسرته ودخل محمد الشيخ بن محمد القائم السعدى العاصمة فاس الوطاسية بعد أن كان قد استطاع أن يتخلص من الحكم الثنائى بينه وبين أخيه أحمد الاعرج وينجح فى اقصائه عن الحكم ويقوم بسجنه ومن ثم الانفراد بالحكم وعدم الاعتراف بالمعاهدات الموقعة بين الوطاسيين وبين

الامير احمد الاعرج فكان ان دخل فاس العاصمة وقضى على النفوذ الوطاسى واتخذ مراكش عاصمة للأسرة السعدية، لكن استطاع أحد رجال الحكم الوطاسى (بو حسون) أن يفر إلى تلمسان حيث السيطرة التركية العثمانية بالمغرب الاوسط واستطاع أن يستنجد بالأتراك ويطلب مساعدتهم واندفع الأتراك بقواتهم إلى المغرب الاقصى واستطاعوا الدخول إلى فاس وطرد قوات محمد الشيخ السعدى وتعيين بو حسون الوطاسى خليفة على البلاد، لكن السعدى عاد ادراجه مرة اخرى إلى فاس وطرد بقايا الوطاسيين وانتهى إلى الابد الحكم الوطاسى وتفرد بالحكم فى البلاد، بل انه اراد أن يقاتل الأتراك فى المغرب الاوسط فارسل قوات وحشودا مغربية استطاعت ان تستولى على المغرب الاوسط وان تدخل تلمسان والعديد من المدن الجزائرية، لكن الأتراك استطاعوا دحر السعديين وردهم إلى داخل المغرب الاقصى، ومن ثم خشى محمد الشيخ الخطر التركى فتحالف مع الاسبان والبرتغاليين وتنازل لهم عن بعض الموانى الساحلية لكي يحول بينه وبين الأتراك العثمانيين حيث ترك لهم ميناء باديس لكي تحتله القوات الاسبانية وبذلك يقطع تحرك الاسطول التركى العثمانى الطامع فى السيطرة على المغرب الاقصى .

لكن الأتراك وقد رأوا أن المغرب الاقصى خارج عن نطاق سيطرتهم بل ان حليفهم المغربى قد تحالف مع اعداء الاسلام ضد الوجود التركى العثمانى بل اكثر من ذلك اغلظ فى القول للسفير التركى وهدده بان المغرب سوف تقاتل العثمانيين فى مصر وان الأتراك لا يحق لهم حمل لقب الخلافة لانهم أعاجم ولا ينتمون للعرق القرشى العربى الهاشمى كما ان ذلك حق للسعديين وحدهم. وازاء ذلك فان الأتراك دبروا مؤامرة قتل محمد الشيخ وتم قتله فعلا وهو عائد من احدى المعارك عن طريق حرسه الخاص الذى كان يضم عددا من الضباط الأتراك وحملت راسه فى مخلاه إلى

القسطنطينية وعلقت على إحدى أبواب العاصمة وقد اغاظت هذه الفعلة البشعة ابنه أبا عبد الله الغالب بأمر الله عندما تولى الحكم فنكل بالضباط الأتراك الذين دبروا مؤامرة قتل والده وتم مطاردة عناصر الجيش المؤيدة للوجود التركي وأكثر من ذلك عقد محادثات صداقة وحسن جوار مع الأسبان والبرتغاليين تنازل لهم فيها عن بعض الثغور المغربية واستخدم عبد الله الغالب أقصى أنواع العنف والشدة والميل إلى سفك الدماء ضد معارضيه من أفراد البيت السعدي فكان أن هرب إخوته الثلاثة إلى الجزائر وهم عبد المالك وأحمد المنصور وعبد المؤمن وأقام الثلاثة إلى الجزائر وهم عبد المالك وأحمد المنصور وعبد المؤمن وأقاموا في تلمسان بل أن عبد المؤمن أحد الإخوة الثلاثة السعديين تولى حكم إمارة تلمسان من قبل الخليفة التركي ونزوح ابنه الوالي العثماني على الجزائر وازدادت حدة الصراع بين الأتراك العثمانيين وبين الأسبان والبرتغاليين ودمر الأتراك الأسطول الأسباني وتم طردهم نهائيا من تونس ١٥٦٠م وبالمقابل قام الأسبان بتعاون الأساطيل الأوروبية معهم بالانتصار على القوة التركية البحرية عام ١٥٧١م في معركة ليبانتو ومن ثم تبعه الانتصار الحاسم للأتراك العثمانيين على الأسبان في تونس عام ١٥٧٣م ودخل الصراع من أجل المغرب مرحلة حاسمة من النزاع بين القوى العالمية في ذلك الوقت واستفاد الغالب من كل الظروف المحيطة واستطاع أن يحفظ التوازن في العلاقات بين هذه القوى حفاظا على استقلال بلاده وعدم الخضوع للنفوذ التركي العثماني وتحتضن الخلافة التركية في إسطنبول الإخوة الثلاثة أبناء محمد الشيخ نكايه في إخيهم الغالب لارتمائهم في أحضان الأسبان وتعمل على فتح المجال أمامهم للاشتراك في الحكم والقتال في صفوف القوات التركية حيث لعب مولاي الأمير عبد المالك وأحمد المنصور دورا بارزا في معركة تونس والانتصار على القوات الأسبانية وسافرا إلى إسطنبول فقرر الخليفة العثماني مراد الثاني أن يدعم نفوذهما في المغرب وأن يبذل لهما كل عون وسانده واستجاب لطلبهما برفع رأس والدهما (محمد

الشيخ) وكانت لا تزال معلقة على إحدى أبواب العاصمة التركية وتم دفنها .

وفي تلك الظروف يموت أبو عبد الله الغالب ويتولى الحكم بعده ابنه محمد المتوكل (المسلوخ) وتثور ثائرة الأمير عبد المالك بن محمد الشيخ نظرا لاحتجته في عرش المغرب ويطلب العون التركي وتستجيب القيادة التركية في الجزائر بناء على فرمانات سلطانية ويتحرك عبد المالك إلى المغرب الأقصى تسانده قوات تركية ويستطيع أن يهزم ابن أخيه المتوكل ويستولى على مقاليد الحكم عام ١٥٧٦م لكن محمد المتوكل لم يستسلم للهزيمة فيندفع إلى الجنوب طالبا العون من القبائل المغربية لكن أحمد المنصور شقيق عبد المالك يطارده في كل الأراضى والأقاليم التي يلجأ إليها حتى اضطره إلى الهرب شمالا وكان أحمد المنصور يتولى حكم فاس في ذلك الوقت وتوضع تحت يديه قوات حربية قوية مجهزة بأحسن الأسلحة ويحاول محمد المتوكل (المسلوخ) أن يستنجد بملك إسبانيا لكن الملك الأسباني فيليب الثاني كان

مشغولا بصراعه في الأراضى المنخفضة (هولندا) والكشوف الجغرافية الجديدة في العالم الجديد ولم يكن لديه أدنى قوة يستطيع أن يقدمها له. فصرف النظر عنه وولى وجهته نحو البرتغال وكانت البرتغال في ذلك الوقت تحت قيادة يقودها شاب هو (دون سباستيان) لم يتجاوز من العمر السادسة والعشرين عاما يحلم بالعظمة المسيحية وتربية الجزويت والحماس الصليبي والمشاعر المعادية للإسلام ومطالعته المشوهة عن الصراع الإسلامي الصليبي على أرض الاندلس وما يسمع به عن مجتمع الاندلسيين (المورسكين) المضطهدين في غرناطة وهو الذي كانت لديه أفكار خيالية وأخلاقيات مثالية تهفو إلى نشر التعاليم المسيحية الجزويتية في كل العالم والعمل على نشر العقيدة الكاثوليكية في أرجاء واسعة من الكرة الأرضية وكان الهجوم عنده خير وسيلة للدفاع في فكرة التربية العسكرية التي تربي عليها وأنه كان صاحب رأى صلب عنيد

تشرب بدورس اللاهوت على ايدى اساتذته وهو ان حل مشكلات البرتغال المتردية لا يكون الا بالعبور إلى الاراضى الاسلامية المغربية وخوض الحرب المقدسة ضد المسلمين الكفار (هكذا يصور العالم المسيحي المسلمين بالكفار فى العصور الوسطى) (انظر حرب الخليج - محمد حسنين هيكل - اصدار جريدة الاهرام ابريل ١٩٩٢) وما زالت فكرة الصليبية والمسيح والعذراء مسيطرة على فكر القادة العسكريين).

وتلقف دون سباستيان طلب العون من الامير المخلوع بالارادة الشعبية محمد المتوكل بن عبد الله الغالب وكانها الفرصة الاخيرة لكي يحقق احلامه واهدافه البعيدة التى كان يسعى اليها لنقل الحرب المقدسة (من وجهة نظر الاوربيين) إلى الجانب العربى وليأخذ من طلب المتوكل ذريعة لاحتلال كل الاراضى المغربية وقرر حشد القوات البرتغالية وطلب العون والمساندة بالقوات البحرية والبرية والعدة والعتاد والذخيرة والمؤن والسلاح من خاله ملك اسبانيا وكذلك قدمت اليه قوات أوربية من كل الدول الاوربية انجلترا فرنسا، هولندا، المانيا، النمسا، الدنمرك، قوات ايطالية من المدن الايطالية، قوات البابوية التى تدفعها بركة البابا وتدعو لها وهى رافعة الصليب بالنصر والانتصار وتندفع الحشود البرتغالية إلى المغرب مدعومة بقوات اوربا والتى وصل عددها إلى اكثر من اربعين الف مقاتل تحملها اكثر من ثلاثمائة سفينة بعد ان كان دون سباستيان قد قام بنفسه بزيارة خاطفة إلى ميناء سبتة وطنجة فى نوفمبر عام ١٥٧٨م وقبل العبور الكبير باربعة شهور وفى نهاية يونيو ١٥٧٨م غادرت الحملة العاصمة البرتغالية لشبونة بعدتها وعتادها واستطاعت الحملة ان تعبر مضيق جبل طارق وان تصل إلى الساحل المغربى وفى ١٢ يوليو نزلت بميناء اصيلا، وفى ٢٥ يوليو ١٥٧٨م تعرضت الحملة لمتاعب كثيرة وفى ٢٢ يوليو تحركت الحملة من اصيلا فى اتجاه الداخل واقتربت الحملة بمسافة ١٢ كيلو متر من مدينة القصر الكبير بالقرب من

وادي المخازن وكانت اوربا كلها تحبس انفاسها فى انتظار نتائج هذه الحملة وما تسفر عنه من نتائج .

وعلى الجانب المغربى كانت قوة الايمان وروح الجهاد والاستشهاد والحشد والاعداد وحسن التخطيط والتعبئة والطريقة التى تحرك بها عبد المالك بن محمد الشيخ وكيفية ادارة الصراع والاستفادة من الظروف الطبيعية المحيطة وكيفية استشارة الملك الشاب البرتغالى ودفعه للتقدم للداخل بعد أن سبه وفحش له فى القول لكي يندفع وفعلا نجحت خطة عبد المالك فى استشارة حفيظة الملك البرتغالى ونزل على وادي المخازن على مقربة من القصر وفى صبيحة يوم الاثنين ٤ اغسطس ١٥٧٨م (٣٠ جمادى الاولى ٩٨٦هـ) كانت المعركة الفاصلة بين القوى المتصارعة واحق الله كلمته ونصر عبده الشريف عبد الملك بن محمد الشيخ فى معركة فاصلة تعتبر صفحة مضيئة فى تاريخ المغرب أبد الدهر واندحرت قوات العدو بالكامل وفى ذلك يؤكد Bovill فى كتابه Bovill, E.W. The golden trade of the Moors الذى ترجمه زاهر رياض تحت عنوان (الممالك الاسلامية فى غرب افريقيا واثرها فى تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ص ١٧٤: لقد أبيدت القوة البرتغالية والاوربية جميعها التى بلغت قوامها اربعين الف رجل ولم ينج من الموت او الاسر الا اقل من مائة رجل ولكن لم يكن هذا كل شئ فى نكبة البرتغال فقد اكسبت المعركة المغرب صيتا واسعا فى العالمين الاسلامى والمسيحى فاق كل ما تمتعوا به من قبل بل لم يبلغوه من بعد).

وقتل فى هذه المعركة الملوك الثلاثة عبد المالك بن محمد الشيخ، ومحمد المتوكل بن الغالب، دون سباستيان ملك البرتغال واستفاد وجنى ثمار هذا النصر الواسع الخليفة أحمد المنصور السعدى الذى حكم ستة وعشرين عاما كانت أزهى عصور المغرب وفترة قوتها وسيادتها ولعبها دورا بارزا فى المجال العالمى وخطبت ودها جميع

الدول واقامت علاقات مع شتى الدول الاوربية ولعبت ادوارا هامة فى شأن العمل على تحرير الاندلس وعودة الاندلسيين إلى ديارهم لكن التوازن الدولى لم يحقق له اهدافه ولم يستطع أن يتعاون مع تركيا إلى المدى البعيد من أجل العمل سويا لاعادة الاسلام إلى ارض الاسلام فى الاندلس ولكن عهده شهد انتهاء الاطماع العثمانية فى المغرب الأقصى وتسليم الباب العالى بالامر الواقع والاعتراف بسيادة المغرب على أرضه ثم كانت فكرة التوسع جنوب الصحراء الكبرى وتكوين خلافة سعدية واسعة وضم بلاد سنغاي والحيلولة دون وصول البرتغاليين والاسبان إلى الاراضى الاسلامية فى بلاد السودان الغربى والوقوف ضد الزحف التركى والاوروبى فكانت فكرة الغزو المغربى لبلاد السودان الغربى عام ١٥٩١م وتحقيق حلم المغرب فى اقامة خلافة سعدية واسعة الارحاء عادت بالوحدة الاسلامية إلى سابق قوتها وتمت روح التضامن الاسلامى والاخاء وحق الاخوة الاسلامية وساعدت على تقدم بلاد السودان الغربى وانتشار الحضارة الاسلامية والمعارف والثقافة والقيم والتقاليد والعادات العربية الاسلامية الاصيلية على نطاق واسع وتحقق الثراء والثروة للمنصور وصار يعرف باسم المنصور الذهبى ورفع راية الاسلام فى هذه الاراضى وانتشر الاسلام بين الوثنيين وأصبحت جامعة سانكرى فى تمبكتو كعبة الطلاب والعلماء ورجال الفقه والدين يفد إليها الطلاب فى عهد حكم باشاوات المغرب من كل انحاء دول افريقيا وصولا إلى السودان الشرقى والحبشة ووسط افريقيا ووصولا إلى المحيط الاطلسى وانتشر الاسلام على نطاق واسع بين القبائل الوثنية وانطوى الجميع تحت لواء الاسلام ودام الحكم المغربى السعدى فى هذه البلاد فترة تزيد عن مائة وستين عاما بدأ من ١٥٩١ إلى ١٧٦٠م تاريخ سقوط هذه الديار فى أيدي القوى الاوربية التى وجدت فى عدم اهتمام القيادة العلوية وانشغالها بالمشاكل الداخلية فرصة للانقضاض على ديار الاسلام لتضمها إلى الاملاك الاستعمارية .

وهكذا تعتبر فترة حكم احمد المنصور السعدى أزهى عصور الدولة السعدية بل هى عصر القوة والسيادة ولكن الظروف العالمية والتوجس خيفة من الاتراك العثمانيين جعلت المنصور السعدى لاينفع بقواته إلى أوروبا ليحرر الاندلس او على الاقل ليطالب بفك أسر المدن المغربية المحتلة (تحريرها) مقابل اطلاقه سراح اسرى معركة القصر الكبير لكن قوة الدولة لم تكن لتدوم على حال فيموت المنصور السعدى عام ١٦٠٣م وتدخل البلاد فى دوامة صراعات الاسرة بين افراد البيت السعدى الواحد زيدان بن المنصور واخويه المامون (محمد الشيخ وأبى فارس وقتال طويل وصراع يستنزف موارد الدولة وبمنعها من ان تولى نظرها إلى ما يحيط بها من اخطار وتنازلات اقليمية فى الديار المغربية للقوى الخارجية واطماع اسبانية فى الاراضى والديار واحلام فى عودة السيطرة على كل البلاد وانقسام البلاد إلى الاقاليم ومحليات وامارات كل منها يقاتل الآخر من أجل التوسع على حساب الطرف الآخر والخليفة السعدى حبيس مراكش وحصونها ولم يعد له من الحكم الا الاسم والتكالب على المصالح الاقتصادية المغربية واستنزاف الموارد الطبيعية والصناعات المغربية الراقية لاسيما فى صناعة السكر وينفرد زيدان بن المنصور بالحكم لكنه يموت عام ١٦٣٢م بعد صراع طويل مع اخويه ويحدث نفس الصراع بين ابنائه وتنقطع اوصال الدولة ويستبد العرب الشبانات بالحكم وينهوا عصر الاسرة السعدية مع ابن اختهم أبى العباس احمد آخر سلاطين الاسرة عام ١٠٦٩هـ - ١٦٥٨م. ويستمر حكمهم ست سنوات حتى تتقدم الاسرة العلوية الشريفة لتسقط حكم الشبانات عام ١٠٧٥هـ / ١٦٦٤م وبذلك تدخل البلاد عصرا جديدا لازالت تحت قيادته حتى وقتنا الحالى (١٩٩٢م) نظرا لما تتمتع به القيادة العلوية الشريفة من رؤية صائبة وقدرة بصيرة على ادارة دفة الامور وعمل متواصل لما فيه مصلحة الشعب المغربى الذى يكن كل تقدير وحب للاسرة العلوية القرشية الهاشمية الشريفة ذات النسب الحسنى العلوى الشريف: وبهذا تكون قد طويت صفحات هذه الموسوعة باحسن

فاتحة نكما بدأت بزحف صحابة رسول الله ﷺ صحبه عمرو بن العاص عام ٢٣هـ / ٦٤٣م لكي نطأ الاراضى المغربية فى اقليم برقه فاتحة الديار المغربية تنتهى الموسوعة بخير خاتم واحسن الفصول وهو ظهور الاسرة العلوية الشريفة كاسرة حاكمة للمغرب العربى منذ عام ١٠٧٥ - ١٤١٢هـ / ١٦٦٤ - ١٩٩٢م .

الله العلى القدير نسال أن يكون هذا العمل العلمى المتواضع خالصا لوجهه ومتجردا من كل هوى واغراض نفسية ذلك لان الذين اختاروا النهج العلمى وبعثوا عن أهواء المصالح والمكاسب والمناصب يكون العلم تاجا فوق رؤوسهم وهامة تعلو فوق الهامات مهما بعدت المراحل والمسافات .

والله من وراء القصد .

المصادر والمراجع

(أ) المصادر :

- ١ - ابن أبى زرع : الانيس المطرب بيروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . فاس ١٨٤٢م .
- ٢ - ابن غدارى المراكشى : البيان المغرب فى اخبار بلاد المغرب . القاهرة ١٩٥٠م .
- ٣ - ابن صواد تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان ، نشره هوادس ، باريس ، ١٩٥١ .
- ٤ - الجزنائى : زهرة الاس فى بناء مدينة فاس . تلمسان ، ١٩٢٣م .
- ٥ - التمبكتنى : احمد فيل : قبل الابتهاج بتطريز الديباج ، القاهرة ، ١٣٢٩هـ .
- ٦ - التمبكتنى : محمود كعت : تاريخ الفتاش فى اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس ، نشره هوادس ، باريس ، ١٩١٣م .
- ٧ - الدباغ : معالم الايمان فى معرفة اهل القيروان ، تونس ، ١٣٢٠هـ .
- ٨ - السعدى : تاريخ السودان ، نشره هوادس ، ١٨٩٨م .
- ٩ - السلاوى : الاستقصا فى اخبار المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٥م .
- ١٠ - العيدروس محى الدين عبد الله : النور السافر عن اخبار القرن العاشر ، بغداد ، ١٣٢٣هـ .
- ١١ - القادري : محمد بن الطيب الحسنى ، نشر المثنى . الرباط . د.ت .

- ١٢ - القادري : محمد بن الطيب الحسنى : النقاط الدرر واستعداد المواعظ والعبر عن اخبار المائة الحادية عشرة والثانية عشرة. مخطوط. مصور معهد المخطوطات جامعة الدول العربية رقم ١٣١٨ تاريخ .
- ١٣ - القشتالي : ابو فارس عبد العزيز : مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا مخطوط مصور، مكتبة جامعة عين شمس رقم ٤٩٤ رسائل .
- ١٤ - المالكي : رياض النفوس، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥١ م .
- ١٥ - المقرئ : احمد بن محمد : فتح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب. القاهرة ١٩٤٩ م .
- ١٦ - مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية. تحقيق كولان الرباط. ١٩٣٤ م .
- ١٧ - محمد المهدي الفاسي، ممتع الاسماع فى ذكر الجزولى والتباع. فاس، ١٨٩٥ م .
- ١٨ - البقراني : محمد الصغير : نزهة الحادى فى ذكر ملوك القرن الحادى عشر، فاس، ١٣٠٧ هـ .
- ١٩ - ابن عساكر، ابو عبد الله عمر: دوحة الناشر ، تحقيق محمد حجر : الرباط، ١٩٧٦ م .
- ٢٠ - مؤلف مجهول : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، ، تحقيق محمد ابن أبى شبيب، الجزائر، ١٩٢٠ م .
- ٢١ - ابن العربى، الفاسى محمد : مرآة المحاسن فى اخبار الشيخ أبى المحاسن. الرباط. د.ت .

- ٢٢ - ابن القاضى : المنتقى المنصور على تأثير مولاي الخليفة المنصور. الرباط. د.ت .
 - ٢٣ - ابن القاضى : درة الحجال فى تخريز اسماء الرجال تحقيق علوشى. الرباط، ١٩٣٤ .
 - ٢٤ - الحسن الوزان، ليو الافريقى: وصف افريقيا. ترجمة عبد الرحمن حميد. الرياض، ١٣٩٩ هـ .
 - ٢٥ - ابن خلدون : عبد الرحمن: المقدمة، طبعة بيروت، ١٩٧٨ .
- (ب) المراجع :
- ٢٦ - ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ. الدار البيضاء، ١٩٧٨ م .
 - ٢٧ - جلال يحيى : المغرب الكبير وهجوم الاستعمار : الاسكندرية، ١٩٦٦ م .
 - ٢٨ - حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا، القاهرة ١٩٥٨ م .
 - ٢٩ - حسن صبحى : التنافس الاستعماري الاوربي فى المغرب، الاسكندرية ١٩٦٦ م .
 - ٣٠ - ابراهيم شحاته حسن : وقعة وادى المخازن فى تاريخ المغرب، الدرا البيضاء، ١٩٧٩ .
 - ٣١ - حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس. القاهرة، ١٩٨٠ م .
 - ٣٢ - زاهر رياض : شمال افريقية فى العصور الوسطى. القاهرة، ١٩٨١ م .
 - ٣٣ - زاهر رياض : استعمار افريقية: القاهرة ، ١٩٦٥ م .

- ٣٤ - يوفان : الممالك الاسلامية وتجارة الذهب في غرب افريقيا. ترجمة : زاهر رياض. القاهرة، ١٩٦٨ م .
- ٣٥ - ارنولد، توماس الدعوة إلى الاسلام. ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون، القاهرة، ١٩٧٠ م .
- ٣٦ - روم، لاند: المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زياده، بيروت، ١٩٤٣ م .
- ٣٧ - أحمد صفر : مدينة المغرب في التاريخ. تونس، ١٩٥٩ م .
- ٣٨ - عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية، الدرا البيضاء، ١٩٥٨ م .
- ٣٩ - عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب. الرباط، د.ت .
- ٤٠ - عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية : الدار البيضاء، ١٩٧٧ م .
- ٤١ - عبد العزيز بن عبد الله : تطور الفكر واللغة في المغرب، القاهرة، ١٩٦٩ م .
- ٤٢ - عبد الله كنون : رسائل سعدية، تطوان، د.ت .
- ٤٣ - عبد الله الروي : تاريخ المغرب، ترجمة ذوقان فرقوط. بيروت، ١٩٧٧ م .
- ٤٤ - صلاح العقاد : المغرب في بداية العصر الحديث، القاهرة، ١٩٦٢ م .
- ٤٥ - عبد القادر زيادي : مملكة سنغاي في عهد الاسفين. الجزائر، ١٩٦٧ م .
- ٤٦ - نعيم قداح : افريقية الغربية في ظل الاسلام، الجزائر، ١٩٧٥ م .

- ٤٧ - محمد احمد الغربى : موريتانيا ومشاكل المغرب الافريقية، الرباط، ١٩٦٣ م .
- ٤٨ - محمد احمد الغربى : بداية الحكم المغربى في السودان الغربى. بغداد، ١٩٨٢ م .
- ٤٩ - محمد صبحى : الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين : الرباط، ١٩٧٩ م .
- ٥٠ - نقولا زياده : المغرب والسودان في ايام المنصور الذهبي : بيروت ، ١٩٦٧ م .
- ٥١ - يسرى الجوهري : افريقية الاسلامية : القاهرة، ١٩٨٠ م .
- (ج) الرسائل الجامعية :
- ٥٢ - زين العابدين السراج : دولة كاتم الاسلامية، ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٧٥ م .
- ٥٣ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة برنو الاسلامية، ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٧٥ م .
- ٥٤ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاي الاسلامية، دكتوراه، ١٩٨٣ م .
- ٥٥ - عبد الكريم كريم : عصر المولى احمد المنصور، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، ١٩٦٩ م .
- ٥٦ - عسر عسران احمد طه : دولة الاشراف السعديين ، ماجستير ، دار

- 12- Diop, Anta.: L'Afrique Nioire Precolon lale. Paris, 1952.
- 13- Paniel, G.: La conquete du soudan Par Moulay Ahmed al Mansour. Paris, 1953 .
- 14- Kirkpatrick. A.: The spanish Conquitadores. London, 1947.
- 15- Halail, I.: The ottoman empire. London, 1957 .
- 16- Alexander, P.: InBarbery. New York, 1926.
- 17- Perre, P.: The truth aboul Marracca. New York, 1953.
- 18- Harris, Walter.: France and Spain and the Rib. London, 1927 .
- 19- Berth.: Histiore du Marco. Casablanca, 1939 .
- 20- Cherbanneau: Les Liffelcture arab au Soudan. Algerie, 1931 .

العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨١ م .

٥٧ - محمد عيسى صابر : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة المرينين بالمغرب، دكتوراه، دار العلوم، ١٩٧٩ .

٥٨ - نبيلة محمد حسن : الانتشار الاسلامى فى السودان الغربى . ماجستير، آداب الاسكندرية، ١٩٧١ م .

(د) المراجع الاجنبية :

- 1- Atkinon, W.: History of spain and portugal. London, 1970 .
- 2- Abdellah, t'oroui : Histore du Maghreb. Paris, 1970 .
- 3- Braudel, F.: Les Espagnol en Afrique du Nord. Paris, 1928 .
- 4- Bonnier, g.: L'accupation de Tounboucton. Paris, 1929 .
- 5- Jaoques, C.: La petite histiore du Maroc, Casablanca. 1953 .
- 6- Degrammont, H.: Histiored' A'alger sous la domination Turque. Paris, 1887 .
- 7- Ranke, L.: The ottoman and the spanish emperes. London, 1920 .
- 8- Massignon, L.: La Maroc dans les L'annees du lisiecte. Alegr. 1906.
- 9- Richard, F.: Etud sur histiore des portugie au Moiroc. 1955.
- 10- Hume, M.: Spain its greetness and decay. London, 1918.
- 11- Julein, A.: L'Histiore de' Afirque de Nord. Paris, 1952 .

الفهرس

الصفحة

٥

الاهداء

٧

التمهيد

٩

المقدمة

١٤

الباب الأول : نهاية بنى مرين وظهور بنى وطاس

٢١

الفصل الأول : بنى وطاسى على مسرح الاحداث بالمغرب الاقصى

٢٩

أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسى الشهير بالبرتغالى

٣٦

أبو العباس أحمد بن أبى عبد الله بن محمد بن الشيخ

٥٠

الامير أبو حسون بن محمد الشيخ الوطاسى

٥٥

الفصل الثانى : الاتراك العثمانيون ببلاد المغرب

٦٧

السيادة التركية العثمانية المباشرة للمغرب

٧٤

الفصل الثالث : الاستعمار الايبيرى (البرتغالى - الاسبانى)

٧٤

وموقف بنى وطاس

٩٣

الفصل الرابع : الطرق الصوفية ودورها فى اذكاء روح الجهاد

١٠٢

الفصل الخامس : نظرة أخيرة على الاسرة الوطاسية

١٠٩

حكاه الاسرة الوطاسية

صفحة

الباب الثانى : الاشراف السعديون ومسرح الاحداث بالمغرب الاقصى ١١٠

الفصل الأول : الدولة السعدية بعد مؤسسها محمد القائم بأمر الله ١٢٢

(أ) الامير أبو العباس أحمد الاعرج ١٢٢

(ب) أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي ١٢٩

(ج) عبد الله بن محمد الشيخ بن محمد القائم

بأمر الله السعدى ١٣٩

(د) الأمير الرابع محمد المتوكل بن عبد الله الغالب

ابن محمد الشيخ السعدى ١٥٧

الفصل الثانى : أمير المؤمنين عبد المالك بن محمد الشيخ بن

القائم بأمر الله السعدى ١٦٥

الفصل الثالث : معركة القصر الكبير (وادي المخازن أو الملوك الثلاث) ١٧٣

الفصل الرابع : أحمد منصور الذهبى والدولة السعدية ١٩١

الفصل الخامس : أحمد المنصور الذهبى وفتح بلاد السودان الغربى ٢٠٧

مآثر الدور المغربى فى بلاد السودان ٢٣٣

الفصل السادس : الدولة السعدية بعد أحمد المنصور الذهبى ٢٤١

ال خليفة زيدان بن أحمد المنصور ٢٤٤

صفحة

- ٢٥٢ الدولة السعدية بعد زيدان بن المنصور
- ٢٥٨ الفصل السابع : أحوال المغرب في عهد الاشراف السعديين
- ٢٧٠ الجيش والاسطول والشرطة
- ٢٨٢ المآثر الحضارية والثقافية
- ٢٩٦ الفصل الثامن : السعديون وعلاقاتهم مع القوى المعاصرة
- ٢٩٩ أبعاد العلاقة السعدية التركية العثمانية
- ٣١٢ السعديون وعلاقاتهم مع إنجلترا
- ٣٢٢ السعديون والعلاقات البرتغالية
- ٣٢٩ السعديون والعلاقات مع الاسبان
- ٣٣٩ أبعاد العلاقة السعدية الفرنسية الهولندية
- ٣٤٤ الفصل التاسع : انهيار الدولة السعدية وسقوطها
- ٣٤٩ الأسرة السعدية
- ٣٥١ الباب الثالث : الاشراف العلويون حكام المغرب حتى الان
- الحسب النسبى لجلالة الملك الحسن الثانى نسل السلالة
- ٣٦١ القرشية الهاشمية فرع الشجرة الزكية والدوحة النبوية العلوية

صفحة

- ٣٦٤ الاسرة العلوية الحاكمة بالمغرب
- ٣٦٦ الخاتمة
- ٣٧٧ المصادر والمراجع

تم بحمد الله

هذه الدراسة عن المغرب العربي نقدمها للقارئ العربي والمسلم ولكل الذين يهتمون بالتاريخ الإسلامي تتناول حقبة تاريخية على امتداد ١٤٠٠ سنة وصل فيها المد الإسلامي أبعاداً واسعة حتى يمكن القول أن الإسلام استطاع أن يكون قارة إسلامية شملت أجزاء متجاورة من آسيا وأفريقيا وأوروبا . وعلى هذا تكون هذه الدراسة عن جزء عزيز من عالمنا العربي والإسلامي والذي لعب دوراً في إثراء الحركة العربية الإسلامية حتى وقع على تلك الكتلة من القارة الإسلامية دور كبير في نشر الإسلام والعروبة في أرجاء واسعة من القارة الإفريقية لا سيما تلك الأقاليم التي تقع إلى الجنوب من المغرب العربي وكذلك في أوروبا حيث الأندلس وما جاورها من أقاليم .

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مذبول

6 Talat Harb SQ. Tel. : 756421

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٧٥٦٤٢١